نساء صغيرات

١

لويزا ألكوت

نساء صغيرات

تأليف
لويزا م. الكوت

ترجمة
أمينة السعيد

الجزء الأول

الطبعة الثانية

الناشر
مؤسسة سجل العرب
٢٦ شارع شريف - القاهرة
تليفون : ٢٤٨٢٩٩ / ٢٤٨٣٠٩

١٩٨٦

مقـــدمة

بقلم : الدكتور خليل صابات

ولدت لويزا م ألكوت فى ٢٩ نوفمبر ١٨٣٢ فى مدينة جيزمان تاون بالقرب من فيلادلفيا وتوفيت فى بوستن فى ٦ مارس ١٨٨٨ • من المؤلفات الأمريكيات المعروفات • اشتهرت بكتبها للأطفال ، ومنها نساء صغيرات » • قضت معظم حياتها بين مدينة كونكورد ومدينة بوستن • وقد تعرفت منذ الصغر على كل من رالف والدو امرســون وهنرى ديفيد تورو • وكان جــارها • نتانيال هاوثورن • استمعت منذ حداثة عهــدها الى كل من مارجريت فولر وأوليفر ونذل هولمز ووليم الزى شنبخ وهنرى جيمس الكبير وغيرهم من العلماء والمفكرين •

أدركت لويزا مبكرا أن عمل والدها ــ أموس برونسون ألوكت ــ الفيلسوف والمربى لا يكفى لاعالة زوجة وأربع بنــات ، لذا أضطرت الى العمل مبكرا فى حياكة ثياب الدمى لتقوم بنفقاتها • التحقت لفترة قصيرة بمدرسة لتعليم الحياكة واشتغلت بعض الوقت فى الأعمــال المنزليــة • وانتهى بهــا الأمــر الى احتراف الكتــابة ، فأخــذت تؤلــف القصص والروايات •• كان أول كتلب لهــا مجمــوعة من قصص الجن بعنــوان « أساطير الزهور » : كتبتها ، وهى فى السادسة عشرة من عمرها ونشرت عام ١٨٥٤ • وكانت لويزا قد حكت هذه القصـص فى الأصل لألين ابنـــة امرسون أستاذها •

كانت هذه الكاتبة شديدة الحماس لمبدأ الغاء الاسترقاق فى الولايات المتحدة الأمريكية : لذا نراها تتطوع كممرضة حين بدأت الحرب الأهليـــة

بين الشمال والجنوب • وأصيبت بعدوى مرض التيفود بسبب سوء الظروف الصحية فى المستشفى التى كانت تخدم فيها ، فأعيدت الى بيتها •• إلا أنها لم تسترد كامل صحتها بعد ابلالها من المرض •

وفى عام ١٨٦٣ نشرت كتابها « مشاهد من مستشفى » ، وقد حوى مجموعة من الرسائل التى كتبتها حين كانت تعنى بمرضى الحرب • وأخذت قصصها تظهر فى مجلة « أتلانتيك مانثلى » • ولما طلب اليها أن تكتب كتابا للفتيات رفضت فى البداية ، ولكنها اضطرت آخر الأمر الى العدول عن هذا الرفض لتلبى احتياجات أسرتها الملحة •• وهكذا صدرت « نساء صغيرات » ، سيرتها الذاتية واللوحة التى عكست سحر الحياة الأمريكية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر • وقد نشرت فى عامى ١٨٦٨ و ١٨٦٩ وحققت نجاحا كبيرا • وتعتبر هذه القصة من خير ما كتب للفتيات •

وفى عام ١٨٦٩ كتبت لويزا فى مذكراتها : « لقد سددت كل ما علىّ من ديون •• فحمدا لله •• والآن أعتقد أننى أستطيع أن أموت بسلام » •

وصدرت بعد « نساء صغيرات » كتب أخرى أودعتها مؤلفتها تجاربها المبكرة ، ففى عام ١٨٧٠ ظهرت « فتاة من الطراز القديم » ، وبين عامى ١٨٧٢ و ١٨٨٢ ظهرت « سلة العمة جو » فى ستة مجلدات • وصدر عام ١٨٧١ « رجال صغار » ، وأخيرا « أبناء العمة جو » عام ١٨٨٦ ••

كما كتبت لويزا ألكوت قصصا طويلة جادة ، ففى ١٨٦٤ ظهرت لها قصة « أمزجة » الأثيرة الى قلبها وقصة « العمل » فى ١٨٧٣

و « مفيستو فيلبس الحديث » التي صدرت في ١٨٧٧ ، وثلاثتها أقل نجاحا من سائر ما كتبته هذه المؤلفة الأمريكية ، فقد كتبت معظمها بسرعة وحين كانت لويزا معتلة الصحة .

وفي أواخر حياتها ، وعلى الرغم من تخلصها من أعبائها المالية ، فقد أحزنها وفاة أختها اليزابث (بث في قصة فتيات صغيرات) ثم والدتها واختها الصغرى مى التي تركت لها ابنة صغيرة لتعنى بتربيتها .

وقررت لويزا ، في هذا الجو الحزين ، أن تنشد الهدوء والراحة في بيت طبيبتها رودا لورنس حيث توفيت بالغة من العمر ست وخمسين سنة .

د . خليل صابات

أمينـــة السعيد

ــ ولدت بالقاهرة سنة ١٩١٤ •

ــ تخرجت فى قسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٣٥ •

ــ عملت محـــررة للصفحة النســـائية الأسبوعية بجريدة « كوكب الشرق » اليومية لبضع شهور من عـــام ١٩٣٤ ، وكانت لاتزال طالبة فى الجامعـــة •

ــ تركت جريدة « كوكب الشرق » لتعمل فى مجلة « آخر ســـاعة » لصاحبها ورئيس تحريرها محمد التابعى •

ــ انتقلت بعد ذلك الى دار الهلال حيث رأت مجلة « المصور » أن تخصص صفحة نسائية أسبوعية أسندت تحريرها اليها •

ــ تولت رئاسة تحرير مجلة « حواء الجديدة » منذ أول صدورها ــ وكانت شـــهرية ــ وذلك فى ١٤ يناير ١٩٥٥ • واستمرت فى هذا المنصب بعد أن تحولت هذه المجلة الى أسبوعية •

ــ انتخبت وكيلة لنقابة الصحفيين سنة ١٩٥٩ •

ــ أصبحت عضوا فى مجلس ادارة دار الهلال سنة ١٩٦٢ •

ــ تم تعيينها رئيسة لمجلس ادارة دار الهـــلال فى ٢٩ مارس ســـنة ١٩٧٦ وبذا أصبحت أول سيدة تتولى منصب رئيس مجلس ادارة مؤسسة صحفية •

— تكتب اليوم فى « المصور » وفى « الشرقية » .

— وهى الآن عضو فى مجلس الشورى وفى المجلس الأعلى للصحافة وفى المجالس القومية المتخصصة ، شعبة الإعلام .

— عرفت منذ شبابها بالدفاع عن حقوق المرأة وبصراحتها وشجاعتها وبأسلوبها السهل الممتنع .

الفصــل الأول

لعبــة الحجــاج

كان عيد الميلاد قــد قرب ، ولــم يبق على الاحتفال به غــير ليلة واحدة ، ولم يكن فى شواهد الأمور ما يدل على أنه سيكون عيدا ممتعا ، فاجتمع الأخوات الأربع حول الموقد يصطلين بنيرانه فى وجوم •

قالت جو ، وهى مستلقية على البساط :

ــ لن يكون العيد عيدا بمعناه الصحيح ما لم تأتنا فيــه الهــدايا كالمعتــاد •

قالت ميج ، وهى ترمق ثوبها العتيق بحسرة :

ــ ما أقسى الفقر !

وقالت آمى الصغيرة بصوت عامر بالألم :

ــ ليس من العدل أن ينال بعض الفتيات كثيرا ، ولا ينال غــيرهن شيئا على الاطلاق •

أجابت بث وفى صوتها آيات الرضا :

ــ ولكننا نحظى بأمنــا وأبينا ، وكــذلك نحظى ببعضنا بعضــا ، وهذه نعم جزيلة •

فأشرقت الوجوه الأربعــة التى ينعكس عليهــا لهيب الموقد ، ثــم ما لبثت أن اغتمت ثانية عندما قالت جو فى حــزن :

— وهل حقيقة نحظى بصحبة أبينا ؟ انه بعيد عنا ، ولن يعود الينا قبل وقت طويل •

ولم تقل انــه قد لا يعــود اليهن أبــدا ، وان قالتها أخــواتها فى سرائرهن : وهن يذكرن ذلك الأب العزيز الحبيب الذى تركهن الى ميدان القتــال •

وساد الصمت لحظة قصيرة ، ثم قالت ميج فى رنة جـديدة :

— ولكننا نعــرف لمــاذا ان تعطينا أمنــا هدايا فى هــذا العيد ، فسيكون الشتاء قاسيا على الناس كلهم ، وفى رأيها أنه ليس من الكياسة أن ننفق نقودنا فى متعنا ومسراتنا ، ورجالنا يقاسون الشدائد فى الحرب • اننا بعد صغيرات ، ولن نستطيع أن نساهم معهم بأدوار فعالة ، أفليس من واجبنا على الأقل أن نبذل هــذه التضحية التافهة راضيات ؟ ولكنى لست فى الحقيقة راضية بالتضحية تمام الرضا !

وهزت رأسها حزينة ، وهى تفكر فى مختلف الأشــياء الجميلة التى تريدها •

فقالت جو ، وكانت مولعة بالقراءة :

— لن يضير رجالنا أن ننفق نقودنا القليلة فى شراء ما نحب ، فليس لدى احدانا أكثر من ريال ، وهو مبلغ ضئيل لن يستفيد به الجيش اذا نزلنا له عنه • أعرف أننى لن أحصــل على هدية منكن أو من والدتى ، ولكنى أريد أن أشترى كتابا طال بى الشوق الى اقتنائه •

وقالت بث ، وقد ندت عنها تنهدة قصيرة :

— كنت أتمنى أن أشترى بنقودى كتابا جديدا فى الموسيقى •

وقالت آمى فى عزم :

ــ سوف أشترى علبة أقلام ملونة للرسم : لأننى فى أشــد الحاجة اليهــا •

قالت جو بوقار :

ــ لم تذكر والدتنا شيئا فيما يختص بنقودنا ، ولن يسرها أن نحرم أنفسنا على طول الخط ، فلقد تعبنا فى الحصول على هذه النقــود ، وكسبناها بالعرق والجهد ، وأرى أن نشترى بها ما نريد ، وبذلك تتوافر لنا بعض المتعة •

قالت ميج فى تذمر :

ــ اننا بالفعل نتعب فى الحصول عليها ، والله يعلم أنها لا تأتينــا سهلة هينة : أفلستُ أتقاضاها أجرا لتعليم أطفــال مزعجين ، علىّ أن ألازمهم طول اليوم ، ونفسى تتوق الى بعض الراحة فى البيت ؟ !

فقالت جو :

ــ عذابك لا يعدو نصف ما ألاقيــه ، فأنا أخــدم عجــوزا ثائرة المزاج ، لا تكف عن الشكوى : ولا تعطينى مهلة للراحــة ، ولا يرضيها شىء مهما كان ، وتظل طوال اليوم تزعجنى بصخبها وضجيجها حتى ليخال إلىّ أن أقفز من النافذة ، أو أعرك أذنها مؤدبة •

ونظرت بث الى يديها الخشنتين وقالت :

ــ ليس من حسن الأدب أن أشكو ، ولكنى أقوم بأشق مهمــة فى هذه الدنيا : أغسل الصحون ، وأنظف البيت : وأنظم الرياش ، انه عمل بغيض يضر بنعومة يــدى ويصلب أصابعى فلا أقوى على المــران على الموسيقى كما أحب •

فصاحت آمى تقول ،

ــ ولكن عذابى يفوق كل عــذاب ، فأنتن غــير مجبرات مثلى على الذهاب الى المدرسة مع فتيات وقحات ، يعايرننى بجهلى ، ويضحكن من ملابسى ، ويسخرون من شكل أنفى ، ويشهرن بأبى لفقره وحاجته •

وابتسمت جو ، وقالت تصحح خطأ أختها :

ــ يشهرن به ، لا يشهرن ، فليس أبى بضاعة يعلن عنها !

أجابت آمى فى كبرياء :

ــ انى أعرف ما أقول ، فوفرى عليك مشقة السفسطة ، فليس أجمل من أن نستعمل ألفاظا نحوية تحسن معانى الكلام •

قالت ميج ، وقد عادت بها الذكرى الى أيام سعيدة خلت :

ــ اتركن الشجار أيتها الصغيرات ، فما منه فائدة ، وحدثينى يا جو : ألا نتمنين أن يسترد أبى ثروته التى فقدها ، لنهنأ ونسعد وتزول متاعبنا كلهــا ؟

قالت بث :

ــ أما قلت يوما اننا أسعد حالا من أولاد الملوك ، لأنهم يتخاصمون ويتشاتمون بالرغم من ثرائهم الطائل وجاههم العريض ؟

أجابت ميج :

ــ نعم قلت ذلك ، وما زلت أعتقد أننا أحسن حالا منهم ، فنحــن نعيش فى جــو سعيد ، واذا كنا نكد ونكدح فى طلب العيش ، فنحن الى جانب ذلك « شلة » مرحة على حد تعبير جو •

فاستاءت آمى لكلمة « شلة » وعز عليها أن تستعين ميج فى حديثها بألفاظ عامية ؛ فنظرت اليها عاتبة وقالت :

ــ لا يليق بك أن تقتبسى تعبيراتها ، فقد تعودت جو أن تستعمل ألفاظا دارجة فى حديثها •

وانتصبت جو من رقدتها ، ووضعت يديها فى جيبيها متحدية ، ثم بدأت تصفر بشفتيها لتغيظ أختها •

قالت لها آمى :

ــ أتصفرين أيضا كما يفعل الصبيان ؟

أجابت جو :

ــ بل أنا أصفر لأتشبه بهم !

قالت آمى :

ــ أنا أكره الفتيات الخشنات •

قالت جو :

ــ وأنا أكره الصغيرات المغرورات •

وكانت من عادة بث أن تنشر السلام بين أخوتها ؛ فجعلت تغرد كالطيور ؛ وهى تقلب سحنتها فى أشكال مضحكة ، وغرضها من ذلك أن تعيد المرح الى الجلسة •

قالت آمى فى استنكار :

ــ ان الطيور على أشكالها تقع !!

وضحك الأخوات جميعهن لكلامها ، وانتهت المشادة عند هذا الحد مؤقتا ، فقالت ميج تنصح المتخاصمتين بلهجة الأخت الكبيرة العاقلة :

ـ كلتاكما فى الحقيقة أخطأت . فأنت يا جوزفين قد كبرت على هذه الألاعيب الصبيانية . وحان الوقت لتحسنى سلوكك • لم تكن صبيانيتك تزعجنى وأنت طفلة صغيرة ، ولكنك ترعرعت طولا وعمرا ، وأصبحت تعقصين شعرك كما يفعل الشابات ، فليس أقل من أن تسلكى سلوك الشابة المهذبة •

ولما سمعت جو هذا الكلام من أختها : نزعت الشبكة الى تضم شعرها ، وهزت رأسها ، فانسدلت خصلاته البنية على كتفيها ، ثم قالت غاضبة :

ـ لا ، لست شابة كما تقولين ، واذا كان تصفيف شعرى بهذه الطريقة يجعلنى سيدة صغيرة ، فلن أتردد فى العودة الى ما مضى ، فأجدله فى ضفيرتين حتى أبلغ العشرين من عمرى • انى أكره أن أصبح آنسة وقورة أعقص شعرى وأرتدى ملابس طويلة أنيقة ، وأحب شىء الى نفسى أن ألعب مع الصبيان : وأفعل مثلما يفعلون • كفانى عذابا أن خلقت فتاة ، وكفانى ألما أن تضطرنى أنوثتى الى أن أطرز فى البيت كما لو كنت عجوزا حيزبونا ، وقلبى يتوق الى خوض ميدان القتال مع أبى جنبا الى جنب !!

وهزت جو الجورب الذى كانت تصنعه لجنود الجيش هزة عنيفة ، فتصادمت الابر المعدنية فى رنين مسموع ، وتدحرجت لفة الخيط على أرض الحجرة •

قالت بث وهى تربت على رأس أختها الغاضبة بيدها الحنون :

ــ مسكينة أنت يا جو ، كان يجب أن تولدى صبيا ، ولكن الأمــر جاء بالعكس ، ومن المحال أن تغيرى جنسك ، فخير لك أن تقنعى بالاسم الصبيانى الذى ندللك به ، واعتبرى نفسك أخا لنا نحن الفتيات !!

وعادت ميج الى نصحها السابق فقالت للغاضبة الثانية :

ــ أما أنت يا آمى فكل همك فى الحياة أن تتألقى وتتذمرى ، واذا لم تتداركى عيوبك هذه بالاصـــلاح ، فسوف يقال انك أوزة غبية تافهة • وأحـــب أن تعلمى أن أســاليبك فى معاملة الناس لا تعجبنى ، وألفاظك النحوية المفتعلة ، لا تقل قبحـــا عن التعبيرات العامية التى تكثر منهـا جـــو •

قالت بث وقد أعدت العدة لتنال نصيبها من نصح أختها الكبيرة :

ــ عرفنا أن جو تقلد الصبيان ، وعرفنا أيضـــا أن آمى أوزة غبيـــة تافهة ، فماذا أكون فى رأيك يا ترى ؟؟

قالت ميج بحرارة :

ــ أنت أخت عزيزة ، وستكونين كذلك دائما •

ولم تعترض واحدة من الأخريات على هذا الوصف ، لأن بث كانت حبيبة الأسرة كلها •

قد يلذ للقراء أن يعرفوا مزيدا من وصف شخصيات هذه القصة ، لذلك ننتهز هذه الفرصة ، فنرسم صورا واضحة للأخوات الأربع اللواتى جلسن يتناقشن حول الموقد ذات مساء ، وثلوج ديسمبر تتساقط فى سكون خـــارج البيت •

كانت الغرفة التى يجلسن فيها ، رغــم بســاطة رياشها العتيق ، مريحة أنيقة ، تقوم على جوانبها رفوف خشبية مليئة بالكتب ، وجدرانها مزينة ببعض الصور ، وفى نوافذها أوان عامرة بزهرات الأقحوان أضفت على المكان جوا من السكينة والجمال •

وكانت مارجريت — ميج — كبرى الفتيات الأربع فى السادسة عشرة من عمرها ، شقراء ممتلئة الجسم واســعة العينين : شعرها بنى غزير ، وفمها صغير عذب ، ويداها بضتان جميلتان • وكانت جوزيفين — جو — فى الخامسة عشرة ، فارعــة القــامة نحيلة الجسم : أطرافها الطـويلة تجعلها مثل مهر صغير ، وفمها الصارم ينم عن حــزم شــديد ، وأنفهــا على صغرة مضحك الشكل • وكانت لها عينــان رماديتان ذكيتان تتقلبان حسب الظروف ، فأحيانا تكون نظراتهما غاضبة ، وأحيانا أخرى ضاحكة أو ساهمة • وكان أجمل ما فيها شعرا بنيا غزيرا ، ولكنها كانت تحرص على اخفاء جماله ، فتعقصه خلف رأسها ، وتغطيه بشبكة ضيقة الثقوب ، حتى لا تتساقط خصلاته على كتفيها • وكانت على الدوام قليلة العنــاية بهندامها ، سريعة فى حركاتها ولفتاتها ، ومنظرها على العموم يوحى بأنها فتاة تسير فى طريق النضج النســوى فتثور نفســها غضبا على هــذا التغيير !

وكانت اليزابث — بث — فى الثالثة عشرة من عمــرها ناعمة الشعر متألقة العينين : فى صوتها خفوت مستحب ، وفى خلقها خجل وحياء ، وفى طبعها على العموم سكينة وســلام • وكان أبوها يسميها « الهادئة الصغيرة » فكان اسما على مسمى ، لأن تصرفاتها كلها كانت توحى بأنهــا تعيش سعيدة فى عالم مستقل بها ، وأنها قانعة بعالمهــا هذا لا تخــرج منه الا لمن تحبهم وتثق بهم •

أما آمى أصغر الفتيات . فقد كانت مثل دمية بيضـــاء : قوامهـــا نحيل ، وشـــعرها ذهبى وعينـــاها زرقاوان •وكانت كثـــيرة الاعتـــداد بنفسها ، حتى ليخيل اليها أنها أهم أفراد الأسرة كلها ، وكانت شـــديدة الرغبة فى أن تكبر سريعا ، وتصبح سيدة ناضجة ، فكانت تتشبه بالكبيرات فى ملبسها ومظهرها وحديثها •

ونعود الآن الى القصة فنقول : انه عندما دقت الساعة ستا ، قامت بث الى الموقد فنظفت الأرض حوله ، ثم وضعت حذاء أمها على مقـــربة منه • وكان عملها هذا ايذانا بقرب عودة الأم الى البيت ، فعم الانشراح قلوب الجالسات ، وكفت ميج عن اسداء النصح لأخواتها ، وانشغلت عن ذلك بتقليب الحذاء على مقربة من النار حتى اذا عـــادت أمها وجـــدته دافئـــا •

قالت وهى تنظر الى الحذاء :

ــ لقد أتى عليه الزمن ، ويجب أن يكون لأمى حذاء جديد •

قالت بث :

ــ كنت أفكر فى شراء حذاء جديد لها بالريال الذى أدخرته للعيد •

فصاحت آمى :

ــ بل أنا الذى سوف أشتريه •

قالت ميج :

ــ ولكنى أكبركن سنا ، ومن حقى •••

ولكن جو قاطعتها فى حزم وقالت :

ــ لن يشترى الحذاء غيرى ، فقد أوصانى أبى بأمى قبل رحيله الى الميدان ، وأحب أن أشعر فى غيابه ، أننى رجل الأسرة •

قالت بث :

ــ عندى فكرة طيبة ترضينا جميعا ، وهى أن نشترى بنقودنا هدايا لوالدتنا : بدل أن ننفقها فى متعنا •

فقالت جو معجبة بالفكرة :

ــ هذا كلام جميل ، فماذا نشترى لها مثلا ؟

وجلس الأخوات الأربع يفكرن فيما يشترين • قالت ميج وهى تتأمل يديها البضتين الجميلتين :

ــ سوف أهديها قفازا جديدا •

وصاحت جو :

ــ وأنا أشترى الحذاء •

وقالت بث :

ــ وأنا أعطيها مناديل مطرزة •

وقالت آمى :

ــ إنها تحب ماء الكولونيا ، والرأى عندى أن أبتاع لها زجاجة رخيصة الثمن وبذلك يتبقى لى جزء من الريال أشترى به شيئا لنفسى •

سألت ميج أخواتها :

ــ ولكن كيف نقدم لها هدايانا ؟

فأجابت جو :

ــ نضعها على المائدة فى لفافات ، ثم ندعوها لتفتحها أمامنا ، ألم نكن نفعل ذلك فى الأعياد الماضية ؟

قالت بث وهى تقدد الخبز على النار استعدادا لوجبة الشاى :

ــ كنا نفعل ذلك ، وكانت تنتابنى الرهبة عندما يحين دورى ، فتجلسننى على المقعد الكبير ثم تتقدمنى منى واحدة واحدة فتعطيننى هداياكن : وتطبعن قبلاتكن على جبينى • وكنت أفرح بالهدايا وأغتبط بالقبلات ، ثم تعود الرهبة فتتملكنى وأنا أفتح اللفافات لأرى ما فيها •

قالت جو وهى تذرع الغرفة جيئة وذهابا :

ــ لا تطلعن أمى على السر ، ودعنها تعتقد أننا سننفق نقودنا على أنفسنا ، ثم نفاجئها بالحقيقة فى حينها • أرى أن نشترى الهدايا من السوق مساء غد ، وهيا بنا الآن يا ميج نستذكر أدوارنا فى الرواية التى سنمثلها فى ليلة عيد الميلاد •

قالت ميج :

ــ هذه آخر مرة أمثل فيها معكن ، فقد كبرت ولم تعد ألعاب الصغار تلائمنى •

قالت جو :

ــ لن تهجرى التمثيل ما دمنا نعطيك فرصة تتبخترين فيها على المسرح بثوبك الأبيض وشعرك منسدل على كتفيك • ثم إنك أقدرنا على التمثيل فماذا نفعل من غيرك ؟

والتفتت الى أخواتها وقالت :

ــ هيا بنا نراجع أدوارنا ، ورجائى يا آمى أن تتقنى الإغماء ، ففى آخر مرة سقطت على الأرض متصلبة كما لو كنت لوحا من الخشب •

ولم تكن آمى ذات مواهب تمثيلية ، ولكن الاختيار وقع عليها لأنها

صغيرة الحجم بحيث يسهل على بطل القصة أن يحملها ويخرج بهـا من المسرح دون عناء •

قالت آمى :

لا حيلة لى إذا ما أخفقت فى دورى ، فأنا لم أر فى حياتى أحدا يصاب بالإغماء ، ولا أحب أن أرمى بنفسى على الأرض كما تبتغين خشـية أن أصاب برضوض وكدمات • أفضل أن أسقط بسهولة ، وأرتمى على المقعد فى رشاقة ودلال ، ولا يهمنى ما تقلن فى مواهبى بعد ذلك •

قالت جـو :

ـ انظرى الىّ أعلمك كيف تحسنين دور الإغماء • أطبقى كفيـك هكذا ، وترنحى عبر الحجرة ، ثم اصرخى قائلة : أنقذنى يا رودريجو ! أنقذنى !

واندمجت جو فى تمثيل الدور ، وأطلقت صرخة مسرحية مدوية •

وبدأت آمى تقلدها ، ولكنها عادت الى تصنعها السابق ، فحركت يديها فى آلية شديدة ، وبدل أن تصرخ تأوهت كما لو كان دبـوس قـد وخزها •

وندت عن جو أنة يأس ، وضحكت ميج عاليا ، وانشغلت بث بالموقف الفكاهى عن مراقبة الخبز الذى تقدده فاحترق فى النار •

قالت جو :

لا فائدة فى تعليمك التمثيل ، ومع ذلك أتوسل إليك أن تبذلى جهدا مضاعفا أثناء الحفلة ، والا ضحك المتفرجون منك ، وكنت وحدك الملومة على سخريتهم بك •

وسارت التمثيلية فى طريقها ، فتحدى « دون بيدرو » العالم بخطبة من صفحتين ، وغنت الساحرة « هاجار » أغنية مفزعة ، وهى ترقص أمام قدر ممتلىء بالديدان ، وحطم « رودريجو » أغلاله ، أما « هوجو » فقد قتله السم والألم والندم ، ومات وهو يئن عاليا •

قالت ميج التى كانت تقوم بدور الشرير الميت :

ــ هذه أحسن تجربة قمنا بها الى الآن •

قالت بث بإعجاب ظاهر :

ــ تدهشنى مهارتك فى تأليف هذه الروائع يا جو ، ويقينى أنك لا تقلين عبقرية عن الشاعر شكسبير •

وكانت بث تقول ذلك عن إيمان صادق ، وتعتقد أن أخواتها ماهرات عبقريات •

قالت جو بتواضع :

ــ لست عبقرية كما تظنين ، وإن كنت قد وفقت فى تأليف « لعنة الساحرة » ، وأظن أنها مأساة رائعة • ولكنى كنت أفضل أن نمثل رواية « ماكبث » لأقوم بدور القاتل •

واختطفت من فوق المنضدة شيئا ، ورفعته بيدها ، وقالت وهى تقلد ممثلا رأته على المسرح يؤدى دور « ماكبث » :

ــ أهذا خنجر أراه أمامى ؟

فصاحت ميج قائلة :

ــ لا ، إنها شوكة الخبز المقدد ، وعليها غذاء أمى !!

وانتهت مراجعة التمثيل بعاصفة من الضحك •

وارتفع صوت من ناحية الباب يقول فى عذوبة :

ــ يسعدنى أن أراكن فى مرح يا بناتى •

واتجهت أنظار البنات الى الباب ، حيث وقفت سيدة ممتلئة الجسم ، فى نظراتها أبلغ معانى الأمومة ، وفى ابتسامتها عطف وحنان • لم تكن جميلة جمالا يلفت النظر ، ولكنها كانت أجمل الجميلات فى نظر بناتها : وكن يعتقدن أن معطفها الرمادى العتيق يضم أعظم امرأة فى العالم كله •

قالت الأم :

ــ حدثننى كيف مضى اليوم بكن ؟ يؤسفنى أن غبت عنكن طول النهار ، فقد اشتغلنا كثيرا فى إعداد الصناديق التى سترسل بالهدايا غدا الى الميدان ، فهل حضر أحد فى غيبتى يا بث ؟ وكيف حال الزكام يا ميج ؟ وأنت يا جو ، لماذا أراك تعبة مجهدة ؟

وبينما كانت مسز مارش تستطلع أحوال بناتها ، جعلت تخلع معطفها المبتل بالمطر ، واستبدلت حذاءها الرطب بالآخر الدافىء الذى كانت بث قد أعدته لها من قبل • فلما انتهت من كل هذا ، جلست على المقعد الكبير ، وأجلست آمى فوق حجرها ، وبذلك بدأت أجمل ساعات يومها ، وهى الساعات التى تقضيها مع بناتها الأربع •

والتف الفتيات حولها يهيئن لها أسباب الراحة ، فأحضرت جو وقودا للنار ، وجعلت ترتب المقاعد فتصطدم بها ، وتقلب كل ما تمسه يداها الخشنتان • وكانت بث تهرول جيئة وذهابا بين المطبخ وحجرة الجلوس •

أما آمى فقد سكنت الى حجر أمها مكتفية باصدار الأوامر لأخواتها •

ولما جلسن جميعهن حول مائدة الطعام ، قالت مسز مارش :

ــ سأخبركن بعد العشاء بنبأ سار •

وأشرقت وجوه البنات بالابتسام ، وصفقت بث بيديها ، وقد نسيت أنها تحمل كعكة ساخنة ، وقذفت جو بالمنشفة فى الهواء وهى تصيح :

ــ انه خطاب ••• خطاب من أبى • اهتفن ثلاثا تحية له !

قالت مسز مارش وهى تلمس جبين ابنتها فى محبة وإعزاز :

ــ نعم ، إنه خطاب طويل ، ملىء بالأخبار ، يقول فيه إنه بخير ولا داعى لأن نخاف عليه من برد الشتاء • وهو يبعث إليكن بمزيد حبه ويتمنى لكنّ عيدا سعيدا •

وكانت جو فى لهفة على الانتهاء من طعامها ، فجعلت تزدرد الشاى بسرعة ، وفى عجلتها هذه سقطت منها على البساط قطعة خبز مغطاة بالزبد • قالت تستحث أختها :

ــ أسرعى بالانتهاء من أكلك يا آمى ، وكفاك عبثا بأصابعك ، فقد فتتّتِ الكعك فى صحنك •

وكفت بث عن الأكل بدورها ، وتسللت الى ركنها المعتم ريثما تستعد الأخريات للمتعة المقبلة • وقالت ميج فى حماسة وحرارة :

كان جميلا من أبى أن يتطوع قسا فى الجيش مادامت سنه المتقدمة لا تسمح له بأن يشترك فى القتال •

قالت جو فى حزن :

ــ ليتنى كنت قارع طبل الجيش ، أو مجندة أو ممرضة فيه ، حتى أكون على مقربة من أبى فأساعده •

وتنهدت آمى وقالت :

ــ أنى أكره النوم فى الخيام ، ولا أحب أن أشرب الشاى فى أكواب من الصفيح •

وسألت بث أمها فى لهفة :

ــ متى يعود إلينا يا أماه ؟

قالت الأم :

ــ لن يعود قبل انقضاء شهور طويلة ، ما لم يمرض • وسوف يبقى ليؤدى واجبه المقدس ما دام قادرا على أدائه • لا يصح أن نطلب منه أن يعود قبل الوقت المحدد لانتهاء عمله •

والتأم الشمل حول الموقد : الأم تجلس فى مقعدها الكبير ، وبث عند قدميها ، وميج وآمى على جانبيها ، وجو تقف وراءها ، حتى لا ترى واحدة من أخواتها ما قد يرتسم على وجهها من انفعالات أثناء قراءة الخطاب •

وكان الخطاب خلوا من الفقرات المؤثرة التى اعتاد الآباء أن يضمنوها رسائلهم الى أهلهم فى تلك الأيام • ولم يكن فيه إلا القليل من أخبار المتاعب التى يتجشمها الرجال فى ميدان القتال ، والأخطار التى يتعرضون لها ، والحنين الذى يستبد بهم لأبنائهم وزوجاتهم ، ولكنه كان عامرا بالسرور والأمل ، بليغا فى وصف حياة المعسكر ، وطوابير الجنود ، وكان

ختامه فقط يزخر بما فى قلب كاتبه من حب أبوى وافر ، وشوق عظيم الى بيته وبناته •

كتب فى نهاية الرسالة :

« بلغيهن عزيز حبى وقبلاتى ، وأخبريهن أننى أذكرهن بالنهار ، وأصلى من أجلهن بالليل ، وأجد فى عطفهن الدائم راحة وعزاء • قد لا أراهن قبل وقت طويل ، فاطلبى إليهن أن يؤدين واجبهن كاملا ، حتى لا تضيع أيام الفراق هباء • وأنا واثق بأنهن لن يهملن نصيحتى ، وسيطعن رغبتى ، فيقمن بواجبهن مخلصات ، ويقاومن عوامل الشر فى شجاعة ، وينتصرن على نزوات النفس أجمل انتصار ، حتى أعود إليهن وقد أزددت فخرا بنسائى الصغيرات » •

وانهمرت الدموع من العيون ، عندما وصلت الأم الى هذه الفقرة . ولم تخجل جو أن يرى أخواتها العبرات تنساب على وجنتيها ، ونسيت آمى اعتزازها بتصفيف شعرها ، فدفنت رأسها فى صدر أمها ، وقالت :

ــ أنا مخلوقة أنانية ! ولكنى سأعمل على إصلاح أخطائى ، حتى إذا عاد أبى لا يجد فى سلوكى ما يحزنه أو يسيئه •

وصاحت ميج :

ــ سنفعل ذلك كلنا • فأنا أعنى بأناقتى أكثر مما ينبغى ، وأكره العمل وأفضل الراحة ، ولكنى سأبدأ من اليوم حياة جديدة طيبة •

وقالت جو :

ــ سأحاول أن أترك خشونتى ، وأكون السيدة الصغيرة التى يريدها أبى ، وأؤدى واجبى هنا بدل أن أضيع الوقت فى تمنيات لا تتحقق •

ولم تتكلم بث ، بل جعلت فى صمت تجففت دموعها فى الجـورب الأزرق الذى كانت تطرزه ، ثم عادت تطرز بقوة وحماسـة ، كأنهـا تخشى أن تضيع وقتها دون عمل مفيد فتعصى رغبات أبيها •

وقطعت مسز مارش السكون الذى أعقب قراءة الرسالة ، وقالت بصوتها المرح الحنون :

— أتذكرن كيف كنا نلعب لعبة الحجاج وأنتن صغيرات ؟ كان أمتع ما فى هذه اللعبة أن أحملكن أحمالا صغيرة على ظهوركن وأقول إنهـا الهموم : فتسرن بها كالحجاج من الطابق الأسفل الى أعلى البيت ، حيث تلقين عنكن بأحمالى الهموم تلك ، وتلعبن بعد ذلك خاليات البال متفائلات •

فقالت جو :

— وكنا نحب هذه اللعبة حبًا جمًا ، ونتمتع كل المتعة فى طريقنا الى أعلى البيت بالمعارك التى يبتكرها خيالنا مع الأسود والشـياطين والجن ، فى الصحارى والوديان ، وغرضنا أن نظهر قوتنا على قهر عوامل الشر ونزوات النفس ، لنصل الى قصر الأمانى حيث المحبة والسـلام والوئام •

وقالت ميج :

— وكانت أحمال الهموم تسقط عن ظهورنا أحيانا وتتدحرج على السلم ، فنهبط إليها لنصعد بها من جديد •

وقالت بث وهى تبتسم للذكريات القديمة السعيدة :

— وكان أجمل ما فيها عندما نصل الى نهاية الرحلة حيث نتحـرر من أحمال همومنا ، ونلعب فيما نتخيله حدائق مشرقة بالشمس عامـرة بالزهور •

قالت آمى :

ـ لست أذكر من هــذه اللعبة إلا ما كنت أشــعر به من خــوف شديد ونحن نسير فى الظلام ! ثم غبطتى البالغة وأنا أجد الكعك واللبن فى انتظارنا فى الطابق العلوى • ليتنا نعود الى هذه اللعبة ، ولكننا كبرنا عليها فيما أعتقد •

وكانت آمى فى الثانية عشرة من عمرها ، ولكنهــا كانت تتحــدث بلهجة من بلغت منتهى الشباب ، ولم يعد يليق بها أن تشــغل نفســها بألعاب الصغار •

فقالت الأم :

ـ ما زلنا نستطيع أن نلعبها يا عزيزتى ، إنما بأسلوب جديد يناسبنا • فمتاعبنا ما زالت موجودة ، وبيدنا أن نصلح أمورنا ، وسلاحنا فى الانتصار شوقنا الى بلوغ مرتبة السعادة والإيمان • هكذا نصل الى بر السلام • فما الرأى فى أن نبدأ لعبة الحجاج من جديد ، لا كلعبة نلعبها ، ولــكن كعقيدة نؤمن بها ونحمل رسالتها ، حتى إذا ما عاد أبوكن اغتبط بحسن أخلاقكن ونبل أهدافكن ؟

سألت آمى ، وكانت تميل بطبعها الى أخذ الكلمات بمعانيها الحرفية :

ـ حقيقة يا أماه ؟ ولكن أين أحمال همومنا ؟

فقالت أمها :

ـ لقد اعترفت كل واحدة منكن بعيوبهــا إلا بث ، فليس لديهــا ما يثقل ضميرها على ما أعتقد •

قالت بث :

ـ بل لدى كثير مما يثقل الضمير ، فأنا أكره غســل الصــحون ،

وأمقت تنظيف البيت ، وأغار ممن تملك معزفا جميلا ، ثم هناك خجلى ونفورى من مقابلة الناس •

وكانت هموم بث فى الواقع مضحكة ، ولكن أخواتها استمعن إليها فى جد خشية أن يؤلمن شعورها •

قالت ميج مفكرة :

ــ سنعمل باقتراحك يا أماه ، فما هو إلا وسيلة الى إصلاح النفس ، ولدينا رغبة صادقة فى تقويم اعوجاجنا ، ولكن التنفيذ صعب ، فأحيانا نسهو عن أداء الواجب ، وأحيانا أخرى نؤديه بغير حماسة •

فقالت جو ، وقد أيقظ فيها الحديث شوقا الى أداء واجباتها كاملة :

ــ لقد كنا نتردى فى الخطأ ، فشاءت والدتنا برحمتها أن تهدينا سواء السبيل ، فأين كتاب النصائح الدينية لنسترشد به فى سعينا الى الخير ؟

أجابت مسز مارش قائلة :

ــ ابحثى تحت وسادتك صباح عيد الميلاد تجدين ما تريدين •

وظل الحديث يدور حول الاقتراح الجديد ، الى أن أنتهت الطاهية حنا من تنظيف المائدة ، فأخرجت كل فتاة سلة تطريزها الصغيرة وتسابقت الأنامل فى إعداد ملاءة يقدمنها هدية لعمتهن مس مارش وكن يتبرمن فيما سبق بهذا النوع من التطريز ، ولكن واحدة منهن لم تظهر ضيقها به تلك الليلة • واقترحت جو أن يطلقن على كل ربع من أرباع الملاءة اسم قارة : فربع أوربا ، وثان آسيا ، وثالث أفريقيا ، ورابع أمريكا • وأخذن بالاقتراح ، فسرن بالعمل مرحات ، وهن يقطعن الوقت فى الحديث عن البلاد المختلفة التى كانت تمر بها الإبر أثناء العمل •

وعندما بلغت الساعة التاسعة توقفن عن العمل ، ثم أنشدن أغنية اعتدن أن يختمن بها السهرة كل ليلة • وكانت بث ماهرة فى العزف على البيانو ، قديرة على إخضاع أصابعه العتيقة لمساتها القديرة ، فعزفت لهن أنغاما تناسب الأغنية • وكانت آمى ذات صوت رخيم ، أما جو فلم تكن تحسن الغناء ، فكان صوتها يرتفع أو ينخفض حيث لا يجب أن يرتفع أو ينخفض •

وكن قد تعلمن فى طفولتهن أغنية :

« المع •• المع ••• أيها النجم الصغير »

واعتدن أن ينشدنها كل ليلة حتى كبرن ، وما زلن مخلصات لهـذه العادة • وكانت أمهن جميلة الصوت ، يتردد غناؤها بين جدران البيت كل صباح كالكروان • وكما كن يستيقظن على نبراته الحنـون كذلك كن ينمن على شدوه الجميل •

الفصـــل الثـــانى

عيـــد سعيد

استيقظت جو مع طلائع فجر العيد ، ونظرت الى الموقد تبحث عن الجورب الذى اعتادت أن تتلقاه مليئا بالهدايا كل عام ، فلما لم تجـده شعرت بحزن وكآبة ، ثم عادت فتذكرت ما وعدتها أمها بــه فى الليلــة السابقة ، فدست يدها تحت الوسادة ، وأخرجت كتابا صغيرا ذا غلاف أحمر • وكانت تعرف أنه كتاب الحكم والعظات الدينية ، التى هى أقصر طريق الى السلام والإيمان ، ففرحت به كل الفرح ، وأسرعت الى أختها ميج توقظها ، وتغريها بالبحث عن هديتها • ودست ميج يــدها تحت الوسادة ، وأخرجت بدورها كتابا أخضر اللون ، خطت عليه أمها إهداء لطيفا ضاعف قيمته فى نفسها ، وكذلك استيقظت بث وآمى ، وأخرجتا كتابيهما ، كان أحدهما رمادى اللون ، والآخر أزرق •

وعندما جلس الأخوات الأربع يتحدثن عن الكتب ويقلبن صفحاتها ، كان الأفق قد بدأ يكتسى بلون الورد ، مؤذنا بقرب ظهور الشمس •

وكانت مارجريت شديدة التدين ، بالرغم من غرورهـــا اليسير ، وقد تأثر أخواتها بتدينها هذا ، خصوصا جو التى كانت تحبها حبا جما ، وتعمل دائما بنصحها وإرشادها •

قالت ميج لأخواتها بلهجة الجد :

— لقد كنا شديدات التدين ، حتى سافر أبى ، وغيرت الحرب مجرى حياتنا ، فأهملنا كثيرا من مبادئنا الطيبة • وأمى تحب لنا أن نقرأ هـذا

الكتاب ، ونعمل بهدى تعاليمه الكريمة ، فيصح أن نبدأ فى الحال ، وسوف أترك كتابى قريبا من فراشى ، لأقرأ فيه كل صباح ، فأستمد من ذلك قوة على احتمال المشاق والصعاب •

وفتحت كتابها الجديد ، وشرعت تقرأ فيه ، فانحنت جو عليها ، وأحاطتها بذراعها ، وألصقت خدها بخدها ، ثم جعلت تقرأ معها ، وقد علا وجهها القلق سيماء السكينة والهدوء •

وأخذت بث بروعة الموقف ، فهمست تقول :

— ما أجمل ميج فى خشوعها •• هيا بنا يا آمى نقرأ مثلهما ، وسأساعدك بقدر إمكانى فى تفسير الكلمات ، ونسألهما إذا استعصى علينا الفهم •

قالت آمى :

— لقد أحسنت والدتى اختيار لون كتابى ، فأنا أحب الأزرق •

وساد السكون إلا عن صوت الصفحات وهى تتحرك بين أصابع البنات بين آن وآخر ، وتسللت أشعة الشمس الى الغرفة ، فأضاءت رءوس الجالسات ووجوههن ، كأنها تقرئهن تحية العيد •

وبعد مضى نصف ساعة ، هبطت ميج الدرج مع أختها جو ، لتشكرا والدتهما على هديتها الجميلة ولكنها لم تكن فى البيت ، فلما استفسرتا عنها الطاهية حنا ، قالت لهما :

— الله أعلم أين ذهبت ، فقد جاءنا صبى صغير يطلب إحسانا ، فخرجت معه ، ولم تعد للآن • إنها ملك للرحمة ، ولا نبخل على سائل بطعام أو شراب أو كساء أو وقود •

وتطلعت ميج الى الهدايا التى اشتريتها لوالدتهن ، وأخفينها عن أنظارها ، فى سلة تحت الأريكة ، ثم قالت :

— أرجو أن لا تتأخر فى العودة • ولكن أين زجاجة الكولونيا التى اشترتها آمى ؟ إنى لا أراها فى السلة •

وكانت جو قد انتعلت الحذاء الذى اشترته هدية لوالدتها وجعلت ترقص به فى الغرفة ، وتدور حول نفسها ، بقصد أن تلين جلده اليابس قليلا • قالت تجيب أختها :

— رأيت آمى تحمل الزجاجة وتخرج بها منذ لحظة ، وأغلب الظن أنها ذهبت لتربطها بشريط جميل •

وقالت بث ، وهى تتأمل المناديل التى عانت مشقة كبيرة فى تطريزها :

— ما أجمل هديتى ! ألا توافقنى على أنها بديعة ؟ لقد طرزت فى أركانها اسم والدتى ، ثم تعهدتها حنا بالغسل والكىّ •

وأخذت جو منديلا منها ، لتفحصه عن قرب ، وقالت :

— باركك الله من طفلة طيبة ، لقد طرزت كلمة « ماما » ، والأصل أن يوضع الحرف الأول من الاسم فقط •

وانزعجت بث لغلطتها ، وقالت بقلق :

— لم أكن أعرف ذلك ، وما كنت أحب أن أخطىء ، ولكنى خشيت أن تختلط هذه المناديل بمناديل ميج ، لتشابه الحروف ، وأنا لا أريد أن يستعملها أحد غير والدتى •

وتضايقت ميج لملاحظة جو التى أحزنت أختهما الصغيرة ، وأرادت أن تزيل أثرها ، فقالت لبث مبتسمة :

ــ ليس هذا خطأ يا عزيزتى • ويسرنى أن كتبت « ماما » ، فإنها كلمة لطيفة ستغتبط لها والدتنا كل الاغتباط •

وطرق آذانهن صوت إغلاق الباب ، وتبعه وقع أقدام فى الردهة ، فقالت جــو :

ــ رجعت والدتى ، فهيا بنا نسرع بإخفاء السلة •

ولم تكن الداخلة هى الأم بل كانت آمى ، وكانت ترتدى معطفهــا وقبعتها ، مما يدل على أنها كانت خارج البيت ، فسألتها ميج متعجبة :

ــ أين كنت ، وماذا تخفين وراء ظهرك ؟

قالت :

ــ كنت أستبدل الزجاجة الصغيرة بأخرى كبيرة ، ودفعت فى ذلك نقودى كلها ، ولكنى غير آسفة ، فإنها تجربـــة فى إنكار الــذات ••• لا تضحكى منى يا جو ! فقد كنت أحب أن يبقى الأمر سرا خافيا عنكن ، حتى يحين الوقت المناسب فتعرفن به •

وأرتهن الزجاجة الكبيرة الجميلة التى اشترتها بدل الأولى الصغيرة ، وتطلعت إليهن راضية ، وقد أضاء وجهها بعزيمتها القوية التى قهــرت بها أنانيتها • وتأثرت ميج بما فعلته أختها : فضمتها الى صدرها ، كما امتدحتها جو بكلمة طيبة ، أما بث فقد هرعت الى إصّ الزهور ، فاقتطفت أجمل ورودها منه لتزين بها هديتها •

قالت آمى :

ــ بعد أن قرأت جــزءا من كتاب العظات ، وفهمت كيف نكــون بنات صالحات ، خجلت من نفسى ، وساءنى أن أبخل على أمى بنقودى

كلها ، فما أن استيقظت : حتى أسرعت الى السوق القريب أستبدل الزجاجة ، وأنا سعيدة بهديتى الجميلة •

وانصفق الباب مرة ثانية ، فأخفين السلة تحت الأريكة ، وجلسن حول المائدة استعدادا لتناول الإفطار •

وظهرت الأم فصاحت الفتيات يقلن فى صوت واحد :

— عيد سعيد يا أماه ، بل أعياد كثيرة سعيدة ، وشكرا لك على الكتب ، لقد قرأنا اليوم جزءا منها ، وسوف نفعل ذلك كل يوم •

قالت :

— عيد سعيد يا بناتى ، ويسرنى أن تحققن ما اتفقنا عليه ، وآمل أن تقرأن فى الكتب دواما ، ولكنى أود أحدثكن بأمر قبل أن نجلس الى مائدة الإفطار • فعلى مقربة منا تسكن امرأة فقيرة اسمها مسز هامل ولديها طفل حديث الولادة بالإضافة الى ستة أطفال آخرين ، وقد جاءنى أكبرهم منذ لحظة يشكو الىّ ما يقاسون من جوع وبرد ، فذهبت معه لزيارتهم فوجدتهم يرقدون جميعا فى فراش واحد ، وليس لديهم نار تدفئهم ولا طعام يشبعهم • فما الرأى فى أن نعطيهم إفطارنا هذا هدية منا بمناسبة العيد ؟

وكان الجوع قد استبد بالفتيات ، بعد أن تأخرن عن تناول الإفطار ، طوال الساعة التى انقضت فى انتظار عودة الأم ، فخيم عليهن الصمت لحظة قصيرة فقط ، قالت بعدها جو ، وهى تنهض من مقعدها مسرعة :

— من حسن الحظ أننا لم نفطر بعد •

وقالت بث بلهفة :

ــ أتسمحين لى أن أذهب معك لأساعدك فى حمل الطعام الى أولئك الأطفال الفقراء ؟

وقالت آمى ، وقد لذ لها أن تتنزل عن أحب الأطعمة إليها :

ــ وأنا أحمل الفطائر والقشدة •

وكانت ميج قد شرعت فى تغطية الصحون ، بعد أن جمعت الخبز فى وعاء كبير ، فقالت مسز مارش وهى تبتسم فى رضا واغتباط :

ــ كنت أعلم أن الفكرة ستلقى منكن ترحيبا ، فهيا بنا نحمل الطعام الى الأسرة الفقيرة • وعندما نعود ، نفطر بخبز وحليب ، ونعوض النقص فى وجبة العشاء •

وسرعان ما حمل البنات طعام الإفطار ، وخرجن به مع أمهن الى الطريق فى موكب كبير ، ولحسن الحظ كانت الساعة مبكرة ، فلم يلفت موكبهن أنظار الناس •

وبلغن البيت المنشود ، وكانت الأسرة الفقيرة تسكن حجرة عارية عن الرياش والأثاث ، يشيع الفقر فى جنباتها ، وتخيم عليها مظاهر البؤس والشقاء • وكانت نافذتها محطمة ، وليس بها موقد يخفف من وطأة البرد ، وفى ركن منها سرير عتيق ، ترقد عليه امرأة مريضة سقيمة ، بجوارها رضيع يبكى بإلحاح ، ومن حوله ستة أطفال جياع يلوذون بغطاء واحد مهلهل ، عسى أن يحميهم من البرد •

وما إن شاهد الصغار الجياع الفتيات يدخلن بالطعام ، حتى علت

شفاههم الزرقاء بسمات واهنة • وصاحت المريضة فرحا ، وقالت بلكنة ألمانية :

ـ شكرا لك يا إلهى ، فقد جاءت ملائكة الرحمة •

قالت جو تداعبها :

ـ ملائكة من نوع فريد يرتدين المعاطف والقبعات •

ولم تمضى دقائق معدودات إلا وقد تغير الحال : فقد أشعلت الطاهية حنا موقد التدفئة بالوقود الذى أحضرته من البيت ، كما سدت فتحات النافذة المحطمة بقطع من القماش لتمنع تسرب البرد • وسقت مسز مارش الأم المريضة قدحا من الشاى الساخن وأعقبته ببعض الحساء ، ثم لفت الرضيع بأغطية سميكة بجوار أمه فى حنان بالغ • أما البنات فقد هيأن المائدة وزينّها بالمأكولات الشهية التى أحضرنها ، وأجلسن الأطفال حولها ، وأطعمنهم بعناية وعطف ، وهن يداعبنهم ويصغين ضاحكات الى رطانتهم الألمانية ولغتهم الإنجليزية الركيكة •

وأقبل الأطفال على الأطعمة الشهية يأكلون منها ويهتفون فرحا :

ــ هذا جميل ، يا ملائكة الرحمة •

ولم يكن أحد قد وصفهن بالملائكة من قبل ، فارتاحت نفوسهن لهذه التسمية ، خصوصا جو العفريتة ، التى كانت منذ صغرها أبعد ما تكون شبها بالملائكة • وعندما انتهى الإفطار على ما يرام ، خرج الفتيات الأربع وليس فى الدنيا أسعد منهن • وكن يعلمن أنه ليس بالبيت غير خبز وحليب ، وقد اعتدن أن يتناولن فى العيد وجبة فاخرة ، ولكن الحرمان زادهن فخرا بقدرتهن على التضحية وإنكار الذات •

وشربن الحليب راضيات ، وأكلن الخبز مغتبطات ، ثم قالت ميج :

هذا ما أوصى به الدين من رعاية الجار ، وإنها حقا وصية جميلة •

وصعدت مسز مارش الى الطابق العلوى تجمع بعض الثياب القديمة لأسرة مسز هامل الفقيرة ، فأخرج الفتيات هداياهن ، ووضعنها على المائدة • ولم تكن الهدايا فى حد ذاتها أشياء مذكورة ، ولكن منظرها بدا جميلا وهى مرصوصة حول آنية الزهور العامرة بالأقحوان الأبيض والورود الحمراء •

وصاحت جو وهى تقفز فرحا حول المائدة :

ـ ها هى ذى قادمة ، فاستعدى يا بث ، وافتحى الباب يا آمى • اهتفن ثلاثا تحية لأمنا •

ذهبت ميج الى الباب ، وعادت تقود والدتها الى كرسى الصدارة ، وعزفت آمى أنغاما موسيقية بهيجة ، فتأثرت مسز مارش لحنان بناتها ، وازداد تأثرها حتى اغرورقت عيناها بالدموع عند ما رأت لفائف الهدايا وعليها عبارات الإهداء • وارتدت الحذاء لفورها ، ودست فى جيبها أحد مناديل بث بعد أن عطرته من زجاجة آمى وشبكت الوردة الحمراء فوق صدرها ، ثم جربت القفاز ، وامتدحت لونه وطرازه •

وترددت الضحكات فى جنبات الغرفة ، وتبودلت القبلات ، وقص البنات على أمهن كيف اشترين الهدايا فى ذلك المرح البرىء الخالص الذى يجعل من الأعياد أياما خالدة فى عمر الإنسان •

وانقضت لحظات اللهو وآن أوان الجد ، فعاد أفراد الأسرة الى العمل استعدادا لحفل المساء •

وكان الأخوات الأربع يهوين التمثيل الى حد الشغف ، ولم يكن يسمح لهن بالتردد على المسرح لصغر سنهن ، وكانت مواردهن المالية

لا تجيز الإسراف فى إعـداد تمثيلياتهن الخاصـة ، ولكنهن تغلبن على المشكلة بغير عناء ، ونجحن فى تحقيق هوايتهن بأقل نفقات ممكنة : فصنعن من ألواح العجين قيثارات مسرحية ، وحولن علب الزبد الفارغة الى مصابيح منقوشة ، وجعلن من ملاءات الفرش ملابس فخمة طرزنها بقطع معدنية براقة ، أما الصفائح القديمة فقد أخرجن منها دروعا وزردا للفرسان • وقلبن قطع الأثاث رأسا على عقب ، لبناء المسرح المطلـوب ، فضربت الفوضى أطنابها فى الغرفة استعدادا لتمثيلية المساء •

ولم يكن مسموحا للشبان بالاشتراك مع البنات فى التمثيل ، فعهد الى جو بأدوار الرجال ، وكانت تحب أداء هذه الأدوار ، فترتدى فى كل تمثيلية ذات الملابس : عباءة لها ذيل طويل ، وسيف قصير يتـدلى من حزام ، وزوج من الأحذية المسرحية كانت قد أهدته إياها صديقة تعرف بعض الممثلين •

ولما كان عدد الأخوات محدودا وأشخاص التمثيلية عديدين ، فقد استدعى الأمر أن تقوم الأختان الكبيرتان بأكثر من دور واحد فى الرواية • وكان جهدا شاقا يقتضى منهما حفظ أدوار مختلفة ، مع سرعة فى تغيير الملابس ، وعجلة فى تبديل المناظر ، ولكنه كان جهدا مفيـدا يقـوى ذاكرتيهما من ناحية ، ومن ناحية أخرى يستنفد أوقات فراغهما فى تسلية بريئة ، لولاها لانقضت بهن هذه الأوقات فى كسل ووحدة •

وفى ليلة العيد حضر المدعـوات ، وكن اثنتى عشرة فتاة ، تزاحمن فوق السرير الذى يقوم مقام قاعة العرض ، وجلسن أمام الستار الملون بالأزرق والأبيض ، يترقبن بدء التمثيلية فى شوق وحماسة ومن وراء الستار كانت تتعالى بعض الهمسات ، وبين آونة وأخرى تسمع ضحكة مكبوتة من آمى ، التى استبد بها انفعال لقرب الساعة الحاسمة • وما لبث أن دق الجرس ، وانفرجت الستائر ، مؤذنة ببداية التمثيل •

وكان أول منظر يمثل « الغابة الحزينة » ، وقد بذل الأخوات جهدا مذكورا فى إخراج هذا المنظر ، ففرشن أرض المسرح ببساط صوف أخضر ، انتثرت فوقه شجيرات فى أصص فخارية ورأءها كهف صنع من منضدتين تغطيهما قطعة من اللباد • وكان فى داخل الكهف موقد مشتعل ، عليه قدر أسود ، انحنت فوقه ساحرة عجوز • وكان البخار يتصاعد من القدر ، والظلام يسود الكهف ، ونيران الموقد تعكس أضواءها على المسرح ، فتكسب المنظر لونا من الحقيقة •

ومضت برهة ، ثم دخل الشرير « هوجو » بسيفه المصلصل ، وقبعته الرخوة ، ولحيته السوداء ، وكان يرتدى عباءة غريبة الشكل فضفاضة ، وفى قدميه حذاء جلدى طويل • وبعد أن قطع خشبة المسرح جيئة وذهابا فى قلق وثورة ، ضرب جبينه بكفه ، وراح ينشد قطعة خشنة يصف فيها بغضه «لرودريجو » وحبه « لزارا » ، ويروى كيف أعد العدة لقتل غريمه ، حتى يحظى بمن يحب • وكانت العاطفة تغلب « هوجو » أحيانا ، فينقلب صوته الخشن الى صياح قوى مؤثر ، نال إعجاب النظارة ، فقابلوه بعاصفة من التصفيق •

وانحنى « هوجو » يرد التحية فى حركة طبيعية تدل على الاعتداد بالنفس ، ثم انسل الى الكهف ، وهو ينادى الساحرة قائلا :

— تعالى أيتها الصغيرة ، فانى محتاج اليك •

وخرجت اليه ميج ، وقد غطت وجهها بشعر أشيب مشعث ، وارتدت ثوبا أسود ، عليه عباءة منقوشة برموز غامضة • وطلب اليها هوجو أن تعد له اكسيرا يجتذب حبيبته ، وسما يقتل غريمه ، فأجابته بقطعة غنائية مؤثرة تعده فيها بما يريد ، ثم شرعت تنادى الروح الذى سوف يعينها على اعداد اكسير الحب قائلة :

« تعالى ••• تعالى ••• أيها الروح الأثيرى » •

« آمرك أن تأتى من عشك البعيد » •

« يا من ولدت من ورود ، واقتت بالندى الرطيب » •

« تعالى ••• تعالى ••• فى سرعة الجن » •

« تعالى ••• واعطنى شراب الحب الجميل » •

« واجعله حلوا سريعا قهورا » •

« أيها الروح انى أغنى ، فهل من مجيب ؟ »

وعلت أنغام موسيقية خافتة ، وظهر من وراء الكهف شبح صغير يلتف فى رداء أبيض شفاف ، شعره يلمع ، وأجنحته من الذهب ، وفوق رأسه إكليل من الورود • ولوح الشبح بعصا قصيرة ، وجعل يغنى ويقول :

« جئتك يا من تناديني
من مسكنى فوق الرياح
وراء القمر الفضى البعيد
جئتك أحمل فنى وسحرى
فى شراب ذهبى عجيب
فاسقه الحبيبة ولا تبطىء
واحذر أثره أن يزول »

وألقى الروح تحت أقدام الساحرة زجاجة ذهبية صغيرة ، ثم اختفى وراء الكواليس •

وعادت الساحرة « هاجار » تغنى فى طلب روح شرير يعينها على اعداد السم ، وما ان انتهت من أغنيتها حتى ظهر على المسرح شيطان أسود دميم ، وغنى فى صوت كنقيق الضفادع ، ثم ألقى الى « هوجو » زجاجة سوداء ، ولم يلبث أن اختفى وهو يضحك ساخرا • والتقط هوجر الزجاجتين راضيا وأخفاهما فى عنق حذائه الجلدى ، وشكر للساحرة صنيعها ، واختفى بدوره وراء الكواليس •

وواجهت « هاجار » النظارة ، وجعلت تصف بغضها « لهوجو » الذى سبق أن قتل أصدقاء لها ، ولذلك فهى تلعنه من صميم قلبها ، وتنوى أن تفسد تدبيره ، ولن تبكت حتى تنتقم منه شر انتقام •

وأسدل الستار ، وجلس المدعوات يسترحن ، ويتسلين بتناول الحلوى والمرطبات ، ويتناقشن فى ما رأينه من محاسن التمثيلية الرائعة •

وفى خلال فترة الاستراحة ، تعالت من وراء الستار أصوات المطارق ، ولكن ما ان انفرجت هذه الستائر مرة أخرى ، حتى أيقن المدعوات أنهن أمام فصل آخر ، لا يقل عظمة عن سابقه : فقد ظهر فى وسط المسرح برج مرتفع ، تكاد قمته تصل الى السقف ، وفى منتصفه نافذة بها مصباح مشتعل ، ومن ورائه ظهرت « زارا » ترتدى ثوبا فضيا ،وترقب الطريق قلقة فى انتظار حبيبها « رودريجو » •

وجاء « رودريجو » فى حلة فاخرة ، وعلى رأسه قبعة من الريش ، ومن كتفيه تتدلى عباءة حمراء • وكانت خصلات شعره الكستنائى تتهدل على كتفيه ، وكان يحمل قيثارة فى يده ويلبس الحذاء الجلدى الأحمر المعهود • ركع الفتى أمام نافذة البرج ، وجعل ينشد أغنية عامرة بمعانى الحب ، وأجابته « زارا » مغنية ، واستمر الحوار

الموسيقى بينهما حتى أقنعها أن تفر معه • وهنا ظهرت قوة الاخراج الفنى ، فقد سحب « روديجو » من ثنايا عباءته سلما من الحبال به خمس درجات ، وألقى أحد طرفيه الى « زارا » يدعوها الى النزول • وخفت اليه من نافذتها فى استحياء ، ثم استندت بيدها الى كتفه قبل أن تقفز الى الأرض برشاقة ، ولكن مأساة غير متوقعة حدثت فى تلك اللحظة ، فقد اشتبك ذيل « زارا » بالنافذة فلما قفزت الى الأرض ، اهتز البرج العالى ، وسقط من عليائه مهشما فوق العاشقين ! !

وصرخ الممثلات والمدعوات على السواء ، وإزداد صراخهن شدة عندما رأين قدمى « روديجو » ترقصان من تحت الأنقاض فى عنيف ونسيت آمى أنها على المسرح فأطلت برأسها تؤنب جو الراقدة تحت الحطام المهدم وتقول لها :

— لقد حذرتك من هذا البرج فلم تستمعى الىّ •

ولكن ذكاء احداهن أنقذ الموقف ، فقد خرج الى المسرح « دون بيدرو » ، الحاكم القاسى ، وأسرع الى ابنته يسحبها من تحت الأنقاض ، ويهمس فى أذنها :

— لا تضحكى ، واستمرى فى أداء دورك ، كأن شيئا لم يحدث •

والتفت الى « روديجو » يأمره بالنهوض ، ثم أنبه ، وطرده من مملكته مهددا • ولكن « روديجو » ، برغم ما أصابه بسقوط البرج عليه ، عصى أمر الحاكم ، ورفض أن يترك مكانه ، وأثارت شجاعته حماسة « زارا » فأعلنت عصيانها أوامر أبيها ، فغضب الأب وأمر أن يكبل الاثنان بالقيود فى قبو قلعته •

ودخلت بث فى ثياب أحد جنود « دون بيدرو » تحمـل القيـود الحديدية ، وقادت الاثنين أمامها الى السجن ، ولكن الخـوف كان باديا عليها ، حتى أنها نسيت أن تقول عبارات الدور الذى تؤديه •

وكان الفصل الثالث يمثل بهو القلعة • فظهرت الساحره « هاجار » وكانت قـد جـاءت الى القلعة ، لتنقـذا الحبيبين ، وتنزل انتقامهـا « بهوجو » وسمعت وقـع اقدامه يقترب منهـا ، فاختفت فى جانب من المسرح • ودخل الشرير « هوجو » يحمل الزجاجتين ، وصب محتوياتهما فى كأسى شراب ، وأمر الخـادم أن يحملهما الى المسجونين ، وينتحى الخـادم جانبـا « بهوجـو » ليسر اليـه بكلمات خافتة ، فتخـرج الساحره « هاجار » خلسة ، وتستبدل الكأسين بكأسين آخـرين ليس فيهما ما يضر ، ثم يعود الخـادم فيحمل الكأسين وينصرف بهمـا الى القبو • وتحين لحظة الانتقام ، فتترك « هاجار » الكأس العامرة بالسم فى متناول يد « هوجو » ، ويـكون الشرير فى هـذه الآونة مشغولا عن الساحرة بالقاء مقطوعة غنائية ، وعندما ينتهى منها ، يستبد به العطش ، فيتناول الكأس المسمومة ويجرع ما فيها بلهفة • ويسرى السم فى بدنه فيتلوى ويتأوه ، ولا يلبث أن يسقط على الأرض صريعا ، فتخـرج اليه « هاجار » من مخبئها وتحدثه بما فعلته به انتقاما لأصدقائها •

وكان المنظر قويا بحق ، رغـم الأخطـاء البسيطة التى تخللته ، فصفق النظارة طويلا ، وألحوا فى تحية البطلين ، حتى ظهر « هوجـو وهاجار » ، وردا تحية الجمهور بانحناءة لطيفة •

وارتفع الستار عن الفصل الرابع من الرواية ، فظهر « رودريجو » يائسا بعد أن خدعوه ، فأوهموه أن « زارا » قـد هجرته ، وبلغ بـه اليأس أن استل خنجره ، ليقتل به نفسـه ، وقبل أن يصـل النصـل

الى صدره ، يسمع غناء شجيا يفهم منه أن « زارا » ما زالت مبقية على عهده ، وأنها فى خطر جسيم ، لن ينقذها منه سواه ، ويلقى صاحب الغناء اليه بمفتاح السجن • وتظهر الحقيقة لرودريجو ، ويمنحه الخوف على حياة حبيبته قوة مضاعفة ، فيتمطى فى حركة هرقلية ، تتحطم على أثرها أغلاله ، فيخرج من السجن حرا طليقا •

ويحوى الفصل الأخير مشهدا عنيفا بين « زارا » وأبيها « دون بيدرو » فهو يريدها أن تذهب الى الدير ، وهى ترفض باكية مستعطفة حتى تكاد تسقط مغشيا عليها ، وعند ئذ يقتحم رودريجو المشهد ، ويطلب يدها من أبيها ، فيرفض « دون بيدرو » أن يزوج ابنته بفقير مثله • وتحتد المناقشة بينهما بلا جدوى • ثم تشاء الأقدار أن تسعد الحبيب الفقير ، فيدخل الخادم « فرنندو » يحمل رسالة وكيسا ، بعثت بهما الساحرة « هاجار » • ويعلم « رودريجو » من الخادم أن « هاجار » تركت له ولحبيبته ثروة طائلة ، وأنها تتهدد « دون بيدرو » بشر مستطير ، اذا هو لم يوافق على زواجهما • ويفتح « رودريجو » الكيس فيتساقط منه على أرض المسرح سيل من الذهب البراق يغتبط به « دون بيدرو » فيرجع عن عناده ، ويرحب بالفتى زوجا لابنته • ويشترك الممثلون جميعا فى أغنية مرحة ، ينسدل على أثرها الستار و « دون بيدرو » يبارك الحبيبين فى عطف وحنان •

وهبت عاصفة من التصفيق ، ولكنها انقطعت فجأة ، فقد تداعى السرير الذى يجلس عليه النظارة بمن فوقه ، وشغلهن الصراخ عن سابق اعجابهن بالرواية ، وأسرع « دون بيدرو » و « رودريجو » لانقاذ المدعوات من تحت السرير ، وقد كدن يفقدن النطق لكثرة الضحك •

وعندما هدأت الأنفاس وخف الانفعال ، دخلت الطاهية حنا تحمل الى الموجودات تحيات مسز مارش ، وتدعوهن باسمها لتناول العشاء .

وكانت المائدة مفاجأة ابنات مارش الأربع ، فتطلعن اليها فى دهشة بالغة ، وقد رأين ما حوت من اذائذ تفوق فى كثرتها وتنوعها ما اعتدن عليه أيام الرخاء : كان عليها صحنان كبيران مليئان بالمثلجات البيضاء والوردية ، وحولهما انتثرت أطباق الفطائر والكعك والحلوى على مختلف أشكالها ، فضلا عن أربع باقات من الزهور النادرة .

واحتبست الأنفاس فى صدورهن لفرط العجب ، وانتقلت أنظارهن فى تساؤل بين المائدة الفاخرة وبين وجه الأم الباسمة فى غبطة وانشراح .

قالت آمى :

ــ يا للمعجزة !

وقالت بث :

ــ انه سنتا كلوز !

وابتسمت ميج ابتسامة عذبة وقالت :

ــ انها هدية والدتى .

فصاحت جو كأنما هبط عليها الوحى فجأة :

ــ بل هدية عمتنا مارش ، وأعتقد أنها أصيبت بنوبة من الحنان ، فأرسلت الينا هذا العشاء !

فقالت مسز مارش :

— لم تصب واحدة منكن فى حدسها ، فهـذه هدية مستر لورنس العجـوز •

قالت ميج فى عجب :

— جد لورنس الصغير ؟ ترى ما الذى دفعـه الى ذلك ، ولسـنا على معـرفة به ! ؟

قالت مسز مارش :

— يبدو أن حنا حدثت خادما له بقصة تنازلكن عن افطاركن لمسز هامل الفقيرة ، فنقل الخادم القصة الى سيده • وقد سر مستر لورنس لصنيعكن ، فبعث للىّ بعد ظهر اليوم رسالة يستأذننى فيها أن أسمح له بالتعبير عن بعض عواطفه الودية نحوكن ، فأقبل منه الأطعمة الشهية تكريما لهذا اليوم • ولم يطاوعنى قلبى على الرفض ، لأنه كان صديقا لأبى فيما مضى من الأيام • هذا سر الوليمة ، ولعل فيها أعظم تعويض عن خبز الصباح وحليبه •

وبينمـا كانت صحاف الحلوى تـدور على البنـات وضيفاتهن ، والمثلجات تختفى تدريجا فى الأفواه الصغيرة النهمة ، قالت جو :

— أنا واثقة من أنها فكرة الصبى أقنع جده بها • انه صبى ممتاز وان كان شديد الخجل ، ويا حبذا لو تعرفنا به ، واتخذنا منه صـديقا لنا ، وطالما شعرت بأنه يتوق بالمثل الى صداقتنا ، ولولا تزمت ميج لكنت بادلته الحديث منذ زمن طويل ، ولكنها كانت تمنعنى من ذلك ، وتذكرنى دائما بدواعى العرف والتقاليد •

سألت احدى الفتيات قائلة :

ــ أتتحدثين عن أولئك القوم الذين يسكنون البيت الكبير المجاور لكم ؟ ان والدتى تعرف مستر لورنس العجوز ، ولكنها تقول انه متكبر يكره الاختلاط بجيرانه ، وله أساليب عجيبة فى تربية حفيده الوحيد ، فهو يمنعه من الخروج إلا على صهوة جواده ، أو فى رفقة مربيه ، كما أنه يفرض عليه العلم والدرس فرضا ، ويعمل جهده على ابعاده عن أترابه من البنين والبنات • وأذكر أننا دعوناه مرة الى وليمة أقمناها ببيتنا ، ولكنه لم يحضر •

قالت جو فى عزم :

ــ انه صبى مهذب ، وقد هربت قطتنا يوما الى حديقته ، فأحضرها لى ، وتبادلنا الحديث عبر السياج ، وكان حديثا شيقا عن الألعاب الرياضية ، ولكن ميج أقبلت فجأة ، فانصرف عنى مسرعا • انى أعطف عليه وأود من صميم قلبى أن أتعرف به ، وأعتقد أنه فى أشد الحاجة الى أصدقاء يؤنسون وحدته ويذهبون وحشته •

قالت مسز مارش :

ــ وأنا أراه مهذبا كريم الأخلاق ، ولا مانع عندى من أن تتعرفن به فى أول فرصة مواتية ، فلقد جاء بنفسه يحمل باقات الزهور ، ولمست فيه ميلا الى قضاء السهرة معنا ، وكنت أود أن أستبقيه ، ولكنى لم أكن أدرى ماذا تفعلن فى الطابق الأعلى على وجه التحقيق •

فضحكت جو وهى تنظر الى حذائها الطويل ، وقالت :

ــ حسنا صنعت يا أماه ، فتمثيلية الليلة لم تكن على ما ينبغى ،

ولكننا قد نقوم قريبا بتمثيل رواية أخرى أفضل من هـذه ، فندعـوه اليها ، وربما أشركناه معنا فى تمثيلها •

قالت ميج وهى تتأمل باقة الزهور معجبة :

ــ انها أول مرة تأتينى فيها زهور نادرة كهذه •

فقالت مسز مارش وهى تشم الوردة الذابلة التى أعطتها إياها بث فى الصـباح :

ــ ان زهـور مستر لورنس جميـلة ، ولـكن وردة بث أجمـل وأبـدع •

فنهضت بث الى أمها تشكرها وقالت تهمس فى أذنها :

ــ ليتنى أستطيع أن أبعث بزهورى الى أبى ، فلست أظن أنـه يقضى فى الميدان عيدا سعيدا كالذى نستمتع اليوم به •

الفصل الثالث

لورنس الصغير

وقفت ميج عند أسفل السلم تنادى :

ــ جو ••• جو ••• أين أنت ؟

أجابت جو من الطابق العلوى :

ــ هنا •

وصعدت ميج السلم جريا ، فوجدت أختها تقبع فى ركن من الأريكة العتيقة ، ذات الأرجل الثلاث ، وهى تأكل تفاحة ، وقد اغرورقت عيناها بالدموع لفرط تأثرها بالقصة المحزنة التى تقرأها • وكان هذا الركن ملاذ جو المفضل ، كلما أعوزها الهدوء هرعت اليه ومعها بضع تفاحات وكتاب لطيف ، فتقضى فيه الوقت وحيدة ، لا أنيس لها إلا « سكرابل » ، ذلك الفأر الأليف ، الذى اتخذ له جحرا بالقرب من الأريكة ، واعتاد أن يسكن الى جو ، فيطوف حولها فى غير حرج • وما ان ظهرت ميج حتى أسرع الفأر هاربا الى جحره ، ومسحت جو دموعها ، والتفتت الى أختها مستفسرة •

قالت ميج وهى تلوح بورقة فى يدها :

ــ هاك بطاقة رسمية بعثت بها الينا مسز جاردنر تدعونا فيها الى وليمتها مساء غد ••• أنظرى ! •

وشرعت تقرأ الدعوة فى مرح وحماسة :

ــ « يسر مسز جاردنر أن تتشرف بدعوة الآنستين مارجريت

وجوزفين مارش الى حضور المرقص الــذى تقيمه احتفــالا بليلة رأس السنة الجــديدة » ••• والدتى لا تمانع فى ذهابنــا ••• خبرينى ماذا ترتدين غــدا ؟

أجابت جو وفمها محشو بالتفاح :

ــ كيف تسأليننى وأنت تعلمين جيدا أنه ليس لدينا ســوى ثوبينا البوبلين ؟

فتنهدت ميج وقالت :

ــ ليتنى أملك ثوبا من الحرير • ولكن هيهات فوالدتى لا تريد أن ألبس الحرير قبل أن أبلغ الثامنة عشرة من عمرى ، ومازال أمامى عامان طويلان حتى أبلغ السن الموعودة • قالت جو :

ــ البوبلين لا يقل جمالا عن الحرير ، وثوبك يكاد يكون جــديدا ، أما أنا فقد أفسدت ثوبى ، فحرقته من الخلف ، ومزقته من الأمــام ، فماذا أنا صانعة الآن ؟ ان الحــرق كبير ملحوظ ولن يمكننى اخفاءه •

قالت :

ــ اجلسى طول الوقت ، وأسندى ظهرك الى المقعد حتى لا يراه أحد ، فالصــدر لا بأس به • لقد وعدتنى أمى بمشبكها اللؤلؤى ، وأرى أن أزين شعرى بشريط جــديد ، ومن حسن الحظ أن حــذائى جميل ، أما قفازى ففى حالة جيدة على كل حال •

ولم يكن من طبع جو أن تحرص على أناقتها ، فقالت :

ــ أما قفازى فقد أفسدته منذ أن سكبت عليه شراب الليمــون ،

وليس معى نقود أشترى بها قفازا آخـر جـديدا ، فلا مفـر من أن أذهب بغير قفاز •

صاحت ميج فى استنكار :

— لا يمكن أن تذهبى بغير قفاز ، وأن فعلت ذلك لن أذهب معك • ان القفاز جزء لا يتجزأ من أناقة الهندام ، ولا يجوز الرقص بدونه ، فالبسى بالله واحدا وإلا قتلنى الخجل منك •

قالت جو :

— اذا كان الأمـر كذلك فلن أرقص ، ويكفينى أن أجلس مكانى طوال السهرة ، ولست على كل حال من هاويات الرقص ، ورأيى أن اللف والدوران مضيعة للوقت •

قالت ميج :

— انك مهملة فى العناية بثيابك ، ويوم أفسـدت قفازك أنذرتك والدتى بأنها لن تشترى لك غيره طوال الشتاء ، فلا تتوقعى أن تأتيك بجديد لأنـه غالى الثمن • أفلا يمكنك أن تتداركى الموقف بحـال من الأحـوال ؟

قالت :

— ليس أمامى إلا أن أمسك به فى يـدى حتى لا تظهر البقـع • أو هناك فكرة أخرى ، فما دام قفازك فى حالة جيدة ، اعطنى فـردا منه وأعطيك فردا من قفازى ، ونلبس النظيف ونمسك بالمبقع •

وكانت ميج شـديدة العناية بملابسها وأدوات زينتها ، فعز عليها أن تعير قفازها لجو ، خشية أن تفسده باهمالها فقالت :

ـ يدك أكبر من يدى ، فان لبسته اتسع •

صاحت جو بضيق ، وقد استقر رأيها على أن تعود الى قـراءة كتابها :

ـ إذاً أذهب ، ولا يهمنى ما يقول الناس •

قالت ميج منزعجة :

ـ خذى قفازى اذا أردت ، ولكنى أرجوك رجاءً حارا أن تحافظى عليه ، وأن تحافظى أيضا على مقتضيات الأنوثة ، فلا تضعى يديك وراء ظهـرك ، ولا تحملقى فى وجــوه النــاس ، وايــاك أن تنطقى بألفاظ عامية كما اعتدت دائما أن تفعلى •

قالت :

ـ اطمئنى ، فسأكون عند حسن ظنك ، ولن أحشر نفسى فى المآزق ما أمكن ، فاكتبى لمسز جاردنر واشكريها على دعوتها الكريمة وأخبريها بأنه يسرنا أن نلبيها • والآن ، اذهبى ودعينى أكمل قراءة هذا الكتاب البديع •

وكتبت ميج الخطاب المطلوب ، ثم جلست تغنى فى صوت خافت جميل ، وهى تشلح ثوبها ، وتضيف اليه بعض التحسينات ، حتى أتمت جو قراءة قصتها ، وأتت على بقية تفاحاتها ، وانتهت من مداعبة فأرها العزيز «سكرابل» •

وفى ليلة الحفلة ، أقفر بهو آل مارش من ساكناته اللاتى اعتــدن أن يجتمعن فيه كل مساء ، فقد انشغلت الفتاتان الصغيرتان بمساعدة أختيهما فى الاستعداد للرقص • وكان البيت فى هرج ومرج ، فواحدة

تهبط السـلم مسرعة ، وثانية تصعده قفزا ، وثالثة تدلى بملاحظتها ، ورابعة تضحك مغتبطة • وقد رأت ميج ، استكمالا لأناقتها ، أن تسدل خصلة من شعرها كوق جبينها ، كتطوعت جو بمعاونتها على ذلك ، وأتت بمكواة الشعر الساخنة تلف حولها الخصلة حتى تنسدل على جبين أختها فى شكل جميل • وكانت المكواة أكثر سخونة مما يجب ، فما التف الشعر حولها ، حتى فاحت رائحة الحـريق وتصـاعد دخان خفيف • ورأت بث ما حدث فسألت أختها :

ــ أيتصاعد الدخان دائما هكذا عند كى الشعر ؟

أجابت جو :

ــ بل هى رطوبة الشعر تتصاعد فى بخار •

قللت بث تتحسس خصلات شعرها الجميل باعتزاز :

ــ ما هذه الرائحة العجيبة ؟ كأنى أشم ريشا يحترق •

فقالت جو ، وقد أوشكت أن تنتهى من عملها :

ــ عندما أسحب المكواة من بين الشعر ، سترين الحلقات الجميلة تحيط بجبينك كالتاج •

وسحبت المكواة من شعر أختها ، فلم تظهر الحلقات الجملية التى وعدت بها ، إنما كان الأمر بالعكس ، فقد سقطت الخصلة كلها ، محترقة على مائدة الزينة •

وصاح الأخوات فى فزع وذعر ، وصرخت ميج منزعجة لما حل بها ، وقالت فى أسى بالغ :

— ماذا صنعت بشعرى ؟ لقد أفسدته ، وأحرقت أجمل خصلة منه ، فكيف أذهب الى المرقص بهذا الشكل ؟ أواه يا شعرى ! أواه شعرى !

وانهمرت الدموع من عينى جو ، لفرط أسفها على ما بدر منها دون قصد ، قالت :

— إنه النحس الذى يلازمنى دائما ، ليتك ما طلبت منى أن أكوى شعرك • إنى أفسد كل ما تمتد إليه يدى ، وهذه محنتى • فتقبلى معذرتى وأسفى ، وثقى أننى لم أكن أعلم أن المكواة ساخنة الى هذا الحد •

فقالت آمى تعزى أختها ميج :

— لم يفسد شعرك كما تتصورين ، ونصيحتى أن تعقديه بشريط كبير يخفى أطرافه المحترقة ، وسيبدو مصففا على أحدث طراز ، فقد رأيت أنيقات كثيرات يصففن شعورهن بهذا الشكل •

قالت ميج فى ندم :

— ليتنى تركت شعرى على حاله ، ولكنى أردت أن أبالغ فى التأنق ، فجوزيت على غرورى أسوأ جزاء •

ونهضت بث من مقعدها وانحنت على أختها تقبلها وقالت :

— صدقت ، فقد كان شعرك جميلا ، وما كنت فى حاجة الى تجعيدة ، ولكن خلـّى عنك ، فبعد قليل يطول ويستعيد رونقه القديم •

وأتمت ميج زينتها ، وتعاونت الأسرة كلها على تصفيف شعر جو الغزير ، وساعدها أخواتها فى ارتداء ثوبها • وكانت ميج تلبس قبعة من المخمل الأزرق ، وثوبا فضى اللون ، لمع على صدره مشبك أمها اللؤلؤى وكانت جو ترتدى ثوبا أحمر اللون ، له بنيقة بيضاء مرتفعة ، تزينه

زهرتان من الأقحوان الأبيض • ولبست كل واحدة منهما فردا من القفاز السليم وأمسكت بفرد من القفاز انقذر فى رشـاقة طبيعية أخفت السر الحقيقى فى هذا التوزيع • وهكذا بدت الفتاتان ، على بساطة هندامهما ، آية فى الأناقة والذوق السليم •

وكان حذاء ميج ذو الكعب العالى ضيقا يؤلم قدميها ، وكانت جو تحس كأن مشابك شعرها تنغرس فى جلد رأسها ، ولكن هـذه المتاعب بدت ثمنا رخيصا للأناقة التى تنشدانها •

قالت مسز مارش تودع بنتيها :

ـ أرجو لكما سهرة ممتعة • لا تسرفا فى الأكل ، وسأبعث إليكمـا حنا فى الحادية عشرة ، لتعود بكما الى بيت •

وخرجت الفتاتان الى الطريق ، فأطلت عليهما مسـز مارش من النافذه ، وقالت :

أمعكما مناديل يد جميلة ؟

فصاحت جو ضاحكة ؟

ـ معنا مناديل جميلة جدا ، ومنديل ميج معطر بماء الكولونيا •

والتفتت الى أختها وقالت لها :

ـ لو زلزلت الأرض زلزالها ، ما نسيت أمى أن تسألنا عن المناديل •

وكانت ميج ذات طبع أرستقراطى ، فقالت :

ـ إنه سؤال هام ، وهى محقة فيه ، فما من سيدة أنيقة تهمل العناية بحذائها وقفازها ومنديلها •

وأخيرا دخلت الأختان بيت آل جاردنر ، وفى الردهــة الكبيرة ، وقفت ميج أمام المرآة ، تتأمل صورتها راضية • قالت لجو :

ــ أترين وشاحى منظما ؟ وهل يبدو شعرى فظيعا ؟ تذكرى أن تخفى ظهرك عن العيون ، فالحرق واضح فى ثوبك •

أجابت جو ، وهى تعدل بنيقتها ، وتسوى شعرها :

ــ سوف أنسى بلا شك • فإذا رأيت عيبا فى مسلكى ، اغمزى لى بعينك حتى أتنبه له :

قالت ميج :

ــ إن السيدة المهذبة لا تغمز بعينها ، فيكفى أن أرفع حاجبىّ إذا أخطأت ، وأومىء برأسى اذا أحسنت • والآن ارفعى كتفيك ، وسيرى فى خطوات قصيرة ، وإياك أن تصافحى الناس بيدك ، كفى ذلك خروج على دواعى الأدب •

قالت جو :

ــ بالله كيف تعلمت كل هــذه الأصــول ؟ من العسير أن أحفظها مثلك •

وتقدمت الفتاتان الى بهو الرقص فى بعض الخجل ، لقلة ارتيادهما مثل هذه الحفلات • واستقبلتهما مسز جاردنر فى عطف وترحيب ، ثم عهدت بهما الى سالى كبرى بناتها الست • وكانت ميج تعرف سالى من قبل ، فسرعان مازال خجلها ، ولكن جو لم تكن بطبعها تأنس الى صحبة البنات ، أو تجد فى حديثهن تسلية ، فوقفت بجوار الحائط تخفى ظهر ثوبها عن العيون ، وقد أحست أنها وحيدة غريبة فى مثل هذا الوسط •

وحانت منها نظرة الى الجانب الآخر من الغرفة ، فرأت ستة فتيان يتحدثون عن رياضة الانزلاق ، فتمنت لو كان فى استطاعتها أن تلحق بهم وتشترك معهم فى حديثم • فأشارت الى أختها برغبتها ، ولكن حاجب الأخت ارتفع فى تحذير شديد ، فلزمت جو مكانها ولم تجرؤ على تحقيق أمنيتها •

وظلت تقف وحدها بجوار الحائط ، ولا من يبادلها ، وخرج المدعوون من البهو تباعا ، فلم يبق فيه غيرها • وكانت تخشى أن تتحرك من مكانها حتى لا يظهر الحرق الأسود فى ثوبها ، فقنعت بالمشاهدة من بعيد • وبدأت الرقص • فلم تلبث ميج أن وجدت رفيقا يقودها الى الحلبة ، فجعلت ترقص معه فى سرعة ومرح ، لا يمكن لأحد معهما أن يتصوركم تعانى فى الحقيقة من ضيق حذائها •

ورأت جو شابا أحمر الشعر يتقدم نحوها ، وخشيت أن يكون قد اعتزم دعوتها الى الرقص ، فانسلت الى الغرفة الصغيرة المجاورة ، واختفت وراء ستائرها ، بحيث يمكنها أن تسترق النظر الى الراقصين وهى فى مأمن من العيون • ولكن شاء حظها العاثر ، أن تجد وراء الستائر شخصا خجولا مثلها ، لاذ هو الآخر بالمخبأ هربا من الناس • وكان هذا الشخص هو لورنس الصغير ، فقالت وهى تحاول أن ترتد على أعقابها مسرعة :

— ظننت المكان خاليا •

فضحك الفتى وقال فى مرح يخالطه بعض الخجل :

— ابق هنا إذا شئت ، وانسى وجودى •

قالت :

ــ ألا يزعجك أن أفسد عليك عزلتك ؟

قال :

ــ أبدا . فما لجأت الى هذا المكان إلا لأنى لا أعرف أحــدا من المدعوين .

قالت :

ــ وأنا مثلك ، فأرجو أن تبقى ، إلا إذا كنت تفضــل أن تكــون وحيدا .

وجلس الفتى بوقار . فقالت جو فى تلطف :

ــ أظن أننى تشرفت برؤيتك من قبل ؟ فأنت تسكن بجوار بيتنــا

قال :

ــ بل نحن أقرب جيران لكم .

وضحك بمرح ، وقد تذكر يوم أعاد إليها قطتها ، فتحدثت اليــه عن الألعاب الرياضية . واغتبطت بضحكه ، فضحكت بدورهــا وقالت بحرارة :

ــ لست أدرى كيف أشكرك على هديتك فى العيد .

قال :

ــ إنها هدية جدى .

قالت :

ــ ولكنها فكرتك . وأكاد أكون واثقة من ذلك .

قال الفتى فى مرح مكبوت :

ــ كيف حال قطتك يا آنسة مارش ؟

قالت :

ــ بخير يا مسز لورنس ، ولكنى أفضل أن تنادينى « جــو » دون ألقاب •

أجاب :

ــ وأنا لست أدعى مستر لورنس بل لورى فقط •

قالت تردد اسمه :

ــ لورى لورنس ! يا له من اسم غريب !

قال :

ــ اسمىالكامل ثيودور ، ولكنى لا أحب هذا الاسم لأن زملائى فى المدرسة كانوا يختصرونه الى « دورا » ، فطلبت إليهم أن يــدعونى «لورى » •

قالت :

ــ إذا كنت تكره اسمك ، فأنا بالمثل أكره إسمى • وأعتقد أنه اسم شاعرى وأفضل أن يدعونى الناس جو بدل جوزيفين • ولكن ، كيف أقنعت زملاءك بتغيير اسمك الى « لورى » ؟

ــ أقنعتهم بالضرب •

أجابت جو فى أسف :

ــ ولكنى لا أستطيع أن أضرب عمتى مارش • وليس أمامى سوى الصبر •

سألها :

ـ ألا تحبين الرقص يا آنسة جو ؟

ونظر إليها كأنما أعجبته كلمة « آنسة جو » ، فقالت :

ـ أحبه إذا كانت الحلبة متسعة ، ولكنها ضيقة فى هذه الليلة ، وأخشى إذا رقصت أن أدوس على أقدام الراقصين ، أو أقلب الموائد بخشونتى المعهودة ، فمن الخير أن أكفيهم شرى ، وأترك الميدان لميج تصول فيه وتجول . ألا ترقص أنت ؟

قال :

ـ أحيانا . ولكنى لم أرقص الليلة خشية أن أخطىء ، فأنا أجهل أساليب الرقص عندكم ، لأننى عشت سنوات فى الخارج .

صاحت جو بحماسة :

ـ فى الخارج ؟ ! حدثنى إذا بما رأيت فى البلاد الأخرى ، فأنا جد شغوفة بأخبار الأسفار والرحلات .

ولم يعرف لورى من أين يبدأ الحديث ، ولكن أسئلة جو سهلت له مهمته ، فانساق يقص عليها كيف تعلم فى مدرسة فيفاى بسويسرا ، حيث لا يلبس التلاميذ قبعات على الإطلاق ، وحيث يقتنون أسطولا من القوارب الشراعية يمرحون بها فى البحيرة . وحدثها كيف كانوا يقوموا بالرحلات مع أساتذتهم فى مختلف بلدان سويسرا خلال العطلة المدرسية .

قالت جو :

ـ ليتنى أزور هذه البلاد ، هل ذهبت الى باريس أيضا ؟

قال :

ــ قضينا فيها الشتاء الماضى •

سألته :

ــ أتتكلم الفرنسية ؟

قال :

ــ إنها اللغة الوحيدة التى كنا نتكلم بها فى فيفاى •

قالت :

ــ إذا أسمعنى جملا منها ، لأننى أقرأ الفرنسية ولكنى لا أعرف نطقها الصحيح •

سألها بالفرنسية :

ــ من تكون تلك الشابة الصغيرة ذات الحذاء الجميل ؟

قالت :

ــ تعجبنى لهجتك الفرنسية السليمة ، وقد فهمت الجملة كلها ، والآنسة التى تسأل عنها ، هى أختى مارجريت • ألا تعتقد أنها جميلة ؟

أجاب :

ــ نعم • وتذكرنى نضارتها بالألمانيات ، ويعجبنى أسلوبها الممتاز فى الرقص •

واغتبطت جو لكلامه كل الاغتباط ، وسرها أن تسمع مديح أختها من شاب مهذب مثل لورى • وجلس الاثنان فى صمت ، يشاهدان الراقصين والراقصات ، ويتسامران بإبداء الملاحظات ، كأنهما صديقان قديمان طالت

بهما المعرفة سنين • وتخلى لورى عن خجله أمام صراحة جو وبساطتها ، واستعادت جو ثقتها بنفسها ، فنسيت ثوبهـا ، وسرها أن شغل الرقص أختها عنها فلم ترفع لها حاجبها محذرة مؤنبة وقد زادتها المعرفة اعجابا بلورى ، فتأملته بدقة مرات عدة ، حتى يمكنها أن تصفه وصفا مسهبا لأخواتها فيما بعـد ، وكانت تعلم أنهن يرحبن بذلك لحرمانهن من الأخ ولقلة عدد الذكور فى العائلة ، مما جعل الفتيان مخلوقات مجهولة لهن •

وجعلت ، فيما بينها وبين نفسها ، تردد أوصافه : شعر أسـود مجعد ، وبشرة تميل الى السمرة ، وعينان سـوداوان واسعتان ، وأنف طويل حاد ، وأسنان منتظمة ، وقامة فى مثل قامتها ، ثم أدب جم ومعشر لطيف • ترى كم يبلغ من العمر ؟ وكاد السؤال يفلت من بين شفتيها ، ولكنها حبسته فى آخر لحظة بلباقة غير معهودة فيها • وكانت تريـد أن تعرف عمره ، فجعلت تلف وتدور حول الموضوع لعلها تصل الى بغيتها فى كياسة وأدب • قالت :

— أتلتحق بالجامعة عن قريب ؟ إنى أراك « تصمّ » الدروس •

وتداركت خطأها باستعمال هذا اللفظ العامىّ ، فقالت :

— أقصد أنك تذاكر كثيرا •

هز كتفيه وقال :

ما زال أمامى عامان أو ثلاثة حتى ألتحـق بالجامعة • فالقوانين الجامعية تحتم أن أكون فى السابعة عشرة •

وكانت قامته الطويلة قد خدعتها فظنت أنه بلغ السابعة عشرة ، قالت :

— أما زلت فى الخامسة عشرة ؟

قال :

ــ سأبلغ السادسة عشرة فى الشهر القادم •

قالت :

ــ ليتنى أستطيع أن ألتحق بالجامعة ، ولكنى لست أراك متحمسا لها ، أفلا تحب أن تنتظم فى صفوفها ؟

قال :

ــ إنى أكره الجامعات ، فالحياة فيها لا تخرج عن العمل والمشاكسة ولست من المغرمين بمشاكسة شباب هذا البلد •

سألته :

ــ وماذا تحب أن تفعل ؟

قال :

ــ أفضل أن أسافر الى إيطاليا أعيش فيها كما يحلو لى •

وكانت جو تتمنى أن تعرف ما الذى يحلو له ، ولكنه كان مقطبا فى هذه اللحظة ، فلم تجرؤ على الاسترسال فى الموضوع • ورأت أن تغير الحديث فقالت :

ــ إن فرقة الموسيقى تعزف رقصة البولكا ، فلم لا تذهب وترقص ؟

قال ، وهو ينحنى أمامها بطريقة فرنسية رشيقة :

ــ إذا قبلت أن تكونى رفيقتى فى الرقص •

قالت :

ــ لا يمكن ، فقد وعدت ميج أن أبتعد عن الرقص لأن • • •

وأمسكت عن الكلام ، ولم تحدثه بالسبب ،واكتفت بأن ضـحكت فى مرح ، فقال يلح فى السؤال :

ــ لأن ماذا ؟؟

قالت :

ــ أتكتم السر ؟

قال :

ــ من غير شك •

ــ من سوء الحظ أننى اعتدت أن أقف بجوار الموقد وظهرى الى النار ، فكان أن احترق ثوبى ، ولم يجد الإصلاح فيه ، ولذلك وعدت ميج أن لا أتحرك من مكانى ، حتى لا يرى الناس مكان الحرق فى ظهر ثوبى • إنه أمر يدعو الى الضحك ، ولا بأس من أن تضحك إذا شئت •

ولكن لورى لم يضحك ، وسكت قليلا يفكر ، ثم قال وفى عينيــه نظرة حيرت الفتاة :

ــ نستطيع أن نحل المشكلة ، إذا رقصنا فى هذا الممــر الطــويل ، بحيث لا يرانا أحد •

واغتبطت جو للفكرة ، وقامت ترقص معه ، وكان البهــو خاليا ، فراحت تتبع أنغام البولكا فى براعة ورشاقة • وعندما انتهت الموسيقى جلس الاثنان يستريحان على درجات السلم ، وعاد لورى يحدثها بالأعياد فى هايدلبرج ، وكيف يحتفل الناس بها هناك • وأقبلت ميج تبحث عن أختها ، فلما رأتها على الدرج ، أشارت إليهــا تستدعيها ، فقامت جــو من مكانها متثاقلة ، وسارت وراء أختها الى حجرة جانبية • وارتمت ميج

فوق الأريكة ، وقد أمسكت بقدمها فى ألم بالغ ، وقالت وهى تتأوه وتتلوى :

— انثنى كعب الحذاء تحتى ، فالتوت قدمى ، وأشعر بألم فظيع ، يعجزنى عن الوقوف ، فخبرينى كيف أعود الى البيت •

قالت جو وهى تدلك قدم أختها فى رفق :

— كنت أتوقع أن يؤذيك هذا الحذاء ، وأنا آسفة لما أصابك ، وأرى أن نعود الى البيت فى عربة •

قالت ميج :

— مستحيل ، فكل العربات الموجودة خاصة بالمدعوين • ولكنى نستأجر واحدة ، يجب أن نسير الى الموقف البعيد ، ولا أستطيع ذلك فى حالتى الراهنة ، ولن نجد من يحضر لنا واحدة •

قالت جو :

— أنا أحضرها •

قالت ميج :

— لا تذهبى ، فالوقت متأخر ، والطرقات مظلمة ، والأفضل أن أستريح قليلا حتى تأتى حنا فأحاول أن أعود معها الى البيت •

قالت جو ، وقد عرضت لها فكرة طيبة :

— سأطلب من لورى أن يحضر لنا عربة •

قالت ميج :

— لا ••• لا تخبرى أحدا بالأمر ، أحضرى لى خفى المطاط وضعى

هذا الحذاء مع بقية ملابسنا ، فلن أستطيع أن أرقص بعدما حدث • وأرجوك أن ترقبى مجىء حنا حالما ينتهى العشاء •

قالت جو :

— رأيتهم يتأهبون للعشاء ، وأفضل أن أبقى بجانبك •

قالت :

— بل أذهبى معهم لتأكلى ، وأحضرى لى قدحا من القهوة إن استطعت ، فلست أقوى على الحراك وقدمى تؤلمنى هكذا •

وجلست ميج فى مكانها بطريقة أخفت الخف المطاط عن العيون ، وذهبت جو تبحث عن قاعة الطعام فضلت طريقها إليها مرتين : الأولى عندما اقتحمت مخزن الأطباق والثانية عندما ولجت غرفة صغيرة كان مستر جاردنر العجوز قد لاذ بها يتناول بعض المرطبات • وأخيرا وصلت الى حيث امتدت موائد الطعام ، فأسرعت تعد قدحا من القهوة حملته الى ميج ، ولكنها لم تلبث أن سكبته على ثوبها ، فتشوه الصدر منه مثلما تشوه الظهر • قالت بارتباك ، وهى تزيل القهوة من ثوبها بقفاز ميج النظيف فتلطخه بالبقع :

— ما أغبانى !!

وهنا سمعت صوتا يقول لها فى رفق :

— أتسمحين لى أن أعاونك ؟

والتفتت خلفها ، فرأت لورى يحمل بإحدى يديه قدحا مليئا بالقهوة الساخنة ، وباليد الأخرى صحنا عامرا بالمثلجات • قالت :

ــ أردت أن أحمل شرابا لميج ، ولكنى اصطدمت فى سيرى بأحدهم ، فانظر ما أصاب ثوبى !!

وجعلت تنقل النظر بين الثوب المبقع والقفاز الملوث •

قال :

ــ أمر يؤسف له ، ولكن خلّى عنك ، فقد كنت أبحث عن شخص أقدم له القهوة والمثلجات ، فإن سمحت ، حملتها الى أختك •

ــ شكرا جزيلا ، تعال أرشدك الى مكانها ، ويؤسفنى أن لا أستطيع حملها عنك ، خشية أن أسكبها فأزيد الطين بلة •

وسارت أمامه الى حيث جلست ميج ، فوضع الطعام والشراب على مائدة صغيرة بجوار الفتاة المتعبة ، ثم انصرف الى قاعة الطعام ، وعاد يحمل لجو نصيبها من العشاء • وكان يقوم على خدمة الفتاتين بأدب ورشاقة ، حتى أقرت ميج بأنه « شاب لطيف » •

وانقضى بهم وقت بهيج ، ولم يلبث أن انضم إليهم بعض الشبان ، فازدادت الجماعة مرحا وغبطة • وعندما انتهوا من العشاء أقبلت حنا ؛ فنهضت ميج تلقاها مسرعة ، وقد نسيت ما أصاب قدمها ، واذا بالألم يفاجئها شديدا قاسيا ، فتترنح وتستند الى ذراع أختها • وهمست فى أذن جو تحذرها :

هس ••• لا تحدثيهم بما جرى •

والتفتت الى أصحابها وقالت :

ــ لا شىء ••• التوت قدمى قليلا ، ولا داعى للقلق •

وصعدت السلم تعرج • فجعلت حنا تؤنبها حتى انهمرت الدموع

من عينى ميج ، وأسقط فى يد جو . ثم اهتدت الى فكرة تساعد بها أختها ، فهبطت درجات السلم مسرعة ، وطلبت الى أحد الخدم أن يحضر لهن عربة • ولكن الخادم اعتذر عن أداء هذه المهمة ، إذ كان غريبا عن هذا الحى ، ولا يعرف أين تقف عربات الأجرة •

وبينما وقفت جو تتلفت حولها فى ضيق ويأس ، أقبل عليها لورى وقد سمع طرفا من الحديث ، واقترح أن يرافقهن الى بيتهن فى عربة جده • واغتبطت بهذا الاقتراح ، ولكنها ترددت بعض التردد فى قبوله •

قالت :

ــ إن الوقت مازال مبكرا ، ومن الظلم أن نقطع عليك سهرتك •

قال :

ــ ولكنى اعتدت أن أعود الى البيت مبكرا ، ولست أنتوى البقاء على كل حال ، فاسمحى لى أن أرافقكن الى البيت ، فالسماء تمطر فى الخارج ، ولن أتجشم بمرافقتكن عناء لأنكن فى طريقى •

وشجعها كلامه على قبول دعوته ، فأخبرته بما أصاب قدم ميج ، شكرت له اهتمامه وكرمه • وصعدت مسرعة تنادى أختها والطاهية ، وكانت حنا تمقت السير تحت المطر ، ولذلك لم تعترض على الفكرة ، ولم تثر مزيدا من المتاعب والإشكالات •

ودرجت بهم العربة الفاخرة ، وكان لورى قد قنع بالجلوس الى جوار السائق حتى يخلى لميج مكانا متسعا تريح فيه قدمها • واغتبطت الفتاتان بالرحلة المريحة كل الاغتباط ، وقطعتا الوقت فى التعليق على الحفل ومن فيه • قالت جو وهى تصلح شعرها ، وتريح بدنها المتعب :

— لقد قضيت وقتا سعيدا ، فهل استمتعت بوقتك مثلى ؟

قالت ميج ، وهى تراجع حوادث الليلة فى بشر :

— استمتعت كل المتعة حتى التوت قدمى • فقد عرفتنى سالى بصديقتها الثرية آنى موفات ، فارتاحت الى معرفتى ، ودعتنى الى زيارتهم فى فصل الربيع عندما يبدأ موسم الأوبرا ، وأرجو أن توافق والدتى على قبول هذه الدعوة ، حتى أذهب مع سالى لقضاء أسبوع حافل بالمباهج مع آل موفات •

قالت جو :

— شاهدتك تراقصين رجلا أحمر الشعر ، فهل كان لطيفا ؟

قالت :

— جدا • وعلى فكرة ، شعره كستنائى لا أحمر ، وكان جم الأدب ، ماهـرا فى الرقص •

قالت جو :

— رأيته يرقص البولكا فذكرنى بجرادة طائشة ، فضحكت ولورى ملء شدقينا ، هل سمعتنا ؟

قالت :

— لا ••• والسخرية بالناس مجافاة للأدب ، فأرجو أن لا تفعلى ذلك مرة أخرى ، ولكنك اختفيت عنا مع لورى وقتا طويلا ، فماذا كنت تفعلين ؟

وحدثتها جو بما فعلته منذ بداية الحفل ، وما انتهت من كلامها حتى

كانت العربة قد وصلت الى البيت • فشكرت الفتاتان لورى ودعتاه ، ثم دخلتا البيت بهدوء حتى لا تزعجا النيام ، ولكن آمى وبث كانتا فى الانتظار ، فلما دلفت الفتاتان الى غرفة النوم ، هتفت بهما الأختان الصغيرتان تقولان فى نفس واحد :

— علينا بأخبار الحفلة ، وما حدث فيها من البداية الى النهاية •

وأخرجت جو من جيبها قطعا من الحلوى ، كانت قد اقتصدتها من نصيبها لأختيها ، رغم معارضة ميج لما فى ذلك من خروج على أصول اللياقة ، وأغتبطت الصغيرتان بالهدية ، وزاد اغتباطهما سماع حوادث السهرة المثيرة •

وجلست ميج فى مقعد مريح ، وعكفت عليها جو تمشط لها شعرها ، وتدلك قدمها الملتوية • قالت :

— يخيل الى ، بعدما حدث الليلة ، أننى سيدة أرستقراطية ، أرتاد المراقص والحفلات ، وأعود الى البيت فى عربات فاخرة ، واذا ما آويت الى مخدعى ، عاونتنى خادمى فى تصفيف شعرى وخلع ملابسى •

قالت جو :

— صدقت ، وأنا أشعر مثلما تشعرين ، وأعتقد أننا استمتعنا الى أبعد حد ، وسعدنا كل السعادة ، بالرغم من ثيابنا العتيقة ، وشعورنا المحترقة ، وأحذيتنا الضيقة المتعبة •

الفصـــل الرابـــع

متاعب وهمـــوم

لم يكن من السهل على ميج أن تستقبل عملهـا المضنى راضية ، بعد عطلة العيد العامرة بالمبـاهج والمسرات ، فقالت فى صباح اليـوم التالى فى حسرة وضيق :

— ما أشق أن نعود الى طريق الكفاح الطويل •

أجابت جو وهى تتثاءب :

— ما كان أسعدنا ، لو أن الحياة كلها أعياد !

قالت ميج وهى تفحص ثوبيها لتختار أقلهما قدما :

— انى أحب الرخـاء ، وأغبط الفتيات الثريات ، وأتمنى أن أعيش فى ترف ونعيم : أتناول العشـاء خارج البيت كل ليـلة ، وأهدى باقات الزهور النادرة ، وأرتاد الولائم والحفلات ، وأتنقل فى عربات تجـرها الجياد المطهمة ، ليتنا نستطيع أن نستمتع بالراحة ولا نعمل شيئا •

قالت جو :

— لا تطلبى المستحيل ، ولا داعى للتذمر اذا لم يكن منه فائدة ، وخير لنا أن نحزم متاعبنا وأعباءنا ، ونحملها فى طريق الحياة متفائلات مستبشرات ، وقدوتنا فى ذلك أمنا العزيزة ••• اذا كان عملك يضايقك ، فماذا أقول أنا فى خـدمة عمتى مارش ؟ انهـا والله عبء ثقيـل على

أكتافى ، ويوم أروض نفسى على احتمالها راضية ، تكون متاعبى قد انتهت ، وطريق حياتى سهل واسع •

وتصورت جو أن أمنيتها تحققت ، وأنها نجحت فى احتمال عمتها راضية ، فانشرح صدرها للفكرة ، ولكن ميج ظلت واجمة ، ورأت كأن متاعبها تفوق متاعب الدنيا كلها • فهى تعمل مربية لأربعة أطفال أفسدهم الرخاء والتدليل ، وانه لعمل يقبض الصدور ، خصوصا بعد عطلة العيد وما حفلت به من ألوان المتعة والترفيه • وضاعفت فكرة العودة الى العمل شعورها بالانقباض ، فكرهت أن تتجمل كالمعتاد ، ولم تعن بتصفيف شعرها ، لا ولم تربط عنقها بشريط أزرق ، لامع • قالت وهى تنتهى من ارتداء ثيابها :

— لماذا أتجمل ولا من يرانى غير أولئك الأطفال المتعبين ؟ سواء كنت جميلة أو دميمة ، فليس هناك من يلقى نظرة علىّ أو يهتم بأمرى • سوف أتعب وأشقى طوال حياتى ، ولن أنال من المتعة إلا نتفا صغيرة ، ولن تلبث الشيخوخة أن تحل بى ، فأصبح عانسا لاذعة اللسان ، وما ذلك إلا لأنى فقيرة ، لا أملك مالا يسعدنى ، ولا جاها يسندنى ، فيا للبؤس ويا للشقا !

وتوجهت ميج الى مائدة الافطار كسيرة القلب حزينة ، فوجدت أخواتها بدورهن ثائرات متذمرات : بث ترقد على الأريكة تشكو صداعا ألم برأسها ، وآمى فى ضيق شديد لأنها لم تستذكر دروسها خلال العطلة ، ولا تجد حذاءها المطاط ، وجو تصفر فى عصبية وهى تستعد لاستقبال يوم عصيب ، وحنا تضج لتأخر أفراد العائلة فى النوم مما يعطل أعمالها •

وازدادت جو بالتوتر الشامل ارتباكا على ارتباك ، فانقلبت منها زجاجة الحبر ، وانقطع رباط الحذاء ، وجلست سهوا على قبعتها فهشمتها ، عند ذلك فقدت سيطرتها على نفسها وصرخت غاضبة :

ـ ما رأيت شبيها لهذه الأسرة الثائرة •

أجابت آمى ، وهى تغسل بدموعها أخطاءها الحسابية عن لوح الاردواز :

ـ أنت أكثرنا ثورة وتذمرا •

وصاحت ميج غاضبة ، عندما تشبثت بثوبها قطيطات بث الصغيرات :

ـ ان لم تبعدى هذه الحيوانات عنى يا بث ، أغرقتها فى النهر •

وضحكت جو ، وظلت ميج تؤنب أختها ، وبث تستعطفها العفو عن قطيطاتها ، وبكت آمى لعجزها عن اتمام مسألة الحساب •

وكانت مسز مارش مشغولة فى تحرير رسالة ، فرفعت رأسها تقول لبناتها :

ـ اهدأن لحظة واحدة ، حتى أنتهى من هذه الرسالة ، فشجاركن يعطلنى وأخشى أن يفوتنى بريد الصباح •

وساد السكون مؤقتا ، وهدأت الغرفة إلا عن حركات حنا ، وهى تحمل الفطائر الساخنة الى المائدة • كانت البنات جد شغوفات بهذا اللون من الفطائر ، ولذلك كانت الطاهية تحرص على صنعها لهن كل صباح ،

فيحملنها معهن الى العمل وجبة للغذاء ، يتصبرن بها على الجـوع حتى يعدن الى البيت آخر النهار •

قالت جو ، هى تشعر أن اليوم لم يبدأ بداية حسنة :

ـ هيا بنا الى العمـل يا ميج ، وحاولى أن تتغلبى على صـداعك يا بث ، الى اللقاء يا أماه ، لقـد بدأنا اليـوم شياطين ، وأرجـو أن نعود اليك ملائكة •

وانصرفت من البيت فى رفقة ميج •

وكان من عادة الفتاتين أن تلتفتا الى البيت عند منعطف الطـريق ، فتلوح لهما الأم بيـدها من النافذة ، وكانت حاجتهما الى تلك التحيـة شديدة هذا الصباح ، فان نظرة من وجههـا العـامر بأبلغ آيات العطف والحنان ، ذخيرة نفسية وفيرة ، تعينهما على تحمـل أعباء عملهما المضنى الشـاق •

وبعثت برودة الجو فى جسد جو نشـاطا ، وأكسبتها تحيـة أمهـا مرحا وتفاؤلا ، فقالت لأختها ضاحكة :

ـ ليت أمى هزت لنا قبضتها مهددة ، بدل القبلة التى بعثت بهـا الينا مع الهواء ، فلسـنا أهـلا لحنانها ، وقد كنا صباح اليوم أشـبه « بغانيات » جاحدات •

قالت ميج تؤنب أختها :

ـ لا تستعملى هذا اللفظ القبيح •

قالت جو ، وهى تحمى قبعتها من عبث الهواء :

ــ انى أحب الألفاظ القوية المعبرة •

أجابت ميج :

ــ صفى نفسك بما تشائين ، ولا شأن لك بى ، فلست « غانية » كما تقولين ، ولا أحب أن أشبه بالغانية •

قالت جـو :

ــ أنت اليوم مخلوقة متعبة ، قلبك عامر بالحنق والغضب ، لعجزك عن التمرغ فى أحضان الترف • اصبرى حتى أجمع لك ثروة طائلة ، توفر لك العربات الفاخرة ، والجياد المطهمة والمثلجات الشهية ، والأحذية ذات الكعوب العالية • وعندئذ تعيشين كما ترغبين ، وترقصين مع الرجال ذوى الشعور الحمراء !

وانقشع عن ميج غضبها بهذا الهراء ، وزايلها ضيقها السابق ، فقالت ضاحكة :

ــ ما أسخفك يا جو !

قالت جـو :

ــ من حسن حظك أننى سخيفة ، ولو لم أكن كذلك ، لأجبتك على غضبك بمثله فتسوء العاقبة • انى أحمد الله على نعمة المرح ، وأجد فى التفاؤل قوة وسعادة ، فكونى مثلى ، واتركى الغضب والتذمر ، وتعودى أن ترجعى الى البيت فرحة راضية •

ثم ربتت على كتف أختها مشجعة ، وانصرفت كل الى مقر عملها وهى تتظاهر بالسعادة ، رغم برودة الجو ، ومشقة العمل ، وقسوة الحرمان من مباهج الشباب •

كان مستر مارش فى بداية حياته على قدر مذكور من الثراء ، ولكنه كان طيب القلب عطوفا ، فلما رأى صديقا له فى مأزق مالى ، أراد أن ينقذه ، فضاعت ثروته ، ولم يبق له إلا الكفاف . ورأت ابنتاه الكبيرتان أن تخففا العبء عنه بالعمل ، فسمح لهما أبوهما بذلك ، وغرضه الحقيقى أن يعلمهما الاعتماد على النفس ، ويغرس فى نفسيهما روح الجد والنشاط . واقتحمت الفتاتان أبواب العمل فى عزيمة لا تلين ، واشتغلت مارجريت مربية للأطفال . وكان أجرها ضئيلا ولكنها شعرت كأنه ثروة طيبة ، تكفل لها نفقاتها الخاصة ، وتغنيها عن سؤال والدها المرهق بالأعباء ، وكانت بطبعها تميل الى حياة الترف ، وتحب أجمل الأشياء ، ولكن ظروفها المالية لم تحقق أمانيها الواسعة . وكانت ترى ألوان الرخاء فى بيت مخدومها مستر كنج ، فتجاهد فى إخفاء غيرتها مما تراه حولها ، وتبذل جهودا مضاعفة فى كبت ضيقها بالحياة ، وهى ترى بنات مستر كنج الكبيرات يرتدين الملابس الغالية ، ويحملن باقات الزهور النادرة ، ويرون العجيب من أحاديث المسارح والحفلات . وكانت ترى الأسرة تنفق أموالا طائلة فى كماليات تافهة ، فيزيد شوقها الى هذه التوافه ، وتعتبرها أثمن الأشياء .

وقلما كانت ميج تصرح بما يعتمل فى نفسها ، فاستبد بها احساس مكبوت شعرت معه بأنها مظلومة فى هذه الحياة ، وأن ظلمها يبدو مريرا لأنها لم تنشأ على الفقر فى صغرها ، بل عرفت الثراء يوما ، وما زالت تذكر عهد العز والرخاء .

وكان نصيب جو مختلفا ، فقد أعجبت بها عمتها مارش ، فاستخدمتها وصيفة لها . وكانت العمة مارش عجوزا عرجاء ، تحتاج الى من يساعدها على أداء واجباتها ، فلما حلت النكبة المالية بأخيها أبدت

رغبتها فى أن تتبنى واحدة من بناته الأربع ، ولكن الأب رفض أن يجيبها رغبتها ، وقد أنكر الأصدقاء عليه رفضه هذا ، وقالوا انه يحرم بناته فرصة طيبة فقد تورثهن العمة مالها ، ولكن الماديات لم تخدع آل مارش ، فردوا على أصدقائهم قائلين :

— لن نفرط فى بنت لنا لقاء مال مهما كثر ، وسنبقى دائما معا فقراء أو أغنياء •

واشتد الغضب بالعمة العجوز ، فخاصمت أخاها وأسرته زمنا طويلا ، ثم شاء القدر أن تقابل جو فى بيت أحد الأصدقاء ، فراقها منها وجه ضاحك ، وروح مرحة ، وأسلوب صبيانى خشن ، وعندئذ نزلت العجوز عن غضبها السابق ، وعرضت على أخيها أن تتخذها وصيفة لها تساعدها فى البيت طوال النهار • ولم يرق هذا العرض فى نظر الفتاة ، ولكنها اضطرت الى قبوله بعد أن أعياها البحث عن وظيفة أخرى • ولدهشة الأقارب والأصدقاء على السواء ، سارت الأمور على ما يرام بين جو وعمتها ، وكانتا تختلفان أحيانا ، وتقوم بينهما مشادات ومناقشات ، فتخرج جو من بيت عمتها غاضبة ، وتقسم أن لا تعود اليه ثانية ، ولكن غضب العجوز لا يلبث أن ينصرف ، فترسل فى استدعاء بنت أخيها ، وتلح فى طلبها وترجو فتلين الفتاة وتعود اليها والسر فى ذلك أنها كانت تحب عمتها وتحلها من نفسها محلا طيبا ، رغم سوء طبعها وقسوة لسانها •

ولعل أكثر ما كان يجتذب جو الى بيت عمتها ، تلك المكتبة العامرة بأقيم المؤلفات ، وكان زوج عمتها قد ترك هذه المكتبة ضمن مخلفاته ، فظلت بعد وفاته مهملة تنسج عليها العناكب خيوطها • ورغم مضى السنوات على موته ، كانت جو لا تزال تذكره ، وتذكر كيف كان يأذن لها

أن تلعب بالكتب والقواميس فتبنى بها بيوتا وقصورا ، وكيف كان يهديها صورا وحلوى كلما رآها فى الطريق .

وكانت غـرفة المكتبة متربة معتمة ، تنتثر فيهـا التماثيل النصفية والمقاعد المريحة ، وتغطى رفوفهـا كتب لا حصر لهـا ونمـاذج مختلفة الأحجام للكرة الأرضية . وكانت جو تحب تلك الغرفة ، وتلجأ اليهـا كلما أعوزها الهدوء والترفيه ، كما ان تغفو عمتها غفوة قصيرة ، أو يشغلها عن وصيفتها زائر أو صديق ، حتى تهرع جـو الى ملجأها الهادىء ، فتجلس فوق أحـد المقاعد ، وبين يديها كتاب ممتع فى الشعر أو القصص أو التاريخ أو الأسفار والرحلات تلتهم بعينيها ما فيه التهاما . ولـكن قلمـا كانت سعادتها تدوم ، فمـا ان تصـل الى أمتع ما فى كتابهـا ، إلا ويرتفع صوت العجـوز مناديا : « جـو .. زيف .. ين .. جو .. زيف .. ين » وعندئذ تترك متعتها كارهة ، وتعـود الى عمتهـا لتساعدها فى لف بكرة خيط ، أو تنظيف كلبها المدلل ، أو تقرأ لها كتابا مملا سـاعات وسـاعات .

وكانت جو تتمنى أن تقوم بعمل رائع فى يوم من الأيام ، ولكنهـا لم تحدد نوع هذا العمل ، واختارت أن تترك للزمن هذه المهمة ، قانعة عن السعى اليها بالتفجع على حرمانها من القراءة والجرى وركوب الخيـل وغير ذلك من ألوان التسلية المفضلة لها . وكانت الفتاة حـادة الطبع ، لاذعة اللسان ، حائرة المزاج ، وهى صفات كثيرا ما أوقعتهـا فى مآزق حرجـة ، وجعلت سـيرتها خليطا من الفضـائل والنقائص ، التى كانت تضحكها أحيانا ، وتبكيها أحيانا أخـرى . ولكنها رضيت بالعمل فى بيت عمتها ، رغم المضـايقات المختلفة ، من أجـل المرتب الذى كانت تشعر أنهـا فى حاجة اليـه .

وكانت بث تعانى خجلا شديدا ، وقف بينهـا وبين الاستمرار فى دراستها ، فتركت المدرسة لتتلقى علومها فى البيت على يد والدها ، فلما دعـا الأب داعى الوطن ، وتطوع فى سلك الجيش المحارب ، وانشغلت أمها عن تعليمها بالعمل فى « جمعية مساعدة الجنود » ، عكفت على تعليم نفسها بنفسها فى جد واخلاص وعزم • وكانت ربة بيت بطبعها ، فتعهدت بمساعدة حنا فى تدبير شئون المنزل ، وتهيئة أسباب الراحة لأخواتهـا العاملات ، لا تنتظر جزاءً سـوى محبـة أفراد الأسرة ، واعتزازهن بهـا •

وكانت تمضى بها الساعات والأيام ، وهى تعمل وحيدة ، فلا تكل من العمل ولا تشكو الوحدة ، لأنهـا كانت تعيش فى دنيـا خيالية عامرة بالأصدقاء والمسرات • كانت تتخذ من الدمى العتيقة التى خلعهـا عليها أخواتها ، أصدقاء أعـزاء ، تحدثهم وتدللهم ، وتكسوهم بالثياب التى تصنعها من الخرق البالية • ولم يكن بين هـذه الدمى واحـدة سليمة أو جميلة الشكل ، ولكنها كانت تحبها لبؤسها وسوء حالها • ومن الطريف أنها لفرط عطفها على دماها افتتحت لذوات العاهات منهـا ملجأ أمينا ، تحوطها فيه بأبلغ ألوان الرعاية والحنان • وكانت تعتز بحطام دميـة اشتريت لجو فى يوم من الأيام ، فعبثت بها خشـونتها الطبيعية حتى تحطمت ولم يبق منها إلا جزء يسير ، فألقت بها فى صندوق الفضلات وجاءت بث بحنانها المعهود فأنقذت الدمية من مصيرها التعس ، وآوتها فى ملجأها ، بعد أن غطت جمجمتها المكسورة بقبعة صغيرة وأخفت الأطراف المبتورة تحت ثوب فضفاض • والعجيب أن هذه الدمية المحطمة احتلت أحسن سرير فى الملجأ ، وآثرتها بث بأكبر قسط من رعايتها واهتمـامها ، فكانت تأتيها ببقـايا الزهور الجميلة ، وتقرأ لها لتسليها ، وتصحبها معها

الى الحديقــة لتروح عنها • وكانت تغنى لها قبل النوم ، وتودعهــا كل ليلة بقبلة ملؤها العطف والشفقة ، ثم تهمس فى أذنهــا متمنية لهــا نوما هادئا وأحــلاما سعيدة •

وكان لبث متاعبها وأشجانها ، فقد كانت تعشق الموسيقى ، وتجهد نفسها فى تعلم أصولها ، وتؤدى تمريناتها بصبر وجلد ، وكل أملهــا فى الحياة أن تقتنى معزفا جميلا ، وأن تلقى المساعدة فى دراسة الموسيقى ، ولكن معزف الأسرة كان عتيقا باليا ، ولم يعن أحد بمعونتها فيما تنشد ، فكانت اذا اشتدت بها الهموم ، واستعصت عليهــا الأنغــام ، قنعت بالبكاء وحدها ، فتتساقط دموعها على أصابع المعزف الصفراء ولا من يعلم مبلغ شقائها • وعلى الرغم من ذلك كانت مرحــة طروبا ، تغنى كالكروان وهى تؤدى أعمال البيت الشاقة فى صبر وجلد • وكل أملهــا أن يحقق الله أمانيها جزاءً لها على طيبتها واخلاصها •

العالم ، ولا شــك ، ملىء بفتيات مثــل بث ، يقنعن بالانزواء ، ويضحين من أجل سعادة غيرهن ، ويعشن فى انكار جميل للذات ، ولا من يحس بعظــم نصحيتهن حتى يقضى الله أمــرا كان مفعــولا ، فتسكت أصواتهن الجميلة عن الكلام ، وتغيب شموسهن الساطعة عن الوجود ، فيرحلن عن الحياة وقد خلفن لأحبتهن سيرا عاطرة وذكريات لا تموت •

لو أن سائلا سأل آمى عن أكبر همومها ومتاعبها ، ما ترددت فى الاعتراف بأنها تعانى الأمرين من أنفها ، الذى يرجع تاريخ محنتهــا فيه الى مرحلة الطفولة ، يوم كانت جو تحملها بين ذراعيها ، فسقطت الصغيرة منها عفوا فى اناء الفحم الكبير • ويحلو لآمى دائما أن تحمــل السقطة وزر تشويه أنفهــا ، وتقول انه لولا اصابتها فى ذلك اليــوم ،

ما تغير شكل الأنف وما فسد رسمه الأول الجميل • ولم يكن أنفها في الحقيقة كبيرا أو قبيحا ، ولكن كان مفرطحا ، وكانت تود أن يكون معتدلا مستقيما ، ولما لم تجد في اصلاحه محاولاتها الساذجة الكثيرة قنعت في التعبير عن آمالها الخائبة برسم أنوف جميلة ، ملأت بها صفحات وصفحات •

وكانت ذات موهبة ممتازة في الرسم ، وأسعد أوقات حياتها تلك التي تقضيها في نسخ صور الزهور والورود ، أو في تأليف مناظر عجيبة تصور بها حوادث القصص التي تقرأها • وكان مدرسوها يشكون من أنها تضيع وقتها في ملء لوح الاردواز برسوم الحيوانات ، بدل أن تحل مسائل الحساب ، وأنها تملأ الصحائف البيضاء من أطلسها بنسخ الخرائط المعقدة ، وأن كتابا من كتبها لم ينج من الرسوم الهزلية المختلفة • ولم تكن ممتازة في دروسها مثلما هي ممتازة في رسومها ، ولكنها استطاعت أن تتحاشى العقوبات بالطاعة والنشاط والأدب • هذا الى اتقانها الغناء والتطريز ، والمامها بالفرنسية بحيث لم تكن تخطىء في نطق أكثر من ثلثي ما تقرأ ، وهو تفوق عظيم بالقياس الى زميلاتها الأخريات !! وكانت محبوبة من لداتها لمرحها وكياستها ، وتأنقها في اللفظ باستعمال كلمات نحوية في أحاديثها ، مما يكسبها سيماء الأرستقراطية •

وكانت آمي مدللة يحبوها أهلها ومعارفها بالعطف والحنان ، فترعرعت بها روح الأنانية ، وازدادت رغباتها التافهة ، ولم يكن يحد من تماديها في تلك النقائص ، سوى الفقر الذي يحرمها من الثياب الأنيقة التي تحبها ، فلم تكن موارد آل مارش تسمح لها بشراء القبعات الحمراء ، والثياب الجميلة المحلاة بالدنتلا ، والمراول المقصوصة على

أحسن طراز • وكانت الظروف تضطرها الى أن تستعيض عن كل هـذا بما تخلعه عليها بنت خالتهـا « فلورنس » من ثياب مستعملة ، ربمـا كانت غالية الثمن غير مستهلكة ، غير أن ذوق الفتاة الفنى كان ينكر تنافر ألوانها وتعقيد قصاتها ، وخلوها من مظاهر الأناقة والجمال • وكان أقبح ما فى خـلع فلورنس ، ذلك الثـوب الـذى أعطته لهـا هذا الشـتاء لتذهب به آمى الى المدرسة ، فقد كان أرجوانى اللون منقوشـا بنقط صفراء فاقعة ، وليس فيه قطعة واحدة من الدنتـلا تخفف من حـدة تنافر ألوانه •

قالت آمى يوما لميج :

ــ انى أكره ثوب المدرسة ، وأمقت طرازه وألوانه ، ولكن عـزائى الوحيد أنـه أحسن حالا من ثـوب زميلتى ماريا بارك ، ولا يمكنك أن تتصورى مبلغ الهوان الذى يلقاه الثوب على يدى أمها ، فأحيانا يرتفع الى ما فوق ركبتيها ، وأحيـانا أخرى يفسد حتى تنقطـع الفتـاة عن المدرسة لفرط بشاعته • وكلما تذكرت ماريا وثوبهـا ، أحمـد الله على ما أنا فيه ، وتهون علىّ متاعبى ، فأرضى بكل هم ، حتى أنفى المفرطح وثوب المدرسة القبيح •

وكانت ميج موضع ثقة آمى وناصحتها ، وكانت بث صديقة لجو ، تفتح لها قلبها الصغير على مصراعية دون حر ج، وتبسط عليها سلطانهـا دون بقية أفراد الأسرة ، وتجد فى أساليب أختها الكبيرة الخشنة ملاذا لعواطفها الحية الجياشة • وكما أن ميج آثرت آمى برعايتها ، كـذلك فعلت جو مع بث ، إذ وجدت الأختان الكبيرتان فى تلك الرعاية منفـذا

لإظهار عواطف الأمومة الكامنة فيهما ، والتى تطورت بمضى السنوات من اللعب بالدمى الصغيرة الى رعاية الأختين الصغيرتين •

عندما التأم شمل الأسرة فى المساء ، وجلس الأخوات يطرزن على عادتهن كل ليلة ، قالت ميج :

— ألا من خبر جديد يسلينا ؟ لقد قضيت يوما عصيبا ، وأشعر بحاجة الى الترفيه •

قالت جو ، وكانت شغوفة برواية القصص والأحاديث :

— سأحدثكن بما حدث اليوم بينى وبين عمتى • لقد اعتدت أن أقرأ لها كتابها الممل فى صوت رتيب كطنين النحل ، حتى تستسلم للنعاس ، فأنسل الى غرفة المكتبة أقرأ ما يحلو لى من كتب مسلية بسرعة خاطفة قبل أن تستيقظ • وكنت أشعر فى صباح اليوم بملل شديد ، وأشعر بحاجة الى ماينعش نفسى ، فأكسبت صوتى رنينا ناعسا لأشجعها على النوم ، وعندما رأيت جفنيها ينطبقان ، توقفت فاغرة الفم عن القراءة ، ولكن العجوز رأتنى لسوء الحظ ، فتنبهت وسألتنى لماذا أفتح فمى واسعا هكذا ، حتى أجعله يتسع لكتاب كامل ؟ قلت وأنا أتظاهر بالأدب :

— ليتنى أملك ذلك الفم ، لأبتلع هذا الكتاب وأستريح منه •

وأغضبها كلامى فألقت علىّ محاضرة طويلة تعد فيها أخطائى ورذائلى ، وطلبت إلىّ أن أجلس الى نفسى فأحاسبها على شرورها ، ريثما تغفو قليلا • ولم أجد مفرا من النزول عند إرادتها والعمل بنصيحتها ، فأخرجت من جيبى كتاب « قس ويكفيلد » وجعلت أقرأ فيه بعين ، والعين الأخرى على عمتى ، وما إن وصلت فى قراءتى الى حيث سقط

الأبطال جميعهم فى الماء حتى نسيت حذرى وأدبى ، وانفجرت ضاحكة • واستيقظت عمتى على صوتى • ولكن النوم كان قد أكسبها هدوءا ، فلم تؤنبنى ، وكل ما فعلته أن أمرتنى بأن أقرأ لها فى ذلك الكتاب السخيف الذى أفضله على كتابها القيم الثمين • وقرأت كأحسن ما أستطيع ، فأعجبها الكتاب وإن قالت فى النهاية :

— لست أفهم ما يرمى إليه المؤلف بهذا الكلام ، فأعيدى القراءة من البداية !!

وبدأت القراءة من جديد ، وبذلت جهدى فى أن أجعل الموضوع مفهوما لها ، ثم حلا لى أن أعاكسها ، فلما وصلت الى موقف مثير ، توقفت عن القراءة فجأة وقلت لها :

— أخشى أن القراءة قد أتعبتك ، أفلا يحسن أن ننتهى عند هذا الحد ؟

وكان تطريزها قد سقط فى حجرها ، فلما سمعتنى أقول هذا ، تناولته بيديها ، وألقت على من خلال منظارها نظرة قاتلة وقالت :

— استمرى فى القراءة الى نهاية الفصل ، ويحسن أن لا تكونى وقحة يا آنسة •

قالت ميج ضاحكة :

— وهل اعترفت بأن الكتاب أعجبها ؟

قالت جو :

— لا ••• طبعا ••• لم تعترف ، ولكنها هجرت كتابها الأول ، وعندما حان وقت عودتى الى البيت ، دخلت آخذ قفازى من غرفتها ، فرأيتها

تلتهم « قس ويكفيلد » بشوق بالغ ، شغل حواسها عن كل شيء عداه ، فلم تسمعنى وأنا أضحك طربا وبهجة • إنى أشفق عليها لأنها تعقد حياتها بنفسها ، ولست أحسدها على ثرائها الطائل ، فللأغنياء أيضا متاعبهم الجسيمة •

قالت ميج :

— أما أن فقد وجدت اليوم أسرة كنج فى هرج ومرج ، وأخبرتنى ابنتهم الصغيرة أن أخاها الأكبر أتى فعلة شنعاء ، طرده أبوه على أثرها من البيت ، وسمعت نحيب مسز كنج وصياح مستر كنج ، وعندما مرت بى بنتاهما الكبيرتان جريس وآن ، التفتتا الى الناحية الأخرى حتى لا أرى عيونهما التى قرحها البكاء • ولم أسأل بطبيعة الحال عما حدث ، فليس من الأدب أن أتطفل على شئون الغير ، ولكنى حزنت من أجل هذه الأسرة ، وحمدت الله أن ليس لنا أخ يأتى شرورا تشين العائلة •

فهزت آمى رأسها هزة الحكيم المحنك وقالت :

— حدث اليوم فى مدرستنا ما يشبه ذلك ، فقد حضرت سوزى بيركنز وفى أصبعها خاتم أحمر اللون ، وددت لو كان لى مثله لأزهو به على أترابى ، ولكن هذا أمر آخر • المهم أن سوزى جلست فى الفصل ترسم صورة لمدرسنا مستر دافيز ، وجعلت له فيها أنفا هائلا ، وظهرا أحدب ، وأخرجت من فمه كلاما يقول فيه : « عينى عليكن أيتها الفتيات » وبينما كنا نضحك من الصورة الهزلية ، إذا بعين مستر دافيز تقع علينا فعلا ، فاستدعى سوزى إليه ، وأمرها أن تحضر رسمها معها • وكادت المسكينة تجن لفرط فزعها ، ولكنها اضطرت أن تذهب إليه ، وبين يديها دليل جريمتها ، فشد أذنها ، ثم جرّها الى المنصة ، وأمرها بالوقوف

فوقها نصف ساعة تحمل الصورة بحيث يراها تلميذات الفصل كلهن ، تصورى هذه القسوة والبشاعة !! اعتقد أن أخطاء المدرسة أشد خطرا وأعمق أثرا من أى خطأ فى الحياة •

سألتها جو :

ــ ألم يضحك البنات لمـــا أصابها ؟

أجابت آمى :

ــ بل انكمشن كالفيران ، وغلبت الدموع سوزى ، فبكت ما شاء لها البكاء • وعندئذ رثيت لحالها ، وعرفت أن خواتم العالم كله لا تعوضها عن إهانتها البالغة ، ولو كنت فى مكانها ما نسيت هذه اللحظة طول حياتى •

وتناولت تطريزها ، تعمل فيه مطمئنة الى سموها على مثل هذه المواقف المخجلة •

قالت بث ، وهى ترتب أدوات التطريز التى اختلطت فى سلة جو :

ــ نسيت أن أحدثكن على العشاء بما رأيته هذا الصباح ، عندما ذهبت الى السوق أبتاع بعض لوازم حنا ، فقد رأيت مســتر لورنس العجوز فى متجر الأسماك ، ولكنى حرصت على الاختفـــاء وراء برميل كبير حتى لا يرانى • ودخلت حينئذ امرأة فقيرة تحمل دلوا به مكنســة وفرشاة ، وسألت صاحب المتجر أن يسمح لها بتنظيف المكان لقاء قطعة من السمك تطعم بها أطفالها الجياع • وكان البائع مشغولا بعمله ، فصرفها بخشونة ، فاستدارت المرأة الى الباب وعلى وجهها أبلغ أمارات الحـــزن واليأس • وفى هذه اللحظة رأيت مستر لورنس يأخـــذ من المتجر سمكة كبيرة ، ويعطيها إياها ، فاختطفتها من يده فرحة مسرورة ، وخرجت تحتضنها

وتقول : « سأسرع بطهيها لأطفالى الجياع » • وشعرت أن لمستر لورنس مكانا فسيحا فى الجنة ، فليس أجمل من أن تدخل السعادة على قلوب المحرومين •

وعندما انتهت بث من قصتها ، التفت أخواتها الى أمهن ، وطلبن إليها أن تروى لهن بدورها خبرا ، فقالت بعد تفكير قليل ، وقد بان الجد على وجهها :

ــ بينما كنت أعمل اليوم فى تفصيل ملابس الجنود بدار الجمعية ، حملتنى أفكارى الى والدكن فاستبد بى القلق على حياته ، وتمنيت الى الله أن يحفظه من كل سوء ، حتى لا نعيش بعده فى وحدة وعجز • وما كان يصح أن أفكر هكذا ، ولكن قلقى عليه أخرجنى عن حكمتى • ودخل رجل مســن يطلب بعض المهمات ، فرأيت فى وجهه مظاهر التعب والفاقة والقلق ، وأردت أن أسرى عنه ، فبدأته الحديث قائلة :

ــ ألك أولاد فى الجيش ؟

أجاب بهدوء :

ــ نعم يا سيدتى ، أخذ الجيش منى أربعة أولاد ، قتل منهم أثنان ، وأسر الأعداء الثالث ، أما الرابع فجريح فى مستشفى واشنجطون ، وقد جئت الآن أطلب له المهمات •

وانقلبت شفقتى عليه احتراما له فقلت :

لقد ضحيت كثيرا من أجل وطنك •

قال :

هــ لم أضح أكثر من غيرى ، إنه الواجب يا سيدتى ، وقــد كنت

كنت أتمنى أن أحارب فى الجبهة دفاعا عن وطنى ، ولكنى عجوز مريض لا أصلح للقتال ، ولذلك قدمت أولادى عوضا عنى ، ولا أبتغى من وراء ذلك شكرا أو جزاء •

وكان يتكلم بمرح كأنه سعيد بتضحيته ، وشعرت بالخجل من نفسى ،وكرهت أن أقدم للوطن رجلا واحدا ، ثم أطالب الله بسلامته • كنت أظن أننى قدمت بزوجى كثيرا ، فتبينت خطأى أمام ذلك الأب الباسل الذى أعطى الوطن راضيا أربعة أولاد ، ذهب ثلاثة منهم ، والله يعلم بمصير رابعهم الجريح • وهانت علىّ تضحيتى عندما تذكرت أن لى بناتا حبيبات يؤنسن وحدتى ، ويذهبن وحشتى ، وإنها لثروة طائلة من السعادة • وأعطيت الرجل هدية طيبة ، ومنحته بعض المال شاكرة له الدرس الخلقى الذى تعلمته عنه •

وساد السكون برهة ، ثم قالت جو :

ـ علينا بقصة أخرى يا أماه ، يكون لها مغزى جميل كهذه ، فإنى أحب أن أستعيد فى وحدتى ما تقولين ، بشرط أن يكون حقيقيا وليس فيه وعظ كثير •

فابتسمت مسز مارش ، وبدأت لفورها قصة أخرى ، وكانت تعرف ما يعجب سامعاتها الصغيرات ، قالت :

ـ إنها قصة أربع فتيات ، أنعم الله عليهن بحاجتهن من طعام وشراب وثياب ، وكذلك أنعم عليهن بوالدين طيبين ، وأصدقاء مخلصين ، وبالرغم من كل هذه النعم لم يكن البنات راضيات •••

وهنا التفتت السامعات بعضهن الى بعض ، ثم انحنين على تطريزهن يشتغلن فيه بجد واجتهـــاد •

واسترسلت الأم فى حديثها فقالت :

ــ كن فى الحقيقــة بنات طيبات ، يتقن الى فعل الخير ، ولكنهن أخطأن الطريق إليه لسبب ما ، وانسقن وراء مطالب الــدنيا الغرور ، فنسين ما أنعم الله عليهن به ، وتطلعن الى مزيد من الترف والرخــاء • وزايلتهن السعادة ، فذهبن الى عجوز يطلبن منها طلسما يفتح أمامهن أبواب الهناء ، فقالت لهن : إذا أعــوزكن رضا النفس ، تذكرن نعم الله عليكن ، وانظرن ما تمتزن به على غيركن ممن هم أقل منكن حظا ، تأتكن السعادة مسرعة ، وتنفتح لكن أبواب السلام •

وهنا رفعت جو رأسها بسرعة ، كأنها تريد أن تتكلم ، ولكنها عدلت عن رأيها حتى تنتهى أمها من القصة •

ومضت الأم فى حديثها تقول :

ــ وكن فى الحقيقة بنات عاقلات ، فأخذن بنصيحة العجوز ، وعملن بمشورتها ، فإذا بالسعادة تأتيهن غامرة : فقد إكتشفت إحداهن أن المال لا يحمى بيوت الأغنياء من العار ، وتبينت الثانية أنها على فقرها أسعد ألف مرة من عمة ثرية مريضة ، وعرفت الثالثة أنها إذا كانت تتعب وتشقى فى كسب رزقها فتعبها وشقاؤها أكرم وأفضل من مذلة السؤال ، وتعملت الرابعة أن الخواتم الحمراء الثمينة لا تعوض خســارة الإنســان فى الأخلاق • وهكذا انبلجت الحقائق أمام البنات ، فأقلعن عن الشــكوى والتذمر ، ورضين بنصيبهن فى الحياة ، وبدأن سيرة جديدة عاطرة لا بطر فيها بنعمة الله •

صاحت ميج بأمها تقول :

ــ والله إنها لمهارة يا أماه ، أنِ تشهري قصصنا أسلحة فى وجوهنا ، وتقلبيها الى حكم وعظات •

وقالت بث فى تأمل وتفكير :

ــ إنى أحب هذه العظات ، لأنها تذكرنى بما كان يقوله لنا أبى •

وقالت آمى معجبة بالمغزى الحسن :

ــ ليس من طبعى أن أشكو كثيرا ، ولكنى سأضاعف من اليــوم حذرى ، فقد كان فيما أصاب سوزى درس لن أنساه •

الفصل الخامس

حقوق الجار

فى عصر أحد الأيام ، دخلت جو الردهة ، وهى تلبس حذاءها الطويل المطاط ، وتتدثر بمعطف قديم سميك ، وكانت تحمل فى إحدى يديها مكنسة ، وفى الأخرى مجرفة ، فسألتها أختها ميج :

ـ ما وراءك يا جو ؟

أجابت بخبث :

ـ سأخرج فى رياضة قصيرة •

قالت ميج وهى ترتجف بردا :

ـ ألم تكفك رياضة الصباح ؟ لقد سرنا طويلا مرتين ، والبرد الآن شديد فى الخارج فأنصحك أن تبقى معى هنا ، حيث الدفء والجفاف •

قالت :

ـ وفرى عليك نصيحتك ، فلست قطة كسولا أقضى اليوم كله ساكنة فى البيت ، إننى شغوفة بالمخاطرات ، وسأخرج الآن بحثا وراءها •

وتركتها ميج تفعل ما تشاء ، راضية لنفسها بالجلوس الى جانب النيران وبين يديها قصة « ايفانهو » وانصرفت جو الى الخارج تشق طريقها بين الثلوج المتراكمة فى الحديقة • ولم تكن الثلوج قد تماسكت بعد ، فلم يكن من العسير عليها أن تشق طريقا بمجرفتها ومكنستها ، وغرضها من ذلك أن تهيىء لبث أسباب النزهة اليومية فى صحبة دماها المشوهات •• وكان منزل آل مارش يقع فى ضواحى المدينة ، حيث تمتد

الأحراش ، وتكثر الحدائق والحشائش الخضراء ، وكان بيتا أكسبه الشتاء لونا بنيا ، عبث الصقيع بحديقته ، فجردها من زهورها وخضرتها • وفى نهاية الحديقة سياج قصير على الجانب الآخر منه قصر مستر لورنس العجوز ، وكان القصر جميل البناء تدل مظاهره على اكتمال وسائل الراحة والرفاهية فيه ، فمن حظائر كبيرة للعربات الى مسطحات سندسية خضراء الى بيوت زجاجية تحوى أجمل الزهور • وعندما تنفرج الستائر قليلا عن نوافذه ، يستطيع الناظر إليه من الخارج أن يـرى الرياش العظيم ، والأثاث المريح • ولكن رغم هذه الميزات العدة ، كان البيت يبدو خلوا من الناس ، فلا وجه يطل من نوافذه ، ولا طفل يلعب فى حديقته ، ولا ضجيج يوحى بالأنس والبهجة ، وهو أمر طبيعى ما دامت الأسرة قد اقتصرت على الجد وحفيده ، والأصدقاء القليلين يطرقون أبوابه •

وكانت جو بطبعها ذات خيال واسع حى ، فكايت تعتبر بيت لورنس قصرا مسحورا يمتلىء بالمتع والمسرات التى لا يمكن أن توجـد فى مكان غيره • وكم تاقت نفسها الى رؤية ما فيه من سحر وعظمة ، وكم تمنت أن تتعرف بلورنس الصغير الذى تدل مظاهرة على أنه يرحب بمعرفتها ولكنه لا يعرف من أين يبدأ صداقته معها • ومنذ أن تلاقيا فى ليلة المرقص ، رسمت خططا كثيرة لاكتساب صداقته ، فلم يشأ القدر أن تتحقق واحدة منها ، إذ إختفى الصبى عن عينيها فى المدة الأخيرة ، حتى ظنت أنه قـد سافر الى مكان ما • وظل الحال على هذا المنوال ، الى أن خرجت آمى وبث الى الحديقة ذات يوم ، تلهوان بكرات تصنعانها من الجليد وتتراشقان بها فى عبث ومرح ، وعندئذ رأت جو وجه الصبى يطل من النافذة العليا على أختيها وفى عينيه شوق مكبوت الى اللهو معهمـا • فقالت تحـدث نفسها :

— إن هذا الصبى فى وحدة قاتلة ، وجده العجوز يجهل صالحه فيحرمه من حريته ، ويغلق الأبواب دونه • إنه فى حاجة الى صحبة طيبة ورفاق يمتلؤن شبابا وحيوية ، وتحدونى رغبة شديدة فى أن أزور السيد العجوز ، وأرشده الى ما فيه خير حفيده •

وأعجبت جو بالفكرة الجريئة ، ولكنها احتفظت بها حتى تأتى الفرصة المناسبة •

وفى عصر ذلك اليوم البارد ، الذى رأتها فيه ميج تخرج الى الحديقة بمكنستها ومجرفتها ، كانت جو قد قررت أن تفعل شيئا ، بعد أن رأت مستر لورنس العجوز يستقل عربته وينصرف عن البيت لقضاء بعض الشئون ، فنزلت الى الحديقة تمهد طريقا فى الجليد يتجه نحو السياج ، فلما انتهت من مهمتها ، وقفت تجيل بصرها فيما حولها • وكان كل شىء هادئا ساكنا ، فستائر القصر مسدلة ، وخدمه لا أثر لهم ، ولم تقع عينها إلا على الصبى لورنس وهو يرسل النظر ساهما من وراء زجاج النافذة ، وقد أسند رأسه الى يده • قالت لنفسها :

— يا للأسى ! إن الصبى يقبع فى البيت وحيدا مريضا فى مثل هذا اليوم العبوس ، سأرميه بكرة من الجليد ، لألفت نظره ، فأحييه •

وجمعت قبضة من الجليد الناعم ، وشكلتها فى كرة صغيرة ، ثم ألقت بها الى النافذة ، فالتفت الصبى نحوها ، وذهب شروده عنه ، وافتر ثغره عن ابتسامة مشرقة • وألقت إليه بتحيتها ضاحكة ، ولوحت له بمكنستها ، وصاحت تقول :

— كيف حالك ؟ أمريض أنت ؟

وفتح لورى النافذة ، وقال فى صوت مبحوح :

— قد أصابنى برد شديد ، أقعدنى الفراش أسبوعا ، ولكنى اليوم أحسن حالا .

قالت :

— يؤسفنى أن تمرض ، ولكن ماذا تفعل بنفسك طوال الوقت ؟

قال :

— لا شىء ، إن البيت فى وحشة القبور .

قالت :

— ألا تقرأ كتابا ؟

قال :

— منعونى من القراءة حتى أسترد عافيتى .

قالت :

— ألا تجد من يقرأ لك ؟

قال :

— جدى يقرأ لى أحيانا ، ولكن كتبى لا تروقه ، وأكره أن أثقل على رائدى « بروك » .

قالت :

— ألا من صديق يقرأ لك ؟

قال :

— ليس لى صديق فى هذا البلد ، وأخشى إن دعوت فتياننا ،

أن يصدعوا رأسى بضجيجهم وصخبهم •

قالت :

ـ إن البنات هادئات بطبعهن ، ولعبة التمريض محببة لهن ، أفلا من صديقة تقرأ لك وتسليك ؟

قال :

ـ لا أعرف فتاة واحدة ، مع الأسف •

قالت :

ـ ولكنك تعرفنى •

ثم ضحكت وتوقفت عن الكلام ، فصاح بها فرحا :

ـ صدت ، فهلا تكرمت بالحضور قليلا ؟

قالت :

ـ لست بنتا هادئة كما تعتقد ، ولكن يسرنى أن ألبى الدعوة إذا أذنت لى أمى بذلك • فأغلق نافذتك ، حتى أستأذنها •

وأسندت مكنستها الى كتفها ، وسارت الى البيت بخطى واسعة ، وهى تتساءل عما يقوله أخواتها عندما تروى لهن ما حدث •

وهرع لورى يستعد للقاء الفتاة فرحا بحضورها ، وكان سيدا مهذبا كما وصفته مسز مارش ، فمشط شعره ، وغير بنيقته ، ثم عكف على الحجرة ينظمها بنفسه ، رغم وجود ستة خدم يقفون على خدمته • وسرعان ما علا رنين الجرس فى البيت ، وسمع صوتا يسأل عن

« مستر لورى » ، ثم أقبلت عليه الخادم تعلن فى دهشة بالغة قـدوم سيدة صغيرة •

قال لورى وهو يتجه الى الردهة ليقابل جو :

— إنها مس جو ، فأرجو أن ترشديها الىّ •

ودخلت عليه جو فى بسمة هادئة ، وكانت تحمل فى إحدى يديهـا صحنا ، وفى اليد الأخرى قطيطات بث الثلاث قالت بحماسة :

— جئت بكامل عدتى وعتادى ، والدتى تقرئك السلام وقد سرها أن أزورك وأسليك ، وفى هذا الصحن فطائر صنعتها ميج ، ويسرها أن تتذوقها لتقتنع بمهارتها ، أما بث فقد أصرت على أن أحمل إليك قطيطاتها عسى أن تجد فيها شيئا من التسلية • وكنت أخشى أن تضايقك القطيطات ولم أكن أريد أن أحضرها معى ، ولكن قلبى لم يطاوعنى على إيلام بث إذ كانت شديدة الرغبة فى أن تساهم بنصيب من الترفيه عنك •

وزايل لورى خجله الشديد ، فضحك من القطيطات ، وأقبـل على زائرته يحدثها فى غير تردد أو حرج •

وكشفت جو الغطاء عن الصحن ، فظهرت الفطائر الشهية مزينـة بزهور من آمى ، فقال باسما :

— إن منظرها جميل ، وحرام أن أفسد هذا الجمال بالتهامها •

قالت :

— إنها هدية بسيطة ، وقد أردنا بها أن نعبر عن ودنا لك ، فاطلب

الى خادمك أن تحفظها لك حتى يحين موعد الشاى • هذه فطائر بسيطة ، وستجدها سهلة الهضم ، شهية المذاق •

وتلفتت حولها تتأمل الغرفة وقالت :

ـ يا للحجرة المريحة !

قال :

ـ إنها بالفعل مريحة ، ولكنها فى حاجة الى التنظيم ، والخادمات هنا غاية فى الكسل ، ولست أعرف كيف أجبرهن على العمل •

قالت ، وهى تنهض من مكانها :

ـ أنا أرتبها لك فى دقيقتين ، فالرماد أمام المدفأة تزيله الفرشاة هكذا ، وهذه الأشياء يستقيم شكلها هكذا ، والكتب توضع هنا ، والزجاجات فى الناحية الأخرى ، وأفضل أن أدير الأريكة حتى لا تواجه الضوء ، وفى رأيى أن وسائدها محشوة أكثر مما يجب • والآن ، نظمت الغرفة وانصلح كل شىء •

وكانت على حق ، فقد استطاعت فى خلال حديثها المرح أن تضع الأشياء فى مواضعها ، فإذا بالغرفة تبدو جميلة أنيقة مريحة • ووقف لورى يتبعها بأنظاره صامتا ، فلما انتهت من عملها ، ودعته الى الجلوس على الأريكة ، ندت عنه تنهده عامرة بالرضى • قال يشكرها :

جميل منك أن تفعلى هذا كله ، وقد رتبتها كما أريد تماما • هلا تفضلت بالجلوس على هذا المقعد الكبير ، وسمحت لى أن أسلى ضيفتى ؟

قالت :

ـ بل أنا أسليك ، فهل تحب أن أقرأ لك ؟

والتفتت نحو مجموعة كبيرة من الكتب ، فقال لها :

ـ شكرا ، فقد قرأت هذه الكتب كلها ، وأفضل أن نتبادل الحديث إذا شئت .

قالت :

ـ في مقدوري أن أتكلم طول النهار ، وتقول بث إنني متى بــدأت فمن العسير أن أنتهي .

سألها باهتمام :

ـ من منكن بث ؟ أهي الفتاة الصغيرة ذات للخدود الوردية ، التي تقضي معظم الوقت في البيت ، وتخرج أحيانا وفي يدها ســلة صغيرة ؟

أجابت :

ـ نعم ، إنها فتاة مدهشة ، وأنا أحبها من صميم قلبي .

قال :

ـ والحسناء هي ميج ؟ وذات الشعر المجعد هي آمي على ما أعتقد ؟

قالت جو :

ـ كيف عرفت ؟

واحمر وجه لوري خجلا ، ولكنه أجاب في صراحة :

ـ كثيرا ما أسمعكن تنادين بعضكن بعضا ، وأراكن أحيانا تتنقلن بين أرجاء البيت ، وعندما تتركن نافذة البهو مفتوحة ، وتضئن الأنـوار

فى الداخل ، أشاهدكن تجلسن مع والدتكن حول المائدة ، فيخيل إلى انى أتأمل لوحة زيتيه رائعة • إنى أقضى معظم الأوقات وحيدا ، وقد فقدت والدى منذ زمن طويل ، وحرمت متعة الأسرة ، وعندما أرى ستائركن مرفوعة ، يسوقنى الإغراء الى التطلع نحوكن ، فأستميحكن عذرا لجرأتى •

وانحنى على الموقد يحرك نيرانه ، فرأت جو فى وجهه مظاهر تأثر بالغ ، يحاول جاهدا أن يخفيه ، وكانت الفتاة بطبعها طيبة صريحة ، فآلمها أن تقتله الوحدة ، وهى بأمها وأخوتها سعيدة مرحة ، قالت فى صوت ناعم يفيض بالحرارة والحنان :

— لن نسدل الستائر بعد اليوم ، ويسرنا أن تتطلع إلينا متى شئت ، ورأيى أن تزورنا فى بيتنا ، وتشاركنا جلساتنا ، وسوف تعجب بوالدتى كل الإعجاب ، لأنها امرأة عظيمة بمعنى الكلمة • ولن تندم على زيارتنا ، فستغرقك والدتى بأكوام من الخبز ، وتغنى لك بث إذا أردت ، وترقص لك آمى فى خفة الطيور ، وسأضحكك أنا وميج على معدات مسرحنا الطريف ، وهكذا نقضى معا أمتع الأوقات وأبهجها • ولكن أيسمح لك جدك بزيارتنا ؟

قال ، وقد ازداد وجهه إشراقا :

— أظنه يوافق اذا طلبت إليه والدتك ، فهو طيب رغم مظهره الخشن ، ولا يمنعنى من أن أفعل ما أريد ، وكل ما يخشاه أن أثقل على الأغراب •

— لسنا أغربا ، إنما نحن جيران ، ولن تثقل علينا بزيارتك ، وقد كنا نود معرفتك من زمن طويل ، وقمنا فى سبيل ذلك بمحاولات كثيرة •

نحن أسرة ودود ، ومع أننا نزلنا هذه البقعة من عهد قصير ، فقد صرنا أصدقاء لأهل الحى كله •

قال :

— إن جدى يعيش مع كتبه فقط ، ولا يهتم بما يحدث فى الخارج ، ورائدى لا يسكن معنا ، ولذلك لا أجد رفيقا أخرج معه ، فأضطر الى البقاء فى البيت وحيدا معظم الوقت •

قالت :

— أنا لا أتفق معك فى هذه السياسة ، ورأيى أن تزور وتـزار ، حتى يزداد أصدقاؤك ، وتتوافر لك أسباب الترفيه ، ولا تخش الخجل فإنه مع المثابرة يزول •

واحمر وجه لورى مرة ثانية ، ولكنه لم يغضب من كلامها ، فقد كانت ملاحظاتها الجريئة ، عامرة بالعطف والحنان •

قال يغير الموضوع :

— أتحبين مدرستك ؟

أجابت :

— إنى لا أذهب الى المدرسة ، لأننى رجل أع ••• أقصد فتاة أعمال وأشتغل وصيفة لعمة عجوز ثائرة المزاج •

وفتح الفتى فمه يسألها أمرا ، ولكنه أمسك عن الكلام قبل أن ينطق به ، خشية أن تظن به التطفل •

وأعجبت جو بأدبه ، ولم تر بأسا من أن تسليه قليلا بأحوال عمتها ،

فشرعت تصف له العجوز الثائرة . وكلبها المدلل السمين ، وببغاءها التى تتقن الحديث باللغة الإسبانية ، ثم مكتبتها العامـرة بأجمل المـؤلفات والمصنفات • وسر الفتى بحديثها سرورا بالغا ، فلما روت له ما حـدث يوم حضر سيد عجوز أنيق يخطب عمتهـا ، فغافلته الببغاء الخبيثـة ، واختطفت شعره المستعار من فوق رأسه الأصلع ، استلقى لورى على ظهره مقهقها ، وسالت الدموع على خديه لفرط الضحك ، فتطلت احدى الخادمات برأسها من الباب ، تطمئن على سيدها الصغير •

ورفع الفتى إليها وجها ضاحكا وقال :

— يا لها من قصة ، امض فى الحـديث بالله عليك ، فقـد أفادنى الضحك كثيرا •

ومضت جـو فى حديثها ، وقد طربت لنجاحها العظيم ، فقصـت عليه أخبار تمثيلياتها ، وأنباء خططها ، وأحوال عالمها الصغير ، الـذى تعيش فيه مع أخواتها آمنة ، ثم انتقل الحديث الى الكتب ، فوجـدت لمزيد سرورها ، أنه يحب القراءة أكثر مما تحبها •

قال لها الفتى ، وهو ينهض من مجلسه :

— إذا كنت تحبين الكتب الى هذا الحد ، فهيا بنا الى غرفة المكتبة ولا تخشى شيئا ، فجدى ليس بالبيت •

قالت فى اعتزاز بشجاعتها :

— أنا لا أخشى أحدا •

فنظر إليها نظرة ملؤها الإعجاب ، وتصور ما قد يحدث إذا تصادف

أن اصطدمت مثل هذه الفتاة الجريئة بجده وهو فى ثورة من ثوراتـه • ولكنه قال :

ــ أعتقد ذلك فلست ممن يخافه الناس •

وكان البيت دافئا ، فسار بها لورى من غرفة الى غرفة ، وهى تتأمل ماحولها باهتمام شديد ، حتى وصلا الى حجرة المكتبة ، مـا إن ولجت جو أبوابها حتى صفقت بيديها طربا ، على عادتها كلما رأت شيئا يعجبها • وكانت الجدران مغطاة برفوف انتظمت عليها مئات الكتب والمؤلفـات ، وأركانها مزينة بالتماثيل والصور ، وكان فيها ــ فضلا عن ذلك ــ خزائن زجاجية ، تحوى نقودا أثرية وتحفا تاريخية ، وتحيط بهـذه الخزائن مقاعد وثيرة وموائد أنيقة ، وكان أجمل ما فى الغرفة كلها مدفأة واسعة ، صنعت من القرميد المنقوش •

وتنهدت جو ، وهى تغوص فى أعماق مقعد مكسو بالمخمل الناعم ، وجعلت ترسل النظر الى ما حولها بإعجاب واغتباط • وقالت :

ــ يا للثراء الممتع ! ثيودور لورنس ، أعتقد أنك أسعد أهل الدنيا كلها •

فهز الفتى رأسه ، وقد أسند ذراعيه الى مائدة قبالتها ، وقال :

ــ لا يعيش الإنسان على الكتب وحدها •

وقبل أن ينتهى من حديثه ، تعالى رنين الجرس فى البهو الخارجى ، فقفزت الفتاة من مجلسها ، وقالت بخوف :

ــ إنه جدك ••• رحماك يا إلهى !

أجاب الفتى بخبث :

ــ ظننت أنك لا تخافين أحدا ؟ !

فقالت تتظاهر بالشجاعة ، وإن ظلت أنظارها عالقة بالباب :

ــ إنى خائفة قليلا ، ولست أرى فى الحقيقة داعيا لذلك ، فقد استأذنت والدتى فى زيارتك ، ولا أعتقد أن صحتك ساءت بحضورى •

قال الفتى :

ــ بل أفادتنى زيارتك كثيرا ، وأشعر بتحسن عظيم ، وكل ما أخشاه أن تكونى قد تعبت لكثرة الكلام ، ولكنها كانت قصصا ممتعة حقا ــ ولم يطاوعنى قلبى على قطعها •

ودخلت الخادم تعلن حضور الطبيب ، فقال لورى لجو :

ــ أيضيرك أن أتركك لحظة واحدة ، حتى أستقبل الطبيب ؟

أجابت :

ــ اذهب إليه ، ولا تبال بى . فأنا سعيدة فى هذه الغرفة الساحرة •

وخرج الفتى ، فقامت جو تجول فى أنحاء الغرفة ، وتتسلى بما فيها ، الى أن وصلت الى لوحة زيتيه كبيرة لمستر لورنس العجوز ، فوقفت تنظر إليها بتأمل شديد ، وسمعت الباب يفتح خلفها ، فقالت دون أن تدير رأسها :

ــ أنا لا أراد وسيما كجدى ، ولكنه يعجبنى ، فعيناه صريحتان ، وجبينه المقطب يفيض بالقوة والصلابة . وأعتقد أننى لن أخاف منه إذا قابلته •

قال من خلفها صوت خشن :

ــ أشكرك يا آنسة :

ولبالغ دهشتها ، رأت مستر لورنس العجوز يقف وراءها ، فتخضب وجهها بحمرة الخجل ، وأسرعت دقات قلبها ، وعندما تذكرت ملاحظتها أمام صورته ، تملكتها رغبة ملحة فى أن تطاق ساقيها للريح ، وتعود الى بيتها بأسرع ما تستطيع ، ولكنها كرهت أن تفعل ذلك ، حتى لا يتهمهــا أخواتها بالجبن ، ويضحكن منها •

واسقرت رأيها على البقاء ، وشجعهــا على ذلك أن رأت فى عينى العجوز طيبة وحنانا ، لم تلمسهما فى صورته الزيتية قبل حضوره • قال الجد ، فى صوت أكثر خشونة من ذى قبل :

ــ إذا فأنت لا تخافيننى يا آنسة ؟

قالت :

ــ ليس كثيرا يا سيدى :

قال :

ــ وترين جدك أكثر وسامة منى ؟

قالت :

ــ الى حد ما يا سيدى •

قال :

ــ وجبينى المقطب يفيض بالقوة والصلابة ؟

قالت :

ـ أظن ذلك يا سيدى •

قال :

ـ ومع كل هـذا أعجبك ؟

ـ نعم ، أنت تعجبنى يا سيدى •

وسر العجوز بحديثها ، فضحك ضحكة قصيرة ، وصافحها مرحبا ، ثم وضع أصبعه تحت ذقنها ، ورفع وجهها إليها يفحصه مليا ا ثم قال وهو يومىء برأسه :

ـ لقد ورثت عن جدك أخلاقه وشكله ، وكنت أفخر بصـداقته ـ لا لحسن معشرة وحسب ، فقد كان أيضا رجلا شجاعا أمينا صادقا •

وارتاحت الفتاة لكلامه كل الارتياح ، فزال عنها خوفها السابق ، وقالت :

ـ أشكرك يا سيدى •

سألها فجأة :

ـ ماذا كنت تصنعين بحفيدى ؟

أجابت :

ـ أردت أن أكون له جارة طيبة •

ثم روت له القصة من بدايتها الى نهايتها ، وكيف أتت لزيارة لورى ، قال :

ــ أتظنين أنه يحتاج الى صحبة مرحة ؟

قالت بلهفة :

ــ بلا شك يا سيدى . إنه وحيد ، وصحبة الشباب تفيده ، وكلنا فتيات مع الأسف ، ولكن يسرنا أن نرفه عنه ما استطعنا ، فما زلنا نذكر الهدية الفاخرة التى بعثت بها إلينا فى ليلة العيد .

قال :

ــ لا ... لا ... إنها فكرة الصبى ، ولكن كيف حال المرأة الفقيرة ؟

قالت :

ــ تحسنت صحتها يا سيدى .

ثم شرعت تقص عليه فى عبارات سريعة أخبار آل هامل ، الذين بادرت أمها الى مساعدتهم قبل الأغنياء . قال :

ــ إنها طريقة أبيها فى فعل الخير ، وقد أخذت عنه قلبه الكبير ، فأخبريها بأننى آت لزيارتها فى يوم قريب .

ودق الجرس فى هذه اللحظة ، فاستطرد الجد قائلا :

ــ حان موعد الشاى ، ونحن نتناوله مبكرا من أجل الصبى ، فابقى معنا ، ولستمرى فى أن تكونى لحفيدى جارة طيبة .

قالت :

ــ كما تريد يا سيدى .

قال ، وهو يقدم لها ذراعه تستند إليه ، حسب التقاليد القديمه :

ــ لو لم أكن أريد بقاءك ، ما دعوتك الى البقاء .

وسارت بجانبه الى غرفة الشاى ، وعيناها تلمعان طربا ، لما سوف تقصه على أخواتها عندما تعود الى البيت • قالت فى نفسها :

ـ ترى ماذا تقول ميج ، فيما حدث اليوم ؟

هتف العجوز متعجبا :

ـ ماذا دهى الصبى ؟ !

فقد كان لورى يهبط السلم جريا ، ثم توقف دهشا ، عندما طالعه المنظر العجيب منظر جو تستند الى ذراع جده المخيف •

نظرت الفتاة بانتصار ، فقال لجده معتذرا :

ـ لم أكن أعلم بعودتك يا سيدى •

قال الجد :

ـ فهمت ذلك من جريك على السلم ، تعال معنا الى الشاى ، وكن مضيفا كريما أيها السيد الصغير •

ثم جذب شعر الفتى مداعبا مدللا ، وتقدم بجو نحو غرفة المائدة ، وكان لورى يسير خلفهما ، ويقوم بحركات فكاهية ، كادت الفتاة تنفجر معها ضاحكة • وجلس الثلاثة معا ، فلم يتكلم الجد كثيرا ، وقنع بارتشاف أربعة أقداح من الشاى صامتا ، وكان طول الوقت ، يراقب الصغيرين فى مرحهما ، ويصغى الى أحاديثهما البريئة المسلية فلم يفته ذلك التغير العجيب الذى انتاب لورى : فقد كان الصبى مشرق الوجه ، متورد الوجنتين ، يتحدث بنشاط وحيوية ، ويضحك عن سرور حقيقى لا يشوبه التصنع • قال مستر لورنس فى نفسه :

— صدقت الفتاة فيما قالته لى ، فالصبى يحتاج الى ألفة ، وأتوقع له خيرا فى صحبة أولئك الفتيات ، فقد أعجبته جو بصراحتها وخشونتها ، وأدرك أنها تفهم نفسية الصبى ، كما لو كانت صبيا مثله •

ولو كان آل لورنس من أولئك « المتغطرسين » على حـد تعبير جو ، لمـا أقبلت الفتاة على معرفتهم ، أو سعت الى صداقتهم ، إذ كانت تكره مثل هذا اللون من النـاس ، وتشعر فى حضرتهم بمنتهى القلق ، ولكنها لمست فى أسرة لورنس بساطة اجتذبتها اليهم مطمئنة راضية •

وعندما انتهت وجبة الشاى ، استأذنت جو فى الانصراف ، ولـكن لورى استبقاها ، ليريها شيئا جديدا ، ثم خرج بها الى بيت الزهـور ، فخيل اليها أنها تعيش فى حلم جميل ، فقـد كان ذلك البيت الزجاجى ، قطعة من الفن الرفيع ، مماشيه ممهدة ، وزهوره يانعة ، وجـدرانه لامعة ، وأضواؤه خافتة ، وكرومه دانية القطوف • وانحنى لورى على الشجيرات يقطف أبهى زهورها ، حتى اجتمعت له باقة جميلة ، ربطهـا بشريط حريرى ، وقال فى غبطة وانشراح :

— أرجو أن تحملى هذه البـاقة الى والدتك ، واشكرى لهـا أن سمحت لك بزيارتى ، فقد كنت خير دواء لمرضى •

وعاد الاثنان الى البيت ، فوجدا مستر لورنس يقف أمام المدفأة فى احدى غرف الجلوس الكثيرة ، فاسترعى اهتمام جـو معزف كبير ، فسألت لورى فى إجلال واحترام :

— أتعزف عليـه ؟

قال فى تواضع :

— أحيـانا •

قالت :

ــ اذا اعــزف لى مقطــوعة ، فأنا أحب أن أتســمع موسيقاك لأخبر بث .

قال :

ــ ألا تعزفين أنت أولا ؟

قالت :

ــ يؤسفنى أن لا أستطيع ، فقد كنت أغبى من أن أتعلم العزف ، ولكنى أحب الموسيقى من كل قلبى ، ونغماتها تشجينى وتطربنى .

وعزف الصبى مقطوعة ، استمعت اليها جــو ، وأنفها مدفون فى باقة الزهور ، وكان الصبى عازفا ممتازا ، فازداد تقديرها له ، وتضاعف احترامها لمواهبه . وتمنت لو أمكن بث أن تسمع عزفه المتقن ، ولكنهــا لم تجهر بأمنيتها هذه ، انما أغرقته بمديحها واطرائها ، حتى اســتبد به الخجل ، وتورد وجهــه بدماء الحيــاء ، وانبرى جده الى انقــاذه فقال :

ــ كفاك اطراء له يا آنسة ، فان المبالغة فيه مفســدة للأخلاق ، وربما كان عزفه جيدا ، ولكنى كنت أفضــل أن يظهر بواعته فيما هو أهم من الموسيقى . أذاهبة أنت ؟ اذاً ، دعينى أشكرك على زيارتك ، واحملى تحيتى لوالدتك ، ومساء الخير يا دكتور جو !!

وصافحها بعطف ، غير أنه كان يبدو ســاهما واجما ، كمــا لو أن أمرا ضايقه ، فلما بلغت الفتاة ردهة البيت ، سألت لورى عما أغضب جده ، فهز رأسه ، وقال :

— كل ما فى الأمر أنه لا يرتاح الى اهتمامى بالموسيقى •

قالت :

— ولمــاذا ؟

قال :

— لن أخبرك الآن ، وربما فعلت ذلك فى يوم من الأيام •

وسارت الى الباب ، فقال لها :

— كنت أود أن أصحبك فى طريق عــودتك ، ولكنى مريض كمــا تعلمين ، فخذى معك خادمنا جون •

قالت :

— لا داعى لذلك ، فلست طفــلة صغيرة ، والمســافة بيننا وبينكم خطوات معدودات ، فإلى اللقاء ، وأرجو أن تعنى بصحتك •

قال :

— أعدك بذلك ، فهل تزورينني مرة ثانية ؟

قال :

— لقد وعدت بزيارتنا عندما تشفى •

قال :

— أعدك بذلك •

قالت :

— مساء الخير يا لورى •

قال :

ـ مساء الخير يا جو •••• مساء الخير !

جلست جو الى أخواتها تحدثهن بما جرى فى بيت لورنس ، فاستنفدت العصر كله فى حديثها ، الى أن انتهى رأيهن جميعا الى وجوب زيارة الجار الطيب ، فقد أثار حديث جو اهتمامهن ، وجعلت كل واحدة منهن تشعر أنها ستجد فى البيت الكبير شيئا يهمها ويسليها ، فمسز مارش تحب أن تستعيد مع مستر لورنس العجوز ذكريات أبيها العزيز ، وميج مشوقة الى رؤية بيت الزهور ، وبث تحلم بالمعزف الكبير ، وآمى تتلهف لرؤية الصور والتماثيل •

قالت جو لأمها :

ـ ترى لماذا يكره مستر لورنس أن يهتم لورى بالموسيقى ؟

قالت :

ـ لست أدرى على وجه التحقيق ، وان كنت أظن أن مرد السبب الى ابنه ، والد لورى ، فقد تزوج ايطالية تحترف الغناء ، وكان الزواج على غير رغبة أبيه ، فغضب العجوز المتكبر ، ولم يرض بزيارة ابنه أو رؤيته سنين طويلة • وولد لورى فى ايطاليا ، وظل بها بعض الوقت ، فلما توفى والداه ، أحضره جده الى بيته واحتضنه ، ولم يكن الصبى قوى البنية فأحاطه مستر لورنس بكل ألوان الرعاية ، خشية أن يفقده كما فقد والده من قبل ، ولذلك ترينه الى اليوم حريصا يخاف على لورى من التعرض للبرد أو الاختلاط بالناس • ولقد ورث الصبى عن أمه حبها للموسيقى ، ولعل الجد يخشى أن يتخذها حفيده مهنة فى يوم من الأيام ، ولا شك أن الموسيقى تذكر مستر لورنس بزوج ابنه

الايطالية ، التى لم يحببهـا أبدا ، مع أنهـا كانت امرأة طيبة ، فتثيره الذكرى وتغضبه •

قالت ميج بدهشة :

ـ يا لها من قصة !

وقالت جو :

ـ يا للغباء ! لماذا لا يغدو لورى موسيقيا اذا كانت ميوله كذلك ؟ ولماذا ينغصون عليه حياته بارساله الى جامعة يكرهها ؟

قالت ميج ، وكانت عاطفية الى حد ما :

ـ عرفت الآن السر فى عينيه السوداوين ، وشعره المجعد ، وذوقه السليم • انه الدم الايطالى ، والايطاليون قوم مهذبون •

صاحت بها جو ، ولم تكن عاطفية كأختها :

ـ وماذا تعرفين عن عينيه السوداوين وذوقه السليم ؟ انك لـم تتحدثى اليه مرة واحدة •

قالت ميج :

ـ ولكنى رأيته فى الحفلة ، وسمعت ما رويته لنا عنه ، خصوصا عندما شبهك بدواء ناجع ، انها لباقة تدل على ذوق سليم •

قالت جو :

ـ كان يقصد هدية الفطائر •

قالت ميج :

ـ أنت ساذجة يا طفلتى ، لقد كان يقصدك أنت •

وكانت فكرة جديدة لم تطرأ لجو من قبل ، فاتسعت عيناها دهشة ، وقالت :

ـ أكان يقصدنى حقا ؟

قالت ميج ، بلهجة الخبيرة المحنكة :

ـ أنت غبية لا تميزين الاطراء عندما يأتيك .

قالت جو :

ـ لا يهمنى الاطراء ، وأكون شاكرة اذا اقتصدت فى سخافتك ، فأخشى أن تفسدى على سرورى بزيارته . ان لورى صبى لطيف ، ويعجبنى منه خلق كريم . ولن أسمح بعبارات الاطراء أن تقف بيننا ، وأرجو أن نغدق عليه العطف لأنه يتيم ، لقد وعد بزيارتنا ، فهل تسمحين له بذلك يا أماه ؟

قالت الأم :

ـ على الرحب والسعة ، وأملى يا ميج أن لا تفسدى جمال الصداقة البريئة بهذا الكلام ، ودعى الأطفال أطفالا أطول وقت مستطاع .

قالت آمى :

ـ اننى حقيقة فى الثانية عشرة من عمرى ، ولكنى لا أشعر بأننى طفلة ، فما رأيك يا بث ؟

وكانت بث ساهمة كعادتها ، تسبح بذهنها فى عالم الخيال ، ولم تسمع كلمة من حديث أختها ، قالت :

ـ كنت أفكر فى لعبة الحجاج وكيف نمضى فيها الى قصر الأمانى ، عبر الصعاب والآلام ، ويخيل الىّ أنه بيت لورنس العامر بألوان المباهج والمسرات •

قالت جو ، وقد أعجبها تشبيه أختها :

ـ علينا أولا أن نشق طريقنا اليه •

الفصـــل السـادس

بث في قصر الأماني

مضى بعض الوقت قبل أن يزور بنات مارش بيت لورنس ، وعندما دخلنه بعد عقبات ، وجـدت بث أنه حقيقة « قصر الأماني » • وكان مستر لورنس العجـوز قد قام بزيارة الأسرة كما وعد ، فلقيه البنـات بخوف ورهبة ، ولكنه جلس الى أمهن يتذاكر معها سيرة أبيها فى الأيـام الخوالى ، ويشير الى صديقه القديم بلهجة الإعـزاز والاحترام ، ثم داعب البنات وتحدث اليهن واحدة بعد واحـدة ، فأنسن له وانقشعت الرهبة عن نفوسهن ، اللهم إلا بث التى اختارت بحيائها الشديد أن تبقى على مبعدة ، بالرغم من محاولاته الكثيرة فى كسب ثقتها وودها •

وزالت العقبة الأولى بزيارة مستر لورنس ، وكانت العقبة الثانية فقرهن وثراء لورى ، فقد كن يشعرن بالحرج البـالغ اذا بعث الصبى اليهن بهدية لا طاقة لهن على الرد بمثلها ، ثم كشفت لهن الأيام مـدى اعترافه بجميلهن عليه ، وتقـديره لرعايتهن اياه ، واغتباطـه البـالغ بعطف مسز مارش التى كانت تعامله معاملة الابن العزيز • وقوت هذه الحقـائق صداقتهن بلـورى ، فذهب شـعورهن بالحـرج ، وتلاشى احساسهن بالفوارق ، وأصبح بيتهن المتواضـع ملاذا له يأوى اليه كلما أعوزته أسباب المسرة والهناء ، ولم يجـد البنـات غضاضة فى مبادلته الهدايا دون اعتبار كبير لقيمها المـادية •

هكذا نمت صداقة جديدة ، وترعرعت سريعا مثلما يترعرع النبات فى أرض طيبة . ومضت الأيام مفعمة بدواعى السرور والتسلية : فقد

آحببن لورى جميعا ، وغمرنه بعطف خالص لا زيف فيه ولا اصطناع ، واستجاب الصبى لشعورهن النبيل ، فكان يؤمن بأنهن فتيات مدهشات عن جدارة واستحقاق ، ويجد فى رفقتهن الطاهرة البريئة متعة أنسته وحدة اليتم ووحشته • وسرعان ما ظهر أثرهن فى اتجاهاته ، فإن حياتهن العامرة بالكد والكفاح فى طاب الرزق ، أورثته خجلا من دعته وفراغه ، واشتاقت نفسه لأن يكون مفيدا مثلهن ، ولكن صداقتهن رغم ذلك شغلته عن كتبه ودروسه ، فكان يهرب منها الى بيت مارش ساعات كل يوم ، مما اضطر معه رائده مستر بروك ، الى اطلاع جده على الأمر • قال العجوز فى غير قلق :

ـ دعه يستمتع بعطلة طيبة ، تقويه على الدرس فيما بعد ، ولا تخش عليه ، فان جارتى الطيبة ترى الصبى متعبا مجهدا ، وتعتقد أنه فى حاجة شديدة الى الصحبة والمتعة والتسلية • ولا شك أنها على صواب ، وأظن أننى غاليت فى الحد من حريته ، فدعه بالله عليك يفعل ما يشاء ، مادام سعيدا ، واطمئن الى أنه فى سلام وأمان ، مع الأسرة التقية الطاهرة فلقد استفاد بحنان مسز مارش أضعاف ما استفاد بما فعلناه له طوال السنوات الماضية •

ومضى الوقت كأسعد ما يكون ، فى روايات تمثيلية ، ولوحات حية ، ونزهات فى الحقول ، وانزلاق على جليد الشتاء ، ثم أمسيات مرحة يقضيها لورى مع صديقاته فى غرفة الجلوس القديمة ببيت مارش ، وحفلات أنيقة تقام بقصر لورنس الكبير • وأتيح لميج أن تزور بيت الزهور ، وتخرج منه وفى يدها باقات جميلة ، والتهمت جو ما فى المكتبة الجديدة بنهم القارئة الجشعة ، وأضحكت السيد العجوز بنقدها الطريف للكتب • أما آمى فكانت تتبع هوايتها للرسم بنسخ الصور

الجميلة المعلقة على جدران القصر . كل هذا ولورى يقوم بدور المضيف ، فى أسلوب السيد المهذب الكريم .

ولكن بث رغم تشوقها الى المعزف الكبير ، لم تقو على جمع شجاعتها ، لتزور « قصر النعم » كما كانت تسميه ميج . ولقد ذهبت يوما مع ميج ، ولكن السيد العجوز ، الذى لم يكن يعرف مدى حيائها ، حدق فى وجهها بشدة ، وتطلع اليها من تحت حاجبيه الكثيف ، وناداها بصوت عال ، فأفزعها بذلك كل الفزع ، وفرت الى بيتها هاربة ، وقالت لأمها انها لن تذهب الى القصر الكبير مرة ثانية ولو كان فيه معازف الدنيا كلها ، فلقد أفزعها العجوز حتى ارتجفت ركبتاها ، وأحست لفرط الرعب كأنها تكاد تسقط على الأرض . ولم يجد الاقناع فيها ، ولم تفلح الحجج فى ازالة مخاوفها ، الى أن وصل الخبر بطريقة ما الى مسامع مستر لورنس ، فعمل على اصلاح الأمر بنفسه . وفى احدى زياراته القصيرة لآل مارش ، وجه الحديث الى الموسيقى بطريقة لبقة ، وتكلم عن أشهر المطربين الذين رآهم على المسارح ، وأجمل المعازف التى سمع بها ، ثم قص حوادث وقصصا طريفة ، اجتذبت بث اليه من ركنها البعيد ، فتسللت تقترب منه خطوة خطوة ، وكأن يدا خفية تدفعها اليه . وأخيرا وقفت وراء مقعده تصغى بشوق الى حديثه ، فلم يبد مستر لورنس اهتماما بوجودها ، ولم يلق بالا اليها ، انما جعل يتكلم عن لورى ومدرسيه ودروسه ، ثم قال فجأة كأن فكرة عرضت لذهنه بالصدفة :

— يسرنى أن أهمل الصبى مرانة الموسيقى ، بعد أن انشغل به الى حد الهوس ، ولكنى أخاف أن يفسد الاهمال المعزف ، فهل أجد فى بناتك الصغيرات من تتفضل بالعزف عليه بين وقت وآخر ؟

وخطت بث الى الأمام خطوة ، وقد ضمت يديهـا الى صدرها ، حتى لا يدفعها السرور بهذا الخبر ، الى التصفيق فى حضرة العجـوز ، فقد كان الاغراء شديدا ، ومجرد التفكير فى استعمال المعـزف يبهـر أنفاسـها • وقبل أن تجيب مسز مارش ، قال مستر لورنس باسما :

ــ ولن يقلق العازفة شيء ، فأنا أجلس بمكتبى فى نهاية البيت ، ولورى لديه ما يشغله ، وبعـد السـاعة التاسعة لا يقترب من غـرفة الجلوس أحد من الخدم ، فان شاءت احدى بناتك أن تأتى ، فأهلا بهـا وسهلا ، فى أى ساعة تروق لها •

ونهض عن مقعده كأنه يريد الانصراف ، فاسـتقر رأى بث على أن تقول كلمة بعد أن أوقعها مستر لورنس فى شـباك حيلته ، ولـكن العجوز لم ينتظر حتى تتكلم ، وقال :

ــ أخبرى الفتيات بهذا الأمر ، فاذا رغبن بعد ذلك عن الحضور ، فلا بأس عليهن •

وهنا أمسكت يد صغيرة بيـده الكبيرة ، ورفعت بث اليه وجهـا مفعما بالشكر ، وقالت فى جد يشوبه الحياء :

ــ بل يرغبن فى الحضور كل الرغبة •

فسألها بصوت خفيض ، حتى لا يفزعها مرة ثانية :

ــ أأنت الموسيقية منهن ؟

قالت :

ــ أنا بث ، وأحب الموسيقى من كل قلبى ، ويسرنى أن أعـزف ببيتك ، اذا لم يسمع عزفى أحد •

وقالت متأدبة ، وجسدها يرتجف حياءً :

ــ واذا لم يزعجك حضورى •

قال :

ــ لن تزعجى أحدا يا عزيزتى ، فالبيت خال معظم النهار ، وأكون شاكرا اذا حضرت فى أى وقت تشائين •

قالت :

ــ هذا كرم منك يا سيدى •

ونظر إليها بعطف بالغ ، فاحمر وجهها خجلا ، ولكنها لم تشعر بالخوف منه ، وضغطت بيدها الصغيرة على يده الكبيرة ، تعبر له عن شكرها فى صمت • وربت السيد العجوز بيده على شعرها ، ثم انحنى وطبع على جبينها قبلة ، وقال بصوت خفيض لم يسمعه إلا بعض الجالسات :

ــ كانت لى حفيدة لها مثل عينيك ، فليحفظك الله ياعزيزتى •

ثم قال لمسز مارش وهو يسرع بالانصراف :

ــ طاب يومك يا سيدتى •

وسرت بث بصنيع مستر لورنس سرورا لا يزيد عليه ، ولما كان أخواتها فى الخارج ، وليس بالبيت من لا يعلم بالنبأ العظيم ، فقد طارت جريا الى أفراد أسرتها من الدمى الكسيحة ، وجعلت تروى لها كيف تفتحت لها أبواب الجنة على يدى جارهن العجوز • وغنت فى تلك الليلة كما لم تغن من قبل ، وعندما استسلمت للنوم كانت أصابعها طوال الليل تلعب على وجه أختها آمى كأنه المعزف المنشود •

وفى صباح اليوم التالى ، تبعت بث وراء النافذة ، حتى رأت مستر لورنس وحفيده يغادران البيت ، وعند ذلك استجمعت شجاعتها ، وبعد تردد طويل ، دخلت القصر من بابه الجانبى ، وسارت تسترق الخطى كفأر مذعور ، الى غرفة الجلوس ، حيث يوجد المعزف الذى تحلم به • وكان على المعزف بعض كتب موسيقية ، سجلت فيها مقطوعات سهلة الأداء ، فأخذتها بأصابع مرتجفة ، وهى تتوقف بين لحظة وأخرى ، لتصيخ السمع خشية أن يكون أحد على مقربة منها • وعندما تأكدت أن البيت هادىء ساكن ، جلست الى المعزف ، وما إن لمست أصابعها مفاتيحه ، حتى انقشع عنها خوفها تماما ، ونسيت نفسها عن كل شىء فى غمرة نشوتها بأنغام الموسيقى الممتعة •

وظلت تعزف حتى أتت حنا تدعوها الى تناول الغداء ، ولكن غبطتها كانت قد ذهبت بشهوتها للطعام ، فجلست مع أخواتها الى المائدة تبتسم ولا تصيب من صحنها شيئا •

وتوالت زياراتها لغرفة الجلوس ، وكانت فى ذهابها وإيابها ، أشبه بطيف موسيقى يقبل ويدبر ولا من يراه •

ولم تشعر قط بأن مستر لورنس ، كثيرا ما كان يفتح باب مكتبه بهدوء بالغ ، ليختلس السمع الى الأنغام الكلاسيكية ، التى يفضلها على غيرها من الأنغام ، وكذلك لم تر لورى ، وهو يقف خارج الباب حارسا أمنيا ، يحميها من الإزعاج ويرد عنها تطفل المتطفلين • وكانت تجلس الى لورى فى بيتها أحيانا ، فتجد فى أحاديثه العابرة عن الموسيقى ، خير مرشد وموجه ، ولكنها لم تكن تعرف أن الكتب التى تجدها على المعزف ، لم تترك فى مكانها اعتباطا ، إنما كان يضعها لورى بيده خصيصا لها ،

ويختارها بنفسه بعد طول تفكير وتدقيق • وعاشت بث فى نعيم مقيم ، ولعل رضاها بهذا النعيم وتقديرها له ؛ كانا فاتحة لخيرات أخرى مازالت الأيام تخفيها فى جعبتها • قالت لأمها بعد انقضاء أسابيع على بداية هذه الحــوادث :

— أريد يا أماه أن أصنع خفا لمستر لورنس ، فقد غمرنى بكرمه ، وأحب أن أعبر له عن شكرى وامتنانى •

فقالت مسز مارش ، التى لم تكن ترد لبث طلبا ما استطاعت :

— إنها فكرة طيبة ، وسيسره أن تعبرى له عن شكرك بهذا الأسلوب اللطيف •

واشتركت ميج وجو فى مناقشة فكرة الهدية ، واجتمع رأى الأسرة على طراز الخف ، واشتريت لوازمه فى أسرع وقت ، ثم عكفت بث على صنعه ليلا ونهارا ، وكانت فى عملها نشيطة دقيقة ، فلــم ينقض وقت قصير حتى انتهت من إعداد هديتها على أحسن وجه • وطوت الخف فى لفلفة أنيقة ، واستعانت بلورى على كتابة بطاقة الإهداء التى سترفقها بها ، ثم تسللت الى القصر ذات صباح ، ووضــعت هديتهــا على مكتب العجوز ، قبل أن يستيقظ من النوم •

وهدأت نفسها بذلك بعض الهدوء ، ولاذت ببيتها تنتظر النتائج ، ولكن يوما كاملا مضى ولم يأتيها خبر بوصول الهديــة الى صاحبهــا ، وانتصف اليوم الثانى بلا جديد ، فانتابتها المخاوف ، وخشيت أن تكون الهدية لم تقع من نفس العجوز موقعا حسنا •

وخرجت فى العصر لبعض شأنها ، واصطحبت معها دميتها الكسيحة تفرج عنها ، فلما عادت الى البيت ، استقبلتها أربع رءوس تطل من النافذة

فى انتظارها ، وصاح بها أخواتها مهللات مرحبات ، وسمعت صوتا يقول لها :

— جاءتك رسالة من السيد العجوز ، فأسرعى بالدخول لتقرأيها •

وصاحت آمى من النافذة تقول :

— لقد بعث إليك بـ •••

ولكن الجملة لم تتم ، فقد صفق أخواتها النافذة ، ليمنعنها من الكلام ، ودخلت بث ترتجف انفعالا ، فاستقبلها أخواتها الثلاث على باب البيت ، وقدنها الى غرفة الجلوس فى مظاهرة مرحة •

هتفن بها فى صوت واحد :

— أنظرى هناك ••• أنظرى •

وتطلعت بث الى حيث أشرن بأيديهن ، فامتقع لونها لفرط الدهشة والسرور ، فقد رأت فى ركن الغرفة معزفا صغيرا جميلا ، وضعت على غطائه الأسود اللامع ، رسالة كتب على مظروفها ، « الى الآنسة بث مارش » •

فشهقت بث ، وأحست كأن قواها تخور فجأة ، فاستندت الى جو خشية أن تهزمها الحوادث المتتابعة المثيرة ، فتسقط على الأرض •

قالت :

— أهذا المعزف لى ؟

أجابت جو ، وهى تناولها رسالة العجوز :

— أجل ... إنه لك أيها الملك الصغير ، فقد بعث بـــه إليك أطيب عجوز فى هذه الدنيا ، هاك الرسالة والمفتاح .

ودفنت بث رأسها فى ثوب أختها جو ، وقالت لها بانفعال شديد :

— اقرأى الرســـالة عنى ، إن المفاجأة تذهلنى وتعجـــزنى ....

وفضت جو الرسالة ، وراحت تتلو ديباجتها ضاحكة :

« الى الآنسة مارش .

« سيدتى الفاضلة ....

وصاحت آمى وقد أعجبها الأسلوب التقليدى فى الرسالة :

— ليتنى أتسلم رسالة بهذه الديباجة الرائعة !

واستأنفت جـــو قراءة الرسالة فقالت :

« لبست فى حياتى خفوفا لا عداد لها ، ولكن هديتك فاقتها جمالا وحسنا ، فقـــد عرفت كيف تختارين ألوانى المحببة ونقوشى المفضلة ، وثقى أن خفك الجميل سيذكرنى دائما بصانعته الكريمة ، فاسمحى للسيد العجوز أن يعبر لك عن بعض شكره وامتنانه ، وتقبلى منه معزفا عزيزا ، كان فى يوم من الأيام ملكا لحفيدته المحبوبة التى فقدهـــا صغيرة قبل سنوات .

فتفضلى يا سيدتى بقبول وافر الشكر والامتنان

ودمـــت لصـــديقك الوفى وخـــادمك المطيع

جيمس لورنس »

وكانت بث تصغى للرسالة ، وجسدها يرتجف لفرط الانفعال ، فقالت جو تخفف عنها :

— انه شرف عظيم يا بث ، فقد حدثنى لورى بقصة هذه الحفيدة ، وكم كان مستر لورنس العجوز يحبها ويجل ذكراها ، فيحتفظ بكل صغيرة وكبيرة من مقتنياتها ، فليس أمرا هينا أن يعطيك معزفها ، ولعله وجد شبيها لها فى زرقة عينيك وشغفك بالموسيقى •

ورفعت ميج غطاء المعزف تستعرض محاسنه ، وقالت :

— انظرى الى حوامل الشموع المعدنية ، وتأملى فى جمال الحرير الأخضر المطرز بالورود الذهبية ، ثم حامل الأوراق المنقوش ، والكرسى الأنيق المستدير •

قالت آمى ، وما زالت مشغولة البال بأسلوب الرسالة التقليدى :

— تصورى أن يختم الرسالة ، « خادمك المطيع جيمس لورنس » ! والله لأحدثن بنات المدرسة بذلك لأذهلهن وأدهشهن •

وكان من عادة الطاهية حنا أن تشترك فى أفراح الأسرة وأتراحها ، فقالت :

— جربى المعزف يا حبيبتى ، وأسمعينا صوته الجميل •

وجلست بث الى المعزف ، وتحركت أصابعها على مفاتيحه ، فانبعثت منه أنغام شجية ، قال البنات انهن لم يسمعن لها مثيلا من قبل • وكان المعزف من نوع جيد ، وأوتاره حديثة الضبط والشد ، ولكن سعادة البنات به ، ضاعفت محاسنه وزادت فى آذانهن أنغامه روعة وجمالا • قالت جو تداعب بث :

— عليك أن تذهبى الى مستر لورنس ، وتقومى بواجب الشكر له •

وكانت تظن أن أختها لن تجرؤ على الأخـــذ بنصيحتها ، ولكن بث أدهشت الأسرة كلها بقولها :

— هـــذا أقل ما يجب ، وأفضـــل أن أبادر الآن بالذهاب ، قبل أن أطيل التفكير فى الأمر فينتابنى الخوف •

وقامت الى السلم تهبط درجاته بعزيمة قوية ، وخرجت الى الحديقة فتخطت السور ، ثم دخلت بيت آل لورنس •

وألجمت جرأة الفتـــاة ألسنة أخواتها عن الكـــلام ، فقالت حنـــا مندهشة :

— هذا أعجب ما رأيت فى حياتى ! لقد طيرت الهدية صوابها ، ولو كانت بكامل عقلها ، ما رضيت أن تذهب •

ولكن ما فعلته بث بعد ذلك كان أعظم وأروع ، فقـــد طرقت باب المكتبة ، غير مترددة ، فلما أذن لها الصوت الخشن بالدخول ، سارت الى مستر لورنس مباشرة فى جرأة أدهشته ، ومدت يدها تصافحه ، وقالت بصـــوت خافت مرتجف :

— جئت يا سيدى ، أشكر لك •••

وتطلع اليهـــا العجوز بحنان بالغ ، فاحتبست الكلمات فى فمها ، وتلاشت عبارات الشكر من ذهنها ، ولم تعد تذكر سوى أنه رجل فجع فى حفيدته التى كان يحبها من كل قلبه ، وعندئذ غلبتها العاطفة ، فطوقت عنقه بذراعيها ، وطبعت على جبينه قبلة حارة •

ولو أن سقف الدار طار الى السماء السابعة ، ما دهش العجوز دهشته بهذه القبلة ، فتأثر كل التأثر ، ورفع الصغيرة بين ذراعيه ، وأجلسها على ركبتيه ، ولصق خده المجعد الخشن بخدها الناعم الوردى فى رضا غامر ، كأنما حفيدته قد عادت الى الحياة ثانية .

ولم تعد بث تخافه أو تخشاه ، وزال التكلف بينهما ، فجعلت تتحدث اليه بغير حرج مثلما تتحدث الى صديق عزيز ، عرفته طول عمرها . ولما حان موعد عودتها الى البيت ، رافقها الى بابه ، وانحنى أمامها مودعا ، وقد رفع القبعة عن رأسه بيده ، ثم عاد على أعقابه رافع الرأس مشدود الصدر .

ورأى البنات من النافذة ، كيف عادت أختهن الى البيت برفقة السيد الأنيق ، وكيف انحنى لها مودعا باحترام وتقدير ، فطفن بالغرف يرقصن ، وقالت ميج وهى تضرب كفا بكف :

ــ لقد انقلبت الدنيا ، ولا أظن يوم القيامة ببعيد .

الفصــل السابع

آمى تقاسى الهــوان

امتطى لورى صهوة فرسه ذات صباح ، ومر ببيت مارش ، فلمــا رأى البنات فى النافذة ، لوح لهن بسوطه محييا ، فقالت آمى تتفلسف على عادتها :

ــ ألا يبدو « مفترسا » بمعنى الكلمة !

صاحت جو ترد العدوان عن صديقها :

ــ انه مثل فى الهدوء والوداعة ، فكيف تجرؤين عن اهانته بهــذا الوصــف ؟

قالت آمى تدافع عن نفسها :

ــ كنت أمتدح أسلوبه فى ركوب الخيل ، ولم أتفوه بكلمة تهينه •

فانفجرت جو ضاحكة ، وقالت لأخواتها :

ــ ان هــذه الغبية تقصد « فارسا » ، فتقول « مفترسا » •

قالت آمى :

ــ كفاك ضحكا ، فما هى الا فلتة لسان ، على حد تعبير مدرسنا مستر دافيز •

ثم أردفت بصوت منخفض كمن تتحدث الى نفسها ، وان كانت فى الحقيقة تريد أن يسمعها أخواتها :

— ليتنى أملك من المال بعض ما ينفقه لورى على فرسه •

فضحكت جو مرة أخرى ، ولكن ميج قالت فى عطف :

— أتحتاجين الى نقود ؟

قالت :

— كل الاحتياج ، فقد أغرقت نفسى فى الديون ، ولن أحصل على مصروفى القادم ، قبل أسبوع طويل •

فقالت ميج فى جـد :

— أى ديون ، يا آمى ؟

قالت :

— اقترضت من زميلاتى اثنتى عشرة « مصاصة » ليمون ، وعلىّ أن أردها الى صاحباتها فى أقرب وقت ، ولكن نقودى نفدت ، وأمى تكره أن آخـذ من المتجر على الحساب •

ونظرت ميج الى آمى باهتمـام ، وقالت وهى تحاول أن تحتفظ بهدوئها :

— كانت كرات المطاط ، فى أيامنا ، تسلية مدرسية شائعة ، فهـل حلت « مصاصات الليمون » محلها ؟

— كلنا نشتريها الا البخيلات الشـحيحات ، ونحن نضـعها فى أدراجنا ، ونمصها خلسة أثناء الدرس ، وأحيانا نقايض عليها بالأقـلام الرصاص ، أو الخواتم الزجاجية ، أو الدمى الورقية ، أو غير ذلك من اللعب المسلية • وقد اعتدنا أن نعبر بها عن شـعورنا ، فاذا كانت لى

صديقة مثلا أعطيتها واحدة ، واذا كانت لى عدوة وقفت أمصها أمامها ولا أدعوها الى مشاركتى فيها ، وجرى العرف على أن توزع كل بدورها مصاصات الليمون على صاحباتها ، وقد أخذت بهذه الطريقة عددا كبيرا منها ، ويحز فى نفسى أن أعجز عن ردها ، لأنها ديون شرف ، لا يصح أن نسكت عليها •

وأخرجت ميج كيس نقودها ، وقالت :

ـ كم تحتاجين لتسددى ديونك كلها ؟

قالت :

ـ يكفينى ربع ريال ، وربما تبقى جزء منه أشترى لك به نصيبا من مصاصات الليمون ، أفلا تحبينها ؟

قالت ميج :

ـ لا ! لا أحبها ، فخذى نصيبى ، وهاك النقود ، فلا تسرعى بانفاقها اذ أننى أكسبها بشق النفس كما تعلمين •

قالت آمى :

ـ شكرا لك وألف شكر ، لا يمكنك أن تتصورى كم تفرجين عنى بذلك ، فقد مضى على أسبوع كامل لم أشتر فيه واحدة ، وكذلك لم أقبل من زميلاتى هداياهن حتى لا تتضاعف ديونى فيصعب على ردها •

وفى صباح اليوم التالى ذهبت آمى الى مدرستها متأخرة ، ومع أن زميلاتها كن جالسات فى الفصل عند وصولها ، فقد ساقها فرحها الى اطلاعهن على السر ، فأرتهن من تحت درجها الكيس البنى الممتلىء بالمصاصات •

وسرى الخبر فى الفصل بسرعة البرق ، فعرف البنات جميعن أن آمى أحضرت معها أربعا وعشرين « مصاصة » ، وأنها تنوى توزيعها على من تحب ، فيتلطفن معها تلطفا بالغا ، حتى أن كيتى براون دعتها الى حفلتها القريبة ، وأصرت مارى كنجزلى على أن تقرضها ساعة يدها الى نهاية الحصة ، أما جينى سنو ، تلك الشيطانة الصغيرة ، التى لم تسكت طوال الأسبوع الأخير عن معايرتها بعجزها عن شراء المصاصات ، فقد كفت عن عدوانها ، وعرضت على آمى اجابات المسائل الحسابية الصعبة . ولكن تودد جينى لم يلق قبولا من آمى ، اذ كانت الفتاة لا تزال تذكر لغريمتها ما كانت تقوله عن « صاحبة الأنف المفرطح التى لا تمنعها فرطحة أنفها من شيم حلوى الأخريات » . لا ، ولم تغفر لها اشارتها الجارحة الى « أولئك الفتيات اللائى يستجدين الحلوى بلا كرامة أو إباء » . وكانت هذه الأقوال تحز فى قلب آمى ، فلما رأت تودد جينى ، بعثت اليها برسالة سريعة تهدم فيها آمالها وتقول : « لا حاجة بك الى الأدب المصطنع ، فلن تنالى منى مصاصة واحدة ! » .

وتصادف أن كان بالمدرسة ذلك اليوم زائر كبير ، حازت خرائط آمى أعجابه وتقديره ، فأثار النصر الجديد أحقاد جينى سنو ، وحفزها الى طلب الانتقام ، وكان انتقاما ذريعا ، قلب الأمور رأسا على عقب : فعندما انصرف الضيف الكبير عن الفصل ، قامت جينى الى مستر ديفيز ، كأنها تريد أن تسأله سؤالا ، ثم همست فى أذنه بأن آمى تخفى فى درجها ، كيسا مليئا بالمصاصات .

كان مستر ديفيز قد حرم على البنات احضار المصاصات الى الفصل ، وتوعد بالعقاب الشديد من تحدثها نفسها بمخالفة أوامره .

وكان قد أفلح قبل ذلك فى منع « اللبان » والقصص والجرائد والمجلات ، ووضع حدا لأسماء التدليل التى كان البنات ينادين بها بعضهن بعضا • ومع أن قيادة البنات أشق على النفس من قيادة البنين ، خصوصا على رجل عصبى المزاج مثل مستر ديفيز ، فقد استطاع المدرس بطغيانه وشراسته أن يبسط نفوذه على خمسمائة فتاة فى المدرسة ، وأفلح فى ترويضهن على احترام أوامره • وكان مستر ديفيز مدرسا ممتازا ، يتقن اللغة اللاتينية كما يتقن الحساب والجبر والهندسة ، ولكن أساليبه فى معاملة البنات كانت خشنة جافة ، وتصادف فى ذلك اليوم أن كان ثائرا أكثر من المعتاد ، لصداع شديد ألم برأسه ، ولأن البنات لم يظهرن براعة كافية أمام الزائر العظيم • والحقيقة أن البنات ذقن منه الأمرين فى ذلك الصباح ، حتى وصفنه « بالساحرة الشريرة » و « الدب الثائر » ، فجاءت وشاية جينى نارا على بارود ، اذ امتقع وجهه امتقاعا شديدا ، وضرب المنضدة بقبضته ضربة تنذر بالخطر ، ثم صرخ قائلا :

— انتباه !

وهدأ الفصل لكلمته هدوء القبور ، وتطلعت عيون البنات الى وجهه القبيح فى خوف وقلق • قال :

— آمى مارش ، تعالى هنا •

وتظاهرت آمى بالثبات ، ولكن قلبها كان يرتجف بين ضلوعها ، وقبل أن تخطو اليه خطوة واحدة ، قال على غير انتظار :

— وأحضرى معك مصاصات الليمون الموضوعة فى درجك •

همست زميلة ذكية تحذرها :

— لا تأخذيها كلها !

وعملت آمى بالنصيحة ، فتركت فى الدرج ست قطـع ، وحملت الباقى الى منضدة مستر دافيز ، وكلها أمل أن تلين رائحة الحلوى الشهية قلبه الجامد ، ولكنه قال باشمئزاز :

ــ أهــذا كل ما معك ؟

وعجز لسانها عن الكذب ، فأجابت متلعثمة :

ــ ليس كله •

قال :

ــ اذا عودى وأحضرى الباقى •

وخضعت لأمره والأسى يملأ قلبها • قال :

ــ أهــذه مصاصاتك كلهــا ؟

قالت :

ــ ليس من عادتى أن أكذب يا سيدى •

قال :

ــ أعتقد ذلك ، والآن خذى هــذه القاذورات ، اثنتين فاثنتين ، وألقى بهــا من النافذة •

وندت عن البنات تنهدة الحزن والأسى ، فقد ذهبت أوامر مستر دافيز بآخر أمل فى انقاذ المصاصلت الشهية •

وفى مزيج من الخجل والغضب ، خضعت آمى لارادة مدرســها ، فكانت تحمل فى كل مرة مصاصتين ، تذهب بهما الى النافذة ، فتلقيهما منها ، ثم تعود لتحمل مصاصتين أخريين ، وهــكذا قطعت الطريق بين

منضدة الأستاذ ونافذة الفصل اثنتي عشرة مرة ، في كل منها يتعالى هتاف أولاد الشارع ، وهم يتلقفون الحلوى ، وكأنما تهبط عليهم من السماء • واذا كانت خسارة التلميذات في المصاصات عظيمة ، فقد كان الخطب أفدح بالهتاف ، اذ كان بينهن وبين هؤلاء الغلمان عداء قديم مكين •

وبعد أن ألقت آمي آخر مصاصتين ، قال المدرس الطاغية يحدث التلميذات بصوت رنان :

— منذ أسبوع ، يا بنات ، حذرتكن من احضار المصاصات الى الفصل ، وتوعدت من تخالف أمرى بالعقاب ، وليس من عادتي أن أسكت عن العصيان ، أو أرجع عن كلمة قلتها ، ولذلك أراني مضطرا الى عقاب هذه الفتاة جزاء وفاقا على استهتارها بالنظم • آمي مارش ، مدى يدك •

وانتفضت آمي فزعا ، وسحبت يدها الى ما وراء ظهرها ، وتطلعت اليه في صمت يفيض بالاستعطاف • وكانت آمي تلميذته المفضلة ، وكثيرا ما كان ديفيز العجوز يمتدحها ويثني عليها ، فلما رآها تنظر اليه هكذا ، لان قلبه الجامد ، وحدثته نفسه بأن يغفر لها غلطتها ، ولكن شاء سوء الحظ في تلك اللحظة أن ينكر التلميذات أساليب التأديب البدني ، فندت عن احداهن آهة غضب خافتة ، لم تغب عن أذن المدرس العنيد ، فقرر أن يمضي في عقابه ، ليحد من عصيان تلميذاته • هكذا تقرر مصير آمي ، وكان رده على نظرتها المستعطفة ، أن قال بخشونة مرة أخرى :

— آمي مارش •• مدى يدك •

وشعرت آمى برغبة شديدة فى البكاء ، ولكن كبرياءها منعتها من أن تطلق العنان لدموعها ، فأطبقت فكيها فى تحد ، وأعطته يدها يضرب عليها ، واختارت أن تتقبل العقاب صامتة ساكنة لا يتحرك لسانها بكلمة ولا يرمش لها جفن .

وكانت الضربات موجعة ، ولكن شعورها بالمذلة والهوان كان أشد ألما من الضرب ، اذ كانت هذه أول مرة تعاقب فيها بهذه الصورة . قال مستر ديفيز بعد أن أعطاها نصيبها من لسعات مسطرته :

— والآن قفى على المنصة ، حتى تنتهى الحصة :

وكان هذا أبشع ما فى المسألة كلها ، فقد كانت آمى تأمل أن ينتهى الأمر عند الضرب ، فيسمح لها أستاذها بعده بالرجوع الى قمطرها ، بين عطف صديقاتها وشماتة عدواتها ، أما أن يمضى فى عقابها ، فيأمرها بالوقوف على المنصة ، لتواجه نظرات التلميذات ، وما زال هوان الضرب عالقا بها ، فأمر لا تحتمله نفسها الوديعة الحساسة . وتطاحنت الآلام فى صدرها ، وخيل اليها أن تلقى بنفسها على الأرض باكية صارخة ، ولكن منعها من ذلك أن تذكرت جينى سنو ووشايتها الخبيثة ، فثارت كرامتها ، وأقسمت فيما بينها وبين نفسها أن تتحمل الهوان بشجاعة الى النهاية .

وصعدت المنصدة ، واختارت من جدار الغرفة نقطة عالية ، تثبت عليها أنظارها ، لتتحاشى بذلك مواجهة عيون زميلاتها . ولزمت مكانها لا تتحرك عنه ، وقد امتقع وجهها امتقاعا شديدا ، شغل البنات به عن تتبع الدرس ، فتطلعن اليها آسفات مشفقات .

وربما يعتقد بعضنا أن الحادث فى حد ذاته بسيط تافه ، وأن

العقاب أمر شــائع فى كل مدرســة ؛ ولكن آمى ذات الكبرياء والحس المرهف ، وجدت فيه محنة نفسية بالغة لا ينسى عارها مدى الحياة ، فقد تعودت الفتاة منذ مولدها الى ذلك اليوم المشئوم ، أن تعامل بالعطف والحسنى ؛ ولم يسبق لأحــد أن حطم كبرياءها بمثل هذا العقاب المذل المهين ، فكان ألمهــا النفسى به أضــعاف ألمهــا البدنى ، وبلغت ثورتها الصامتة أقصاها ، عندما تذكرت أمها وأخوتها ، وتصــورت كيف يكون وقع الخبر عليهن •

ومضت بها ربع ســاعة ، كل دقيقة منهــا فى طول الدهور ، ثم شاءت الأقــدار أن ترحمها ، فانتهت الحصة وانتهى معها العقاب • قال مستر ديفيز فى قلق ملحوظ :

ـ عودى الى قمطرك يا آنسة مارش •

ونظرت آمى اليه طويلا ، ومن غير أن تنطق بكلمة واحدة ، أعطته ظهــرها ، وخرجت من الفصــل مسرعة الى غرفة الملابس حيث جمعت حاجياتها وأدواتها ، وانصرفت بها عن المدرسة الى الأبد •

ودخلت البيت فى حالة يرثى لها ، وروت لأسرتها ما حدث ، فانزعج اه أخواتها ، وعكفت جــو على كف آمى الملتهب تدلكه بالجليسرين ، وهى فى ذات الوقت تتوعد دافيز ، وتطالب بالقبض عليه ومحاكمته على وحشيته ؛ فتؤيدها الطاهية حنــا فى هــذا الرأى ، وتتمنى لو كان فى استطاعتها أن تقلو الشرير كما تقلو البطاطس فى الزيت • وروحت مسز مارش عن بنتها بكلمات هادئة مقتضبة ، ولكن جسدها كان يرتجف لفرط ثورتها المكبوتة ، اذ كانت بطبعها أمــا طيبة ، تقــدر كبرياء الصــغار كما تقــدر كبرياء الكبار ، وتنكر أساليب القسوة فى العقاب والتربية •

وعرف بنات الفصل بهرب آمى من المدرسة ، ولاحظن بعيونهن الثاقبة كم تأثر دافيز بذلك فنحا طول اليوم نحو الهدوء والسكون ، وقبيل انتهاء اليوم الدراسى رأين جو تدخل عليه غاضبة ، فتضع أمامه خطابا من أمها ، ثم تتجه الى قمطر أختها ، فتأخذ منه الكتب والأدوات ، وتنصرف بها ، وهى تحك قدميها على منفضة الباب ، كأنها تزيل عن حذائها آخر غبار للمكان البغيض •

وفى مساء اليوم المشهود ، قالت مسز مارش لبنتها آمى :

ـ أكره أن يعاقب البنات بالضرب ، وأرى فى أساليب مستر دافيز ما يتنافى مع أصول التربية ، فخير لك أن تبقى فى البيت ، وتشغلى وقتك بالدرس مع بث ، حتى أكتب لأبيك أسأله رأيه قبل أن أبعث بك الى مدرسة أخرى •

فتنهدت آمى وقالت بلهجة الشهيدة المعذبة :

ـ يؤسفنى أن أحرم من صحبة زميلاتى ، ولكنى سعيدة بترك المدرسة ، وأتمنى من صميم قلبى أن يتركها بالمثل التلميذات كلهن ، حتى يصاب دافيز بالافلاس ، فيغلق أبواب مدرسته •

قالت أمها بصرامة :

ـ لست آسفة لحرمانك من زميلاتك ، لأنك أخطأت وخالفت القوانين ، فحق عليك العقاب •

قالت آمى فى انزعاج :

ـ أيرضيك هوانى أمام المدرسة كلها ؟

أجابت أمهـا :

ـ ليست القسوة طريقتى فى التربية ، ولكنك تلقيت درسا مفيدا ، يقوم اعوجاجك ويصلح ما اختل من أمرك ، فقد داخلك الغرور أخيرا ، واستكبرت بمـا وهبك الله من فضائل ، ونصيحتى أن تعيدى النظر فى أحـوالك ، فالغرور مقتلة العبقرية ، والتواضـع سر العظمة ، وليس أجمل ولا أنبل من أن نغتبط بفضائلنا دون أن نتشدق بهـا ، والا نفر الناس منـا ، وكرهوا الاختلاط بنـا •

وكان لورى يلعب الشطرنج مع جـو فى جانب من الغرفة ، فلما سمع كلام مسز مارش قال :

ـ هذا عين الصواب ، فالتواضع ثروة خلقية طائلة ، فأنا أعرف فتاة بارعة فى الموسيقى ، تعزف أجمل المقطوعات بمهارة فائقة ، ولكنها مثل فى التواضع الجميل ، ولو صارحتها برأيى فى فنهـا الأصـيل مـا صدقتنى • انها فتاة فريدة فى نوعها ، تعيش بمواهبها الممتازة ، ولا تكاد تحس بهـا •

واجتـذب حـديث الموسيقى بث ، فسارت الى لورى تقول :

ـ انى غبيـة بليدة ، أفلا تعرفنى بهذه الفتاة الممتازة ، لتساعدنى وترشـدنى ؟

أجاب لورى بمرح واغتباط :

ـ ولكنك تعرفينها كل المعرفة ، وما من انسان يساعدك مثلها •

وأدركت بث فى هذه اللحظة أنه كان يعنيها بالكلام ، فاحمر وجهها احمرارا شديدا ، وغلبها الخجل ، حتى دغنت وجهها فى وسائد الأريكة •

واغتبطت جو بكلام لورى كل الاغتباط ، وسرها أن يمتدح أختها المفضلة بهذا الأسلوب اللبق الجميل ، فتساهلت معه فى لعبة الشطرنج ، وتركت له الفرصة لينتصر عليها ، وغرضها من ذلك أن تكافئه على حسن صنيعه • واستمدت بث من الحديث شجاعة وقوة ، فقامت الى « البيان » تعزف عليه أجمل مقطوعاتها ، ولورى يغنى معها بصوت شجى ، فعاد المرح الى جو الأسرة ، وانقضى المساء فى رضا وحبور •

ولما حان وقت العشاء ، انصرف الفتى الى بيته ، وقالت آمى لوالدتها ، بعد طول تأمل وتفكير :

— أليس لورى مثقفا ماهرا ؟

أجابت والدتها :

— انه بالفعل كذلك ، فقد نال من التعليم قسطا موفورا ، وعنده من المواهب العالية ذخيرة طيبة ، وسيغدو رجلا ممتازا اذا لم يفسده التدليل •

سألت آمى ثانية :

— وليس مغرورا أيضا ؟

قالت :

— أبدا ، ولذلك نحبه ونصطفيه •

قالت آمى فى عجب وتأكيد ، كأنها اهتدت فجأة الى سر الحياة :

— جميل أن يكون المرء مثقفا أنيقا ممتازا ، ولا يباهى أو يغتر بما حباه الله به من خير جزيل •

قالت مسز مارش :

— ان المواهب الحقة لا تخفى على أحـد ، ولسنا فى حاجة الى استعراضها لاظهارها ، فالحديث عنها يضعف قيمتها مهما بلغت :

قالت جـو تتم موعظة أمهـا :

— وشأن من تتفاخر بمواهبها ، شأن من ترتدى دفعة واحدة كل ثيابها وقبعاتها وأشرطتها ، لتباهى بها الناس ، فتكون النتيجة أن يسخر المجتمع منها ، ويحتقرها •

وانتهت المحاضرة بعاصفة من الضحك !!

الفصـــل الثامن

جــو فى قبضـــة الشيطان

فى عصر يوم من أيام السبت ، دخلت آمى حجرة أختيها ميج وجو ، فوجدتهما تستعدان للخروج ، وتحاولان اخفاء ذلك عنها ، فأثار تكتمهما فضـــولها ، قالت :

ــ الى أين تذهبان ؟

أجابت جو بحـــدة :

ــ هذا شأننا ، وليس لطفلة مثلك أن تتدخل فيما لا يعنيها .

وتألمت آمى لرد جو ، ولكنهـــا قررت أن تعرف الى أين تذهب أختاها ، ولو اضطرت فى سبيل ذلك الى الالحاح ساعة كاملة ، فليس أشق على كرامة الصغار من أن يقال لهم انهم صـــغار ، وليس أبغض الى نفوسهم من أن يؤمروا بالانصراف الى اللعب . وكانت آمى تعرف أن ميج لا ترفض لها طلبا ، فتوجهت اليها بالسؤال فى دلال وظرف ، قالت :

ــ أخبرينى يا ميج الى أين تذهبان ، فربما ذهبت معكما ، اذ أن بث تلهو بدماها ، ولست أجـــد تسلية أقتل بها وحـــدتى .

ولان قلب ميج ، فشرعت تشرح لها الأمر ، قالت :

ــ لا يمكنك الذهاب معنا يا عزيزتى ، لأنك لست مدعوة .

فقاطعتها جـو بصبر نافد وقالت :

ــ اسكتى يا ميج والا أفسدت كل شىء •

والتفتت الى آمى تقول :

ــ لن ترافقينا يا آمى ، فاسكتى ، ولا تنوحى نواح الأطفال •

قالت آمى :

ــ أعتقد أنكما ستذهبان مع لورى الى مكان ما ، فقد رأيتكم فى الليلة الماضية ، تتهامسون وتضحكون معـا على الأريكة ، ثم سكتم عند دخولى ، ألست على صـواب فى حدسى ؟

قالت جـو :

ــ نعم ، فاسكتى الآن ، وكفى عن مضايقتنا •

وسكتت آمى ، وأمسكت لسانها عن الكلام ، ولكنها دارت بعينيها تفحص ما حولها ، فلما رأت ميج تدس مروحة فى جيبها ، صاحت تقول :

ــ لقد عرفت وجهتكما ، فأنتما ذاهبتان مع لورى الى المسرح ، لمشاهدة تمثيلية « القلاع السبع » •

وسكتت قليلا ، ثم قالت باصرار :

ــ مـا كان يليق أن تخفيا الأمر عنى ، فقـد أذنت لى والدتى بمشاهدة التمثيلية ، ولدى من النقود ما يكفى لشراء تذكرة •

فقالت ميج تهدئها :

ــ أصغى الى لحظة ، وكونى فتاة عاقلة : ان والدتى لا توافق على ذهابك هذا الأسبوع حتى تبرأ عيناك تماما ، فلا تؤذيهما أضواء المسرح •

ولن تفوتك بذلك الفرصة ، ففى الامكان أن تشاهدى الرواية مع بث وحنا فى الأسبوع القـادم .

قالت آمى ، تستعطفهما وترجوهما :

ــ ولكن متعتى تكون أعظم اذا ذهبت معكما ومع لورى ، فهـلا سمحتما لى بذلك ؟ لقد ضاق صدرى بالبقاء فى البيت ، ولم أخرج منذ أصابنى البرد ، ونفسى تتوق الى بعض التسلية . فدعينى أذهب معكما يا ميج ، وأعـدك بأن أكون دائما فتاة طيبة مطيعة .

ولان قلب ميج مرة ثانية ، فقالت تسأل جـو :

ــ ماذا لو أخذناها معنا ؟ لن تمانع والدتى فى ذهابها اذا دثرناها بمعطف سـميك .

فقاطعتها جو غاضبة ، وقد غاظها أن تتقلب آمى خططها ، وتفسد بذهابها ما كانت ترجوه من متعة وتسلية ، قالت :

ــ اذا أخذتها فلن أذهب معكم ، اذ أن لورى دعانا نحن الاثنتين فقط ، فان تفرضي عليه شخصا ثالثا ، مجافاة لأبسـط قواعد اللياقة ، وثقي أنه لن يغتبط بذلك .

وكانت آمى قد شرعت تلبس حذاءها ، فأغضبها من جـو كلامهـا ولهجتها ، فقالت فى إصرار :

ــ سأذهب اذا كانت ميج تريدني ، ولن أكبد لورى مشقة ما دمت أملك ثمن التذكرة .

وكانت جو قد وخزت أصبعها بدبوس فى لهفتها على ارتداء ملابسها ، فازدادت بذلك حنقا على حنق ، فقالت غاضبة :

— إن مقاعدنا محجوزة ، ولن تجدى مقعدا بجوارنا ، فإما أن تجلسى وحدك وهذا لا يجوز ، أو يعطيك لورى مكانه فتفقد السهرة بهجتها ، أو يبتاع لك مقعدا رابعا مع أنه لم يفكر فى دعوتك من بداية الأمر ، فخير لك أن تبقى فى البيت ولا تخرجى منه •

وتوقفت آمى عن لبس حذائها ، وجلست على الأرض تبكى بحرقة ، فحنت عليها ميج تسرى عنها ، وتقنعها بالبقاء فى البيت ، وإذ ذاك ارتفع صوت لورى ينادى من الطابق الأسفل ، فأسرعت الفتاتان تهبطان إليه ، ومن خلفهما آمى تصيح وتنوح بأعلى صوتها ، فلما لم تجد من يلتفت اليها ، أطلت برأسها من أعلى السلم ، وقالت تتوعد جو :

— سوف تندمين على فعلتك يا جو مارش ، وترين كيف أنتقم منك •

أجابت جو وهى تصفق خلفها :

— هراء !

وقضت الفتاتان وقتا جميلا ، فقد كانت « القلاع السبع » تمثيلية رائعة ، فيها كل ما يشتهيه قلب جو من أمراء وأميرات وأشباح وملابس براقة ومناظر خلابة ، فجعلت الفتاة ترقب المسرح بنظرها وقلبها وحسها ، حتى ظهرت ملكة التمثيلية بشعرها الذهبى الطويل ، وعندئذ تذكرت أختها الصغيرة ، فغشى سرورها بعض الأسف والألم ،وظلت طوال فترات الاستراحة التى تتخلل الفصول ، تفكر فى عيد آمى ، وتتكهن بما قد تفعله فى سبيل الانتقام الذى أنذرتها به •

ولم يكن هذا أول خلاف ينشب بين جو وآمى ، فكثيرا ما كانت المعارك تقوم بينهما ، وتبلغ من العنف أحيانا حدا بعيدا • وكانت جو

بطبعها سريعة الغضب عصبية المزاج ، إذا أثارها إنسان ، فقدت سيطرتها على نفسها ، ولكنها كانت الى جانب ذلك طيبة القلب حسنة الأخلاق ، لا يدوم غضبها أكثر من دقائق معدودات ، يهدأ بعدها غليان مراجلها ، فتعتذر فى لين وأدب عما بدر منها • وكانت تعرف موطن الضعف فيها ، فتبذل جهودا جبارة فى سبيل السيطرة على غضبها ، وتعاهد نفسها فى كل مرة على أن تكون مثلا فى التسامح والصبر ، ثم يثور غضبها لأمر من الأمور ، فينفلت منها الزمام ، لتهدأ بعد قليل ، وتعتذر فى لين وأدب • وكان أخواتها يعرفن فيها هذا الطبع الملائكى ، فيتعمدن إغاظتها ليستمعن بجمال اعتذارها ، ولكن آمي كانت بدورها سريعة الغضب عصبية المزاج ، ولذلك كثيرا ما كانت تصطدم بجو ، وتبلغ المعارك بينهما مبلغ العنف والشدة •

وعند ما انتهت التمثيلية ، وعادت الفتاتان الى البيت ، كانت آمى تقرأ فى الردهة ، وقد علت وجهها سمات الألم الدفين • وأرادت أن تعبر عن غضبها لأختيها ، فتجاهلت دخولهما ، وأبت أن ترفع رأسها عن كتابها ، ورغم شوقها العظيم الى معرفة تفاصيل السهرة ، اختارت أن تترفع عن الكلام ، تاركة لبث مهمة إشباع فضولها بأسئلتها واستفساراتها •

وصعدت جو الى غرفتها تخلع قبعتها ، فكانت خزانة الملابس أول ما اتجه إليه نظرها ، فقد انصب انتقام آمى فى آخر معركة نشبت بينهما ، على قلب حاجاتها المرتبة ، وإلقائها على أرض الغرفة • ولكنها لم تفعل ذلك فى هذه المرة ، ولم تعبث بدرج أو خزانة أو صندوق ، فاطمأن قلب جو الى أن آمى نسيت وعيدها ، وصفحت عنها • ولكنها أخطأت الظن ، فقد حدث فى اليوم التالى أن بحثت جو عن كراسة القصص التى تضم

فيها مؤلفاتها ، فلم تجدها حيث تركتها آخر مرة ، وأقنعها البحث الدقيق بأن الكراسة اختفت ، وأن يدا خبيثة ساهمت في اختفائها .

وكان أخواتها يجلسن فى الغرفة السفلى ، فهبطت الدرج إليهن مبهورة الأنفاس ، وقالت بانفعال :

— هل أخذت إحداكن كراستي ؟

وأجبت ميج وبث بالنفى ، وقد بانت فى وجهيهما أمارات الدهشة الصادقة ، أما آمى فقد احمر وجهها قليلا ، ولم تقل شيئا ، وتشاغلت عن الإجابة بتقليب نار المدفأة ، فاتجهت جو إليها مباشرة ، وقالت لها :

— آمى .. لقد أخذتها !

قالت :

— لا ، لم آخذها .

— إذا فأنت تعرفين مكانها !

أجابت :

— لا ، لا أعرف .

صرخت بها جو :

— أنت تكذبين !

وثارت براكين غضبها المعهود ، فأمسكت بكتفى الفتاة بخشونة شديدة ، انخلع لها قلب آمى ، فقالت خائفة :

— لست كاذبة ، ولم آخذ كراستك ، ولا أعرف أين هى ، ولا يهمنى ما أصابها .

قالت جو وهى تهزها قليلا :

— بل تعرفين يا آمى أين ذهبت الكراسة . فاعترفى من تلقاء نفسك ، وإلا أكرهتك على الاعتراف •

فصاحت آمى ، وقد ثار غضبها بالمثل :

— افعلى ما بدا لك ، ولكنك لن ترى قصصك السخيفة مرة أخرى :

قالت :

— ولم ؟

قالت :

— لأننى أحرقتها !

فغاض الدم من وجه جو ، وتشنجت يداها على كتفى آمى ، وقالت فى استنكار وفزع :

— ماذا تقولين ؟ أأحرقت كراستى التى تعبت فى كتابتها سنوات طويلة ، لأنتهى منها قبل عودة أبى الينا ؟ !

قالت :

— نعم أحرقتها ، وقد أنذرتك أمس وأقسمت أن أورثك الندم على فعلتك ، ولقد نفذت وعيدى وأحرقتها ، فافعلى الآن ما تريدين •

وانفجرت مراجل غضب جو ، وركبها شيطان الشر ، فجعلت تهز أختها وتهزها ، بكل ما تستطيعه من قوة وعنف ، حتى اصطكت أسنان آمى لفرط الألم والرعب ، وصاحت الغاضبة تقول :

— أيتها الشريرة الخبيثة . لن أغفر لك فعلتك مـا حييت ، فقـد حرمتنى من أجمل قصص كتبتها •

وأسرعت ميج تنقذ آمى من بين يدى جو ، وهرعت بث الى أختها المفضلة تسرى عنها وتخفف من حدة غضبها ، ولكن جو لم تسكت حتى لطمت آمى على وجهها لطمة شديدة ، لاذت بعدها بغرفتها تعالج ثورتها وحيدة •

وهدأت العاصفة فى الردهة السفلى ، عندما عادت مسز مارش من عملها ، وعلمت بما حدث ، فأنبت آمى تأنيبا شديدا ، وبينت لها مـدى الأذى الذى ألحقته بأختها ، فقد كانت تلك الكراسـة مفخـرة جـو ، وكانت قد سكبت فيها روحها وقلبها ، وتعبت فى تأليف قصصها وتهذيبها ، وقضت شهورا فى تجميل أسلوبها وتنميقه ، عسى أن تستطيع نشرها فى يوم من الأيام • وكانت جو قد اكتفت بالنسخة الأخيرة ، وأعدمت الأصول كلها ، فكأن آمى بفعلتها قضت على جهودها طوال السنوات الأخيرة ، وأنزلت بهـا خسارة لا تعوض •

وخيم على البيت سكون ثقيل ، فقد جلست مسز مارش حزينـة مهمومة ، وبكت بث على ما أصاب مؤلفات جو بكاءً كثيرا ، كمـا رفضت ميج أن تدافع عن أختها المفضلة أمام قبح الفعلة التى أتتها ، فاستبد الندم بآمى ، وانتوت أن تعتذر لأختها فى أول فرصة ، حتى تستعيد رضا الأسرة وعطفها • فلما حان موعد تناول الشاى ، وأقبلت جو على غرفة الطعام حزينة مهمومة ، استجمعت آمى شجاعتها كلها ، وقالت فى صوت خجل ضـعيف :

— ان أسفى لمـا فعلت بالغ يا جو ، فسامحينى بالله عليك •

أجابت جو فى صلابة :

ـ لن أصفح عنك ما حييت •

ومنذ تلك اللحظة تجاهلت وجود آمى كلية ، ولما كانت أمها وأخواتها يعرفن بالتجربة ألا فائدة ترتجى من الجدل معها وهى فى عنفوان غضبها ، فقد سكتن جميعا عن الاشارة الى الموضوع ، حتى يهدىء الزمن ثائرتها ، فيلين قلبها •

ومضى المساء فى حزن ووجوم ، بالرغم من أن البنات كن يطرزن كالعادة بجوار المدفأة ، وأمهن تقرأ لهن كتابا مسليا ، فقد كان الجو خاليا من الأنس والألفة ، والأسرة فى قلق واضطراب بعد طول هدوء وسلام • وعندما اقترب وقت النوم ، وحان موعد الغناء ، وقفت جو بجوار المعزف صامتة جامدة ، كأنها تمثال قد من صخر ، وانهارت قوى آمى فسكتت بدورها ، ولم يشترك فى الغناء سوى ميج ، ولكن صوتها الجميل خذلها فى هذه المرة، وخرج رغم محاولاتها الكثيرة عن الأنغام على غير المعتاد •

وأوت جو الى غرفتها ، فدخلت عليها أمها تقبلها وتهمس فى أذنها قائلة :

ـ لا تدعى شمس غد تشرق على غضبك ، وكونى بقلبك الكبير غفورة رحيمة •

وأحست جو برغبة ملحة فى أن تسند رأسها الى صدر أمها ، وتبكى جهودها الضائعة ، ولكنها كانت تحتقر الدموع ، وتراها مظهرا لا يليق بكرامة الرجال الذين كانت تتمنى لو خلقت واحدا

منهم ، فطوت صدرها على ألمها وهزت رأسها وقالت بصـــــوت أجش سمعته آمى من خارج الغرفة :

— لقد أخطأت خطأ جسيما ، ولست أراها تستحق الصفح •

وبهذه الكلمات سارت الى فراشها ، فانتهى المساء كئيبا حزينا •

ومضى نهار اليوم التالى ، ومراجل غضب الفتـــاة مازالت تنـــذر بالانفجار ، وزاد الطين بلة أن كان الجو باردا مكفهرا ، فسقط معطفها فى الوحل أثناء سيرها فى الطريق ، وعندما وصلت الى عمتهـــا وجدتهـــا فى ثورة مضاعفة ، لا تنى عن التذمر والنقد والتجريح •

وظلت ميج طوال النهـــار شـــاردة الذهن ، وكانت بث حزينـــة واجمة ، أما آمى فقـــد ساءها أن يقـــابل اعتذارها بالرفض ، وندمت على أنها أذلت كبرياءها بطلب المغفرة من أختهـــا ، وأحست أن موقف جو الأخير منها قـــد جـــرح كرامتهـــا أكثر من ذى قبـــل ، فعادت الى غرورها الســـابق ، وأمعنت فى التحدث عن فضـــائلها ومواهبها ، ولم تنس التعريض بمن يتظاهرن بالطيبة أمام الناس ولا يعملن فى الحقيقة بأصولها ودواعيهـــا •

وضاق صدر جو بثرثرة أختها وغـــرورها ، ورأت أن تفـــرج عن نفسها بالنزهة قليلا ، وقالت تحدث نفسها :

— كلهن بغيضات الى قلبى اليوم ، ولورى فتى كريم مرح ، ولن يتردد فى الانزلاق معى على الثلج اذا طلبت منه ، وسوف تسرى عنى صحبته وتسلينى •

وسمعت آمى ضجيج قبقاب الانزلاق ، فأغرتها نفسها بالانزلاق مع أختها ، فقالت لميج :

ــ لقد أوشك الشتاء على الانتهاء ، ولم تسنح لى فرصة الانزلاق على الجليد بعد ، لكن لا فائدة ترجى من أن أطلب الى هذه العنيدة أن تصحبنى معها ، رغم أنها وعدتنى بذلك فى يوم من الأيام •

قالت ميج :

ــ لا تلوميها ، فقد كنت البادئة بالعدوان ، وليس من اليسير على نفسها أن تغفر لك ما فعلته بكراستها ، ولكن خذى قبقابك على كل حال ، وأخرجى خلفها عسى أن تكون الآن أكثر استعدادا للصفح عنك ، ونصيحتى أن لا تعترضى طريقها ، حتى يسرى لورى عنها ويدخل بعض المرح على نفسها ، وعندئذ انتهزى الفرصة المناسبة واعتذرى لها ، وقبليها مستغفرة ، وبذلك تستعيدين صداقتها من جديد •

قالت آمى ، وقد راقتها الفكرة :

ــ سأحاول •

ثم أسرعت تستعد ، وجرت خلف جو ولورى ، ولكنهما كانا قد سبقاها الى منعطف الطريق • ورغم أن المسافة لم تكن طويلة بين البيت والنهر ، فعندما لحقت بهما آمى ، كانا قد شرعا فى الانزلاق ، وكان لورى قد سبق زميلته الى سطح النهر المتجمد يختبر كثافة جليده ، ويختار منه البقعة الصالحة للانزلاق ، فلم ير آمى عند حضورها ، ولكن جو رأتها ، فأدارت لها ظهرها ، وتجاهلت وجودها •

ووقفت آمى جانبا تتأمل لورى ، وهو يختبر النهر فى حذر ، وقد ارتدى معطفا سميكا وغطى رأسه بقبعة من الفراء فبدا كأنه أمير روسى ، وسمعته يقول لجو : دعينى أختبر الجليد قبل أن نبدأ السباق •

وأرادت آمى أن تلفت النظر الى وجودها ، فجعلت تضرب الأرض بقدميها ، وتنفخ فى كفيها ، وهى تحاول عبثا أن تلبس قبقابها بغير معونة • ولكن جو أمعنت فى تجاهلها ، وشرعت تتزلق فى خط متعرج ، ونفسها تفيض بالرضا بما تعانيه أختها من مشقة وغيظ ، فقد كان غضبها على آمى يزداد بمضى الوقت ويترعرع • قال لورى لجو :

— الزمى جانب النهر ، واياك أن تقتربى من وسطه ،، فالجليد فيه رقيق لا يحتمل ثقلنا •

وسمعت جو التحذير ، ولكن آمى لم تسمعه ، إذ كانت فى شغل عن الاصغاء بمحاولة الوقوف على الجليد المصقول • ونظرت جو اليها من فوق كتفها ، وهمس الشيطان فى أذنها يقول : « لا يهم ان كانت قد سمعت التحذير أو لم تسمعه ، دعيها تتولى أمرها بنفسها » •

وانزلق لورى الى جانب النهر ، وتبعته جو فى بطء وتأن ، وسارت آمى الى الوسط غير عالمة بالخطر ، فتوقفت جو لحظة ، وقد تطاحنت فى صدرها رغبات مختلفة ، فقلبها يهيب بها أن تحذر أختها ، وشيطانها يحرضها على تركها لشأنها • وترددت جو بين الرغبتين ، ولكن ترددها لم يطل أكثر من لحظة خاطفة ، وقع البلاء بعدها فجأة : إذ انشق الجليد تحت قدمى آمى ، وغاص جسدها الصغير فى مياه النهر الباردة • وصرخت آمى عن قلب استبد به الرعب ، وفتحت جو فمها تستغيث بلورى ولكن الفزع ألجمها عن النطق وأسكتها عن الحركة ، فتسمرت فى مكانها صامتة ، وجسدها يرتجف من الرأس الى أخمص

القدمين • ومضت برهة وهى جامدة فى مكانها تتطلع الى القبعة الزرقاء الصغيرة وهى تغوص وتطفو فى مياه النهر السوداء ، ثم سمعت صوت لورى يصيح بها وهو يمرق أمامها كالسهم :

ـ أسرعى الى بلوح من الخشب •

ومضت الدقائق التالية وكأن جو فى كابوس مخيف : كانت تتحرك دون أن تدرى ، وتطيع أوامر من غير تفكير ، وكان الفتى رابط الجأش ثابت الجنان ، فانبطح على الجليد ، وأمسك يد آمى ليحول بينها وبين الغرق ، حتى انتزعت جو من السياج الخشبى القريب لوحا ، وحملته اليه ، فتعاون الاثنان على انقاذها من الخطر مستعينين باللوح الخشبى ، وأخرجا آمى الى سطح الجليد بعد عناء سببه الفزع أضعاف ما سببه النصب •

ودثر لورى الفتاة بمعطفه الثقيل ، وشد حولها حزامه ، وقال لها :

ـ عودى الى البيت مسرعة ، وأنت يا جو اجمعى حاجاتنا ، حتى أخلع عن قدمى هذه القباقيب اللعينة •

وعاد ثلاثتهم الى البيت ، وآمى ترتجف وتبكى وتقطر ماء ، ومضت بالأسرة فترة عامرة بالانفعال والقلق ، حتى استسلمت الفتاة للنوم تحت الأغطية السميكة بجوار النار الموقدة • ولم تتكلم جو إلا قليلا خلال تلك الدقائق القلقة ، وجعلت تروح وتجىء فى الغرفة شاحبة اللون ثائرة غير آبهة بثوبها الممزق ويديها الزرقاوين المجروحتين بفعل الجليد والخشب •

ولما راحت آمى فى سباتها العميق المريح ، وساد السكون فى البيت ، جلست مسز مارش تضمد جروح جو وتعالجها ، فنظرت الفتاة بحزن الى رأس أختها النائمة ، وتصورت قسوة المصير الذى كان ينتظرها فى غياهب النهر ، فقالت لأمها :

ــ أواثقة أنها بخير يا أماه ؟

فقالت أمها فى لهجة عذبة :

ــ اطمئنى يا عزيزتى ، فمن حسن الحظ أنها لم تصب بجرح واحد ، وأعتقد أن لا خطر عليها من البرد بعد أن دثرتماها بالمعطف ، وأسرعتما بها الى البيت •

قالت جو :

ــ الفضل فى ذلك للورى وحده ، أما أنا فلم أفعل شيئا ، انما كنت السبب فى سقوطها ، وأنا الملومة على ما أصابها ، ولو ماتت ما سئل عن موتها غيرى •

وارتمت جو تحت أقدام أمها ، وانفجرت تبكى فى ندم شديد ، وجعلت تروى لأمها ما حدث ، وتتهم نفسها بقسوة القلب والشر ، ثم تتجه الى الله شاكرة أن أنقذ برحمته أختها من الموت • قالت فى أسى :

ــ انه خلقى الثائر الغضوب ، وكم أقسمت أن أتغلب عليه وأقهره ، فكنت أخفق دائما ، إذ عندما يثور غضبى ينفلت الزمام أشد عنفا مما مضى •

أسندت مسز مارش رأس ابنتها الحزينة الى صدرها ، وطبعت

على خدها المندى قبلة الحنان ، وقالت للفتاة التى زادها عطف أمها بكاءً ونحيبا :

— اتجهى الى الله دائما ، واطلبى منه العون ، يقويك على غضبك ، ولا تستسلمى لليأس ما دمت قادرة على اصلاح الخطأ .

قالت الفتاة :

— خلقى يا أماه يورثنى الحزن والأسى ، فما ان يركبنى شيطان الغضب ، حتى أصبح وحشا ضاريا ، وأشعر بقدرة عجيبة على إتيان الشر ، ويلذ لى أن أرد العدوان أضعافا مضاعفة ، وأخشى أن يقهرنى الشيطان ذات يوم فأقوم بفعلة منكرة تفسد حياتى وتنفر الناس منى . ساعدينى يا أماه وأنقذينى من محنتى .

قالت مسز مارش :

— سأعينك يا بنيتى فكفاك بكاء ، وعاهدى النفس منذ اليوم على أن لا تكررى ما حدث . كلنا بشر يا جو ، وللبشر أخطاؤهم وان اختلفت ، والسعيد من كانت أخطاؤه يسيرة ، والشقى من قضى العمر فى التغلب عليها . لا تظنى أنك فريدة فى حماقتك ، فقد كنت مثلك وأكثر ، ولكنى روضت نفسى على الهدوء والتسامح ، فلماذا لا تفعلين ما فعلت ، فتبلغين ما بلغت من راحة وهدوء وسلام ؟

قالت جو ، وقد أنستها الدهشة آلامها :

— أنت يا أماه ؟ ! لم أرك تغضبين مرة فى حياتى .

قالت :

— لأننى قضيت أربعين سنة فى علاج غضبى ، ولم أنجح إلا بقسط يسير ، فأنا أغضب كل يوم يا جو ، ولكنى تعلمت أن أخفى ثورتى عن الناس ، وأن أكبتها فى قلبى وأغطيها بستار سميك من الهدوء الظاهرى • ومازلت أرجو أن أنتصر على ضعفى انتصارا حاسما ، وأقتلع شجرة الغضب من جذورها ، ولن أسكت حتى أبلغ غايتى ، ولا يضيرنى أن أقضى فى السعى اليها أربعين سنة أخرى •

وتطلعت جو الى وجه أمها ، فرأت فيه أبلغ معانى الصبر والثقة بالنفس ، فتعلمت من ذلك درسا بليغا ، وأحست براحة هائلة تعمر قلبها الحزين القلق ، واستمدت من قصة أمها قوة على قهر نقيصتها •

وازدادت بصراحة أمها الطيبة رغبة فى الكفاح والجهاد ، من أجل الهدوء والسلام ، وكانت تعرف أن أربعين عاما يقضيها الانسان فى مراجعة نفسه دهر طويل ، ولكن أمها لم تيأس على مضى السنين ، فلماذا لا تقتفى خطواتها ، وتطلب الكمال متفائلة وان طال الأمد ؟ وأحست فى تلك اللحظة كأن أمها أقرب اليها من أى وقت مضى ، فسألتها :

— لاحظت يا أماه أنك تزمين شفتيك ، أو تخرجين من الغرفة مسرعة ، اذا أمعنت العمة مارش فى نقدها ولجاجتها ، فهل تكونين فى مثل هذه الأوقات غاضبة ؟

وتنهدت مسز مارش ، ورفعت يدها الرحيمة الى رأس جو تسوى شعرها المشعث ، وقالت :

— نعم ، ولكنى تعلمت أن أحبس كلمات الغضب فى فمى ، وأسرع بالخروج من الغرفة لأعاتب النفس على ضعفها وخذلانها •

سألتها الفتاة :

— أرشديني يا أماه ، كيف أستعين بالهدوء على الغضب ، فالكلمات القاسية تتدفق من فمي على الرغم مني ، وكلما ازداد تدفقها ازدادت مراجل غضبي ثورة وغليانا ، حتى يعميني الضلال ، فأجد لذة فى جرح شعور الآخرين • أريد أن أكون مثلك ، فعلميني ما تعلمته ، وساعديني على بلوغ غايتي •

قالت :

— كانت لي أم رحيمة تساعدني •

فقاطعتها جو بقبلة ، وقالت :

— مثلما تساعدينا برحمتك وحنانك •

قالت مسز مارش :

— ولكنها ماتت وأنا فى سن مبكرة ، فجعلت أكافح الحياة وحدي ، وقد منعني كبريائي من أن أنشد معونة غيرها • وكان وقتا عصيبا ، كله دموع وأحزان . ولكني لم أوفق فى تحسين أحوالي رغم جهودي المضنية ، ثم جاء أبوك ، ومعه الخير والسعد ، فتحسنت مواردي ، وتحسنت معها أخلاقي ، واستطعت أن أكون امرأة طيبة • ولما مضت السنون ، ورزقت ببنات أربع ، ضاعت ثروتنا ، فعادت اليّ أحزاني ، وعز عليّ أن يحرم بناتي متع الحياة ومسراتها •

قالت جو :

— مسكينة يا أماه ، ولكن من الذى أخذ بيدك فى تلك المحنة ؟

قالت :

— أبوك يا جو ، فهو رجل لا ينفد له صبر ولا يعتور إيمانه شك ، يعمل ويجتهد وينتظر السعادة صابرا • كان يعيننى ويواسينى ، ويرينى كيف أتحلى بالفضائل حتى أكون مثلا تحتذيه بناتى ، وكان من السهل علىّ أن أضحى من أجلكن ، وأن أقتفى خطواته لأكون عن جدارة واستحقاق خير قدوة لبناتى ، ووجدت فى حبكن لى وثقتكن بى أعظم جزاء فى الحياة •

صاحت جو فى تأثر بالغ :

— ليتنى أتحلى بنصف فضائلك يا أماه •

قالت :

— بل يجب أن تكون لك فضائلى وأكثر ، وكل ما أطلبه منك أن تحذرى العدو الكامن فى صدرك ، حتى لا يسىء اليك ويفسد حياتك • لقد تلقيت اليوم درسا وانذارا ، فاتعظى بما حدث ، وجندى قواك فى قهر الغضب ، وفى الانتصار عليه ، قبل أن يوردك موارد التهلكة ، فتقاسى من الألم ما لا قبل لك به •

قالت جو :

— سأحاول يا أماه فى اخلاص وعزيمة ، فكونى بجانبى دائما ، وساعدينى على بلوغ غايتى ، ولا تتوانى عن الأخذ بيدى اذا رأيتنى أستسلم للغضب • لقد كنت أرى أبى أحيانا يضع أصبعه على شفتيه ، وينظر اليك فى جد وعطف ، وكنت أراك اذا ما فعل هذا تزمين شفتيك ، ثم تنصرفين من الغرفة مسرعة ، فهل كانت هذه وسيلته فى معونتك على قهر الغضب ؟

قالت :

— نعم ، وكم أنقذتنى تلك الاشارة الصغيرة من أخطاء كثيرة •

ورأت جو الدموع تغرورق فى مقلتى أمها ، فخشيت أن تكون قد تخطت الحدود بكلامها ، فقالت بلهفة وندم :

— أكان خطأ منى أن أرقبكما ، وأصارحك بما رأيت ؟ انما أردت أن أفتح لك صدرى ، وأحدثك بخواطرى واحساساتى ، بعد أن وجدت فى كتفك راحة نفسية غامرة •

قالت الأم :

— لا بأس عليك يا جو ، وأكثر ما يسعدنى يا حبيبتى أن أكون موضع ثقة بناتى ، فأقص عليهن سعادتى وأتراحى •

قالت جو :

— خشيت أن أكون قد آلمتك بحديثى •

قالت الأم :

— لا يا عزيزتى ، ولكن الحديث عن أبيك يحرك وحشتى اليه ، ويذكرنى بأفضاله الكثيرة ، ويحفزنى الى الاخلاص فى رعاية بناته ، وحفظهن سعيدات من كل سوء •

قالت جو :

— ومع ذلك ، فقد تركته يذهب الى الميدان ، ولم تذرفى دمعة فى يوم الوداع ، وبقيت الى اليوم راضية كأن شيئا لا ينقصك فى الحياة •

قالت :

ـ لقد وهبت الوطن أعز ما أمتلك ، وحبست دموعى حتى لا أحزن والدك يوم السفر ، وأقلعت عن الشكوى قانعة بارادة الله • لقد أدى كلانا واجبه ، والسعادة تنتظرنا فى النهاية • انى لا أطلب العون ، لأن الله فى عونى ، ومن كان الله له معينا ، فلا حاجة به الى انسان • ان المتاعب يا بنيتى قد بدأت فى حياتكن ، وستزداد يوما بعد يوم ، فاستعن بالله على قهرها ، يرعاكن الله ويكلأكن برحمته وعنايته • وكلما ازداد ايمانكن بالله ، ازداد الله قربا منكن ، وكفاكن شر الحاجة الى الناس • ان عطف المولى معين للسعادة لا يغيض ، وينبوع للقوة والسلام لا ينضب ، فاحفظى قولى هذا عن ظهر قلب ، وتوجهى اليه عز وجل بكل ما فيك من قوة وايمان • الجأى اليه فى آمالك وأحزانك ، واستغفريه عن نزواتك وأخطائك ، يستجب لك من علياء سمائه •

وأفحمت جو بنصيحة أمها ، فأحاطتها بذراعيها صامتة ، وتوجهت الى الله فى صلاة خاشعة ، خرجت منها نقية القلب ، طاهرة النفس • فكما تعلمت فى هذه اللحظة قسوة الندم والألم واليأس ، كذلك تذوقت حلاوة التضحية وجمال السيطرة على النفس • فقد أرشدتها الى طريق الله ، وأخذت بيدها الى رحمته التى تشمل كل حزين ضال والتى تزيد فى عظمتها وجلالها عن رحمة الآباء والأمهات •

وتململت آمى فى فراشها ثم تنهدت ، فنظرت جو اليها نظرة جديدة كلها عطف وحنان ، كأنها تتلهف الى المبادرة بالتكفير عن زلتها • وقامت الى أختها تحنو عليها ، وتربت على شعرها الذهبى الناعم ، ثم تقول لأمها :

— لقد عصيتك أمس ، فلم أصفح عنها ، وتركت شمس النهار الجديد تشرق على قلبى المفعم بالغضب ، ولولا لورى ، لكنت فقدتها الى الأبد ، وشقيت بإثمى العظيم مدى الحياة •

وكأن الصغيرة قد سمعت قول أختها ، إذ فتحت عينيها ، ومدت ذراعيها ، وافتر ثغرها عن ابتسامة نفذت الى صميم قلب جو • ولم تنبس احداهما بكلمة ، وتعانقتا فى صمت ، ثم محت القبلات آثار المحنة الماضية •

الفصل التاسع

ميج تجرب مباهج المجتمع

فى أول يوم من شهر أبريل ، وقفت ميج فى حجرتها تعد حقيبة السفر ، وأخواتها من حولها يساعدنها • قالت تتحدث عن الأطفال الذين تعمل مربية لهم :

ــ أليس من حسن الحظ أن يصاب أولئك الأولاد بمرض الحصبة فى الوقت الحاضر ؟

قالت جو ، وهى تساعد أختها فى طى ملابسها :

ــ وأليس جميلا من آنى موفات أن تتذكر وعدها لك ، فتدعوك لقضاء أسبوعين فى ضيافتها ؟

وكانت بث تقوم بنصيبها من مساعدة أختها ، فتطوى الشرائط الملونة ، وتضعها فى صندوق أعارته ميج بهذه المناسبة السعيدة ، قالت :

ــ ومن حسن المصادفات أن الجو معتدل جميل •

قالت آمى وهى تغرز الدبابيس فى وسادتها الصغيرة :

ــ من لى بدعوة أنيقة أرتدى فيها كل هذه الملابس الجميلة •

قالت ميج ، وهى تجيل بصرها فى ملابسها وأدوات زينتها :

ــ كنت أتمنى أن تذهبن معى ، ولكن آنى لم تدع سواى ، فلتطمئن نفوسكن الى أننى سوف أحتفظ بكل ذكرياتى ومخاطراتى ،

لاترويها لكن عند عودتى ، فهذا أقل ما يجب على ، بعد ما لمسته من عطفكن البالغ وتسابقكن الى اعارتى أجمل ملابسكن ومقتنياتكن •

سألتها آمى :

ــ وهل أعطتك والدتى شيئا من صندوق تحفها المعهود ؟

وكانت تشير بهذا الكلام الى صندوق كبير من خشب الصنوبر ، اعتادت مسز مارش أن تحتفظ فيه بما تركته لها أيام الرخاء من تحف غالية ومقتنيات ثمينة ، لتهبها لبناتها فى الوقت المناسب • وكانت الأم قد فتحت الصندوق لأول مرة من أجل رحلة ميج ، ولكن شاء سوء الطالع أن تكون آمى خارج البيت فى تلك اللحظة المثيرة ، فلم تر شيئا من عطايا أمها •

أجابت ميج :

ــ أعطتنى جوربا حريريا ، ومروحة منقوشة ، وحزاما أزرق اللون •

وكنت أحب أن آخذ قطعة الحرير البنفسجية ، لكنى عدت فتركتها ، إذ ليس لدى متسع من الوقت لقصها وحياكتها • وأرى أن أقنع بثوبى المقوى القديم •

وكانت جو تتمنى لو استطاعت أن تعطى أختها كل ما تملك ، ولكن سوء الاستعمال كان قد أفسد ملابسها وأدوات زينتها ، فلم تعد تصلح للأهداء • قالت :

ــ سيكون ثوبك جميلا ، عندما ترتدينه فوق قميصى الجديد ، وتزينينه بحزام أمى الأنيق ، وكان يسعدنى أن أعيرك سوارى المرجانى ، ولكنه تهشم منى مع الأسف •

قالت ميج :

— رأيت فى صندوق التحف عقدا من اللؤلؤ ، فلم تتشأ والدتى أن تعطينى إياه ، وقالت إننى ما زلت صغيرة السن ، والزهور الطبيعية أليق زينة بى ، وقد وعد لورى أن يمدنى بكل ما أحتاج إليه منها •

وعادت تتأمل ملابسها وتقول :

— هذه الريشة تحتاج الى إصلاح ، وهذا الطاقم الرمادى الجديد ينفع للسير فى الصباح ، والرداء البوبلين للحفلات الصغيرة ، وإن كنت أعتقد أن نسيجه سميك لا يناسب جو الربيع • آه لو كان الـوقت يسمح بحياكة القطعة البنفسجية !

قالت آمى ، وهى تسرح الطرف فى مجموعة الملابس الأنيقة :

— لا يهم ، فثوبك الموسلين يصلح للحفلة الكبيرة ، ولونه الأبيض يكسبك حسنا ملائكيا •

قالت ميج :

— إنه قصير ، وفتحته ضيقة ، ولكنى سأصلحه على كل حال • وثوبى الأزرق يبدو جميلا بعد أن قلب وثنى حتى أصبح كالجديد ، وحقيبتى من طراز عتيق ، وقبعتى ليست كقبعة سالى ، ولكن هذا كله لا يضايقنى بقدر ما تضايقنى مظلتى الجـديدة ، فقـد طلبت من والدتى واحـدة سوداء بمقبض أبيض ، فابتاعتها صفراء بمقبض أخضر قبيح • إنها متينة الصنع جيدة النسيج ، ولكن لونها لا يعجبنى وأشـعر بالخجل عندمـا أقارنها بمظلة آمى الحريرية المذهبة •

وتنهدت ميج ، ونظرت الى مظلتها بعين الرثاء ، فاقترحت جو أن تغيرها ، ولكن ميج أنكرت هذا الرأى وقالت :

ـ لا ، لن أغيرها حتى لا أجرح شعور والدتى ، بعد أن تكبدت عناء كبيرا فى شرائهـا ، واقتصدت فى مصروفاتها ، لتوفر ثمنهـا . انها نزوات سخيفة لا يصح الاستسلام لها ، خصـوصا اننى أجـد فى جوربى الحريرى وقفازى الجديد عـزاء كبيرا . كان جميلا منـك يا جو أن تعيرينى قفازك الجديد لآخذه مع قفازى القديم بعد تنظيفه .

وأحضرت آمى كوما من الشرائط الحريرية البيضاء ، كانت حنـا قد كوتها ، لتوها ، ثم سألت أختها ميج :

ـ ان آنى موفات تحلى قلنسوة نومها بأشرطة زرقاء وحمراء ، فهل تفعلين مثلها ؟

قالت جو بحزم :

ـ لو كنت مكانك يا ميج ، ما فعلت ذلك ، حتى لا يتجسم الفارق بين أناقة القلنسوة ، وبساطة ثوب النوم الرخيص .

فقالت ميج بضيق :

ـ متى يأتى اليوم الذى أستطيع فيه أن أزين قبعاتى بالأشرطة ، وأحلى ثيابى بالدنتلا الحقيقية ؟

قالت بث فى هدوئها المعهود :

ـ كنت تتمنين منـذ أيام أن يسـعدك الحظ بتلبية دعـوة آنى موفات فقط !

فقالت ميج :

ــ صدقت ، ولا يصح أن أخرج من أمل الى أمل ، ولكنهـا الطبيعة البشرية ، فكلما تحقق لنا رجاء تطلعنا الى غيره •

تلفتت ميج حولها ، واستطردت فى غبطة ملحوظة :

ــ أعتقد أننا انتهينا من اعـداد الحقيبة ، ولـم يبق غـير ثوب السهرة ، وأفضل أن أتركه لوالدتى تضعه فى الحقيبة بنفسها •

وكان اليوم التالى صحوا والشمس مشرقة ، فغادرت ميج دارها سعيدة الى حيث تقضى أسبوعين فى ضيافة صديقتها آنى موفات ، ولم تكن مسز مارش تميل الى الموافقة على ذهابها ، خشية أن تعود مارجريت ، بعد زيارة أولئك الأثرياء ، أكثر تذمرا بحالها من أى وقت مضى ، ولـكن ميج استعطفتها كثيرا ، وبالغت فى الالحاح والرجاء ، وضمت صديقتها سالى صوتها الى صوتها ، وتعهدت برعايتها خلال الزيارة ، فلم تجـد الأم بدا من الموافقة ، راجية أن تكون دعوة آل موفات خير ترفيه عن ابنتها بعد عملها المرهق طول السنة •

وكان آل موفات على ثراء عظيم : يعيشون فى قصر كبير ، ويرفلون فى حلل الخير والأناقة ، فانكمشت ميج فى بداية الأمر ، ثم لم تلبث أن خبرت حسن أخلاقهم ، وعظيم تواضعهم ، فزال توجسها واندمجت فيهم ، وأمكنها بعد وقت قصير أن تلمس ما وراء مظاهرهم الفاخـرة من معدن عادى لا يزيد عن معدن الآخـرين فى شىء • وكانت مترفـة المزاج بطبعها ، فأعجبتها أساليبهم فى البذخ ، وسرها أن تعيش مـع قـوم لا يعرفون من الحياة الا ركـوب العـربات الجميلة ، وارتـداء

الملابس الأنيقة ، وقضاء الليالى فى المتع والمسرات ، وكان تأثرها بعشرتهم بالغا ، فجعلت تقلدهم فى تصرفاتهم وأحاديثهم ، فتكوى جدائلها كل يوم ، وتحشو كلامها بألفاظ فرنسية ، وتحصر مناقشاتها فى شئون الأزياء وأخبار المسارح ، وكانت تبذل فى اتقان هذا التقليد جهودا عظيمة . وكلما كانت ترى مزيدا من مظاهر الثراء فى بيت موفات ، يزداد حسدها لابنتهم آنى ، ويتضاعف احساسها بفقرها وحقارة بيتها ، وتزداد ثورتها على الظروف التى تحوجها الى كسب عيشها بالعمل الشاق ، حتى انتهى بها الأمر الى الشعور بأنها فتاة فقيرة مسكينة ، ظلمتها الأقدار بغير حق ، وأحلتها مكانة ما كانت تستحقها أو ترجوها . وهانت أمام شعورها هذا فرحتها بثوبها الحريرى ، وجوربها الجديد ، وقفازها الجميل ، وأصبحت ترى فى تلك المقتنيات ، التى كانت تفخر بها قبل وقت قصير ، مظاهر فقر لا تليق بفتاة مثلها .

وكان من حسن حظ ميج أن وقتها لا يتسع لطول التأمل والتفكير ، إذ حرصت مضيفتها آنى على اعداد برنامج حافل لا يترك من اليوم ساعة بغير متعة ونشاط ، فكانت تخرج بميج وسالى الى المتاجر فى الصباح ، ثم تزور معها الجيرة والأصحاب ، وفى المساء يطوف ثلاثتهن بالمتنزهات فى عربة موفات الأنيقة ، وفى الليل يذهبن الى المسرح أو دار الأوبرا . وكان لآنى موفات أختان كبيرتان هما بل وكلارا ، وكانتا على قسط عظيم من الحسن والأناقة ، وكان ربا البيت مثلا أعلى فى الوداعة والسماحة ، وقد أعجبا بجمال ميج ، وراق لهما حسنها الطاهر الوديع ، فأقبلا عليها — كما أقبل بناتهما وضيوفهما — يدللانها ، ويؤثرانها بكثير من أوجه المجاملة والتكريم ،

فازدادت ميج بذلك غرورا على غرور ، وأحست كأنها تعيش فى عالم من الأحـــلام الحلوة .

وكان برنامج الدعوة يحوى حفلتين رئيسيتين ، احداهما صغـيرة والأخرى كبيرة ، فلما حان موعد الأولى ، أخرجت ميج ثوبهـا المقوى ، فبدا فى عينيها حقيرا تافهـا ، بالقيـاس الى ثوب سـالى القشيب . وقد أحست لذلك بحرج شـديد ، ازدادت وطأته عندما لاحظت كيف تطلع البنات الى ثوبها ، ثم تبـادلن النظرات خلسة . والتهب وجـه ميج بحمرة الخجل ، وشعر البنات بما أصابها ، فعملن على اصـلاح الخطأ بمزيد من العطف والرعاية ، فسألتها سالى أن تسمح لها بتصفيف شعرها ، وتطوعت آنى بربط حزامها ، وانبرت أختـاها الكبيرتان بـل وكلارا تطريان محـاسن ميج ، وتثنيان على جمـال ذراعيهـا وبياض لونهما . ولكن هذا العطف كله لم يأت بثمرته المرجـوة ، فظلت ميج فيما بينها وبين نفسها حزينة واجمة تلعن الفقر والحاجة ، حتى شغلتها شجونها عن المرح والمتعة ، فانزوت فى جانب من البيت صامتة واجمة ، وزميلاتها يتنقلن بين الغرف ضاحكات راضيات .

وظلت ميج فى حزنها ومرارتها ، حتى أقبلت عليها احـدى الخدم تحمل صندوقا شـفافا به باقة زهر يانعـة ، وعندئذ تصايح الفتيـات معجبات بالهدية ، وقالت آنى موفات وهى تشم عبير الزهور بلهفة :

ـ أظنها لأختى بل فقد اعتاد خطيبها جورج أن يبعث اليها بزهور ، وان كانت هذه الباقة أجمل من سابقاتها وأعظم .

قالت الخادم ، وهى تقدم الصندوق لميج :

ــ قال الرسول الذى أحضرها إنها للآنسة ميج مارش ، وأعطانى هذه الرسالة أرفقها بها •

وكان الخبر مفاجأة ازداد لها البنات سرورا وحماسة فسألنها فى نفس واحد :

ــ أخبرينا ممن جاءتك الباقة والرسالة ، فلم نكن نعرف أن لك صديقا حميما ، له فى اختيار الزهور ذوق سليم •

فقالت ميج فى بساطة :

ــ الخطاب من والدتى والورود من لورى •

وألقت عليها آنى نظرة عجيبة ، تلقتها ميج راضية ، وهى تدس رسالة أمها فى جيبها ، كأنها طلسم يقيها شر الغرور والحسد والكبرياء الفارغة ، فقد كانت تجد فى كلمات أمها معينا من الخير والسعادة لا ينضب •

قالت آنى وهى لا تزال تنظر تلك النظرة العجيبة :

ــ آه •• حقا ؟ !

وشعرت ميج أنها قد أصبحت محط اعجاب البنات وتقديرهن ، فاستعادت مرحها وحبورها ، واحتفظت لنفسها بجانب من الزهور ، ووزعت الباقى على صديقاتها • وكانت فى تقديم هديتها مهذبة كريمة ، فاغتبط البنات لذلك ، وامتدحن ظرفها وحسن معاملتها ، وكان من أثر ما حدث أن تشجعت ميج ، فزال عنها خوفها وحياؤها ، وازدادت ثقتها بنفسها ، فلما جاءت مسز موفات تطمئن على البنات قبل بداية الحفلة ،

طالعها وجه ميج جميلا مشرقا سعيدا ، ورأتها مخلوقة تستوقف النظر بالرغم من ثوبها القديم البالى •

وكانت متعتها كاملة فى ذلك المساء ، فقد رقصت ما شاء لها شبابها أن ترقص ، وغنت ثلاث مرات اجابة لطلب الحاضرين ، وكان كل من بالحفل يعطف عليها ، ويعجب بها : فقد سأل الميجور لنكولن عن « هذه الفتاة النضرة ذات العيون الجميلة » ، وأصر مستر موفات على الرقص معها ، لأنها كما اعترف بصراحة « تتحرك فى منتهى المرونة والرشاقة » ، كما قال أحدهم : « ان لها صوتا ممتازا فى جماله ونعومته » • وهكذا أمضت ميج وقتا سعيدا ، إلا أن شيئا حدث بعد ذلك عكر عليها صفاء سعادتها ، فقد خرجت الى الحديقة تنتظر صديقا وعدها باحضار بعض المثلجات ، فسمعت حديثا من الجانب الآخر من السياج المغطى بالزهور • قالت المتحدثة الأولى :

ــ كم عمرها فى رأيك ؟

قال صوت ثان ، عرفت فيه صوت مسز موفات :

ــ ستة عشر عاما أو سبعة عشر على أكثر تقدير •

قال الصوت الأول :

ــ ستكون فرصة عظيمة اذا نجحت فى اقتناصه ، فقد أخبرتنى سالى أنهم أصدقاء حميمون ، وأن الرجل العجوز شديد الاعجاب بالبنات •

قالت مسز موفات :

ــ أعتقد أن مسز مارش عرفت كيف تحبك خططها ، ولن تلبث

أن تنجح فى أداء دورها ، بالرغم من صغر سن الفتاة ، وجهلها بما يعد لها • قال صوت ثالث :

— لا أشك فى أن الخطاب جاءها منه ، ولكنها كذبت علينا ، فنسبته الى أمها ، ولكن احمرار وجهها فضحها • انها فتاة جميلة ، ولولا ملابسها العتيقة ، لازدادت جمالا على جمال • ما رأيك فى أن نعيرها ثوبا من أثوابنا ترتديه فى حفلة الثلاثاء القادم ؟ أتظنينها تقبل ذلك ؟

قال الصوت الثانى :

— لا أظنها ترفض رغم كبريائها ، فليس عندها سوى ذلك الثوب القديم الذى ترتديه ، فاذا تمزق الليلة ، واتتنا الفرصة لنعيرها ثوبا لائقا محترما •

قالت مسز موفات :

— وأرى أن أدعو لورنس الى الحفلة اكراما لها ، واتركن الباقى لحينه •

وفى تلك اللحظة أقبل على ميج الصديق الذى كان قد وعدها باحضار بعض المثلجات ، فوجدها محتقنة الوجه ثائرة النفس : إذ كانت الفتاة ، على سذاجتها وبراءتها ، ذات كبرياء وأنفة ، فعز عليها أن تسمع الحديث الجارح ، ولم يخف عليها معنى من أدق معانيه • وظلت تفكر وتفكر فيما قيل عن خطط أمها وقبح ثوبها وكذبها فيما يختص بالرسالة التى جاءتها ، فزادها التفكير حزنا على حزن ، حتى أحست برغبة ملحة فى البكاء ؛ ولكنها عرفت كيف تكبت هذه الرغبة وراء ستار من

المرح الزائف الذى انخـدع به الحاضرون ، فلم يكشفوا شيئا مما كان يعتمل فى نفسها •

وعندما انتهت الحفلة ، أسرعت ميج الى غرفة النوم تعالج فيهـا همومها وحيدة ، وأوت الى فراشها تبكى وتذرف دمعا سخينا ، فقد فتح الكـلام المرير أمامها أبوابا جـديدة تقـودها الى عـالم كله حـيرة وشقاء وقلق • وشـعرت أن التلميحات أفسـدت صـداقتها البريئـة للورى ، وأكسبت الأخـوة بينهما لونا مبتذلا رخيصـا ! واهتز ايمانها بعض الاهتزاز بأمهـا ، التى قيل إنهـا تحبـك الخطط لتقتنص لهـا الصبى الثرى ، فضاعف هذا كله نقمتها على الفقر ، وبدأت تعتقـد أنه أعظم مصيبة تنزل بالانسـان تحت الشمس •

وقضت ميج ليلة عصيبة ، واستيقظت فى الصباح التالى ضيقـة الصـدر مثقلة الجفنين ، وزادها مضى الوقت حنقا وغيظا ، فقد كانت تعرف أنهـا — لا تستطيع الكلام بصراحة مع صديقاتها ، ولا يمكنها بحكم الضيافة أن تعيد الأمور الى نصابها •

وكان الكسـل جاثما على من فى البيت جميعهم ، بعد سهرة الليلة السابقة ، ولذلك لم ينشط الفتيـات الا ظهرا ، عندما جلسن معا يقتـلن الوقت بالتطريز • ولاحظت ميج من صديقاتها عطفا مضـاعفا ، ورأتهن ينظرن اليها بفضـول واهتمام ، وكان بودها أن تعـلم السبب ، ولكنها آثرت السكوت حتى يأتيها الخبر من تلقاء ذاته • ولم يطل بها الانتظار ، فقد رفعـت الآنسـة بل — كبرى بنـات آل موفات — رأسـها عن تطريزها ، وقالت لها :

— لقد أرسلنا يا عزيزتى ندعو مستر لورنس ، ورجاؤنا أن يقبـل الدعوة ، فكلنا رغبة فى معرفته •

فاحمر وجه ميج ، ولكن رغبة ماكرة أغرتها بالامعان فى غيظ البنات ، فقالت :

ــ جميل أن تفعلن ذلك ، وان كنت لا أتوقع مجيئه .

سألتها الآنسة بل :

ــ ولم لا يحضر يا عزيزتى ؟

قالت :

ــ لأن كبر سنه يمنعه من الحضور .

فصاحت كلارا تقول لها :

ــ ماذا تقصدين بذلك يا صغيرتى ؟ وكم يبلغ من العمر يا ترى ؟

قالت ميج وهى تنظر الى تطريزها لتخفى سرورها البالغ :

ــ ليس أقل من السبعين على ما أعتقد !

فضحكت الآنسة بل ، وقالت :

ــ يا لك من فتاة ماكرة ، لقد أرسلنا ندعو لورنس الشاب ، لا لورنس العجوز .

قالت ميج :

ــ ولكنه ليس شابا ، انما هو صبى صغير .

وضحكت فى نفسها من النظرات التى تبادلها الشقيقات الثلاث ، للوصف الذى أسبغته على لورى .

قالت احداهن :

ــ أهو فى سنك ؟

أجابت ميج :

ــ بل هو فى سن جو تقريبا ، لأننى أبلغ السابعة عشرة من عمرى •

قالت آنى ، وكأنها لا تصدق :

ــ ألم يكن جميلا منه أن يبعث اليك بالورود ؟

قالت ميج ، وهى تتمنى أن ينتهى الحديث عند هذا الحد :

ــ لقد تعود أن يهدينا زهورا من حديقته الكبيرة ، ومستر لورنس العجوز صديق حميم لأمى فطبيعى أن نكون نحن الصغار أصدقاء بالمثل فنلعب معا بغير حرج •

فأومأت كلارا برأسها ، وقالت بصوت خافت :

ــ من الواضح أنها مازالت طفلة غريرة •

وهزت بل كتفيها وقالت :

ــ وساذجة أيضا الى أبعد حد •

ودخلت مسز موفات تدب كالفيل فى ثوبها الحريرى ، وقالت :

ــ انى ذاهبة الى السوق لشراء بعض الأشياء ، فهل من خدمة أؤديها لكن يا بنات ؟

أجابت سالى :

ــ شكرا ، ولست أريد شيئا فعندى الحرير الوردى ليوم الثلاثاء •

وبدأت ميج تقول :

ــ ولا أنا •••

ولكنها توقفت عن الكلام ، إذ تذكرت أنها تحتاج فى الحقيقة الى أشياء كثيرة ، ولكنها لا تستطيع أن تشتريها لفقرها •

سألتها سالى :

ــ ماذا ترتدين فى حفلة الثلاثاء القادم ؟

قالت ، وهى تتظاهر بالهدوء :

ــ فى نيتى أن أرتدى ثوبى الأبيض القديم ، اذا أمكنى أن أصلح عيوبه بحيث يصبح قابلا للبس •

قالت سالى ، ولم تكن فتاة حصيفة :

ــ ولم لا تطلبين ثوبا آخر من البيت ؟

وبذلت ميج جهدا كبيرا حتى أمكنها أن تقول :

ــ لأنى لا أملك ثوبا آخر •

ولم تلحظ سالى ما أصاب ميج من خجل واضطراب ، فقالت :

ــ ألا تملكين سوى هذا الثوب فقط ؟ إنى لا أصدق •

وتوقفت عن الكلام ، إذ وقع بصرها على صديقتها بل تشير اليها محذرة ، فقالت تصلح الخطأ :

ــ وما فائدة الأثواب الكثيرة اذا كنا لا نخرج إلا نادرا ؟ لا تطلبى شيئا من البيت ، فلدى ثوب حريرى أزرق ، ولست فى حاجة اليه ، فهل ترتدينه يوم الثلاثاء اكراما لى ؟

قالت ميج :

ــ أشكرك كل الشكر ، ولكنى أفضل أن أرتدى ثوبى ، اذا لم يكن فى ذلك احراج لكن فهو مناسب جدا لفتاة فى مثل سنى •

قالت بل تقنعهـا :

ـ بـل دعينى أمتع نفسى برؤيتك فى خـير الثياب وأجملهـا ، وستكونين رائعة الحسن بلا شك ، ولن أسمح لأحـد أن يراك قبـل أن أنتهى من تريينك كما أشتهى ، وعندئذ أدخل بك على الناس ، كما دخلت سندرلا المرقص مع أمهـا الطيبة •

وكان الرجاء مهذبا لطيفا ، فلم تقو ميج على الرفض ، وتحـرك غرورها ، فتملكتها رغبة فى أن تكون رائعة الحسن أنيقة ، وأنستها رغبتها هذه ما كانت تشعر به من مرارة نحو آل موفات •

وفى مساء الثلاثاء المعهود عكفت بل بمساعدة خادمتها الفرنسية ، على تحويل ميج الى سيدة جميلة ، فتعاونتا معا على تصفيف شعرها ، وتعطير وجهها وذراعيها ، ودهن شفتيها ووجنتيها بحمرة خفيفة ، ثم ألبستاها بعد ذلك الثوب الأزرق ، وكان ضيقا عند الخصر ، واسعا عند الصدر ، حتى استبد الخجل بالفتاة ، وهى تتطلع الى صورتها المنعكسة أمامها على المرآة • ولم تنس بل أن تحلى معصم صديقتها بالأسـاور ، وعنقها بالعقود ، وأذنيها بقرط فريد فى نوعه ، وثبتت الخادم باقـة من الورود الحمراء فى صدر ميج ، وألبستها حذاء ذا كعب عـال من النوع الذى كانت تشتهيه نفسـها ، وأكملت الزينـة بمنديل مزركش ، ومروحة لها مقبض فضى • قالت بل وهى تتأمل ميج راضية :

ـ أنت دمية رائعة الحسن •

وصاحت الخادم الفرنسية تقول معجبة :

ـ أليست الآنسة غاية فى الفتنة ؟

قالت بل ، وهى تقود ميج الى حيث اجتمع البنات فى انتظارها :

ـ تعالى وابهريهن بجمالك •

وسارت ميج تحف بها أذيال ثوبها ، والقرط يلمع فى أذنيها ، وكان قلبها يدق سريعا لفرط طربها ، بعد أن حدثتها المرآة بجمالها الباهر • وطرب البنات لمرآها ، وأقبل الأصدقاء يطرون محاسنها ، فسر بل أن تنجح فى مهمتها ، فقالت لأختها :

ـ علميها يا آنى كيف تحمى أذيال ثوبها من حذائها ، والا تعثرت فى سيرها • وأنت يا كلارا ضعى فراشتك الفضية فى وسط شعرها ، واشبكى الخصلة المتدلية منه ، واحذرن جميعا أن تفسدن السحر الذى صنعته بيدى •

ودق الجرس ، فأرسلت مسز موفات تستدعى البنات الى بهو الحفلة ، فقالت ميج لصديقتها سالى :

ـ أخاف أن أدخل الحفلة ، وأنا نصف عارية بهذا الشكل •

قالت سالى ، وهى تحاول أن تخفى غيرتها :

ـ قد تغير شكلك تماما ، وأصبحت جميلة بمعنى الكلمة ، ولن أكون شيئا مذكورا بجانبك ، فان بل ذات ذوق ممتاز ، وأنت فرنسية الطابع • دعى زهورك تتهدل ، ولا تكثرى من الالتفات اليها وحاذرى أن تتعثرى فى أذيالك •

وعملت ميج بالنصائح فى حذر ، فهبطت السلم فى أمان ، ثم سارت الى حجرة الجلوس حيث اجتمع آل موفات مع من بكر من

الضيوف بالحضور • وكشفت لأول وهلة كم للثياب الأنيقة من سحر فى نفوس بعض الناس ، إذ أقبل عليها المدعوات معجبات ، وأحطنها بالعطف بعد أن تجاهلن وجودها منذ أيام ، واجتمع الشبان حولها وتسابقوا الى خطب ودها ، ولم يبخلوا بالثناء عليها فى عبارات أعجبتها رغم سخافتها • وحتى العجائز اللواتى دأبن على النقد ولم تنج واحدة من ألسنتهن ، سألن عن اسمها باهتمام ، وسمعت ميج مسز موفات تقول لاحداهن :

ــ انها مارجريت مارش ابنة ضابط كبير فى الجيش ، ومن أحسن العائلات وأعرقها ، ولكن المال ينقصها ، وهى صديقة حميمة لآل لورنس ، وقد تدله فى حبها ابنى ند •

وتمتمت العجوز متعجبة ، وعادت تنظر الى ميج من خلال عويناتها ، تستكمل فحصها الدقيق ، فتذرعت الفتاة بالثبات ، وتظاهرت بأنها لم تسمع شيئا من حديث مسز موفات العامر بالادعاءات والأكاذيب •

وسارت الأمور على ما ينبغى ، وخيل الى ميج أنها تتقن أداء دور الفتاة الحسناء ، وقد أتقنته بالفعل رغم أن خصر الثوب كان يحز فى وسطها لشدة ضيقه ، وكعب حذائها يشتبك بذيولها أحيانا ،وخوفها الدائم من أن يسقط القرط من أذنيها ، فتطأه الأقدام وتهشمه •

ووقفت ميج تداعب مروحتها ، وهى تصغى ضاحكة الى ملح سخيفة يرويها على مسامعها صديق متظرف ، ثم سكتت عن الضحك بغتة ، وغشاها قلق واضطراب ، فقد رأت لورى يقف قبالتها ، وفى نظراته أبلغ معانى الدهشة والاستنكار ، ورغم أنه انحنى باسما

يحبيها ، غير أن لمحة فى عينيه الصريحتين ، بعثت حمرة الخجل فى وجنتيها ، وجعلتها تتمنى أن لو كانت ترتدى ثوبها القديم ، وقد ازداد حرجها لما رأت آنى وبل تتغامزان ، وتشيران اليها وصديقها لورى الذى بدا فى بزة السهرة أصغر سنا من حقيقته .

وسارت تعبر الحجرة اليه ، وهى تقول فى نفسها :

— لن أدع أولئك السخيفات يفسدن صداقتى بلورى ، أو يغيرن بشكوكهن البلهاء شعور الأخوة بيننا .

ثم قالت للورى وهى تصطنع لهجة الفتاة الكبيرة الناضجة :

— انى سعيدة بحضورك ، وكنت أخشى أن تعتذر .

وابتسم لورى فى عطف وأجاب دون أن ينظر اليها :

— جئت ارضاء لجو ، فقد أرادت أن ألبى الدعوة ، حتى أراك وأحدثها عنك .

واستبد بها الفضول ، وأرادت أن تعرف رأيه فيها ، فقالت والقلق ما زال يساورها :

— ماذا تنوى أن تقول لها يا ترى ؟

أجاب وهو يعبث بقفازه :

— سأقول لها اننى لم أعرفك لأول وهلة ، فأنت تبدين أكبر سنا ، ولست تشبهين ميج التى أعرفها ، وأشعر بخوف شديد منك .

واستبدت بها رغبة شديدة فى أن تنتزع كلمات الإعجاب صريحة من فمه ، فقالت :

— ألبسنى البنات هذه الملابس الجميلة ، ألا تعتقد أن جو ، اذا رأتنى بها ، تقف دهشة مأخوذة ؟

قال :

— لست أشك فى ذلك •

فســألته :

— ألا يعجبك شكلى ؟

قال بصراحة خشنة :

— لا •• لا يعجبنى •

قالت بلهفة :

— ولم لا ؟

فنظر الى شعرها المجعــد ، وكتفيهــا العاريتين ، وثوبها الخليع المزركش ، نظرة أخجلتها ، وقال فى نبرات خلت من لباقته المعهوده :

— انى لا أحب الغرور والخيلاء •

وكان رده أكثر مما تحتمله من صبى فى سنه ، فقالت وهى تنصرف عنه غاضبة :

— أنت أوقح صبى عرفته فى حياتى •

وابتعدت عنه فى انفعال شديد ، واختارت من القاعة جانبا هادئا تعالج فيه غضبها وحيدة ، واتخذت موقفا بجوار احدى النوافذ حتى يخفف هواء الليــل البــارد احتقــان خــديها ، فاذا بالكولونيل لنكولن يمر بها فى صحبة والدته ، وسمعته يقول :

— كنت أود أن أريها لك ، ولكن البنات أفسدن شكلها تماما ، وجعلن منها أضحوكة لا تستحق النظر •

وتنهدت ميج ، وقالت فى نفسها :

— ليتنى رضيت بملابسى القديمة ، فلو أننى ارتديتها ، ما نفر الناس منى ، وما خجلت من نفسى كل هذاالخجل •

وأسندت جبينها الى زجاج النافذة البارد ، وأخفف جسدها وراء الستائر ، غير عابئة برقصة الفالس التى تحبها ، وظلت فى مكانها ساهمة واجمة ، حتى أحست بيد تلمسها • والتفتت ميج خلفها فرأت لورى ينظر اليها وعلى وجهه أبلغ أمارات الندم ، قال فى انحناءة رشيقة :

— اغفرى لى وقاحتى ، وهيا بنا نرقص الفالس •

وأرادت أن تتظاهر بالغضب ، ولكنها لم تفلح ، فقالت فى ذلة :

— أخشى أن تضايقك رفقتى •

قال :

— أبدا فإنى أتوق الى الرقص ، وأحب أن تكونى غفورة متسامحة • لست أنكر أن ثوبك لا يعجبنى ، ولكنك جميلة رائعة •

ولوح بيده كأن الكلمات لا تسعفه •

فابتسمت ميج فى استسلام ، وسارت معه الى الرقص تقول :

— احذر أن تدوس ذيل الثوب ، فقد جشمنى متاعب كثيرة ، وكانت حماقة أن أرتديه •

قال وهو ينظر الى حذائها ولا يخفى اعجابه به :

— ارفعى الذيول الى أعلى ـ تلافيا للخطر •

ودخلا الحلبة يرقصـان سويا فى رشاقة وانسجام ، وكانا متكافئين طولا وسنا فتبعتهما العيـون معجبة ، وهما لاهيـان عنهـا بحبورهما وسعادتهما ، فقد شعرا أن المعركة الصغيرة التى نشبت بينهما دعمـت صداقتهما أكثر من ذى قبـل •

قالت ميج عندما انتهى الرقص ، ووقفت تروح عن نفسها ، وتلتقط أنفاسها اللاهثة :

— أريد مكرمة منك يا لورى •

قال :

— اطلبى ما تشـائين •

قالت :

— لا تحدثهن فى البيت عن هذا الثوب ، فأخشى أن لا يفهمن الأمر على حقيقته ، وربما أغضب أمى ما فعلت •

قال فى تساؤل واضح :

— اذا لماذا ارتديته ؟

قالت :

— أفضـل أن أخبرهن بنفسى ، ولن أتردد فى الاعتراف لوالدتى بغباوتى وحماقتى ، فمن الخير أن تترك الأمر لى •

قال :

— أعدك بذلك ، ولكن خبرينى ماذا أقول اذا سئلت •

أجابت :

ـ قل فقط اننى كنت جميلة سعيدة •

قال :

ـ سأكتفى بالشطر الأول من الخبر ، أما عن السعادة فلست أرى علائمها عليك •

وكان فى نظرته ما جعلها تقول بصوت خفيض :

ـ لم أكن سعيدة فى بداية الأمر ، ولكن السعادة لا تنقصنى الآن ، وأرجو أن لا تسىء الظن بى ، فما ارتديت الثوب إلا سعيا وراء متعة بريئة ، وقد نلت نصيبى منها واكتفيت •

قال لورى ، وقد انعقد حاجباه الأسودان :

ـ أرى ند موفلت يقبل علينا ، فماذا يريد يا ترى ؟

وكان واضحا أنه لا يرحب بقدوم مضيفة الصغير ، ولا يسر بحضوره فى تلك اللحظة • قالت ميج فى تراخ أدهش لورى :

ـ كنت قد وعدته بثلاث رقصات ، وأظنه جاء يذكرنى بها ، ولكن حماستى فترت ولا أشعر برغبة شديدة فى الرقص •

وسارت الحفلة فى مجراها ، ولورى لا يتحدث الى ميج ، حتى حان موعد العشاء ، فرآها تشرب الشمبانيا مع ند ، وقد ضايقه منها أن تفعل ذلك ، إذ كان يشعر أنه بمثابة الأخ لبنات مارش ، ومن أوجب واجباته أن يحميهن من كل سوء يعترضن له • ولم يكن يليق بفتاة فى سن ميج أن تشرب الشمبانيا ، فانتهز أول فرصة وهمس فى أذنها يقول :

— لا تكثرى من الشمبانيا ، وإلا أصابك صداع شديد فى الصباح ، وتذكرى أن والدتك لا توافق على مثل هذه التصرفات •

قالت تفتعل ضحكة :

— لست فى هذه الليلة ميج التى تعرفها ، وما أنا إلا دمية تقوم بأعمال طائشة ، وغدا أخلع ثوب خيلائى وغرورى ، وأستعيد سابق طيبتى وصلاحى •

قال :

— ليتك تبدئين من الآن •

ثم سارت مبتعدا عنها ، وقد ساءه ما حاق بها •

واقتفت ميج خطوات الفتيات الأخريات ، فرقصت وثرثرت وضحكت ، ولما انتهى العشاء عادت الى حلبة الرقص تطوف بها مع زميلها مسرعة ، فتكاد تسقطه على الأرض لكثرة ما تعثر فى ذيل ثوبها • وكانت تتمايل فى شكل استقبحه لورى ، فأعد لها تأنيبا قاسيا ، ولكن الفرصة لم تواته ، فقد تحاشته الفتاة طوال السهرة ، حتى حان موعد الانصراف ، وأقبل عليها مودعا ، فقالت وهى تصطنع ابتسامة رغم ما تعانيه من صداع شديد :

— تذكر ما اتفقنا عليه •

قال بلهجة تمثيلية :

— السكوت حتى الموت !!

ثم انصرف عنها مسرعا •

وأثار حديثها مع لــورى غضــول آنى موفات ، فسعت الى معرفة ما دار بينهما ، ولكن ميج رغبت عن الحديث لفرط تعبها ، فذهبت الى فراشها وهى تشعر كأنها كانت فى حلم لم تستمتع به بقــدر ما كانت تحب أن تســتمتع •

ومضى اليوم التالى وما زالت تعبة مرهقة ، وفى يوم الســبت عادت الى بيتها ، بعد أن قضت أسبوعين فى ضيافة آل موفات ، وشعرت أنها نالت كفايتها من حياة الدعة والترف •

وفى مساء ذلك اليوم ، جلست ميج الى أمها وأختها جــو ، تقول راضــية :

ــ جميل أن يعود الانسان الى هدوء بيته المتواضع ، بعد طــول الرياء والتصنع •

وكانت أمها قد لاحظت ما اعترى ابنتها من تغير ، فنظرت اليهــا بقلق وقالت :

ــ يسعدنى أن أسمع ذلك ، فقد كنت أخشى أن تعودى الى بيتك ، أكثر تذمرا بالفقر من ذى قبــل •

وروت ميج لأخواتها أخبار مخاطراتها ومسراتها ، وأكدت لهن مرة بعــد مرة مبلغ سعادتها وهنائها ، ولكن همًّا دفينا كان يثقل نفســها ، فلما ذهبت أختاها الصغيرتان الى النوم ، جلست ميج تتأمل نيران الموقد شــاردة الذهن مهمومة ، حتى دقت الساعة تسعا ، واقترحت جــو أن تأوى الى غرفتها ، إذ ذاك نهضت ميج عن مقعدها فجــأة ، وقبعت على كرسى بث الصغير بجوار قدمى أمها ، وقالت بشجاعة :

— أريد أن أعترف بذنوبى يا أماه •

قالت مسز مارش :

— هذا ما كنت أنتظره يا بنيتى •

قالت جو بصوت خافت :

— أتفضلين أن أترككما وحدكما ؟

قالت ميج :

— لا ، ولا يسيئنى أن أتحدث فى حضرتك ، فقد تعودت أن أصارحك بكل شىء ، وما سكت عن الكلام الى الآن الا خجلا من أن أعترف بمباذلى على مسمع من أختى الصغيرتين •

ورغم قلق مسز مارش الواضح ، قالت باسمة :

— كلى آذان صــاغية •

قالت :

— ذكرت أنهن أعرننى ثوبا من ثيابهن ، ولكنى لم أقل انهــن طلين وجهى بالمساحيق ، وشددن خصرى وجعدن شعرى ، حتى صرت كاحدى عارضات الأزياء • ولا أشك فى أن لورى تألم كثيرا لمـــا فعلت ، واعتبره خروجا على دواعى الاحتشام المستحب • وكانت حماقة بالغة ، ولكنى أردت أن أثير الاعجاب ، فجعلت من نفسى أضحوكة الناس •

ونكست ميج رأسها بذلة . وبدت عليها مظاهر الندم الشـــديد ، فلم يطاوع مسز مارش قلبها على تأنيبها ، وقالت :

— أهذا كل ما فعلت ؟

قالت فى ندم بالغ :

ــ بل ذهبت الى أبعد من ذلك : شربت الشمبانيا ، وتمايلت فى الرقص ، وكنت فى تصرفاتى مثلا للرعونة والطيش •

فربتت مسز مارش على الخد المتقد بنيران الخجل وقالت :

ــ ليس هذا كل شىء على ما أعتقد •

قالت ميج :

ــ هناك أمر آخر سخيف ، ولكنى أفضل أن أحدثك به ، فليس أبغض الى نفسى من أن يتقول الناس عن صداقتنا بلورى •

ثم روت لأمها ما قالته آل موفات فى الحديقة ، ولاحظت جو كيف زمت مسز مارش لهذا الحديث شفتيها ، كأنها تستكثر أن تدخل مثل هذه الأفكار رأس ميج الساذجة • فصاحت جو تقول فى ترفع :

ــ هذا أسخف ما سمعت فى حياتى ، وكان واجبك أن تظهرى نفسك لهن ، وتضعى الأمور فى نصابها •

قالت :

ــ لم أجرؤ على ذلك ، فقد غلبنى الارتباك فى بداية الأمر ، ثم ألجمنى الغضب عن الحركة والكلام ، فلم أفكر حتى فى مغادرة مكانى •

قالت جو :

ــ ويل لآنى موفات حين أراها وأسوى معها هذه المهزلة • أيظن هؤلاء الأغبياء أننا ننصب الشباك حول الصبى الغنى ، ونسعى الى اقتناصه زوجا فى الوقت المناسب ؟ آه لو سمع لورى بهذه السخافات !!

وضحكت جو عندما تصورت كم يغضب صديقها اذا حدثته بالقصة •

قالت ميج تحذرها :

ــ لن أصفح عنك اذا حدثته بذلك ، أيصح أن تقول له مثل هذا الكلام يا أماه ؟

قالت مسز مارش بجد :

ــ اياك أن تعيدى القصة على مسامعه ، وانسيها بأسرع ما يمكن • وكان خطأ منى أن سمحت لك يا ميج بزيارة قوم لا أعرفهم الا قليلا ، وأعتقد أننى ألحقت بك ضررا بليغا ، فما كان يجوز أن أبعث بك الى أناس ماديين ، تملأ رءوسهم أفكار نابية ، لست أشك فى طيبة قلبهم ، ولكن نصيبهم من حسن التربية قليل •

قالت ميج فى حرج مما اعترفت به :

ــ اطمئنى يا أماه • ان ضررا لن يصيبنى ، وثقى بأننى لن أذكر إلا الخير مما رأيت ، وانى لأشكرك شكرا جزيلا أن سمحت لى بالذهاب ، فقد تمتعت كثيرا ، وتعلمت أيضا أن القناعة كنز لا يفنى • لقد خرجت على تعاليمك ، ولكنى تبينت الحقيقة الآن ولن أتخلى عن مشورتك ، حتى أصبح قادرة على رعاية نفسى بنفسى • وكنت أسعى الى الاطراء والمديح ، فحدث ما حدث •

قالت :

ــ كلنا يحب الاطراء يا بنيتى ، ولكن لا يصح أن نذهب فى السعى اليه الى حد المبالغة ، فنأتى أفعالا لا تليق بنا • تعلمى أن تطلبى من المديح ما تستحقينه فقط ، واعملى على أن تثيرى اعجاب الناس بفضلك وحسن أخلاقك •

وجلست مارجريت تفكر ساهمة ، فوقفت جو تتأملها فى دهشة وحيرة ، إذ كانت هذه أول مرة ترى فيها وجه أختها الكبرى يحمر بالخجل ، ولم يسبق لها أن سمعتها تتحدث عن الاعجاب والاطراء والشبان بمثل هذه اللهجة • وأحست جو أن أختها قد كبرت خلال الأسبوعين الماضيين بدرجة ملحوظة ، وأنها بدأت تنزلق بعيدا عنها الى دنيا جديدة ليس فى استطاعتها أن تتبعها اليها •

قالت ميج تسأل أمها بحياء :

ـ أحقا ما تقوله مسز موفات من أنك تضعين بشأننا خططا ؟

قالت :

ـ نعم •• انى أضع لكن خططا كثيرة ، شأنى فى ذلك شأن الأمهات جميعهن ، ولكن خططى تختلف قليلا عما تظنه مسز موفات ، ولست أرى بأسا فى مصارحتك بها الآن ، فقد كبرت يا ميج وحان الوقت لأن أرشدك الى ما فيه خيرك حتى لا يقودك رأسك العاطفى الصغير الى غير الطريق الذى أبتغيه لك ، ولن تجدى أصدق من الأم ناصحا ومرشدا •

أما أنت يا جو ، فلم يحن دورك بعد ، ولكنى أحب أن تصغى الى خططى وتعاونينى على تنفيذها اذا اقتنعت بفائدتها •

وجلست جو على ذراع مقعد أمها ، وقد بدا عليها الاهتمام الشديد ، وأمسكت مسز مارش بيدى ابنتيها وجعلت تنظر بجد فى الوجهين الصغيرين قالت :

ـ أريد أن يكون بناتى جميلات متعلمات طيبات ، وأحب أن ينلن عطف الناس وحبهم واحترامهم ، وأن يتزوجن خير الزيجات وأكثرها

توفيقا ، وأن يعشن حياة نافعة سعيدة ليس فيها من أسباب الخوف إلا قليل • لست أنكر أن أجمل ما فى حياة المرأة أن يسعدها الله بزوج طيب ، ولنى لأرجو أن ينال بناتى هذه النعمة الجزيلة • ولست أرى حرجا يا ميج فى أن نفكر فى الزواج ، ونعد له أنفسنا خير اعداد ، حتى اذا حان الوقت المناسب ، كنا جديرات بحقوقه وواجباته • ولكنى لا أذهب فى طموحى الى حد الرغبة فى أن تتزوجن أغنياء من أجل مالهم فحسب فالذهب لا يصنع السعادة ، انما يصنعها الحب والاخلاص ، وانى أفضل أن أراكما سعيدتين مع زوجين فقيرين عن أن تسكنا قصورا خلت من سعادة الحب • لست أشك فى أن المال أداة نافعة فى الحياة ، ولكنه ليس هدفا نسعى اليه بل وسيلة نحقق بها الخير الذى نبتغيه •

فتنهدت ميج وقالت :

— ولكن «بل» تعتقد أن الفقيرة لا حظ لها من الزواج ، ما لم تشق اليه طريقها بنفسها •

قالت جو فى كبرياء :

— أفضل أن أقضى الحياة عانسا على أن أمتهن نفسى بالسعى اليه •

قالت مسز مارش :

— صدقت يا جو ، فأكرم لك أن تكونى عانسا سعيدة ، من أن تكونى فتاة مبتذلة تجرى وراء الرجال •

والتفتت الى ميج تقول :

— لا تقنطى يا بنيتى ، فالفقر لا يقف دون الحب الحقيقى ، وكم

من نساء فقيرات سعدن بالزواج وعشن فى سعادة وهناء • دعى هــذه الأمور للزمن ، وابحثى عن السعادة فى هذا البيت ، واقنعى بما فيه من هناء ، حتى يمن الله عليك ببيت آخر تجعلنه بالحب جنة وارفة الظل • ونصيحتى لكما أن تضعا ثقتكما فى أمكما وأبيكما ، فنحن أخلص الأصدقاء لكما ، وكل أملنا أن يظــل بناتنا فخــرا لنا ، ســواء تزوجن أم عشن وحيدات •

صاحت الفتاتان تقولان باخلاص :

ــ سنذكر هذه النصيحة دائما •• يا أماه •

وقامت مسز مارش تقبلها وتحييهما تحية المساء •

الفصل العاشر

نـــدوة الأدبـــاء

عندما حل الربيع واتسعت ساعات النهار لمزيد من اللهو واللعب ، وجد بنات مارش أن حديقة بيتهن تتطلب اعدادا وتنظيمـــا ، فاختصت كل فتاة منهن بربع منها ، تنسقه وتزرع فيه ما تشـــاء ، وكانت حنــا ، التى درست أخـــلاق البنات دراسة وافية لطول عهدها بالأسرة ، تقول :

ــ يمكننى أن أعرف صاحبة كل ربع مما تزرعه •

ولم تكن تجانب الحق فى ذلك ، فقد كانت ميـــول البنـــات تختلف بعضها عن بعض كل الاختلاف : فميج تهـــوى الورود ولا ترضى عنهـــا بديلا ، وجو لا تستقر على لون من ألوان النبات ، فتغير فى كل فصـــل وتجدد ، وانصب اهتمامها فى هذه الســـنة على زراعة عباد الشمس كى تطعم ببـــذوره دجاجتهـــا وكتاكيتهـــا • وكانت بث تفضـــل الزهـــور العبقة ، فتجد فى حلقها الصغير البازلا والربيان والعليق والبنفسج ، والى جانب ذلك خضروات تطعم بها عصفورها ، أما آمى فكانت تميـــل الى حشـــد حديقتها بمختلف أنواع الزهور الكبيرة الملفتة للنظر ، ولا تراعى فى زرعها نظاما أو تنســـيقا ، فترى حديقتها مزدحمة بالزنابق وزهـــور الصباح المتدلية والأبصال المتباينة فى ألوانها وأشكالها •

وفى أيام الصحو ، كان البنات يقضين أوقات فراغهن فى الحديقـــة أو فى التجذيف أو فى جمع الزهـــور البرية من الحقول ، فاذا سقطت الأمطار ، اقتصر نشاطهن على أوجـــه التسلية المنزلية القـــديم منهـــا والجديد • وكانت الجمعيات السرية طابع العهـــد الذى يعشن فيـــه ،

فاقتبس البنات فكرتها فى ألعابهن وألفن جمعية سرية أطلقن عليها « ندوة الأدباء » ، وقد ظل نشاط هذه الجمعية مجهولا لبقية أفراد الأسرة عاما كاملا ، فكن يجتمعن فى غرفة السطح مساء الأحد من كل أسبوع ، فيتبعن المراسيم التى وضعنها منذ بداية الأمر ، فتوضع مقاعد ثلاثة حول منضدة عليهامصباح وأربع شارات مختلفة الألوان ، كتب على كل منها « ندوة الأدباء » ، وبجانب هذه الشارات توضع صحيفة الندوة ، وكن يسمينها « صوت الأدب » ، وكانت جو تقوم بنسخها لجمال خطها ، وكل من الأربع تساهم بنصيب فى تحريرها •

وفى تمام الساعة السابعة ، يصعد الأخوات الى مقر الندوة ، فيربطن الشارات حول رءوسهن ، ويتخذن مقاعدهن فى وقار وجلال ، وكانت كل واحدة منهن قد اختارت لنفسها اسم أديب عظيم من أدباء العصر ، وتقمصت شخصيته على قدر الامكان ، وكانت ميج تلعب دور الرئيس ، فتتصدر المائدة وتبدأ الاجتماع بقراءة الصحيفة التى امتلأت بالقصص والأخبار والاعلانات والفكاهات والمغامرات البريئة •

وفى أحد هذه الاجتماعات ، جلس الرئيس وقد وضع على عينيه اطار عوينات بلا زجاج ، وضرب المائدة بيده ايذانا بالبدء ، ثم وقف متعاليا ينظر شزرا الى عضو كان يجلس بغير احترام ، ويسند ظهر كرسيه الى الحائط ، فخجل العضو لسلوكه واعتدل فى مجلسه ، واتخذ سمت الأدب والاحترام •

وعندما اطمأن الرئيس الى استتباب النظام ، تناول صحيفة الندوة وشرع يقرأ « صوت الأدب » ، فقال :

صـــوت الأدب

٢٠ مايـــو

تهنئة بمناسبة مرور عام على تأسيس الجريدة

« نجتمع اليوم احتفالا بصدور العدد الثانى والخمسين من صحيفتنا الغراء ، وقد ارتدينا شاراتنا المقدسة ، وامتلأت قلوبنا خشوعا ووقارا ، ونحمد الله على أننـــا جميعا فى صـــحة كاملة ، وأن فردا لم ينقص من جماعتنا الصغيرة ، وأن الفرصة عادت فجمعتنا ، لنرى الوجوه المألوفة ونصافح الأيدى الصديقة •

اننا نحيى الرئيس تحية حارة ملؤها التقدير والاحترام ، ونقـــدم له فروض الولاء والتبجيل ، وهو يتصدر اجتماعنا ، وقد وضع عوينلته على أرنبة أنفه ، ونحمد الله على شفائه من البرد الذى ألم به ، ونشكره تعالى على أن مكنه من أن يقرأ لنا صحيفتنا ، ويتحفنا بالدرر التى تتساقط من فمه ، رغم صوته الخشن المتحشرج المبحوح •

لقد مضى بنا عام ونحن متحدون ، نسعد أوقاتنا بالضحك والمزاح والقراءة ، ونبنى مستقبلنا بجد واجتهاد ، ونمهد الطريق أمامنا الى ذروة الأدب ، فالله ندعـــو أن يـــديم نجاحنـــا ، وأن يكتب الرواج الدائـــم لصحيفتنا ، وأن يمتع ندوة الأدباء بالسعد والهناء » •

أ • سنود جراس (جو)

* * *

قصــة

الــزواج المقنــع

قصة من البندقية بقلم الأديب س · بيكويك (ميج)

« رسا أمام المطعم المرمرى جندول وراء جندول ، وتوافد المدعوون والمدعوات فى ثيابهم البهيجة الغالية ، حتى غصت بهم أبهاء قصر الكونت أديلون الفخمة الواسـعة · واختلط الأشراف والفرسـان والسـيدات بالحراس والفقراء وبائعات الورد ، واشترك الجمع فى رقص مرح على أنغام الموسيقى والغناء ، وفى هذا الجو المـرح مضى الحفـل التنكرى الأنيــق ·

وانحنى الشاعر اللبق أمام ملكة القصر وقال :

ــ هل رأت جلالتك ليدى فيولا هذه الليلة ؟

أجابت الملكة :

ــ رأيتها وكانت رغم حزنها رائعة الجمال ، وقد أحسنوا اختيــار ثوبها ، فبعد أسبوع تزف الى الكونت أنطونيو الـذى تمقته من صميم قلبهــا ·

قال الشاعر :

ــ انى أغبطه وايم الحق ، وها أنا أراه قادما فى ملابس العرس ، وعلى وجهه قناع أسود ، فلننتظر حتى يرفع قناعه لنرى كيف ينظر الى عروسه التى استعصى عليه قلبها ، وان كان والدها قد قبــل زواجهــا منــه ·

وسارت الملكة مع الشاعر الى حلبة الرقص ، وهمست فى أذنه :

ــ يتحدث الناس بأنهـا مدلهة بحب فنـان انجليزى ، ويقال ان والدها باغته وهو يحوم عند سلم القصر فطرده شر طردة ٠

وكان الحفل فى معمعانه ، عندما دخل الى البهو قسيس ، وانتحى بالفتاة وعريسها غرفة جانبية ، وطلب منهما أن يركعـا أمامه استعدادا لمراسيم الزواج ٠ وساد القوم سكون وهدوء لا يعكره إلا خرير الميـاه وحفيف الأوراق وهى تتحرك تحت لمسات النسيم العليل فى ضوء القمر الفضى ٠ هتف الكونت أديلون بمدعويه يقول :

ــ أيها السيدات والسادة ، جمعناكم الليلة بخدعة لطيفة كى تشهدوا زواج ابنتى من خطيبها الكونت أنطونيو ٠

والتفت الى القس يقول :

ــ سر فى مراسيمك أيها الأب الجليل ، فنحن فى الانتظار ٠

والتفتت العيون الى العروسين ، وسرت فى القاعة همهمة الدهشـة والاستغراب ، عندما ركع الاثنـان أمام القس بقناعيهما ، ولم يـكن ذلك مستساغا ، فثار فضـول الناس ، ولكن جـلال الموقف منعهم من الـكلام ٠

ولما انتهت مراسيم الزواج ، التف القوم حول الكونت يستفسرونه ويستوضحونه ، فقال :

ــ ليس هناك ما يدعو الى توضيح ، فقـد رغبت ابنتى فيولا أن تتزوج الليلة ، وأن تتم المراسيم بهـذه الصـورة ، فلم أرما يمنع من تحقيق رغبتها ٠

والتفت الكونت العجوز الى العريس وقال :

ـ لقد انتهينا من أداء الدور الذى طلبتماه ، فاخلعا قناعكما ، كى أهنئكما وأبارككما •

ولكن العروسين لم يركعا أمام الكونت ، بل تقدم العريس وحده ، ورفع القناع الأسود عن وجهه ، فاذا به الفنان الانجليزى ، الذى أحبته فيولا وطرده أبوها ، وسارت اليه عروسه باسمة راضية ، وأسندت رأسها الى صدره الذى التمعت فوقه نجمة ذهبية ، هى شعار أشراف الانجليز • قال الفنان فى صوت أجفل له الحاضرون :

ـ سيدى اللورد ، قد طردتنى من قصرك ، وأبيت أن تزوج ابنتك إلا لمن يعادل الكونت أنطونيو حسبا وثراء ، ان لدى من المال أكداسا تشبع أطماعك ، ولا أظنك تبخل بابنتك على سيد أشراف الانجليز إيرل ديفيرو وديفير ، فهل تقبل ثروتى الطائلة ونسبى الرفيع فى مقابل يد ابنتك التى أصبحت زوجتى ؟

وتسمر الكونت فى مكانه ، ولم ينطق لفرط دهشته بكلمة واحدة ، فالتفت الشريف الانجليزى الى الجمع وقال وعلى فمه بسمة الانتصار :

ـ أما أنتم يا أصدقائى الأشراف ، فالله أدعو أن يحقق آمالكم كما حقق آمالى ، وأن يسعدكم مثلما أسعدنى الليلة بزواج حبيبتى الشقراء الجميلة فى هذا الحفل التنكرى •

قصة حياة عنقود عنب

بقلم ت • توبمان •• (بث)

« يحكى أن فلاحا زرع بذرة صغيرة فى حديقته ، ولم تلبث هذه البذرة أن نبتت وأينعت وصارت كرمة كبيرة تتدلى منها عناقيد العنب

الشهية . وفى صباح يوم من الأيام اختار الفلاح أجمل عناقيده وأطيبها ، فقطفه وحمله الى السـوق كى يبيعه ، فاشتراه منـه بدال وعرضه فى واجهة متجره . ومرت بالمتجر فتاة صغيرة ذات وجه مسـتدير وأنف قصير ، وكانت ترتدى ثوبا أزرق اللون وقبعة بنية ، فلما رأت العنقـود بادرت بشرائه لأمهـا ، وحملته الى البيت حيث قطعته وغلته فى المـاء ، ثم عصرت جزءا منه ، وأضافت الى العصير زبدا وملحا ، وقدمته للعشاء . أما الباقى فقـد خلطته بمـلء كوب من اللبن وبيضتين وأربع ملاعق من السكر ، وأضافت الى الخليط بعض اللوز والبسكوت ، ووضعته فى إنـاء عميق ، وأدخلته الفرن حتى احمر لونه . . وفى اليوم التالى أكلته أسرة اسمها أسرة مارش » .

رسـالة

بقلم ن . وينكل (آمى)

« سيدى رئيس ندوة الأدباء

أكتب اليـك بخصوص حديثك عن الذنوب والمذنبين ، فقـد كنت تشير بذلك الى من يدعى وينكل ، فتتهمه باثارة المتـاعب فى اجتماعات الندوة ، وتتهمه بالاهمال فى كتـابة نصيبه من موضـوعات الصحيفة . وكل ما أرجوه من سيدى الرئيس ، أن يصفح عن اهمال هذا العضو ، وأن تأذن لـه بارسـال قطعـة من الأدب الفرنسى ، فان مشـاغله فى الدروس والمذاكرة تحـول بينه وبين تأليف قطعـة مبتكرة . وأعـدك يا سيدى بأن يبعث اليك فى العدد القادم قطعة ممتازة تستحق الذكـر والاعجـاب .

وختاما أقدم بالغ احترامى » .

* * *

ملحوظة من رئيس التحرير :

فى هذا الخطاب اعتذار كاف من حضرة العضو ، وأنصحه أن يزيد اهتمـــامه بالمذاكرة حتى لا يخطىء فى الهجاء كثيرا •

حادث يؤســف لــه

« ساد الفزع يوم الجمعة الماضى ، إثر سماعنا صـــوت ارتطـــام جسم ثقيل بالأرض فى الطـــابق الســـفلى من المنزل ، واستبد بنا الهلع عندما تناهى الى آذاننا صراخ وعويل ، ونزلنـــا الى المخـــزن مسرعين ، فوجدنا رئيسنا المحبـــوب منبطحا على الأرض ، والمكان من حـــوله فى فوضى واضطراب ، وأدركنا والأسف يملأ قلوبنا ، أنـــه كان بســـبيل احضار بعض الأخشاب لأغراض منزلية ، فانزلقت قدمه ، وسقط برأسه وكتفيه فى حوض المـــاء ، واصطدم جسمه بصندوق الصابون ، فانقلب فوق شخصه المبجل • ولمـــا أنقذنا الرئيس من سقطته ، كانت ملابسه ممزقة بشكل مخجل ، وليس بجسده ، لحسن الحظ ، سوى عـــدد وفير من الكدمات ، ولكنها تسير الى الشفاء بخطوات واسعة •

« المحـــرر »

* * *

أحـــزان شعبية

وقـــع حادث غامض ، اختفت على أثره الصديقة العزيزة مســـز سنوبول ، تلك القطة المدللة التى عرفها الأصـــدقاء والمعجبون مثـــلا فى الرشاقة والجمال والأدب ، ولا شك أن اختفاءها يعتبر خسارة فادحة ، تئن لها الجماهير حزنا ولوعة •

وقـد شوهدت لآخر مرة ، تراقب عربة الجزار ، ومنذ ذلك الحين لم يظهر لها أثر ، ويتجـه الظن الى أن أحـدهم رآها ، فأغراه جمالها الفاضح ، بسرقتها فى ضعة وخيانة • ورغم الجهود الشاقة التى بذلناها فى البحث عنها ، مضت الأسابيع ولم نتمكن من العثور عليها ، ولذلك اعتبرناها مفقودة ، ووضعنا شارة الحـداد على السلة التى كانت تنام فيها ، كما رفعنا صحن طعامها من مكانه •

ونحن نبكى فى الفقيدة العزيزة أجمل القطط وأوفى الصديقات » •

* * *

اعلانات مبـوبة

* تلقى الأديبة الموهوبة الآنسـة بلاجيدج محاضرة هـامة عن « المرأة ومركزها فى المجتمع » ، وذلك بندوة الأدباء مساء يوم السبت القادم بعد الاحتفلات المعتادة •

* تعقد اجتماعات أسبوعية فى « حلقة المطبخ » لتعليم الطهى ، وترأس هـذه الاجتماعات حنا براون ، والدعوة عامة •

* تجتمع لجنة النظافة فى تمام الساعة التاسعة من يوم الأربعاء القادم ، والادارة ترجو أن يرتدى الأعضاء ملابسهم الرسمية ، ويحضروا معهم أدوات النظافة •

* تفتتح السيدة بث فى الأسبوع القادم معرضا لأزياء الدمى ، استحضرت له خصيصا من باريس أحدث الملابس الفرنسية وأجملها ، وتعلن السيدة أنها على أتم الاستعداد لقبول الطلبات •

* يقدم مسرح « بارنفيل » فى الأسابيع القادمة مسرحية جديدة

اسمها « العبد الاغريقى » أو « كونستانتين » ، ويسرنا أن نبشر محبى الفنون ، بأن هذه التمثيلية ستكون حــدثا فى تاريخ المسرح الأمريكى ، ولم يسبق أن شاهدت الجماهير مثلها ، فى روعة التأليف وجمال التمثيل ودقــة الاخراج •

* * *

غمـــزات

* تستطيع ميج أن تتناول طعام الافطار فى الموعد المناسب ، اذا اقتصــدت قليلا فى اجراءات غسل يديها •

* نرجو من جو أن تقلع عن التصفير بفمها أثناء سيرها فى الطرقات العــامة •

* حبذا لو تذكرت بث أن تعيد الى آمى فوطتها •

* بودنا أن تقتصــد آمى فى غرورها وتذمرها ، فهى لا تمتـــاز بشىء عن بقية أفراد الأسرة •

* * *

تقرير أسبوعى عن حالة الأعضــاء

ميج — جيــدة
جو — سيئة
بث — سيئة جــدا
آمى — متوسطة

* * *

وما ان انتهى الرئيس من قراءة الصحيفة ، حتى دوت القاعة بتصفيق حاد ، فقامت جو تقدم اقتراحا ، وقالت فى لهجة خطابية برلمانية :

— سيدى الرئيس ، حضرات السادة :

أقترح أن نضم الى ندوتنا عضوا جديدا ، يستحق هذا الشرف ويقدره ، ولست أشك فى أنه سيكون عونا لنا على أداء رسالتنا الأدبية والاجتماعية ، بفضل ما اتصف به من علم وأدب ومرح •

انى أرشح مستر ثيودور لورنس ، وأزكيه عضو شرف فى الندوة ، وأرجو أن تتفضلوا بالموافقة على قبوله •

وبدا على البنات بعض التردد ، ثم قامت ميج ، واعتلت المنصة وقالت :

— سنقترع على اقتراح العضو ، فمن يؤيد انضمام مستر لورنس يقول : « موافق » •

هتف جو بأعلى صوتها :

— أوافق •

وتبعتها بث تقول بصوت خجل :

— أوافق •

أردفت ميج تقول :

— ومن يعارض الاقتراح يقول : « لا أوافق » •

وكانت ميج وآمى من المعارضات ، وقامت آمى تشرح رأيها فى تأنق شديد وتقول :

ـ هذه ندوة للسيدات ، وأحب أن تظل دائما هكذا ، فالفتيان بطبعهم كثيرو الهزر والمشاغبة ، وأخشى أن ينضم مستر لورنس فيفسدها •

وقالت ميج وهى تعبث بشعرها ، شأنها اذا ترددت فى أمر من الأمور :

ـ أخشى أن يسخر من صحيفتنا ، ويهزأ بجهودنا الأدبية •

فوقفت جو مرة ثانية وقالت بحزم :

ـ سيدى الرئيس :

أعدك وعد رجل شريف أن لا يفعل لورى أمرا من هذا ، انه شغوف بالكتابة ، وانضمامه الينا يضيف الى جهودنا الأدبية لونا جديدا ، ويمنعنا من الانسياق مع عواطفنا ، ولقد قدم لنا خدمات كثيرة ، فأقل ما يجب علينا أن نرد له الجميل ، فنقبله بالترحيب عضوا فى ندوتنا •

وتأثرت بث بهذه الخطبة ، فقامت تؤيد رأى جو وتقول بلهجة حاسمة :

ـ وأنا أضم صوتى الى صوت العضو المحترم ، وأرى أن نقبل لورى دون تردد ، لا هو وحده ، بل نقبل جده أيضا اذا شاء أن يشترك معنا •

وتكهرب الجو لحديث بث ، وقامت جو من مكانها تصافح أختها مهنئة شاكرة ، وقالت :

— مادام لورى صديقنا ، فواجبنا جميعا أن نوافق على انضمامه •

قال أخواتها فى نفس واحـــد :

— نوافق ، نوافق ، نوافق •

وبين دهشة الجميع وعجبهن ، قامت جو الى خزانة الملابس القائمة بجانب الحجرة ، وفتحت بابهـا ، فوقعت أنظار المجتمعات على لورى يجلس فوق زكيبة ممتلئة بالمهملات ، وقـد احتقن وجهــه لفرط رغبته المكبوتة فى الضـــحك •

صاح الفتيات يستنكرون وجوده :

— أيتهـا الخائنــة الشريرة ، كيف تجرؤين على خيانتنا بهــذه الصـــورة •

وقامت جو إلى صديقها ، فأخرجته من الخزانة ، وقادته الى منضدة الاجتماع فى سرور وانتصار ، ثم قدمت له شارة ، فأصبح بذلك عضوا فى الندوة •

وحاولت ميج أن تتظاهر بالغضــب ، ولكن ابتسامتها خــذلتها ، فاعتلت المنصــة ، وقالت بلهجة خطابية :

— ان ثبات أعصابكما أيها الوغدان يدهشنى •

فنهض لورى بأدب بالغ ، وانحنى تحية للرئيس ، وقال برشـــاقة ولبـــاقة :

— سيدى الرئيس ، سيداتى ، آسف جــدا ، أقصد سادتى ،

يسرنى أن أكون دائما فى خدمتكم ، وأن أساهم بجهودى فى نجاح ندوتكم .

وصاحت جو تشجعه وتؤيده :

ـ مرحى .. مرحى ...

وأردف لورى يقول للجالسات :

ـ رئيسى النبيل ، وأصدقائى المخلصين ، شرفتمونى بالصفح عن خدعتى الدنيئة ، وأحب بهذه المناسبة أن أضع الأمور فى نصابها ، فأعترف بأننى وحدى المسئول عن هذه الخدعة ، وليس لجو ذنب فيما حدث ، فأنا صاحب الفكرة ، وأنا الذى ألححت عليها حتى اقتنعت بها .

فصاحت جو فى غبطة بما فعلت :

ـ بل الذنب مشترك بيننا ، وأنا التى اقترحت اخفاءك فى الخزانة .

وانحنى العضو الجديد للرئيس وقال :

ـ لا تصدق ، فأنا الوغد الذى رتب الخديعة كلها ، ولكنى أعاهدكم بشرف أن لا أعود الى مثل ذلك ، وأعدكم أن أكرس حياتى وجهودى فى خدمة ندوتكم العتيدة .

صاحت جو مغتبطة :

ـ هكذا يكون الكلام !

وانحنت ميج احتراما للمتكلم ، وقالت آمى تستزيده :

ـ أكمل حديثك ، أكمل حديثك .

قــال :

ــ أحب أن تعلموا جميعا أننى شاكر لفضلكم ، معترف بجميلكم ، وقد أردت أن أعبر لكم عن بعض ما يجيش فى نفسى ، فأعددت فى ركن السياج الفاصل بين حديقتنا ، صندوقا للبريد ، كان فى يوم من الأيام برجا للطيور ، ولكنى أصــلحته ونظمته ، وصنعت له فتحة فى أعلاه ، تغلق بقفل محــكم ، يحتفظ كل طرف منا بمفتاح له • وسيكون لهــذا الصــندوق فوائد عميمة ، فيه نتبادل الرســائل والمخطوطات والكتب واللفافات ، توفيرا للجهــد واختصــارا للوقت ، وانى أقــدم لحضرة الرئيس أحــد مفتاحيه ، وأملى عظيم فى أن يتفضل بقبوله •

ووضع لورى على المائدة مفتاحا صغيرا ، هلل له الحاضرون وصفقوا طويلا ، فعانى الرئيس مشقة حتى فى اعادة النظام الى الجلسة •

وعاد الرئيس الى جدول الأعمال ، فدارت المناقشات على أحسن وجه ، وبذل الأعضاء جهودا مشكورة فى أداء واجباتهم كاملة ، وسارت الأعمال فى سهولة وانسياق الى ساعة متأخرة ، ثم رفعت الجلسة بتحية للعضــو الجــديد •

ولم يأسف أحد على انضمام لورى الى الندوة ، فقد أثبت بلباقته وذكائه ومرحه ، أنه عضو منتج لا مثيل له فى أى ندوة أخرى ، وأكسب وجوده الاجتماعات روحا جديدة ، وأضافت جهوده الأدبية الى الصحيفة مادة غزيرة ، وكانت خطاباته فى الندوة مثار اعجــاب الأعضاء لطرافتها وحسن أسلوبها وخلوها من السخافات العاطفية •

أما صندوق البريد فقد نجح فى أداء رسالته أعظم نجاح ، وتبودلت عن طريقه أغرب الأشياء وأكثرها تناقضا : فمن قصص جديدة الى أربطة

عنق ملونة ، ومن شعر الى مخللات ، ومن بذور الى خطابات ، ومن كتب موسيقية الى فطائر شهية ، ومن أحذية الى دعوات وتمنيات ، ومن عتاب رقيق الى كلاب صغيرة •

وأعجب مستر لورنس العجوز بالفكرة ، فساهم بدوره فيها ، واختار أن يرسل هداياه الى البنات عن طريق صندوق البريد ، واتسع استعمال الصندوق حتى شمل الخدم فى البيتين ، فكان بستانى القصر يودعه رسائل غرامه بالطاهية حنا ، وقد ضحك أعضاء الندوة كثيرا عندما اكتشفوا سر الخادمين ، ولكن أحدا منهم لم يدر بخلده ، كم سيحمل الصندوق من رسائل الغرام ، فى الأعوام القادمة •

الفصـــل الحادى عشر

تجـــــارب

فى مساء يوم صحو ، عادت ميج من عملها الى البيت ، فوجـدت أختها جو ترقد على الأريكة بادية التعب مرهقة ، وكانت ميج بدورها متعبة مجهدة ، فخلعت حذاءها ، واستلقت على مقعدها ، حتى تأتيهما آمى بكوب من عصير الليمون •

قالت ميج :

ــ اليوم أول شهر يونيه ، وعن قريب يسافر آل كنج الى المصيف ، فأستريح من العمل ثلاثة أشهر ! كم سأتمتع بهـا !

قالت جــو :

ــ لقد سافرت اليوم عمتى مارش الى مصـــيفها ، وكنت أخشى أن تصحبنى معها ، ولو أنهـا طلبت الى أن أرافقها ، ما جرؤت على الرفض ، ولكنها تركتنى والحمد لله ، فرحمتنى من قضاء الصـيف معها فى تلك المقبرة التى يسمونها مدينة بلمفيلد ، وكانت مهمة شاقة أن أعينها على اعداد حقائبها للسفر ، ولكن فكرة البعد عنها كانت مبهجة مفرحة ، فبذلت جهودى مضاعفة فى خدمتها ، ولم أتردد فى تلبية أوامرها ، وقمت بكل ما تحتاج اليه فى نشاط وسرعة ، حتى خفت فى آخر الأمر أن تشعر بأهمية وجودى معها ، فتعود وتستصحبنى الى مصيفها • وعندما رأيتها تجلس فى العربة اطمأنت نفسى وهـدأت مخاوفى ، ولكن أمرا أزعجنى فى اللحظة الأخيرة ، اذ رأيتها فجأة تطل برأسها من نافذة العربة وتقول :

ـ جوزيفين ، هـلا •••

وخفت أن تقع الكارثة ، فلم أدعها تكمل حديثهـا ، واخترت أن أستدير بسرعة ، وأعدو مبتعدة عنها ، ولم أكف عن العدو حتى بلغت منعطف الطريق وتأكدت من زوال الخطر •

قالت بث وهى تدلك قدمى جو بحب وحنان :

ـ مسكينة أنت يا جـو ، لقد رأيتك تعودين الى البيت ، وكأن شبحا يطاردك •

وجاءت آمى تحمل عصير الليمون ، وأخذت نصيبها منه فارتشفت منه رشفة وقالت :

ـ العمة مارش « أبليز » بشرى •

قالت جـو بتسامح :

ـ ان الفتاة تقصد « ابليس » ، ولكنى أفضل أن أتساهل معهـا ، فحرارة الجـو تغرينى بالاغضاء عن فلتات اللسان •

قالت آمى تغير الموضوع بلباقة :

ـ ماذا تفعلان فى العطلة ؟

أجابت ميج من أعماق مقعدها الهزاز :

ـ سوف أسهر كثيرا ، ولا أنام الا متأخرا ، وكفانى أن كنت آوى الى فراشى مبكرة طول الشتاء ، وأبذل جهودى فى خدمة غيرى • أريد أن تكون عطلة كاملة ينعم بهـا قلبى •

— قالت جـو :

— أنا لا أحب الكسل ، ولذلك أعددت مجموعة كبيرة من الكتب ، أقرأها على مقعد صنعته بين غصون شجرة التفاح •

فنظرت آمى الى بث وقالت ، وقد طرأت لها فكرة جـديدة :

— ونحن أيضا فى حاجة الى عطلة ، فما رأيك أن نترك الدراسة بعض الوقت ، ونلعب كما يحلو لنا طول النهار •

قالت بث :

— رأى جميل ، بشرط أن نقبل والدتى ، فأنا فى شـديد الحاجة الى التمرن على عزف القطـع الموسـيقية الجـديدة ، ثم إن ملابس الدمى تمزقت ، وأريد أن أصنع لها ثيابا صيفية جديدة •

وكانت مسز مارش تجلس فى ركن من الغرفة ، فالتفتت اليهـا ميج تقـول :

— أتسمحين لنا بعطلة يا أماه ؟

قالت :

— أسمح بأسبوع على سبيل التجربة ، ولنر فى ختامه كيف يكون الحال ، فكل ما أخشـاه أن تضقن ذرعا بالبطالة ، وتقتنعن قبل مضى سبعة أيام بأن البطالة المطلقة لا تقل ثقلا على النفس من العمل المستمر •

قالت ميج فى حماسـة :

— لا أوافقك على رأيك يا أماه ، فالبطالة متعة لا تعوض •

ورفعت جـو كوب الليمون عاليا ، وقالت :

— أقترح أن نشرب نخب اللهو والراحة •

وشرب جميعهم فى حبور ، وبدأن نفورهن تجربة الراحة الدائمة ، فقضين بقية اليوم بلا عمل • وفى الصباح التالى ، لم تغادر ميج غرفتها قبل العاشرة ، وعندما هبطت الى قاعة الطعام ، تتناول افطارها ، لم تجد فيها أحــدا من أفراد الأسرة ، فانقبضت شهيتها ولم تصب من الأكل إلا قليلا • وساءها بعد ذلك أن أوانى الزهور خالية من الورود التى درجت جو على الاهتمام بها فيما مضى ، وكانت الغرف فى فوضى واضطراب ، فالمقاعد غير منتظمة فى أماكنها ، والكتب مبعثرة على الأرض ، والأتربة عالقة بالأرفف والمناضــد • ولم يكن بالبيت كله مكان نظيف يستطيع الانسان أن يأوى اليه مرتاحا ، سوى الركن الذى اعتادت مسز مارش أن تعنى به وتجلس فيه ، ولكن ميج لم تقل شيئا ، واختارت أن تستلقى على الأريكة فى كسل ، وقــد انشغل ذهنها بثياب الصيف الجـديدة ، التى تريد أن تبتاعها براتبها •

وقضت جو ساعات النهار مع لورى عند النهر ، وفى المساء جلست تقرأ بين أغصان شجرة التفاح • وأقبلت بث على خزانتها ، فأخرجت منها دماها المشوهة ، ولكنها لم تلبث أن سئمت اللعب بعد قليل ، فتركت الدمى على الأرض مبعثرة ، وذهبت الى المعزف تتســلى بموسيقاها ، وقــد اطمأنت نفسها الى أنها غير ملزمة بغسل صــحون الطعام كمــا اعتادت أن تفعل كل يوم •

أما آمى فقد ارتدت ثوبا أبيض اللون جميلا ، ونســقت شعرها تنسيقا أنيقا ، ثم جلست فى جانب من الحديقة ترسم بعض الزهــور ، وأملها كله ينحصر فى أن يراها العابرون فى الطريق ، فيأخذهم الاعجاب بالفنانة الصغيرة ، ولكن أحــدا لم يرها مع الأسف ، فتركت الرســم

وخرجت من البيت الى نزهة قصيرة ، وما لبث المطر أن فاجأها غزيرا ، فأسرعت بالعودة وملابسها الأنيقة تقطر مـاء •

وبعد تناول الشاى ، اجتمع البنات فى غرفة الجلوس يتحدثن فى حياتهن الجديدة ، فأجمع الرأى بينهن على أنها حياة ممتعة بمعنى الكلمة ، وان كانت ساعات النهار طالت أكثر مما يجب • وأرادت ميج أن ترفه عن نفسها ، فخرجت الى السوق ، وعادت بقطعة من الموسلين ابتاعتها لتصنع منها ثوبا ، فلم تكد تقصها ، إلا واكتشفت أنها غير قابلة للغسل ، فأغضبها ذلك وتركتها جانبا • ولم تجد جو تسلية أخرى تشغل بهـا وقتها ، بعد أن سلخت الشمس أنفها لطول ما جذفت فى النهر ، وأصابت القراءة رأسها بصداع حاد ، فقنعت بالجلوس ساكنة لا تجد ما يشغلها أو يسليها • ولاقت بث عنـاء فى تمرنها على عزف القطـع الموسيقية الجـديدة ، وضـايقتها الفوضى المنتشرة فى خزانتها ، فجلسـت هى الأخرى صامتة ، لا تعرف ماذا تفعل بنفسها • أما آمى فقـد أحزنها ما أصاب ثوبها الأبيض الجميل ، وتحيرت فيما ستلبسه فى حفلة كيتى براون ، بعد أن أفسدت الأمطار الرداء الجيد الوحيـد الذى تملكه ، وانتهى بها الأمر الى الحزن والكمد • ورغم كل هذه المضايقات الصغيرة ، أكد البنـات لأمهن أن التجربة تبشر بخير عميم ، فابتسمت لهن ولم تقل شيئا ، وتعاونت هى وحنا على أداء الأعمال المنزلية التى تركها بناتها ، حتى يحتفظ البيت برونقه ونظامه •

ولم يكن أحـد يتوقع أن تتطور الأمور بهذه السرعة بعد ذلك ، ولكن هذا ما حدث بالفعل ، فقد زادت الأيام طولا ، وانقلب الجـو على غـير العـادة ، فتغيرت أمزجة البنات بالمثـل ، واستبدت بهن حيرة لا يعرفن لها سببا ، وتسلل الشيطان الى جماعتهن ، ووجد مرتعا خصيبا

فى آذهانهن الفارغة وأيديهن التافهة . وبدأت المحن يوم أخرجت ميج بعض أثوابها القديمة تجربها ، ولما وجدت فيها بعض العيوب ، فكرت فى أن تصلحها ، فتغير شكل الأثواب حتى تصبح شبيهة بثياب آل موفات ، ولكنها لم تفلح فى تحقيق هـذه الرغبة . وخرجت من التجربة وقـد أفسدت ثيابها . وأنهكت القراءة جـو غتركتها ، ولم تجـد ما تشغل به وقتها ، فثارت فيها روح المشاجرة ، وتشاجرت مع لورى الطيب القلب وخاصمته . وكانت بث تنسى أحيانا أنها فى عطلة ، فتعود الى عملهـا المنزلى ، ثم لا تلبث أن تتذكر ، فتهجر العمل الى دماها ، ولكن التجربة أضرت بهدوئها ، فتشاجرت مع دماها ، وأنبتها لأول مرة تأنيبا شديدا . أما آمى ، فكانت أشقاهن حالا ، فقد كان معين تسليتها محدودا بحـكم سنها ، فاحتارت فيم تفعله بنفسها ، وأثقلت عليها مواهبها التى تعتز بهـا ، فزادتها ضـيقا على ضـيق ، ولم تكن تحب الدمى ، وتعتبر القصص الخرافية تسـلية الأطفال ، ولم يكن فى استطاعتها أن تقضى اليوم كله فى الرسم ، وفقدت حفلات الشاى والنزهات بهجتها ، قالت تحـدث نفسها :

— لست أرى سعادة فى مثل هذه الحياة ، فياليتنى كنت أملك بيتا كبيرا كله بنات ظريفات ، أو كان باستطاعتى أن أسافر الى مصـيف أقضى فيه عطلة مبهجة .

وسكت البنات على ما أصابهن من هـذه التجربة ، ولكن ما إن أقبل مساء الجمعة ، حتى كن جميعا مبتهجات بانتهاء الأسبوع الممل . وأرادت مسز مارش أن تزيد الأثر عمقا فى نفوسهن ، وكانت محبـة للنكتة ، فاستقر رأيها على أن تختم التجربة ختاما حاسما ، ولذلك أذنت للطاهية حنـا بيوم عطلة ، وتركت بناتها يفعلن ما يشأن .

وفى صـباح السبت ، لم يجـد البنات نارا موقدة فى المطبخ ، ولا إفطارا على المائدة ، وكذلك لم يجـدن أمهن فى مكانها المعهود من البيت •

وتلتفت جو حولها فى اشمئزاز وقالت :

ـ اللهم رحمتك ، ماذا حـدث لهذا البيت ؟ !

وأسرعت ميج الى الدور العلوى ثم نزلت وقد ارتسمت عليهـا أمارات الراحة المقرونة ببعض الخجل ، قالت :

ـ وجدت والدتى فى فراشها ، وقد رأت أن تلازم غرفتها طول اليوم ، فعلينا أن نعنى بأنفسنا • انه أمر عجيب حقا ، فعهدى بهـا نشيطة متوثبة ، ولكنها تقول إن الأسبوع الماضى كان مرهقا لهـا ، ومن حقها أن تنال بعض الراحة •

فقالت جـو فى لهفة :

ـ إنى أرحب بذلك ، فقـد ضـاقت نفسى بالراحة ، وأريد أن أفعل شـيئا •

وعدن الى العمل فوجدن فيه تسلية وترفيها ، وما إن اندمجن فيه حتى تبين لهن صـدق حنا ، التى كانت تقول لهن دائما : إن العمـل المنزلى ليس مجرد مزحة أو لعبـة • وكان الطعـام موفورا فى خزانة المطبخ ، فقامت ميج وجـو باعداد وجبة الافطار ، وتعهدت بث وآمى باعـداد المائدة ، وهما تعجبان لمـاذا يشـكو الخـدم من صـعوبة عملهم •

قالت ميج وهى تقف أمام إبريق الشاى :

ــ سأحمل الى والدتى قسطا من الشاى ، بالرغم من أنها أبدت رغبتها فى خدمة نفسها بنفسها •

وأحضرت الصينية ، وأعدتها لوالدتها خير اعــداد ، وحملتها اليها فى الطابق الأعلى ، وبالرغم من أن الشاى كان مر الطعم لكثرة ما غلى على النــار ، والبيض يفوح برائحــة الحرق ، والكعك يلمع لازدياد الكربونات فيه ، رغم ذلك كله ، تقبلت مسز مارش افطارها راضــية شاكرة ، ثم ضحكت كثيرا عند ما انصرفت ابنتها من الغرفة ، وقالت تحــدث نفسها :

ــ يا للنفوس الطيبة ! سيلاقين اليوم صعابا كثيرة ، وسيتجشمن مشقات لا عدأد لها ، ولكنه درس يفيدهن •

وأزاحت افطارها جانبا ، واستعاضت عنه بقطعة من اللحم كانت قد أعدتها من قبل لمثل هذا الوقت ، فكانت لمحــة طيبة تدك على فرط رغبتها فى المحافظة على شعور بناتها •

وكثرت الشكاوى فى الدور الأرضى ، وتعددت الغلطات والأخطاء ، ممــا أثار أحزان ميج ، التى كانت تلعب دور كبــير الطهــاة ، قالت جــو تخفف عنهــا :

ــ لا بأس عليك يا ميج ، فسوف أقوم بالأعباء كلها فى وجبــة الغداء ، وما عليك إلا أن تكونى السيدة الآمرة الناهية ، فلست أرى داعيا لأن تلوثى يديك مرة أخرى •

وقبلت مارجريت هذا العرض السخى مسرورة ، ثم انسحبت الى

حجرة الجلوس التى تسودها الفوضى ، فرتبتها بأن أخفت الأشياء المتناثرة على الأرض تحت الأريكة ، وأغلقت المصاريع الخشبية ، حتى لا ترى العيون الغبار العالق بالموائد والرفوف • وندمت جو على ما فعلته بصديقها لورى ، وأرادت أن تمحو أثر الإساءة من نفسه ، فأرسلت اليه تدعوه الى الغداء ، الذى سوف تطهيه بيديها •

وقالت ميج عندما بلغها الخبر باندفاع أختها فى الكرم :

— كان الأفضل ، قبل أن تدعى ضيوفا للغداء ،أن تنتظرى حتى تنتهى من الطهى وتطمئنى •

قالت :

— لا عليك ، فقد أعددت للأمر عدته ، وقصرت الغداء على اللحم المفروم والبطاطس ، بالاضافة الى بعض المحار والهليون والسلاطة ، ولست أعرف كيف تصنع السلاطة ، ولكنى سأجدها فى كتاب الطهى ، ثم نحلى بالفراولة ، ولا بأس من القهوة ، ليكون الغداء من أول طراز •

قالت ميج :

— بالله لا توقعى نفسك فى ورطات كثيرة ، ونصيحتى أن تكتفى بصنع بعض الفطائر ، وإلا أخجلتنا أمام لورى • إنى أنفض يدى من هذه الدعوة ، وما دمت قد دعوته ، فتولى الأمر بنفسك •

قالت جو ، وقد آلمها حديث أختها :

— لست أطلب منك سوى أن تساعدينى فى عمل حلوى الفراولة ، وتمدينى بالنصح اذا تعقدت الأمور •

قالت ميج ، فى تواضع ربة البيت الماهرة :

ــ لن أتأخر عن معونتك . ولكنى لا أعرف كثيرا ، ولا أتقن سوى الخبز وبعض المأكولات البسيطة . ويحسن أن تستأذنى والدتى قبل أن تشترى شيئا .

قالت جو ، وقد ضاقت ذرعا بنصائح أختها :

ــ لست بلهاء الى هذا الحد ، فاطمئنى .

ثم صعدت تستأذن والدتها التى قالت :

ــ اشترى ما تريدين ، ولا تعكرى هدوئى ، فأنا اليوم فى عطلة ، وسأتناول غذائى فى الخارج ، ثم أتسلى بالقراءة وزيارة بعض الصديقات .

ودهشت جو لهذا الكلام كل الدهشة ، فقد كان عهدها بأمها نشيطة مجدة ، لا تنى عن العمل والجهاد ، فلما رأتها متكاسلة بهذه الصورة أصابتها دهشة ، واعتبرت الأمر ظاهرة لا تقل عجبا عن كسوف الشمس أو الزلازل .

وقالت تحدث نفسها وهى تهبط السلم :

ــ الأحوال كلها مختلة ، وها هى ذى بث تبكى ، فلابد أن حادثا أصاب الأسرة . والله لأؤدبن آمى اذا كانت السبب فى بكاء أختها .

ونزلت جو ثائرة غاضبة ، فوجدت بث تبكى عصفورها الذى رقد ميتا فى قفصه ، وقد تقلصت أصابعه الصغيرة وارتفعت الى أعلى كأنه يتوسل فى طلب الطعام .

وجعلت بث تبكى طيرها ، وهى تهزه بيدها كأنها تريد أن ترد اليه الحيـــاة • قالت :

— إنها غلطتى ، فقـــد نسيت أن أضـــع له طعامه وشرابه • آه يا عصفورى الجميل ، لن أغفر لنفسى قسوتها عليك •

وفحصت جو عينى العصفور ، واستمعت الى ضربات قلبه ، فلما تأكدت من موته ، أعدت له نعشا من صـــندوق صـــغير •

وقالت آمى تبعث الأمل فى صـــدر أختها :

— ضعيه فى الفرن ، فربما عادت اليه الحياة اذا أصابه الدفء •

قالت بث ، وهى ما تزال تبكى وتنوح :

— لقد مات جوعا ، ولن يعيده الى الحيـــاة شـــواؤه فى الفرن • سأحفر له قبرا أدفنه فيه ، ولن آتى بعصـــفور غيره ، فكفانى ما فعلت بهـــذا المسكين •

فقالت جـــو فى وجـــد واهتمام :

— لا تنوحى يا بث ، إنه أمر محزن • كان هـــذا الأسبوع عامرا بالشئون والشجون ، ولعل عصفورك نال أسوأ قسط من تجاربنا • لفيه بالأكفان ، وضعيه فى الصندوق ، وبمجرد أن ننتهى من وليمة الغداء ، ندفنه فى احتفال مهيب ، ونسير جميعا الى القبر وراءه •

وتركت بث فى رعـــاية أخواتهـــا الأخريات ، وذهبت الى المطبخ فوجدته فى فوضى واضطراب ، ولكن ذلك لم يثن من عزم جو ، فوضعت المرولة على ثوبها ، وبدأت تغسل الأوانى والصحون ، ولم تنته منها حتى

كشفت أن نيران الموقد قد خمدت ، فقالت بضـيق شديد ، وهى تفتح باب الموقد وتدخل رأسها فيه تفحص الأخشاب به :

— أمر جميل !

وأشعلت الموقد من جديد ، ووضعت عليه آنية مليئة بالماء ، وتركتها لتغلى ، حتى تذهب الى السوق وتعود • وسارت فى الطريق ، فرد اليها السير بعض هدوئها المفقود ، وطافت بالحوانيت تشترى منهـا أرخص البضائع ، ثم رجعت الى البيت تحمل محارا صغير الحجم جدا ، وهليونا شائخا ، وعلبتين من الفراولة الحامضـة • وعكفت جـو على تنظيف الأوانى ، ثم أخذت أهبتها لطهى وجبة الغذاء ، وكانت ميج قد أعدت عجينة الخبز فى الصباح ، وتركتها تخمر بجـوار المدفأة ، ثم نسيت أمرها فى غمرة انشغالها بمسامرة صديقتها سالى ، التى جاءت لزيارتها • وفجأة انفتح الباب بشـدة ، ودخلت جـو محمرة الوجه مغبرة الشعر بالدقيق ، وقالت بلهجة لاذعة :

— ارتفع العجين وسال من آنيته على الأرض ، أفلا يكفيك كل هـذا اختمارا ؟

وضـحكت سـالى ، ولكن ميج رفعت حاجبيها تتعجب من أمر أختها ، التى سبق أن تعهدت باعـداد وجبة الغـداء دون معونتها ، فارتدت جو على أعقابها أمام هـذه النظرة ، وعادت الى المطبخ تعالج وحـدها شئون الأكل • وخرجت مسز مارش لقضاء حاجة لهـا ، بعد أن استرقت نظرة الى ما يدور فى البيت ، وهمست ببعض عبارات العـزاء لبث التى كانت مشغولة بقص أكفان عصفورها •

وكان وجود الأم فى البيت رغم اعتكافها بغرفتها ، يطمئن البنات

ويقوى عزائمهن ، فلما رأينها تخرج ، تملكهن شعور بالعجز والقلق ، واشتدت بهن المحنة ، عندما جاءت مس كروكر ، جارتهن العجوز ، وطلبت أن يأذن لها بتناول الغذاء معهن • وكانت مس كروكر هذه عانسا نحيفة القد ، لها أنف معقوف ، ونظرات متطفلة ترى بها ما يخصها وما لا يخصها ، ثم تطوف بأهل الحى تتحدث بما رأته • وكان البنات يكرهنها ، ولا يرتحن الى صحبتها ، ولكنهن تعلمن عن أمهن أن يحترمنها ويرحبن بها اكراما لفقرها وحاجتها • ولم تجد ميج مناصا من تحيتها ، فقامت تصافحها ، وقدمت لها مقعدا مريحا ، ثم جلست بجوارها تصغى صامتة لثرثرة العجوز ، وأحاديث تطفلها •

ومضى الصباح فى جهاد بالغ لم يأت بثمرته المرجوة ، فقد جاء طعام الغداء أضحوكة خالدة : فان جو أرادت أن تعتمد على نفسها بقدر الإمكان ، ولا تطلب العون أكثر مما يجب ، فكانت النتيجة أن سلقت الهليون ساعة كاملة ، لتجد بعدها أن رءوسه قد تفتتت ، وما زالت سيقانه صلبة مليفة • وشغلها أمره عن العناية بأمر البطاطس ، فقررت الاستغناء عنه فى وجبة الغذاء ، واحترق الخبز فى الفرن حتى اسود لونه ، واستعصى عليها تنظيم السلاطة ، واختلطت موادها اختلاطا قبيحا أقنعها بوجوب الاستغناء عن هذا الصحن أيضا • واستغلق عليها أمر المحار ، ولكنها لم تشأ أن تستسلم للعجز ، فعكفت عليه تعالج فتح أصدافه ، الى أن أمكنها أن تستخلص منه لحما قليلا ، بدا فى وسط أوراق الخس ، التى تزين الصحن ، تافها هزيلا • أما الفراولة فقد تعجنت ، وفاحت رائحتها الحامضة ، فثار غضب جو على البائع الذى

خدعها ، فوضع لها الفاكهة الفاسدة فى قاع العلبة ، وغطاها ببعض الحبات الطازجة .

ومضى على موعد الغداء ساعة ونصف ساعة والطعام لم يعد بعد ، ثم دق الجرس أخيرا ، ووقفت جو ترقب الوليمة تعبة منهكة ، وقد استبد بها الخجل أن يكون للطعام بهذه الصورة المحزنة فى حضرة لورى الذى اعتاد أن يتناول أطيب المأكولات ، وفى وجود مس كروكر ذات اللسان اللاذع والعين المتطفلة ، قالت تحدث نفسها :

— ليكن ما يكون ، واذا لم يعجبهم طهيى فلديهم اللحم المفروم والخبز المقدد والزبد الطازج يشبعون به بطونهم ، ولكن الذى يغيظنى حقا أن تذهب جهودى فى هذا الصباح هباءً .

واشتد الخجل بجو ، وتمنت لو انشقت الأرض فابتلعتها ، وهى ترى الصحون تتوالى على المائدة ، فما إن يتذوق الجالسون ما فيها ، حتى يتركوه جانبا ، فتضحك آمى ، ويتورد وجه ميج ، وترم مس كروكر شفتيها اشمئزازا ! أما لورى ، فكان يتحدث بنشاط ، ويروى القصص والفكاهات ، وغرضه بذلك أن يزيل التوتر السائد ، ويكسب الوليمة لونا من المرح والبهجة .

وكان فخر جو الوحيد فى تلك الوليمة الخائبة ، صحن الفراولة الذى رشته بالسكر الناعم وغطته بالقشدة المخفوقة ، فأشرق وجهها قليلا عندما وضع الصحن على المائدة ، وأقبل عليه الحاضرون كل يأخذ نصيبه منه ، وكانت مسز كروكر أول من تذوق الحلوى ، فما إن وضعت فى فمها جزءا منها ، حتى انقلبت سحنتها ، وأسرعت تشرب جرعة من الماء . والتفتت جو الى لورى ، فرأته يتناول نصيبه فى شجاعة ورجولة ،

وإن كان التواء شفتيه قد دلها على مبلغ ما يعانيه من ألم يحاول أن يخفيه • وأرادت أن تقرأ فى عينيه سر ما أصابه ، ولكنه اختار أن يتهرب من مواجهتها ، فأطرق برأسه الى صحنه ، وثبت أنظاره فى الحلوى • وكانت آمى شغوفة بهذا اللون من الطعام ، فاغترفت منه نصيبا كبيرا ، لم تكد تتذوقه ، حتى بان الانزعاج الشديد على وجهها ، فأخفت فمها بالفوطة ، وخرجت من الغرفة جريا •

صاحت جو فى حيرة وعجب :

ـ ماذا دهاكم جميعا ؟ !

أجابت ميج بحزن :

ـ لقد وضعت ملحا بدل السكر ، والقشدة مع الأسف حامضة •

ـ وتأوهت جو فى أسى بالغ ، وقد تذكرت أنها ، فى لهفتها على اعداد الفراولة ، نسيت أن تضع القشدة على الثلج ولم تنتبه الى وجود صندوق الملح بجوار صندوق السكر ، فأخذت حاجتها من الأول دون الأخير • واحمر وجهها خجلا ، واستبدت بها رغبة فى البكاء ، ولكن نظراتها تلاقت مع نظرات لورى ، وطالعتها عيناه العامرتان بالمرح ، فانكشف لها من المأساة جانبها المضحك ، فانفجرت فى عاصفة من الضحك ، حتى سالت الدموع على خديها ، وسرت العدوى الى الحاضرين ، فضحكوا جميعهم ، حتى مس كروكر الناقدة المتزمتة ، وهكذا انتهت الوليمة فى سرور ، وقنع أهل البيت وضيوفهم بالخبز والزيتون والزبد •

ونهضت مس كروكر تستأذن فى الانصراف استعدادا لنشر الخبر بين أهل الحى ، فودعتها جو الى الباب ، ثم عادت تقول :

ـ لا قبل لى على تنظيف المائدة الآن ، فهيا بنا نحتفل بدفن العصفور •

وتمت مراسم الدفن كاملة اكراما لبث ، فحفر لورى للعصفور قبرا بين ورود الحديقة وأشجارها ، وثوى جثمان الطير فيه ، وبين بكاء صاحبته ونحيبها ، ثم نثر عليه المشيعون زهور البنفسج ، ووضعوا على القبر قائما كتب فيه :

« هنا يرقد عصفور آل مارش

مات فى اليوم السابع من شهر يونيه

أحبه أصحابه وحزنوا عليه

وسوف تبقى ذكراه فى قلوبهم خالدة »

ولما انتهى حفل الجنازة ، أوت بث الى حجرتها تغالب أحزانها على عصفورها ، ولكن الوقت لم يتسع لمزيد من الحزن ، فقد حل المساء ، وآن الأوان لاعداد الفراش ، فنهضت الى عملها تفرغ همومها فى ضرب الوسائد وشد الأغطية واعادة الأشياء الى مواضعها • وتعاونت ميج مع جو على تنظيف المائدة ، وغسل الصحون ، فاستغرق العمل منهما ساعات المساء كلها ، وخلفهما تعبتين مجهدتين ، لا قبل لهما على طهى طعام للعشاء ، فقنعتا بتناول الخبز والشاى • وكانت آمى فى حالة سيئة ، إثر ما تناولته من قشدة حامضة ، فدعاها لورى الى نزهة خلوية

تخفف عنها آلام بطنها ومتاعب يومها • وعادت مسز مارش فوجدت بناتها الثلاث الكبيرات يعملن فى البيت باجتهاد ، وأقنعتها نظرة واحدة الى الخزانة المنظمة ، بأن تجربتها قد نجحت كل النجاح ، وأتت بأطيب ثمراتها •

ولم ينعم الفتيات بفرصة للراحة ، إذ أقبل على البيت بعض الزائرين ، فاستدعى الأمر مزيدا من العمل والاستعداد ، فخرجن الى السوق ، وأعددن الشاى ، وعكفن بعد ذلك على حياكة قطعة مستعجلة كانت العطلة قد شغلتهن عن اتمامها • وعندما حل الغسق ، كان البنات يتوافدن على الشرفة ، حيث تزهو براعم الصيف بجمالها ، فيرتمين على مقاعدهن تحت وطأة التعب والعناء •

قالت جو تبدأ الحديث :

— ياله من يوم عصيب !

قالت ميج :

— كان فى الحقيقة يوما عصيبا ، ولكنه انقضى سريعا •

وأضافت بث :

— وخرج البيت على ما اعتدنا عليه •

ونظرت آمى الى قفص عصفورها الخالى ، وقالت بحزن :

— وهل يكون البيت على ما تعودنا ، وليس به والدتى وعصفورى ؟

وأقبلت مسز مارش ، واتخذت مقعدها المعتاد ، وقــد بدت كأنها لم تستمتع بعطلتها • قالت لبث :

ــ ها أنا ذا أعود اليك يا عزيزتى ، وان شئت اشتريت لك غدا عصــفورا آخر •

وارتمت بث فى أحضان أمها ، وأشرقت وجــوه الفتيات فرحــا وسعادة ، قالت مسز مارش تسألهن :

ــ أترين أن نمــد العطلة أسبوعا آخر ؟

فصاحت جــو فى حزم :

ــ لا أريد مزيدا من العطلة يا أماه •

وقال أخواتها فى نفس واحــد :

ــ ولا نحن أيضــا •

قالت الأم :

ــ هل أقنعتكن التجربة بوجوب العمل قليلا ، ولذة التضحية فى سبيل الخير المشترك ؟

فهزت جــو رأسها وقالت :

ــ لقــد سئمت الرقاد والكسل ، وأريد أن أقوم ببعض العمل •

وكانت مس كروكر قــد بادرت فأخبرت مسز مارش بأمر الوليمة ومأساتها ، فقالت الأم لجــو وهى تضحك عاليا :

— ما رأيك فى أن تتعلمى شيئا من أصول الطهى ؟ إنها تسلية مفيدة ، لا غنى لامرأة عنها •

وصاحت ميج ، وقد ساورتها الشكوك فيما استهدفته أمها بتصرفاتها طوال اليوم :

— هل خرجت اليوم ، وتركتنا وحدنا ، لتختبرى قدرتنا على تصريف الأمور ؟

قالت :

— نعم يا بنيتى ، فقد أردت أن تدركن أن لا راحة لانسان ما لم يؤد واجبه ، ويقم بنصيبه من العمل مخلصا • كان تعاونى مع حنا على تصريف شئون البيت ، يسهل لكن الحياة ولا يسعدكن ولا يرضيكن ، فأردت أن تتعلمن بالتجربة كيف تتقلب الأمور ، اذا سلكت كل واحدة منكن سبيلها ، ولم تفكر إلا فى نفسها • إن الحياة أخذ وعطاء ، وبغير العمل تفقد الراحة جمالها •

صاح الفتيات معا :

— صدقت يا أماه ، صدقت !

قالت :

— إن العمل وجه للحياة مفيد ، ومن الخير أن نقوم بنصيبنا منه • ومهما بدا متعبا ثقيلا ، فهو مقتلة للملل ، وفيه انعاش للروح ، وفيه أيضا قوة معنوية لا تغلب •

قالت جـو :

ـ سترين من اليوم كيف نعمل باجتهاد ، وكيف نؤدى واجباتنا مخلصات ، وسأعمل بنصحك يا أماه ، فأتعلم الطهى خـلال عطلتى ، لأنجح كل النجاح فى وليمتى القادمة •

قالت ميج :

ـ ويسعدنى أن أحيك قمصان والدى بدلا منك ، يا أماه ، وأشغل نفسى عن التذمر والشكوى بمثل هـذا العمل المفيد •

وقالت بث فى عزيمة :

ـ لا أرى داعيا لاضاعة الوقت فى الموسيقى واللعب ، ومن الخير أن أدرس وأجتهـد •

قالت آمى ، وقـد راقتها بطولة أختها بث :

ـ أما أنا فأتعلم عمل العراوى ، وأعد بأن أحترس فى اختيـار الألفاظ النحوية الصحيحة •

قالت مسز مارش :

ـ عظيم •• يسرنى أن نجحت التجربة ، ولم نعد فى حاجة الى تكـرارها ، ولكنى لا أرى أن تندفعن فى العمـل ، فترهقكن كالإمـاء أجسادكن • ونصيحتى أن تنظمن أوقاتكن ، وتوزعنها بين العمل واللهو ، حتى يمضى بكن اليوم مفيدا ممتعا • أحسن استغلال الوقت تستمتعن

بشبابكن ، ولا تحزن ّ فى مشيكن . فتصبح الحيــاة ناجحة رغم الفقــر والحاجــة •

قال الفتيات فى حماسة :

ــ سنذكر نصيحتك الى الأبد ، يا أمــاه •

وبالفعل تذكرن ، وعملن دائما بنصـــيحة آمهن •

الجزء الثاني

الفصل الثانى عشر

معسكر لورنس

كانت بث ، بحكم وجودها فى البيت معظم الوقت ، قد اعتادت أن تقوم بتوزيع البريد على أفراد الأسرة ، وكانت أحب مهمة اليها أن تتوجه الى صندوق البريد كل يوم ، فتفتح بابه الخشبى الصغير ، ثم تحمل محتوياته الى صاحباتها •

وفى يوم من شهر يولية دخلت البيت ، وقد امتلأت يداها بما وجدته فى الصندوق من رسائل ولفافات ، وطافت بأهلها تعطى كلا نصيبه منها ، وكان بين ما تحمله باقة أزهار بعث بها لورى الى مسز مارش ، على ما اعتاد أن يفعل دائما ، فوضعتها فى إناء زجاجى حملته إلى حيث تجلس أمها وقالت :

— هاك بريدك يا أماه • ان لورى لا ينساه أبدا •

والتفتت الى ميج ، وكانت تطرز بجوار أمها ، وقالت لها :

— جاءك خطاب وفرد قفاز كتب عليه « الى الآنسة ميج مارش » •

فنظرت ميج الى القفاز الرمادى ثم قالت :

— عجبا ! لقد تركت فى صندوق البريد زوج قفاز . فلماذا جئتنى بفرد واحد ؟ ألا يحتمل أن تكونى قد أسقطت الثانى فى الحديقة ؟

فقالت بث :

— لم يكن فى الصندوق سوى فرد فقط ، وأنا واثقة من ذلك كل الثقة •

ــ لا بأس عليك ، وربما وجدنا الآخر فى مكان ما •

وفتحت الخطاب الذى أتتها به بث ، وقرأت محتوياته ثم قالت :

ــ هذه ترجمة الأغنية الألمانيـــة التى كنت قد طلبتها من لورى ، وأغلب الظن أن مستر بروك هو الذى كتبها ، فليس هذا خط لورى •

وتطلعت مسز مارش الى ابنتها بإعجاب وحنان ، وكانت ميج تطرز أمام منضدة ازدحمت فوقهـا كرات الخيط وأدوات التطريز ، وقــد تهدلت خصـــلات شعرها على جبينها المشرق ، فبــدت فى ثوب الصباح الأبيض صورة حية للأنوثة والجمال • ولم تشعر الفتاة بما يجـــول بخاطر أمهـــا ، إذ كانت فى شغل شاغل بتطريزها ، تؤديه فى حماســة واهتمام ، وهى تترنم بأغنية عذبة ، وقد سرح بها خيالها الى أحــلام تحاكى فى براءتها وطهرها ، تلك الأزهار النضيرة التى تزين بها ثوبهـــا • وامتلأت نفس مســز ملرش غبطة وسرورا بحسن ابنتهـــا وبراءتها ، فانفرجت شفتاها عن بسمة ملؤها الرضا والاطمئنان •

وبينما كانت مسز مارش غارقة فى تأملاتها ، هرعت بث الى غــرفة المكتبة تبحث عن أختهـــا جو ، فلما وجدتها تجلس فى ركنها المعتاد ، قالت لها ضاحكة :

ــ جاءك كتاب وخطابان ، ثم قبعة عتيقة مضحكة الشكل ، كانت تملأ صندوق البريد وتبرز من جوانبه •

قالت جـــو :

ــ يا للفتى الماكر ! قلت له انى أتمنى لو تعود « مودة » القبعـــات الواسعة ، حتى يمكننى أن أحمى بشرتى من فعــل أشعة الشمس التى

تحرقنى فى الأيام الصحوة ، فسألنى لماذا أهتم بما يلبسه غيرى ؟ ولم لا أغطى رأسى بقبعة واسعة مادمت أشعر بالحاجة اليها ؟ فأكدت له أنى لا أهتم مطلقا بمثل هذه الاعتبارات النسائية التافهة ، ولو كنت أملك قبعة واسعة ما ترددت فى الخروج بها على سبيل التفكهة • وها هو ذا يتحدانى فيرسل الى بواحدة •

ووضعت القبعة على رأس تمثال نصفى فى غرفة المكتبة ، ثم شرعت تقرأ الخطابين ، وكان أحدهما من أمها ، فما ان تلت سطوره المعدودة حتى أحمر وجهها تأثرا واغرورقت عيناها بالدموع ، فقد كتبت أمها تقول :

عزيزتى :

يسرنى أن أكتب اليك كلمة صغيرة ، أعبر لك فيها عن مزيد غبطتى وسرورى بما تبذلينه من جهود مشكورة فى ترويض مزاجك الحاد • ورغم أنك لا تتحدثين عن كفاحك فى بلوغ غايتك ، ولا تذكرين شيئا مما تلاقين من توفيق أو اخفاق ، راضية باخفاء شجونك وشئونك ، إلا عن صديقك الأوحد ، كتاب النصائح ، الذى تسألينه الهداية فى إخلاص وايمان ، فقد أمكننى بغير جهد أن أشاهد كفاحك النفسى فى تلك الصفحات التى بليت لكثرة ما قرأتها ، وألمس النتائج الطيبة التى وصلت اليها فى سعيك الى الارتفاع بنفسك فوق سقطات الغضب والاندفاع ، فسيرى يا بنيتى فى جهادك موفقة باذن الله ، وتسلحى دواما بالصبر والشجاعة ، وثقى أن أكثر من يشاركك فى وجدانك هى أمك التى يمتلىء قلبها بحبك •

« أمك »

وأسندت جو رأسها الى ذراعيها ، وانهمرت دموع الفرح من مقلتيها على صفحات الكتاب الذى كانت تقرؤه • قالت تحدث نفسها :

ــ كلماتك يا أمى أثمن عندى من ملايين الجنيهات ، وأغلى من أكوام المديح والثناء ، ومادمت الى جانبى ، فلن أكف عن الجهاد ، ولن ينالنى اليأس بحـال من الأحوال •

وكانت تظن أنها تجاهد وحدها ، ولا من يعلم بجهادها أو يقدره ، فلما جاءتها رسالة أمهـا ، اطمأنت الى أنهـا ليست فى هذه الحيـاة وحدها ، مادامت تلك العين الرحيمة ترعاها • وقد ضاعف من تأثرها بهذه الرسـالة أنهـا لم تكن تنتظرها أو تتوقعهـا ، وان كانت تكن لأمهـا أخلص الحب والتقدير • ومنحها الخطاب عزيمة جديدة تعينها على قهر شيطان الشر ، فطوته وشبكته بدبوس فى ثوبهـا ، كتعويذة تقيهـا من الزلل • وأقبلت على الرسـالة الثانية تفضها وهى على تمـام الاستعداد لمـا قد تحـويه من خـير أو من شر ، ولكن خـط لورى الكبير طالعها يقـول :

« عزيزتى جو :

دعوت بعض أصدقائى وصديقاتى الانجليز لزيارتى غدا ، وأحب أن نقضى معا وقتا ممتعا ، وأملى أن يكون الجو صحوا فنقيم مخيما فى « لونج ميدو » • وسوف نعبر النهر الى المخيم فى قوارب ، وهناك نلعب الكريكيت ثم نشـعل النـيران لنطهى طعامنا بأنفسـنا على الطريقـة البوهيمية •

انى أرحب بحضوركن جميعا ، ولن أقبل اعتذارا من بث ، فطمئنيها الى أن أحدا لن يضايقها ، وسيتولى بروك الاشراف على النظام ، وتعنى

كات فون براحة الفتيات ، وستجدن أن أصدقائى جماعة مرحة طيبة • وأرجو أن لا تحضرن معكن شيئا ، فقد أعددت كل صغيرة وكبيرة مما نحتاج اليه ، ولست أنشد غير صحبتكن الممتعة ، فلا تخيبن ظنى ، وكن كعهدى بكن زميلات طيبات •

أودعك على كره ، الى الموعد المضروب

من لورى صـديقك المخلص الودود »

وهرعت جو تحمل الخبر المثير الى ميج ، وصاحت بها تقول :

ــ هكذا تكون الدعوات وإلا فلا ! ولن تمنعينا من الذهاب طبعـا يا أماه ، فسيكون وجودنا عونا للورى ، فأنا أسـاعده فى التجديف ، وميج تتولى اعـداد الطعام ، وتقـوم الصغيرتان بالأعمال الأخـرى البسـيطة •

سألتها ميج :

ــ أتعرفين شيئا عن آل فون ؟ أرجو أن لا يكونوا من المتغطرسين •

أجابت جو :

ــ كل ما أعرفه عنهم أنهـم أربعـة من الانجليز : كات وهى أكبر منك سنا ، ثم التوأمان فريد وفرانك وهما فى مثـل عمرى ، أما جريس ففى التاسعة أو العاشرة • لقد قابلهم لورى فى الخارج ، وأعجب بخلق الصبيين . ولكنى فهمت من التواء شفتيه أثناء حديثه عن كات ، أنـه لا يميل اليهـا •

فقالت ميج فى اغتباط ظاهر :

ــ يسرنى أن ثوبى الفرنسى المنقوش مازال فى حالة جيدة ، فضلا عن أنه يلائمنى تماما ، فهل لديك ما ترتدينه يا جو ؟

قالت :

ــ عندى ثوب التجديف الرمادى ، وفيه الكفاية ، فلست أحتاج الى ثوب منشى مادمت أنوى أن أستمتع بيوم رياضى .

والتفتت الى بث تسألها :

ــ أتأتين معنا يا بث ؟

أجابت :

ــ نعم ، ولكن بشرط أن لا يبادلنى الحديث أحد من الفتيان .

قالت :

ــ لن أسمح لهم بذلك .

فقالت بث :

ــ أحب أن أفعل كل ما يسر لورى ، ولست أخشى مستر بروك فهو رجل طيب ، ولكنى أكره أن ألعب أو أغنى أو أتكلم فى حضرة الغرباء . سأقوم بنصيبى من العمل كاملا ، ولن أضايق أحدا . وما دمت تعنين بى يا جو فلا أرى مانعا من الذهاب .

قالت جو :

ــ هذا كلام جميل ، وهكذا تحاربين خجلك ، وتعجبنى فيك تلك الرغبة الشديدة فى التغلب على ضعفك ، فليست المعركة بين المرء وأخطائه بالأمر الهين . والتشجيع يمنحنا قوة على الكفاح .

وسارت جو الى أمهـا ، فطبعت على خدها الضامر ، قبلة عامرة بالشكر ، وقالت :

ــ شكرا لك يا أماه •

ولو عاد الشباب لمسز مارش ما اغتبطت به مثلما اغتبطت بقبـلة ابنتهـا المحبة•

قالت آمى وهى تبرز ما جـاء به البريد اليها :

ــ أما أنا فقد وصل إلىّ صندوق من الشيكولاته ، وصورة أود أن أنسـخها •

قالت بث ، وكانت صـداقتها مع مسـتر لورنس العجـوز قـد توطدت :

ــ وأنا تلقيت بطاقة يدعوني فيها مستر لورنس أن أعـزف لـه الليلة ، ويسرنى أن ألبى دعوته •

نهضت جو تستبدل القلم بالمكنسة وتقول :

ــ هيا بنا نؤد عمل اليوم وغـد ، حتى نذهب الى الرحلة وليس بنا ما يشغلنا أو يقلق بالنا •

وفى صبيحة اليوم التالى أرسلت الشمس أشعة صافية تنبىء بيوم صحو جميل ، وتسلك الأشعة الى غرفة الفتيات ، فكشفت عن منظـر طريف : فقد كانت كل واحدة منهن قد استعدت للرحلة المرتقبة بطريقتها المميزة ، فزحمت ميج رأسها بخصلات ملفوفة ، ودبابيس مجعدة للشعر ، وطلت جو وجهها بطبقة كثيفة من دهان مرطب للجلد ، واحتضنت بث

دميتها جوانا طول الليل لتعوضها عن فراق اليوم الطويل ، أما آمى فقد ضغطت أنفها بمشبك من مشابك الرسم ، حتى تلتم فرطحته ويبدو صغيرا جميلا أمام ضيوف لورى • وكأن منظر الفتيات قد سر الشمس وأضحكها ، فأضاءت أشعتها الحجرة ، وعندئذ استيقظت جو من نومها العميق ، وقامت الى أخواتها تستحثهن على النشاط ، فلما رأت ما فعلته آمى بأنفها انطلقت تضحك عاليا •

وكانت الشمس المشرقة والضحكات السعيدة فألا حسنا يبشر بيوم سعيد ، فسرعان ما دبت الحركة ونشطت فى المنزلين • وكانت بث أول من ارتدت ملابسها ، فوقفت خلف النافذة ترقب ما يحدث فى البيت الآخر ، وتنقل الأخبار الى أخواتها فى عبارات مرحة مقتضبة وجعلت تقول :

ــ هذا رجل يحمل خيمة ••• أرى مسز باركر ترتب الطعام فى سلة كبيرة ••• ها هو ذا مستر لورنس يتأمل السماء ويدرس اتجاه الرياح ••• فليته يأتى معنا ••• كم يبدو لورى أنيقا فى ملابس البحارة ! ••• أقبلت عربة ملأى بالأشخاص : سيدة طويلة ، وفتاة صغيرة ، وصبيان فظيعان ••• يا للمسكين ! ان أحدهما أعرج ، وفى يده عصا يتوكأ عليها ••• انى أرى ند موفات أيضا ••• انظرى يا ميج ، أليس هذا هو الرجل الذى حياك يوما عندما كنا فى السوق ؟

وأسرعت ميج الى النافذة تطل منها وتقول فى اغتباط :

ــ انه هو ، ويدهشنى أن حضر ، فقد سمعت أنه مسافر الى الجبال •••• وهذه سالى أيضا ، يسرنى أن عادت فى الوقت المناسب •

والتفتت الى أختها تقول :

— اصدقينى القول يا جو ، هل أبدو على ما يرام ؟

قالت جو :

— كأنك زهرة يانعة ، ولكن ارفعى ثوبك قليلا ، وأصلحى وضع قبعتك ، فلست أراها مستقرة على رأسك ، وأخشى أن يطير بها الهواء . والآن هيا بنا ...

وتناولت جو القبعة العتيقة الواسعة ، التى كان لورى قد بعث بها اليها على سبيل المزاح ، فوضعتها على رأسها ، وثنت طرفها بشريط أحمر ، فصاحت بها ميج تقول فى احتجاج شديد :

— لا .. لا .. يا جو ، لا يصح أن تلبسى هذه القبعة ، انها قبيحة المنظر مضحكة ، وشكلك فيها كالفتى !

قالت جو ، وهى تنصرف عن الغرفة مطمئنة :

— وهل يضيرنى أن أبدو كالفتى ؟ لا يهمنى أن تكون القبعة جميلة الشكل أو قبيحته ، ويكفينى منها أنها تحمينى من الشمس ولا تثقل رأسى .

وخرج الأخوات الأربع جنبا الى جنب ، وكأنهن باقة من الورود البشرية اليانعة ، وكن يرتدين ثيابا صيفية أنيقة ، وقد فاضت وجوههن التى تظلها القبعات بأبلغ أمارات السعادة والاغتباط .

واستقبلهن لورى مرحبا ، وقدمهن الى أصدقائه فى أدب واحترام ، فلما انتهت مهمة التعارف ، جلسن مع الضيوف الآخرين على المرج الأخضر ، الذى استعاض به صاحب الدار عن غرفة الاستقبال .

وشعرت ميج بمزيد من الراحة والاطمئنان عندما شاهدت مس كات ، وكانت فى العشرين من عمرها ، ترتدى ثيابا أمريكية بسيطة ، ولكنها أدركت نفورها لماذا التوت شفتا لورى عندما كان يتحدث عنها الى جو ، فقد كانت الفتاة متكبرة متغطرسة ، فيها غرور لا يتفق مع ما عرف عن بنات لورنس من تواضع مستحب • واكتملت سعادة ميج بوجود ند موفات ، وأثلج صدرها قوله لها بأنه لم يحضر إلا من أجل رؤيتها •

ووجدت بث بعد أن راقبت الفتيان بعض الوقت أن الصبى الأعرج لطيف المعشر ، وليس فظيعا كما تراءى لها وهى تطل من نافذتها • وكان ضعيفا بعاهته فاستقر رأيها أن تكون صديقة له ، وأن ترعاه طوال الرحلة برفق وحنان • أما آمى فقد رأت فى جريس فتاة مهذبة مرحة ، فتبادلت واياها النظرات ، وسرعان ما تآلف قلباهما وأصبحتا صديقتين •

وكانت الخيام وسلال الطعام وأدوات لعبة الكريكيت قد سبقت المدعوين الى المعسكر ، فلما اكتملت الجماعة ، استقل الفتيان والفتيات قاربين ، ودلفوا بهما الى النهر معا ، تاركين مستر لورنس العجوز على الشاطىء يودعهم ملوحا بقبعته • وتولى لورى وجو التجديف فى أحد القاربين وتولى مستر بروك وند القارب الثانى ، أما فريد التوأم الثائر فقد جعل يضرب الماء بيديه على غير هدى حتى كاد يقلب القارب بمن فيه • وحازت قبعة جو اعجاب أصدقائها وصديقاتها ، وأدت خدمات جليلة كان لها أثرها فى نجاح الرحلة • وكان من أفضال هذه القبعة ، أنه عندما دخلت بها جو الى الضيوف لأول مرة انفجروا فى عاصفة شديدة من الضحك ، كانت بداية طيبة لازالة التوتر ورفع

الكلفة وكذلك كانت حركاتها وانثناءاتها مع الهواء كلما جدفت جو مثارا للمزاح والتسلية •

ودهشت كات لأسلوب جو فى الحديث ، وعجبت عندما رأت لورى يطأ قدمها خطأ فيعتذر اليها قائلا : « فتاى العزيز •• هل آذيت قدمك ؟ » ، ولكن قلبها مال اليها لغرابة أطوارها ومهارتها ، فاستقر رأيها أن تكون صديقة لها ، ومن ثم جعلت تبتسم لها فى كل فرصة ممكنة •

وكانت ميج تجلس فى نهاية القارب الآخر ، وفى مواجهتها يجلس المعجبان بها ، يتأملان جمالها ويجدفان فى حماسة ومقدرة • وكان مستر بروك شابا هادىء الطبع متزنا ، له عينان عسليتان وصوت متئد رخيم ، وكانت ميج تعجب بخلقه الكريم ، وتعتبره موسوعة علمية ثمينة • وبالرغم من أنه جلس أمامها صامتا ، لا يبادلها الحديث إلا قليلا ، فقد ظلت نظراته عالقة بوجهها ، لا تتحرك عنه كأنه لا يرى فى القارب غيرها • وكان ند موفات قد التحق بالجامعة أخيرا • فاختار أن يتشبه بالفرنسيين فى أخلاقهم وأحوالهم ، ولاءمه هذا التشبه ، فكان رفيقا مؤنسا ، رغم تفاهة عقله • أما سالى جاردنر فلم يك يعنيها سوى المحافظة على ثوبها الأبيض الأنيق ، وظلت تثرثر مع فريد الذى أرسل الرعب فى قلب بث ، من جراء حركاته العنيفة وقفزاته الخشنة •

ولم تكن المسافة الى لونج ميدو طويلة ، فسرعان ما وصل المركب الى الوجهة المنشودة ، فوجدوا أن الخيمة قد نصبت ، وأطواق الكريكيت غرست فى الأرض استعدادا للعب ، وكان المعسكر جميلا فسيحا ، اكتست أرضه ببساط سندسى تظله ثلاث أشجار بلوط كبيرة

فى الوسط ، ويمتد فيه شريط ناعم من العشب للكريكيت • وقفز الضيوف من القاربين الى الشاطىء ، وهم يهللون فى سرور ، فقال لهم لورى :

ــ مرحبا بكم فى معسكر لورنبس • ان بروك قائد هذا المعسكر ، وأنا أركان حربه ، وبقية الفتيان ضباطه ، أما السيدات فضيوفنا • وقد نصبنا الخيمة خصيصا لراحتكم • ستكون قاعــة الاســتقبال فى ظــل الشجرة ، وتحت الشجرة الأخرى مخزن المؤن والحاجات ، والمطبخ فى ظل الشجرة الثالثة • وأقترح أن نلعب مباراة فى الكريكيت قبل أن تشتد حرارة الشمس ، وعندما ننتهى منها ننظر فى أمر الطعام •

وجلس فرانك وبث وآمى وجريس على الحشائش لمشاهدة اللاعبين ، واختار مستر بروك ميج وكات وفريد زملاء له ، كما اختار لورى سالى وجو وند ، وبدأ الانجليز اللعب بداية حسنة ، ولكن الأمريكيين لم يلبثــوا أن تفوقوا عليهم خطوة خطوة ، كأنما قــد عادت اليهم روح الكفــاح التى نصرت شعبهم على الانجليز عام ١٧٧٦ • وتعكر الجــو بيز جــو وفريد ، فقد ضربت الفتاة آخر كرة لها فغاظها أن أخطأت الهــدف • وضرب الفتى كرته فحادت عن الخط الصحيح مسافة صــغيرة ، ولكن الفتى أسرع وراءها ليتتبع سيرها عن قرب ، وكان الهــدف بعيدا عن اللاعبين ، فانتهز هــذه الفرصة ودفع الكرة بقدمه دفعة خفيفة وجهتها التوجيه الصحيح • وهنا صاح قائلا وهو يلوح بصولجان اللعب :

ــ لقد أصبت الهدف يا مس جو ، وبهذا أبدأ الدور قبلك •

قالت الفتاة فى حــدة :

ــ بل أنا التى أبدأ قبلك ؛ فقد رأيتك تدفع الكرة بقدمك •

قال :

ــ أؤكد لك أنى لم أحركها ، ولعلها تدحرجت قليــلا من تلقــاء ذاتها ، فابتعدى من فضلك ، ودعينى أكمل دورى •

فقالت غاضــبة :

ــ امض فى اللعب إن شئت ، ولكننا لا نعرف الغش فى أمريكا •

فقال وهو يزيح كرتها بعيدا :

ــ بل الأمريكيون أكثر الناس خديعة وغشا !

وفتحت جو فمها ، وازدحمت الشتائم المقذعة على لسانها ، ولكنها أمسكت عن الكلام فى الوقت المناسب ، وقــد احتقن وجههــا غضــبا وثورة •

وبينما مضى فريد فى اللعب حتى انتهى من الشوط ، ظلت جــو فى مكانها تضرب الأرض بصولجانها ، وفى يدها رجفة تدل على بالغ حنقها • وأعلن فريد انتصــاره فى زهو وفخار ، فابتعدته جــو متظاهرة بالبحث عن كرتها ، وغابت لحظات تضرب فى المرج على غير هــدى ، حتى اذا سكن جأشها ، عادت الى إخوانها هادئة • وبدأ شوط جــديد ، فضاعفت جــو جهودها لتسترد مكانتها ، فلما حالفها الحظ ، وأوشكت أن تنتهى منتصرة ، صاح فريد يقول لأخته منفعــلا :

ــ لم يبق لها إلا كرة واحدة ثم تنتصر ، لقد خسرنا الدور يا كات وانتهى أمرنا •

وألقت جو على الفتى نظرة جعلت دماء الخجل تتصاعد الى وجهه وقالت :

وقالت :

— ان للأمريكيين أساليب فى التسامح مع خصومهم ، خصوصا اذا كانت الهزيمة نصيب هؤلاء الخصوم ! •

وقذف لورى قبعته فى الهواء احتفالا بالنصر ، ثم عاد فتذكر أنه ليس من حسن الأدب أن يحتفل بهزيمة ضيوفه ، فحبس صيحات الفرح فى فمه ، وهمس فى أذن صديقته يقول :

— أحسنت فى تأديبه يا جو ، فقد رأيته يغش ، بيد أنى لم أتكلم تأدبا ولكنك لقنته درسا لن ينساه ، وأعتقد أنه لن يعود الى الخديعة مرة أخرى •

واقتربت ميج من أختها جو وتظاهرت بأنها تعينها على اصلاح هندامها ، وهمست فى أذنها قائلة :

— لقد كان سلوكه مشينا ، ولكنك احتفظت بسلوكك ، ولم تطلقى العنان لغضبك ، وأنا فخورة بك يا جو :

فقالت جو وهى تعض على شفتها فى غيظ وتسترق النظر الى غريمها فريد :

— لا تمدحينى ، فما زالت مراجل الغضب تغلى فى صدرى ، وبودى لو استطعت أن أعرك أذنه مؤدبة ، لست أدرى كيف كان ينتهى الموقف لو لم أبتعد عنه متظاهرة بالبحث عن كرتى •

قال مستر بروك وهو يتطلع الى ساعته :

— حان وقت الغداء ، فهيا يا أركان الحرب الى النار توقدها ،

ولا تنس أن تحضر لنا مـاء • أما أنا فسأعد مائدة الطعام ، وسأطلب الى مس مارش ومس سالى أن تساعدانى فى هذا العمل ، من منكم يتقن عمل القهـوة ؟

قالت ميج فخورة بأن تزكى احـدى أخواتها :

ـ ليس من يصنع القهوة مثل جـو •

وهكذا أتيح لجو أن تستفيد بدرس الطهى التى تلقتها فى المـدة الأخيرة ، فقامت الى القهوة تعـدها ، وتطـوع معظم أفراد المعسـكر لمعونتها ، فأتاها الصغار بحطب للوقود ، وحمل لها الكبار ماء من الينبوع ، وعكفت مس كات على لوحاتها ترسم المناظر الخلابة التى تراها حولها ، وانشغل فرانك بالحديث مع بث التى جعلت تجـدل من فروع الأشجار وأوراقها صحونا للطعام • وسرعان ما هيأ القائد بمعونة مساعديه مائدة للطعام بديعة الترتيب ، رصت فوقها المأكولات والمشروبات وقد زينت بأوراق الأشجار الخضر • وعندما انتهت جو من اعداد القهوة ، جلس الضـيوف الى المائدة يأكلون فى حماسة وهمة ، لأن الشباب لا يعرف سوء الهضم إلا نادرا •

وكانت الوليمة مرحة عامرة بأسباب البشر والسرور ، وقد تخللتها عواصف الضحك مرات كثيرة ، حتى انزعج الحصـان الذى كان يرعى الحشائش على مقربة من الجماعة • وتتوالى الأحداث الصغيرة المضحكة ، لتضاعف مرح الفتيان والفتيات . فتسـقط الحشرات فى أكواب اللبن ، ويأكل النمل الأسود الحلوى دون أن يدعى الى الوليمة ، وتنحدر بعض الديدان من أفرع الشجرة لتستطلع ما يجرى تحتها • ومن وراء السياج القريب ، وقف ثلاثة أطفال يسترقون النظر الى الآكلين فى ظل الدوحـة

الباسقة ، ومن الضـفة الأخرى للنهر ظل كلب عنيد يحتج فى نباح ملح مستمر •

قال لورى مازحا ، وهو يعطى جو صحنا من الفراولة ، ويذكرها بما فعلته يوم وليمتها المشهورة •

— اذا كنت تفضلين الفراولة بالملح فلدينا ملء علبة منه •

قالت وهى تلتقط عنكبين غرقا فى القشدة المخفوقة :

— شكرا لك ! إنى أفضل الفراولة بالعناكب ، ولست أرى من اللياقة أن تذكرنى بأكلتى البشعة ونحن أمام هذه الوليمة الفاخرة •

وكانت الصحون النظيفة قد نفدت ، فجعل الاثنان يأكلان الفراولة من صحن واحد •

وبعد أن انتهى الأصحاب من تناول الطعام ، شعر لورى أن أبهج ما فى اليوم قد مضى ، فقال لجو :

— كان يوما فريدا فى متعته ، والفضل لك ولميج وبروك ، فلولاكم ما نجحت النزهة كل هذا النجاح ، ولكنى أخشى ، وقد انتهينا من تناول الطعام ، أن لا نجد ما نفعله خلال الساعات الباقية •

قالت :

— أقترح أن قوم ببعض الألعاب المسلية ، وقد أحضرت معى لعبة المؤلفين ، ولكنى أفضل أن تستطلع رأى مس كات ، فلعلها ترشدنا الى لعبة جديدة • اذهب اليها واسألها ، ورأيى أن تبقى بجانبها بعض الوقت ، فهى فتاة لبقة بارعة ، ومن واجبك كمضيف أن تعنى بها وتجاملها •

قال :

— أو لست بدورك لبقة بارعة ؟ لقد تركتها لبروك ، ولكنه انصرف عنها الى ميج ، فقنعت بأن تنظر اليهما من خلال نظاراتها المضحكة ، ولكنى سأذهب اليها على كل حال لأننى أعرف واجبى ، ولست فى حاجة الى نصائحك •

وقد أصابت جو فى حدسها ، إذ كانت مس كات تعرف ألعابا جديدة طريفة ، فلما أبى الفتيات مزيدا من الطعام ، ولم تتسع بطون الفتيان لمزيد منه ، وانتقلوا الى مكان الجلوس تحت شجرة البلوط ، ليستمعوا الى مس كات ، وهى تشرح لهم لعبة « القصة » ، قالت :

— إنها لعبة لطيفة ، واذا أحسنا القيام بها اجتمعت لنا قصة كبيرة مملوءة بالحوادث المحزنة والمواقف المضحكة • والطريقة أن يبدأ أحدنا بقصة ما ، فيروى لنا ما يعن له من حوادثها ، فاذا وصل الى موقف مثير ، سكت فجأة ، وترك لمن يجلس بجانبه أن يمضى بها من حيث انتهى ، وهكذا تستمر القصة ، كل يروى جزءا منها بطريقته الخاصة ، حتى تنتهى بانتهاء اللاعبين •

ثم التفتت الى بروك وقالت له فى لهجة آمرة ، أدهشت ميج التى كانت تكن له كل تجلة واحترام :

— هيا ابدأ يا مستر بروك •

وكان مستر بروك يرقد على الحشائش عند أقدام الفتاتين ، فلم يتحرك من مكانه ، وبدأ يروى القصة ، وقد اتجهت عيناه العسليتان الجميلتان نحو صفحة النهر التى تلمع تحت أشعة الشمس المشرقة • قال :

— يحكى أن فارسا فى قديم الزمان ، خرج يبحث عن الحظ والمال ، وليس معه سوى سيفه ودرعه • وتلقفته الصعاب ثمانية وعشرين عاما ، قضاها فى السفر والترحـــال ، ثم قادته قدماه ذات يوم الى قصر ملك طيب القلب ، يقتنى جيادا كثيرة من بينها مهر جميل عنيد استعصى عليه قياده ، فرصد مكافأة لمن ينجح فى ترويضـــه • وقبل الفارس أن يجرب حظه مع المهر العنيد طمعا فى المكافأة • وكان من حسن حظه أن استأنس اليه الجـــواد وأسلس له قياده ، فكان يمتطيه كل يوم ليدربه ، ويسير به فى طرق المدينة ، وهو يقلب النظر حوله باحثا عن وجـــه جميـــل ، طالمـــا داعب أحلامه • وبينما كان يتروض بالمهر ذات يوم ، فى درب هادىء بعيد ، رأى الوجه الذى ينشده يطل عليه من نافذة قلعة خربة ، فاستخفه الفرح ، وراح يسأل الناس عن سكان هذه القلعة • فقالوا له : إنهن أميرات سجينات ، ضرب حولهن نطاق من السحر لا خلاص منـــه إلا بفـــدية كبيرة ، ولذلك يقضين الأيام فى الغزل والنسج ، حتى يجتمع لهن مـــال الفدية المطلوبة • وكان بود الفارس أن يحرر السـجينات ، ولكنه كان فقيرا ، لا يملك مالا كثيرا أو قليلا ، فقنع بمتعة النظر ، وظل يمر بالقلعة كل يوم ليمتع عينيه بمرأى الوجه الجميل • وأخيرا اعتزم أن يدخل القلعة ، ليعرض خدماته على سجيناتها ، فطرق البـــاب الذى ما لبث أن انفتح عن •••

وسكت بروك فجأة ، فمضت كات بالقصة دون تردد ، قالت :

وما لبث الباب أن انفتح عن سيدة رائعة الجمال • عندما رأته يقف أمامها صاحت به قائلة : « ها أنت ذا جئت أخيرا ! » • قال الكونت جوستاف وهو يركع أمامها : « إنها حبيبتى » ، فمدت اليه يدا مرمرية تعينه على النهوض وقالت : « قم أيها الفارس ! » فقال : « لن أقـــوم

حتى ترشدينى كيف أنقذكن » • قالت : « لن تستطيع إنقاذى وأسفاه ! فقد كتب علىّ حظى العاثر أن أبقى هنا حتى يهلك الطاغية الذى سحرنى » قال : « وأين هذا الوغد ؟ » قالت : « فى البهو الأرجوانى ، فاذهب اليه يا ذا القلب الشجاع ، وأنقذنى من شروره وآثامه » • قال : « سألبى رغبتك يا أميرتى وأذهب اليه لأنتصر عليه أو أموت بيده » • واندفع الفارس متحمسا نحو البهو الأرجوانى ، فلما وصل الى بابه فتحه على مصراعيه ، وما كاد يخطو خطوة الى الأمام ، حتى تلقى •••

وسكتت مس كات عن الرواية فجأة ، فقال ند :

— ضربة قاصمة من هراوة ضخمة ، قذفه بها عجوز يرتدى جلبابا أسود ، ولكن سرعان ما استرد صديقنا صوابه ، فهجم على الطاغية ، وحمله بين يديه ، وقذف به من النافذة ، ثم ارتد عائدا الى أميرته ، وقد تورم جبينه من أثر الضربة ، فاذا به يجد أن باب البهو الأرجوانى قد أقفل عليه ، وانسدت أمامه مسالك العودة ، فجدل من الستائر سلما يعينه على النزول من النافذة الى الطريق • وما إن توسط المسافة نحو الأرض حتى انقطع السلم ، فهوى الفارس فى خندق يبلغ عمقه عشرين مترا ، وغاص رأسه فى مياهه الآسنة ، ولكن سرعان ما تغلب على محنته ، فطفا فوق سطح الماء ، وظل يسبح حول القلعة ، حتى وجد بابا صغيرا يحرسه جنديان سمينان ، فانقض على رأسيهما وضرب الواحد منهما بالآخر فكسرهما الى قطع صغيرة • وضرب الباب بكتفه الهرقلية ، فتحطم لأول ضربة ، وتناثرت شظاياه • ثم دخل الفارس الى دهليز مظلم تسعى على أرضه المتربة هوام طول الواحد منها مثل قبضة اليد ، وعناكب يرتجف لضخامتها قلب مس مارش ، وقادته قدماه الى سلم عتيق ، ولما صعد الى آخر درجاته طالعه منظر يجمد له الدم فى العروق ، فقد رأى ••••

وسكت ند فجأة • فقالت ميج :

ــ شبحا طويلا ، تغطيه ثياب بيضاء فضفاضة ، وقد أسدل على وجهه نقابا ، وأمسك بيده مصباحا • وأشار الشبح الى الفارس ليتبعه ، وتقدم الى الأمام كأنه يسبح فى الهواء ، ومن خلفه سار الفارس فى درب مظلم بارد ، تقوم على جانبيه تماثيل تلبس دروعا حديدية ، وكان السكون شاملا ، والبرد قاسيا والمصباح يبعث فى الدرب نورا خافتا ، وبين حين وحين كان الشبح يلتفت الى الفارس ، فتلمع عيناه المخيفتان من وراء قناعه الأبيض • وأخيرا وصــل الاثنان الى باب أسدلت فوقه الستائر ، وانبعث من ورائه أنغام موسيقية عــذبة ، فتقدم الفارس نحــو الباب مندفعا ، ولكن الشبح رده الى الوراء مهددا ، ثم قــدم له •••

وسكتت ميج ، فاستطردت جو تقول فى لهجة حزينة :

ــ ثم قدم له علبة سعوط ، فشكر الفارس الشبح ، وأخذ قليلا من السعوط بين أصبعيه واستنشقه ، فعطس سبع عطسات ، انفصــل لشدتها رأسه عن جسده ، واسترق الشــبح النظر من ثقب الباب الى السيدة التى كانت تغزل وتنسج لتدفع فديتها ، ثم قهقه عاليا ، وأخذ جثة الفارس ، ووضعها فى صــندوق كبير ، مع إحــدى عشرة جثــة أخرى لفرسان بلا رءوس • وفجأة شرع الفرسان جميعا فى ••••

وتوقفت لتلتقط أنفاسها ، ولكن فريد ظن أنها انتهت من روايتها ، فقال متحمسا :

ــ شرع الفرسان جميعا فى رقصة بديعة ، فاذا بالقلعة تنقلب الى سفينة حربية ، ملأ الهواء شراعها ، فسارت تشق عباب البحر مسرعة • ورأى ربانها سفينة القرصان تقترب يرفرف عليها علم أسود ، فصــاح

فى رجاله يقول : « انشروا الشراع الأكبر ، وحولوا الدفة ، واحشوا المدافع والزموا أماكنكم ، وقاتلوا لتنتصروا أيها الأبطال » • وبدأت معركة هائلة انتصرت فيها السفينة الحربية ، وأسرت القرصان بعد أن قتلت رجاله ، وصاح القبطان يقول لمساعده : « دع هـذا الوغد يكتب اعترافا بما اقترفت يداه ، وعليك بتعذيبه إن توانى عن كتابته » • ولكن القرصان أبى أن يعترف بجريرته ، ثم غافل مساعد القبطان ، وقفز الى البحر ، وغطس تحت السفينة ، وفتح فى قاعها ثقبا كبيرا ، فغرقت لتوها ••••

وسكت فريد فجأة ، فصاحت سالى وقـد حل دورها وهى على غير استعداد :

ـ يا إلهى ، مـاذا أقول ؟ ••• ماذا أقول ؟

ولكنها لم تلبث أن تغلبت على حيرتها وقالت :

ـ وغاصت السفينة الى قاع البحـر ، فاستقبلتها حورية بحرية بكل ترحاب ، وما ان رأت الحورية الصندوق الكبير ، وما حـوى من فرسان بلا رءوس ، حتى استبد بها الحزن عليهم ، وأخذتها الشفقة بهم ، ورأت أن تحتفظ بهم حتى تحين لها الفرصـة فتعرف قصتهم ، فغمرت الجثث بمزيج من المـاء والملح والخل • وكانت تعتزم أن تنقل الصندوق الى سطح المـاء ، لتعيد الحياة الى الفرسان المساكين ، ولكنها عجزت عن حمله وحدها . فتركته فى قاع البحر حتى تجـد من يعنيها على نقله • وحدث ذات يوم أن غاص أحد الصيادين الى القاع يبحث عن اللؤلؤ ، فقالت له الحورية : « هذا الصندوق مملوء باللؤلؤ ، فهو لك إن استطعت أن تحمله الى الشاطىء » • وفرح الصياد بالصندوق فرحا شديدا ، وحمله الى الشاطىء بعد عناء شديد ، ولكن صدمته كانت بالغة عندما وجد فيه

جثثا بدل اللآلىء ، وترك الصياد الصندوق فى حقـل فسـيح ، حيث عثرت عليـه ....

وسكتت سالى ، فقالت آمى :

ـ حيث عثرت عليه فتاة ترعى مائة إوزة ، فلمـا رأت الفتـاة الفرسان ، حزنت عليهم كل الحزن ، وسألت عجوزا حـكيمة كيف تنقذهم مما أصابهم ، فأجابت العجوز : « سـلى الأوز يخبرك بما تريدين » . وسألت الفتاة الأوز عما يصلح رءوسا للفرسان بدل رءوسهم الطائحة ، ففتحت الأوزات مناقيرها وصاحت ....

وسكتت آمى ، فقال لورى ....

ـ عليك بالكرنب ! فقالت الفتاة : « صـدقت يا أوزاتى » ، ثم هرعت الى حديقتها تجمع خير كرنباتها ، ووضعت واحدة منها مكان كل رأس من رءوس الفرسان . فاذا بهم يبعثون الى الحياة مرة أخرى ، وبعد أن شكروا الفتاة على حسن صنيعها ، مضـوا الى حال سبيلهم ، وهم لا يدركون الفارق بين رءوسهم الأولى ورءوس الكرنب ، شأنهم فى ذلك شأن كثيرين من ذوى العقول الفارغة . أما فارسنا فقـد عاد يبحث عن حبيبته ، فعـلم أن الأميرات الأسـيرات اشترين حريتهن وتزوجن جميعا إلا واحـدة منهن . وقلق الفارس لمـا سمع ، وأراد أن يعرف حقيقة ما حـدث ، فامتطى صهوة جواده الذى لازمه فى سرائه وضرائه ، واندفع يجرى به نحو القلعـة ، حتى وصـل الى أسوارها العالية . وأطل من فوق الأسوار ، فرأى حبيبته تقطف الأزهار فى حديقتها ، فقال لهـا : « أعطينى وردة ! » قالت له بصـوت حنون : « تعال وخذها ، فليس من اللائق أن أذهب اليك » . وقام الى السور يتسـلقه ، ولكن

السور بدأ يزيد ارتفاعا ، فحاول أن يدفعه ، فازداد ضخامة وسمكا ، وأخيرا استطاع صاحبنا أن يحفر فجوة صغيرة فيه ، أطل منها برأسه ، وقال يتضرع لحبيبته : « دعينى أدخل ••• دعينى أدخل » • ويبدو أن الأميرة لم تسمع رجاءه ، فقد جمعت أزهارها ، وانصرفت عنه بهدوء الى قلعتها •••

وأشار لورى الى فرانك وقال :

ـ أما ما حدث بعد ذلك ، فهذا ما سيقصه علينا صديقنا فرانك •

قال فرانك وقد شعر بعظم مسئوليته فى إنقاذ بطلى القصة من مأزقهما العاطفى :

ـ لا ••• لا يمكننى ••• لست مشتركا معكم فى هذه اللعبة •

وكانت جريس قد استغرقت فى النوم ، وتوارت بث خلف جو ، فلم يبق من يسير بالقصة الى نهايتها •

قال بروك ، وما زال يتأمل صفحة النهر القريب ، ويداعب بأصابعه زهرة برية مثبتة فى عروة سترته :

ـ وهل يصح أن نترك الفارس المسكين محشورا فى السياج ؟

فابتسم لورى ، وقذف رائده ببعض الحشائش مداعبا ، ثم قال :

ـ أغلب الظن أن الأميرة أعطته باقة من أزهار حديقتها ، وفتحت له باب القلعة على مصراعيه •

وضحك الأصدقاء لسخافة القصة التى ألفوها من وحى ساعتهم ، وقالت سالى :

ــ إننا فى حاجة الى بعض المرانة ، واذا مارسنا هذه اللعبة مرات ، فلن يصعب علينا أن نؤلف قصصا بارعة •

والتفت الى ميج تسألها :

أتعرفين « الصــدق » ؟

أجابت ميج وقــد أخذت الكلمة بمعناها الحرفى :

ــ أرجو ذلك •

قالت سالى مستدركة :

ــ إنى أقصــد لعبة « الصــدق » •

قال فرانك :

ــ وكيف نلعبها ؟

قالت :

ــ نكتب أرقاما على قصاصات صغيرة ، ونخلطها فى إناء أو قبعة ، ثم نختار رقما معينا من الأرقام المكتوبة على القصاصات ، وبعد ذلك يسحب كل منا قصاصة ، فمن يكون نصيبه الرقم المحدد ، وجب عليــه أن يجيب صــادقا عن أسئلتنا مهما كانت •

قالت جــو وكانت مغرمة بكل جــديد :

ــ فلنجرب هــذه اللعبة !

ولكن لعبة « الصدق » لم تلق هوى فى قلوب أفراد الجماعة كلهم ، فقــد اعتذر عن عدم الاشتراك فيهــا كيت وبروك وميج وند ، وبذلك

اقتصرت اللعبة على فريد وسالى وجو واورى ، فكتبوا القصاصات ، واقترعوا عليها ، وكان الرقم المختار من نصيب لورى •

وبدأت جو تسأله فقالت :

ـ من أعظم الناس فى رأيك ؟

أجاب لورى :

ـ جدى ونابليون •

وسألته سالى :

ـ من تراها أجمل آنسات اليوم ؟

قال :

ـ مارجريت •

سأله فريد :

ـ وأيهن أحب اليك ؟

قال :

ـ جو بالطبع •

وقد أجاب عن السؤال الأخير فى جد وصراحة ، فضحك الجالسون ملء أشداقهم ، وقالت جو وهى تهز كتفيها بغير اكتراث :

ـ يا للأسئلة السخيفة !!

قال فريد متحمسا :

ـ إنها لعبة مسلية ، فدعونا نجربها مرة أخرى •

قالت جو بصوت خفيض ، وقد تذكرت غشه فى لعبة الكريكيت :

ــ والله إنها لعبة تفيدك ، فقد تتعلم منها الصــدق •

وحل دورها فى الاجابة عن الأسئلة ، فقال لها فريد ، وغرضه أن يمتحن فيها فضــيلة الصــدق التى تنقصه :

ــ ما أعظم « أخطائك » •

قالت :

ــ حــدة الطبع •

سألها لورى :

ــ ما الذى تتمنين الحصول عليه ؟

قالت ، وقــد أدركت رغبته فى استدراجها :

ــ رباط للحــذاء !

قال :

ــ ليس هذا جــوابا صــادقا ، فصــارحينا بأكثر ما تودين أن تحصــلى عليــه •

وتبدى الضيق فى وجهه ، فابتسمت له بمكر وقالت :

ــ أليست هــذه وسيلة ماهرة تعرف بها ما أريد فتهديه الىّ ؟

سألتها سالى :

ــ ما أحب فضــائل الرجال اليك ؟

قالت :

— الشجاعة والأمانة •

واقترعوا مرة ثالثة ، فرفع فريد قصاصة فى يده وقال :

— جـــاء دورى •

همس لورى فى أذن جـــو يقول :

— فلنؤدبه على ما فعـــل •

فأومأت برأسها موافقة ، وسألت فريد :

— هل عمدت الى الغش فى لعبة الكريكيت ؟

أجـــاب :

— قليـــلا ! •

سأله لورى :

— ألم تقتبس الجزء الذى رويته فى لعبة القصة من كتاب « أسد البحـ ار » ؟

قال :

— بلى !

سألته سالى :

— ألا تعتقد أن الانجليز المثل الأعلى فى الكمال ؟

أجاب :

— عار علىّ اذا لم أكن أعتقد ذلك •

وأومأت جو برأسها لفريد فى رضا عن صراحته وصدقه ، وقال له لــورى :

ــ أنت انجليزى قح •

ثم التفت الى سالى وقال :

ــ لم يبق إلاك ، فلنسألك ، ولا داعى للاقتراع • سأبدأ بهــذا السؤال المحرج : ألا توافقيننى على أنك تميلين الى المغازلة ؟

قالت :

ــ طبعا لا ••• أيها الفتى الوقح •

وسألها فريد :

ــ ما أبغض الأشياء اليك ؟

قالت :

ــ العناكب وعصــيدة الأرز •

سألتها جــو :

ــ وما أحب الأشياء اليك ؟

قالت :

ــ الرقص والقفازات الفرنسية •

حتت جــو الى الجالسين وقالت :

ــ هذه لعبة مملة ، فلنجدد نشاطنا بلعبة « المؤلفين » •

وأيدها فى ذلك ند وفرانك والفتيات الصــغيرات ، أما مس كات

فقد عادت الى لوحتها ترسم فيهـا ، وجلست مارجريت بجوارها ترقب عملهـا ، فى حين استلقى مستر بروك على الحشائش ، وأمامه كتـاب مفتوح لا يقرأ فيه • وانشغل الثلاثة فى حـديث طويل •

قالت ميج فى خليط من الإعجاب والأسف :

ـ هـذا رسم جميله ، فليتنى أستطيع أن أرسم مثله •

قالت مس كات فى عظمة :

ـ ولم لا تتعلمين الرسم ؟ إن لديك الذوق والموهبة •

قالت ميج :

ـ ولكن ليس لدى الوقت •

قالت :

ـ لا بد أن والدتك ، كوالدتى ، تفضل ألوانا أخرى من الثقافة ، ولكنى تلقيت بضعة دروس خاصة ، فلما رأت نتيجتها ، آمنت بموهبتى ، وتركتنى أتعلم الرسم • أليس فى مقدورك أن تفعلى ما فعلت فتمرنى يدك على الرسم مع مربيتك ؟

قالت ميج :

ـ ليس لى مربية •

قالت كات :

ـ نسيت أن الفتيات فى أمريكا يتعلمن فى المدارس ، لا فى البيت كما هو شأننا فى انجلترا ، وقد أكد لى والدى أن مدارسكم راقية جدا • فالى أية مدرسة خاصـــة تذهبين ؟

قالت ميج :

— إنى لا أذهب الى مدارس ، لأنى أعمل مربية •

قالت مس كات :

— كـذا ؟ !

وكان فى صوتها رنة اشمئزاز ، فاستبد الخجل بميج ، وندمت على صراحتهـا •

— ورفع مستر بروك رأسه بسرعة وقال :

— إن الفتيات فى أمريكا يؤمن بالحرية والاستقلال ، ومن دواعى فخرنا أنهن يعملن ليعلمن أنفسهن •

قالت مس كات فى إشفاق آلم ميج ، وزادها احتقارا لمهنتها :

— طبعا ، وليس فى ذلك حرج ، فلدينا أيضـا فى انجلترا ، فتيات من أسر كريمة يشتغلن فى بيوت النبلاء مربيات ، ويؤدين عملهن فى براعة وإتقان ، بحـكم نشأتهن الطيبة مهذبات مثقفات •

قال مستر بروك يغير الموضـوع :

— هل أعجبتك الأغنية الألمانية يا آنسة مارش ؟

أجابت ميج وقد أشرق وجهها مرة ثانية :

— أعجبتنى جـدا ، وأنا شاكرة لمن قام بترجمتها •

سألتها مس كات فى دهشة :

— ألا تعرفين اللغـة الألمانية ؟

أجابت ميج :

— أعرفها قليلا ، وكان أبى يدرسها لى ، ولكن منذ أن سافر الى ميدان القتال وأنا لا أجد من يصحح أخطائى ، ولذلك أتقدم فيها ببطء شديد •

وحمل مستر بروك كتابه ، ووضعه فى حجرها ، ثم قال بابتسامة مشجعة :

— هاك كتابا ألمانيا ، فجربى أن تقرئى فيه ، وستجدين فىّ مدرسا ومرشدا •

وخجلت ميج أن تقرأ فى الكتاب على مسمع من الانجليزية المثقفة ، فقالت :

— إنها مهمة شاقة ، وأخاف أن أجرب •

قالت مس كات :

— سأقرأ مقطوعة لأشجعك •

وأخذت الكتاب ، وجعلت تقرأ صفحة فيه ، وكانت قراءتها صحيحة ونطقها سليما ، ولكن صوتها كان رتيبا مملا لا روح فيه ولا حياة ، فانتهت الصفحة ، وكأن لا معنى لها •

وأعادت الكتاب الى مستر بروك ، فأخذه صامتا ، ولم يشأ أن يعلق على قراءتها بكلمة • قالت ميج :

— ظننته شعرا !

قال بروك فى ابتسامة غامضة .

— إن بعضه شعر ، فحاولى أن تقرئى هذه المقطوعة •

وكانت مقطوعة حزينة ، تصف الام امرأة ، فبدأت ميج تقرؤها فى صوت موسيقى ، أكسب الكلمات الكبيرة الصعبة رنينا حلوا شجيا • ولم تلبث الفتاة أن اندمجت فى قراءتها . فنسيت الجالسين معها ، وجعلت تقرأ لنفسها فى رنة حزينة أضفت على المقطوعة ظلا واقعيا مؤثرا •

وظلت تقرأ ، ومستر بروك يرنو اليها ، وفى عينيه العسليتين إعجاب بالغ ، لم تره لحسن الحظ ، وإلا كانت توقفت عن القراءة لفورها •

وتوقفت عند آخر المقطوعة ، فقال مستر بروك متجاهلا أخطاءها الكثيرة :

— عظيم جدا •

قالت مس كات فى تواضع ، وهى تلقى نظرة أخيرة على رسمها :

— إن لك لهجة حلوة ، وستكونين قارئة ممتازة فى يوم من الأيام ، ونصيحتى أن تمضى فى دراسة الألمانية ، فانها ثقافة لازمة للمربيات • والآن سأذهب للبحث عن جريس •

وابتعدت عنهما ، وهى تقول فى نفسها :

— هل أتيت اليوم لأجالس مربية ، وأحميها من صحبة الرجال ؟ إن الأمريكيين غريبو الأطوار ، وأخشى أن تفسد أساليبهم أخلاق لورى وشخصيته •

ونظرت ميج خلف الأرستقراطية المتعجرفة ، وقالت بضيق :

— ليتنى ما أخبرتها بمهنتى ، فالانجليز لا يحترمون المربيات ، مثلما نحترمهن فى أمريكا •

قال بروك :

ـ ولا يحترمون المربين أيضـــا •

وكان فى صوته أجلى معانى الرضا بحاله ، حتى خجلت ميج لثورتها على عملها • قالت :

ـ من حسن الحظ أننـــا نعيش فى أمريكا ، حيث يقـــدر الناس مهنتنا • حقيقة أننى لا أميل الى عملى ، ولكنى أجـــد فيه ترضية كافية • لست أتذمر وإن كنت أتمنى أن أحب التدريس مثلما تحبه •

قال بروك وهو يلهو بحشائش الأرض :

ـ ما كنت تكرهين التدريس ، لو كان لورى تلميذك ، ويؤسفنى أننى سأفقده فى العـــام القادم •

قالت ميج :

ـ عندما يلتحق بالجامعة ؟

قال :

ـ نعم ، لقـــد حان الوقت ، وعن قريب يتم اعـــداده للجامعة ، وسألتحق بالجندية عندما يذهب •

قالت ميج :

ـ يسرنى أن أســـمع ذلك ، فمن واجب الشـــباب أن يذهبوا الى القتال ، وإن شق فراقهم على الأمهات والأخوات •

وكان مستر بروك قد حفر الأرض حفرة صغيرة ، فأودعها زهرته الذابلة ، وغطاها بالتراب ، كما لو كانت قبرا صغيرا ، وقال بمرارة :

ــ ليس لى أم تبكينى . ولا أخــوات يحــزن لفراقى ، ولن يهتم بأمرى غير أصدقاء قليلين •

قالت ميج بحرارة :

ــ أمرك يهم لورى وجده ، وكلنا نتمنى أن لا يصيبك سوء •

وعاد وجه مستر بروك الى اشراقه ، وقال :

ــ شكرا على هذه التحية الطيبة •

ولكن قبل أن ينتهى من كلامه أقبل ند يمتطى صهوة جواد عجوز ، ليعرض على أنظار الفتيات فروسيته ، فانقضت بقدومه الخلوة الهادئة ، وأحاط الضجيج بالجالسين •

سألت جريس آمى ، بعد سباق حول المعسكر :

ــ أتحبين ركوب الخيل ؟

أجابت آمى ضاحكة :

ــ بل أعبده ، وكانت أختى ميج تركب الخيل أيام عزنا القديم ، ولكننا لا نملك اليوم جيادا سوى « آلان ترى » •

سألتها جريس باهتمام :

ــ وما « آلان ترى » ، أهو حمار ؟

قالت :

ــ لا ، وكل ما فى الأمر أننى وجو نغرم بركوب الخيــل ، ولمــا كنا لا نملك غير سرج قديم ، فقد اعتدنا أن نحمله الى الحديقة ، ونضـ

على غصن منخفض من شجرة التفاح ، ونثبت عنانه فى جذعها ثم نمتطيه كلما هزنا الشوق الى الركوب .

قالت جريس ضاحكة :

— فكرة مسلية ! أما أنا فعندى مهر فى البيت ، وقد اعتدت أن أخرج به مع فريد وكانت كل صباح تقريبا ، فنذهب الى البستان حيث نتقابل مع أصدقائنا . ان « ميدان الرماحة » لا يخلو أبدا من السيدات والسادة .

قالت آمى التى لم تكن تعرف ما هو « ميدان الرماحة » ، ولم يكن يرضى لها غرورها أن تسأل عنه :

— مدهش ! . كان بودى أن أسافر الى الخارج يوما من الأيام ، ولكنى أفضل أن يكون سفرى الى روما ، لا الى ميدان الرماحة .

وكان فرانك يجلس خلفهم ، فلما ترامى الى سمعه بعض حديث البنات ، ورأى الفتيان يلهون ويلعبون ، دفع عنه عكازه فى ضيق واضح . وكانت بث تجمع القصاصات الصغيرة المتخلفة عن اللعب ، فلما شعرت بضيق الفتى رفعت اليه وجهها وقالت بأسلوبها الخجل الحنون :

— انى أراك تعبا ، فهل من خدمة أؤديها لك ؟

أجاب فرانك ، الذى اعتاد دائما أن يكون محور عناية أهله :

— أرجو أن تتحدثى الى قليلا ، فقد كاد السأم يقتلنى .

وكانت مهمة عسيرة جدا على بث ، ولم يكن أمامها مكان تلوذ به هربا من الكلام ، ولم تكن جو بجانبها حتى تختفى وراء ظهرها .

فضلا عن أن الفتى كان ينظر اليها وفى عينيه رجــاء واستعطاف ، لذلك استجمعت شجاعتها ، وقررت أن تستجيب لرغبته • قالت وقد غلبهــا الارتباك ، حتى سقطت معظم القصاصات من بين يديهـا :

ــ أى موضوع تفضل أن نتكلم فيه ؟

ولم يكن فرانك قد أفلح فى اخضاع مزاجه لظروفه الجثمانية ، فقال :

ــ حدثينى عن الكريكيت والتجديف والصيد •

وجزعت بث ، لأنها كانت تجهل كل ما يتصــل بهــذه الرياضات ، فقالت وقد تماكها الغيظ حتى أنساها محنة الفتى وآلامه :

ــ لم أشترك فى صيد قط ، ولم أر أحــدا يصيد ، وأغلب ظنى أنك ملم بشئون هذه الرياضة •

قال فرانك ، وقد ندت عنه تنهدة حزينة ، جعلتها تندم على ملاحظتها البريئــة :

ــ لقد خرجت الى الصيد مــرة ، ولكنى لن أســتطيع ذلك مرة أخــرى ، فقد ألقانى الجواد عن ظهره ، وهــو يقفز من فوق حاجــز مرتفع ، فسقطت على الأرض ، وأوذيت فى ظهرى كما ترين • وبذلك انتهى عهدى بالجياد والكلاب •

قالت تدير دفة الحديث الى وصف البرارى التى قرأت عنهــا فى كتاب اقترضته مرة من أختهــا جو :

ــ يقال ان غزلانكم أجمــل كثيرا من جاموسنا القبيح •

وأتى الحديث عن الجاموس بأثره المطلوب ، فاشترك معها فرانك فى محادثة مرحة طويلة شغلتها عن الالتفات الى أختها ، التى راحت تتطلع اليها ولا تكاد تصدق أن بث تغلبت على حيائها ، ورضيت أن تتبادل الحديث مع واحد من الصبيين الفظيعين على حد تعبيرها •

قالت جو فخورة بأختها :

— يا لقلبها الطيب ! لقد أخذتها الشفقة به ، فجلست اليه تؤنس وحدته •

أجابت ميج تؤكد قول أختها :

— ألم أقل لك دائما انها قديسة صغيرة ؟

وكانت جريس مشغولة مع آمى فى حديث ى واللعب ، فلما سمعت أخاها الكسيح يقهقه ع ا تقول :

— ام أسمع فرانك بذ

أجابت آه

وجاشت عواطف ند ، فجعل يترنم بأغنية حزينة مطلعها :

« وحـــدى • • وحـــدى ••   مــع الآلام وحـــدى »

واتجهت عيناه الى ميج ، وعندما وصـــل الى مقطوعة تقول :

« كلانا شباب ، ولكلينا قلب خفاق
فلماذا نقف فى جفاء وابتعاد ••• ؟ »

كانت ترتسم فى نظرته معـانى الحـزن والأسى ، فلم تملك ميج زمـــام نفسها وانفجرت فى وجهه ضاحكة ، وبذلك أفســدت عليه أغنيته الطافحة بالعاطفة • قال يهمس فى أذنها :

ـــ لماذا تقسين علىّ هكذا ؟ لقد تركتنى طول اليوم الى صحبة هذه الانجليزية المتعجرفة ، والآن تسخرين منى وتهزئين بى •

وكانت ميج لا تزال تذكـــر وليمـــة آل موفات ، والأحاديث التى سمعتها فى نهايتها ، ولذلك اختارت أن تبعد عنــه طوال اليــوم ، وأن تتجاهل صحبته على قدر الامكان ، فلما سمعته يهمس فى أذنهــا معاتبا ، قالت وهى تتظاهر بأنها لم تفهم قصده :

ـــ يؤسفنى أن أسأت اليك ، ولكن منظرك كان مضحكا للغـــاية ، فلم أتمالك نفسى •

وتألم ند لقولها كل الألم ، فالتفت الى سالى يطلب العزاء ، وقال لها فى غيظ :

ـــ هذه الفتاة غير قابلة للغزل •

أجابت سالى مدافعة عن صديقتها :

ـــ صدقت ، ولكنها فتاة لطيفة للغاية !

قال مستظرفا :

ـ لا يوجد من هو أظرف منك !

وعادت الجماعة الى حديقة آل لورنس ، وكما تجمعت فيهـا أول اليوم ، كذلك تفرقت منها فى آخره ، وسارت الأخوات الأربع ، عائدات الى البيت عبر الحديقة . فلما ابتعدن قليلا ، التفتت كات تنظر اليهن ، وقالت فى عجرفة وقسوة :

ـ ان الفتيات الأمريكيات لطيفات المعشر رغم أساليبهن العجيبة .

أجاب مستر بروك :

ـ وأنا معك فى هذا الرأى .

الفصل الثالث عشر

قصور فى الهواء

فى مساء يوم من أيام شهر سبتمبر ، جلس لورى فى أرجوحته يهزها يمينا وشمالا ، وهو يتساءل عما يشغل جاراته فى البيت الآخر ... وكان بوده أن يذهب اليهن ليستطلع الخبر ، ولكنه كان يشعر بضيق شديد ، بعد أن مضى به اليوم دون فائدة أو لذة ، حتى تمنى لو كان فى استطاعته أن يعيشه من جديد ، ليختار له منهجا أفضل .

وكانت حرارة اليوم قد أورثته كسلا وقلقا ، فتمرد على دروسه ، وعاكس رائده حتى استنفذ صبره ، ضايق جده بعزف الموسيقى طوال المساء ، وأفزع الخدم إذ أوهمهم بأن كلبه مريض ، وحتى خادم الحظيرة المسكين ، لم يسلم من شر لسانه ، فقد اتهمه لورى ظلما بأنه أهمل العناية بأمر جواده .

وعندما نال كفايته من مضايقة الناس وازعاجهم ، خرج الى أرجوحته فى الحديقة فاستلقى عليها يفكر فى سخافة أحوال العالم أجمع ، ثم لم يلبث جمال الطبيعة أن رد اليه هدوء نفسه المفقود ، فانطلق مع أحلامه الى آفاق بعيدة ، وتخيل أنه يركب البحر فى رحلة ممتعة حول العالم ، وفجأة انبعثت من الحديقة المجاورة أصوات عالية ، رأى على أثرها بنات مارش يخرجن من البيت فى نشاط كأنهن أفراد رحلة كشفية .

ودهش لورى إذ رأى الأخوات الأربع يرتدين قبعات واسعة ،

ويحملن أكياسا بنية اللون ، ويمسكن بعصى غليظة ، وكانت ميج تحمل وسادة ، وجو تهز كتابا فى يدها ، وبث تجر خلفها مجرفة ، أما آمى فكانت تسير بخيلاء وتحت إبطها حافظة أوراق كبيرة •

قال لورى لنفسه مغيظا :

ــ يا للخيانة ! انها نزهة يخرجن اليها من غيرى ، ولا أستبعد أن يكون القارب مقصدهن ، ولكن مفتاحه معى ، فالأفضل أن أحمله اليهن •

ومع أن لورى كان يملك نصف دستة من القبعات ، إلا أنه تعب فى البحث حتى عثر على واحدة ، ثم جاء دور المفتاح ، فجعل يفتش عنه فى كل مكان من البيت ، ثم وجده أخيرا فى جيبه ، وهكذا ضاع الوقت هباء • فلما خرج يبحث عن صديقاته ، كن قد اختفين عن الأنظار •

ولم يشأ أن يضيع مزيدا من الوقت ، لذلك اتجه الى مربط القارب من أقرب طريق يعرفه ، ووقف بجواره ينتظرهن ، ولكن الوقت مضى ولم يظهر للفتيات أثر • وأدرك أنهن قد ذهبن الى مكان آخر ، فأسرع يصعد التل ، عسى أن يهتدى الى مكانهن من عل • وتلفت حوله مستكشفا فرأى على مقربة منه ، حرجا من أشجار الصنوبر تتناهى اليه منه أصوات خافتة ليست من فعل اهتزاز الغصون أو تغريد الطير • قال :

ــ يا للمنظر الجميل !

وكان المنظر بالفعل جميلا ، فقد كان الأخوات الأربع يجلسن معا

فى ركن ظليل بين أحضـــان الصـــنوبر ، والشمس تلمـــع من حولهن ، والنسيم العليل يداعب خصـــلات شعورهن ، أما الحطابون ، فكانوا فى شغل عنهن بعملهم ، وكأن لا غريب يجلس بينهم . وكانت ميج تجلس على الوســـادة ، وهى تطـــرز بيديهـــا البيضاوين ، وفى جبينها اشراق ونضرة . وكانت بث تنسق كيزان ثمار الصنوبر التى جمعتها من تحت الأشجار ، وتنظمها فى أشكال جميلة . وكانت آمى ترســـم مجمـــوعة من نباتات السرّخس ، راق لهـــا أن تجعـــل منهـــا موضـــوع لوحتها الجـــديدة . أما جو فكانت تطرز بيديها ، وفى الوقت ذاته تقـــرأ فى كتابها بصوت مرتفع .

وغشت وجـــه لورى سحابة من الوجوم ، فقد كانت كرامته تهيب به أن ينصرف عن البنات ما دمن قد قصرن فى دعوته الى الخروج معهن . ولكنه كان يكره أن يترك صحبتهن المرحـــة الى وحدة البيت وكآبته . واستبدت به الحيرة ، فوقف فى مكانه بلا حـــراك ، حتى ان سنجابا كان يرعى على مقربة منه فوجىء بمرآه ، فصرخ منزعجا ، وأسرع بالهـــرب من هذا الغريب الـــذى يأبى أن يعلن عن وجـــوده بكلمة أو حـــركة . وحمل الهواء صرخة السنجاب الى الجالسات بـــين أشـــجار الصنوبر ، فرفعت بث رأسها ، وعندئذ رأت لورى ، فأشارت اليه تستقدمه .

قال وهو يقترب منهن مترددا :

ــ أتسمحن لى بالجلوس معكن ؟ أم ترين أن صحبتى ترعجكن ؟

وهمت ميج بالاعتراض ، ولكن جو سبقتها الى الكلام قائلة :

ــ تفضل بالجلوس معنا على الرحب والســـعة ، لقـــد كنا نريد أن

تدعوك الى الخروج معنا ، ولكننا خشينا أن تبرم بألعاب الفتيات ووسائلهن فى التسلية •

قال :

ـ انى أحب ألعابكن وتسلياتكن ، ولكن اذا كان لميج اعتراض على وجودى ، فلن يسوءنى أن أنصرف •

قالت ميج فى وقار وجد :

ـ لا مانع من بقائك ما دمت تقوم بعمل من الأعمال ، فان الكسل مخالف لدستورنا ، وقد اتفقنا أن نخلف الكسل فى هذه النزهة •

قال لورى وفى وجهه علائم الخضوع والاذعان :

ـ أشكرك اذ سمحت لى بالانضمام اليكن ، فالبيت ممل كئيب ، لا تسلية فيه ولا متعة ، أما من حيث العمل ، فأنا على تمام الاستعداد ••• ماذا تريدين منى أن أعمل ؟ أأطرز ، أم أقرأ ، أم أرسم ، أم أقوم بكل هذا فى وقت واحد ؟ لن أتأخر عن شىء ••• فمرى ••• أطلع •••

قالت جو ، وهى تناوله كتابها :

ـ اقرأ لنا ، ريثما أعيد تنظيم حذائى •

وأراد لورى أن يظهر شكره لسماحهن له بالانضمام اليهن فقال فى أدب :

ــ سمعا وطاعة ...

ولم تكن القصة التى طلب اليه أن يقرأها طويلة ؛ فلما انتهى منها ، كان حب الاستطلاع قد استبد به ؛ وتاق أن يفهم المقصــود من هــذه النزهــة التى قالت ميج ان الكســل مخالف لقوانينها . قال فى لهجــة رسمية :

ــ أرجو أن تسمحن لى يا حضرات الآنســات أن أسألكن اذا كان هــذا الاجتماع العامر بالثقافة والفائدة ، فكرة جديدة اهتديتن اليها ؟

ونظرت ميج لأخواتها مستفسرة ، وقالت :

ــ أنخبره ؟

قالت آمى محذرة :

ــ سيضحك منا اذا عرف .

قالت جو :

ــ وهل يضيرنا أن يضحك ؟

قالت بث :

ــ أنا واثقة أن الفكرة ستعجبه !

قال لورى :

ــ ستعجبنى حتما . وأعدكن بشرفى أن لا أضحك ، فأخبرينى بهــا يا جــو ، ولا تخافى .

قالت جو :

ـ وهل يعقل أن أخاف منك ؟ القصة وما فيها أننا كنا طوال العام نلعب فى البيت لعبة الحجاج •

قال لورى :

ـ أعرف ذلك •

فسألته جو :

ـ وكيف عرفت ؟

قال :

ـ همست العصفورة فى أذنى •

قالت بث فى خجل :

ـ بل أنا التى أخبرته بلعبة الحجاج وكان ذلك عندما جاء لزيارتنا ذات مساء ، ولم يكن بالبيت غيرى ، فأردت أن أسرى عنه بما نفعل فى أوقات فراغنا ، وقد راقته اللعبة ، فلا تؤنبينى يا جو •

قالت جو لأختها :

ـ ألا يمكنك أن تحفظى سرا واحدا ؟ ولكن لا بأس ، فقد جنبتنا مشقة شرح اللعبة له !

وعادت جو الى تطريزها ، وفى وجهها علائم الضيق ، فقال لورى لها :

ـ ألا تحدثيننى بما جاء بكن اليوم هنا ؟

قالت :

ــ كنا قد اتفقنا فى بداية العطلة أن نستفيد بأوقاتها ، وأن لا ندع الأيام تمر بنا هباء • وبالفعل قامت كل منا بعمل مفيد ، وحرصت على أدائه بعزيمة واتقان . وها قد أوشكت العطلة أن تنتهى ، ومعها أوشكت أعمالها أن تنتهى أيضا ، ولم تذهب ضحية للكسل كما كان الحال فى الأعوام الماضية •

قال لورى وقد تذكر الأيام المتعاقبة التى يقضيها فى كسل متصل :

ــ والله انها فكرة طيبة •

قالت جو :

ــ ان أمى تفضل أن نقضى معظم أوقاتنا فى الهواء الطلق ، ولذلك اعتدنا أن نأتى الى هذا المكان كل يوم ، وعلى سبيل التفريج عن أنفسنا ، ترانا نرتدى هذه الثياب العتيقة ، ونحمل أشغالنا فى أكياس كبيرة ، أما العصى فتعيننا على صعود التل • لقد حورنا فى لعبة الحجاج بعض التحوير ، واستعضنا بالتل عن سلم البيت ، وقد أطلقنا عليه اسم « تل الأتاقة » ، لأننا اذا وقفنا على قمته ، تكشفت لنا أطراف الريف الذى نتمنى أن نعيش فيه يوما ما •

وأشارت جو بيدها الى الناحية الأخرى ، فنهض لورى ينظر حيث أشارت ، فرأى من بين سيقان أشجار الصنوبر ، مياه النهر الزرقاء ، ومن خلفها حقول واسعة مترامية الاطراف ، تحتضنها جبال شامخة ، تكاد رءوسها تناطح السحاب ، وكانت الشمس فى غروب ، وأشعتها الحمر تضفى على الكائنات جمالا وروعة ، وعند قمم الجبال تتجمع السحب فى فيض من الأضواء الذهبية والحمر •

وكان لورى فتى مرهف الحس . يستجيب للجمال بقلبه واحساساته فقال برقة :

— يا للجمال الرائع !

قالت آمى :

— انه دائما هكذا ، ونحن نحب أن نرقب الكون من هذه البقعة العالية ، والعجيب فيها أن المنظر يتغير ويتبدل كل يوم ، ولكنه دائما جميل أخاذ •

قالت بث بهدوئها المعهود :

— ان جو تتحدث عن الريف ، حيث تتمنى أن تعيش فى يوم من الأيام • وهى تقصد الريف الحقيقى بخنازيره ودجاجه وكومات تبنه • انها فكرة رائعة ، فيا ليت الريف الذى نحلم به كان حقيقة واقعة • ويا ليتنا نستطيع أن نذهب اليه •

قالت ميج بصوتها الحنون :

— فى هذه السماء العالية مدينة خالدة ، ريفها يفوق جماله كل جمال ، وسنذهب اليها فى يوم من الأيام ، اذا أحسنا فى دنيانا وعشنا طيبات •

قالت بث :

— ولكن هذا اليوم يبدو بعيدا ، والكفاح من أجله عصيب ، وبودى أن أطير الى الخلد حالا ، وأدخل من بابه الجميل •

قالت جو :

— صبرا يا بث ، فلا شك فى أنك ستذهبين اليه قريبا أو بعيدا ،

أما أنا فعلىّ أن أكافح وأعمل وأجاهد وأجد . وربما بعد هذا كله لا يكون لى نصيب فيه •

قال لها لورى :

— وسأكون فى رفقتك ، اذا كنت ترين فى رفقتى عزاء ، فان علىّ أن أكافح كثيرا قبل أن أصل الى مدينتكن الخالدة •

والتفت الى بث وقال :

— اذا سبقتنى الى المدينة الخالدة ، يا بث ، فلا تنسى أن تذكرينى هناك بكلمة طيبة •

وكان فى عينى الفتى تعبير عجيب أقلق بث الصغيرة الوديعة ، ولكنها أجابت فى هدوء ، وعيناها عالقتان بالسحب العالية :

— اذا كان الانسان فى شوق الى دخول الجنة ، واذا كان قد قضى حياته يجاهد من أجل ذلك ، فلابد له من أن يدخلها • لست أصدق أن للجنة أبوابا وأقفالا وحراسا ، بل انى أتصورها أرضا خضراء فيها ملائكة مضيئة تمد أيديها مرحبة بالقادمين •

قالت جو بعد فترة صمت :

— لو تحققت القصور التى نبنيها فى الهواء ، وأمكننا أن نعيش فيها !

قال لورى ، وهو يرمى السنجاب الذى كشف عن وجوده بثمرة من ثمار الصنوبر :

— لقد بنيت آلاف القصور فى الهواء ، وسيصعب علىّ اذا تحققت أن أختار لسكناى واحدا منها •

قالت ميج :

— اختر أقربها الى قلبك ، فما هى أعظم أمنية لك فى الحياة ؟

قال لورى :

— وهل اذا أجبتك صادقا . تجيبيننى بأعظم أمنية لك ؟

قالت :

— نعم ، بشرط أن يعترف البنات بأمنياتهن أيضا !

قالت جو وبث وآمى :

— سنعترف ، ولنبدأ بلورى •

قال لورى :

— لقد طفت ببلاد كثيرة ، ورأيت العالم كما أشتهى ، وقد تركزت آمالى فى أن أعيش فى ألمانيا ، حيث أستطيع أن أتعلم الموسيقى ، لأصبح موسيقيا شهيرا ، يفد الناس لسماع عزفه من كل بقاع الدنيا • لن يهمنى المال أو الأعمال ، فكل ما أريده أن أمتع نفسى بما تشتهيه ، وأن أعيش من أجل الفن الذى أعبده ••• هذه أعظم أمنية لى فى الحياة فماذا عنك أنت يا ميج ؟

وترددت مارجريت قليلا ، كأنها تجد مشقة فى وصف أمانيها ، ثم مرت بيدها على وجهها ، وقالت :

— أتمنى أن يكون لى بيت جميل عامر بكل ألوان الترف ، طعام لذيذ ، وملبس أنيق ، ورياش ثمين ، وأناس ظرفاء ، وأكداس من المال • وأحب أن أدير هذا البيت كما أشتهى ، وأن يقوم على خدمتى فيه خدم كثيرون ، حتى لا أكون ملزمة بعمل ما ••• ولكنى لن أعمد للكسل . فسأكون امرأة طيبة . حتى يجمع الناس على محبتى وتقديرى •

سألها لورى بخبث :

ــ وهل سيكون لهذا البيت سيد يا ميج ؟

قالت بخجل :

ــ لقد قلت اننى أريد معى أناسا ظرفاء •

وأطرقت برأسها ، وتشاغلت بربط حذائها ، حتى لا يكشف الجالسون مبلغ خجلهـا •

وكانت جو ما زالت أصغر سنا من أن تحلم بالزواج بعد ، وكانت بطبعها تحتقر العاطفيات الا فى القصص ، فقالت بصراحتها المعهودة :

ــ لن يكون قصرك شيئا مذكورا بغير زوج حكيم وسيم ، وأطفـال فى براءة الملائكة ، فلماذا لم تكملى الصورة كما يجب ؟

أجابت ميج محنقة :

ــ وماذا عن قصرك أنت ؟ لا أظن الا أنـك ستملأينه بالخيـول والمحابر والكتب •

قالت جو بحماسة :

ــ طبعا ! سيكون لى فيـه حظيرة بها خيـول عربيـة أصيلة ، وغرف مملوءة بكتب لا عداد لها ، وسأغمس قلمى فى محبرة سحرية ، حتى تكتب لى فى عالم التأليف شهرة كالتى ينشـدها لورى فى الموسيقى • أريد أن أكون كاتبة أؤلف الكتب وأنال الشهرة العريضة • ولكنى أريـد قبل ذلك أن أقـوم بعمل رائع يخلد اسمى بعد موتى ، ويذكر الناس بى جيلا بعد جيل • لا تسألونى عن هذا العمل ، فان رأيى لم يستقر عليـه بعـد ! ومازلت أترقب الفرص ، وسأدهشكم يوما ما ببطولتى !

وحل دور بث فقالت فى رضا وقناعة :

ـ كل أملى فى الحياة أن أعيش مع أبى وأمى فى أمن واطمئنان ، أساعدهما فى ادارة البيت ورعاية شئون الأسرة •

سألها لورى :

ـ أليست لك أمنية أخرى ؟

قالت :

ـ كنت أتمنى فيما مضى أن يكون لى معزف ، أما وقد حصلت عليه ، فأنا راضية بحالى ، وأرجو من الله أن يحفظ لنا صداقتنا ، ويجمع دائما شملنا ••• لا شىء أكثر من هذا •

قالت آمى :

ـ ان لى أمنيات كثيرة ، ولكن أقربها الى نفسى أن أسافر الى مدينة روما لأتعلم الرسم ، حتى أصنع لوحات عظيمة ، وأصبح أعظم رسامة فى الدنيا •

قال لورى فى تفكير ، وهو يلوك قطعة قش بين أسنانه :

ـ يا لطموحنا العظيم ! كلنا ما عدا بث نريد أن نكون أغنياء عظماء سعداء . انى أشك فى أن أحدنا سيتحقق له أمل واحد من هذه الآمال الكبار •••••

قالت جو فى لهجة غامضة :

ـ ان لدى الوسيلة الى بلوغ أملى ، ولست أدرى بعد اذا كان فى مقدورى أن أستعين بها •

وتمتم لورى فى ضيق :

ـ وأنا أيضا لدى الوسيلة ، ولكنهم يمنعوننى من الاستعانة بها ، وكل هذا من أجل اتمام دراسة الجامعة ، لعنة الله عليها •

وقالت آمى وهى تلوح بقلمها :

ـ هذا وسيلتى الى تحقيق أحلامى •

وقالت مارجريت بوجوم :

ـ أما أنا فليس لدى ما يعيننى على تحقيق آمالى •

وهتف بها لورى :

ـ بل لديك الوسيلة الفعالة •

قالت :

ـ أين ؟

قال :

ـ وجهك الجميل •

قالت :

ـ كلام فارغ وهراء ، فالجمال لا يفيد •

وكان لورى يعتقد أنه يلم بسر يؤكد كلامه ، فقال ضاحكا :

ـ انتظرى ، وسوف ترين كيف يأتيك جمالك بما تتمنين •

وتخضب وجه ميج بحمرة الخجل ، ولكنها لم تسأله تفسيرا لكلامه ، إنما تطلعت الى الأفق البعيد ساهمة ، مثلما فعل مستر بروك يوم جلس فى المخيم يروى للجماعة قصة الفارس المغوار •••

وكان لجو قدرة عجيبة على ابتكار أفكار جديدة ، فقالت :

— اقترح أن نتفق من الآن على الاجتماع فى مثل هذا اليوم بعد عشر سنوات ، إذا قدر لنا أن نعيش الى هذا الحين ، لنرى إذا كان بعض أحلامنا قد تحقق ، أو إذا كنا قد اقتربنا من تحقيقها أكثر من الآن .

قالت ميج ، وكأن السنين أثقلت كاهلها ، مع أنها ما تزال فى السابعة عشرة من عمرها :

— سأكون إذ ذاك عجوزا فى السابعة والعشرين ... فظيع !

قالت جو :

— وسأكون أنا ولورى فى السادسة والعشرين ، وآمى فى الثانية والعشرين ، وبث فى العشرين فقط ، فيا للجماعة الموقورة !

قال لورى :

— أرجو أن أكون إذ ذاك قد قمت بعمل أفخر به ، وإن كنت أخشى أن أظل كسلان طول حياتى .

قالت جو :

— تعتقد أمى أنك فى حاجة الى حافز يحفزك ، وهى واثقة أنك ستأتى بجلائل الأعمال عندما يتوفر لك هذا الحافز .

وانتصب لورى جالسا من رقدته وقال بحماسة :

— أتعتقد ذلك حقيقة ؟ والله إن فى مقدورى أن أفعل كثيرا ، اذا ما أعطيت الفرصة !

ثم سكت قليلا وقال :

— من واجبى أن أكون راضيـا بحالى ، لأدخل السرور على قلب جدى ، وأنا أبذل منتهى جهودى لأسعده ، ولكن أعصابى تكاد تتحطم ، فهو يريدنى أن أكون تاجرا فى الهند ، ولكنى أكره الشاى والحرير والتوابل ، ولو ترك لى بواخره العظيمة فلن يسوءنى أن تغرق جميعها فى قاع البحر . سأدخل الجامعة إرضاء له ، ولكنى أعلم أننى سأعيش فيها على غير هواى ، اللهم إلا إذا خرجت على طاعته ، واخترت الحياة التى تروقنى ، كما فعل والدى من قبل . ولو كان للرجل العجوز عزيز غيرى ، ما توانيت عن تغيير حياتى فى أقرب فرصة .

وكان لورى يتكلم فى حماسة شديدة ، حتى ليحس المستمع إليه أنه على أتم الاستعداد لتنفيذ تهديده عند أول إثارة . ولعل السر فى ذلك أنه كان ينمو بسرعة ، وكان له ، على رغم سنه الصغيرة ، أخلاق الرجال بكل ما فيها من كراهية للخضوع ، ورغبة فى الاعتماد على النفس .

وكانت جو تقدر لورى ، وتميل دائما الى اغتفار أخطائه ، هذا الى حبها الغريزى للمخاطرات والمغامرات ، فقالت :

— أنصحك أن تسافر فى إحدى بواخر جدك ، ولا تعد حتى تجرب حظك فى الحياة .

ولكن ميج لم توافق على نصيحة أختها ، فقالت فى لهجة الأم العاقلة :

— هذا لا يصح يا جو ، ولا ينبغى أن تتكلمى إليه بمثل هذا القول ، وأعتقد أن لورى أعقل من أن يعمل بنصحك السيىء .

والتفتت الى لورى تقول :

— ابذل جهدك فى الجامعة ، حتى يرى جدك أنك تضحى فى سبيل إرضائه ، وعندئذ لن يشتد معك ، أو يقاوم رغباتك . وما دمت قريبه الوحيد ، فمن واجبك أن تبقى معه وتحبه ، وثق أنك إذا لم تفعل ذلك ، فسوف تقضى حياتك معذبا نادما . فلا تحزن ولا تتعذب ، بل امض فى حياتك راضيا ، وقم بواجباتك كما ينبغى . إن مستر بروك يقول : كفى المرء فخرا أن يكون محبوبا مبجلا .

ونزلت كلماتها على قلب لورى بردا وسلاما ، ومع ذلك فقد استاء بعض الاستياء لمحاضرتها الأخلاقية الطويلة ، فقال لها :

— والله إنك لا تعرفين شيئا عن جدى .

قالت :

— لست أعرف أكثر مما سمعته والدتى عنه من أبيها ، فطالما تحدث إليها عن خلقه الكريم ، وروى لها كيف تفانى فى خدمة أمه الى آخر لحظة فى حياتها ، ولم يرض أن يسافر الى الخارج إكراما لها ، وكيف أنه يعول امرأة عجوزا كانت خادمة لأمه ، ويبقى إحسانه فى الخفاء ، كارها أن يعلن عنه ، وأنه فوق كل هذا رجل طيب صبور ، عميم الفضل ، عظيم الإحساس على الفقراء .

وسكتت ميج عن الكلام وقد توردت وجنتاها حماسة ، فقال لورى مصدقا على كلامها :

— والله إنه لكذلك ، وأعظم ما فيه أنه لا يعلن عن طيباته ، إنما يعلن عنه غيره ممن عرفوه ولمسوا أفضاله . ولقد تعجب رائدى بروك لكرم أمك فى معاملة جدى ، ومثابرتها على دعوته مع بروك الى بيتكم ،

وتفانيها فى مجاملته والترحيب به • ولقد كان يظن ذلك مظهرا لأدبهـا الوفير ، فظل يمتدحها لى طيلة المساء ، ثم انتقل الى الحديث عنك بحرارة منقطعة النظير • والله لو تحققت آمالى ، لفعلت الكثير من أجل بروك •••

قالت ميج فى حدة :

ـ ولم لا تبدأ من الآن ، فتخفف من غلوائك فى معاملته ؟ إن أعمالك أحيانا تكاد تزهق أنفاسه •

قال لها :

ـ ومن أين لك هذا الكلام ؟

قالت :

ـ إنى أراه بنفسى ، عندما تكون هادئا مطيعا ، ينصرف عنك باسما نشيطا ، وعندما تنتابك أزمات العنـاد والعصيان ، أراه يسير واجمـا مترددا ، كما لو كان يريد أن يعود إليك ليبدأ الدرس معك من جديد •

قال لورى :

ـ أمرك عجيب ! لم أكن أعرف أنك تراقبين سـلوكى فى تعبيرات وجه مستر بروك ، لقد كنت أرى بدورى كيف يبتسم عندما يمر بنافذتك ، وينحنى لك باحترام بالغ ، ولكنى لم أكن أعلم أنكما تتحدثان عنى •

وانزعجت ميج خوفا مما قد يترتب على كلامها الصريح فقالت :

ـ لم نتحدث عنك قط ، فلا تغضب ، ورجائى أن لا تخبره بما قلت لك الآن • لقد أردت فقط أن أثبت لك اهتمامى بأمرك ، وقـد اعتدنـا الصراحة معك دائما •

أجاب لورى مترفعا :

ــ ليست الوشاية من أخلاقى ، ولم أتعود ترديد الأحاديث التى أسمعها ، ولكن إذا كان بروك قد قرر أن يكون ترمومترا لأخلاقى ، فمن واجبى أن أحيطه دائما بالجو الملائم ، حتى تطيب معلوماتك عنى •

قالت ميج :

ــ لا تتألم لما ذكرت ، فما أردت أن أجرح شعورك أو أغضبك ، إنما خيل الى أن جو تحرضك على ما قد تندم عليه فى يوم من الأيام • لقد كنت طيبا معنا ، ونحن نشعر كما لو كنت أخا شقيقا لنـا ، ولـذلك نصارحك بكل ما يجول فى خواطرنا ، ولا نخفى عنك رأيا أو فكرة • كنت حسنة القصد فيما قلت ، فسامحنى •

ومدت له يدها فى خجل وإخلاص تريد مصالحته •

وأسف لورى على اندفاعه المفاجىء ، فتناول يدها يصافحها بحرارة ، وقال بصراحة :

ــ بل أنا الذى يجب أن أطلب منك المغفرة ، وأرجوك أن تتجاوزى عن خشونتى ، فقد كنت قلقا ضيق الصدر طول اليـوم • ويسرنى أن تكونى لى أختا ، وتعددى أخطائى • وأرجو أن لا تستائى إذا رأيت منى جموحا فى بعض الأحيان • وأنا أيضا شاكر لكن صراحتكن وعطفكن •

ولكى يطمئنها الى أنه غير غاضب أو متألم ، بذل جهده ليكون لطيفا مع الجميع ، فساعد ميج على لف خيوط التطريز ، وقرأ لجو فى كتـابها كما أرادت ، وعاون بث على تنسيق ثمار الصنوبر ، ورسم فى لوحة آمى ، وبذلك شعر أنه قد أصبح عضوا نافعا فى حلقة آل مارش •

وبينما كانت الجماعة فى مناقشة حامية حول طبائع السلاحف ، ومزاياها العديدة ، حمل الهواء آذانهم رنين جرس آتيا من بعيد ، إيذانا لبنات مارش بأن حنا قد أعدت لهن الشاى ، وأصبح لزاما عليهن أن يعدن الى البيت مسرعات •

قال لورى :

— أتسمحين لى أن أشارككن فى مثل هذه الجلسة ؟

قالت ميج باسمة :

— نعم • بشرط أن تكون طيبا وتحب دروسك ، كما يقولون للأطفال فى المدارس الابتدائية •

قال :

— سأحاول •

وعندما بلغوا أبواب البيت ، قالت جو للورى وهى تلوح بيدها مودعة :

— إذا يمكنك أن تشترك معنا ، وسأعلمك كيف تشتغل التريكو ، فإن الطلب قد ازداد فى هذه الأيام على الجوارب الصوفية •

وفى هذا المساء عندما جلست بث الى المعزف تسمع مستر لورنس العجوز بعض قطعها الموسيقية ، وقف لورى وراء الستار يرقب جده ، وقد جلس فى مقعده معتمدا رأسه على يده ، وهو يفكر فى حفيدته الصغيرة المحبوبة التى فقدها منذ سنوات • وتذكر لورى فى هذه اللحظة حديثه مع ميج ، فشعر برغبة شديدة فى التضحية بآماله من أجل جده العزيز • قال فى نفسه :

— أنا كل من بقى له من الأهل والأحباب ، فلأتنازل عن قصور الأمانى والأحلام ، وأبقى معه مادام فى حاجة الىّ •

الفصـــل الرابع عشر

أسرار

أقبل شهر أكتوبر وسرت البرودة فى الجو ، وقصرت ساعات اليوم ، فانشغلت جو بأمورها فى غرفة السطح • وكانت الشمس ترسل أشـــعتها ساعتين أو ثلاثا فى اليوم ، فتنفذ خلال النافـــذة العاليـــة ، لتنعكس على الفتاة وهى قابعة على الأريكة العتيقة ، وقد انهمكت فى الكتـــابة ، وألقت بالمسودات على حقيبة قديمة ، على حين جعل صديقها الفأر « سكرابل » يروح ويجىء آمنا مصطحبا ابنه الأكبر ، وهو فأر فتى يتيه عجبا بشواربه الطويلة • وفى ذات يوم من هذه الأيام ، ظلت جو غارقة فى كتابتها حتى إذا ما انتهت من آخر صحيفة بين يديها ، وقعت باسمها فى ذيلها بخـــط واضح كبير ، ثم ألقت بالقلم وقالت :

ـ لقد بذلك كل ما فى وسعى ، فإذا لم يكن ما كتبت مناســـبا ، فلا مناص من الانتظار حتى أتمكن من تأليف قطعة أفضل •

واستلقت على الأريكة ، وشرعت تقرأ المسودات فى عناية ، فتضيف نقطة هنا ، وشرطة هناك ، وهى لا تنسى أن تسرف فى وضع علامات التعجب والاستفهام فى كل مناسبة فى أثناء مراجعتها ، ولما انتهت حزمت الأوراق بشريط أحمر ، وتأملت الحزمة فى جد ينم عن مبلغ اهتمامها بما كتبت •

وكانت مكتبة جو فى هذه الغرفة لا تتعدى منضدة صغيرة مغطـــاة بالصفيح ، وكانت تحتفظ فى درج محكم منها بمسودات كتاباتها وبعض كتبها ، حتى لا تصل إليها أنياب سكرابل ذى المزاج الثقافى ، الذى يدفعه الى قرض الكتب والأوراق التى تترك أمامه • ومن ذلك الـــدرج الأمين

أخرجت جو رزمة من المسودات ، ثم وضعت الرزمتين فى جيبها ، ونزلت السلم بهدوء ، تاركة صديقها الفأر يقرض ما يشاء من قلمها ويتذوق ما يحب من محبرتها •

وارتدت مئزرها وقبعتها فى هدوء ما أمكن ، ثم استرقت الخطى نحو النافذة الخلفية للطابق الأرضى ، وخرجت منها الى سقف مظلة منخفضة ، فقفزت من فوقه الى أرض الحديقة ، ثم دارت فى طريق طويل حتى وصلت الى الشارع ، وهناك تمالكت نفسها ، فاستقلت عربة الأتوبيس الى المدينة وفى عينيها الفرح والغموض •

وكان الغموض يكتنف كل حركاتها وتصرفاتها : فما ان نزلت من العربة ، حتى سارت بخطى سريعة نحو بناء معين بأحد الشوارع المزدحمة ، فلما بلغته ، دخلت من بابه ، ونظرت لحظة الى درجات سلمه القذرة ، ثم لم تلبث أن عادت على أعقابها الى الشارع مسرعة • وتكررت هذه العملية مرات ، مما أثار الاهتمام فى نفس شاب أسود العينين كان يراقبها من نافذته عبر الشارع • وأخيرا عادت للمرة الثالثة ، وقد جمعت شجاعتها وأرخت حافة قبعتها فوق عينيها ، ثم صعدت وهى تبدو كأنها ذاهبة لخلع أسنانها جميعا •

وكان يزين مدخل البناء لافتة لطبيب أسنان — بين لافتات أخر — رسم عليها فكان صناعيان يتحركان فى بطء ، ليلفتا الأنظار الى جمال صنعتهما ودقتهما • فارتدى الفتى معطفة ، وأخذ قبعته ، وهبط من مكانه الى الشارع ينتظرها أمام الباب المقابل للبناء الذى دخلته الفتاة • قال لنفسه وهو يبتسم :

— لا يدهشنى أن تأتى الى هذا المكان وحيدة ، ولكنها ستحتاج الى من يصحبها فى عودتها اذا انتهت الأمور بما لا تشتهى •

ولم تمض دقائق عشر ، حتى خرجت جــو تجــرى الى الطــريق محتقنة الوجه غاضبة ، وعندئذ وقع بصرها على الفتى ، فأومأت اليــه تحييه وهى راغبة عن رؤيته ، ولكنه تبعهــا فى هدوء وقال يواسيها :

ــ هل مررت بمحنة شـــديدة ؟

قالت :

ــ لم تكن شديدة •

قال :

ــ ولكنك لم تمكثى بالداخل طويلا !

قالت :

ــ نعم ، لحسن الحظ •

قال :

ــ ولم ذهبت وحدك ؟

قالت :

ــ لم أشــأ أن يعلم أحد بمهمتى •

قال :

ــ لم أر فى حياتى من هو أعجب منك يا جو !! كم مرة نشر لك ؟؟

ونظرت جو الى صديقها كأنهــا لا تفهم سؤاله ، ثم جعلت تضحك ، كأن فكرة طارئة أشاعت السرور فى نفسها • قالت :

ــ لم ينشر لى شىء بعد • وكنت أتمنى أن ينشر لى اليوم اثنان ، ولكنى مضطرة الى الانتظار أسبوعا •

ونظر لورى اليها كمن أغلق عليه فهمها ، وقال :

ـ ماذا يضحكك ؟ وماذا كنت تفعلين فى الخفاء يا جـو ؟

قالت تغير دفة الحديث :

ـ بل أخبرنى أنت يا سيدى ، ماذا كنت تفعـل فى قاعة البلياردو هـذه ؟

قال :

ـ عفوك يا سيدتى ! لم أكن فى قاعة البليـاردو ، بل كنت فى معهد للرياضة البدنية أتدرب على المبارزة بالسيف •

قالت :

ـ يسرتى أن أسمع ذلك •

قال :

ـ لمـاذا ؟

قالت :

ـ لأنك ستعلمنى المبارزة ، حتى نستطيع أن نؤدى منظـرا فريدا عندما نمثل رواية هاملت عن قريب •

فانفجرت لورى ضاحكا فى صوت عـال مرح أثار اهتمـام بعض المارة ، فابتسموا بدورهم •

قال :

ـ سوف أعلمك المبارزة ، سواء مثلنا هاملت أم لم نمثلهـا ، فهى رياضة جميلة تكسب الجسم قوة ورشاقة ، ولكن لمـاذا أبديت رضـاك عندما علمت بوجودى فى معهد الرياضة البدنية ؟

قالت :

— خشيت أن تكون من المترددين على قاعات البلياردو ، ولست أحب لك أن تندمج فى مثل هذه الأماكن . أتميل الى الذهاب اليها ؟

قال :

— أحيانا .

قالت :

— وددت لو انقطعت عنها .

قال :

— وهل فى التردد عليها ضرر يا جو ؟ ان لدينا بالبيت منضدة للبلياردو ، ولكن اللعب لا يكون ممتعا الا مع لاعبين مهرة . انى أحب هذه الرياضة ، ولذلك أتردد على القاعة لألعب بعض الأشواط مع ند موفات أو غيره من الفتيان .

قالت جو وهى تهز رأسها :

— يؤسفنى أن أسمع ذلك ، وأخشى أن يجتذبك المكان ، فتكثر من التردد عليه ، لتضيع وقتك ومالك هباء ، مثلما يفعل هؤلاء الفتيان الطائشون ، كان أملى أن تظل محترما ، وتتصرف بما يرضى أصدقاءك .

قال لورى وقد بدا عليه الارتباك :

— وهل بعض المتعة البريئة يفقد الفتى احترام الناس إياه ؟

قالت :

— هذا يتوقف على نوع المتعة وأين تكون ، انى لا أميل الى ند وصحبه ، وأتمنى أن تبتعد عنهم ، فقد أبت أمى أن ندعوه الى بيتنا رغم

رغبته الشديدة فى زيارتنا . وأخشى أن لا ترحب بصداقتك لنا اذا حذوت حــذوه .

قال فى لهفة :

ــ أحقا ما تقولين ؟

قالت :

ــ نعم ، انها لا تحتمل الفتيان المستهترين ، وتفضل أن تغلق علينا باب دارنا من أن تدعنا نختلط بهم .

قال :

ــ لا داعى لكل هــذا ، فأنا لست مستهترا ، ولا أحب أن أكـون كذلك ، ولكنى أميل الى التسلية البريئة أحيانا . ألست مثلى فى ذلك ؟

قالت :

ــ نعم . ان التسلية لا تضر أحدا ، فتســلّ كمــا شئت ، ولكن لا تشتط وإلا انتهت أوقاتنا السعيدة معا .

قال :

ــ سأكون أكثر من القديسين طهرا ونقاوة .

قالت :

ــ ولكننا لا نحب القديسين أيضا ، فكن بسيطا ، أمينا ، محترما ، وبذلك تبقى صداقتنا الى الأبد . ويعز علىّ أن تصير الى ما صــار اليه ابن مستر كنج ، الذى أفســده المال والفراغ ، فانحرف عن الطــريق السوى ، وبلغ الأمــر به أن قامر ، وهرب من البيت ، ثم زور امضــاء أبيــه ، وبذلك ارتكب وزرا كبيرا .

قال :

— أو تعتقدين أننى أنحـــدر الى هـــذا الدرك ؟ أشكرك على حسن ظنـــك !

قالت :

— لا ، لست أسىء الظن بك ، ولكنى أسمع الناس يتحـــدثون عن خبث اغراء المال ، فيستبد بى القلق عليك ، وأتمنى لو كنت فقيرا حتى لا تتعرض للشرور .

قال :

— أيقلقك حللى يا جو ؟

قالت :

— أحيانا ، عندما أراك واجما أو متذمرا ، ان لك شخصية قـــوية ، فلذا انحدرت الى طريق الخطأ ، كان من العسير أن تعاد الى صوابك .

وسار الفتى بضع دقائق دون أن يقول شيئا ، واختلست جو نظرة اليه ، ورأت الغضب يلتمع فى عينيه ، رغم الابتسامة التى ظلت حائرة على شفتيه ، عندئذ ندمت على كلامها أشد الندم . وقال لورى أخيرا :

— هل فى نيتك أن تسمعينى نصائحك ومواعظك طوال الطريق ؟

قالت :

— قطعا لا . . ولكن لم تسأل ؟

قال :

— لأنك اذا كنت تنوين ذلك ، فالأفضل أن نركب عربة الأتوبيس

حتى نختصر الوقت ، واذا سكتّ عدنا الى البيت سيرا على الأقدام ، إذ عندى أنباء مسلية أحب أن أرويها لك •

قالت :

ــ سأكف عن النصح ، فأسرع بما لديك •

قال :

ــ ولكن أنبائى أسرار دفينة ، فاذا قصصتها عليــك وجب عليــك أن تحدثينى بأسرارك أيضــا •

قالت :

ليس عندى ما أخفيه عنك •

ثم وقفت عن السير فجأة ، وقد تذكرت أنها بالفعل تخفى عنه بعض الأنباء •

فصـــاح لورى:

ــ أنا واثق أنك تخفين عنى سرا ، فهيا اعترف بالحق ، حتى أقص عليك أخبارى •

قالت :

ــ أهى أخبار طيبة ؟

قال :

ــ دون شك ، وأى أخبــار ! إنها تخص أناسا تعرفينهم ، ويجب أن تعلمى بها ، وقد مضى وقت طويل وأنا أتحرق شوقا لاطلاعك عليها ، ولكن ابدئى بما عندك أولا •

قالت :

ــ وهل تحفظ سرى ، ولا تخبر به أحدا فى البيت ؟

قال :

ـ لن أبوح بكلمة منه ٠

قالت :

ـ أتعد بأن لا تغيظنى به ؟

قال :

ـ وهل تعودت أن أغيظك ؟

قالت :

ـ أحيانا ٠٠ وتدهشنى طريقتك الناجعة فى انتزاع أسرار الناس ، لقد ولدت محبا للاستطلاع على ما أعتقد ٠

قال :

ـ شكرا لك ٠٠٠ هيا أسرعى بالكلام ٠

فهمست جوفى أذن صديقها قائلة :

ـ خلفت ورائى قصتين مع صاحب جريدة ، وقد وعد بأن يبلغنى رأيه فيهما بعد أسبوع ٠

وقذف لورى بقبعته فى الهواء عاليا ، ثم تلقفها بيده وصاح قائلا :

ـ مرحى مرحى ٠٠٠ مس مارش ٠٠٠ الكاتبة الأمريكية الشهيرة ٠

قالت :

ـ صه ! لا تسرع بالتفاؤل فقد يرفضهما صاحب الجريدة ٠ على كل حال ، لم يكن ليهدأ لى بال ، حتى أجرب حظى فى الكتابة ، وقد احتطت للأمر فلم أخبر أحدا بنيتى ، حتى لا أخيب آمال غيرى فى اذا أخفقت ٠

قال :

ــ لن تخفقى ! فكتاباتك وقصصك تعتبر فى مستوى شكسبير اذا ما قورنت بالسخافات التى تنشرها الجرائد كل يوم ••• ما أجمل أن نرى قصصك مطبوعة فى الجرائد ، سيكون من حقنا أن نفخر بمؤلفتنا البارعة !

والتمعت عينا جو سرورا لثقة الناس بها ، فقد كان تقدير أصدقائها أثمن لديها من تقريظ عشرات الجرائد التافهة •

قالت وهى تحاول أن تخفى الآمال التى انتعشت بتقدير صديقها ومديحه :

ــ والآن علىّ بسرك ، وإياك أن تخفيه ، وإلا فقدت ثقتى بوعدك •

قال :

ــ لن أرجع فى وعد قطعته على نفسى ، وقد يحرجنى أن أفضح السر ، ولكن لا بأس من المخاطرة ، فمن عادتى أن لا أرتاح حتى أتحدث بما لدى من أخبار مثيرة ••• انى أعرف أين ذهب قفاز ميج !

وكانت نظرات لورى عامرة بالغموض ، ولكن جو وجدت الخبر تافها ، فقالت بخيبة أمل ملحوظة :

ــ أهذا كل شىء ؟

قال :

ــ ستجدينه خبرا هاما ، عندما أخبرك أين يوجد القفاز !

قالت :

ــ أخبرنى اذاً •

وانحنى لورى على أذن جـو ، وهمس بكلمات ثلاث ، أحدثت فى وجهها تغيرا شـديدا مفاجئا • ووقفت الفتـاة فى مكانها جامدة ، وهى تتأمله فى غضب ودهشة ، ثم استأنفت سيرها ، وهى تقول فى حدة :

— كيف عرفت ؟

قالت :

— رأيته •

قالت :

— أين ؟

قال :

— فى جيبه •

قالت :

— طول الوقت ؟

قال :

— نعم ••• ألا ترينه خبرا عاطفيا مثيرا ؟

قال :

— لا ، بل خبر قبيح •

قال :

— ألا يسرك ذلك ؟

قالت :

— لا طبعا ، هذه سخافة ، ولا يجوز أن نسمح بها ••• ترى ماذا تقول ميج اذا عرفت ؟

قال :

— ولكنك لن تخبريها ، وإياك أن تفعلى ...

قالت :

— لا أذكر أننى وعدتك بالكتمان .

قال :

— كان الكتمان أساس حديثنا ، ولقد وثقت بك .

قالت :

— لذا لن أفضح السر فى الوقت الحاضر ، ولكنى مشمئزة جدا ، وليتك ما أخبرتنى .

قال :

— ظننت أن الخبر يسرك !

قالت :

— أيسرنى أن يأخذ انسان أختى ميج ؟ لا ... لقد أخطأت .

قال :

— قد يسرك أن يأخذك انسان فى الوقت المناسب ؟ !

قالت جو بحدة :

— أحب أن أرى أحدا يحاول ذلك !

قال لورى ضاحكا :

— ويسرنى أيضا أن أرى مثل هذه المحاولة !!

قالت جو فى جحود :

— ان الأسرار لا توافق مزاجى ، ولقد أربكتنى بما قلت ...

قال لورى :

— سيعود اليك هدوؤك اذا هبطت معى هذا التل جريا •

وكان الطريق خاليا من العابرين ، وسفح التل ينحدر ناعما معبدا ، فراقت الفكرة جو ، ولم تلبث أن اندفعت الي الأمام جريا ، وقد خلفت وراءها قبعتها ومشطها ، ووصـــل لورى أولا الى نهــاية الطـريق ، ولحقت به جو بعد قليـــل ، وقد زالت ثورة نفسها فى غمرة المجهود البدنى العنيف الذى قامت به •

قالت ، وقد توردت وجنتاها ، والتمعت عيناها سرورا :

— ليتنى كنت حصانا ، حتى أجرى أميالا فى هذا الجو الجميل •• كانت متعة رائعة ، ولكن أنظر ما فعل الجرى بى ؟ كن ظريفا واجمـــع الأشياء التى سقطت منى •

وألقت الفتاة بنفسها تحت شجرة ، فرشت الأرض ببســـاط من أوراقهـــا القرمزية •

وعاد لورى على عقبيه يجمع الأشياء التى سقطت من جو ، وجمعت جو غدائرها ، راجيـــة أن لا يمر بهـــا أحد حتى تكون قـــد أصلحت هندامها • ولكن رجاءها لم يتحقق ، فقد مر شخص فى اللحظة الحرجة ، ولم يكن هذا الشخص سوى أختها ميج التى كانت تسير فى أناقة ملحوظة ، بعد أن أدت بعض الزيارات لصديقاتها •

ووقعت أنظار ميج المهذبة على أختهـــا التى بعثر الهـــواء شعرها وهندامها ، وقالت فى دهشة واستنكار :

— ماذا تفعلين هنا بالله عليك ؟

أجابت جو ، وقد ملأت يدها ببعض الأوراق المتساقطة من الشجرة :

ــ أجمع أوراق الأشجار •

وأقبل لورى يحمل الأشياء التى سقطت من جو ، فالقى بهـا فى حجر صاحبتها ، وهو يقول لميج مداعبا :

ــ انها تجمع أيضا دبابيس الشعر ، فهـذه الدبابيس تنمو على جانبى الطريق ، وكذلك تنمو الأمشاط وقبعات القش البنية اللون •

ورفعت ميج يدها الى رأسها تصلح قبعتهـا وتنظم شعرها ، بعد أن عبث الهــواء بهما بعض العبث ، ثم قالت تؤنب أختها :

ــ بل كنت تجرين ، وانى أرى فيك آثار الجـرى واضحة ، فكيف جرؤت على ذلك ، ومتى تكفين عن هذه الفوضى ؟

قالت جو :

ــ لن أكف عنها حتى أصير عجـوزا كسيحة أسـير على عكازين دعينى استمتع بفتوتى أطـول وقت ممكن ، ولا تدفعينى الى الأخـذ بأساليب الكبار قبل الأوان ، وكفانى عـذابا أن أراك تتغيرين تغيرا مفاجئا هـكذا •

وكانت جو تتكلم وهى تحنى رأسـها ، لتخفى ارتجـاف شفتيها الواضح ، فقد كان يحزنها فى العهد الأخير أن ترى ميج تدخـل فى طور الشباب سريعا ، وتتقدم حثيثا نحو النضج النسـوى ، ثم جاء سر لورى ، فزادها خوفا من أن تتزوج ميج فى يوم من الأيام فتفارقها • وقد رأى الصبى رجفة جـو ، وخشى أن تراها ميج بدورها ، فقـال يشغلها بالحديث :

— أين كنت بهذه الثياب الأنيقة الجميلة ؟

قالت : كنت فى زيارة آل جاردنر ، وقد حدثتنى سالى بتفاصيل عرس بيل موفات ••• كان عرسا رائعا ، سافر العروسان بعده لقضاء شهر العسل فى مدينة باريس •• فتصور هذه المتعة !!

سألها لورى :

— أتغبطينها على حظها يا ميج ؟

قالت :

— أظن ذلك •

قالت جو بلهفة ، وهى تربط شريط قبعتها :

— يسرنى أن أسمع منك هذا الكلام •

وبدت الدهشة على ميج ، فسألت أختها تقول :

— ما الذى يسرك فى كلامى ؟

قالت جو :

— اذا كنت تغبطين الفتاة على ثرائها وتقدرين المال هذا التقدير كله ، فلن تجرى وراء رجل فقير ، وتتزوجيه •

قالت ميج بلهجة الوقار :

— لن أجرى وراء أحد للزواج !

وضحك رفيقاها ، وسارا خلفها الى البيت يتقاذفان بالحصى وأوراق الأشجار ، كما يفعل الصغار على حد تعبير ميج ، وان كانت الفتاة فى قرارة نفسها تود أن تشاركهما فى مرحهما ، ولا يحول بينها وبين ذلك غير ثوبها الأنيق الذى ترتديه •

ومضى أسبوعان ، وتصرفات جو كلها غرابة ، حتى انزعجت أخواتها لأحوالها العجيبة ، وبتن فى قلق لما أصابها ، فقد كانت تجرى الى الباب كلما سمعت جرسه يدق ، وتتوقح على مستر بروك دون مبرر ، واذا رأته يختلس النظر الى وجه ميج ، نهضت فجأة من مجلسها ، وانحنت على أختها تقبلها بلهفة ، كأنها تخشى أن تفقدها • وكانت تبادل لورى الاشارات خفية فى بعض الأحيان ، حتى أعلنها أخواتها بأنها وصديقها قد أصابتهما لوثة أفسدت عقليهما •

وبعد أسبوعين من اليوم الذى خرجت فيه جو بمخطوطاتها الى الناشر كانت ميج تجلس بجوار نافذة غرفتها تطرز ، فأزعجها أن ترى لورى يجرى فى الحديقة وراء جو ، ويلاحقها فى كل ركن تلجأ اليه ، ثم يتماسكان وهما يضحكان عاليا •

وبدا الألم على وجه ميج ، وقالت فى تنهدة وأسف :

— ماذا نفعل بهذه الفتاة الطائشة ؟ ومتى تأخذ بأساليب السيدة الصغيرة المهذبة ؟ !

وكان يسىء بث أن تخفى جو — أختها المفضلة — أسرارها عنها ، ولكنها أخفت استياءها ، وقالت تدافع عن أختها :

— أرجو أن لا تفعل ذلك ، فهى لطيفة عزيزة كما هى الآن •

وقالت آمى ، وقد عقصت شعرها بشكل جميل ، وانشغلت فى اعداد قطعة من الأهداب « الفرنشا » لثوبها ، مما جعلها تشعر بأنها قد أصبحت سيدة صغيرة أنيقة :

— لن نستطيع أن نجعلها مهذبة !

ولم تمض دقائق ، إلا واندفعت جو الى الغــرفة ، واستلقت على الأريكة ، وهى تتظاهر بقراءة مجلة فى يدها •

قالت ميج بتواضع :

ــ أبالمجلة ما يسلينا ؟

أجابت جو ، وهى تخفى اسم الجريدة بيديها :

ــ ليس بها سوى قصة ، لا تستحق الذكر •

قالت آمى بوقار الكبار :

ــ الأفضل أن تقرئيهــا لنا لتســلينا ، وتشغلى نفســك عن خلق المتاعب •

قالت بث ، وقد أدهشها أن تخفى جو وجهها وراء المجلة :

ــ ما عنوان القصة ؟

قالت :

ــ الرسامان الغريمان •

قالت ميج :

ــ انه اسم جذاب ، فاقرئى لنا القصة •

وتنحنحت جو استعدادا ، ثم بــدأت بسرعة ، والفتيات يصغين لقراءتها باهتمام ، فقد كانت القصة عاطفية محزنة ، تنتهى بموت أبطالها جميعــا •••

قالت آمى عندما انتهت أختها :

ــ لقد أعجبتنى القطعة الخاصة باللوحة •

وقالت ميج ، وهى تمسح الدموع عن عينيها :

— انى أفضل الموقف الغرامى ، ومن العجيب أن اسمى فيولا وأنجيليه من الأسماء المألوفة لنا .

قالت بث ، وهى تتأمل وجه أختها :

— من ألف هذه القصة ؟

واعتدلت جو فى مجلسها لهذا السؤال ، وألقت بالمجلة جانبا ، وقالت فى صوت عامر بالحماسة والجد :

— أختكن !

هتفت ميج ، وقد سقط تطريزها من يدها :

— أنت التى ألفت هذه القصة ؟

قالت آمى فى نغمة الناقد الفنى :

— قصة رائعة بمعنى الكلمة .

أما بث ، فقد غلبتها الحماسة لنجاح أختها المفضلة ، فأسرعت اليها تحتضنها وتقبلها وهى تقول :

— كنت واثقة من ذلك كل الثقة ، وأنا فخورة بك يا جو .

وشاعت الغبطة ، واستبد السرور ، وأبت ميج أن تصدق الخبر العظيم ، حتى قرأت بعينيها اسم أختها مطبوعا فى المجلة . وجعلت آمى تبدى انتقاداتها البريئة بروح الفنانة ، ثم تقترح زيادات يستحيل تحقيقها بعد أن مات أبطال القصة كلهم . وغلبت الحماسة بث ، فراحت تدور فى الغرفة ، وهى ترقص طربا وتغنى . وانتشر الخبر فى أرجاء البيت ، فأقبلت الطاهية حنا مهنئة ، واغتبطت مسز مارش بما أصاب ابنتها من نجاح يبشر بمستقبل عظيم . ودارت مجلة

« النسر الطائر » من يد الى يد ، فتضاعف سرور أهل البيت وفخرهن •

والتف أفراد الأسرة حول جو يسألونها ضاحكين :

— حدثينا بما جرى • • متى فعلت ذلك ؟ وكم تقاضيت ثمنا لها ؟ •• ترى ماذا يقول أبونا اذا عرف ؟ وكم سيضحك لورى للخبر !!

هتفت بهم جو ، وقد خيل اليها أن أعظم كاتبات أمريكا لا يمكن أن تكون قد أصابت مثل هذا النجاح العظيم :

— كفى ثرثرة يا بنات ، وسأحدثكن بكل شيء •

وروت لهن جو كيف كتبت قصتين سرا ، وكيف قدمتهما لصاحب المجلة ، فوعدها بابداء رأيه فيهما بعد أسبوع ، ثم قالت :

— وعندما ذهبت اليه أسأله رأيه ، أبدى اعجابه بالقصتين ، ولكنه اعتذر عن الأجر ، وأفهمنى أن المبتدئين لا يتقاضون أجورا عن كتاباتهم ، مكتفين بالنشر الذى يأتيهم بالشهرة تدريجا • وأكد لى أن الكتابة مجانا ، مرانة طيبة حتى يعرف اسمى بين القراء ، واذ ذلك لن يتردد ناشر عن شراء مؤلفاتى • لقد أكد لى رضاه عن القصتين ، ووعد بالدفع فى القصص المقبلة ، وأنا سعيدة جدا لما حدث ، وأملى أن أكسب من قلمى ما يقوم بأودى ، ويعينكن على الاستمتاع بحياة أفضل •

وتقطعت أنفاس جو لفرط تأثرها ، فأخفت وجهها بين طيات المجلة ، وهى تذرف دموع الفرح ، فقد كانت أعظم أمانيها فى الحياة أن تعتمد فى حياتها على جهودها ، وتنال تقدير أسرتها العزيزة الحبيبة • وخيل اليها فى هذه اللحظة أنها خطت الخطوة الأولى نحو النهاية السعيدة المبتغاة •

الفصل الخامس عشر

البرقية

وقفت مارجريت تتطلع من نافذتها الى الحديقة التى أجدبها بـرد الشتاء وصقيعه ، وقالت :

ــ إن نوفمبر أسوأ شهور السنة كلها •

فقالت جو مفكرة ، وهى لا تحس ببقعة الحبر التى علقت بأنفهـا :

ــ لعل السبب أننى ولدت فى هذه الشهر •

وكانت بث متفائلة بطبعها ، تتعلق بالأمل وتسـتبشر بالحياة ، حتى فى شهر نوفمبر المقبض ، فقالت :

ــ لو أن حدثا سارا جاء فى هذا الشهر ، فسوف نعتقد أنه شـهر رائع •

وكانت ميج فى ذلك اليوم ضيقة الصدر متشائمة ، فقالت :

ــ ربما • ولكنى لا أرى شيئا يفرح أو يسر فى حياة هذه الأسرة ، فنحن نكد ونكدح يوما بعد يوم ، والسنون تمر بنا • على وتيرة واحدة ، لا تتغير ولا تتبدل ، ولا ننـال ترفيها ولا تسـلية • نحن كمن يعيش فى طاحونة لا تكف عن الدوران •

فصاحت بها جو تقول :

ــ صبرا ••• صبرا ! • إننا نتشاءم دائما ! لا يدهشنى أن تتبرمى بحياتك الشاقة وأنت ترين غيرك من الفتيات يتمتعن بكل شىء • كم أتمنى

أن أقدم لك بعض ما أقدمه لبطلات قصصي من ألوان المتعة والرفاهية • إنك جميلة الشكل سوف تنالين كل ما تشتهين ، فستسافرين الى الخارج فى رحلات طويلة ، ثم تعودين الينا أرستقراطية عليك هالة من العظمة والأناقة •

فقالت ميج فى مرارة •

— إن الثروات المفاجئة لا تهبط على الناس فى أيامنا هذه ، وعلى الرجال أن يكدحوا فى سبيل الرزق ، وعلى النساء أن يتزوجن من أجل لقمة العيش • إننا نعيش فى دنيا ظالمة •

وكانت آمى تقبع فى جانب من الغرفة وبيدها قطعة من الصلصال تصنع منها تماثيل صغيرة لبعض الطيور والفاكهة • ولم تكن التماثيل على شىء من الجمال ، حتى إن حنا كانت تسميها الفطائر الطينية لشدة بشاعتها • وسمعت آمى حديث أختها ، فقالت تطمئنها :

— سأكوّن لك أنا وجو ثروة طائلة ، فانتظرى عشر سنوات ، وسترين بعدها العجب !

قالت ميج :

— لا طاقة لى على الانتظار طول هذه المدة ، ويؤسفنى أننى قليلة الثقة بقلم جو وصلصالك • ولكنى أشكر لك حسن نياتك على كل حال •

ثم تنهدت وأدارت وجهها الى النافذة التى علق بها الصقيع ، وأسندت جو مرفقيها الى المائدة مزمجرة ، وعادت آمى الى صلصالها تعمل أصابعها فيه بنشاط • وكانت تجلس عند النافذة الثانية للغرفة ، فقالت وهى تبتسم :

ــ أرى أمى مقبلة عند أول الطــريق ، وأرى لورى يسرع السير إلينا ، كمن يحمل أخبارا سارة •

ودخل الاثنان ، فبادرت مسز مارش بناتها بسؤالها المعهود :

ــ ألم تأت رسالة من والدكن يا بناتى ؟

وقال لورى بلهجة مستعطفة :

ــ ألا من تصحبنى الى النزهة ؟ إن الجو لطيف فى الخارج رغم تلبد السماء بالغيوم ، فتعالى معى يا جو وأنت يا ميج نوصل مستر بروك الى منزلة بالعربة ، ثم نطوف بها فى نزهة قصيرة •

أجابت جو دون تردد :

ــ سنذهب معك ولا شك •

وقالت ميج وهى تبحث عن شىء داخل سلة التطريز :

ــ أشكر على دعوتك ، ولكنى مشغولة الآن •

وكان اعتذارها هــذا نتيجة لرغبة أمها فى أن تقلل ما أمكن من مقابلاتها مع الشاب بروك •

وصاحب آمى وهى تهرع الى غسل يديها تقول :

ــ سنكون على أتم استعداد فى بحر دقيقة واحدة •

وانحنى لورى نحو مقعد مسز مارش ، وقال وهو ينظر اليها بمنتهى العطف والحنان :

ألا من خدمة أؤديها لك يا سيدتى الوالدة ؟

قال :

ــ لا ، شكرا ، ولكنك إذا شئت أن تطوق عنقى بجميلك فامض لمكتب

البريد لتستفسر عما إذا كانت لى رسالة غيه ، فقد تعودت أن أتلقى من زوجى خطابا فى مثل هذا اليوم كل أسبوع ، ولكنى لم أتلق شيئا بعد ، وعهدى بزوجى أنه دقيق فى مواعيد خطاباته ، فلعل البريد تأخر لسبب من الأسباب •

وفى تلك اللحظة رن جرس الباب رنينا حادا ، ثم أقبلت حنا تحمل مظروفا ، وقالت وهى تقدمه مرتجفة كأنما هى تخشى أن يتفجر فى يدها :

ــ إنها رسالة من تلك التى يسمونها برقيات •

وما إن سمعت مسز مارش كلمة برقية ، حتى اختطفتها وقرأت السطور التى احتوتها بمنتهى السرعة ، ثم غاض الدم من وجهها ، وتهالكت على مقعدها كأن رصاصة أصابتها فى قلبها • واندفع لورى الى خارج الغرفة يحضر ماء من أسفل الدار ، وهرعت ميج وحنا الى الأم تسندانها ، وقرأت جو البرقية فى صوت واجف ، وكانت كلماتها القليلة تقول :

« مسز مارش ، زوجك مريض جدا ، احضرى حالا •

من س • شيل

مستشفى بلانك • واشنجتون »

وفعلت البرقية عجبا فى الغرفة ، فقد خيم على الجالسين صمت مطلق ، وغشى الوجوه عبوس وشجن . والتفت البنات حول أمهن فى ذعر على أبيهن الحبيب ، مصدر سعادتهن فى الحياة وعائلهن الوحيد •

وعندما استردت مسز مارش سيطرتها على نفسها ، عادت الى البرقية تقرؤها من جديد . ثم مدت ذراعيها الى بناتها ، وقالت فى صوت عامر بالتأثر :

— سأذهب اليه حالا ، ولعلى أصل قبل فوات الأوان ، آه يا أطفالى ! ساعدننى وكن لى عونا على الاحتمال •

ومضت دقائق لم يكن يسمع خلالها سوى نحيب البنات ، وقد اختلط بعبارات التشجيع والمواساة ، أو همسات الأمل التى تتلاشى بين الدموع السخية ، وكانت حنا أول من أفاق من الصدمة ، وضربت للجميع مثلا يحتذى لرجاحة العقل والثبات ، اذ قالت وهى تمسح دموعها بطرف مرولتها ، وتشد على يد سيدتها مشجعة :

— ليحفظ الله زوجك ويشفيه يا سيدتى ، فلا تضيعى الوقت فى النواح ، وأسرعى باعداد حقيبتك •

وانصرفت فى عزيمة كأنها ثلاث نساء تقمصن جسد امرأة واحدة ، فقالت الأم لبناتها :

— ان حنا على صواب ، فليس فى الوقت متسع للدموع ، فاهدأن واتركننى أفكر قليلا •

وبينما حاول البنات المسكينات أن يعملن بنصيحتها ، جلست مسز مارش رابطة الجأش رغم شحوب لونها ، تحاول السيطرة على حزنها لتفكر فيما يجب أن تفعل •

قالت بعد قليل :

— أين لورى ؟

وكانت أشجان الفتيات أوجعت قلب صديقهن الحنون ، فاختلف الى الغرفة الأخرى وحده ، فلما سمع مسز مارش تسأل عنه ، أقبل عليها مسرعا يقول :

— ها أنا ذا يا سيدتى •

قالت له :

— ان أول قطار يقوم صباح الغـد . فأبرق الى المستشفى بموعد وصـولى •

قال ، وقـد بدا على استعداد لخدمتها وتلبية رغباتها ، حتى اذا كانت فى آخر الدنيـا :

— وماذا تريدين أيضـا ؟ ان العربة تنتظر بالباب ، ويسرنى أن أذهب الى أى مكان وأعمل ما تريدين •

قالت :

— أرجو أن تحمل رسالة الى العمة مارش ، أعطينى يا جو قلمـا وورقـا •

وأحضرت الفتـاة ورقـة بيضـاء من كراس مذكراتها ، وسحبت منضدة صغيرة وضعتها أمام أمهـا • وكانت تعلم ألا مفر من اقتراض بعض المال ، حتى تستطيع أمها أن تقوم بنفقات رحلتها المحزنة ، وتمنت فى قرارة نفسها أن لو كان فى مقدورها أن تفعل أى شىء لتضيف قليـلا الى المبلغ ، فى سبيل أبيها الحبيب •

ولمـا انتهت مسز مارش من رسالتها ، قالت للورى :

— خذ هذه الرسالة يا عزيزى ، ولا داعى لأن تستميت فى الاسراع بهـا ، فما زال أمامنا بعض الوقت •

ولكن الفتى لم يستمع لرجائها ، فما إن مضت خمس دقائق ، حتى

كان يمتطى حصانه ، ويمر به كالسهم أمام النافذة ، فى طريقه الى بيت العمـــة مارش •

وقالت الأم :

ـ اذهبى يا جو الى مسز كنج واعتذرى لها من عدم حضورى ، وفى عودتك أحضرى الأشياء المكتوبة فى هذه الورقة ، فان المستشفيات فى هــذه الأيام غير كاملة الاستعداد ، وربما احتجت الى بعض العقاقير فى تمريض أبيك ، وأنت يا بث اذهبى الى مستر لورنس واطلبى منــه زجاجة نبيذ معتق ، فانى أحب أن أقدم لأبيك أحسن الأشــياء ! ولو اضطرنى الأمر الى التسول فى الطرقات • وأنت يا آمى قولى لحنـــا أن تأتينى بحقيبتى السوداء ، أما أنت يا ميج فعليك أن تساعدينى فى جمع حاجاتى لأننى فى أشد الاضطراب •

وكان خليقا بالســيدة أن تضطرب ، وعقلهـــا موزع بين الكتابة والتفكير ، واصدار الأوامر ، فرجتها ميج أن تجلس فى غرفتها هادئة ، وتترك لهن العمل • وانتثر البنات فى أرجاء البيت ، كمـــا تنتثر أوراق الخريف فى يوم عاصـــف ، واختفى السكون والهدوء عن البيت السعيد ، كأنما كانت تلك البرقية نذير شؤم وشر •

وجاء مستر لورنس العجــوز مع بث مسرعا ، وكان يحمل معـــه كل ما يراه مفيــدا للمريض ، وطمأن الأم الى أنه سيرعى البنـــات فى غيابها ، وبذلك أدخل على قلبها راحـــة واطمئنانا • ولم يقف فى سخائه عند حـــد ، فقد أعطاها معطفه ليقيها من البرد ، وأبدى منتهى استعداده لمرافقتها فى رحلتها ، ولكنها أبت عليه أن يتحمل هذه المشقة ، وإن كانت تتمنى فى قرارة نفسها من يعينها على وعثاء السفر ، ويقويها على احتمال

متاعب الرحلة الطويلة • ورأى السيد العجوز ما ارتسم على وجهها ، فقطب حاجبيه وفرك كفيه ، ثم انصرف عن الحجرة هادئا • ولم ينتبه أحد لخروجه ، ولم يفكر فيه ، الى أن أقبلت ميج تجرى وقد حملت فى إحدى يديها حذاء أمها المطاط ، وفى الأخرى فنجانا من الشاى •

وما إن ولجت الباب حتى رأت فجأة مستر بروك يقف بمدخل الدار • قال لها فى صوت هادىء عطوف بعث بعض الطمأنينة الى قلبها الحائر :

ـ تألمت كثيرا لتلك الأخبار السيئة يا آنسة مارش ، وقد جئت أقدم نفسى راجيا أن تسمح لى والدتك بمرافقتها فى سفرها ، ومن دواعى راحتى وسعادتى أن تقبل منى هذا الرجاء •

وسقط الحذاء من يد الفتاة ، وكاد الشاى ينسكب من يدها الأخرى وتورد وجهها اعترافا بجميله ، ومدت يدها اليه تصافحه شاكرة • وكان مستر بروك يعتبر هذه اليد مكافأة عظيمة تزيد كثيرا على تضحيته الصغيرة ببعض مجهوده ووقته •

قالت الفتاة :

ـ يا للعطف والكرم ! لست أشك فى أنه يسر أمى أن تسافر فى رفقتك ، ولا أظن إلا أنها ستنال كل الراحة معك ، فشكرا لك ، شكرا جزيلا •

وكانت ميج تتحدث باخلاص وحرارة آنستها نفسها ، ولكن شيئا فى تلك العيون العسلية التى تنظر اليها ، جعلها تذكر فنجان الشاى الذى كاد يبرد فى يدها ، فقادت الضيف الى الردهة ، وذهبت تنبىء أمها بقدومه •

وعاد لورى من عند العمة مارش ، يحمل المبلغ المنشود ، مع رسالة تعيد فيها ما سبق أن قالته مرارا ، من أنها كانت سخافة من مستر مارش أن يلتحق بالخدمة العسكرية التى لن تعود عليه بالخير ، وأنها تأمل أن يستمع لنصحها فى المرة القادمة • وألقت مسز مارش الرسالة فى الموقد ، وأودعت النقود حقيبتها ، وراحت تكمل استعدادها ، وقد زمت شفتيها ، دليل ثورتها النفسية المكبوتة •

ومضى عصر ذلك اليوم الحزين ، وقد أدى كل عمله على أكمل وجه ، ثم جلست ميج مع أمها تحوك الأشياء الضرورية ، وعكفت آمى وبث على اعداد الشاى ، وانتهت حنا من كى الملابس • وقد حدث ذلك كله ، وجو لم تعد الى البيت بعد ، مما بعث القلق فى نفوس أمها وأخواتها ، لأنها لم تكن قد أخبرت أحدا بوجهتها ، فخرج لورى يبحث عنها وهو يسأل نفسه : أية فكرة عجيبة تملكت رأس الفتاة ؟ ولكن بحثه ذهب عبثا ، فما إن انصرف عن البيت يبحث عنها ، حتى أقبلت من طريق آخر تسير مسرعة ، وفى عينيها نظرة عجيبة يمتزج فيها الخوف بالسرور ، ويختلط الرضا بالندم • وتوجهت الى أمها مباشرة ، وقدمت لها رزمة من الأوراق المالية ، وقالت بصوت مختنق بالتأثر :

— هذا نصيبى من واجبنا نحو أبى ، فأرجو أن تستعينى به على توفير بعض الراحة له حتى يعود •

قالت الأم فى دهشة بالغة :

— خمسة وعشرون ريالا ! كيف أتيت بها ومن أين ؟ أرجو أن لا تكونى قد أتيت عملا طائشا لتحصلى عليها يا جو ؟

قالت الفتـــاة :

ــ لا . إنه مال حلال ، لم أتسوله ولم أقترضــه ولم أسرقه ، إنما جئت به عن أشرف الطرق وأنظفها ، ولن يلومنى أحــد اذا كنت قد بعت شــيئا أملكه .

ورفعت قبعتها عن رأسها ، فبان شعرها وقد قصته قصيرا جدا ، فتصايح أخواتها ، وقالت أمها فى انزعاج شديد :

ــ شعرك ! شعرك الجميل ! كيف جرؤت على قصه يا جو ؟ إنه الشىء الجميل الوحيد فيك ! لم نكن فى حاجة الى هذه التضحية يا بنيتى العزيزة ، ولكنى ازددت لك حبا بما فعلت .

وبينما الأسرة فى هرج ومرج لـما فعلته جو بشعرها ، قامت بث الى أختها الحبيبة تحتضنها فى إعزاز وحنان ، وتمر بيدها الرقيقة على رأسها ، كأنها تريد بذلك أن تعبر لها عن تقديرها العظيم لتضــحيتها الغالية . فقالت جــو وهى تثير بيدها شعرها القصــير وتتظاهر بعدم الاكتراث :

ــ كفى نواحا يا بث ، فلن يصيب الوطن ضرر مما جرى . كان غرورى بشعرى قــد بدأ يقهرنى ، فرأيت من صالحى أن أقصه . لقد خففت الحمل عن رأسى ، وسوف ينشط عقلى بزوال هذه المعرفة ، كمــا أنى أحس بطراوة الجو وجماله . لقد أكد لى الحلاق أن شعرى لن يلبث أن ينمو سريعا ، فتظهر به تجاعيد جــديدة ، تجعله صبيانيا أنيقــا ، سهل الترتيب والتنظيف . إنى راضية بما حدث فأرجو أن تتقبلى النقود يا أماه ، وهيا بنــا الى العشــاء .

قالت مسز مارش :

— أما أنا فغير راضية عمـا فعلت يا جـو ، ولا ألومك ، لأنى أعرف مدى استعدادك للتضحية بكبريائك فى سبيل من تحبين • لم يكن من الضرورى أبدا أن تقصى شعرك ، وأخشى أن يلحقك الندم فى يوم من الأيام ، فأخبرينى بكل ما جرى •

قالت جو فى كبرياء ، وقد اطمأنت الى أن فعلتها لم تلق رفضا على طول الخط :

— لا ، لن أخبرك يا أمـاه •

وقالت آمى ، وكان أهون عليها أن تقطع رقبتها من أن يقص شعرها الجميـل :

— ما الذى دفعك الى فعـل ذلك ؟

قالت جو ، وقد التأم شمل الأسرة حول مائدة الطعام ، وجلس البنات — كشأن الشباب — يأكلن بشهوة رغم أحزانهن :

— انتابتنى رغبة صارخة فى أن أساهم بشىء فى معونة أبى على الشفاء ، ولما كنت كأمى أمقت القروض ، وأعلم أن العمة مارش سترفض معونتنا لشحها ، وكانت ميج قد ساهمت بمرتبها فى دفع أجرة البيت ، لذلك بحثت عن شىء أبيعه ، فلم أجـد سوى ملابس قليلة ، فأشقانى شعورى بالعجز ، ولم أجد أمامى سبيلا الى الحصول على المال سوى أن أجـدع أنفى وأبيعه •

فقالت مسز مارش وهى تلقى عليها نظرة حنان أفعمت قلب الفتاة بالسـعادة :

ــ ما كان يجدر بك أن تشقى يا بنيتى ، فان راتبك الضـئيل لم يسمح لك بشراء ملابس هــذا الشتاء رغم احتياجك الشديد اليها •

قالت :

ــ لم يجل بخاطرى أول الأمر أن أبيع شعرى ، ولكن بينما كنت أسير فى الطريق ، وأنا أفكر فيما يمكننى عمله ، وأتمنى لو كان فى مقدورى أن أدخل حانوتا من تلك الحوانيت الأنيقة ، أغترف منه ما أريد ، مررت بمحل حــلاق ، ورأيت فى واجهته جدائل سوداء مستعارة ، ليس فيها ما يضارع جدائلى جمالا وطولا ، ومع ذلك كان ثمن الواحدة منها أربعين ريالا ، وعندئذ وانتتنى الفكرة ، واستقر رأيى على أن أبيع شعرى من أجــل أبى • ولم أقف لأفكر فى الأمر ، بل اندفعت الى داخل المحــل مسرعة ، وسألت الحلاق إن كان يشترى شعرى وكم يدفع ثمنا له •

فقالت بث فى صــوت ملىء بالهلع :

ــ لا أدرى كيف جرؤت على ذلك ؟

قالت :

ــ كان الحلاق رجلا صغير الحجم ، بالغ الأناقة ، يصفف شعره ويلمعه بالدهون ، فوقف يحملق فىّ أول الأمر ، كما لو كنت أول فتــاة اقتحمت عليه محله لتبيعه شــعرها ، ثم قال إن لون شــعرى كثير فى السوق ، واعداده للبيع يتكلف غاليا ، الى غير ذلك من العبارات المقبضة • وكان الوقت قــد تأخر بى ، فخشيت إن طال الجدل بيننا أن أعدل عن بيع شعرى ، وهو مالا أريده أمام رغبتى الجارفة فى تحقيق غرضى بأى شكل كان ، ولذلك شرعت أرجوه وأستعطفه أن يشــتريه ، وفى غمرة انفعالى سردت عليه لماذا أريد النقود • كانت ســخافة منى ولا ريب ،

ولكن الانفعال الذى تملكنى وأنا أحـدثه عن والدى أثر فيه ، فعـدل عن رأيه ، كما أن زوجته سمعت حـديثى ، فقالت فى رقة : « خـذه يا توماس إرضاء للسيدة الصغيرة ، لو كنت مكانها ما ترددت فى التضحية بشعرى من أجـل جيمى ، ومـا توانيت عن بيعـه اذا كان يسـاوى شـيئا » •

وكانت آمى بطبعها تهتم بالتفاصـيل ، فقالت :

— ومن يكون جيمى هـذا ؟

قالت جـو :

— إنه ابنها الذى تطوع فى الجيش ، وقد قربنى الى قلبها تشابه ظروفنا ، وأزال الكلفة بينى وبينها ، فجعلت المرأة تحدثنى وتلهينى عن التفكير فى أثناء قيام زوجها بقص شعرى •

فسألتها ميج وبدنها يقشعر لهول الوصـف :

— ألم تشعرى بفظاعة الأمر عندما قص أول خصـلات شعرك ؟

قالت :

— ليس من عادتى أن أنوح على صغائر الأمور ، ولذلك اكتفيت بأن ألقيت على شعرى نظرة وداع قبل أن يعمل الحلاق فيه بمقصه ، ولكنى شعرت بغصة فى حلقى عندما رأيت جدائلى على المائدة ، وخيل الىّ أننى بترت ذراعى أو ساقى ، ورأتنى زوجته أتطلع الى شعرى فى أسف وحسرة ، فتناولت منه خصلة وقدمتها لى تذكارا • وسوف أعطيك إياها يا أماه كى تذكرك بمجد شعرى الزائل ، فلا أعتقد أننى سأرسله على ظهرى مرة أخرى ، كما كنت أفعل فيما مضى • إن الشعر القصير مريح للغاية على كل حال •

وطوت مسز مارش الخصلة الكستنائية المتموجة ، ووضعتها فى درجها الى جانب خصلة أخرى من الشعر الأشيب القصير ، ثم قالت :

— شكرا لك يا عزيزتى •

وكان فى صوتها رنة حزن دفين ، جعلت الفتيات يغيرن موضوع الحديث ، ويتكلمن فى مرح مصطنع عن لطف مستر بروك ، وأملهن أن يكون الجو صحوا فى اليوم التالى ، ثم الأوقات السعيدة التى تنتظرهن عندما يعود أبوهن الى البيت فى دور نقاهته •

ولم تبد واحدة رغبتها فى النوم ، حتى وافت الساعة العاشرة ، فوضعت مسز مارش أدوات التطريز فى سلتها ، ثم دعت البنات الى الغناء ، وجلست بث الى المعزف توقع عليه أحب أنشودة الى أبيهما • ووقف أخواتها حولها يغنين بشجاعة ، ولكنهن سكتن الواحدة بعد الأخرى حتى لم يعد يسمع سوى صوت المعزف ومعه بث تغنى بكل قلبها ، فقد كانت الموسيقى دائما وسيلتها الى السلوان والعزاء •

ولما انتهى النشيد ، قالت مسز مارش ، وقد لاحظت عزوف بناتها عن الغناء :

— هيا الى أسرتكن ، فعلينا أن نستيقظ مبكرات ، وأخشى أن يأخذنا النوم اذا أطلنا السهر • سعدتن مساء أيتها العزيزات •

وفى هدوء وسكون قبل الفتيات أمهن ، ثم انصرفن الى أسرتهن فى صمت ، كأن أباهن المريض يرقد فى الحجرة المجاورة • وسرعان ما غرقت آمى وبث فى نومهما ، رغم هموم اليوم وأحزانه ، ولكن ميج ظلت ساهرة تفكر فى أمور جدية ، لم يسبق أن خطرت لها على بال من قبل • ورقدت

جـو ساكنة بلا حراك ، فظنتها أختها نائمة ، حتى أفلتت منها نوحـة مكبوتة ، جعلت ميج تنهض اليهـا وتمـد يدها الى خدها لتجده مبللا بالدموع • قالت :

— ماذا بك يا عزيزتى جـو ؟ أتبكين من أجل أبى ؟

قالت :

— لا • لست أبكى الآن من أجله •

قالت :

— لماذا تبكين اذاً ؟

قالت جـو :

— شـعرى •

وانفجرت المسكينة تبكى فى حرقة وهى تحاول أن تخفى عبراتها فى وسادتها • ولم يكن فى ذلك ما يسر ميج ، فانحنت على أختها تضـمها بين ذراعيها مشجعة مواسـية •

قالت جـو ، والعبرات تخنقها :

— لست نادمة على ما فعلت ، ولن أتردد فى فعله مرة أخرى ، إنما هى كبريائى الفارغة تستدرج هذه العبرات السخيفة • لن أبكى بعـد الآن ، فلا تخبرى أحـدا ، ولكن ، ما الذى أبقاك ساهرة الى الآن ؟ لقد ظننتك نائمة ، فأطلقت أنة صغيرة من أجل جمالى الضائع •

قالت ميج :

— إن القلق يسهدنى •

قالت جـو :

— اسرحى بخيالك فيما يسر يعاودك النوم حالا •

قالت :

— لقــد حاولت ذلك فزاد بى الأرق •

قالت :

— وفيم كنت تفكرين ؟

قالت ميج وهى تبتسم لنفسها فى الظــلام :

— فى وجوه وسيمة ، ذات عيون جميلة •

قالت جــو :

— وما لون العيون الذى تفضلينه ؟

قالت :

— العسلية •• أقصد الزرقاء فى بعض الأحيان تعجبنى •

وضحكت جو ، فنهرتها ميج وأمرتها أن تكف عن الكلام ، ثم عادت فوعدتها بأن تجعد لها شعرها القصير • وما لبثت ميج أن غلبها النعاس ، لتحلم بالحيــاة فى قصرها الذى بنته فى الهواء •

وبينما كانت الساعة تدق معلنة منتصف الليل ، انسل شبح فى هدوء وسكون ، وجعل يطوف من فراش الى فراش ، يسوى الغطاء على هذا ، ويعدل وسادة فى ذلك ، ويقف ممعنا بعض الوقت فى الوجه النائم ، ثم يطبع عليه قبلة خفيفة من شفاه ساكنة ، ويدعو الله فى صلاة حارة ، لا تنطلق الا من صدر أم حنون • ورفعت مسز مارش جانبا من الستائر ، وسرحت ببصرها فى الليل الساكن ، وفجأة برز القمر من وراء السحب المعتمة ، وألقى ضوءه الفضى من قرصــه اللامع البراق الذى بدا كأنه يهمس قائلا :

— ليطمئن قلبك العزيز ، إن الغيوم لن تلبث أن تنقشع ، فينبلج النور بعــد الظلام •

الفصل السادس عشر

رســائل

استيقظ الفتيات مع عتمة الفجر البارد . فأضأن المصباح ورحن يصلين فى إيمان خاشع ، لم يسبق لهن أن شعرن بمثل شدته . إذ كانت هذه أول مرة يتهددهن فيها خطر حقيقى . وأدركن معه عظم النعمة التى كانت تملأ حياتهن من قبل . وبعثت الصلاة راحة فى قلوبهن ، فلرتدين ثيابهن وقــد استقر رأيهن على أن يودعن أمهن فى بشر وتفاؤل ، حتى لا يزدن همومها بالبكاء ، فتبدأ رحلتها مطمئنة النفس راضــية .

وكان السكون يسود المدينة خارج البيت ، على عكس الحركة التى تدب فى داخله ، فما إن هبطن السلم الى الردهة حتى رأين الافطــار معدا فى تلك الساعة المبكرة ، وقد بدا لهن تناول الطعام أمرا عجيبا فى مثل هــذا الوقت ، ولكن شكل حنا كان أعجب وأغرب ، وهى تسرع جيئة وذهابا بين المطبخ والردهة فى ثوب نومها وقلنسوة رأسها . ورأين الحقيبة الكبيرة معدة بجوار الباب ، وعباءة الأم وقبعتها موضوعتين على الأريكة ، وأمهن نفسها تجلس أمام مائدة الافطار ، وهى تحــاول أن تغرى نفسها بالأكل ، ولكنها كانت ممتقعة اللون لطول الأرق والقلق ، فكان عسيرا على البنات أن يتظاهرن بالهدوء والمرح ، بعدما رأين فى سيما الأم من صور الألم والشجن . واغرورقت مقلتا ميج بالرغم منها ، واضطرت جــو أكثر من مرة أن تخفى وجهها وراء أدوات الطعام التى تحملها ، أما الصغيرتان فقــد اكتسى وجهاهما بغشــاوة من الوجــوم وكأنهما تجربان شعور الحزن لأول مرة .

وجلسن فى انتظار العربة هادئات ، ولم يتبادلن سوى كلمات قليلة ، فلما اقترب موعد الرحيل ، قالت مسز مارش لبناتها اللواتى شغلن بأمرها : هذه تصلح شالها ، وتلك تسوى شرائط قبعتها ، وثالثة تلبسها حذاءها ، ورابعة تقفل حقيبة يدها :

— إنى أترككن يا أطفالى فى رعاية حنا وحماية مستر لورنس ، فطاهيتنا أصدق مثل للاخلاص ، وجارنا خليق بأن يمنحكن رعاية الأب الحنون وحمايته . ولكننى رغم شديد اطمئنانى عليكن ، أحب أن تحسن التصرف فى هذا الظرف السيىء ، فلا تستسلمن للحزن والقلق عند ذهابى ، أو تهربن من الأحزان بالوحدة والانزواء • إن فى العمل عزاء كريما ، فاعملن بجد واجتهاد ، واملأن فراغكن بكل طيب مفيد ، واذكرن دائما أن شقاوة لن تصيبكن مهما كانت الظروف •

قالت الفتيات :

— سنطيعك فى كل ما تريدين يا أماه •

قالت الأم :

— أنت يا عزيزتى ميج ، كونى حريصة وراقبى أخواتك ، واستشيرى حنا فى كل ما يشكل عليك . واذا استعصت عليك المشورة فاذهبى الى مستر لورنس • وأنت يا جو ، لا تكونى ضيقة الصدر ، ولا تنسى ضبط النفس ، وعليك أن تكتبى الىّ بالأخبار دائما ، وكونى شجاعة مرحة لتعاونى أخواتك على الاحتمال • وأنت يا بث ، اطلبى العزاء فى معزفك . فالموسيقى أطيب غذاء لنفسك ، وكونى أمينة فى أداء واجباتك المنزلية الصغيرة • أما أنت يا آمى ، فابذلى المساعدة ما أمكنك وكونى مطيعة ، وابقى فى البيت سعيدة آمنة •

أجاب الفتيــات :

ــ سنفعل ما تأمرين به يا أماه •

وتعالى فى الطريق ضــجيج عربة قادمة ، فأجفل البنات وأرهفن السمع ، لاقتراب اللحظة العصيبة • ولكنهن ثبتن أمام لوعــة الوداع فلم تبك واحــدة منهن ، أو تنطق بكلمة محزنة ، رغم ما أثقل قلوبهن من هم • وأوصين أمهن بأن تحمل لأبيهن عبارات الشوق والحب . على الرغم ممــا جال بخواطرهن ، من أن تلك العبارات قــد لا تصــل اليه أبــدا •

وكان مستر لورنس وحفيده قد حضرا لتوديعها أيضا ، وكان مستر بروك يبدو قويا رزينا عطــوفا ، حتى قال الفتيات إنه صــورة للســيد المهــذب الطيب •

ولاذ الفتيات بصدر أمهن مودعات فى هدوء ، فهمست مسز مارش وهى تقبل الوجوه العزيزة واحدا بعد الآخر ، قبل أن تصعد الى العربة :

ــ الى اللقاء يا عزيزاتى ! وليباركنا الله ويحفظنا جميعا •

وتظاهر الفتيــات بالبشر ، ورفعن أيديهن مودعات ، وكانت مسز مارش تطل عليهن من نافذة العربة ، فظل وجههــا مائلا حتى طــواها الطريق ، وعندئذ برزت الشمس فوق الأفق ، كأنها تبشرهن بالخــير ، وألقت نورها على الجماعة التى تقف أمام باب الدار ، ورأتها الجماعة فابتسموا وهتفوا متفائلين • وكان آخر ما رأته الأم أربعة وجوه صبيحة ، من خلفها يقف مستر لورنس العجوز ، وحنا المخلصة ، ولورى الصديق العزيز ، كأنهم حرس يقوم على حماية بناتها العزيزات •

والتفتت مسز مارش الى رفيقها فى العربة ، فرأت فى وجهه الفتى معانى جـديدة ، كلها عطف واحترام ، قالت :

ــ لقد غمرتمونا بعطف شديد ٠

فضحك مستر بروك ضحكة لطيفة ، ثم تتمالك السيدة معها إلا أن تبتسم ٠ قــال :

ــ هــذا أقل ما يجب ٠

وهكذا بدأت الرحلة الطويلة بشمس مشرقة ، وبسمات طيبــة ، وكلمات رقيقة مشجعة ٠

وعندما ذهب مستر لورنس وحفيده الى بيتهما لتناول الافطـار ، قالت جــو :

ــ إنى أشعر كأنما قــد زلزلت الأرض زلزالها ٠

وقالت ميج فى وجــوم :

ــ وأنا أحس بأن نصف ما فى البيت قــد ذهب ٠

وفتحت بث فمها لتقول شيئا ، ولكنها توقفت وأشارت بيدها الى مجموعة من الأحذية اصطفت فوق منضدة أمها فى عناية ونظام ، كأنها تريد بهذه الاشارة أن تؤكد لأخواتها أنها قامت بواجبها ، رغم همومها وأحزانها ٠ وكان جهدا تافها فى حــد ذاته ، ولكن معناه الجميل لمس قلوب أخواتها ، فانهارت مقاومتهن دفعة واحــدة ، وانفجرن فى عاصفة من البكاء المــرير ٠

ورأت حنــا أن تتركهن يفرغن بالبكاء أحزانهن ، فسكبن الدمــع

مدارا ، حتى هدأت العواصف فى قلوبهن ، وعندئذ فقط أقبلت الطاهية الطيبة تحمل ابريقا عامرا بالقهوة الساخنة . ثم قالت :

— والآن يا سيداتى العزيزات ، تذكرن نصـيحة أمكن ، واتركن الحزن والبكاء ، وهيا الى القهوة ، ولنغرق بعدها أنفسنا فى العمل ، لنكون جديرات باسم هـذه الأسرة •

وكانت حنا قد بذلت فى صـنع القهوة مجهودا عظيمـا ، فجاءت لذيذة الطعم جميلة النكهـة ، وكانت أبخرتها المشـهية أعظم محرض للفتيات على شربها ، فجلسن الى المائدة يملأن فناجينهن من الأبريق ، ويكفكفن الدمع بالمناديل والفوط • ولم تمض عشر دقائق حتى عادت الأمور الى مجاريها •

قالت جو ، وهى تسترد سيطرتها على مشاعرها :

— علينا بالأمل والعمل ، فبهذا نصحتنا أمى ، ولذلك سوف أذهب كعادتى الى العمة مارش ، رغم ما ينتظرنى من نصحها ونقدها •

وقالت ميج ، وقد ساءها احمرار عينيها :

— وسأذهب لعملى عند آل كنج ، وإن كان بودى أن أبقى اليوم فى البيت أدبر شئونه •

— فقالت آمى فى اعتداد :

— لا داعى لذلك ، ففى وسعى أنا وبث أن نؤدى أعمال البيت على مـا يرام •

وكانت بث تعد الحوض للغسيل ، فقالت تتم حديث أختهـا :

— سوف ترشدنا حنــا الى ما يجب أن نعمله ، وسيكون البيت منظما عند عودتكما •

وقالت آمى وهى تلتهم قطعة من السكر :

— إن القلق شعور مثير •

وضحك البنات عاليا لقولها ، فارتاحت صدورهن بالضحك ، وهزت ميج رأســها عجبــا من تلك الفتــاة التى تتاوم الحزن بالتهام قطــع الســكر !

وسرعان ما استعدت جو وميج لعملهما ، وخرجتا من البيت ، وعند منعطف الطريق التفتا خلفهما كعادتهما ، تنظران الى النافذة التى اعتادت الأم أن تودعهما منها كل صباح ، فطالعهما وجــه بث المتورد ، يومىء اليهما فى ابتسامة مشرقة ، فقــد عز على الصــغيرة الطيبة أن تنصرف اختاها حزينتين ، ولذلك اختارت أن تقوم بدور الأم الغائبة • ولوحت جــو بقبعتها تشكر لأختها لفتتها الحنون ، وقالت لميج قبل أن تفترق عنها عند المنعطف :

— هذا ما كنت أتوقعه من العزيزة بث ، الى اللقــاء يا ميجى • وأتمنى أن لا يرهقك آل كنج ، ولا تتقلقى من أجل أبى •

فردت ميج وهى تكبت بسمة بعثها منظر شعر جو القصير :

— وآمل أنا أيضا أن لا تثيرك العمــة مارش بنقــدها المر ، ولا تستائى ان فعلت ، فان شعرك جميل وشكله صبيانى لطيف •

فربتت جــو على قبعتها وقالت :

ـ هـذه عزائى الوحيد •

وسارت فى طريقها ، كما يسير حمل مجزوز الصوف فى يوم عبوس قمطرير •

وجاءت الأخبار عن أبيهن تبعث الراحة والأمل ، فرغم خطـورة مرضـه ، تحسنت حاله على أثر حضور زوجته الطيبة ، التى كانت له أحسن ممرضـة وأرق مواسية •

وقام مستر بروك بارسال نشرة يومية لابنات يطلعهن فيها على صحة أبيهن • وأصرت ميج ـ بحكم أنها أكبر الأسرة سنا ـ أن تقرأ عليهن هـذه النشرات بصوت مرتفع • وجعلت أخبار النشرات تتحسن يوما بعـد يوم ، فيزداد بهـا سرور البنات واطمئنانهن ، وتتضاعف قابليتهن لكتابة الخطابات لأمهن ، فكانت المظاريف المفعمة بالصـفحات الطـويلة المليئة بالأخبار ، ترسل كل صباح الى مقر الأم فى واشنجتون ، أحسن البلاد وعاصمتها • ولمـا كانت تلك الرسائل تحوى أخبارا ترسم صورة نموذجية ، لذلك نسترق بعضا منها ، نقدمه فيما يأتى :

« يا أعز الأمهات

لا يمكنك أن تتصورى مبلغ السعادة التى بعثها فينا خطابك الأخير ، فلم نتمالك أنفسنا من أن نضحك ونبكى فى وقت واحد • إنه لحظ جميل أن تستدعى أعمال مستر لورنس بقاء مستر بروك فى واشنجتون طوال هـذه المدة ، ففى وجوده قريبا منك ، عون كبير لك ولأبى • إن الفتيات على أحسن حال ، فجو تساعدنى فى التطريز ، وتصر على أداء الأعمال الشاقة • وهى تعمل فوق طاقتها ، ولكنى غير قلقة عليها ، لمعرفتى بأن « نوبة التضحية » التى تتملكها الآن ، لن تدوم طويلا • كذلك بث تقوم

بعملها كالساعة الدقيقة ، لا تنسى شيئا مما أوصيتها به ، ولكن مرض أبى يحزنها دائما ، ولا تكف عن حزنها إلا عندما تجلس الى معزفها •• أما آمى فهادئة مطيعة . وأنا أرعاها بكل عناية ، وقد تعلمت الآن أن تمشط شعرها بنفسها ، كما أنها بدأت تتعلم عمل عروات الأزرار ، وتبذل جهدا كبيرا فى ذلك ، وسوف يسرك مدى التقدم الذى بلغته عندما تعودين •

« مستر لورنس يحدب علينا ويرعانا كالدجاجة العجوز ، على حد تعبيره ، ولورى الطيب يرعى حقوق الجيرة ، وعندما يخيم علينا الحزن ، ونشعر كأننا أيتام لبعدكما عنا . يقوم هو وجو بتوفير أسباب السرور والمرح لنا • أما حنا فهى الطيبة بعينها ، لا تؤنبنا مطلقا ، وتصر على أن تنادينى « بالآنسة مارجريت » وتعاملنى بكل احترام •

« إننا جميعا بخير لا نكل عن العمل ، ولكننا نتوق لعودتكم ، ونفكر فيكم بالليل والنهار • بلغى أبى خالص محبتى ، ودمت لابنتك ميج » •

وكانت هذه الرسالة المكتوبة على ورق معطر . تختلف كل الاختلاف عن رسالة أخرى ، كتبت على ورقة كبيرة ، من النوع الرخيص ، فى خط كبير الحروف ، تتخلله بقع الحبر ، وقد جاء فيها :

« أمى الغالية :

« تحيات ثلاث لأبى العزيز ! كان تصرفا هائلا من بروك أن يرسل برقية حال وصولكما ليطمئننا على صحة أبى • لقد قفزت من حجرتى سرورا عند وصول البرقية ، وحاولت أن أشكر الله لرأفته بنا . ولكن الدموع غلبت خطواتى فوجدتنى أبكى وأقول :

إنى فرحة ! إنى فرحة ! أفلا تقوم هـذه الجملة مقام الصـلاة ؟ إنى أشعر بأن قلبى مفعم بالشكر لله عز وجـل .

« إننا نمضى بعض وقتنا فى الضحك والسرور ، ويمكننى الآن أن أتمتع بهذه السويعات المرحة ، فكلهم يرعانا ويحدب علينا ، كأننا نعيش فى برج سعيد للحمام .

« قد يضحكك كثيرا أن ترى ميج الآن ، وهى تترأس مائدة الطعام ، وتحاول أن تكسب نفسها مظاهر الأمومة . إنها تزداد حسنا كل يوم ، وإنى أحبها فى بعض الأحيان . ان الصغيرتين فى طهر الملائكة وطيبتها ، أما أنا — أنا جو — فسأبقى كما أنا . لقد كادت تنشب بينى وبين لورى معركة حامية ، فقد قلت رأيى بصراحة فى أمـر تافه صغير ، وكنت على حق ، ولكنى أسأت التعبير ، فغضب منى وقفل راجعا الى بيته ، وهو يهدد بأنه لن يعود الى زيارتنا حتى أعتذر له ، وأطلب الصفح منـه . فجن جنونى لتحديه ، وأجبت بأننى لن أعتذر له أبدا ، ودام الخصـام طوال اليوم ، وانتابنى حزن شـديد ، وتمنيت لو كنت معى لتقودينى الى الصـواب ، لأن شخصية لورى مثل شخصيتى تماما ، فكلانا عنيد معتد برأيه . وظننت فى بداية الأمر ، أنه لن يلبث أن يقرنى على ما قلت ما دمت على حق ، ولكنه لم يأت ، ولم يرجـع عن رأيه . وعندما ولى النهار ، وأظلمت الدنيا ، تذكرت يوم سقطت آمى فى النهر ، فنصحتنى بأن لا أدع شمس اليوم تغيب وقلبى مفعم بالغضـب . وانكببت على كتاب العظات أقرأ فيه بشغف ، حتى ارتاح قلبى قليـلا ، وعنـدئذ هبطت السلم جريا ، وكلى رغبة فى أن أعتذر للورى . وقابلته عند باب الدار نادما ليعتذر لى بدوره ، فضحكنا معـا ، واعتذر كلانا للآخر ، وبذلك زال التوتر ، وعادت الميـاه الى مجاريها .

« لقد نظمت أمس قصيدة ، فى أثناء مساعدتى لحنا فى غسل الملابس ولما كنت أعرف أن أبى يحب سخافاتى ، فقد كتبتها فى هذا الخطاب لتسليته ، وأرجو أن تبلغيه شوقى وحبى ، وقبلى لى نفسك اثنتى عشرة قبلة .

من ابنتك المهووسة

جو

أغنية من وحى طست الغسيل

يا ملكة الطست إنى أغنى فى حبور
ورغوة الصابون تعلو وترتفع
وأنا أشطف وأعصر فى سرور
ثم أشبك الملابس حتى تجف
فوق الحبال ، فى الهواء النقى
تحت السماء الصافية المشمسة

كان بودى أن أغسل القلوب والنفوس
وأزيل منها رواسب الأيام الماضية
وأدعو الهواء والماء بسحرهما
ينقيان النفوس بنقائهما
وعندئذ تصير الدنيا الواسعة
أجمل وأروع أيام الغسل

أيمكن ، ونحن نمضى فى حياة كادحة
أن تزهر الراحة فى بالنا

ولا يلزم العقل أن يفكر
فى الحزن والنصب والهموم
ويزيل السعد الأحزان عن قلوبنا
كما تزيل مكانسنا النشيطة أقذار اليوم ؟
إنى سعيدة بمـا أؤديه
من عمل ، يوما بعد يوم
ففى العمل صحة وقوة وأمـل
تعلمت منها أن أقول فى سرور :
أيها العقل قد تفكر ، أيها القلب قد تشعر
أما أنت أيتها اليد فستعملين على الدوام » .

أما بث فكتبت تقول :

« أمى العزيزة

« إنى لا أملك سوى أن أرسل لك حبى ، وأن أرسل الى أبى زهرة البانسيه المجففة ، التى ربيتها وعنيت بها ايراها . إنى أقرأ دروسى كل يوم وأحاول أن أكون بنتا طيبة . وفى المساء أغنى لنفسى بعض الأناشيد التى يحبها أبى . حتى أنام . ولكنى لا أستطيع أن أنشـد أغنية أبى المفضلة ، لأنها تثير شجونى وتدفعنى الى البكاء . كونى مطمئنة على ، فكلهم يرعانى ، وأنا أقوم بواجباتى . أملأ الساعة بانتظام ، وأجـدد هواء الغرف كل يوم ، ونحن أسعد ما يمكن أن نكون بغيركما . ولذلك أختم خطابى سريعا .

« قبلاتى لأبى العزيز ، أطبعها على الخد الذى يدعوه خدى ، وعودى سريعا الى ابنتك المحبة •

بث الصغيرة »

« أمى الحبيبة

« إننا جميعا بخير ، وأنا أؤدى دروسى كل يوم ، ولا أزعج الأخريات أو أرهقهن ، وميج تعطف على جدا ، وتعطينى كل يوم قالبا من الحلوى مع الشاى ، وجو تقول ان الحلوى تكسبنى حلاوة فى الأخلاق • يؤسفنى أن لورى لم يعد يحترمنى كما يجب فى هذه الأيام ، رغم أننى قد بلغت الثانية عشرة من عمرى ، ولم أعد طفلة صغيرة • انه يجرح شعورى كلما حييته أو شكرته بالفرنسية ، فينطلق يكلمنى بهذه اللغة فى سرعة شديدة ، لا أفهم معها ما يقول •

« إن أكمام ثوبى الأزرق قد بليت تماما ، فلما وضعت ميج أكماما أخرى بدلا منها ، أفسدت الثوب كله ، لأن لونها أشد زرقة من بقية الثوب • ولقد حزنت لذلك ، ولكنى لم أغضب أو أتذمر • إنى أتحمل متاعبى فى جلد • ولكنى أتمنى لو أن حنا زادت مقدار النشا فى مرولتى ، كما أود لو أنها طهت بليلة كل يوم ، أفلا يمكن ذلك ؟ ألم أتقن رسم علامة الاستفهام ؟ تقول ميج ان كتابتى مليئة بالأخطاء الهجائية ، وهو أمر فظيع ، ولكن ما العمل ، وعندى من الواجبات شىء كثير ؟

« وداعا ، وبلغى أبى مزيد حبى وأشواقى •

ابنتك المخلصة

آمى كورتوس مارش »

وكتبت حنا تقول :

« عزيزتى مسز مارش

« أريد فقط أن أقول ان كل شيء على ما يرام ، والفتيات مجدات يعملن سريعا ، ولا يتوانين عن واجب من الواجبات ، ومس ميج تبشر بأن تكون ربة بيت من الطراز الأول ، فهى تحب عملها ، وتفهم كل شيء بسرعة عجيبة • جـو تبذل جهدها ، ولكنها لا تفكر قبل العمل فيمـا يجب أن تعمله ، ولذلك لا يمكن مطلقا تقدير النتائج • لقـد قامت يوم الاثنين الماضى بغسل ملابس الأسرة كلها ، ولكنها وضعت النشا قبـل الموعد المناسب ، ووضعت كذلك ملاءة صفراء فى محلول الزهرة الزرقاء ، فكانت النتيجـة مضحكة للغـاية • ان بث أحسن مخلوق فى الدنيـا ، وهى سند مهم لى بفضـل سرعتها واعتمادها على نفسها ، فهى تريد أن تتعلم كل شيء ، وقـد أتقنت الشراء من السـوق الى حـد يفوق سنها ، وهى كذلك تقيد الحسابات بمعونتى ببراعة فائقة • إننا نقتصد فى النفقات اقتصـادا كبيرا ، وأنا أعطى الفتيات ـ حسب تعليماتك ـ القهوة مرة فى الأسبوع ، والحسـاء فى بقيـة الأيام • آمى لا تتذمر كثيرا ، ولكنها تلبس أحسن ثيابها ، وتكثر من أكل الحلوى • مستر لورى ملىء بالنشاط كعادته ، وكثيرا ما يقلب البيت رأسا على عقب ، ولكنه يبعث الشجاعة فى قلوب البنات ، ولذلك فانى أتركه يعمل ما يشـاء ، أما الرجل العجوز فيغرقنا بالهدايا الى حـد محرج ، ولكنى لا أعترض لعلمى بصـدق رغبته فى تدليل البنات ، وسأختم خطابى الآن لأن العجين اختمر ، وأخشى أن يفسد اذا تأخرت عن خبزه • أقـدم لمستر مارش عظيم احترامى ، وأدعو الله أن لا يصيبه بالتهاب رئوى بعد الآن •

مع أصدق احتراماتى

حنـا موليت »

وكتب لورى يقول :

« حضرة رئيسة الممرضات بالعنبر الثانى

« كل شىء هادىء فى الميدان ، والفرق جميعها تعمل فى نظام ، وقلم المخابرات يقوم بواجبه كاملا ، والحرس الوطنى تحت قيادة البكباشى تيدى على استعداد دائم ، والقائد العام اللواء لورنس يستعرض الجيش كل يوم ، والشاويش حنا يحفظ النظام فى المعسكر ، واليوزباشى ليون يقوم بالحراسة ليلا ونهارا .

ولقد أطلقنا أربعة وعشرين مدفعا عندما وصلتنا الأخبار السارة من واشنجتون ، كما قمنا بعمل عرض عسكرى بالملابس الرسمية فى دار القيادة . القائد العام يبعث اليكم بتمنياته القلبية ، كما يشاركه فى تلك التمنيات .

« البكباشى تيدى »

وكتب مستر لورنس يقول :

سيدتى العزيزة

ان الفتيات جميعا فى خير حال ، تقوم بث ووالدى بتلقى الأخبار كل يوم ، أما حنا فخادم مثالية ، وهى كالتنين فى رعاية ميج الحسناء . انى سعيد باستمرار تحسن الجو ، وأرجو أن تستفيدى من وجود بروك معك ، كما أرجو أن لا تترددى فى طلب المال اذا وجدت أن النفقات تتخطى ميزانيتك المقررة . لا تبخلى على زوجك بشىء ، وشكرا لله أن تحسنت صحته .

من صديقك المخلص

جيمس لورنس

الفصل السابع عشر

المؤمنة الصغيرة

كانت الفضائل التى انبعثت من البيت القديم خلال الأسبوع الأول ، تكفى الحى كله ، فقد سادت فيه ألوان لا حصر لها من إنكار الذات وصدق الرغبة فى التضحية • فلما زال التوتر والقلق ، وهدأت النفوس واطمأنت على صحة الأب ، تراخت جهود البنات فى العمل والتضحية ، وعدن شيئا فشيئا الى طباعهن الأولى • حقيقة إنهن لم يتقاعدن عن العمل ، ولكن حماستهن فترت قليلا ، خصوصا عقب الجهد الجبار الذى بذلنه فى الأيام الأولى ، واستحققن — فى رأيهن — عطلة قصيرة ، ولكنها كانت عطلات وعطلات متوالية •

وكان أول ما حدث أن أصيبت جو ببرد شديد ، من جراء إهمالها فى تدفئة رأسها ذى الشعر القصير ، فأمرتها عمتها بأن تعتكف فى البيت ، لأنها لا تحب أن يكون صوت من تقرأ لها متحشرجا مبحوحا • وفرحت جو بذلك كل الفرح ، وبقيت فى البيت توزع جهودها بين غرفة السطح والقبو ، حتى نالت كفايتها منهما ، فانزوت على أريكتها تعالج بردها بالدواء والقراءة •

واكتشفت آمى أن الواجبات المنزلية تعطل رسالة الفن الرفيع ، فعادت الى صلصالها تعمل منه « فطائر الطين » • وكانت ميج تذهب الى عملها كل يوم ، وفى المساء تعكف فى البيت على ما تسميه تطريزا ، ولكنها كانت فى الحقيقة تقضى معظم الوقت فى كتابة الرسائل لأمها أو فى تلاوة رسائل أمها مرة بعد مرة • واستمرت بث فى عملها كالمعتاد تقوم

بواجباتها كاملة ،وكذلك تقوم بما يتركه أخواتها من عمل ، فإذا انتظمت شئون البيت ، وآن أوان راحتها ، تضاعف شوقها الى أمهـا ، وازداد حزنها لمرض أبيها ، فتنزوى فى ركن من البيت ، وتدفن وجهها فى ثنايـا ثوبها ، وتطلق لدموعها العنان ، ثم تصلى من أجل والديها العزيزين فى حرارة وإيمان • ولم يكن أحد يعرف كيف يخفف عنها أحزانهـا ، ولكن جميعهم كانوا يعرفون أن بث حلوة الطبع لا تبخل بالمعـونة ، فيهرعون إليها فيما يعن لهم من أمور •

وفى بداية الأمر كان الفتيات يعلمن أن المحنة التى تمر بهن ، امتحان صادق لأخلاقهن ، فلما هدأت أحزانهن ، واطمأنت قلوبهن ، وشعـرن بأن الأدوار التى لعبنها ، كانت عظيمة رائعة تستحق الثنـاء ، تراخين عن الجهاد ، وتكاسلن فى أداء الواجبات ، وبذلك أخطأن خطأ عظيما ، لم يكتشفنه إلا بعد درس قاس ، أورثهن الحزن والندم •

قالت بث لأختها ميج ذات مساء ، بعد أن مضت عشرة أيـام على سفر مسز مارش :

ــ ليتك تذهبين لزيارة آل هامل يا ميج ، فقد أوصتنا والدتى بهم خيرا كما تعرفين •

فقالت ميج وهى تطرز وتهز مقعدها المريح :

ــ ولكنى جد متعبة هذا المساء •

فقالت بث تسأل جو :

ــ ألا تذهبين أنت يا جو ؟

فقالت :

ــ إن الجو عاصف ، وأخشى أن تتضاعف إصابتى بالبرد •

قالت بث :

ــ كنت أظن الجو صحوا •

قالت جو :

ــ إن الجو صحو للنزهة ، لا لزيارة آل هامل •

وضحكت خجلة من تضارب أقوالها •

فسألت ميج :

ــ ولم لا تذهبين أنت يا بث ؟

قالت :

ــ إننى أذهب كل يــوم . ولكن الطفل الصــغير مريض ، ولست أعرف ماذا أفعل من أجله، فمسز هامل تذهب لعملها وتتركه فى رعايــة ابنها لونتشون • وأعتقد أن ذهابك أو ذهاب حنا ضرورى ، فحــال الطفل يزداد سوءا يوما بعد يوم •

وكانت بث تتكلم فى حرارة وإيمان ، فوعدتها ميج بأن تــذهب فى اليوم التالى •

وقالت جو :

ــ اطلبى من حنا أن تعطيك بعض الطعام ، وخذيه إليهم يا بث •

ثم أضافت تعتذر قائلة :

كنت أود أن أذهب ، ولكنى أريد أن أنتهى من قصتى أولا •

فقالت بث :

— إنى متعبة جدا أحس بصداع شديد فى رأسى ، ولولا ذلك ما طلبت الى إحداكن أن تذهب بدلا عنى •

فقالت ميج :

— سوف تحضر آمى حالا ، فنرسلها نيابة عنا •

فقالت بث :

— إذن أستريح قليلا حتى تعود آمى •

وهكذا استقلت بث على الأريكة ، وعادت كل فتاة الى عملها ، وراح آل هامل فى عالم النسيان ، ومضت ساعة لم تحضر فيها آمى ، وقامت ميج تجرب ثوبا جديدا فى حجرتها ، وانهمكت جو فى قصتها ، واستسلمت حنا للنوم أمام نيران المدفأة • فلم تجد بث بدا من قطع راحتها ، فقامت عن الأريكة وارتدت قبعتها ومعطفها ، وملأت سلة بالهدايا للأطفال الفقراء ، ثم انسلت خارجة فى الهواء البارد ، وقد ثقل رأسها بالألم ، وارتسم الحزن فى عينيها الصبورتين •

وعادت الصغيرة متأخرة من زيارتها فلم ينتبه أحد لعودتها ، ولم يرها أخواتها وهى تتسلل الى حجرة أمها ثم تغلق الباب خلفها • وبعد نصف ساعة قامت جو تحضر شيئا من صوان أمها ، فوجدت بث تجلس الى خزانة الأدوية ، وقد علا وجهها الوجوم ، واحمرت عيناها ، وأمسكت فى يدها بقنينة محلول الكافور •

وصاحت بث متعجبة ، وسألتها عما بها ، فمدت بث يدها محذرة إياها أن تقترب منها ، ثم سألتها بسرعة :

— هل سبق أن مرضت بالحمى القرمزية ؟

قالت :

ـ نعم منذ سنوات عندما مرضت بها ميج . ولكن لماذا تسألين ؟

قالت :

ـ لأن الطفل قد مات !

ـ أى طفل ؟

قالت بث وهى تبكى وتنوح :

ـ طفل مسز هامل ، لقد مات وهو فى حجرى قبل أن تصل أمه الى البيت .

قالت جو فى صوت حزين :

ـ مسكينة يا عزيزتى ، لا بد أنه كان أمرا فظيعا ! كان يجب أن أذهب بدلا عنك .

ثم أخذت أختها وأجلستها على حجرها ، وجلست على مقعد أمها الكبير تواسيها .

قالت بث :

ـ لم يكن الأمر فظيعا مثلما كان محزنا ، فقد لاحظت عند ذهابى أن حالته ساءت فجأة ، وقال لوتشون بأن أمه ذهبت تستدعى الطبيب ، فأخذت الطفل فى حجرى لأريح لوتشون قليلا . وبدا على الصغير أنه نائم ، وفجأة صرخ صرخة خافتة وانتفض ثم سكنت حركته بعد ذلك . وقد حاولت أن أدفىء قدميه ، وحاول لوتى أن يعطيه قليلا من اللبن ، ولكن الرضيع لم يتحرك ، فأدركت أنه مات .

فقالت جو تهدىء أختها :

— لا تبكى يا عزيزتى ! ماذا فعلت بعد ذلك ؟

قالت :

— ظللت ممسكة بالطفل فى رقة حتى عادت مسز هامل بصحبة الطبيب . وقال الطبيب بأنه مات ، ثم فحص الأطفال الآخرين ، فوجدهم جميعا مرضى بالحمى القرمزية . ولذلك أنبها لتوانيها فى استدعائه قبل ذلك . وحدثته مسز هامل عن فقرها ، وكيف حاولت علاج الصغير بنفسها ، ثم طلبت اليه أن يعنى بالأولاد الآخرين ما دام أمر الرضيع قد انتهى ، وليجزه الله خيرا على احسانه . فابتسم الطبيب ورق قلبه ، فكان موقفا محزنا جعلنى أبكى مع الآخرين . وفجأة التفت الطبيب الىّ وأمرنى بأن أعود حالا الى البيت ، وبأن أتناول دواء البلادونا ، وإلا أصابنى المرض .

فارتسم الهلع فى عينى جو ، وضمت الفتاة الى صدرها وهى تقول :

— لا . لن يحدث هذا ، ولن أصفح عن نفسى أبدا اذا مرضت يا بث ! يا إلهى ! ماذا نفعل الآن ؟

قالت بث :

— لا تجزعى ، فلن يكون مرضى شديدا . لقد قرأت فى كتاب لأمى ، وعرفت أن المرض يبدأ بصداع فى الرأس والتهاب فى الحلق ، وشعور بالضعف ، وهذا ما أعانيه الآن ، ولذلك تناولت قدرا من البلادونا تحسنت بعده قليلا .

ثم وضعت الصغيرة يدها الباردة على جبينها الملتهب ، وهى تحاول أن تبدو فى حالة طيبة .

فقالت جو ، وهى تشعر بأن بينها وبين واشنجتون بعد السماء عن الأرض •

ـ ليت أمى كانت هـنا الآن !

ثم أمسكت بالكتاب ، وقرأت صفحة منه ، ثم تحسست حرارة جبين أختها ، ونظرت فى حلقها ، وقالت فى وجوم :

ـ لقد خالطت الطفل المريض أكثر من أسبوع ، كما خالطت إخوته الآخرين ، وقد بدأت العوارض تظهر عليهم ، وأخشى أن العدوى أصابتك بالفعل • إن حنا تعرف كل شىء عن الأمراض ، فدعينى أستشيرها •

فصاحت بث فى لهفة :

ـ بالله لا تسمحى لآمى بالدخول ، فهى لم تمرض بالحمى القرمزية من قبل ، وأكره أن تنتقل العدوى منى لها • ثم ألا يجوز أن تمرضى بهـا أنت وميج مرة ثانية ؟

فتمتمت جو ، وهى تذهب الى حنا تستشيرها :

ـ لا أعتقد ذلك ولا يهمنى أن أمرض ثانية ، فأنا حيوان أنانى أستحق كل شىء ، فقـد قنعت بكتابة السخافات ، وتركتك تذهبين الى بيت المرضى •

واستيقظت حنا الطيبة بسرعة ، وأمسكت بقيـاد الموقف ، مؤكدة أن لا داعى للخوف والقلق ، فالقرمزية مرض شائع فى الصغار ، ولا خطر منه مع العلاج الصحيح ، ولا يموت منها أحـد • وأحست جو ببعض الراحـة ، لثقتها فى كل ما تقوله حنـا ، ثم ذهبت الاثنتان تستدعيان ميـج •

وفحصت حنا بث وسألتها بعض أسئلة ثم قالت :

ـ والآن سأخبركن بما يجب أن نعمـــل ، فأولا نستدعى الدكتور بانجز ليفحصها ، ويوجهنا فى علاجها التوجيه الصـــحيح ، وثانيا نبعد آمى عن العدوى بارسالها الى بيت العمة مارش بعيدا عن المريضـــة ، ولتبق واحـــدة منكما مع بث يوما أو يومين •

وشعرت ميج بمسئوليتها فيما حدث ، فقالت فى لهفة :

ـ سأبقى أنا بالطبع ، لأنى أكبرهن سنا •

فقالت جـــو فى تصميم :

ـ بل أبقى أنا ، فالخطأ خطأى ، وعلى تقع المسئولية فيما حدث • لقد وعدت أمى بأن أزور آل هامل ، ولكنى لم أف بوعدى •

فقالت حنـــا تسأل :

ـ لا داعى لوجود الاثنتين ، فمن منهما تفضلين يا بث ؟

فأسندت بث رأسها الى كتف جـــو ، وفى عينيها نظرة الرضـــا ، وقالت :

ـ لتبق جـــو إن سمحت •

وكان فى قولها فصـــل الخطاب ، فقالت ميج وقد ســـاءها اختيار أختها ، رغم بغضها للتمريض :

ـ سوف أذهب وأخبر آمى بالأمر •

ورفضت آمى كلية أن تذهب الى العمة مارش ، وقالت إنها تفضل أن تمرض بالحمى ألف مرة على أن تذهب اليهـــا • وحاولت ميج أن

تقنعها ثم استعطفتها ، ثم أمرتها بالذهاب بلا جدوى . وأصرت آمى على البقاء ، ويئست ميج ، وذهبت تسأل حنا كيف تعالج الموقف . وجاء لورى قبل أن تعود ميج ، فوجد آمى تنشج بالبكاء ، وقد دفنت رأسها فى حشيات الأريكة . وقصت عليه آمى قصتها ، وقد ظنت أنه سينتصر لها . ولكن الفتى وضع يديه فى جيوبه . وجعل يسير جيئة وذهابا ، وهو يصفر فى صوت خافت ، وقد عقد حاجبيه فى تفكير عميق ، ولم يلبث أن جلس الى جوارها وقال فى صوت رقيق النغمات :

— كونى امرأة عاقلة ، وأطيعى أوامرهن . لا ، لا تبكى واستمعى الى البرنامج اللطيف الذى أقترحه : ستذهبين الى العمة مارش ، وسوف آتى لأخذك كل يوم للنزهة فى العربة ، أو سيرا على الأقدام ، فنستمتع بوقتنا كل الاستمتاع . أفلا ترين أن الذهاب خير من البكاء هنا ؟

فقالت آمى فى صوت جريح :

— لا أريد أن أبعد عن البيت ، كما أنهن يعاملننى كما لو كنت عقبة أقف فى طريقهن .

قال :

— يا لطيبة قلبك يا طفلتى . إن أخواتك يحرصن عن صالحك ، ويخفن أن تصيبك العدوى ، فهل تريدين أن تمرضى ؟

قالت :

— لا طبعا ، ولكنى كنت مع بث طوال هذا الأسبوع ، وأغلب الظن أننى التقطت المرض منها .

قال :

— وهذا أدعى لذهابك ، فتغيير الهواء يساعدك على الشفاء سريعا ،

أو يخفف وطأته على أقل تقدير • نصيحتى لك أن تغادرى هذا البيت بأسرع ما يمكن ، فالحمى القرمزية ليست مرضا يستهان به يا آنسة •

فقالت آمى وقد بدا عليها الخوف :

— إن عمتى سليطة اللسان ، وبيتها قابض بغيض •

قال :

— لن يكون البيت قابضا ، اذا حضرت كل يوم لأصحبك الى نزهة طيبة ، وأطمئنك على أحوال بث • زيدى على ذلك أن السيدة العجوز تحبنى ، وسوف أبذل منتهى جهودى فى استمالتها ، حتى لا تغضب منا أو تنهرنا مهما أتينا من أفعال •

قالت :

— أتأخذنى فى العربة الصغيرة التى يجرها المهر ؟

قال :

— أعدك بذلك وعد رجل شريف •

قالت :

— وستحضر كل يوم بلا استثناء ؟

قال :

— سوف ترين بنفسك •

قالت :

— وتعيدنى الى البيت حالما تشفى بث ؟

قال :

— بعد ثانية واحدة من شفائها •

قالت :

ـ وهل تصحبنى الى المسرح أحيانا ؟

قــال :

ـ بل أصحبك الى عشرين مسرحا اذا أردت •

قالت متمهلة :

ـ حسنا •• بهذه الشروط لا أمانع فى الذهاب •

قال ، وهو يربت على ظهرها راضيا ، مما أغضبها كثيرا ، وجعلها تشعر كأنها طفلة صغيرة :

ـ أنت بنت طيبــة ، اذهبى الى ميج وأخبريهــا بعــزمك على الذهاب •

وهبطت ميج وجو جــريا لتريا المعجزة التى تحققت ، فقد وعدت آمى أن تذهب ، اذا ما قرر الطبيب أن بث مريضة بالحمى حقا •

وقال لورى :

ـ كيف حال الصغيرة العزيزة ؟

وكان لورى يعزّ بث ويدللهــا ، ولذلك كان يخالج صــوته قلق شــديد ، أوضح مما كان يحب أن يكشف عنه •

أجابت ميج :

ـ إنها ترقد فى سرير والدتى ، وهى تحس ببعض الراحة الآن • لقد أزعجها موت الطفل ، وأعتقد أنها لا تعانى غير آلام البرد ، وهكذا تقول حنا أيضا ، وان كان قلقها الشديد يخيفنى •

وقالت جو ، وهى تعبث فى شعرها القصير بقلق واضح :

— ما أقسى هذه الدنيا ، فما ان نخرج من همّ حتى يحل بنـا همّ آخر . إنى حائرة ، ويبدو أن غياب والدتى أفقدنا كل سند نركن اليـه .

فقال لورى ، الذى لم يتعود بعد منظر صـديقته بعد أن جزت شعرها :

— لا تثيرى شـعرك هكذا كالقنفذ ، سـويه وأسـدليه ، حتى لا تفسدى شكلك ، ثم أخبرينى هل أرسل برقية الى والدتك ، أم ماذا أصـنع ؟

فقالت ميج :

— هذا ما يقلقنى ويحيرنى ، وأظن أنه من الصواب أن نخطرها بمرض بث ، ولكن حنا لا توافق ، وتعتقد أن والدى ما زال فى حاجة الى أمى معه ، وربما أزعجه الخبر وأقلقه . لن يطول المرض ببث ، وحنـا تعرف كل ما يجب أن يعمل ، وقد نصحتنا أمى بأن نطيعها ، وعلينا أن نعمل بالنصيحة ، وان كنت لا أراها صائبة .

قال لورى :

— حسنا ، ورأيى أن ننتظر كلمة الطبيب ، ثم نستشير جدى فى الأمـر .

فقالت ميج فى لهجة آمرة :

— اذهبى يا جـو ، وأحضرى الدكتور بانجز ، فلن يتقرر شىء قبل زيارته . وسنستشير مستر لورنس بعـد ذلك .

فقال لورى وهو يهم بالانصراف :

ــ ابقى حيث أنت يا جو ، فمهمتى فى هــذا المكان أن أقوم بمثل هــذه المهمات •

قالت ميج :

ــ أخشى أن تكون مشغولا •

قال :

ــ لا ، فقد انتهيت من دروس اليوم •

قالت :

ــ أو تدرس أيضا فى أثناء العطلة ؟

قال وهو يستدير خارجا من الحجرة :

ــ إنى آتخذ من جيرانى مثلا أحتذيه •

فابتسمت جو وهى تراه يقفز فوق السياج ، فى طريقه الى استدعاء الطبيب ، ثم قالت :

ــ إنى أعقد على هــذا الصبى آمالا كبارا •

فقالت ميج فى لهجــة خشــنة ، كأن الأمــر لا يهمها فى كثير أو قليــل :

ــ إنه يتقــدم فى حــدود سنه •

وجاء الدكتور بانجز ، وقرر بأن الأعراض التى تشكو منهــا بث هى أعراض الحمى القرمزية ، ولكنه يعتقد بأن وطأة المرض لن تكون شديدة عليها ، كما أسف على ما أصاب آل هامل • وفى الحال صــدرت الأوامر الى آمى بمغادرة البيت ، بعد اعطائها بعض الدواء لحمايتها من خطر الداء ، فخرجت مع لورى وجــو ، وهى فى حالة سيئة •

ولقيتهم العمة مارش بكرمها المعهـود ، ونظرت اليهم من فـوق نظارتها فى حـدة ، وصاح الببغاء من وراء مقاعدهم يقول : اخرج من هنا ، غير مسموح للصبيان بالدخول •

وسألت العمة قائلة :

ــ والآن ماذا تريدون ؟

فجعلت جو تسرد قصتها فى حين ابتعد لورى الى جوار النافذة ، فقالت العمة :

ــ هذا ما كنت أتوقعه دائما من حشر أنوفكن فى الأوساط الفقيرة • تستطيع آمى أن تبقى ما دامت صحيحة معافاة ، وان كنت أشك فى ذلك ، لأنها تبدو بالفعل مريضة عليلة • لا تبكى يا طفلتى ، فانى لا أطيق أن يتمخط الناس فى حضرتي •

وكانت آمى على وشـك البكاء ، ولكن لورى أنقـذها فى الوقت المناسب إذ جـذب ذيل الببغاء ، فصـاح الطير يقول ، وقـد أدهشته المفاجـأة :

ــ آه يا ذيلى !

وبدل أن تبكى آمى ، انفجرت ضـاحكة ، وقالت السيدة فى صوت خشـن :

ــ ما هى آخر الأخبار عن أمك ؟

أجابت جو فى صوت تحاول أن تكسبه رنة حزن :

ــ إن والدى قـد تحسن كثيرا •

أجابت العمة بتشاؤمها المعهود :

ـ أحقًا ؟ لا أظن التحسن يستمر طويلا ، فأبوك رجل ضعيف ، لا قـــدرة له على المقاومة •

وصاح الببغاء ، عندما جعل لورى يدغدغه فى أذنه ، وراح يتراقص على حامله ، ويمد مخالبه نحو قبعة السيدة العجوز :

ـ ها •• ها •• لا تيأس وخذ تنشيقة من هـــذا السعوط •• الى اللقـــاء •• الى اللقاء •

فصاحت العجوز تنهره قائلة :

ـ أمسك لسانك أيها الطائر الوقح ! وأنت يا جو ، خير لك أن تعودى الى البيت فورا ، فليس من اللائق أن تتسكعى بالليل مع صبى أنيق مثل ••••

وصاح الببغاء يقاطعها :

ـ أمسك لسانك أيها الطائر الوقح !

وهبط الطير عن حامله الى المقعد ، وراح يجرى وراء الصبى الأنيق ، الذى سره حديث الطير الأخير ، فجعل بدنه يهتز لفرط الضحك •

وما إن انفردت آمى بالعمة مارش حتى قالت فى نفسها :

ـ لا أظننى قادرة على احتمالها ، ولكنى سأحاول •

وصرخ الببغاء قائلا بصـــوت وقح :

ـ هيا اذهبى ، إنك مزعجة ثقيلة !

وعندئذ انهمرت الدموع من عينى الفتـــاة ، ولم تقـــو على كبت بكائهـــا •

الفصـل الثامن عشر

أيام سـود

اشتدت وطأة الحمى على بث بشكل لم يكن يتوقعه أحـد سوى حنا والطبيب ، فقد كان البنات يجهلن كل شيء عن المرض • وبذل الدكتور بانجز كل جهده فى علاجها ، وقامت حنا تنفـذ أوامره بمنتهى الدقة ، وبذلك أثبتت أنها ممرضة من الطراز الأول • وبقيت ميج فى البيت ولم تذهب الى عملها عند آل كنج خشية أن تحمل العدوى اليهم ، وكان القلق يتملكها كما كان يتملكها شعور بأنها تذنب فى حق أمها ، عندما تكتب اليها الرسائل ولا تذكر فيها شيئا عن مرض بث ، وكان هـذا التصرف فى رأيها خطأ جسيما ، ولكن حنا أمرت بالصمت ، ولم ترض أبدا أن تزعج مسز مارش ويضاف جـديد الى همومها الكثيرة من أجـل مرض تافه كهذا • وكرست جو نفسها لخدمة بث ليل نهار ، ولم يكن فى ذلك عناء يذكر ، إذ كانت بث صـبورة بطبعها ، تتحمل آلامها صـامتة بقـدر إمكانهـا •

ولكن المرض اشتد ، وصارت الفتاة ، اذا ما انتابتها الحمى القوية ، تهذى فى صوت أجش متقطع ، وتحاول الغناء من حلق متورم ملتهب ، وتحرك أصابعها على الأغطية كما لو كانت معزفا ، ثم جاء الوقت الذى لم تعد تميز أو تعرف فيه وجوه أخواتها ، فتخلط بين أسمائهن ، وتنادى راجية أن تعود أمها • واستبد القلق بجو لذلك ، وجعلت تتوسل الى أختها ميج أن تصرح لها بالكتابة لأمها ، حتى بدأت حنا تقتنع بوجهـة نظرها ، واعدة بالتفكير فى الأمر ، رغم أن حالة بث لم تكن فى رأيها قد

وصلت الى مرحلة الخطورة بعد • وساءت الأمور وزاد الموقف تعقيدا ، عندما وصلت رسالة من مسز مارش تقول فيها ان المرض اشتد بزوجها بعد تحسن ولذلك لا ينتظر أن تعود الى بناتها قبل وقت طويل •

وما أشد ما بدت الأيام سودا حالكة ، وبدا البيت موحشا حزينا ، وثقلت قلوب الأخـوات بالهموم وهن يعملن ويترقبن ، وشبح المـوت يرفرف على البيت الذى ملأته السعادة دائما • وفى هذا الوقت العصيب ، جلست مارجريت تبكى وحيدة ، فتتساقط دموعها على قطعة النسـيج التى تطرزها ، فلقد بدأت ، لأول مرة ، تقدر قيمة السعادة التى كانت تظل الأسرة فيمـا مضى ، وعرفت أنهـا كانت تستمتع بالحب والأمن والسلام والصحة ، وكلها تمثل النعم الحقيقية فى الحياة • وكان هـذا الوعى لجو بدورها ، عندما كانت تقبع فى الحجرة المعتمة أمام أختها الصغيرة المعذبة ، وتصغى الى صوتها الضعيف الحزين ، فقـد أدركت مدى جمال أخلاق بث وحلاوة شخصيتها ، وأحست بمكانتها التى تملأ القلوب كلها ، وتمثل لها عظم تضحيات هذه الأخت التى كانت تعيش لغيرها ، وتملأ البيت سعادة بفضائلها وجميل خصالها • وتمنت آمى ، وهى فى منفاها لو كان فى استطاعتها أن تعود الى بيتها ليتسنى لها خدمة بث ، وقد تلاشت من أمامها متاعب العمل ، وذكرت ، والأسى يملأ قلبها ، كم قامت بث عنها بواجبات أهملت تأديتها • وراح لورى يطوف بأرجاء بيته كشبح حائر ، أقفل جده المعزف الكبير ، كارها كل ما يذكره بجارته الصـغيرة ، التى طالمـا أسعدت أمسـياته بـعزفها الجميل • وأحس جميعهم بغيـاب بث وافتقدوها ، حتى بائع اللبن والخباز والجزار • لقـد كانوا يستفسرون عن حالتها كل صباح ومساء ، وجاءت مسز هامل ترجو الصفح عما سببته بجهلها ، وتطلب قطعـة من القماش لبنتهـا ،

وانصبت الهدايا والتمنيات الطيبة من الجيران كلهم ، حتى دهش أهل الفتاة لكثرة أصدقاء هذه الطفلة الخجول ومعارفها .

وكانت بث طيلة أيام مرضها ترقد وقد احتضنت دميتها القديمة ، ولم تكف حتى فى أثناء هذيانها عن ذكر عرائسها العزيزات . وكانت تتحرق شوقا الى قطيطاتها ، ولكنها لم تسمح بادخالها عندها خشية أن يصيبها المرض . واذا ما غادرتها الحمى قليلا ، راحت تسأل عن جو وترسل تحياتها وأشواقها الى آمى ، وتطلب من أخواتها أن يخبرن أمها بأنها بخير وسوف تكتب اليها فى القريب العاجل . وكثيرا ما كانت تطلب قلما وورقا تحاول أن تخط كلمة لوالدتها حتى لا يظن أبوها أنها قد أهملت شأنه . ولكن ساعات الصحو كانت تنتهى سريعا ، وتعود بعدها الحمى شديدة قوية ، فتتقلب المسكينة فى فراشها يمينا وشمالا ، وتهذى بكلمات مبهمة ، أو تروح فى سبات عميق لمدة ساعات ، دون أن تفيد من النوم شيئا من الراحة .

وكان دكتور بانجز يعودها مرتين فى اليوم ، وتناوبت حنا وجو الجلوس الى جانبها ، فكانت الخادم تلازمها طوال الليل ، وجو تخدمها طوال النهار ، كما أعدت ميج برقية لأمها لترسلها لها فى أية لحظة . وجاء أول يوم من شهر ديسمبر ، وكان يوما عبوسا قمطريرا ، ريح تصفر وثلوج تهطل ، وبدا كأن العام يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وجاء الطبيب كعادته صباحا ، ونظر طويلا الى بث ، وأمسك بيدها الساخنة بين يديه لحظة ، ثم تركها فى رفق ، وقال فى صوت خافت مخاطبا حنا :

— اذا كان من المستطاع أن تترك مسز مارش زوجها ، فمن الخير اخطارها بمرض الفتاة الآن .

فأومأت حنا برأسها ولم تنبس بكلمة ، وقد التوت شفتها فى اضطراب ، وتهالكت ميج فى المقعد وقد تخاذلت ساقاها عند سماع تلك الكلمات • أما جو فقد ابيض وجهها ، وتسمرت لحظة فى مكانها ، ثم خرجت الى البهو تجرى ، واختطفت البرقية المعدة ، وارتدت معطفها ، ثم هرعت الى الشارع غير عابئة بعواصف الجو الصاخبة • وسرعان ما عادت ، وراحت تخلع معطفها فى هدوء ، وعندئذ دخل لورى يحمل رسالة ، ويقول بأن مستر مارش بسبيله الى الشفاء • وقرأت جو الرسالة شاكرة ، ولكن الحمل الذى أثقل قلبها لم تخف وطأته بهذا الخبر ، ولم تبارح وجهها مسحة التعاسة التى تعلوه ، فقال لورى بسرعة :

— ماذا جرى ؟ هل ساءت حال بث ؟

قالت فى لهجة آسية ، وهى تخلع حذاءها المطاط :

— لقد أرسلت برقية الى أمى •

قال وهو يجلسها على مقعد فى البهو ويساعدها فى خلع حذائها لارتجاف يديها :

— حسنا فعلت يا جو ! ولكن هل أرسلتها من تلقاء نفسك ؟

قالت :

— لا ، بل بناء على رأى الطبيب •

قال وقد كسا الخوف وجهه :

— أتظنين أن حالتها خطيرة الى هذا الحد يا جو ؟

قالت :

— حالتها بالفعل خطيرة • إنها لا تعرفنا الآن ، وحتى هـذيانها انتهى ، ولم أعـد أرى فيها بث التى أعرفها • إن أبى وأمى بعيدان ، وليس معنا من يعيننا على محنتنا ، وحتى الله يبدو بعيدا بحيث لا أستطيع أن أصـل اليه بدعواتى •

وانهمرت الدموع من عينيها تجرى على خديهـا ، ومدت يدها فى حركة يائسـة حائرة ، كأنها تبحث عن شىء فى الظـلام • وأمسـك لورى بتلك اليد وهمس فى لهجة هادئة ، وقد أحس بغصـة فى حلقه :

— إننى هنا ، فاعتمدى على يا عزيزتى جـو !

ولم تقل جو شيئا ، ولكنها اعتمدت على يده العامرة بحرارة الصدق والاخلاص ، فأحست براحة تتسلل الى قلبها ، كما شعرت بأن يد الله أيضا تقترب من يدها فتعينها فى شـدتها • وأراد الفتى أن يقول مزيدا يبعث الراحة والرجاء ، ولكن الكلمات استعصت عليـه فوقف سـاكنا يربت بحنان على الرأس المطرق ، كما كانت أمها تربت عليه تماما • وكان هـذا العطف الصامت أشد فعلا فى نفسها من الكلمات البليغة ، فأحست جو بالرثاء الصامت لحالها ، وعرفت مدى ما يبعثه حنان الأصدقاء من راحة غامرة للنفس • وسرعان ما جففت الدموع التى فرجت عن آلام نفسها ، ورفعت الى الفتى وجها مفعما بالشكر ، وقالت :

— شكرا لك يا تيدى ، إننى أحسن حالا الآن ، وقد زايلنى اليأس والأسى ، وسأحاول أن أحتمل ارادة الله وحـكمه •

قال :

ـ تعلقى بالأمل دائما وتفاءلى ، فهـذا خير معين لك يا جـو • ستحضر أمك عن قريب ، وتعود المياه الى مجاريها •

قالت وهى تنشر منديلها على ركبتها ليجف :

ـ إنى مسرورة أن تحسنت صـحة أبى ، حتى تعود الينا أمى مطمئنة عليه • آه يا صديقى ! إن الهموم اذا حلت تأتى أفواجا ، وإنى لأحمل العبء الأكبر منها على كتفى •

قال محتجا :

ـ ألا تحمل ميج معك الأعباء نفسها ؟

قالت :

ـ طبعا ، إنها تحاول ذلك ، ولكنها لا تحب بث بقدر ما أحبها ، ولن تفتقدها مثلى • إن بث كروحى ولا يمكننى أن أعيش بدونهـا ، لا يمكننى أبدا ! !

ودفنت جـو وجهها مرة ثانية فى منديلها ، وراحت تبكى فى يأس وقنوط ، فقد احتفظت بسيطرتها على نفسها حتى هـذه اللحظة ، ولم تذرف دمعة واحدة قبل ذلك • ورفع لورى يده يغطى عينيه ولم ينطق بكلمة حتى سيطر على الدموع التى ملأت عينيه ، وابتلع الغصة التى وقفت فى حلقه ، وأعاد الهدوء الى شفتيه المرتجفتين • نعم ، قد لا يكون البكاء من شـيم الرجال ، ولكنـه لم يتمالك نفسـه على أى حال • ورويدا رويدا هـدأت جـو وخف نحيبها ، فقال فى لهجـة مفعمـة بالأمـل :

ــ لا أعتقد أن الله سيأخذها منا ، إنها فتاة طيبة ، ونحن جميعــا نحبها كل الحب •

قالت وهى تئن حزنا :

ــ إن الله يختار الى جواره الطيبين دائما •

ولكن كلمة صديقها بعثت أملا جديدا فى قلبها ، فكفت عن البكاء ، رغم ما ساور قلبها من شك وخوف •

قال :

ــ مسكينة يا صديقتى ، لقد أنهكك الحزن ، فخلى عنك قليــلا ، وكونى كمــا عهــدتك شجاعة ، وسوف أعينــك على الاحتمال بجرعة منعشـــة •

وهرع يصعد السلم قفزا ، وأسندت جو رأسها الى عباءة بث البنية التى تركتها فى آخر مرة لها ، ولم يفكر أحد فى رفعها من مكانها فوق المنضــدة • وكأنما كان فى لمس تلك العباءة ســحر ، وكأنما بعث روح صاحبتها الطيبة فى جو إحساسا بالخضوع والرضا ، فما إن هبط لورى يحمل كأسا من النبيذ ، حتى تناولته باسمة وقالت فى شجاعة :

ــ لأشرب نخب صحة بث العزيزة • إنك طبيب ماهر يا تيدى ، وصــديق صــدوق •

وأنعشها الشراب قليلا ، كما أنعشتها كلمات صديقها ، وأراحت بالها • قالت :

ــ كيف أرد لك الجميل ؟

قال لورى وقد أشرق وجهه غبطة بأمر يفكر فيه ويكتمه فى نفسه :

ــ سوف أرسل لك « فاتورة » الحساب بعد قليل • وسوف أقدم لك هذا المساء شيئا يبعث فى قلبك حرارة أكثر من هذا الشراب •

قالت جو ، وقد نسيت أحزانها فى عجبها لقوله :

ــ ما هو ؟

قــال :

ــ لقد أبرقت الى والدتك أمس ، وتسلمت ردا من بروك بعودتها فورا ، وستصل هذه الليلة فتتحسن الأمور • ألا يسرك هذا النبأ ؟

وكان الفتى يتكلم فى سرعة شديدة ، وقــد احمر وجهه انفعالا ، لأنه أخفى الأمر سرا ، خشية أن يخيب أمل البنات لسبب من الأسباب ، أو أن تسوء حالة بث • وابيض وجه جو ، ثم قفزت واقفة من مقعدها ، فمــا إن انتهى من حــديثه ، حتى طوقت عنقه بذراعيها وصــاحت فى فــرح :

ــ آه يا لورى ! أمى ستحضر ؟ ! إنى سعيدة الى أبعد حــد !

ولم تبك بعد ذلك ، بل راحت تضحك ضحكة هستيرية وهى ترتجف ، وتتشبث بصــديقها كأنما هــذا الخبر قــد سلبها قوتها • ورغم دهشة لورى ، فقد تصرف تصرفا حميدا ، فراح يربت على ظهرها ، فلما رآها تهدأ قليلا طبع على جبينها قبلة فى خجل ، وعندئذ تنبهت جو فأبعدته عنها ، واستندت الى حاجز السلم ، وقالت :

ــ لا •• لا •• لم أقصد •• لقد كنت فى حالة سيئة من الحزن ، فلما سمعت بما فعلت على الرغم من أوامر حنا ، لم أملك إلا أن أعانقك •

قل لى بالله كل شىء ولا تعطنى مزيدا من هـذا الشراب الذى جعلنى أفقد توازنى ووقارى •

قال الفتى وهو يضحك ويصلح رباط رقبته :

ـ إنى لا أمانع فيما فعلت ! المسألة وما فيهـا أن القلق زاد بى وبجدى وخيل الينا أن حنا تبالغ فى استعمال حقها ، ورأينا من واجبنا أن نحيط أمك علما بالأمر ، حتى لا تلومنا اذا أصاب بث مكروه • وعندما رأيت الوجوم على وجه الطبيب أمس ، ولمست من غضب حنا ، لما طلبت منها أن تناديك ، أقنعت جدى بأن الوقت قد حان لأخطار أمك بالأمر ، وتسللت الى مكتب البرق وأرسلت البرقية • وستحضر أمك فى قطار الساعة الثانية صـباحا ، حيث أستقبلها بنفسى ، وما عليك الآن سوى أن تلقى همومك جانبا ، وتحافظى على هدوء بث ، حتى تصل السيدة الطيبة الى بيتهـا •

قالت جـو :

ـ إنك ملك كريم يا لورى ، ولست أدرى كيف أوفيك حقـك من الشـكر ••

قال لورى ، وقـد تجلت فى عينيه نظرة ماكرة ، لم ترها جو منذ أسـابيع :

ـ أفضـل أن تعانقينى مرة ثانية •••

قالت :

ـ لا •• شكرا •• أفضل أن أعانق جـدك بالنيابة عنـك عندما يحضر ، فكف عن إغاظتى ، وعد الى بيتك لتستريح ، فأمامك سـهر

طويل الى ما بعــد منتصــف الليل • بارك الله فيك يا تيدى ! بارك الله فيــك !

وخرج الفتى وهو يشعر أنه أتى أمرا عظيما حقــا ، وتقهقرت جو الى جانب الحائط ، ثم انسلت الى المطبخ ، وجعلت تحدث القطيطات بسعادتها البالغة • وعندما علمت حنا بالأخبار الطيبة ، قالت وقد انزاح عن قلبها حمل ثقيل :

— لم أر إنسانا يتدخل فى شئون الناس مثل هــذا الفتى ، ولكنى أصــفح عنــه على كل حــال ، وآمل أن تكون مسز مارش فى طريقها الينــا الآن •

واغتبطت ميج بالخبر ، وامتلأ قلبها براحة الهدوء ، وجعلت تفكر فى الخطاب الذى تكتبه ، وعكفت جو على غرفة المريضة ترتبها وتنظفها ، أما حنا فقد اتخذت احتياطها ، وأعدت فطيرتين لمن قد يحضر مع السيدة • وبدا كأن نسمة من الهواء النقى قد سرت فى البيت ، وأن ضوءا يفوق أشعة الشمس بهاء قد غمــر الغرف الساكنة ، وأن كل مــا فى البيت اكتسى بالأمل والتفاؤل ، فغرد عصفور بث مرة ثانية ، وتفتحت وردة بين شجيرات آمى فى النافذة ، وأضاءت نيران الموقد المكان بضوء مرح ، وتعانقت الأختان الكبيرتان ، وكل منهما تقول للأخرى هامسة :

— إن والدتى قادمة يا عزيزتى ، إنها قادمة !

وشمل الحبور أفراد الأسرة عدا بث ، فقد رقدت فى فراشها غائبة عن وعيها ، غير شاعرة بالأمل والسرور ، أو بالشك والخطر •• وكان منظرها يستدر الشفقة ، فهذا الوجه الذى كان موردا صبوحا ، صــار

نحيـلا شاحبا ، وباتت الأيدى التى لم تكف عن العمل ترقد ضـعيفة خائرة ، وهذه الشفاه الضاحكة أصبحت باهتة صامتة ، وهـذا الشعر المرتب الجميل انتثر على الوسادة فى خشونة وفوضى • وانقضى اليوم والفتاة ترقد هكذا ، لا تفيق إلا لحظة قصيرة تتمتم فيها بشفتيها الباهتتين كلمة ماء ، وتنطقها بصـوت خافت لا تكاد تتبينه الأذن ، وطول اليوم كانت جو وميج تهيمان فى أرجاء البيت ، ترقبان وتنظران وتأملان خيرا فى رعاية الله وعناية الأم • وظلت الريح تصفر خارج البيت طول اليوم ، والثلج يتساقط من السماء على مضى ساعات النهـار البطيئة المتوانية • وأخيرا هبط الظـلام على الدنيا ، والأختان تجلسان على جانبى سرير المريضة ، وكلما دقت الساعة دقاتها ، التفتت الواحدة منهما الى الأخرى بعين تلتمع راحة لقرب الفرج ، فلقد جـاء الطبيب وقرر أن منتصـفه الليـل سيكون لحظة حاسمة فى سير المرض ، عنده يتقرر مصير الصغيرة العليـلة •

وكان التعب قد أعيا حنا ، فاستلقت على الأريكة بجوار السرير ، وسرعان ما غلبها النوم ، وجعل مستر لورنس العجوز يسير فى الردهة جيئة وذهابا ، وهو يحس بأنه أقدر على مواجهة فرقة من العصاة من أن يواجه القلق المرتسم على وجه مسز مارش عند حضورها • ورقد لورى على البساط متظاهرا بأنه يستريح ، ولكنه كان يحملق فى نيران المدفأة بنظرة ساهمة زادت سواد عينيه حلكة وصـفاء •

وكانت ليلة ليلاء فى حياة جو وميج ، اختلطت اللهفة فيها بالانتظار ، وتعانقت الحيرة بالقلق •

همست ميج فى حرارة :

— اذا عفا الله عن بث وشفاها ، فلن أشكو هماً طول حياتى . ولن أتذمر من ضيق مهما بلغ .

وأجابت جو بنفس الحرارة :

— وسأكون ، اذا شفاها الله ، خير عبيده فى هذه الدنيا كلها .

فقالت ميج :

— لست أدرى كيف نقوى على الحياة اذا توالت فيها صعاب كهذه ؟ !

وهنا دقت الساعة معلنة منتصف الليل ، ونسيت الفتاتان نفسيهما وهما ترقبان التغير الذى بدا لهما على وجه بث الشاحب . وكان البيت ساكنا كالقبر ، وليس من صوت يعكر سكونه سوى عويل الرياح فى الخارج . وكانت حنا المتعبة تغط فى نومها ، فلم ير أشباح الأسى التى تخيم فوق سرير المريضة غير أختيها . ومضت ساعة ثم خرج لورى فى هدوء ليستقبل القطار ، ومضت ساعة أخرى ولم تحضر أمهما ، وتملكت الفتاتين نوبة من القلق الشديد ، وخافتا أن يتأخر حضورها بسبب العاصفة أو حوادث القطر ، وكان أكثر ما تخشيان أن تسوء حالة الأب ، فتضطر الأم الى البقاء معه .

ووقفت جو تتطلع من النافذة الى الدنيا الحالكة تحت غطاء ثلجها الأبيض ، وكانت الساعة قد جاوزت الثانية ، عندما أحست بحركة فى سرير المريضة ، فالتفتت بسرعة لترى ميج راكعة أمام المقعد الذى اعتادت أمها أن تجلس فيه ، وقد أخفت وجهها فى كفيها . وسرى فى بدن جو رعب شديد ، إذ خيل اليها أن بث لفظت أنفاسها وأن ميج

تخشى أن تخبرها بذلك • وعادت مسرعة الى مكانها بجوار الفراش ، فرأت والرعب يملأ نفسها أن تغيرا واضحا كسا وجه الراقدة ، فقد تلاشت عنه حمرة الحمى والألم ، وحلّ محلها تعبير من الهدوء والسلام والراحة ، أثار فى نفس جو رغبة شديدة فى البكاء أو العويل • فانحنت على أعز أخواتها تطبع على جبينها المبتل قبلة صدرت من قلبها ، وهمست :

— وداعا يا بث ، وداعا !!

وكأن الحركة الصغيرة أيقظت حنا من سباتها ، فقامت مسرعة تتطلع الى بث ، وتتحسس يديها ، وتستمع الى الأنفاس المترددة من بين شفتيها ، وما لبثت أن ألقت بمرولتها جانبا ، وجلست تتمتم فى عجب :

— لقد زايلتها الحمى ، وهى تنام نوما طبيعيا ، والعرق ينـدى جسدها وتنفسها هادىء منتظم • لك الشكر يا إلهى ••• لك الشكر !!

وقبل أن تؤمن الفتاتان بقولها ، جاء الطبيب ليتأكد من زوال الخطر ، وكان رجلا عاديا فى شكله ، ولكن ابتسامته بدت لهما ملائكية مشرقة ، قال :

— نعم إنها أحسن حالا ، وسوف تشفى عن قريب ، فاحتفظن بهدوء البيت لتنام ، فاذا استيقظت فأعطينها ••••

ولم تسمع الفتاتان ماذا يجب أن تجرع المريضة ، فقد رجعتا الى الردهة المظلمة ، وجلستا على درجة السلم متلاصقتين ، تنعمان بلذة المحبة الطيب ، ولا تقويان على التعبير عن سعادتهما بكلمة أو اشارة •

وعندما عادتا الى الحجرة ثانية ، طوقتهما حنا بذراعيها وقبلتهما ، ونظرت الفتاتان الى بث فرأتاها ترقد فى سلام ، وقد انزاح عن وجهها امتقاعه السابق ، وترددت أنفاسها فى انتظام ، كأنها قد استسلمت الى النوم لتوها .

وقالت جو وقد كاد الليل البارد ينقضى :

ـ ليت أمى تحضر الآن !

وقالت ميج وهى تمسك بوردة بيضاء بدأت تتفتح أوراقها :

ـ انظرى .. ظننت أن هذه الوردة لن تتفتح حتى نضعها فى يد بث اذا ما .. اذا ما ناداها الله الى جواره ، ولكنها تفتحت فى أثناء الليل ، وسوف أضعها فى آنية الزهر ، حتى اذا ما صحت العزيزة من نومها ، كان أول ما يطالعها هذه الوردة الجميلة ووجه أمى العزيزة .

ولم تشرق الشمس فى جمال يعادل إشراقها ذلك الصباح ، ولم تبد الدنيا أحلى مما بدت ، عندما فتحت الفتاتان جفونهما المثقلة بالنوم ، بعد أن انقضت ساعات الحزن والأسى .

وقالت ميج وهى ترقب من وراء ستار النافذة ، ضوء الصباح الباهر :

ـ أرى الدنيا اليوم حلما جميلا .

وصاحت جو وهى تقفز واقفة :

ـ ما هذا ؟

فقد علت جلجلة أجراس العربة عند باب الدار ، وصاحت حنا مهللة ، وتعالى صوت لورى يقول فى مرح هادىء :

ـ لقد وصلت يا بتلت ، لقد وصلت !

الفصل التاسع عشر

وصـــية آمى

بينما الأحداث تجرى فى بيت آل مارش ، كانت آمى تعانى الأمرين فى ضيافة عمتها ، فقد حزت فى نفسها مرارة النفى ، وأحست لأول مرة ، بمدى ما كانت تنعم به من حب أهلها وتدليلهم ، إذ كانت العمة مارش لا تدلل أحدا ولا تؤمن بالتدليل ، ولكنها كانت تظهر عطفها على الفتاة المهذبة التى وقعت من نفسها موقعا حسنا . وكانت تكن لأولاد قريبها مودة فى قلبها العجوز ، ولكنها كانت تنكر على نفسها أن تعترف بهـا صراحة ، ولذلك بذلت ما بوسعها فى توفير أسباب السـعادة للفتـاة الصغيرة . ولكن ما أكثر الأخطاء التى وقعت فيها خلال سعيها الطيب . إن بعض العجائز يحتفظون بقلـوب فتيـة رغم التجاعيد التى تغشى وجوههم ، والمشيب الذى يكسو شعورهم ، فينسجمون مع الأطفال فى أمورهم ومسراتهم ، وتزول الكلفة فيما بينهم ، وبذلك يصبح فى مقدورهم إسداء النصيحة بطريقة محببة ، تقابلها الصـداقة والعطف الحـلو . ولكن العمة مارش لم ترزق هذه الهبة ، فأنهكت الفتاة بسيل من القواعد والأوامر الدقيقة تصوغها فى عبارات ومحاضرات طويلة . وكانت آمى أكثر من أختها جـو هدوءا ومسالمة ، فرأت العجوز أن تقومها ، لتعالج الأثر السيىء للحرية المطلقة التى نشأت عليها الفتـاة . فاستبدت فى معاملتها ، كما كانت أمها تستبد بها منذ ستين عاما ، مما أثار نفس آمى ، وجعلها تشعر كأنها ذبابة ضعيفة وقعت فى براثن عنكب شرير .

وفرضت عليها كل صباح أن تغسل الفناجين ، وتمسح الملاعق ،

وتلمع إبريق الشاى الفضى ، وتنظف زجاج النوافذ ، ثم عليها بعد ذلك أن تنفض الغبار عن الحجرة وهو أمر عسير • ولم تكن عينا العمة مارش تغفلان عن أى إهمال يصــدر من الفتاة ، ولم يكن يفوتها أقل غبـار يبقى بين ثنايا نقوش المفروشات القديمة • ولذلك كان على آمى أن تعمل بجـد واجتهـاد ، فاذا انتهت من واجباتها الكثيرة ، أطعمت الببغاء ، ومشطت شعر الكلب المدلل ، ونزلت السلم وصــعدته عشرات المرات ، تؤدى الخدمات وتبلغ الأوامر عن عمتهـا العرجاء التى لا تكاد تغادر مقعدها • وبعد كل هذا النصب تجلس الى دروسها تستذكرها ، وعند ذلك يسمح لها بساعة تقضيها فى الرياضة واللعب • وكان لورى يحضر كل يوم ، ويظـل يلح على العمــة مارش ، حتى تصرح لآمى بالخروج معه ، لترفه عن نفسها بالنزهة فى العربة أو سيرا على الأقدام • وبعــد تناول الطعام ، تقرأ الفتاة للعجوز بصوت مرتفع ، ثم تجلس ســاكنة عندما تغفى العمة ، وهى عادة تنام على كرسيها ساعة ، فاذا صحت يبدأ التطريز وشغل الابرة ، فتظل الفتاة تعمل فى هدوء ظاهر ، وثورة مكبوتة حتى يحل الغسق ، فتطلق لها الحرية الى موعد الشاى • ثم يأتى المساء ، وهو أفظع ما فى اليوم ، إذ تشرع العمة مارش تقص قصصا لا تنتهى عن شبابها ، وغالبا ما تكون القصص قابضة ، حتى يحين موعد النوم ، فتذهب الفتاة الى فراشها ، وفى نيتها أن تبكى فيه ما شاء لهــا البكاء ، ولكن ما إن تذهب فعـــلا اليه حتى يغلبها النعاس ، قبل أن تعتصر من عينيها دمعة أو دمعتين • ولولا زيارات لورى ، ولولا أستر خادم عمتها ، ما أمكن آمى أن تحتمل الوقت العصيب الذى تقضــيه فى بيت عمتها ، فقد كان الببغاء وحده ، يسبب لها عذابا شديدا ، بعد أن شعر بكراهيتها له ، فراح ينتقم منها بكل ما يعرفه من وسائل المكر والخبث • كان يشد شعرها كلما اقتربت منه ، أو يغيظها فيقلب وعاء طعامه ومائه بعــد أن

تنتهى من تنظيف قفصه ، أو يثير الكلب المدلل بأن ينقره ، فينبح أثناء نوم السيدة ، كما كان يسبها ويشتمها أمام الزوار ، وبالاختصار كان يعمل كل ما يمكنه لازعاجها وتعذيبها • وكان هناك أيضا ذلك الكلب المدلل السمين الغضوب ، الذى لا ينقطع عن النباح ، ولا يكف عن التكشير عن أنيابه كلما تولت أمر نظافته وتمشيط شعره ، أو يرقد على ظهره ويرفع أرجله فى الهواء معاكسا مشاكسا ، أو يبدى جميع حركات الغباوة والسماجة اذا أراد شيئا يأكله ، وهو أمر يحدث عشرات المرات فى أثناء النهار •

وبالاضافة الى هذا كله ، كانت هناك الطاهية الحمقاء الغضوب وسائق العربة الأصم ، ولم يكن فى البيت من يعطف على آمى سوى الخادم أستر •

وكانت أستر هذه فرنسية الأصل ، عاشت مع « المدام » ، كما كانت تسمى العمة مارش ، سنوات طويلة ، وكانت متعنتة مع السيدة العجوز ، لعلمها بأنها لا يمكن أن تستغنى عنها • وكان اسمها الحقيقى أستل ، وقد طلبت منها العمة مارش أن تغير اسمها بأستر ، وقد رضيت بشرط أن لا تطلب منها السيدة أن تغير دينها بعد ذلك • وقد عطفت الخادم على « المدموازيل » ، فكانت كلما أتيحت لها فرصة الجلوس معها ، تقص عليها أغرب القصص عن حياتها فى فرنسا ، كما سمحت لها بالتجول فى أنحاء البيت الكبير تفحص ما به من التحف والغرائب المحفوظة فى الأصونة والصناديق القديمة ، والتى طفقت مسز مارش تختزنها فيها على مر السنوات وكان أكثر ما تحبه آمى ، أن تفحص صوانا هنديا ، به أدراج ورفوف ومخابىء سرية ، امتلأت جميعها بغرائب وتحف ، بعضها ثمين وبعضها تافه • وكان أعظم ما يسعدها أن ترتب هذه التحفه

وتصفها ، خصوصا صندوق الحلى المبطن بالمخمل ، إذ كان يحتوى على كثير من الحلى التى عرفها النساء منذ أربعين عاما • وكان بالصندوق مجموعة من الياقوت تتحلى بها العمة عند خروجها ، وعقد لؤلؤى أهداها إياه أبوها يوم زفافها ، ثم ماسات زوجها وخواتمه ودبابيسه وخصلة شعره ، وكذلك صور أصدقاء ماتوا ، وأساور طفلتها الوحيدة التى فقدتها رضيعة • هذا الى جانب ساعة العم مارش التى تتدلى منها حلية حمراء ، طالما عبثت بها أيدى أطفال عديدين • وفى صندوق آخر حفظت العمة خاتم زواجها بعد أن ضاق قطره عن أصبعها السمين •

وقد سألتها أستر يوما ، وهى تجلس الى جانبها ترقبها وهى تفحص هذه التحف :

ــ أية قطعة من هذه الحلى تحب المدموازيل أن توصى بها عمتها لها ؟

قالت آمى ، وهى تنظر فى إعجاب الى عقد ذهبى مطعم بخشب الآبنوس ، وقد تدلى منه صليب ثقيل من المعدن المنقوش نفسه :

ــ هذه الماسات تعجبنى كثيرا ، ولكنى لا أرى بينها قلادة واحدة• وبما أنى أريد قلادة أزين بها عنقى ، فليس أمامى سوى أن أختار هذا العقد الذهبى •

فقالت أستر وهى تنظر باعجاب الى الحلية الذهبية :

ــ إنها تعجبنى أيضا ، ولكنى أفضل أن أستعملها كتعويذة ، لأننى امرأة متدينة •

فسألتها آمى :

— أتعنين أنك تفضلين أن تستعمليها كالمسبحة الخشـــبية ، التى تعلقينها فوق مرآتك ؟

قالت :

— نعم ، لأصلى بها ، فهذا يرضى القديسين ، أكثر مما يرضـــيهم أن ألبسها للزينـــة والبهرج •

قالت الفتـــاة :

— إنك تستمدين من الصـــلاة راحـــة النفس وهدوءها ، فليتنى كنت مثلك !

قالت :

— لو كنت كاثوليكية مثـــلى لأحسست بالراحة عنـــد الصـــلاة ، ولكنك بروتستنتية ، فمن الخير أن تفعلى مثلما كانت تفعـــل مخدومتى السابقة ، إذ كانت تنفرد كل يوم بنفسها تفكر وتتأمل وتصلى أمـــام المذبح الذى أقامته فى بيتها ، فتجد فى ذلك راحة وسلوانا •

وكانت آمى تشعر فى وحدتها هذه بحاجة الى ما يعينها ، ولم تكن تقرأ فى كتاب النصائح إلا نادرا ، إذ لم يكن يذكرها بالقراءة فيه غير بث • فقالت تسأل الخادم :

— أمن الصـــواب أن أفعل ما تنصحين به ؟

قالت :

— من غير شك ! سوف تشعرين بمنتهى الراحة والهـــدوء ، فاذا وافقت على اقتراحى ، هيـــأت لك مذبحـــا للصـــلاة فى حجرة الملابس

الصغيرة • فلا تذكرى الأمر لعمتك ، وعندما تنام اذهبى واجلسى وحيدة ، ولا تفكرى إلا فى الخير ، واضرعى الى الله أن يحفظ أختك المريضة •

وكانت أستر امرأة رقيقة القلب متدينة ، تحس بما تعانيه الفتاة من قلق نحو أختها ، فاطمأنت آمى الى نصيحتها ، وقبلت أن تهيىء المذبح فى الحجرة الصغيرة المجاورة لحجرتها ، راجية أن يكون الخير فيما تعمل •

وراحت تعيد التحف والحلى الى مكانها قطعة بعد قطعة ، فلما انتهت أغلقت العلبة ، ثم قالت :

ــ ليتنى أعرف الى من تؤول هذه التحف الجميلة بعد موت العمة مارش •

فهمست أستر تقول باسمة :

ــ ستؤول اليك والى شقيقاتك ، فلقد أخبرتنى « المدام » بذلك ، كما أنى كنت شاهدة على وصيتها •

فقالت آمى وهى تلقى نظرة أخيرة على الماسات :

ــ جميل جدا ! ولكنى أتمنى لو أمكن أن نأخذها ، فانى أحب الخيرات العاجلة لا الآجلة •

قالت :

ــ ولكنكن صغيرات بعد ، ولا يجوز لكن التزين بالجواهر •

قالت لى « المدام » بأنها ستهدى أول من تتزوج منكن عقد اللآلىء • وأعتقد أنها ستعطيك الخاتم الفيروز عنـــد عودتك ، لأنى أرى عليهـا دلائل الرضا عن سلوكك وأخـــلاقك الحميدة •

قالت آمى وهى تجرب الخاتم المنشود على أصبعها ، وقد شـــاع السرور فى وجهها ، والعزم على الحصول عليه فى نفسها :

ـــ أتعتقدين ذلك حقا ؟ والله لو كان صدقا ما تقولين ، لأصبحت فى وداعة الحمل وخضوعه ! انه أبدع كثيرا من خاتم كيتى برايانت • انى أحب العمة مارش رغم كل شىء !

ومنذ تلك اللحظة صارت مثلا للطاعة ، مما أشاع الرضا فى نفس السيدة العجوز بنجاح طريقتها فى التربية • وراحت أستر تعد المذبح فى الحجرة الصغيرة ، فأحضرت منضدة صغيرة ووضعت أمامها وســادة للركوع ؛ كما وضعت صورة للعذراء فوق المائدة أخذتها من بين تحف « المدام » ؛ مطمئنة الى أنهـــا قليلة القيمة ، ولن تغضب الســيدة اذا كشفت فقدها من صندوقها • ولكن الصورة لم تكن فى الحقيقة تافهـــة كما ظنت أستر ؛ بل كانت نسخة ثمينة جدا لاحدى روائع الفن العالمى ، وقد أحست آمى بجمالها وعظمتها ؛ فكانت لا تكل من التطلع إليها ، وقلبها مفعم بالآمال الحلوة والأفكار السعيدة • ووضعت فوق المائدة أيضا إنجيلا وكتاب الصلاة ، وآنية للزهور اليانعة التى يأتيها بها اورى • وفى كل يوم تجلس وحيدة تفكـــر وتتأمل ، وتصلى إلى الله أن يحفظ أختها ؛ وكانت أستر قد أعطتها صليبا خشبيا بسيطا تعلقة على صدرها وهى تصلى ، ولكن عقيدتها البروتستانتية أبت عليها أن تفعـــل ذلك ؛ فقنعت بتعليقه على الحائط •

وكانت مؤمنه كل الايمان بما تفعل ، فقد جعلها بعدها عن بيتها ، تشعر بحاجة الى قوة مشجعة ا ولذلك توجهت الى الله ضارعة ان يرعى الكبار والصغار ويساعدهم على متاعبهم • ولم تكن أمها بجانبها ترشدها ، ولكن التعاليم التى أخذتها عن أبيها ، أحسنت توجيهها الى الطريق الصحيح دون أن تشعر • حاولت أن تنسى نفسها وهمومها ، وأن تحتفظ بالبشر والرضا بواجباتها • وفى غمرة حماستها الدينية : قررت أن تحذو حذو عمتها ، فتكتب وصيتها ، حتى اذا مرضت أو ماتت ، توزعت ممتلكاتها بالعدل بين ورثتها • وأحست برجفة الخوف لمجرد تفكيرها فى التنازل عن كنوزها الصغيرة : التى بدت فى عينيها غالية ثمينة كمجوهرات عمتها العجوز •

وفى ساعة من ساعات لهوها كتبت الوثيقة الهامة ، كأحسن ما تستطيع أن تكتبها ، وأضافت اليها بعض فقرات قانونية بمساعدة أستر • فلما انتهت الفرنسية الطيبة من توقيع الوصية كشاهدة ، أحست آمى براحة كبيرة ، واحتفظت بالورقة جانبا فى انتظار لورى ، كى يكون الشاهد الآخر عليها • ولما كان الجو مطيرا ، صعدت تسلى نفسها فى إحدى القاعات الفسيحة واصطحبت الببغاء معها يسليها • وكان بالغرفة خزانة ملابس كبيرة عامرة بالثياب القديمة • فسمحت لها أستر بأن تلعب بها • وكانت تسلية كبيرة للفتاة أن تلبس هذه الملابس الباهتة ، وتستعرض شكلها فيها أمام المرآة ، غمرة تنحنى فى تحية رشيقة ، ومرة تسحب الذيول الطويلة فتسمع لها حفيفا يسر أسماعها • وفى شغلها بمتعتها العظيمة ، لم تسمع لورى وهو يدق الجرس ، ولم تره كذلك وهو يسترق النظر اليها فى أثناء تثنيها وسيرها أمام المرآة ، وهى تداعب مروحتها ، وتهز رأسها المعممة فى حرير وردى ، فى تيه ودلال • وكانت تلبس حذاء عالى الكعب ، فراحت تسير فى بطء وحذر • وكان منظرها مضحكا وهى تتيه

فى الثوب البراق ، ومن خلفها الببغاء يسير مقلدا اياها أو راقفا يضحك قائلا فى عجب :

— ألسنا مدهشين ؟ هيا أيهـا المزعج ! أمسـك لسـانك ! قبلنى يا عزيزى .. ها .. ها .

وأثار منظر آمى رغبة لورى فى الضحك ، ولكنه كبت هذه الرغبة ، خشية أن يجرح كبرياءها ، وطرق الباب فى رقة يعلن قدومه ، فقالت آمى وهى ترجع الثياب الى الخزانة :

— اجلس واسترح حتى أضع هذه الأشياء فى أماكنها ، وبعد ذلك سوف أستشيرك فى أمر على جانب كبير من الأهمية .

ثم أردفت وهى تعيد الببغاء الى ركنه ، ثم تفك العمامة الوردية من فوق رأسها :

— ان هذا الطائر محنة حياتى .

وجلست على مقعد ، بينما جلس لورى على مقعد آخـر قبالتها . قالت :

— بالأمس راحت العمة فى غفوتها بعد الغداء ، وجلست أنا هادئة ساكتة كالفأر ، فاذا بهـذا الطائر يصيح ويضرب بجناحيه فى قفصـه ، وذهبت لأطلق سراحه ، فرأيت بالقفص عنكبـا كبـيرا ، هبط يجـرى تحت خزانة الكتب ، ومن ورائه الببغاء الذى راح يحنى رأسه ويطل على العنكب ويقول له فى لهجته المضحكة :

— اخرج يا عزيزى ، وهيا بنا نتنزه قليلا سـيرا على الأقدام .

ولم أتمالك نفسى من الضحك ، مما جعل الببغاء يشتمنى ، فاستيقظت العمة وأنبتنا نحن الاثنين •

فقال لورى وهو يتثاءب :

— وهل قبل العنكب الدعوة ؟

قالت :

— نعم ، فقد خرج من تحت الخــزانة بسرعة ، مما أفزع الببغــاء فزعــا مميتا ، فولى الأدبار ، وارتطم بساقى العجــوز ، وراح يصيح : « امسكوه •• امسكوه •• امسكوه •• » وانطلقــت أنــا أجــرى وراء العنكب •

فصاح الببغاء ، وهو ينقر قدم لورى :

— هذا كذب ، والله • •

فصاح لورى بدوره ، وهو يهز قبضته فى وجه الطائر :

— لو كنت ببغائى ، ما توانيت عن كسر عنقك ، أيهــا العجــوز الوقح •

وطأطأ الطائر رأسه وقال بصوت أجش :

— كلام فارغ !

قالت آمى ، وهى تغلق خزانة الملابس ، وتخرج ورقة من جيبها :

— أنا الآن مستعدة ، أريد منك أن تقرأ هــذه ، من فضلك ، وأن تخبرنى ان كانت قانونية أم لا • ان الحيــاة غير مضمونة ، وأرى من واجبى أن أكتبها ، حتى لا يذكرنى أحد بسوء فوق قبرى •

وراح الفتى يقـرأ الوثيقة ، متظـاهرا بالوقار والثبات • وكانت كما يأتى :

آخــر وصــية لى

« أقرر أنا آمى كورتيس مارش ، وأنا فى كامل عقلى ووعيى ، أننى أوصى بممتلكاتى الشخصية أمام الشهود الموقعين أدناه ، كالآتى بالاسم :

« أوصى لأبى بجميع صورى ولوحاتى وخرائطى وأعمالى الفنية ، بما فى ذلك الاطارات الخشبية • وكذلك أوصى له بالمائة دولار التى أملكها يتصرف فيها كما يشـــاء •

« وأوصى لأمى بملابسى ، ماعــدا مرولتى الزرقاء ، ذات الجيوب ، وكذلك أوصى لها بأيقونتى مع حبى البالغ •

وأوصى لأختى العــزيزة مارجريت بخاتمى الزبرجدى (اذا كنت سأحصل عليه) ، وبصندوقى الأخضر وما فيه من حمائم ، وبقطعة الدنتلا الحريرية ، كذلك بالرسم التخطيطى والذى عملته تذكارا •

وأوصى لجو بمشبك الصدر الذى أصلحته بالشمع الأحمر ، وبمحبرتى البرونزية ذات الغطاء المفقود ، وبأغلى تمثال صلصالى صنعته لأرنب ، كل ذلك لأكفر عن خطأى السابق باحراق قصتها •

واذا عاشت بث بعدى ، أوصى لهـــا بجميع عرائسى ، وبصـــوان الزينة ، وبمروحتى ، وببنيقاتى التيل وخفى الجديد ، وأعتقد أنه يناسبها الآن ، لأنها ستكون نحيفة بعــد شفائها من المرض • وأشهد هنا أيضـــا أننى أعتذر لها عن ضحكى من عروستها جوانا ، وسخريتى الدائمة بها •

أوصى لصديقى وجارى تيودور لورنس بحافظة أوراق رســومى ،

وبتمثال الحصان الذى عملته من الصلصال ، رغم ما يقوله من أن الحصان بلا رقبة • ومكافأة له على لطفه وطيبته ، لــه أن يختــار ما يعجبه من رسومى الفنية التى أعتقد أن صورة نوتردام أجملها •

وأوصى لحامينــا الطيب مستر لورنس بصــندوقى الأرجــوانى ذى الغطاء الزجاجى ، لأنــه يصلح لوضع أقلامه ، كمــا ، كما أنه سيذكره بصاحبته الراحلة التى تشكره على أفضال كثيرة غمر بها أفراد الأسرة كلهم خصوصا بث •

كما أحب أن تأخذ صديقتى كيتى برايانت مرولتى الحريرية وخاتمى الذهبى مع قبلاتى •

وأوصى لحنا بالصندوق الذى أعجبهــا ، وبأدوات الحياكة ، حتى تذكرنى كلما استعملتها •

والآن ، وقد وزعت أغلى ممتلكاتى ، آمل أن يكون ورثتى راضين ، ولا يلومونى بعد موتى • وانى أصفح عنهم جميعا ، مؤمنة بأننا سنتقابل يوم ينفخ فى الصــور •

آمين •

وانى أوقع على هذه الوثيقة بيدى وختمى فى اليــوم العشرين من شهر نوفمبر •

آمى كورتيس مارش .

شــهود :

أستيل فالنور •

تيودور لورنس •

وكان اسم لورنس مخطوطا بالقلم الرصاص ، وطلبت آمى من لورى أن يعيد كتابته بالحبر ، وأن يضع الوصية فى مظروف ويقفله جيدا •

فقال لورى فى وجوم ، عندما ألصقت آمى شريطا أحمر على المظروف وثبتته بالشمع الأحمر وختمته :

ـ ما الذى جعلك تفكرين فى كتابة هذه الوصية ؟ هل قال لك أحـد بأن بث توزع ممتلكاتها ؟

فشرحت له آمى سبب كتابتها لوصيتها ، ثم سألته :

ـ قل لى ماذا صنعت بث ؟ هل كتبت وصية هى الأخرى ؟

قـال :

ـ يؤسفنى أن أخوض فى هذا الموضوع ، ولكن ما دمت قد ذكرته فسأقول لك ما جرى • لقد أحست يوما بأنها فى حالة سيئة ، فقالت لجـو بأنها تود لو أخذت ميج المعزف ، وبأن تأخذى أنت عصفورها ، وبأن تأخـذ جو دميتها المسكينة لأنها ستحبها من أجل بث • وقالت بأنها آسفة لتفاهة ما تتركه لأخواتها ، وأوصت بخصلات من شـعرها لبقية أفراد الأسرة . وبحبها لجـدى • ولكنها لم تفكر أبدا فى كتابة وصية كهذه •

وكان لورى مطرقا فوق المظروف ، ولم يرفع رأسه إلا عندما سقطت دمعـة كبيرة على الورق ، وأفعمت نفس آمى بالاضطراب ، ولكنهـا قالت :

ـ أليست العادة أن يكتب شىء على المظروف الخارجى ، زيادة على ما جـاء فى الوصـية ؟

قال :

— نعم ، وتسمى تعــديل الوصــية •

قالت :

— اذا اكتب تعديلا بأنى أريد أن توزع خصلات شعرى كلها على جميع أصدقائى • لقد نســيت أن أقول ذلك ، وان كنت أكره أن تقص خصلاتى كلها ، فيصبح شكلى قبيحا فى موتى •

وأضاف لورى ما أرادت وهو يبتسم من آخر تضحياتها وأكبرها •

وراح يسليها ســاعة ، وعنــدما استأذنها فى الذهاب ، انتحت به جانبا ، وقالت وشفتاها ترتجفان :

— هل هناك خطر حقيقى على حياة بث ؟

قال وهو يربت على ظهرها مهدئا :

— أخشى أن يكون ذلك صحيحا ، ولكننا نأمل فى الخــير دائما • لا تبكى هــكذا يا عزيزتى •

وعندما غادرها ، ذهبت الى مذبحها الصغير ، وفى ضــوء الغسق جلست تصلى من أجل بث ، والدموع تنهمر من عينيهــا ، وكان قلبهــا يعتصره الألم ، وأحست أن ملايين الخواتم الزبرجدية ، لن تعزيها عن فقــد أختها الصــغيرة اللطيفة •

الفصل العشرون

امور عائلية

إن الكلمات تعجز عن وصف اللقاء بين الأم وبناتها ، ومن أصعب الأمور أن نصف الساعات الجميلة فى الحياة ، ولذلك نترك الوصف لخيال القارىء يصوره كما يشاء ، ويكفى أن نقول ان البيت أفعم بالسعادة الحقيقية والهناء العظيم . وصدقت نبوءة ميج ، فما ان استيقظت بث من نومها المريح الشافى ، حتى طالعها شيئان : وردتها البيضاء المتفتحة ، ووجه أمها العزيز الباسم . وكانت ضعيفة خائرة القوى ، فابتسمت ، واكتفت بأن ترقد وادعة بين الذراعين الحبيبين ، وقد أحست بأنها قد أرضت فى النهاية قلبها ، الذى كان يتحرق شوقا الى أمها . وعادت الصغيرة الى النوم ثانية ، وقد أطبقت يدها الواهنة علي يد أمها ، ولم ترض الأم أن تسل يدها من قبضتها حتى فى منامها ، فجلست ساكنة ومن حولها بناتها يقمن على راحتها . وكانت حنا قد أعدت إفطارا شهيا للقادمة ، راجية أن يهدىء العمل انفعالها ، وراحت ميج وجو تطعمان الأم كأنهما طائران حنونان ، فى حين جعلت الأم تروى لهما أخبار أبيهما ، فأخبرتهما كيف أن مستر بروك تخلف عن العودة ، ليقوم على خدمة الأب فى المستشفى ، وكيف أخرت العاصفة وصول القطار ، وكيف ارتاحت نفسها لمرأى لورى متفائلا ، فزال عنها قلقها وحزنها .

وطلع اليوم التالى مشرقا رغم مفاجآته : ضوء باهر فى خارج البيت ، يزيد بياضه الثلج المتراكم على الأرض ، وهدوء شامل فى داخله ، إذ كان التعب والقلق والنصب قد أنهك الأسرة ، فنام أفرادها

نوما هادئا . جلست حنا على باب الغرفة تغفى ، وأغمضت ميج وجو عيونهما ، وقد انزاح عن قلبيهما حمل عظيم ، فاستسلمتا لنوم عميق ، بعد عواصف الأحداث السابقة . وأبت مسز مارش أن تغادر فراش المريضة ، فنامت فى مقعدها الكبير ، وبين الفينة والفينة ، تصحو الى بث وتتحسس يدها ، وتحدب عليها كما يحدب البخيل على كنوزه وذهبه .

وذهب لورى الى آمى يطمئنها على أختها ، ويخبرها بمجىء أمها ، وحدثها مسهبا بما جرى فى الليلة السابقة ، وكان دقيقا فى وصفه ، حتى لم تقو العمة مارش على كتم عبرة صغيرة طفرت من عينها لشدة تأثرها ، كما أنها لم تردد جملتها المعهودة « ألم أقل لك ذلك ؟ » . وبعثت الأخبار قوة فى آمى جعلتها تعتقد بأن صلاتها قد آتت ثمارها ، فجففت دمعها ، وكبتت شوقها الى رؤية أمها ، عندما أقرت العجوز للورى بأن آمى قد تصرفت تصرف « السيدة المهذبة » . وحتى الببغاء بدا كأنه يوافق على هذا القول ، فراح يصيح قائلا بأنها « فتاة » طيبة ، وأنه « يدعوها للنزهة سيرا على الأقدام » . وكان بود الفتاة أن تخرج لتتنزه كما اعتادت كل يوم ، ولكنها أشفقت على لورى من المتاعب التى تجشمها ، والنوم الذى يغالبه فى بطولة ورجولة ، فرجته أن يستلقى على الأريكة مرتاحا ، ريثما تكتب كلمة لأمها . واستغرقت الكلمة وقتا طويلا ، فلما عادت الفتاة ، كان لورى ممددا على الأريكة ، وقد توسد ذراعه وراح فى سبات عميق ، فأسدلت العمة مارش الستائر ، وجلست ساكنة ، فى نوبة نادرة من الطيبة والتضحية .

ومضت الساعات والفتى نائم نوما عميقا ، حتى خيل اليهما أنه لن يستيقظ قبل حلول المساء ، وكان من المحتمل أن يحدث ذلك ، لولا

صيحة الفرح التى أطلقتها الفتاة عندما شاهدت أمها تدخل عليها • وربما كان فى المدينة فتيات سعيدات فى ذلك اليوم ، ولكن ما من شك فى أن آمى كانت أسعدهن ، وهى تجلس فى حجر أمها تقص عليها ما مر بها من شدائد ، وتتلقى منها بسمات المواساة والتعزية •

وأرتها الفتاة المذبح الذى شيدته ، فلم تمانع أمها فيه ، ازاء الغرض النبيل الذى أقيم من أجله ، وقالت :

ـ على الضد يا عزيزتى ، إنه يعجبنى كثيرا ، وليس أجمل من أن يكون للانسان مكان هادىء يصلى فيه اذا ما تعقدت الأمور وساءت • إن حياتنا مليئة بالمتاعب ، ولكن من السهل أن نتغلب عليها اذا اتبعنا الطريق الصحيح ، ولعلك أدركت الآن راحة الايمان يا فتاتى •

قالت آمى :

ـ نعم يا أما ، وسوف أهيىء ركنا صغيرا فى حجرتى ، أضع فيه هذه الكتب ، وأعلق فيه هذه اللوحة التى نسختها من صورة العذراء • حقيقة أننى لم أنجح فى نسخها كما يجب ، فوجه السيدة ليس جميلا كالأصل ، ولكن الطفل الذى تضمه لا بأس به • إن شعورى بأن المسيح كان طفلا فى يوم من الأيام ، يقربه الىّ كثيرا ، ويشجعنى على التوجه اليه بمتاعبى •

وكانت الفتاة تجلس على حجر أمها ، وتشير بأصبعها الى الصورة ، فرأت الأم فى الأصبع ما جعلها تبتسم • ورغم أن مسز مارش لم تقل شيئا ، فان الفتاة فهمت معنى بسمتها ، فترددت برهة ثم قالت فى جد :

ــ كنت أنوى أن أحدثك عن هذا ، غير أننى نسيت • لقد دعتنى عمتى اليوم وقبلتنى ، وقالت إنهــا تفخر بى ، وتحب أن أبقى عندها دائمــا ، ثم ألبستنى هذا الخاتم فى أصبعى هدية أحتفظ بها • إنه من الزبرجد ، وهو واسع قليلا على أصبعى ، ولكنه يعجبنى ، فهل أستطيع أن ألبسه يا أمــاه ؟

ونظرت مسز مارش الى اليد البضة ، وقد تحلت بالأحجار النفيسة الجميلة ، وقالت :

ــ لست أشــك فى أنه جميل ، ولكنك ما زلت صــغيرة السن ، ولا يصح أن تتزينى بالجواهر •

قالت آمى :

ــ سأحاول أن لا أتيه به عجبا ، وليس تعلقى به لجماله فحسب ، بل أحب أن ألبسه ليذكرنى بشىء •

فسألتها أمها ضاحكة :

ــ بالعمة مارش ؟ ؟

قالت آمى فى لهجة مخلصة حارة ، جعلت الأم تمسك عن الضحك ، وتصغى الى حديثها باحترام : .

ــ لا ، ولكن ليذكرنى دائما بأن أنكر أنانيتى وأحاربها فى نفسى • لقد أطلت التفكير أخيرا فى مجموعة رذائلى ، فوجدت أن الأنانية أكبرها• وقد قررت أن أشفى نفسى منها ما استطعت • إن حب النــاس كلهم لبث ، وخوفهم الشديد على حياتها ، ورغبتهم الصــادقة فى شفائها ، يعود الى انكارها لذاتها وخلو نفســها من الأنانية • أما أنا فلن يأسف

أحـــد علىّ اذا مرضت ، وهـــذا أقل ما أستحق ، ولذلك سأحاول أن أحذو حذو بث ما أمكن ، حتى أجتذب القلوب ، وأغريها بالعطف علىّ • إنى أقرر لنفسى عادات واتجاهات طيبة ، ولكنى لا ألبث أن أنساها ، ولذلك أحب أن أستصحب معى شيئا يذكرنى بها ، وهـــذا الخاتم خير سبيل الى التذكرة على ما أعتقـــد ، أفتسمحين أن أجربه ؟

قالت الأم :

ــ نعم ، لك أن تلبسيه كما تحبين ، ولكنى أكثر ثقة بأثر الركن الذى سوف تشيدينه فى غرفتك ، ويقينى أنك تكسبين نصـــف المعركة اذا ما اقتنعت بجمال إنكار الذات • والآن يجب أن أعود الى بث ، فاجمعى شجاعتك يا بنيتى الصغيرة ، ولن يمضى وقت طويل حتى يجتمع شملنا مرة ثانيـــة •

وبينما كانت ميج تكتب فى المساء خطابا لأبيها ، تخبره فيه بسلامة وصول أمها ، انسلت جو الى حجرة بث حيث تجلس أمها ــ كعادتها ــ فى المقعد الكبير ، ثم وقفت خلفها وهى تعبث بأصابعها فى شعرها القصير وقـــد بدا عليها الشرود والحيرة ، فأمسكت الأم بيد جو ، وقالت ، وفى عينيها نظرة تبعث على الثقة :

ــ ماذا يحيرك يا جـــو ؟

قالت :

ــ أريد أن أحدثك فى أمر يا أماه •

قالت :

ــ بشأن ميج ؟

قالت جـو :

ـ ما أسرع إدراكك للأمور ! نعم إنه بشأن ميج . هى أمـور تافهة ، ولكنها تقلقنى بعض القلق .

فقالت الأم فى لهجة حادة نوعا :

ـ إن بث نائمة ، فتكلمى فى صوت منخفض ، وقولى ما يقلقك . آمـل أن لا يكون ذلك الفتى موفات قد جاء الى هنا فى غيبتى ؟

قالت وهى تجلس على الأرض عند قدمى أمها :

ـ لا ، لو أنه حضر لأغلقت الباب فى وجهـه ، الأمـر يختص بشخص آخر ، ولعلك تذكرين أن ميج تركت قفازها فى صـندوق بريد آل لورنس فى الصيف الماضى ، ولكننا لم نجد منه سوى فردة واحدة ، ولقد نسينا أمرها الى أن أخبرنى لورى ذات يوم ، بأن بروك يحتفظ بالفردة المفقودة فى جيب صداره ، ولقد سقطت مرة أمام لورى ، فلما سـأله عن سرها ، قال مستر بروك إنه معجب بميج ، ولكنه لا يجرؤ على التصريح بذلك ، لأنها ما زالت صغيرة ، وهو ما زال فقيرا .. ألا ترين معى أن الأمر مخيف بهذا الوضـع ؟

قالت مسز مارش فى لهفة :

ـ أتظنين أن ميج تهتم بأمره ؟

صاحت جو بلهجة اختلط فيها الاهتمام بالاحتجاج :

ـ وكيف أعرف وأنا أجهل ما يكون بمسائل الغرام وسخافاته ؟؟ ان الفتيـات فى القصص يظهرن الغـرام باجفالهن واحمرار وجوههن

خجــلا ، وباغمائهن ونحول أجسادهن ، وتصرفاتهن الخرقاء • ولكنى لا أرى هذه العوارض على ميج ، فهى تأكل وتشرب وتنام كأى إنسان عاقل ، واذا ما حدثتها عن الرجل ، نظرت الىّ بعين ثابتة ، دون أن يحمر وجههــا ، إلا فى بعض الأحيان ، عندما يقص تيدى فكاهات عن العاشقين والمحبين • ولقد منعته ونهرته دون جدوى •

قالت :

ـ اذا فأنت لا تعتقدين أن ميج تهتم بأمر جون ؟

صاحت جــو مجفلة :

ـ من ؟

قالت :

ـ مستر بروك ، إنى أدعوه جون الآن ، بعد أن زالت الكلفة بيننا فى المستشفى ، وهو يرحب بهذه التسمية •

قالت جو وهى تشد شعرها بعنف وغيظ :

ـ يا إلهى ! كنت على يقين من أنه سيلعب ذلك الدور ، فيظهر الاهتمــام والعنــاية بأبى ، وعندئذ لن ترفضــيه زوجا لميــج •••• يا للوضاعة ! يغرق أبى فى العناية ، ويمعن فى استرضائك ، حتى ينال رضــاكما عنــه •

قالت الأم :

ـ لا تثورى ولا تغضبى يا عزيزتى ، وســأحدثك كيف ســارت الأمور الى وضعها الحالى • لقد ذهب جون معى بناء على رغبة مســتر

لورنس ، ولقد تفانى فى خدمة أبيك ، حتى لم نتمالك أنفسنا من محبته • وكان صريحا أمينا فى شأن ميج ، وصارحنا بحبه لها ، وأخبرنا أنه سينتظر حتى يهيىء لنفسه بيتا مريحا قبل أن يتزوج منها • ولم يسألنا شيئا سوى أن نصرح له بأن يحبها وبأن يعمل من أجلها ، وبأن يجعلها تحبه اذا أمكن • إنه فتى ممتاز فى الواقع ، فلم نقو على صده ، ولكن ميج ما زالت صغيرة السن ، ولا يصح أن تتزوج الآن •

قالت جو :

ــ طبعا لا توافقين على هذا الغباء ! كنت متأكدة من أنه يدبر المكائد ، وقد أحسست بذلك طوال الوقت ، ولكنى ما تصورت أن تصل النتائج الى هذا الحد ، ليتنى أستطيع نفسى أن أتزوج ميج ، لأحفظها مصونة فى الأسرة •

وبعثت هذه الأمنية الابتسام الى شفتى مسز مارش ، ولكنها قالت فى جد :

ــ لقد وضعت ثقتى فيك يا جو ، وأطلعتك على سر أريد أن لا تعرف به ميج فى الوقت الحاضر ، وعندما يعود جون ويجتمع بميج هنا ، يمكننى أن أحكم على شعورها نحوه •

قالت الفتاة :

ــ سوف تقرأ عواطفه فى عيونه التى كثيرا ما تتحدث عن جمالها ، فينتهى أمرها بحبه • إن لها قلبا رقيقا لا يلبث أن يذوب تحت وطأة نظراته العاطفية • إنها تقرأ الخطابات التى يرسلها أكثر مما تقرأ خطاباتك أنت ، فاذا سألتها لماذا تفعل ذلك ، نهرتنى ، كما أنها تحب

العيون العسلية ، وترى أن جون وسيم الشكل ، وسوف تغرق فى حبه ، وسلام على أيام الضحك والهدوء والسرور • إنى أرى المستقبل أمامى واضحا ، فسوف يروحان ويجيئان ويملآن البيت بالغرام ، وسيشغل حبه قلبها ، فلا يبقى لى متسع فيه ، ولن يعجز بروك عن تدبير المال بأية طريقة ممكنة ، ثم يأخذها منا ، فتترك فراغا فى الأسرة • ان قلبى يتحطم لفراقها ، والدنيا من بعدها تغدو قبيحة •• يا إلهى ! لماذا لم تخلقنا جميعا صبيانا ، حتى لا نقاسى مثل هذا المصير ؟ !

وأسندت جو ذقنها الى ركبتها فى حزن وغضب ، وتنهدت مسز مارش ، فنظرت جو اليها وقد علا وجهها الارتياح ، وقالت :

ــ يسعدنى أن أراك غير مسرورة بهذا الموضوع يا أماه ، فهيا نرسله لحال سبيله دون أن تعرف ميج ، وبذلك تعود حياتنا الى سعادتها كما كانت دائما •

قالت :

ــ لقد أخطأت بتنهدى يا جو ، فالزواج أمر طبيعى ، وستذهب كل منكن الى بيتها الخاص عندما يحين الوقت المناسب • ولكنى أحب أن أحتفظ ببناتى أطول وقت ممكن ، ويؤسفنى أن يجىء دور ميج بهذه السرعة ، فهى فى السابعة عشرة ، وما زال أمام جون بضع سنوات حتى يتمكن من تهيئة بيت الزوجية لها • ولقد اتفقت مع أبيك أن لا نسمح بارتباط أو خطبة قبل أن تتم العشرين • فإذا تبادلا الحب كان الانتظار ممكنا ، وكان فيه محك لحبهما • إنها فتاة حساسة ولا يقلقنى أن تعامله بالعطف ، وأدعو الله أن يمهد لها سبيل السعادة لأنها جميلة طيبة القلب •

فقالت جو ، وقد لاحظت تعثر الكلمات الأخيرة فى فم أمها :

ــ ألا ترين من مصلحتها أن تتزوج رجلا غنيا ؟

قالت :

ــ إن المال شىء جميل نافع ، وأدعو الله أن لا يعوزكن إليه ، كما أضرع إليه أن لا تخدعن بكثرته • وكل ما أرجوه أن أطمئن الى أن جون قد أصبح ذا مكانة مالية مستقرة ، تأتيه بما يكفل له ولميج الراحة ، وتبعد عنه شبح الديون والفاقة • لست أطمع لبناتى فى ثروة ضخمة أو جاه عريض ولكن إذا جاء المال والجاه مع الحب والفضيلة ، فمرحبا بحسن طالعكن • إنى أعلم بالتجربة كيف تعمر السعادة بيوتا عادية لا تملك سوى قــوت يومها ، فبعض الحرمان يكسب مباهج الحياة الصغيرة أهمية ، ويزيــد وقعها جمالا فى النفس • إنى راضية أن تبدأ ميج حياتها فى تواضع ، وإن لم أكن مخطئة فستكون غنية بحبه العظيم ، وقلبه الكريم ، ورجــولته الممتازة • أفليس هذا أغنى من المال وأعظم ؟

قالت جو بوجه أكثر إشراقا من ذى قبل :

ــ إنى مقدرة كل ذلك يا أماه ، وأوافقك عليه ، ولكنى صدمت فى أمر ميج ، فقد كنت أتمنى أن تتزوج لورى ، حتى ترفل فى حلل السعادة طول حياتها • ألا توافقيننى على ذلك ؟

فقالت مسز مارش :

ــ انه أصغر منها سنا ، كما تعلمين •

فقاطعتها جو قائلة :

ــ وهل من أهمية لذلك ؟ إنه طويل القامة ، راجح العقل ، قــوى الشخصية ، ويمكنه إذا أراد أن يبدو أكبر سنا من حقيقته • ثم إنه غنى

كريم طيب يحبنا جميعا ، ويعطف علينا ، ويحـزننى أن تـذهب آمالى هباء •

قالت أمها :

— أخشى أن لورى لا يناسبها سنا ، ثم إن العواطف فى مثل هذه المرحلة المبكرة ، تكون كثيرة التقلب والتغير • فلا تضعى خططا بعـد ذلك يا جو ، واتركى الأمور تسير فى مجاريها ، فمن الأسلم أن لا نحشر أنوفنا فى مثل هذه الأمور ، ومن الخير أن لا نكون « عاطفيين سـخفاء » على حد تعبيرك ، وإلا أفسدنا الصداقة بأيدينا •

قالت جو :

— حسنا ، لن أرسم خططا بعد الآن ، ولكنى أمقت أن نترك الأمور تنعقد هكذا ، فى الوقت الذى قد يصلحها جذب منا وشد من هناك • كنت أتمنى أن يقف نمونا عند هذا الحد ، ولكنه أمل مستحيل ، فالبراعم تنمو ، فتخرج أزهارا والقطيطات تصير قططا ، مع بالغ الأسف •

وكانت ميج قد انتهت من خطابها فتسللت الى الحجرة فى هدوء ، وما لبثت أن سألت قائلة :

ماذا تقولين عن القطط والبراعم ؟

فنهضت جو عن مقعدها وقالت :

— هذه إحدى خطاباتى السخيفة ، فهيا بنا يا ميجى الى فراشنا •

وقالت مسز مارش بعد أن قرأت الرسالة التى كتبتها ميج لأبيها :

— جميلة ، وأسلوبها لطيف ، فأرجو أن تضيفى إليها تحياتى الى جـون •

فقالت ميج وهى تبتسم وتنظر الى أمها بعيون ساذجة بريئة :

ـ أتنادينه جون ؟

قالت الأم ، وهى تتأمل وجهها فاحصة :

ـ نعم ، فقد غدا كولد لنا ، ونحن نكن له كل الحب .

أجابت ميج فى هدوء :

ـ إنى مسرورة بذلك ، فهو وحيد فى حياته . مساء الخير يا أماه ، إن فى وجودك معنا راحة لا توصف .

وقبلت الفتاة أمها ، وكانت قبلة الأم عامرة بالعطف والإخلاص ، فلما ذهبت ميج الى غرفتها ، قالت الأم لنفسها فى مزيج من الرضا والأسف :

ـ إنها لا تحب جون الآن ، ولكنها ستتعلم أن تحبه سريعا .

الفصل الواحد والعشرون
لورى يصنع الشر وجو تنشر السلام

طلع اليوم التالى وقد أثقل السر قلب جو ، وعلا وجهها تعبير من الغموض والاهتمام • ورأت ميج ما بأختها ، فلم تشأ أن تستفسر منها عن أسبابه ، عالمة بأن التظاهر بعدم الاهتمام خير وسيلة الى معرفة ما تخفيه عنها • ولكن ، لدهشتها ، ظلت جو تكتم ما بنفسها ، كما راحت تحيطها برعاية مضاعفة ضايقت ميج فابتعدت متعالية وكرست وقتها لخدمة أمها • ولما كانت مسز مارش قد حلت محل جو فى تمريض بث ، راجية أن تأخذ الفتاة نصيبها من الراحة والرياضة ، فقد وجدت جو أنها وحيدة منفردة ، لا ملجأ لها سوى صديقها لورى • وكانت تميل الى صحبة الفتى وتجد فيها متعة عظيمة ، ولكنها كرهت أن تقابله فى هذه الآونة ، خشية أن يدفعها بإلحاحه الى الاعتراف له بالسر الدفين •

وكانت محقة فى خوفها • فما إن شعر الفتى الماكر بأنها تخفى عنه أمرا ، حتى قرر أن يعرفه بكل وسيلة ، وبذا أحال حياتها جحيما • وكانت له أساليب فى إغرائها بالكلام ، فمرة يرجوها أن تكون صريحة معه ، فإذا لم تستجيب للرجاء ، حاول أن يرشوها بالوعود ، أو يعمد الى السخرية منها ليغيظها ، أو ينهرها بقسوة دون سبب • وقد جرب أيضا أن يهمل الموضوع بعض الوقت ، ثم يفاجئها بالسؤال عسى أن يسبق لسانها عقلها ، فتجيبه بالحق دون حذر ، ولكن حيله وأساليبه باءت بالفشل ، فأراد أن يرضى كبرياءه الجريحة بقوله إن السر الذى تخفيه يتعلق بميج وبروك •• وكانت شكوكه فى الواقع تدور حول هذا الموضوع ، وكان يؤلمه أن يخفى رائده أمرا من أموره عنه •

وانشغلت أسرة مارش بالاستعداد لاستقبال عائلها المريض ، فبدا كأن ميج نسيت مشاغل جو وبواعث قلقها ، ثم لم تمض أيام معدودات حتى ظهر التغير واضحا عليها ، فأصبحت تجفل لأى حديث يوجه اليها ، ويحمر وجهها لنظرات أخوتها ، وكسا الوجوم وجهها المشرق ، فكانت تجلس الى تطريزها صامتة شاردة البال ، وكانت ضيقة الصدر بكل ما حولها ، إذا سألتها أمها عن حالها ، أنكرت أن أمرا يشغلها ، وإذا أشارت جو الى وجومها ، نهرتها غاضبة متضايقة •

قالت جو لأمها ، وقد امتنعت أن تقوم بأى عمل إيجابى عنيف لإنقاذ أختها :

ـ إنها تسير فى طريق الحب مسرعة ، ومعظم أعراض الغرام قد ظهرت عليها : فهى نافدة الصبر غاضبة ، لا تأكل ، ولا تنام ، وتفضل أن تنزوى فى الأركان الهادئة طوال اليوم • ولقد ضبطتها تغنى أغنية « الغدير ذى الخرير الفضى » ، كما أنها قالت « جون » مرة عند الحديث عن بروك ، ثم ما لبثت أن احمر وجهها كزهرة الخشخاش البرى ، فماذا نصنع بالله لإنقاذها ؟

أجابت أمها :

ـ لا شىء سوى الانتظار ، ومن الخير أن ندعها وشأنها ، قانعات بالعطف عليها ، حتى يصل أبوك ويسوى الأمور بنفسه •

وفى اليوم التالى دخلت جو ومعها محتويات صندوق البريد ، وقالت لميج :

ـ هاك رسالة لك • والغريب أن مظروفها مقفل ، مع أن تيدى لا يقفل رسائله مطلقا •

وبينما جو ووالدتها فى شغل عن ميج بأمورهما ، ند عن الفتاة صوت عجيب ، لفت أنظارهما إليها ، فإذا بها تقرأ الرسالة خائفة ، وأسرعت الاثنتان إليها ، الأم تسألها عن فزعها ، وجو تحاول أن تأخذ الرسالة التى تسببت فيه ، قالت الأم :

— ماذا بك يا بنيتى ؟

وأخفت ميج وجهها بين يديها وهى تبكى وتقول :

— لابد أن هناك خطأ ما ، لا يمكن أن يبعث الىّ بمثل هذه الرسالة . أنت التى فعلت ذلك يا جو ، فكيف تجرئين ؟ !

وصاحت جو فى وجل :

— أنا ؟ ماذا فعلت ؟ وماذا تقصدين بكلامك هذا ؟

وأخرجت ميج من جيبها رسالة مكورة ألقتها الى جو ، وقالت تعاتبها فى غضب :

— أنت التى كتبت هذه الرسالة بمعونة صديقك اللئيم لورى ، فكيف سول لكما الشر أن تفعلا ذلك ؟ إنها خسة وقسوة منكما أنتما الاثنين .

ولم تسمع جو قولها ، لأنها كانت فى شغل بقراءة الرسالة التى كانت مكتوبة بخط غريب ، وقد جاء فيها :

« مارجريت يا أعز الناس

« لم يعد فى مقدورى أن أكتم عواطفى بعد الآن ، وأود أن أعرف مصيرى قبل أن أعود . إنى لا أجرؤ بعد على مفاتحة والديك ، ولكنى أظن أنهما

سيوافقان إذا علما بأن كلا منا يحب الآخر • إن مستر لورنس سوف يساعدنى فى الحصول على مركز طيب ، وعند ذلك يا فتاتى الجميلة ، سوف نكون سعداء الى الأبد • أتوسل إليك أن لا تقولى شيئا للأسرة فى الوقت الحاضر ، كما أتوسل إليك أن ترسلى كلمة واحدة مع لورى تبعث الأمل فى قلبى •

من محبك

جون »

صاحت جو :

ـ يا للوغد الصغير ! لقد أراد أن ينتقم منى بهذه الطريقة لكتمانى السر عنه ، سوف أقتله تأنيبا ، وآتى به ليقدم إليك اعتذاراته •

وكانت تلتهب غضبا ، وكلها عزم على وعيدها فورا ، ولكن أمها منعتها ، وقالت لها بلهجة صارمة :

ـ انتظرى يا جو ، لا تذهبى قبل أن تبرئى نفسك من تهمة الاشتراك فى تحرير هذه الرسالة ، فكثيرا ما قمت بمثل هذه الألاعيب ، وأخشى أن يكون لك يد فيما حدث •

قالت جو فى لهجة حارة تدعو الى التصديق :

ـ أقسم لك يا أماه أن لا يدلى فى ذلك ، ولم أر هذه الرسالة قبل الآن ، ولا أعرف شيئا عنها • وثقى أننى لو أردت القيام بشىء من هذا القبيل ما كتبت هذه الرسالة السخيفة ، لأنى أعرف أن مستر بروك لا يكتب شيئا مما جاء فيها :

فقالت ميج فى تباطؤ وهى تقارن الرسالة برسالة أخرى :

— ان الخط فيهما متماثل •

فصاحت مسز مارش بسرعة قائلة :

— وهل رددت على الرسالة الأولى يا ميج ؟

فغطت ميج وجهها بيديها خجلا ، وقالت :

نعم رددت عليها يا أماه •

فصاحت جو وهى تتجه مرة ثانية نحو الباب :

— هذه هى البلوى الكبرى ! سآتى بهذا الفتى الشرير ليشرح لنا الأمر ، فنعلمه الأدب • لن يستريح لى بال حتى أقبض عليه •

فقالت مسز مارش فى لهجة آمرة ، وهى تمسك بيد جو لتمنعها من الخروج :

— صه ! اتركى الأمر لى ، فقد تعقد الموقف أكثر مما كنت أتوقع • قصى على يا مارجريت كل ما حدث •

قالت ميج دون أن ترفع رأسها :

— وصلنى الخطاب الأول منه ، وقد جاءنى به لورى ، ولم يكن يبدو عليه أنه يعلم شيئا مما فيه •• وتملكتنى الحيرة بادىء ذى بدء ، وكنت أنتوى أن أخبرك بكل شىء ، ولكنى عدت فتذكرت أنك تعتزين بصداقة مستر بروك ، وقد تغضبين عليه اذا عرفت برسالته ، فظننت أن الاحتفاظ بالسر أياما لا يضير أحدا • وبينما كنت أجمع شتات ذهنى لأرد على الرسالة ، شعرت كما تشعر الفتيات فى الكتب والقصص • اصفحى عنى يا أماه ، فقد نلت جزاء حماقتى • لن أستطيع بعد اليوم أن أنظر فى وجهه •

فسألتها مسز مارش :

ـــ وماذا قلت له فى رسالتك ؟

قالت :

ـــ لم أقل سوى أنى مازلت أصغر سنا من أن أتخـــذ قرارا فى هذا الأمر ، وأنه يسوءنى أن أكتم عن والدتى سرا من أسرارى ، ونصحته بأن يصارح أبى بكل شىء • ثم شكرته على عطفه ، ووعدت بأن أكـــون أبد الدهـــر صديقة لا أكثر ولا أقل •

وابتسمت مسز مارش كأن جواب ابنتها قد سرها ، وصفقت جـــو بكفيها معجبة راضية ، وقالت :

ـــ يا لك من جريئة ! وماذا قال لك ردًا على هذا يا ميج ؟

قالت :

ـــ كانت رسالته الثانية مختلفة تماما ، فقد أكد فيها أنه لم يرسل أى خطاب غرامى ، وأنه يأسف أن تتخـــذ جـــو من اسمينا موضـــوعا لتفكهها وسخريتها • كان ردًا مليئا بالعطف ، ولكن تصورى فظاعة موقفى ومبلغ احراجى •

واستندت ميج الى والدتها ، وهى غاية فى اليأس والحزن ، وراحت لتفكهها وسخريتها • كان ردًا مليئا بالعطف ، ولكن تصورى فظاعة موقفى فجأة ثم أمسكت بالخطابين تفحصهما بدقة ، وقالت بثقة :

ـــ لا أصدق أن بروك علم بهاتين الرسالتين أو رآهما • لقد كتبهما تيدى بنفســـه ، وتركك تظنين الســـوء بى ، لأنى رفضت أن أطلعه على سرى •

قالت ميج تحذر أختها :

ــ لا تكتمى عن أمنا سرا يا جــو ، وكونى صريحة معها كما فعلت أنا الآن •

قالت جو :

ــ لك الله يا طفلتى ، انها والدتى التى أخبرتنى بالسر •

قالت مسز مارش :

ــ هذا يكفى يا جو ، أحضرى لى لورى ، ســوف أفحص الأمر حتى أصــل الى قراراته ، وأضــع حــداً لهذه المهازل •

وعندما انصرفت جو جريا ، جلست مسز مارش الى ميج تحدثهــا بحقيقة شعور مستر بروك نحوها ، وأخيرا سألتها فى رفق :

ــ والآن يا عزيزتى صارحينى بحقيقة شعورك نحوه ، أتحبينه الى الدرجــة التى تجعلك تنتظرينه حتى يهيىء لك منزلا صــالحا ؟ أم أنك تفضلين البقاء حرة فى الوقت الحاضر ؟

قالت ميج فى ذلة واضطراب :

ــ لقد أصابنى الخوف والقلق الى درجة أفضل معها أن لا أحشر نفسى فى أمور الحب لمدة طويلة ، وربما الى الأبــد • فاذا كان جــون لا يعلم بهذه السخافات التى حدثت اليوم ، فمن الخبر أن لا تخبريه بها ، وشددى على جو ولورى بأن يمسكا لسانيهما • • أيرضيك أن أخــدع ويساء الىّ وأصبح أضحوكة للناس ؟ يا للعار !

ورأت مسز مارش كيف أثارت المزحــة الشريرة غضب ميج ذات الطبع الهادىء ، فجعلت تسرى عنها ، وتعدها بكتمان الأمر كتمانا تاما • وما ان سمعت ميج وقع أقــدام لورى فى الردهــة ، حتى انصرفت عن الغرفة مسرعة ، وهكذا تلقت مسز مارش المذنب وانفردت به وحــدها • ولم تكن جو قد أخبرته بشىء ، خشية أن يرفض الحضــور لمقابلة أمها ،

ولكن الفتى فهم الحقيقة بمجرد أن رأى وجه الأم واستشف حرج الموقف فوقف يثنى حافة قبعته بيديه فى حركة عصبية ، وقد علا وجهه سيماء المذنب العارف بذنبه •

وفى خارج الغرفة جعلت جو تذرع الردهة جيئة وذهابا أمام الباب كالديدبان الحارس ، حتى تمنع المتهم من الفرار اذا أراد ، وكانت الأصوات تصل اليها من الداخل تارة عالية ، وأخرى منخفضة لمدة نصف ساعة ، ولكنها لم تدرك على وجه التحقيق ما دار خلال تلك الفترة بين الفتى وأمها • فلما نادتها أمها ، وجدت لورى يقف الى جانبها ، وعلى وجهه سيماء الأسف الشديد ، حتى بلغ بها العطف عليه أن صفحت عنه ، ولكنها لم تعلن صفحها حتى لا تمحو أثر تأنيب أمها له • وتقبلت ميج اعتذاره عما بدر منه ، وارتاحت كثيرا عندما أكد لها أن بروك لا يعرف شيئا على الاطلاق مما جرى ، وقال أخيرا :

ــ لن أقول له شيئا حتى يوم الممات ، وأنا على استعداد أن أفعل ما تريدين لتتأكدى من عظيم أسفى على ما بدر منى ، فهلا صفحت عنى يا ميج ؟

قالت فى لهجة عتاب تخفى بها اضطراب نفسها :

ــ سأحاول أن أصفح عنك ، ولكنك جافيت دواعى الرجولة بما فعلت ، ولم أكن أتصور مطلقا أن يصل بك المكر والشر الى هذا الحد يا لورى •

فضم الفتى يديه فى رجاء ، ونظر اليها بمسكنه واستعطاف ، ثم قال :

ــ لقد ارتكبت خطأ بالغا ، أستحق من أجله أن تخاصمينى شهرا على الأقل ، ولكن ألا تسامحيننى بعد ذلك يا ميج ؟

وكان يتكلم بلهجة كلها اخلاص وصدق ، جعلت من المتعذر عليها أن تقطب وجهها رغم سلوكه الفاضح ، فصفحت عنه ، ولان وجه مسز مارش بعد جمود ، وابتسمت عندما سمعته يتضرع الى الله أن يحوله الى حشرة تطؤها قدما ميج ، جزاء وفاقا لما فعل .

وكانت جو تقف بعيدا وهى تحاول أن تقسى قلبها عليه ، ولكنها لم تفلح فى ذلك ، فاكتفت بأن تتظاهر بعدم المبالاة به . وتطلع اليها لورى مرة أو مرتين ، فلما لم ير على وجهها أمارات اللين والعطف ، أدار ظهره لها حتى استرضى الأخريين ، ثم انحنى لها انحناءة كبيرة ، وخرج من الحجرة دون كلمة واحدة .

وعندما غاب الفتى عن ناظرها ، أسفت لمبالغتها فى القسوة عليه ، فلما صعدت أمها وميج الى الدور العلوى ، أحست بالوحدة والوحشة ، وتاقت نفسها الى صحبة صديقها تيدى . وحاولت أن تقاوم رغبتها فى مصالحته ، ولكن عطفها غلبها على أمرها ، فتأبطت كتابا كى تعيده للفتى ، وسارت الى البيت الكبير . وهناك رأت خادما تهبط السلم فسألتها :

ــ هل مستر لورنس موجود ؟

قالت الخادم :

ــ نعم يا آنسة ، ولكنى لا أعتقد أنه يرغب فى رؤية أحد .

سألتها :

ــ ولم لا ؟ أهو مريض ؟

قالت :

ــ لا يا آنسة . ولكن حدثت مشادة بينه وبين حفيده مستر لورى بسبب بعض تصرفات أغضبت السيد العجوز ، ولذا لن أجرؤ على دخول غرفته الآن .

سألتها :

— وأين مستر لورى ؟

قالت :

— فى حجرته ، وقد أغلق دونه بابها ، ولم يشأ أن يجيب على طرقاتى المتتالية ، ولست أدرى ما العمل ، فالطعام على المائدة ، وكلاهما لا يريد أن يأكل .

قالت :

— سوف أذهب لاتبين الخبر ، فلست أخاف واحدا منهما .

وصعدت جو ، وطرقت باب حجرة لورى فى رقة ، فأجاب الفتى بصوت عامر بالوعيد والتهديد ، يقول :

— كفى عن الطرق ، والا خرجت اليك ، وأنزلت بك ما تكرهين !

ولكن جو طرقت مرة أخرى ، فانفرج الباب فى شدة ، وعندئذ تقفزت جو الى داخل الغرفة قبل أن يستفيق الفتى من دهشته فيمنعها من الدخول وبنظرة واحدة أدركت مدى حزنه وغضبه ، فتظاهرة بالخوف والانكماش ، وقالت وهى تركع أمامه بحركة تمثيلية :

— سامحنى يا لورى ، لقد جئت لمصالحتك ، ولن أعود حتى تعفو عنى .

قال فى سماحة الفتى النبيل :

— لقد صفحت وعفوت ، فانهضى من ركعتك وكفاك حماقة .

شكرا ، ولكن هل لى أن أسألك عما جرى ، لست أراك مرتاح النفس .

فزمجر لورى فى غيظ ، وقال :

لقد نلت من التأنيب أكثر مما أحتمل •

قالت :

ـــ ومن أنبك ؟

قال :

ـــ جدى ! ولو كان شخصا آخر ما •••

وقطع الفتى جملته بحركة عنيفة من ساعده •

فقالت تهدئه :

ـــ وماذا فى ذلك ؟ كم أنبتك ولم تغضب منى ؟

قال :

ـــ هراء ! أنت فتاة وتأنيبك يسليني ، ولكني لن أسمح بذلك لأى رجل كان •

قالت :

ـــ لن يجرؤ أحد على تأنيبك وأنت فى مثل هذه الثورة العاتية فاطمئن ولكن أخبرنى بالله عليك ، لماذا غضب عليك كل هذا الغضب ؟

قال :

ـــ لأنى رفضت أن أخبره لماذا أرسلت أمك لاستدعائى ، كنت قد وعدتها بالكتمان فلم أشأ أن أنقض عهدى •

قالت :

ـــ ألم يكن فى مقدورك أن تسترضيه بشكل ما ؟

قال :

— لا ، فقد أصر على معرفة الحق كل الحق ولا شىء غير الحق • ولو كان بوسعى أن أعترف له بالدور السافل الذى لعبته ، دون ذكر اسم ميج ، ما ترددت ، ولكنى لم أستطع فسكت وتحملت تعنيفه حتى أمسك ببنيقتى ، وعندئذ ثارت براكين غضبى ، فهربت منه قبل أن أفقد سيطرتى على نفسى •

قالت :

— هذا أمر محزن للغاية ، ويقينى أن جدك أسف على ما فعل ، فهيا بنا نهبط اليه ، أنت تسأله الصفح وأنا معك أعاونك •

قال

— لن أذهب ولو شنقتنى ! ولن أقبل أن يؤنبنى الناس كلهم من أجل مزحة بريئة ، لقد اعترفت بخطأى لميج واعتذرت لها ، وفى هذا الكفاية •

قالت :

ولكنه لا يعرف بذلك •

قال :

— كان من الواجب أن يثق بكلامى ولا يعاملنى كطفل صغير • وعلى كل حال يا جو ، لقد آن الأوان أن يعرف بأنى كبرت ولست فى حاجة الى من يعنى بأمورى ، ولن يرضينى أن أتعلق بأذياله لأعيش •

فتنهدت جو وقالت :

— خلِ عنكَ هذه الأقوال اللاذعة ، وخبرنى كيف تنوى أن تنهى الأمر بينكما ؟

قـــال :

— عليه أن يعتذر لى ، لأنه لم يثق بكلامى ، ولم يصدق أن لدىّ عذرا وجيها يمنعنى من الإفضاء اليه بما حـــدث •

قالت :

— رحماك يا إلهى ! لن يعتذر لك •

قـــال :

— لن أخرج من غرفتى اذا لم يعتذر •

قالت :

— كن عاقلا يا تيدى ، ولا تعقد الأمور هكذا ، فأنت لا تستطيع أن تبقى فى غرفتك الى الأبـــد ، وفى مقدورى أن أفسر له ما حـــدث ، وأصلح الموقف •

قـــال :

— لن أبقى هنا طويلا على أى حال ، ففى نيتى أن أنسل خارجا من البيت ، ثم أرحل الى جهة ما ، وسيأتينى جدى عند ما يفتقدنى •

قالت :

— هـــذا جائز ، ولكن لا يصح أن تقلقه بغيابك •

قـــال :

— كفى وعظا ونصحا ، ودعينى أسافر الى بروك فى واشنجتون ،

فالحياة فيها مرحلة مسلية ، ومن حقى أن أرفه عن نفسى بعد هذه المتاعب الكثـــيرة •

قالت ، وقد أضعفت صور العاصمة الخلابة قدرتها على نصحه :

ــ يا للمتعة ! ليتنى أستطيع أن أرحل اليها معك •

قـــال :

ــ تعالى معى إذاً ، وسوف يسر أبوك بحضورك ، كما يسر بروك بحضورى • ستكون فرصة عظيمة ، فهيا بنا نسافر يا جــو ، وأرى أن نترك لهم خطابا مطمئنا ، ثم نرحل على التو • إن معى من المال ما يكفينا ، ولن يضر بك الســفر ، بل قــد تستفيدين فائدة عظمى اذا ذهبت الى أبيـــك •

وراقتها الفكرة رغم ما فيها من جموح ، ومضت لحظة خال الفتى فيها أن جو على وشك أن تقبل اقتراحه • وكانت تعبة مرهقة تتوق الى تغيير أسلوب حياتها الرتيب ، وأغرتها أكثر وأكثر فكرة السفر الى أبيها ، ومتعة التفرج على المستشفيات والمعسكرات • ولمعت عيناها وهما تنظران واجمتين خلال النافذة ، ولكن نظراتها وقعت على بيتهم السعيد العتيق ، فارتد اليهـــا عقلها ، وهزت الفتاة رأسها فى حزن ، وقالت باصرار :

ــ لو كنت صبيًا ، ما ترددت فى الهرب معــك الى حيث نسعد بأوقاتنا ، ولكنى مع الأسف فتاة تعسة ، ومن واجبى أن أراعى الآداب والتقاليد ، وأقنع بالبقاء فى البيت • لا تغرنى يا تيــدى ، فان الفكرة كلها هوس وجنون •

قال لورى ، وقد تملكته الرغبـــة فى الخروج على قواعد العرف المـــألوف :

— وهـــذا ما يجعلها شائقة ممتعة !!

صاحت جو ، وهى تغطى أذنيها كيلا تسمع كلامه :

— أمسك لسانك ، فان مكانى الوحيد فى البيت ، ويجب أن أسلم بذلك • لقد جئت أنصحك ، فلا يجوز أن أقتدى بك •

قال يحاول إقناعها :

— قد تثبط ميج عزيمتى اذا عرضت عليها خطتى ، ولكنك تمتازين عنهـا بالجرأة والشجاعة •

قالت :

— اسكت أيها الشرير ! اخل الى نفسك وحاسبها على خطاياها ، وإياك أن تغرينى بمضاعفة ذنوبى وأخطائى • ماذا تقول اذا جعلت جدك يعتذر لك عما بدر منه ؟ أيكفيك هذا لتعدل عن السفر الى واشنجتون ؟

أجاب لورى ، وهو يتمنى أن توفق جو فى هــذه المهمة كى يرضى كبرياءه الجريحة :

— نعم ، ولكنك لن تفلحى •

قالت الفتاة فى نفسها :

— اذا كنت قد نجحت فى إقناع الحفيد العنيد ، فلم لا أنجح فى إقناع الجــد العجوز ؟

وانصرفت جو من الغرفة ، وقد تركت لورى خلفها ينعم النظر فى خريطة أمامه ، ورأسه بين يديه •

وطرقت باب حجرة مستر لورنس ، فأجابها يقول بصـوت خشن غاضـب :

ــ ادخل .

قالت وهى تدخل الحجرة بجرأة :

ــ جئت يا سيدى أعيد الكتاب .

فسألها العجوز وهو يحاول أن يخفى غضبه وحزنه :

ــ أتريدين كتابا آخر ؟

قالت وهى تأمل أن تسترضيه اذا طلبت كتابا لمؤلف يعجبه :

ــ نعم من فضلك ، فقد أعجبنى الجزء الأول الذى نصحتنى به ، ويسرنى أن أقرأ الجزء الثانى اذا سمحت .

وانفرجت أساريره قليلا ، وناولها السلم الذى تستطيع أن تصل به الى الأرفف العليا ، فصعدته غير متوانية ، وهى تتظاهر بأنها تبحث عن الكتاب الذى تريده .

وكانت فى الحقيقة تبحث فى عقلها عن طريقة تبدأ بها الحـديث الخطير الذى جاءت من أجله ، وبدا على مستر لورنس أنه أحس بشىء مما يجول فى خاطرها ، فبعد أن سار بضع خطوات سريعة فى الحجرة ، التفت اليها يقول فجـأة :

ــ ماذا فعل الصبى ؟ إياك أن تدافعى عنه ، فأنا واثق من أنه أخطأ ، وقـد رأيت فى وجهه سيماء المذنب ، ولكنى لم أفلح فى انتزاع كلمة منه ، ولمـا هددته ، تملص منى وهرب الى غرفته ، وأقفل بابهـا دونى .

قالت جو ببطء :

ــ لقد أخطأ فعلا ، ولكننا صفحنا عنه ، وأخذنا منه وعدا أن لا يبوح بالأمر لأحـــد •

قـــال :

ــ هذا لا يجوز ، ولن أرضى أن يحتمى بقلوبكن الطيبة من العقاب الذى يستحقه • اذا كان قد أخطأ ، فعليه أن يعترف بخطئه ، ويطلب الصفح ، ويرضى بالعقاب • أخبرينى بالحقيقة يا جـــو ، ولا تتركينى أتخبط فى ظـــلام الجهل •

وارتعدت الفتاة لنظراته الرهيبة ، وشعرت برغبة شديدة فى الهرب من حضرته ، ولكن فكرة وجودها فى أعلى السلم بعيدة عنه ، منحتها الشجاعة على مواجهة الموقف • قالت :

ــ صدقنى يا سيدى إننى لا أستطيع الكلام ، فقد نهتنا أمى عن الحديث فى الموضوع ، وأمرتنا أن لا نشير اليه من قريب أو من بعيد • أما لورى ، فقد اعترف بخطئه ، وطلب المغفرة ، ونال العقاب الكافى • لا تظن أننا نحميه بسكوتنا ، بل نحن نحمى شخصا آخر ، وأخشى أن تتعقد الأمور اذا تدخلت يا سيدى ، فأرجوك أن لا تفعل ذلك • إننى مسئولة عن بعض ما حدث ، ولكن الأمور استقامت والحمد لله ، ومن الخير أن ننسى الماضى ، ونتكلم فى موضوع أفضـــل •

قـــال :

ــ انزلى عن هذا السلم ، وطمئنينى الى أنه لم يفعل شراً ، واذا كان قـــد تنكر لجميلكن بعد ما أصاب من عطفكن ومحبتكن ، فوالله لن أتردد عن جـــلده بيدى هـــذه •

ولم تنزعج جو لتهديده بالويل والثبور ، اذ كانت تعرف أنه لن يؤذى حفيده ، بالرغم من وعيده العنيف • وهبطت السلم طائعة ، ثم روت له القصة دون أن تشير الى ميج أو تفسد الحقيقة • قال بارتياح ، وهو يحك شعره بيــده :

ــ إذا فقد رفض الفتى أن يتكلم محافظة على وعده ، إنه صبى عنيد ، صعب القياد ، ولكنى سأصفح عنه •

فقالت جو ، تحاول أن تستدر العطف على صديقها ، الذى لا يكاد يخرج من مأزق ، حتى يقع فى آخر :

ــ لست أقل عنــه عنادا ، ولكن كلمــة عطف واحــدة تفعل بى العجائب ، والقوة لا تقهرنى مثلما يقهرنى العطف واللين •

فقال بحــدة :

ــ آتظنين أننى لا أعطف عليه ؟

قالت :

ــ معاذ الله أن أظن ذلك يا سيدى ، فأنت تبالغ فى العطف عليه أحيانا ، ولكنك سريع الغضب ضيق الصــدر • أليس الأمر كما أقول يا ســيدى ؟

وكانت هذه فرصتها الكبرى لإزالة الخلاف القائم بين الجد وحفيده ، فتكلمت بهدوء ، وإن كانت فى الواقع ترتجف انفعالا • ولعظيم دهشتها وسرورها ، رأت العجوز يخلع عويناته ، ويلقى بها على المنضدة ، ويقول فى تعجب واضــح :

— صدقت يا فتاة ، فأنا كما تقولين ! إنى أحب الصبى ، ولكنه يستنفد صبرى الى درجة لا تطاق ؛ ولست أدرى ما قد يحـدث اذا استمر الحال هـكذا •

قالت :

— ولكنى أعرف ما قـد يحـدث ، وأخشى أن ينتهى الأمر بأن يهرب منـك •

وندمت على قولها أشد الندم ، وأسفت أن انزلق لسانها فى سعيها الى إقناع العجوز بأن لورى لن يحتمل الشدة طويلا • كانت ترجو أن تغريه بالتسامح ، فأفرطت فى الكلام ، وكانت النتيجة أن تغير وجـه مستر لورنس فجأة ، وانهار على مقعده • ورأته ينظر بعينين ملؤهما القلق والاضطراب الى صورة على المنضدة ، لرجل أنيق وسيم • كانت صورة ابنه والد لورى ، الذى هرب من أبيه فى شـبابه وتزوج رغم إرادته • وخيل الى جـو أن العجـوز يستعيد ذكريات الماضى نادما ، فأسفت على حديثها ، وتمنت لو أنها أمسكت لسانها فى الوقت المناسب • قالت تطمئنه :

— لن يهرب منك إلا اذا زادت الأمور سوءا وتعقيدا • إنها فكرة تجول بذهنه عند ما يضيق بالمذاكرة ، وكثيرا ما شاركته رغبته فى الهرب خصوصا بعد أن قصصت شعرى ، وأصبحت شـبيهة بالفتيان ، فاذا اختفينا يوما ما فعليك يا سيدى أن تبحث عن صبيين فى السفن المسافرة الى الهنـد •

وكانت تتكلم ضاحكة ، فسرى عن مستر لورنس ، واعتبر حديثها مزاحا من أوله الى آخره • قال ، وهو يقرص خدها مداعبا :

— يا لك من فتاة ! كيف تجرئين على مثل هــذا الحــديث ؟ أين احترامك لى ؟ وأين اعتزازك بتربيتك ؟ ان الفتيان والفتيات محنة على السواء ولكنها محنة لا غنى عنها • هيا أحضرى الصبى يتناول الغداء معى ، وطمئنيه الى أن الخلاف قــد زال من بيننا ، وانصحيه بأن لا يظهر غضبا على جــده ، إذ يؤلمنى أن أراه حزينا أو متضايقا •

قالت :

— لن يطاوعنى يا سيدى ، فقد ساءه أن تكذبه وتظن به الظنون ، وأعتقد أنه متألم كل الألم لتأنيبك له وشدتك معه •

وكانت تصطنع الحزن والأسى ، فــلا تنجح فى إتقان تمثيلهــا ، مما حــدا بمستر لورنس أن يضحك عاليا منها ، فاطمأنت وأدركت أن الغمة قــد انقشعت عن نفسه •

قال ، وقد ندم على ما بدر منه نحو حفيده :

— إنى آسف لمــا حدث ، وكان يجب أن أشكره لأنه لم يعنفنى ! يا إلهى ! ماذا ينتظر منى هــذا الفتى ؟

قالت :

— أرى أن ترسل اليه اعتذارا مكتوبا ، فهو لن يرضى بالخروج من حجرته حتى يصله اعتذار منك ، وقد بلغ به الغضب أن هدد بالهرب الى واشنجتون ، وكذلك هدد بأمور سخيفة أخرى • سيكشف له اعتذارك عن مدى طيشه وسخفه ، فيأتيك طائعا مختارا • إنها فكرة طيبة ، فجربها يا سيدى ، والاعتذار المكتوب أفضل من الشفوى ، وسأحمل له رسالتك ، وأتولى إصــلاح الموقف •

فألقى عليها مستر لورنس نظرة حادة ، ثم وضـــع عويناته على أنفه وهو يقول فى بطء :

ـــ يا لك من فتاة ماكرة ! ولكن لا مانع عندى من أن تسيرينى أنت أو بث • هاك الرسالة ، وخلصينا من هــذه السخافات كلها •

وكانت الرسالة تحوى اعتذارا صيغ فى أسـلوب مهــذب ، عامر بالتواضع والاسترضاء ، فطبعت جو قبلة على رأس العجوز ، وخرجت تجرى لغرفة لورى ، حيث وضعت الرسالة تحت عقب الباب ، ثم جعلت تنصـــحه من خلال ثقب المفتاح بأن يكن مطيعا هادئا مهذبا ، الى غير ذلك من الصفات التى يصـــعب على الفتى أن يكتسبها • وانتظرت أن يفتح الباب ، فلما لم يفعل ، تركت الرســالة فى مكانها ، وعادت الى السلم تهبط درجاته •

ولم تلبث أن رأت السيد الصغير يسبقها منزلقا على حاجز السلم بسرعة شديدة ، ثم يقف فى انتظارها أسفله ، ويقول بلهجة مليئة بالكياسة والأدب :

ـــ يا لك من فتاة كريمة الأخلاق يا جـــو !

ثم استطرد وهو يضحك :

ـــ ماذا فعل بك الرجل العجوز ؟ هل فجر فيك براكين غضبه ؟

قالت :

ـــ بالعكس • كان لطيفا الى أبعد حـــد •

قال بلهجة الندم :

— لقد نلت ما أستحق ، فتخلى الناس كلهم عنى حتى أنت ، وشعرت أننى مخلوق غير مرغوب فيه •

قالت :

— خل عنك هذا التفكير العجيب ، واعمل على أن تبدأ صفحة جديدة ، يا ولدى العزيز تيدى •

قال فى حزن :

— إنى أقلب صفحات جديدة كل يوم ، ولا ألبث أن أسودها بأعمالى ، كما أسود صفحات كراساتى • حياتى كلها محاولات جديدة ، لم تنته واحدة منها بما أحب •

قالت جو ، وهى تدلف خارجة من باب البيت :

— اذهب ، وتناول غداءك ، ولن تلبث أن تتحسن معنوياتك ، فمن طبع الرجال أن لا يكفوا عن التذمر ما داموا جياعا •

قال :

— هذا تشهير بنا نحن الرجال •

ثم ذهب الى غرفة الطعام يشاطر جده غداءه • فقابله مستر لورنس باللين ، وتفانى فى اظهار عطفه عليه طوال اليوم •

وعدت الأسرة أن الأمر انتهى عند هذا الحد ، اللهم إلا ميج التى نسيت إساءة لورى ، ولكنها ظلت تفكر فى بروك • وبالرغم من أنها لم تسع الى الاتصال به ، إلا أن أحلامها تركزت فيه ، وازداد قلبها

تعلقا به يوما بعد يوم • وقد حدث ذات مرة أن كانت جو تبحث فى مكتب أختها عن طابع بريد ، فعثرت على ورقة خطت عليها ميج مرات ومرات اسم « مسز جون بروك » ، فتألمت لذلك كل الألم ، وألقت الورقة فى النـــار مغيظة ، وقـــد أدركت أن دعابة لورى عجلت قـــدوم اليـــوم المشـــئوم •••

الفصل الثانى والعشرون

عودة السعادة

مرت أسابيع هادئة ملؤها السلام ، فكانت كضــوء الشمس حين يغمر الكون بعد العاصفة ، فقد جاءت الرسائل من مســتر مارش تنبىء بعزمه على القدوم فى أول العام الجديد ، كما عوفيت بث من مرضها وأصبح فى مقدورها أن تترك فراشها لترقد على الأريكة طوال اليوم ، تسلى نفسها بقططها العزيزة ، أو بحياكة ملابس جديدة لدميتها التى طال إهمالها لها . وكان ساقاها متخاذلتين ضعيفتين من أثر المرض الشــديد ، فكانت جو تحملها بين ذراعيها القويتين ، وتطوف بها أرجاء البيت لتروح عنها كلمــا أعوزها الترويح . كما جعلت ميج تطهى « للعزيزة » ما لذ من الأطعمــة وطاب ، غير آبهة لما يصيب أصابعها ويديها الجميلتين من حروق أو اسوداد أما آمى فقد باركت شفاء أختها بطريقتها الخاصة ، فتنازلت لهــا عن كل ما تحبه من كنوزها الصغيرة .

كان عيد الميلاد يدنو تدريجا ، فيزداد جو الأسرة بدنوه غموضــا وحماسة ، وكانت الظروف تبشر فى هذه المرة بعيد طيب سعيد ، فاشترك كلهم فى الاستعداد ، وتقدمت جو مرة بعد مرة بمقترحات يستحيل تنفيذها حتى كان أخواتها ينفجرن ضاحكات لغرابتها . ولم يكن لورى أقل منهــا تعقيدا للأمور ، فرأى أن يكون الاحتفال باستعمال ألعاب نارية ، أو بإقامة أقواس النصر ، الى غير ذلك من المقترحات المستحيلة . وبعد مناقشــات ومناوشات طويلة ، استقر الرأى على اســتبعاد اقتراحات كل من جــو ولورى ، لاستحالة تنفيذها ، فخرج الاثنان بوجهين حزينين ، ثم لم يلبثا أن انفجرا فى عاصفة قوية من الضحك .

وكانت الأيام السابقة للعيد متوسطة البرودة ، تبشر بجو بديع ، وقالت حنا : إن عظامها تتنبأ بعيد لا تنقصه السعادة أو الدفء ، وقد تحققت نبوءتها بفضل توافر الرغبة فى إنجاح الاحتفال بالعيد • وكان أول ما حدث من المفرحات أن أعلن مستر مارش قرب عودته ، ثم تقدمت صحة بث فى ذلك الصباح تقدما ملحوظا ، فارتدت المعطف الأحمر الذى أهدتها إياه أمها ، وجلست بجوار النافذة تنتظر هدية جو ولورى • وكان الصديقان قد أحسنا إعداد هديتهما لبث ، وهيآ لها جوا يبعث على المرح والغبطة : ففى وسط حديقة الدار أقاما تمثالا من الثلج لفتاة صغيرة جميلة ، على جبينها إكليل من الغار ، وفى إحدى يديها سلة مليئة بالفاكهة والأزهار وفى اليد الأخرى مجموعة من المؤلفات الموسيقية ، وعلى كتفيها شال متعدد الألوان ، ومن فمها تتدلى ورقة وردية كتبت فيها أغنية تقول :

عروس الجليد هدية بث

حفظك الله أيتها الملكة بث
وذاد عنك الأحزان
ومتعك بالصحة والسعادة والسلام
هدة عيد الميلاد
هاك يا نحلتنا الكادحة فاكهة تأكلينها
وهاك أزهارا تشمينها
وهاك موسيقى تعزفينها
وهاك شالا يغطى قدميك الصغيرتين
تقبلى منا هذا الشريط القرمزى
واربطى به ذيل قطتك الحسناء

وخذى مثلجات صنعتها بيجى
فكانت كجبل من الجليد وضع فى إناء
لقد جمع صانعاى حبهما
وأودعاه قلبى الثلجى
فاقبليه ، واقبلينى هدية
من صديقك لورى ، ومن أختك جو •

وضحكت بث سعيدة بالهدية ، وتطوع لورى بنقل الهدايا من التمثال الى البيت ، فى حين وقفت جو تقدم كلا منها بخطبة بليغة •

وتنهدت بث فى سرور بعد أن حملتها جو الى الغرفة لتستريح وتتذوق قليلا من العنب اللذيذ الذى أهدته إياها عروس الجليد • قالت :

ـ إن قلبى مفعم بالسعادة ، ولا ينقص إلا وجود أبى معنا الآن ، ولولا غيابه لاكتمل هنائى ، ولم أعد فى حاجة الى مزيد •

وقالت جو ، وهى تتحسس فى جيبها كتابا طالما تاقت نفسها إليه :

ـ وأنا مثلك •

وقالت آمى ، وهى تنعم النظر فى صورة العذراء المحاطة بإطار جميل :

ـ وأنا أيضا بلا شك •

وصاحت ميج ، وهى تسوى ثنايا ثوبها الحريرى الأول ، الذى أصر مستر لورنس أن يهديها إياه :

ـ وأنا مثلكم بالطبع •

وقالت مسز مارش :

ـ وأنا مثلكم سعادة وهناء •

وجعلت تنقل بصرها من خطاب زوجها الى وجه بث الباسم ، ويـدها تتحسس القلادة التى جدلت من شعور بيضاء وذهبية وكستنائية وبنية ، وكان بناتها قد وضعنها حول جيدها •

أحيانا ما تكون الحياة كالقصة ، تسير فيها الأمور أحسن سير ، وهكذا كان يشعر آل مارش وقد اكتنفتهن السـعادة وأظلهن الهنـاء ! ولم يكد يمضى من الوقت نصف ساعة ، حتى فتح لورى باب الردهة ، وأطل برأسه من فرجته فى هدوء ، وكان وجهه ينطق بالانفعال المكبـوت والحماسة البلغة • قال بلهجة مرحة ماكرة جعلت الكل يقفـز واقفـا :

ــ هاكم هدية أخرى لآل مارش بمناسبة عيد الميلاد •

وقبل أن يتم جملته ، أزيح عن الباب بطريقة ما ، وحل مكانه رجل طويل القامة يلتحف بالأغطية حتى عينيه ، ويستند الى رجل طويل آخر أراد أن يقول شيئا ، ولكنه لم يستطع ، إذ اندفع البنات وأمهن نحو القادم فى ثورة عاطفية كادت تفقدهن الرشد : فقد عاد مستر مارش ، ولم يكن أحد يتوقع هذا الحدث العظيم !

واختفى مستر مارش بين أحضان بناته ، واستبد الانفعال بجو حتى كاد يغشى عليها ، وقبل مستر بروك ميج على سبيل الخطأ ، ثم يعتذر عن فعلته بألفاظ متقطعة متلعثمة • وسقطت آمى الأنيقة على الأرض بعد أن تعثرت قدمها فى المقعد ، فلم تحاول الوقوف ، بل لـزمت مكانهـا من الأرض ، وقد طوقت ساقى أبيها بتأثر بالغ •

واستعادت مسز مارش هدوءها ، فرفعت يدها محذرة وقالت :

ــ حذار أن نزعج بث •

ولكن التحذير جاء متأخرا ، فقد انفتح الباب بشدة ، وظهرت من ورائه

بث ، متدثرة بمعطفها الأحمر ، وقد بعث السرور فى ساقيها قوة جديدة ، فجرت الى أحضان أبيها ترتمى غيها • وتوالت المواقف المؤثرة ، ولكننا لا نرى ما يدعونا الى ذكرها ، ويكفى أن نقول ، إن السعادة غمرت القلوب ، فغسلت مرارة الماضى ، ولم تبق إلا الرضا بروعة الحاضر وجماله •

وبينما كانت الضحكات تتعالى فى أرجاء الغرفة ، وقفت حنا وراء الباب ، ودموع التأثر تنساب من مقلتيها ، فتسقط على الديك الرومى الذى تحمله بين يديها • وتركت مسز مارش بناتها حتى نلن غايتهن من الترحيب بأبيهن ، ثم انثنت الى مستر بروك تشكره على بالغ عنايته بزوجها وعندئذ تذكر الشاب واجبه فى توفير أسباب الهدوء لمريضه الناقه ، فاستأذن فى الانصراف ، وخرج مع لورى الى البيت الآخر •

وجلس مستر مارش على مقعد كبير مريح يقص على بناته كيف كان يتوق الى مفاجأتهن بعودته ، وكيف حالفه الحظ ، فاعتدل الجو على غير انتظار ، وأذن له الطبيب بالسفر • وكذلك حدثهن بخدمات بروك ، وتفانيه فى توفير أسباب الراحة له ، مما زاده إيمانا بكرم نفسه وعلو أخلاقه • وتمهل مستر مارش فى حديثه عن بروك ، ونظر نحو ميج ، التى تشاغلت بتقليب النار فى المدفأة ، كأنها غير مصغية لكلامه ، ثم نظر الى زوجه بتساؤل أجابته عليه بإيماءة من رأسها ، ثم أسرعت بتغيير الموضوع ، فسألته إذا كان يريد أن يأكل شيئا • وشاهدت جو هذه الحركات ، وفهمت المقصود منها ، فقطبت جبينها ، وانصرفت من الغرفة تحضر طعاما ونبيذا •

قالت فى نفسها ، وهى تصك الباب خلفها :

— إنى أكره الرجال الذين يستحقون التقدير ، خصوصا إذا كانت عيونهم عسلية •

وجاءت وليمة العيد فريدة فى نوعها ، لم يرد لها مثيل فى حياة الأسرة : فقد كان الديك الرومى السمين تحفة أبدعت حنا فى حشوها وطهيها ، وكانت فطيرة العيد كبيرة الحجم متقنة الصنع ، شأنها فى ذلك شأن صحن الفالوذج الشهى ، الذى صالت فيه آمى وجالت ، وكأنها ذبابة هبطت على عسل •

قالت حنا ، عندما انتهى العشاء بفضلها على ما يرام :

— لست أدرى كيف أمكننى إتقان الأكل مع مفاجآت اليوم واحداثه وأحمد الله أنى لم أحمر الفطيرة بل الديك ، ولم أحش الديك بدل الفطيرة بالزبيب والسكر •

وقد اشترك فى وليمة العشاء مستر لورنس وحفيدة ، وكذلك اشترك مستر بروك ، الذى عاملته جو بتحفظ شديد دهش له لورى وتعجب • وكان على رأس المائدة كرسيان مريحان لبث وأبيها ، فجلسا عليهما يأكلان قطعة من الديك وبعض الفاكهة ، وسارت الوليمة سيرا حسنا ، فتبادل الجالسون الأنخاب ، ورووا القصص والفكاهات ، وأنشدوا الأغانى ، وبالاختصار كانت وليمة ناجحة الى أقصى حد • وبعد العشاء ، اقترح مستر لورنس أن يخرج الفتيات فى عربته الى النزهة ، ولكنهن أبين مفارقة والدهن ، فاستأذن الضيوف فى الانصراف مبكرين ، وما إن خيمت عتمة الغسق ، حتى التأم شمل الأسرة السعيدة من جديد حول نيران المدفأة •

وسار الحديث طويلا بينهم ، وفى فترة سكوت قصيرة ، قالت جو :

— فى مثل هذا الوقت من العام الماضى ، كنا نتوقع عيدا قابضا •

فقالت ميج ، وهى تنظر الى لهب النيران ، راضية بأسلوبها فى معاملة مستر بروك :

ــ لقد كان عاما سعيدا فى مجموعه •

وقالت آمى ، وهى تفحص الخاتم فى أصبعها :

ــ أظن أنه كان عاما شاقا •

وهمست بث ، وهى تجلس على ركبة أبيها :

ــ إنى سعيدة بانقضائه ، فقد عدت إلينا يا أبى •

فقال مستر مارش ، وهو ينظر الى بناته راضيا :

ــ كانت مرحلة شاقة فى طريق حياتكن ، يا حاجّاتى الصغيرات ، ولكنها انقضت بسلام ، وعن قريب تلقين أحمال الهموم عن ظهوركن ، إن شاء الله •

سألته جو :

ــ هل أخبرتك أمى كيف كانت حياتنا شاقة يا أبى ؟

قال :

ــ سمعت منها قليلا ، ولكن لى عينا ترى ، وقد لاحظت بنفسى أشياء كثيرة •

فصاحت ميج تقول :

ــ إذا أخبرنا بما لاحظت !

قال ، وهو يمسك بيدها ، ويشير الى أصابعها الخشنة ، وآثار الحروق المنتشرة فيها :

— هذه إحدى ملاحظاتى : فإنى أذكر أن يدك كانت بيضاء ناعمة ولم يكن لك هم سوى العناية بجمالها ، ولكنى أفضل خشونتها الحاضرة على نعومتها السابقة ، ففيها أقرأ قصة انتصارك على خيلائك ، وأتلو صفحات جهادك فى أداء واجباتك • ثقى يا عزيزتى ميج بأنى أقدر فى النساء تضحيتهن من أجل المحافظة على كيان بيوتهن ، أكثر مما أقدر أيديهن البضة الفارغة ، ويسعدنى أن أشد على يدك الصغيرة المكافحة ، وآمل أن لا يطلبها منى أحد فى القريب العاجل •

وكانت ضغطة أبيها على يدها ، وابتسامة الفخر التى ارتسمت على شفتيه ، أعظم مكافأة نالتها ميج جزاء الأيام العصيبة التى مرت بها •

قالت بث تهمس فى أذن أبيها :

وما رأيك فى جو ؟ إنها تستحق كلمة طيبة ، فقد اجتهدت كثيرا وكانت كريمة معى الى أبعد حد •

فضحك مستر مارش ، ونظر الى الفتاة الطويلة ، التى تجلس أمامه وعلى وجهها الأسمر هدوء غير عادى ، ثم قال :

— بالرغم من شعرها المقصوص ، فإنى لا أرى فيها الفتى جو الذى تركته منذ عام ، بل أرى فتاة أنيقة الهندام ، لا تصفر ولا تتكلم باللغة العامية ، ولا ترقد على البساط كما اعتادت فيما مضى • إن وجهها نحيل باهت ، من أثر القلق الانتظار ، ولكنى أحب أن أتطلع إليه ، فقد أصبح أرق تعبيرا وأكثر هدوءا • وهى لا تقفز الآن بل تسير فى هدوء ، وتعنى ببعض الناس عناية الأم الرؤوم ، وكل هذا يسعدنى ويسرنى • حقيقة أننى أفتقد فتاتى الشاردة الجامحة ، ولكنى استعضت عنها بامرأة قوية النفس ، رقيقة القلب ، محبة للخير ، تواقة الى المعونة • ولست أدرى إذا كان قص

شعرها قد أعاد عقلها الى رأسها ، ولكنى أعرف أننى لم أجد فى واشنجتون كلها ما يستحق أن أدفع فى شرائه المبلغ الذى باعت به جدائلها •

واغرورقت عينا جو تأثرا ، واحمر وجهها انفعالا ، وهى تصغى الى مديح أبيها ، وتحس أنها جديرة ببعض ما قاله فى تقريظها •

قالت بث وهى تتعجل دورها :

ـ والآن ، ماذا لاحظت فى بث ؟

قال بمرح ، وهو يضم الى صدره صغيرته التى كاد يفقدها :

ـ لم يبق من بث سوى قليل ، وأخاف أن أقول عنها كثيرا فلا يبقى شىء منها ، ولكنى مسرور على كل حال أنك تغلبت على حياتك وخجلك ، ويسعدنى أن أعود فأجدك سليمة ، وسوف تبقين دائما سليمة بإذن الله •

وسكت لحظة ، ثم نظر الى آمى التى تجلس عند قدميه ، قال وهو يربت على رأسها :

ـ لقد لاحظت أن آمى تخدم الأسرة فى أثناء الطعام ، وتلبى طلبات أمها بعد الظهر ، وقد أعطت الليلة مكانها لميج ، وساعدتنا جميعا بمرح وصبر وشجاعة • وقد لاحظت أيضا أنها لا تتذمر ، ولا تطيل النظر فى المرآة ، كما أنها لم تذكر شيئا عن الخاتم الذى تضعه حول أصبعها ، وأستنتج من ذلك أنها تعلمت أن تفكر فى غيرها أكثر مما تفكر فى نفسها ، وأنها تحاول أن تصوغ نفسها فى قالب جديد ، كما تفعل بتماثيلها الصلصالية وإنى سعيد بذلك وفخرى عظيم بفتاتى الحبيبة ، التى تزيد الحياة جمالا لنفسها ولمن حولها •

وبعد أن شكرت آمى أباها ، وأخبرته بقصة الخاتم الذى تلبسه ، سألت جو أختها بث قائلة :

ــ فيم تفكرين يا بث ؟

قالت :

ــ قرأت اليوم فى كتاب النصائح ، أن الحجاج وصلوا بعد عناء الى مروج السلام الخضراء ، حيث تزدهر الزنابق طول العام ، وكذلك قرأت أنهم استراحوا ، كما نستريح نحن الآن ، قبل أن يستأنفوا المسير الى غايتهم الأخيرة .

ثم قالت ، وهى تنسل من أحضان أبيها : وتسير الى معزفها ببطء :

ــ حان وقت الغناء ، وأريد أن أسترد مكانتى من العزف ، وسأحاول أن أنشد أغنية « الراعى الصغير » ، الذى سمعه الحجاج يغنى بصوت رخيم وقد لحنت المقطوعة التى أعرف أن أبى يحبها .

وجلست الى معزفها الصغير ، ولمست أصابعه برفق ، وارتفع صوتها الرخيم الذى كانت الأسرة تخشى أن يحرمهم الموت منه ، وجعلت تغنى وتقول :

« من يعش على الأرض لا يخشى السقوط

ومن يتنازل لا يخشى الغــرور

ومن يتواضع دائما

يكن الله له نعم الدليل .

أنا راض بما وهبنى الله

إن قليلا كان أو كثيرا

لأنى أنشد القناعة يا إلهى

وأنت يا إلهى حليف القنوع

إن الامتلاء حمل ثقيل

لمن الى الحج يذهبون

فعسر هنا ، ويسر هناك

« سنة الخير ، جيلا بعد جيل »

الفصل الثالث والعشرون

العمة مارش تحل المشكلة

جاء اليوم التالى والتف البنات وأمهن حول مستر مارش المريض الناقه يغدقن عليه من العناية والرفق ، ما جعلهن يهملن أعمالهن فى سبيل خدمته والتمتع بالنظر إليه ، والاستماع الى أخباره ، فكن فى ذلك أشبه بالنحل حين يلتف حول ملكته • كن غاية فى السعادة ، والأب يجلس على مقعد مريح بجانب أريكة بث ، ومن حوله البنات الثلاث ، وبين حـين وآخر تطل حنا برأسها من الباب « لتطمئن على الرجـل العـزيز » • ولكن كبار الأسرة كانـوا فى قلـق مكبوت ، ينتهبهم شعور بأن أمـرا ينقصهم ، فلا يصرحون به ملتزمين الصمت : فقد كانت نظرات مسـتر مارش وزوجه تتبع ميج بقلق ولهفة ، واستبد الغضب بجو فجعلت تهز قبضتها مهددة منذرة لمظلة مستر بروك التى نسيها فى الردهة ، كل هذا وميج شاردة الذهن صامتة خجـول ، تجفل اذا ما رن جرس الباب ، ويحمر وجهها اذا ما ذكر اسم جون على مسمع منها •

قالت آمى :

ـ لست أدرى ماذا جرى ، فكنا فى قلق وحيرة ، مما لا يتفق مع عودة أبى الينا سالما •

وأبدت بث ، فى براءة ، دهشتها لتأخر آل لورنس عن زيارتهم فى هذه المناسبة الهامة •

ومر لورى بالبيت فى مساء ذلك اليوم ، فلما رأى ميج تطـل من النافذة ، ركبه شيطان التمثيل فجأة ، فركع على احدى ركبتيه فـوق

الجليد وهو تارة يشد شعره ، وتارة أخرى يرفع يديه فى توسل وضراعة ، كأنه يطلب الرحمة • وعندما نهرته ميج وطلبت منه أن يتأدب أو ينصرف ، رفع يده الى عينيه يجفف بمنديله دموعا خيالية ، ثم سار يترنح فى يأس ، حتى وصل الى منعطف الطريق •

وضحكت ميج وقالت لجو ، وهى تتظاهر بأنها نسيت ما فعل :

ــ ماذا يقصد هذا الغبى ؟

فقالت جو فى تهكم :

ــ انه يريك ماذا سيفعل رجلك جون فى المستقبل • منظر مؤثر ! أليس كذلك ؟

فقالت ميج بهدوء كأن الكلام يلذ لها :

ــ لا يليق بك أن تقولى رجلى جون ، فهذا غير صحيح • لقد أخبرتك مرارا انى لا أهتم به ، وقد اتفقنا جميعا أن لا نتحدث فى هذا الموضوع • ورجائى أن لا تضايقينى يا جو ، حتى نظل دائما فى صداقة ووئام •

قالت جو متألمة :

ــ لسنا نستطيع ذلك الآن ، فقد قيل ما قيل ، وفعلت مزحة لورى فعلها فيك • ان أمورك تبدلت ، وقد لاحظت أنا وأمى التغير الذى أصابك ولست أريد أن أضايقك ولذلك سأحتمل فجيعتى فيك احتمال الرجال • ان وقوع البلاء أهون من انتظاره ، وأنا بطبعى أكره الانتظار ، فاذا كان فى نيتك الموافقة فهيا عجلى بها •

قالت ميج وهى تنحنى فوق تطريزها وعلى شفتيها ابتسامة غامضة :

ـ لا يجوز أن أتكلم قبل أن يتقدم رسميا ، ولن يفعل ذلك ما دام أبى يرى أنى مازلت صغيرة •

قالت جو :

ـ بل يجب الاستعداد من الآن ، حتى لا يفاجئك بالكلام ، فيحمر وجهك وتبكين ، وبذلك تتركينه ينفذ رغباتـه ، بدل أن ترفضيه رفضـا حاسما •

قالت :

ـ لست غبية أو ضعيفة كما تعتقدين ، وقد رسمت خطة كيـلا أوخذ على غـرة ، ومن الخير أن نستعد للأمور حتى لا نفاجأ بها •

ولم تتمالك جو من أن تبتسم للهجة الجـدية التى تكلمت بها ميج دون أن تدرى ، والتى صحبها احمرار وجهها الجميل ، وقالت فى لهجة أكثر احتراما :

ـ هلا أخبـرتنى بما استقر عليه رأيك ؟

قالت :

ـ لا مانع لـدى مطلقا ، فقد بلغت السابعة عشرة من عمـرى ، وأصبحت بنضج تفكيرك أهلا لثقتى فيك ، وقـد تفيدك التجـربة التى أمر بها عندما يحين دورك •

فقالت جو ، وقد أفزعها مجرد التفكير فى أن تمر بهـا تجـربة أختها :

— لن أمر بما تمرين به ، ولست مجنونة أن أجرب هذه التجربة بنفسى ، انما يلذ لى أن أراقب غيرى فى ظرف كهذا •

وسرحت ميج بنظرها الى الطريق الضيق الذى طالما رأت العاشقين يسيرون فيه جنبا الى جنب فى ليالى الصيف الدافئة ، وقالت كأنها تحدث نفسها :

— سيكون لك رأى آخر عندما تجدين من يحبك وتحبينه •

قالت جو فى حدة ، وقد أغضبها خيال أختها الجميل :

— أليس فى نيتك أن تخبرينى بما استقر عليه رأيك ؟

قالت :

— سأقول له بمنتهى الهدوء والتصميم : أشكرك يا مستر بروك على كرمك العظيم ، ولكنى أتفق مع أبى فى أنى مازلت أصغر سنا من أن أفكر فى خطبة أو زواج ، ولذلك أرجو أن تترك الكلام فى هذا الموضوع ، وأملى أن نظل أصدقاء كما كنا فيما مضى •

قالت :

— هذا كلام حازم قاطع ، ولكنك لن تقوليه ، وحتى اذا قلته ، فلن يرجع الرجل عن عزمه ، وسوف يتصرف تصرف المحبين الذين نقرأ عنهم فى القصص ، فتذعنين لطلبه خشية أن تجرحى شعوره •

قالت :

— لا لن أذعن ! سأعلنه بأننى مصممة على رأيى ، ثم أنصرف من الحجرة فى تعال وكبرياء •

وقامت ميج واقفة وهى تتكلم ، وكانت على وشك أن تجرب الانصراف فى تعال وكبرياء ، غير أنها سمعت وقع خطوات فى الردهة جعلتها تعود الى مقعدها جريا ، ثم تعكف على تطريزها بهمة ونشاط . وكتمت جو ضحكة لهذا التغيير المفاجىء ، وقامت الى الباب تفتحه مستجيبة للطرقات الخفيفة عليه ، وقد كست وجهها جمودا لا يدل على ترحيب بالقادم . ووقف مستر بروك عند الباب ، ونظره يتنقل من وجه هذه الى وجه تلك ، ثم قال بارتباك ملموس :

— مساء الخير ، لقد جئت لآخذ مظلتى ، وأزور والدك لأطمئن على حالته اليوم .

قالت جو فى ارتباك جعلها تخلط بين أبيها والمظلة :

— انها فى خير حال ، وهو يجلس على المشجب ، وسوف أحضره لك ، ثم أخبرها بأنك هنا .

وانصرفت من الغرفة فورا ، حتى تتهيأ الفرصة لميج ، فتكاشفه بما استقر عليه رأيها ، ولكن ميج شرعت بدورها فى الانسحاب ، وقالت له بخجل :

— يسر أمى أن تراك ، فتفضل بالجلوس حتى أستدعيها .

قال ، وفى لهجته ألم شديد ، ظنت ميج معه أنها قد عاملته بخشونة :

— لا تذهبى . أتخافين منى يا مارجريت ؟

واحمر وجهها حتى وصل الاحمرار الى جذور الشعر فى جبينها ،

لأنه ناداها باسمها مارجريت ، وهو ما لم يفعله من قبل ، وأدهشها أن يكون نداؤه طبيعيا لا كلفة فيه • ومدت يدها فى حـركة مطمئنة ، وقالت بلهجة من تحرص على ابداء صداقتها فى غير تكلف أو اصطناع :

ــ كيف أخافك وقد كنت مثال العطف على أبى ؟ ليتنى أستطيع أن أفيك حقك من الشكر •

فأمسك بيدها الصغيرة بين يديه الكبيرتين ، ونظـر اليها بعينيه العسليتين المليئتين بالحب ، مما جعل قلبها يضطرب بين جنبيها ، وكانت تريد الافلات منه ، ولكنها كانت تريد أيضا أن تبقى لتسمع ما يقول • سـألها :

ــ أأخبرك كيف تشكريننى ؟

قالت وهى تحاول أن تسحب يدها ، وقد بدا الخـوف عليها وهى لا تدرى :

ــ لا • أرجوك ! أفضل ألا تقول شيئا •

قال مستر بروك فى رقة وحنان :

ــ لن أزعجك ، ولست أبتغى غـير الاطمئنان الى أنك تهتمين بى ولو قليلا يا ميج • انى أحبك كل الحب يا عزيزتى •

وجاءت اللحظة الحاسمة كى تقـول ما استقر عليـه رأيهـا من قبل ، ولكنها لم تقل شيئا ، فقد غابت عن ذهنها الكلمات التى سـبق أن أعدتها باحكام ، وكل ما فعلته أن رفعت رأسها ، وقالت :

ــ لست أدرى •

كان صوتها ناعما منخفضا ، فانحنى جون عليهـا ليسمع ردهـا التافه ، ويبدو أنه اغتبط لجوابها ، اذ ابتسـم راضـيا ، وضغط على يدها البضة فى رشاقة ، وقال بلهجة مقنعة :

ــ هلا حاولت معرفة حقيقة شعـورك ؟ انى مشـوق جـدا الى استطلاع رأيك ، فلن أتمكن من التفرغ الى عملى قبـل الاطمئنان الى مكافأتى فى النهاية •

قالت متلعثمة ، وهى لا تدرى لمـاذا تضطرب هكذا رغم اغتباطها بما تسمع :

ــ انى مازلت صغيرة السن جدا •

قال :

ــ سوف أنتظر ، ولن يضيرنى الانتظار اذا حاولت أن تحبينى ، فهل ترين أنها مهمة عسيرة يا عزيزتى ؟

قالت :

ــ لن تكون مهمتى عسيرة لو أردت ، ولكن •••

فقاطعها جون وهو يمسك بيدها الأخرى ، بحيث لم تستطع أن تخفى وجهها من نظراته :

ــ انى أحبـك كثيرا يا ميج ، فأرجـو أن توفقى فى الاسـتجابة لعاطفتى •

وكانت لهجته محكمة فى ضراعتها وتوسلها ، ولكن نظرة استرقتها

الى وجهه ، كشفت لها عن مبلغ سروره واغتباطه ، بل كشفت أيضا ثقته الشديدة فى بلوغ غايته ، وتذكرت دروس آنى موفات فى الدلال ، وتملكتها أنانية الحب وقوته ، التى تظل كامنة فى نفوس الفتيات ، ثم تظهر فجأة فى الوقت المناسب • وأحست بشعور غريب ، وتحيرت فيما تفعل ، ثم أوحى اليها الدلال بالتمنع ، فسحبت يدها من بين يديه ، وقالت :

ـ لن أفعل ما تريد ، فهلا ذهبت الآن وتركتنى لشأنى ؟

وارتاع مستر بروك المسكين لقولها ، وقد أحس بأن القصور التى بناها فى الهواء تنهار على رأسه ، ولم يكن قد رأى ميج فى مثل هذه الحالة من قبل ، ولذلك أفزعه نفورها ، فسألها فى قلق وهو يتبعها الى خارج الغرفة :

ـ أحقا تقولين ؟

قالت :

ـ نعم ! ولست أحب أن أشغل نفسى بمثل هذه الأمور ، وأبى يرى ذلك أيضا • ومازال الوقت أمامى متسعا ، فالأفضل أن أنتظر •

قال :

ـ قد تغيرين رأيك قريبا ، وسأنتظر صامتا حتى أمنحك وقتا كافيا للتفكير • لا تلعبى بعواطفى يا ميج ، فلا أظنك أهلا لذلك •

قالت ميج ، وقد لذ لها أن تعذب حبيبها ، وتختبر احتماله لسلطانها عليه :

— أفضل أن لا تفكر فىّ على الاطلاق •

وشحب وجهه وأظلم حزنا ، وبدا فعلا كأنه بطل من أبطال القصص غير أنه لم يضرب جبينه بيده مثلهم ، كما لم يسر جيئة وذهابا فى الحجرة ، انما وقف ينظر اليها متألما ، حتى أحست بقلبها يعطف عليه على الرغم منها ولو لم تحضر العمة مارش فى هذه اللحظة الهامة ، ما أمكن التكهن بنهاية الموقف •

وكانت العمة قد قابلت لورى وهى تتنزه ، وعلمت منه بعودة مستر مارش ، فلم تقو على مقاومة شوقها الى رؤيته ، ولذلك توجهت الى بيته فورا • وكان أفراد الأسرة جميعهم فى نهاية الدار مشغولين بأمورهم ، فسارت فى البيت بهدوء تريد أن تفاجئهم بزيارتها • وكان دخولها بالفعل مفاجأة للمتحدثين ، اذ جعلت ميج كما لو أن شبحا ظهر لها ، واختفى بروك مسرعا فى غرفة المكتب •

صاحت العجوز وهى تضرب الأرض بعصاها ، وتنقل بصرها من وجه الشاب الشاحب الى وجه الفتاة المتورد :

— ارحمنى يا الهى ، ما هذا كله ؟

فتلعثمت ميج ، وهى تتوقع أن تنهال عليها عمتها بالنصح والتعنيف ، وقالت :

— هذا صديق لأبى • لقد أدهشتنى رؤيتك كثيرا •

قالت العمة مارش وهى تجلس :

— دهشتك واضحة ، ولكن ماذا كان صديق والدك يقول لك ،

حتى يحمر وجهك هكذا ؟ إنى أحس بالشر ، ولذلك يجب أن أعرف ما يجرى هنا •

قالت ميج ، وهى تتمنى لو أن مستر بروك كان خارج البيت آمنا :

— جاء مستر بروك يسترد مظلته ، وكنا نتبادل بعض الحديث •

صاحت العمة مارش تستوضح الأمر :

— بروك ؟ رائد الولد إياه ؟ لقد فهمت الآن • إنى أعرف كل شىء فقد أخطأت جو وفتحت رسالة من رسائل أبيك ، وقد أكرهتها أن تقول لى عما جاء بها • فهل قبلت خطبته يا ترى ؟

قالت ميج فى اضطراب :

— صه ! انه فى الغرفة الأخرى وقد يسمع حديثك ! ألا أستدعى والدتى لتراك ؟

قالت العجوز فى اهتمام :

— لا ، ليس الآن إذ لدى ما أقوله لك حتى يستريح ضميرى • أخبرينى ، أتنوين حقيقة أن تتزوجى كوك هذا ؟ اذا كان الأمر كذلك فلن تنالى بنسا واحدا من ثروتى • تذكرى هذا وكونى فتاة عاقلة •

وكانت العمة مارش قديرة على إغضاب الناس واستثارة عنادهم الى أقصى حد • ولو أنها طلبت الى ميج أن تتزوج بروك ، ما ترددت الفتاة لحظة فى الرفض ، ولذلك أثار اعتراضها روح العناد فى قلب الفتاة ، وقررت لفورها أن تقبله • وقد ساعدها على معاندة عمتها ، ميلها الشديد للفتى ، فقالت وهى تهز رأسها فى تصميم قاطع :

ـ سأتزوج بمن أحب يا عمتى : ويمكنك أن توصى بمالك لمن تريدين •

قالت :

ـ أنت غبية متعجرفة ! أهكذا تقابلين نصيحتى يا آنسة ؟ سوف تندمين يوم تجربين فشل الحب فى بيت يظلله الفقر والحرمان •

أجابت ميج :

ـ لن يكون حالى أشقى من حال بعض سكان القصور •

ولم تكن العمة قد رأت ميج فى مثل هذه الحالة من قبل ، فوضعت عويناتها على أنفها ، وتطلعت الى الفتاة تفحصها ، وأثار حديث العمة روح التحدى فى نفس الفتاة ، فأحست بالشجاعة والاستقلال يغمران قلبها ، كما سرها أن تدافع عن جون ، وتثبت حقها فى حبه أو الزواج منه • وشعرت العمة مارش بأنها أخطأت فى معالجة الموضوع ، فسكتت لحظة ثم استأنفت حملتها بأسلوب آخر توخت فيه اللين على قدر استطاعتها • قالت :

ـ ميج ، أيتها العزيزة ! كونى عاقلة وخذى بنصحى ، فأنا أريد لك الخير ، ويؤلمنى أن تفسدى حياتك بخطأ ترتكبينه فى بدايتها •

يجب أن تتزوجى رجلا غنيا ، حتى تجدى الراحة وتعاونى أسرتك •

قالت :

ـ ولكن أمى وأبى يخالفانك فى الرأى ، وهما معجبان بجون رغم فقره •

قالت العمة :

— إن أمك وأباك لا يدركان من أمور الدنيا أكثر مما يدرك الأطفال السـذج •

قالت ميج فى كبرياء :

— وأنا سعيدة بذلك •

ولم تهتم العمة مارش باجابة الفتاة ، ومضت فى نصيحتها تقول :

— إن هذا الشاب روك فقير ، وليس له أقارب أغنياء •

قالت الفتـاة :

— نعم ليس له أقارب أغنياء ، ولكن له أصدقاء مخلصين •

قالت العمة :

— لن تجدى من الأصدقاء عونا على معاشك ، وسينكرونك يـوم تحتاجين إليهم • ألهذا الشاب عمل يتكسب منه ؟

قالت :

— ليس له عمل فى الوقت الحاضر ، ولكن مستر لورنس وعد بمساعدته

قالت :

— إن جيمس لورنس عجوز منقلب لا يؤمن له جانب ؛ فلا تعتمدى على مساعدته طويلا ، واعتبرى أنك تتزوجين رجلا بلا مال ولا جاه ولا عمل ، مما يضاعف كدك فى الحياة ، وكل هذا لأنك لا تأخذين بنصيحتى ظننتك أرجح عقلا وأعمق تفكيرا يا ميج •

قالت ميج ، وقد زادها الإخلاص توردا وجمالا :

— لن أجد أفضل منه زوجا مهما فعلت ، فجون رجل طيب القلب •

راجح الفكر ، له مواهب لا تحصى ولا تعد • إنه يبحث عن العمل جادا وسوف يوفق دون شك بفضل نشاطه وذكائه وشجاعته • وهو فوق ذلك محبوب ، يجله الناس ويحترمونه ، ومن حسن حظي أن يهتم بي رغم فقري وحماقتي وصغر سني •

قالت العمة :

ـ ولكنه يعرف أن لك • أقارب أغنياء ، وهذا سر اهتمامه بك على ما أعتقد وكان رأي العجوز اتهاما ظالما لجون ، فثار غضب الفتاة ، صاحت بعمتها تقول :

ـ كيف تجرئين أيتها العمة على مثل هذا الكلام ؟ ! ليس رجلي جون خسيسا أو وضيعا ليتزوجني من أجل المال • إن الفقر لا يخيفني ، وسوف نعمل لنعيش ، وفي نيتنا أن ننتظر حتى تتحسن أحواله • يكفي أنني سعيدة ، وسأكون معه سعيدة دائما ، لأنه يحبني ولأني •••

وسكتت ميج ، وقد تذكرت فجأة أنها لم تقرر بعد قبوله زوجا لها ، وأنها طلبت الى « رجلها جون » عدم التفكير فيها ، وربما كان في الغرفة المجاورة يستمع الى حديثها •

وكانت العمة تريد أن تختار زوجا غنيا لابنة أخيها المليحة ، فلما رأت سعادتها بجون الفقير ، ولمست حماستها البالغة في الدفاع عنه ، غضبت لخيبة أملها ، وقالت بمرارة وغيظ :

ـ أنت فتاة عنيدة ، وقد خسرت بحماقتك أكثر مما تتصورين ، فلا تتوقعي معونة مني بعد أن خيبت أملي فيك ، وسنرى كيف يساعدك أصدقاء هذا المستر بروك • لقد انتهيت من أمرك تماما ، ولن أتدخل في شئونك بعد اليوم ، ولست أجد بنفسي رغبة في رؤية أبيك •

وخرجت العجوز غاضبة بعد أن صـكت البـاب فى وجـه ميج فانهارت بخروجها قوى الفتاة ، واستبدت بها الحيرة ، فلم تعد تدرى أتضحك أم تبكى • وقبل أن تتمالك جأشها ، دخل عليها مستر بروك ، وقال لها وهو يحتويها بين ذراعيه :

ـ لم يكن هناك سبيل لأتحاشى سـماع ما قلت يا ميج ، فشكرا لدفاعك عنى ، وشكرا للعمة مارش ، إذ بفضـلها عرفت أنك تهتمين بى بعض الاهتمام •

قالت :

ـ لم أكن أقدر حقيقة مكانتك عندى ، حتى شرعت تذمك أمامى •

قـال :

ـ لست أرى الآن داعيا لأن أتركك يا عزيزتى ، فهل تحبين أن أبقى وأسعدك ؟

وكانت هذه فرصة أخرى تستطيع فيها أن ترده عنها بكبرياء ، كما وعدت جو ، ولكنها بدل أن تفعل ذلك ، أخفت وجهها فى صدره ، وقالت بصـوت خفيض :

ـ نعم يا جـون !

وبعد ربع ساعة من انصراف العمه مارش ، هبطت جو السلم فى هدوء ، وتوقفت لحظة عند باب غرفة الاستقبال • فلما لم تسمع صـوتا ينبعث منها ، بدا عليها الارتياح وقالت لنفسها :

ـ لا شك أنها أرسلته الى حال سـبيله كما اتفقنا ، وبذلك يكون أمره قـد انتهى ، فلأدخل لأتسلى وأضحك مما حـدث بينهما •

ولكن جو لم تنعم قليلا أو كثيرا بالتسلية أو الضحك ، فعند ما فتحت الباب ، رأت ما جعلها تقف فى مكانها مندهشة منذهلة ، لا تصدق عينيها ، فبدل أن تجد آثار هزيمة عدوها المبين على يدى أختها المتكبرة المتعالية ، طالعها منظر تلك الأخت ، وقد جلست على ركبتى من كانت جو تود له الخذلان كل الخذلان • وصدمت الفتاة بما شهدته فى وجه أختها من أبلغ معانى السعادة والاستسلام ، فشهقت منزعجة ، كما لو كان ماء مثلج صب على رأسها • وتنبه الحبيبان الى وجودها ، فقفزت ميج عن ركبتى جون فى خجل شديد ، ولكن « ذلك الرجل » على حد تعبير جو ، تقدم اليها ضاحكا وهو يقول :

— أختى جو ! هنيئا يا أختاه !!

واغتاظت جو لكلامه ، بعد أن اغتاظت لخيبة أملها ، ووجدت فى قوله وقاحة لا تغتفر ، فلوحت له بيدها فى خشونة ، ثم خرجت من الحجرة دون أن تنطق بكلمة واحدة • وصعدت السلم مسرعة الى غرفة الناقهين ، وأزعجتهما وهى تنفجر قائلة :

فليسرع أحدكم بالنزول ، لأن مستر بروك يتصرف تصرفا مخيفا ، وميج راضية بذلك •

وعند ما خرج مستر مارش وزوجه من الغرفة مسرعين ، ارتمت جو على الفراش ، وفى عاصفة من البكاء ، جعلت تروى لأختيها الصغيرتين ما حدث ! ولكنهما قابلتا النبأ السار بكل ترحيب واغتباط ، فلم تنعم جو الغاضبة بشىء من راحة البال ، ولذلك لاذت بملجئها فى أعلى الدار ، وراحت تقص همومها على الفيران التى تعبث حولها •

وأغلق باب غرفة الاستقبال على الوالدين والحبيبين ، ودار بينهم

حديث طويل ، أبدى فيه بروك الهادى منتهى الحماسة والبلاغة ، ودافع عن قضيته خير دفاع ، حتى اقتنع مستر مارش وزوجه بتحقيق رغباته •

ظل بروك يصف الجنة التى يريد تقديمها لميج ، حتى حان موعد الشاى ، فتأبط ذراعها باعتزاز ، وسار بها الى المائدة والسعادة تشع من عينيهما ، الى حد هزم غيرة جو ، وقهر اعتراضاتها • وتأثرت آمى بعطف جون وتحفظ ميج ، وراحت بث تختلس اليهما النظرات مسرورة ، أما مستر ومسز مارش فقد جلسا ينظران الى الخطيبين برضا وحنان ، مما أثبت قول العمة مارش إنهما لا يفقهان من أمور الدنيا أكثر مما يفقه الأطفال • ولم يقبل أحد على تناول الطعام ، ولكن السعادة كانت تغمر القلوب كلها خصوصا قلب الأب العجوز ، الذى بلغ غاية سعادته بأول حادث عاطفى فى أسرته •

قالت آمى وهى تفحص الحبيبين ، وتفكر فى الوضع الذى سترسمهما فيه :

ــ أما زلت عند قولك السابق يا ميج بأن لا مكان لمزيد من السعادة ؟

أجابت ميج ، وكأنها فى حلم سعيد يرتفع بها فوق الأحداث العادية :

ــ لا ، طبعا • فكم حدثت أمور سعيدة ، بين أمس واليوم ، ويخيل الى أن عاما مضى منذ ذلك الحين •

قالت مسز مارش :

— ان بعد العسر يسرا ، والسعادة تأتى بعد طول الألم ، وفى كل أسرة تمر سنوات يغشاها الحزن ، ثم تنقشع الغمة ، وتتحسن الأحوال ، وأظن أن هــذا التغير قــد بدأ الآن فى حياتنا •

وتمتمت جــو تقول :

— أملى أن تكون نهاية هــذا العام الجديد خيرا من بدايته •

وكانت جــو لا تسرف فى حبهــا إلا مع أفراد معدودين ، فكانت تخشى أن تصــدم فى إخلاصهم لهــا ، ولذلك آلمهــا كل الألم أن ترى ميج تنزلق من بين يديهــا ، وتتجه بعواطفها نحــو رجــل غريب تحت سمعها وبصرها •

قال مستر بروك وهو يبتسم لميج ، كأنما تحققت مشروعاتها كلها :

— وستكون نهاية العــام الثالث أجمل وأجمل ، وستتحقق باذن الله مشروعاتى وآمالى ••

قالت آمى ، وهى تتعجل الأيام لحفل الزواج :

— أليست هــذه مدة طويلة ؟

قالت ميج بلهجة جدية حلوة ، لم يسبق أن تحدثت بها من قبل :

— بل إنها مدة قصيرة جــدا ، فما زال أمامى كثير أتعلمه •

قال جــون :

— أنا أعمل وأنت تنتظرين •

وبدأ يعمل لفوره ، فتناول المنشفة وقدمها لميج بأناقة اغتاظت لها جــو ولم تمض لحظة حتى سمع صوت الباب الخارجى يصفق ، فشاع الارتياح فى نفس جو ، وهزت رأسها وهى تقول لنفسها :

— ها قد جاء لورى ، وآن الأوان لنسمع حديثا ليس فيه شىء من هــذه السخافات •

ولكن لورى خيب ظنها هو الآخر ، إذ دخل يقفز وقد استخفه الطرب ، وجاء يحمل باقة جميلة من الورود الى « مسز جون بروك » •

وكان يعتقد أن كل هذه الأحداث ، ما جاءت الا نتيجة لخطته الماهرة السابقة • قال بعد أن هنأ الخطيبين وقدم لهما هديته :

— كنت واثقا أن بروك سينال ما يريد ، فهذا شأنه دائما ، فهو اذا ما انتوى أمرا ، نفذه ولو انطبقت السماء على الأرض •

قال مستر بروك ، وقد بعثت نشوة السعادة فيه روح المسالمة حتى نحو تلميذه الماكر :

— شكرا على تهنئتك • انى أستبشر خيرا بالمستقبل ، ولذلك أدعوك الى حفلة زواجى منذ الآن •

قــال :

— سألبى الدعوة ولو كنت فى أقاصى الأرض ، فان مجرد رؤية وجه جو ، فى هــذه المناسبة ، يغرى الانسان بالحضــور مهما طــال السـفر •

والتفت لورى الى جو ، وهى تقبع فى ركن بعيــد من الحجرة ، وســألها :

— ماذا بك ؟

قالت فى حزن :

ـ إنى غير موافقة على هذا الزواج ، ولكنى سأحتمله ولن أعترض عليه • إنك لا تدرك كم يشق علىّ أن أتنازل عن ميج •

قال لورى يواسيها :

ـ لن تتنازلى إلا عن نصفها ، وسيبقى لك النصف الآخر •

تنهدت جو وقالت :

ـ بل أنا فقدت صديقة عزيزة ، وسيختلف شعورها نحوى بهذا الزواج •

قال وهو يعنى ما يقول :

ـ ولكنى معك يا جو ، واذا كنت لا أضارع ميج مكانة فى نفسك ، غير أنى سأقف الى جانبك طول حياتى ، ولك منى عهد بذلك •

قالت ، وهى تصافحه شاكرة :

ـ أنت عزائى الوحيد يا تيدى ، وأنا أثق بوعدك ، وسأكون مدينة لك الى الأبد •

قال :

ـ لا تحزنى إذاً ، وكونى فتاة طيبة • ان الأمور تسير على ما يرام ، وميج سعيدة جدا ، ولن يلبث بروك أن يسافر للبحث عن عمل ، وقد وعد جدى بمساعدته فى تقرير مستقبله ، وعندئذ ترين ميج فى بيتها الصغير • لن تنقص سعادتنا بذهابها ، فعن قريب أنتهى من دراستى الجامعية ، وأسافر معك فى رحلة الى الخارج • ألا تجدين فى ذلك تعزية كافية ؟

قالت وهى شاردة الفكر :

— أعتقد ذلك ! ولكن من يدرى ماذا يحدث فى خلال هذه السنوات الثلاث القادمة .

قال لورى ! ؟

— الحق معك . ولكن ألا تحبين أن تتصورى ما قد يحدث إذ ذاك ؟

قالت وهى تجيل بصرها فى الحجرة ، وقد التمعت عيناها :

— لا ، فقد أتصور ما لا يسرنى . وما دمنا الآن سعداء ، فلا فائدة من التطلع الى المستقبل .

وجلس الأب والأم معا ، يرقبان أول فصل غرامى فى تاريخ بناتهما ، ويذكران أيامهما الماضية منذ عشرين عاما . وعكفت آمى على لوحة ترسم فيها الحبيبين اللذين جلسا فى ركن من الحجرة ، يرفلان فى حلل من السعادة ، وقد أشرق وجهاهما بنور استعصى على الفتاة الصغيرة أن تصوره ورقدت بث على أريكتها تتحدث الى أبيها العزيز ، وتشد على يدة بيدها النحيلة ، كأنها تستمد منها قوة ترشدها الى طريق السعادة والسلام . وقبعت جو فى مقعدها المنخفض المحبوب ، وفى وجهها مظاهر الجد والهدوء على حين وقف لورى وراءها وهو يبتسم فى أخوة ، ويومىء برأسه مشجعا لصورتها المنعكسة على المرآة المقابلة .

وبهذا الوضع انسدل الستار على ميج وجو وبث وآمى ، ليرتفع مرة أخرى فى الجزء الثالث من قصة نساء صغيرات .

محتويات الكتاب

الجزء الأول

الجزء الثانى

الموضــــــوع | الصفحة

رقم الايداع ٣٥٢٤ لسنة ١٩٨٦
مطابع سجل العرب

نساء صغيرات

٢

لويزا ألكوت

نساء صغيرات

تأليف

لويزا م. الكوت

ترجمة

أمينة السعيد

المجلد الثانى

ويضم الجزئين

الثالث والرابع

الطبعة الثانية

الناشر

مؤسسة سجل العرب

٢٦ شارع شريف - القاهرة

تليفون ٢٤٨٢٩٩ / ٢٤٨٣٠٩

١٩٨٦

الجزء الثالث

الفصل الرابع والعشرون

ثرثرة

من المستحسن أن نستهل هذا الفصل من القصة بحديث عن أسرة مارش ، حتى نذهب الى زفاف ميج ، وقد نسينا كل أثر للماضى . واذا اعترض أحد من الكبار على ما تفيض به القصة من عواطف وغزل ، فسنردد قول مسز مارش : « وماذا تنتظرون غير ذلك ، ولى أربع فتيات مرحات يصاحبهن فتى جذاب فى ريعان الشباب ؟ » وعلى أى حال مهما اعترض الكبار ، فان الشباب لن يعترض على مغامرات الهوى فى هذه القصة .

والواقع أن السنوات الثلاث التى انقضت ، لم تحدث سوى تغيرات طفيفة فى حياة هذه الأسرة الوادعة : فقد انتهت الحرب ، وعاد مستر مارش سالما الى بيته الحبيب وكنيسته الصغيرة ، التى وجدت فيه خير راع طيب عطوف . ومستر مارش رجل دءوب على العمل ملىء بالحكمة التى تفضل المعرفة ، تفيض جوانحه رحمة وبرا وأخوة ، وهو يتميز بالتقى والورع الذين يدعمان شخصيته ، ويجعلان منه رجلا مهيبا محبوبا .

وعلى الرغم من فقره ونزاهته ، اللذين حرماه من التمتع بمباهج الدنيا ، فان صفاته الطيبة حببت فيه قلوب أناس كثيرين ، فانجذبوا اليه كما تنجذب جماعة من النحل الى الزهور العطرة . ولم يبخل هو على هؤلاء المعجبين بشىء مما حباه الله به ، انما أعطاهم فى سخاء وكرم عصارة تجاربه الشاقة خلال حياته البالغة خمسين عاما . وقد

وجد الشباب المتطلع فى هذا العجوز الأشيب الوقور ، قلبا فتيا لا يقل عن قلوبهم حرارة ، وكان النساء المثقلات بالهموم ، يلجأن اليه بأحزانهن ، فيجدن منه حنان الصدر وصواب النصح • وكان المذنبون يعترفون لهذا الرجل التقى بذنوبهم ، فيلومهم على ما بدر منهم ، ثم يقودهم الى بر السلام النفسى • وكان ذوو المواهب يجدون فيه نعم الرفيق ، أما أهل الطموح فكانوا يأخذون عنه طموحه الشريف ، وحتى أصحاب الأغراض الدنيوية كانوا يعترفون بجمال آرائه وصدقها ، وان كانت لا تحقق لهم كسبا ماديا •

وكان يبدو ظاهرا أن ادارة البيت انما هى فى يد النساء الخمس الممتلآت حيوية ونشاطا ، ولكن الحقيقة الخافية أن رأس الأسرة المفكر ، وقلبها الموجه ، كان ذلك الشيخ القابع بين كتبه ، فكان النساء يلجأن اليه فى أعصب الظروف ، وينشدن عنده طمأنينة النفس وهدوءها ، ويجدن فيه حنان الزوج والأب والصديق •

وكان البنات يسلمن مقاليد قلوبهن الى الأم ، ويعهدن بزمام نفوسهن الى الأب : ويولين هذين الوالدين اللذين يكدان ويكدحان من أجلهن ، حبا ينمو مع الأيام ويزداد فيربطهن اليهما برباط وثيق جميل ، تنعم به الحياة ، ويخلد بعد الموت •

وكانت مسز مارش كعهدها نشيطة باشة ، وان كان المشيب قد كسا رأسها أكثر من ذى قبل ، ولم يكن لها هم الآن سوى تهيئة شئون ميج ، وقد شغلت هذه المهمة وقتها ، حتى حرمت المستشفيات والبيوت — التى مازالت تعج بالجرحى والأرامل — من زياراتها وعطفها الأموى •

أما جون بروك ، فقد لبى داعى الوطن ، فالتحق بالجيش مدة عام ، ولكنه جرح فى نهايته ، فأعيد الى بلاده ، ولم يسمح له بالقتال ثانية ، ولذلك لم يزين صدره بأوسمة أو نياشين ، رغم أنه كان يستحقها جزاء تضحيته بحبه ومغامرته بحياته ، وهما أثمن ما لديه فى الوجود • وخضع جون لما قضى عليه به من تسريح ، وكرس نفسه للعناية بصحته ، والاستعداد لعمل يمارسه ، ولأعداد بيت الزوجية لميج • ولقد أبى عليه استقلاله وتواضعه أن يقبل العروض السخية التى قدمها له مستر لورنس ، وآثر قبول وظيفة أمين مكتبة ، قانعا بمرتبها الصغير ، الذى يكسبه بكده وكدحه عن المغامرة بمال يقترضه من مستر لورنس •

وراحت ميج تصرف وقتها بين العمل والانتظار ، وقد نمت فيها شخصية المرأة وازدادت خبرتها بشئون البيت ، كما بعث الحب فيها جمالا على جمال ، فأصبحت بهجة للأنظار • وكانت ميج ، ككل فتاة فى مثل سنها ، ذات مطامع وآمال ، فعز عليها أن تكون بداية حياتها الجديدة متواضعة متقشفة • وكان نيد موفات قد تزوج بسالى جاردنر ، وأصبح من العسير على ميج أن تقارن أحوالها المعيشية البسيطة ببيتهما الجميل ، وعربتهما الفاخرة ، وهداياهما الكثيرة ، ومظاهرهما الفخمة • وكم تمنت أن يكون لها مثل ما لصديقتها ، ولكن الغيرة لم تلبث أن انحسرت تماما حين لمست مدى الجهد البالغ الذى يبذله جون فى تهيئة بيت صغير عامر بالحب والاخلاص • وحين جلست معه ذات يوم تحت الشفق الجميل ، تتحدث عن مشروعاتهما الصغيرة ، بدا لها المستقبل أكثر اشراقا وجمالا ، حتى نسيت فخامة حياة سالى ، وأحست أنها قد أصبحت بسعادتها أغنى فتاة فى العالم •

وانقطعت جو عن خدمة العمة مارش ، لأن العجوز أغرمت بآمى الى حد كبير ، وجعلت تغريها على البقاء معها ، باعداد دروس خاصة لها على أيدى أمهر الرسامين •• وانهزمت آمى أمام هذا الاغراء ، وعاشت مع السيدة العجوز ، وكانت تكرس أوقات الصباح لخدمة عمتها ، وبعد الظهر لمسراتها ، ووفقت فى ذلك توفيقا طيبا • أما جو فقد عملت على تقسيم وقتها بين دراسة الأدب ، وبين معونة بث ، التى ظلت وقتا طويلا تعانى من آثار مرضها الشديد • ولم تكن بث عاجزة عن العمل ، ولكنها لم تستطع أن تسترد نشاطها وتورد خديها ، ورغم ذلك ظلت ملك البيت الحارس ، وصديقة أهلها الوفية ، وكانت تقوم بواجباتها مفعمة القلب بالأمل والسعادة •

وكانت جو تفخر بأنها قد أصبحت امرأة ذات دخل : بفضل ما تنشره لها مجلة « سبريد أيجل » لقاء دولار عن كل عمود فى الصحيفة • وكان نشاطها الكتابى ينحصر فى تأليف قصص غرامية تصوغ موضوعاتها بمنتهى المهارة والبلاغة ، ولكن فكرة جديدة اختمرت ذات يوم فى رأسها المتوقد ، فراحت تملأ بتلك الفكرة صفحات وصفحات من أوراقها الخاصة ، ثم تحتفظ بها فى غرفتها المنعزلة ، راجية أن تخلد بها اسم أسرة مارش ، وترفعه الى سماء المجد والفخار •

أما لورى فقد واظب على الذهاب الى الكلية ارضاء لجده ، ثم لم يلبث أن أغرته كبرياؤه بالاجتهاد ، فتصدر صفوف زملائه • وكان الفتى أثيرا عند أقرانه ، لمواهبه وأخلاقه وثرائه ، وكذلك لقلبه الطيب الذى كثيرا ما جلب له المتاعب فى سعيه الى معونة غيره • وكان لورى معرضا لأن يفسده التدليل كما أفسد كثيرين غيره من الشباب الموهوبين

المترفين ، ولكن الأقــدار شاءت أن تحصنه ضــد عوامل الشر بفضــل الرجل الطيب العجوز مستر مارش ، الذى أخــذ على عاتقه أن يوفــر له أسباب النجاح ، وأيضا بفضل أمومة مسز مارش التى رعته وسهرت عليه كأنه أحد أبنائها ، هذا الى احساسه بأن أربعا من الفتيات البريئات يحببنه ، ويؤمن به فى قرارة قلوبهن •

ولمــا كان اورى مرحا بطبعه ، فقد حــلا له أن يأخــذ بأساليب الغــزل العبث ، ومال الى التــأنق والتظرف ، وأفرط فى طلب المــرح والتسلية ، وانقاد الى الاستهانة ، فكان يتكلم باللغة العامية ، ويستعمل فى أحاديثه ألفاظا دارجة ، مما عرضه لعقوبة الفصــل أكثر من مرة • وكانت أساليبه فى دفــع العقــاب ، أن يعترف بخطئه نادما مستغفرا ، أو يتذرع بقــوة الاقناع التى وهبــه الله منهــا قسطا وفــيرا • وفى الواقع أن لورى كان يفخــر بقدرته على التملص من ورطاته الكثيرة ، فيثير اعجاب الفتيات الأربع بقصص انتصاراته على العرفاء الغاضبين ، والأساتذة الموتورين ، والغرماء الناقمين • وكانت الفتيات يعتبرن لورى وأصدقائه أبطالا ، لا تمل الأذن من سماع قصص مغامراتهم ، وكانت بسمات هؤلاء الأصدقاء الأبطال تدفىء صدور البنات ، كلما أتى بهم لورى معه الى البيت فى عطــلاته المدرسية •

وكانت آمى أكثر الفتيات نصيبا من هذه البسمات ، وأوفرهــن حظا من عناية الفتيان واهتمامهم ، وذلك لتفوقهــا عليهن فى فهم أسرار الفتنة والجاذبية ، ورعايتها الدائمــة لحســنها وأناقتها • وكانت ميج غارقة فى شئون حبهــا لجون ، فلم تلتفت الى أحد من هؤلاء الفتيان • وكان الخجل المتمكن من بث يبعدها عن الشبان المرحين ، ويجعلها تقنــع بالنظر الصامت اليهم ، وكلهــا عجب من جــرأة آمى معهم • أما جــو

فكانت بطبعها لا تميل الى التكلف والتزمت ، فراحت بطريقتها المعهودة تسعى الى تقليد عبارات هؤلاء السادة ، وأساليبهم من الحديث • وكان الفتيان جميعا يميلون الى جو • ولكن واحدا منهم لم يقع فى غرامها ، على العكس من آمى ، التى تفتحت قلوبهم جميعا لحبها ، وكثرت تنهداتهم على محراب حسنها • وما دمنا قد خضنا فى حديث العواطف ، فمن الطبيعى أن نتحدث عن « برج الحمائم » •

و « برج الحمائم » هو الاسم الذى أطلقه لورى على البيت الصغير الداكن ، الذى أعده مستر بروك ، ليكون عش الزوجية الأول • وكان لورى يقول انه خير مكان يضم الحبيبين الكريمين ، ولقد دخلاه متعانقين كزوج من الحمام • وكان البيت صغيرا جدا ، له حديقة خلفية ضيقة : وأمامه قطعة من الأرض فى حجم المنديل ، مكسوة بالنجيل الأخضر • وكانت ميج تود أن تقيم فى تلك الأرض نافورة جميلة ، وتغرس بعض الأشجار وتقيم حوضا من الزهور ، ولكنها اكتفت — اقتصادا للنفقات — بأن تضع فى مكان النافورة أصيصا ضخما ، وفى محل الأشجار بعض العيدان الصغيرة ، وغرست فى حوض الزهور عودا من الغاب يشير الى مكان البذور المزروعة • أما داخل البيت فكان جذابا ، ولو أردنا الدقة فى وصفه نقول : ان البهو كان ضيقا جدا ، ومن حسن حظ ميج أن لم يكن لديها معزف ، والا ما بقى فى البهو موضع لقدم • وكانت غرفة الطعام صغيرة ، لا تتسع لأكثر من ستة أشخاص ، وسلم المطبخ أقرب الى الرمز منه الى الحقيقة ، ولكن ميج ما لبثت أن اعتادت هذه الأوضاع ، مؤمنة بأنه ما من شىء فى هذه الدنيا يبلغ حد الكمال • وكان الأثاث والمفروشات مختارة بذوق سليم ، فبدا البيت جميلا لا عيب فيه ، حقيقة أنه كان يخلو من الموائد المغطاه بالمرمر والمرايا الضخمة ، والستائر الثمينة،

ولكن الأثاث البسيط ، والكتب والصور الجميلة ، كانت تغنى عن كل ذلك • وكان بجوار النافذة حامل للأزهار • وهدايا الأصدقاء منثورة هنا وهناك ، وكانت كلها رموز مودة واخلاص : فما من صانع مهما بلغت مهارته ، بقادر على أن يطرز الستائر الموسلين ، كما طرزتها يد آمى الفنانة • • • ولا كان فى الامكان تنظيم مخزن الطعام ، كما نظمته جو وأمها ، بتلك الروح الطيبة ، والأمانى الخالصة ، والتمنيات السعيدة ••• ولا كان فى مقدور أحد أن يرتب المطبخ الصغير ، كما رتبته حنة ، التى أعادت تصنيف صحونه وأوانيه عشرات المرات ، لتجعله مريحا للنظر • أما بث فقد أعدت لأختها ذخيرة وفيرة من المفارش والأكياس ، كفتها سنين طويلة ، حتى عيد زواجها الفضى •

ولعل الذين يستأجرون من يطرز لهم مثل هذه المفارش ، لا يحسون بمدى الفارق بين ما تصنعه الأيدى الأجيرة ، وما تصنعه الأيدى الحبيبة ، ففى ذلك العش الصغير وجدت ميج أكثر من دليل على العواطف الجميلة الجياشة ، اذ كان كل ما فيه — من نشابة الفطير فى المطبخ الى آنية الزهور فى البهو — ينطق بالمحبة العائلية ، والوفاء الخالص •

ومرت بالأسرة أوقات سعيدة ، انقضت فى رسم خطط المستقبل ، وزيارة الأسواق لشراء لوازم البيت الجديد • وكم وقعت أخطاء مضحكة ، وكم انطلقت ضحكات عالية ، أثارها لورى بطريقته الفكاهية فى مساومة التجار • • • فبالرغم من أنه شارف على التخرج فى كليته ، فقد ظل مرحا كما كان شأنه فى صباه • ودأب الصديق الوفى على أن يحضر فى زياراته الأسبوعية ، بعض أشياء تفيد ربة البيت ، منها

حقيبة ملأى بمشابك غريبة للغسيل ، ومنها أيضا كسارة للبندق تحطمت عند أول تجربة •• وكان من بين هداياه طلاء للسكاكين أفسد معدنها ، ومكنسة ثبت بالاستعمال أنها تنزع وبر السجاد وتترك الأقذار عليها ، وصابون قصد به مهمة الغسل ، فاذا به يسلخ الأيدى التى تستعمله • وأحضر لها ذات يوم نوعا من الصمغ ، ثم اتضح أنه لا يلصق بشىء الا بأصابع المشترى المخدوع ، وكذلك أحضر لها غلاية للماء يحتمل أن تنفجر فى أية لحظة •

وعبثا حاولت ميج أن تثنيه عن تقديم هذه الهدايا ، ولكنه كان مصرا على اعطاء أصدقائه كل ما هم فى حاجة اليه ، لذلك ظل يفاجئهم كل أسبوع بنزوة جديدة لا تحقق الغرض المقصود منها •

وأخيرا تم اعداد البيت الجديد ، واكتملت لوازمه حتى الصابون ، فقد حرصت آمى أن تضع الصابون الملون فى الغرف ، كل بما يناسبها ، كما قامت بث باعداد مائدة الطعام لأول وجبة يتناولها العروسان فى بيتهما الجديد •

سألت مسز مارش ابنتها ، وهى تتأبط ذراعها ، عند دخولهما مملكة ميج الجديدة :

ــ أراضية أنت ، وهل تشعرين بالسعادة ، وهل تحسين بأن البيت بيتك ؟

قالت هذا وقد ضمت الفتاة اليها فى حنان بالغ ، فأجابت ميج وهى تنظر الى أمها نظرة غنية بالمعانى :

— انى راضية كل الرضا يا أماه ، ولسانى يعجز عن وصف سعادتى وهنائى ، فشكرا لكم جميعا •

قالت آمى : وهى تتجول فى غرفة الاستقبال ، بحثا عن مكان مناسب تضع فيه التمثال البرونزى •

— لو كان لديها خادم أو خادمان ، لصار الأمر على ما يرام •

أجابت ميج فى هدوء :

— لقد تحدثت وأمى فى هذا الشأن ، وسوف أجرب اقتراحها أولا ، وما دامت « لوتى » قد تعهدت بقضاء حاجاتى الخارجية ، ومساعدتى هنا وهناك ، فان يبقى بعد ذلك سوى أعمال بسيطة ترد عنى الملل والكسل•

قالت آمى :

— ان لدى سالى موفات أربعة من الخدم •

فقاطعتها جو ، وكانت تلبس مرولة زرقاء ، وتقوم بتلميع مقابض الأبواب لآخر مرة :

— لو كان لميج أربعة خدم ، لضاق بهم البيت ، واضطر السيد والسيدة للمبيت فى خيمة بالحديقة •

قالت مسز مارش :

— ان سالى زوجة رجل ثرى ، وبيتها الكبير الأنيق فى حاجة الى خدم كثيرين ، ولكن ميج وجون يبدآن حياة متواضعة ، ويقينى أنهما سيجدان فى عشهما ، سعادة أصحاب القصور • وأعتقد أن الخطأ كل الخطأ فى انشغال الفتيات بالزينة والثرثرة ، عن أداء الأعمال التى تملأ

الفراغ فى بدء حياتهن • حين تزوجت كنت أتمنى أن تبلى ملابسى ، أو تتمزق ، حتى أشعر بلذة العمل فى أصلاحها ، بعد أن أضنانى الملل وضاق صدري بتافه الأعمال •

قالت ميج :

ــ ولماذا لم تدخلى المطبخ لتجربى حظك فى الطهى ؟ تقول سالى موفات انها تتسلى أحيانا بصنع بعض الأطعمة ، ولكنها تفسدها ، فيضحك الخدم منها •

قالت الأم :

ــ وهذا ما فعلته بعد فترة ، فقد دخلت المطبخ لا لألهو ، انما لأتعلم من حنا كيف أصنع الأشياء ، حتى لا يضحك منى الخدم • وكانت تسلية فى بداية الأمر ، ثم لم تلبث الظروف أن تغيرت ، وجاء اليوم الذى أصبحنا فيه غير قادرين على استئجار الخدم ، وعندئذ حمدت الله على تجارب الماضى التى مكنتنى من أن أخدم بيتى بنفسى ، وأصنع طعاما صحيا لبناتى الصغيرات • أما أنت يا ميج ، فتبدئين من حيث انتهت أمك ، وستفيدك الدروس التى تتلقينها ، عندما يثرى جون ، ويصبح رجلا عظيما • من واجب ربة البيت مهما كان بيتها فخما عظيما ، أن تلم بأسرار العمل فيه ، حتى تؤدى رسالتها باخلاص وأمانة •

استمعت ميج الى نصائح أمها فى احترام بالغ ، شأن السيدات المهتمات بأحاديث البيوت وأدواتها • قالت :

ــ أجل يا أماه ، ولست أشك فى صواب ما تقولين •

وسارت ميج بجانب أمها ، وصعدت معها السلم الى الدور العلوى ، ثم نظرت الى خزانة البياضات وقالت :

— أتعرفين يا أماه أن هذه أحب غرفة الى نفسى فى البيت الصغير كله ؟

وكانت بث تقوم بترتيب المفارش والبياضات فوق الرفوف ، وهى تحس بنشوة من السرور أمام المجموعات المختارة ، فلما سمعت قــول ميج ، ضحكت وقد تذكرت قصة لا تخلو من الفكاهة ، وكانت قصة العمة مارش التى تهددت ميج ، عندما صممت على الزواج من بروك ، وصحات بها قائلة : « اذا تزوجت من هذا البروك ، فلن أعطيك قرشا واحدا من مالى • ولكن غضب العجوز لم يلبث أن هدأ بعد وقت ، فندمت على سابق وعيدها ، وتحيرت كيف تتخلص منه ، وهى التى تعــودت أن تتمسك دائما بكلمتها • وهداها فكرها الى حل يرضيها ، فكان أن أمرت مســز كارول أم فلورنس ، بشراء كمية كبيرة من المفارش الثمينة ، ثم كلفتها بأن تقدمها هدية الى ميج • ولكن السر لم يخف طويلا ، وعرف أفراد الأسرة أن العمة هى صاحبة الهدية ، وكان من دواعى تفكهم ، تظاهر العجوز بالجهل ، كأن المفارش الثمينة لم تشتر من مالها ، ثم اصرارها على حرمان الفتاة العاصية من ممتلكاتها ، اللهم الا اللآلىء القديمة ، التى سبق أن وعدت بها أول عروس فى العائلة •

قالت العمة مارش ، وهى تقلب المفارش الحريرية وتفحصها بعين الخبرة :

— انه ذوق بديع يسرنى أن أراه فى البيت الجديد • لقد كان لى صديقة شابة لا تملك غير ست ملاءات للسرير ،ولكنها كانت تعزى نفسها عن هذا النقص بوفرة ما لديها من طاسات لغسل الأصابع •

قالت ميج فى رضا :

— ليس عندى طاسة واحدة ، ولكن هـذه المجموعة من المفارش تكفينى طول حياتى ، على حـد تعبير حنا •

وصاحت جو من الطابق السفلى ، تعلن قدوم لورى ، فنزل سيدات الأسرة للقائه اذ كانت زيارته الأسبوعية حدثا هاما فى حياتهن الهادئة •

وكان لورى قد أصبح فتى فارع الطول ، عريض المنكبين ، وكان آتيا من الطريق وقد ارتدى معطفا فضفاضا وقبعة واسعة ، ولم ينتظر أن تفتح له البوابة الصغيرة ، بل قفز من فوق السور المنخفض ، وتقدم نحو مسز مارش يصافحها بحرارة ويداه مبسوطتان :

— ها أنا ذا قد جئت يا أماه ، وكل شىء على ما يرام •

وكانت السيدة قد ألقت عليه نظرة فيها تساؤل عامر بالحنان ، فأجابها بما مضى من الكلام مطمئنا ، وعيناه الجميلتان تفيضان بالمرح والسرور •

قال لورى وهو يعطى ميج طردا ملفوفا ، ويشد ضفيرة بث مداعبا ، ويحدق فى مرولة جو الكبيرة ، وينظر الى آمى فى ابتهال ساخر :

— هـذه لمسز بروك ، مع تهنئة الصانع وتحيته ••• تمنياتى لك يابث ••• ما أبهى منظرك يا جو ••• أما أنت يا آمى فجمالك أكثر من أن يتوافر لسيدة واحدة •

ثم جعل يصافحهن واحدة بعد واحدة ، قالت ميج :

— أين جون ؟

قال :

ـ ذهب يعد الترخيص لحفلة غد •

وسألته جو ، وكانت رغم بلوغها التاسعة عشرة من عمرها ، لا تزال تصر على الاهتمام بأخبار الرجال :

ـ من غاز فى المبارة الأخيرة يا تيدى ؟

قال :

ـ فريقنا بالطبع ، ليتك كنت معنا لترى ما حدث •

سألته آمى ، وهى تبتسم ابتسامة ذات مغزى :

ـ وكيف حال مس راندل الجميلة ؟

فضرب لورى صدره بيده ، وتنهد بحرارة ، وقال :

ـ أشد قسوة من ذى قبل • ألا ترين ذبول وجهى لجفائها ؟

قالت بث ، وهى تنظر الى اللفافة باهتمام :

ـ أسمعنا آخر نكتة يا لورى ، وأنت يا ميج افتحى هذه اللفافة لنرى ما فيها •

وفك لورى أربطة اللفافة ، وأخرج منها لعبة على شكل حارس يحمل جرسا • فضج البنات بالضحك • قال الفتى :

ـ انها شىء مفيد للبيت فى حالة الحريق ، أو عند وجود اللصوص ، فحينما يغيب جون يا ميج ، وتشعرين بالخوف ، ما عليك الا أن تدفعى بهذا الجرس الى النافذة الأمامية ، فيوقظ رنينه الجيران فى لحظة خاطفة • فكرة جميلة ، أليس كذلك ؟

وهز الجرس يجربه ، فانطلق منــه رنين عال يكاد يصم السمع ، فأسرعت البنات الى آذانهن يغطينها بأيديهن • قال :

ــ انه رمز اعتراف بجمائلك الكثيرة يا ميج ، والحديث عن الاعتراف بالجميل يذكرنى بأنك مدينة بالشكر لحنا ، لأنها أنقــذت كعكة العرس من الدمار ، فقد رأيتها ، وأغرانى شكلها الجميل بانتزاع قضمة كبيرة منها ، ولكن حنا تصدت لى ، ودافعت عن الكعكة دفاع الأبطال •

فقالت ميج بلهجة الأم العجوز :

ــ ان تصرفاتك الصبيانيــة تدهشنى يا لورى ، ألا تكبر أبدا ؟ !

أجاب الفتى ، وقد كاد رأسه العالى يمس الثريا المدلاة من السقف :

ــ انى أبذل جهدى يا سيدى ، ولكنى لا أستطيع أن أنمــو أكبر من هذا ، وأخشى أن الستة الأقدام التى بلغتها طولا ، هى أقصى ما يمكن أن يصل اليه رجل فى هذه الأيام السيئة •

ثم قال معقبا :

ــ ان تناول الطعام فى هذا العش المزدهر الجميل انتهاك لقداسته ، ولمــا كنت فى منتهى الجوع ، فأنا أقترح تأجيل الجلسة •

قالت ميج ، وهى تسير مبتعدة :

ــ أنا وأمى سننتظر عودة جــون ، ولا يزال أمامنا بعض الأشياء التى تحتاج الى التنسيق •

وقالت آمى ، وهى تضع قبعة جميلة فوق خصلات شعرها الذهبى :

ــ أما أنا وبث فسنذهب الى كيتى بروان لنحضر مزيدا من الزهور لحفلة لغد •

فالتفت لورى الى جو وقال :

ــ تعالى معى يا جو ، ولا تدعينى وحدى ، فأنا غاية فى الانهاك والتعب ، وليس فى مقدورى أن أذهب الى البيت دون مساعدة • لا تخلعى مرولتك غانها غاية فى الأناقة •

ولم تأبه جو لكلامه ، ومدت له ذراعها يتكىء عليها فى سيرة المنهك ، ثم قالت :

ــ تيدى ، لى معك حديث جدى عن حفلة غــد : أريد أن تسلك سلوكا حسنا ، ولا تقطع الزينات المعلقة ، ولا تفسد شيئا مما أعددناه ، فهل تعدنى بذلك ؟

قال :

ــ وهلا تريدين أن أمرح أيضا ؟

قالت :

ــ المجال لا يسمح بالمزاح ، فيجب أن نكون جادين •

قال :

ــ لا أستطيع أن أكون جادا أبدا : فليس الجد من طبعى بل من طبعك أنت •

قالت :

ــ ثم أرجوك أن لا تنظر الىّ فى أثناء الحفل وإلا ضحكت •

قال :

— لن ترينى فى أثناء الحفل ، لأنك ستكونين مشغولة بالبكاء ، وسوف تغشى الدموع عينيك فلا تتبينين شيئا مما حولك .

قالت :

— أنا لا أبكى أبدا إلا فى المصائب الكبرى :

قال بابتسامة ذات مغزى :

— كأن يذهب صديقى الى الكلية مثلا ؟ !

قالت :

— لا تكن مغرورا ، فما بكيت لرحيلك إلا تضامنا مع أخواتى ..

قال :

— أصبت يا جو ، ولكن خبرنى بالله عليك ، كيف كانت أحوال جدى هذا الأسبوع ؟ أكان طيبا هادئا ؟

قالت فى جدة :

— جدا .. ولكن لم هذا السؤال ؟ هل وقعت فى مأزق وتريد أن تعرف وقع الأمر عليه ؟

وتوقف لورى عن المسير : وقد بدا عليه الألم ، قال :

— أتعتقدين يا جو أننى كنت أجرؤ على النظر الى أمك ، إذا كان فى الأمر شىء ؟

قالت :

— لا .. لا أعتقد ذلك .

وارتاحت نفسه للهجتها الصادقة ، وقال وهو يواصل سيره :

ــ إذا لا تبالغى فى الشك ، فلا أريد من جدى سوى بعض المال •

قالت :

ــ إنك تسرف فى إنفاق المال يا تيدى •

قال :

ــ إنى لا أنفق شيئا ، ولكن النقود تذهب قبل أن أشعر بوجودها •

قالت جو بحرارة :

ــ إنك سخى كريم ، لا ترد عن بابك محتاجا : وليس من طبعك أن ترفض رجاءً لأحــد • لقد سمعنا بما فعلته لصديقك هانشو ، ولن تجد من يلومك إذا كنت تنفق مالك فى مثل هذه الوجوه الكريمة •

قال :

ــ لقد خلق هانشو من الحبة قبة ، وما كنت ترضين لى أن أتــرك صديقا يلقى بنفسه الى التهلكة من أجل جنيهات قليلة • إنه فتى نبيل ، يساوى عشرات من أمثالنا نحن الكسالى المترفين ، أفكان يصح أن أتخلى عنه فى محنته ؟

قالت :

ــ كلا بالطبع ، ولكنى لا أرى جدوى فى شرائك سبعة عشر صدارا ، وما لا يحصى من أربطة العنق ، ثم قبعة جديدة فى كل مــرة تعــود الى البيت • ظننت أنك جاوزت مرحلة المبالغة فى التأنق ، وتخلصت من آثارها الغرور ، ولكن الداء يعاودك أحيانا فى أشكال متجددة ، كأن تصفف شعرك كالعبيد ، أو تلبس سترة ضيقة أو تختار قفازات برتقالية اللــون ، أو تسير

بحذاء عجيب الطراز . ولو كانت هذه « الموداث » القبيحة رخيصة النفقات ما قلت شيئا ، ولكنها تكلفك مالا كثيرا ، وهو أمر لا يسر .

وانفجر لورى ضاحكا ، ومال رأسه الى الوراء . فسقطت قبعته الواسعة على الأرض ، وداست عليها جو ، وقد انتهز فرصة هذه الإهانة ، فراح يمدح مزايا الملابس الخشنة الجاهزة ، ثم قال وهو يطوى القبعة ويدسها فى جيبه :

ـ دعى الوعظ والإرشاد ، فقد نلت كفايتى من النصائح هذا الأسبوع وأحب أن أمتع نفسى بالهدوء حين أعود الى البيت . أعدك بإصلاح شأنى ، حتى يرضى عنى الأصدقاء .

فقالت جو فى عنف :

ـ اترك شعرك ينمو ، أتركك فى سلام . أنا لست أرستقراطية ، ولكنى لا أحب أن يرانى الناس مع رجل يشبه المصارعين .

ولم يكن لورى مغرورا بطبعه ، وإن كان قد ضحى فى سبيل الأناقة بشعره المجعد الجميل ، فقال يقنعها :

ـ الشعر القصير يناسب الحياة الدراسية ، ولذلك ارتضيته . ثم خفض صوته ، وقال بلهجة الأخ الأكبر :

ـ على فكرة يا جو ، لقد غرق باركر الصغير حقيقة فى حب آمى ، وأصبح يفرض فيها الشعر ولا يمل من الحديث عنها ، وأحيانا يشرد باله من أجلها بشكل يدعو الى القلق . ألا ترين من الأفضل أن يقضى على عواطفه هذه فى مهدها ؟

وبدا الاستنكار على جو ، كأنما آمى وباركر ليسا فى أوائل الحلقة الثانية من عمرها • قالت :

ـ طبعا ، يجب أن نقضى على هذه العاطفة ، فنحن لا نريد زواجا جديدا فى الأسرة قبل مضى سنوات • ترى ماذا يظن هؤلاء الأولاد بنا ؟ رحمتك يارب !!

وهز لورى رأسه أسفا على ضيعة الأخلاق فى هذا الزمن ، ثم قال :

ـ إن الوقت يمر سريعا ، ولست أدرى الى أى نهاية نصير • إنك ما زلت طفلة ، ولكن دورك آت عن قريب ، وسوف نبقى بعدك وحدنا ، ولا رفيق لنا إلا الحزن والنحيب •

قالت :

ـ لا تخف ، فشكلى أبعد ما يمكن عن الجمال ، ولن يرغب أحد فى الزواج بى ، وهى نعمة من الله ، إذ لابد أن تبقى فى البيت عانس من أفراد الأسرة •

فقال لورى ، وهو يسترق النظر إليها ، وقد صعد الدم الى وجهه الأسمر :

ـ إنك لا تعطين أحدا فرصة التودد إليك ، ولا تهتمين بإظهار النواحى اللطيفة فى شخصيتك ، وإذا لاحظ صديق هذه النواحى من تلقاء نفسه ، وأبدى إعجابه بك ، تقابلينه ببرود ، ثم تبعدينه فى عنف ، كأنك شوكة لا يصح أن ترى أو تمس •

قالت تغير الموضوع وقد بدا التحدى فى وجهها :

ـ دعك من الحديث فى هذا الموضوع ، فأنا لا أميل إليه ، وعندى

من المشاغل ما يقينى التفكير فى سخافات العواطف ، وأعتقد أن فصم عرى الأسرى بهذه الطريقة أمـر فظيع ، كفانا مـا حدث بزواج ميج ، فقـد أصبحنا ولا حديث لنا إلا عن الحب والمحبين • ليس فى نيتى أن أخاصمك اليوم ، فخير لنا أن نتكلم فى أمر آخر •

ومهما تكن مشاعر لورى فى تلك اللحظة ، فقد اختار أن ينفث عما فى نفسه بصفير طويل هادىء • وعندما وقف يودع جو عند البوابة قال :

— اذكرى كلماتى يا جو ، وتذكرى أن دورك يأتى بعد ميج •

الفصل الخامس والعشرون

الزفاف الأول

كانت ورود الصيف الزاحفة فوق مدخل البيت ، مزدهرة متفتحة ، تستقبل شمس الصباح فى نشوة ، وقد غمرها السرور مثلما غمر الأصدقاء والجيران . والحق أن هذه الورود كانت نعم الجار والصديق ، وقد احمرت خدودها انفعالا ، وهى تتمايل مع النسيم ، وكل منها تهمس فى أذن الأخرى بما رأت . وأطل بعضها من نوافذ غرفة الطعام ، حيث تقام وليمة العرس ، وتسلق بعضها الجدران لينظر من النوافذ العليا الى الشقيقات وهن يساعدن العروس فى ارتداء ملابسها ، أما بعضها الآخر فكان يميل تحية للقادمين والذاهبين فى حديقة البيت ورواقه وبهوه . واشتركت الورود كلها — من المتفتحة اليانعة الى البرعم الصغير فى نشر عبيرها العطر ، احتفالا بزواج السيدة النبيلة ، التى طالما أحبتها ورعتها .

وكانت ميج فى هذا اليوم أشبه بوردة من هذه الورود . وجهها يسطع بما فى قلبها من إحساسات حلوة ، وسعادتها تضفى عليها من الرقة والحسن والجاذبية ما يتحدى أروع آيات الجمال . وما كان جمالها فى حاجة الى معونة الحرير أو الدنتلا أو زهور البرتقال ، فكانت تقول : « لا أحب أن أبدو اليوم على غير طبيعتى ، ولا أريد زفافا من الطراز الحديث ، ويكفينى أن يرانى أحبائى وأعزائى ، كما اعتادوا أن يرونى دائما » .

ولقد صنعت ميج ثوب زفافها بنفسها ، وحاكت فيه آمالها الناعمة

وغزلها البرىء ، كما قامت أخواتها بتصفيف شـــعرها الجميل ، وقنعت العروس من الزينة بزنبقات بيضاء جاءتها هدية من جون .

ولما أكملت زينتها ، صاحت آمى وهي تتأملها بسرور بالغ :

ــ إنك تبدين كما كنت دائما ، أختنا الحبيبة ميج ، وقد ازددت جمالا وبهاء ودلالا ، فدعينى أقبلك ، إذا كان هذا لا يفسد ثوبك .

قالت :

ــ وهذا يرضيني تمام الرضا ، فعانقتني وقبلتنى واحدة فواحدة ، ولا تأبهن بثوبي ، فبودي لو كثرت التجاعيد فيه بسبب حبكن العظيم .

وفتحت ميج ذراعيها لشقيقاتها ، فلذن بصدرها مشرقات الوجوه ، واستنفذ العناق فترة : أحس الفتيات فيها أن حبها لجون لم ينل من حبها لهن ، ولم يضعف قليلا أو كثيرا من إخلاصها لأسرتها .

قالت :

ــ سأذهب لأساعد جون فى وضع رباط عنقه ، ثم أجلس مع أبى بضع دقائق فى المكتبة .

وأسرعت تؤدى الواجبين ، ثم راحت تتبع أمها حيث تذهب ، مدركة أنه على الرغم من الابتسامة التى تعلو وجهها ، فإن الحزن يعتصر قلبها ، لخروج أول طائر من عشها ، والألم يغشى نفسها لقرب فراق ابنتها .

ولننتهز فرصة انشغال الفتيات بتزيين أنفسهن ، وتنظيم هندامهن ، فنتحدث قليلا عما فعله مرور الأعوام الثلاثة ، من تغـــير فى مظهـرهن الخارجي : كان شعر جو قد طالت خصلاته وغزرت واسترسلت ، وأصبحت ملائمة لرأسها الصغير وعودها الفارع . وكانت مفاصل ساقيها قد قويت ،

فاستطاعت أن تحمل ثقل جسمها فى سهولة ويسر ، ولكن بغير رشاقة . واصطبغ خدها بنضرة الشباب ، ولمع فى عينيها بريق هادىء ، ولان لسانها الحاد فى هذا اليوم ، فلم يعد ينطق إلا بالألفاظ الرقيقة .

وكانت بث قد ازدادت ذبولا ونحولا ، وهدأت كثيرا عما كانت عليه من قبل ، واتسعت عيناها الجميلتان الرحيمتان ، وانبعثت منها نظرات ليس فيها أثر للحزن ، وإن كانت تدعو الى الاشفاق . وكانت مستبشرة بتماثلها للشفاء ، لا تشكو ولا تتذمر ، ولكن نظراتها تلك ، كانت مرآة صادقة لآلام دفينة ، تحاول أن تخفيها عن أهلها .

وكانت آمى زهرة الأسرة اليانعه ، فقد اكتملت أنوثتها ونضجت ، رغم أنها لم تزل فى السادسة عشرة من عمرها . ولم تكن جميلة فى الواقع ، ولكنها كانت على قسط كبير من الجاذبية والرشاقة ، ينبعث حسنها الحقيقى من حركاتها ، وتكوين يديها ، وانحناءات جسمها ، وتموج ثوبها ، وتهدل شعرها . ولم تكن آمى تدرك مدى جاذبيتها ، التى تفوق الجمال فظلت على عهدها حزينة لأن أنفها لم يتحول الى الشكل الرومانى الذى تشتهيه . وكذلك لاتساع فمها وبروز ذقنها ، وكانت هذه التقاطيع التى تضيق بها ، هى مبعث سحرها الفياض ، ولكنها لم تلتفت الى هذه الحقيقة ، وراحت تعزي نفسها بنعومة بشرتها ، وزرقة عينيها ، وغزارة شعرها الذهبى .

وارتدت الفتيات الثلاث أفضل ثيابهن الصيفية ، وكانت مصنوعة من الحرير الفضى الداكن ، وحلين شعورهن وصدورهن بالورود الحمراء ، فبدون فى ذلك اليوم الخالد ، جميلات مشرقات بغير تصنيع أو إفراط فى الزينة .

وكانت مراسيم الزفاف بسيطة ، وكل ما فى الحفل طبيعى ، وأحوال

البيت تسير فى طريقها المعتاد ، حتى انزعجت العمة مارش ، حين رأت العروس تهرول الى لقائها مرحبـــة ، والعريس يثبت بيديـه إكليلا من الزهور ، ثم شاهدت الأب يصعد السلم وقد تأبط زجاجتين من النبيذ وراعتها هذه التصرفات المستهجنة ، وضايقها أن يخرج أقاربها على المألـــوف ، فصاحت بالعروس وأهلها تقول :

ــ والله إن تصرفاتكم أعجب ما يكون • أما أنت يا فتاة ، فما كان ينبغى أن تظهرى أمام المدعوين إلا فى اللحظة الأخيرة •

فقالت ميج :

ــ إنى لا أستعرض نفسى يا عمتى ، ولن يأتى من ينتقد ثوبى ، أو يقدر تكاليف عرسى ، وسعادتى أعظم من أن أقيم وزنا لما يقول الناس عنى أو يظنون بى • إنى أحتفل بزواجى على أسلوبى الخاص •

ثم التفتت الى جون ، الذى كان مشغولا بتثبيت إكليل الزهور ، وقالت :

ــ إليك مطرقتك يا عزيزى جون •

ثم أسرعت اليه تساعده فى عمله الذى ما كان يجب أن يقوم به عريس موقر ، ولم يقل مستر بروك لميج « شكرا » ، ولكنه حين انحنى ليأخذ المطرقة قبل العروس الصغير خلف الباب ، ونظر اليهـــا نظـرة مؤثرة ، جعلت العمة مارش تخرج منديلها ، وتمسح به الدمـــوع التى غمرت عينيهـــا •

وعلا صوت ارتطـام ، صـــاح بعـــده لورى وضحك ، ثم قال مستنجدا :

ـ يا للسماء !! لقد قلبت جو الكعكة مرة ثانية •

وساد البيت هرج قصير ، انتهى بوصول وفد من الأقارب والأصحاب •

وعندما ازدحمت الغرفة بالمدعوين ، وعلا رأس لورى فوق رءوس الموجودين ، همست العمة العجوز فى أذن آمى تقول :

ـ لا تدعى هذا الشيطان الصغير يقترب منى ، فهو يضايقنى أكثر مما يضايقنى البعوض •

أجابت آمى :

ـ لقد أخذنا عليه وعدا بالهدوء ، وفى مقدوره أن يكون عاقلا ان أراد •

وتسللت الى الفتى تحذره ، ليحتاط لنفسه من غضب التنين العجوز ، ولكن التحذير أغراه بمعاكسة العمة ، فسار خلفها يتودد اليها ، حتى ضاقت به أشد الضيق •

ولم يكن هناك موكب للعرس ، ولكن حين احتل مستر مارش والزوجان الشابان مقاعدهم تحت أقواس الزهور والورود ، والتفت الأم والأخوات حول ميج ، كأنما كرهن أن يتخلين عنها ، ساد صمت عميق ، ثم بدأ الأب يتلو الطقوس ، وكان بالغ التأثر حتى تخاذل صوته مرارا ، مما أكسب الموقف جلالا ووقارا • واضطرب العريس ، وارتجفت يده ، وتمتم باجاباته فلم يسمعه أحد • أما ميج فقد نظرت الى عينى زوجها مباشرة ، وأجابت فى صوت رقيق : « نعـم » ، وقد

بدت آية فى الثقة والطهارة ، مما أثلج صــدر أمها ، ومس قلب عمتها العجــوز •

وأحست جو برغبة شديدة فى البكاء ، ولكنها كانت تعلم أن عينى لورى الماكرتين ترقبانها فى خليط من السرور والانفعال : فكبتت دموعها ، وتغلبت على أشجانها ، وبذلك خرجت من الموقف المؤثر منتصرة •

وظلت بث طول الوقت تخفى وجهها وراء كتف أمها ، أما آمى فقد وقفت مثل تمثال رشيق ، وكانت الشمس تلقى عليهــا شعاعا ذهبيــا مس جبينها الناصع ، وأضاء الزهرة التى تحلى شعرها •

وما ان تمت المراسيم حتى صاحت ميج تقول :

ــ القبلة الأولى لأمى •

ثم انحنت وطبعت على شفتيها قبلة حــارة من أعمــاق قلبهــا • وكانت العروس خــلال الدقائق التى تلت عقــد الزواج ، أشبه بوردة متفتحة الأكمام ، فأحاط بها الحاضرون يغمرونها بالقبل ، ويتقاضــون منها حقوق المحبة كاملة • ولم يتخلف عن واجب التهنئة أحد ، من مستر لورنس العجــوز الى حنا التى أقبلت تعانقهــا ، وهى تجهش بالبــكاء فى صوت مسموع ، وتقول :

ــ فليباركك الله يا عزيزتى مائة مرة ، ان كعكة الزفاف لم تصــب بسوء ، وكل شىء على ما يرام •

وعلى أثر ذلك انفض الحفل ، وترددت عبــارات التهنئة على كل لسان ، وانطلقت ضحكات المرح مدوية ، فكانت أصدق صــدى للفرح الذى يملأ القلوب • ولم يشمل الحفل تقــديم الهدايا ،لأن الهــدايا

كانت قد أرسلت قبل ذلك الى البيت الصغير ، ولم يكن هنــاك أيضــا افطــار بالمعنى الصحيح ، ولكن كعكة العرس والفاكهة المزينة بالزهور ، كانت تملأ المكان • وقد ابتسم مستر لورنس والعمــة مارش ، وهــزا كتفيهما ، حين دارت عليهما الكئوس ، فلم يجدا فيهــا ســوى شراب الليمون والقهوة ، ولم يتكلم أحد فى موضــوع الشراب ، حتى ظهــر لورى أمام العروس ، وبين يديه صينية محملة بالطعام ، وفى وجهه سيماء الحيرة والتساؤل ، وأصر الفتى على خدمة العروس بنفسه ، ثم همس فى أذنهــا يقــول :

— هل هشمت جو زجاجات الشراب كلها ؟ أظن أننى رأيت بعضها هذا الصباح ، أو لعلى أكون قد توهمت ذلك ؟

فقالت ميج :

— لا ••• لست واهما ، فقد تفضــل جدك وأهدانا خير نبيــذه ، وكذلك فعلت العمة مارش ، ولكن أبى احتفظ بقدر قليل منه لبث ، وأرسل الباقى الى معسكرات الجنود • وأظنك تعــرف أن أبى لا يقــدر شرب النبيذ الا فى حالات المرض ، وأمى تكره أن تقدم الخمر فى بيتها •

وكانت ميج تتكلم فى جــد ، وكانت تتوقــع أن ترى لورى يقطب جبينه أو ينفجر ضاحكا من قولها ، ولكنه لم يفعــل شــيئا من ذلك ، انما نظر اليها برهة ثم قال :

— انى أحترم هذه المبادىء القديمة ، ولقد شاهدت للخمر أضرارا كثيرة ، تجعلنى أتمنى لو كان للنساء كلهن هذا التفكير السليم •

قالت ميج بلهجة يشوبها القلق :

— أرجو ألا تكون قد تعلمت هذه الحكمة عن تجربة شخصية •

قال :

ـ لا ... أؤكد لك ، ومع ذلك لا تفرطى فى حسن ظنك بى ، فليس زهـدى فى الخمر عن ايمان بل عن مزاج لا يميل اليها . لقد نشـأت فى بيئة ينساب فيها الشراب كما ينساب المـاء بلا أدنى ضرر ، ولكنى لم أتعلق به من تلقاء نفسى : أما اذا قدمتها لى فتاة جميلة فهل ترين أن أردها ؟

قالت :

ـ ان لم تردها من أجل صالحك ، فليس أقل من أن تردها اكراما لنا . تعال الى جانبى يا اورى ، وعـدنى أن تقلع عن الخمر ، أكمـل جميلك ، واجعل من هذا اليوم أسعد أيام حياتى .

وتردد الفتى لهذا الطلب المفاجىء الخطير ، وكانت ميج تعلم أنه يحترم وعوده مهما تكن النتيجـة ، وكانت تشعر بقوتهـا ، وتحب أن تستخدمها لخير صديقها ، فنظرت اليه فى صمت ، وقـد أشرق وجهها سعادة وايمانا . قالت بابتسامة حلوة .

ـ ان اليوم يومى ، فلا يصح أن ترفض لى طلبا .

ولم يقو لورى على الرفض ، فأجاب مبتسما وهو يصافحها باخلاص وحرارة :

ـ أعدك يا مسز بروك .

قالت ميج :

ـ أشكرك شكرا كثيرا ، كثيرا جدا .

ورفعت جو يدها بكوب من عصير الليمون ، تحيى لورى بابتسامة الرضا والاستحسان ، وصاحت به تقول :

ــ فلنشرب نخب عزيمتك القوية طول العمر يا تيدى .

وشربوا نخب العهد الذى قطعه لورى على نفسه ، وحافظ عليه بايمان على الرغم من المغريات الكثيرة . وقد انتهزت الفتيات بحكمتهن الفطرية هذه اللحظة ، فأدين لصديقهن خدمة جليلة ، ظل يشكرهن عليها طول الحياة .

وبعد الغذاء تفرق المدعوون فى جماعات صغيرة ، يسيرون فى البيت والحديقة ، ويمتعون أنفسهم بالشمس المشرقة فى الداخل والخارج . وتصادف أن وقفت جو وميج معا وسط رقعة مغطاة بالحشائش الخضراء ، فطرأت لذهن لورى فكرة لطيفة كانت خير ختام لهذا الحفل البسيط . صاح بالحاضرين قائلا :

فايمسك المتزوجون كل بيد الآخر ، ويدور الزوجان حول العروسين راقصين كما يفعل الألمان ، أما العزاب ، فيرقصون أزواجا خارج الحلقة

ثم أمسك بيد آمى ، وجعل يرقص معها بخفة ورشاقة ومرح ، فحذا الباقون حذوهما دون اعتراض . وبدأت الحلقة بمستر ومسز مارش ، ثم بالعم والعمة كارول ، وانضم الآخرون سريعا ، حتى سالى موفات ، فبعد أن ترددت قليلا ، دفعت ند الى الحلقة ، واشتركت فى الرقص . وكان ألطف ما فى هذه اللعبة المرحة أن تقدم مستر لورنس من العمة مارش العجوز ، يدعوها الى مراقصته ، فما كان منها الا أن تأبطت عصاها ، وهبت فى نشاط ترقص حول الزوجين . ودار الرقص فى الحلقة ، وانتثر

الشباب فى أرجاء الحديقة ، كأنهم فراشات جميلة تمرح فى ظهيرة يوم من أيام الصيف •

وأخيرا تعب الراقصون ، فركنوا الى الراحة وهم يلتقطون أنفاسهم ، وكان هذا خير ختام للحفلة المفاجئة ، التى جاءت دون سابق اعداد •

قالت العمة مارش لميج ، وهى تهم بالانصراف :

ــ أرجو لك الخير يا عزيزتى ، أرجو لك الخير من صميم قلبى ، ولكنى أعتقد أنك ستندمين على هذا الزواج •

ثم قالت للعريس ، وهو يقودها الى العربة :

ــ لقد فزت بكنز ثمين أيها الشاب الصغير ، فبرهن على أنك جدير بــه •

وقالت سالى موفات لزوجها ، وهما يتجهان لمركبتهما الفاخرة :

ــ هذا أجمل عرس شهدته منذ عهد طويل يا ند ، ولست أدرى سر جماله ، وقد خلا من كل تنظيم واعداد •

وقال مستر لورنس العجوز ، وهو يتحسس جوانب كرسيه المريح •

ــ اسمع يا لورى ، يسرنى أن تندمج فى مثل هذا النوع من الحياة ، فاختر لك شريكة من أولئك الفتيات الصغيرات ، وبذلك تسعدنى وترضينى •

فقال اورى ، وهو ينزع الوردة التى وضعتها جو فى عروة سترته ، وقد تمثلت فى لهجته الطاعة على غير العادة :

ــ سأبذل جهدى فى ارضائك يا سيدى •

ولم يكن عش الزوجية بعيدا ، فسار العروسان عليــه مشيا على

الأقدام ، وكانت هى رحلة الزواج الوحيدة التى تمتعت بها ميج • وعندما خرجت الفتاة من بيت أبيها ، فى ثوب ملون وقبعة بيضاء ، أحاط بهـا الأهل والأصدقاء ، يودعونها بحرارة ، كأنما هى فى طريقها الى رحلة طويلة • والتفتت اليهم ميج شاكرة ، ثم تعلقت بأمها وهى تقول فى صدق واخلاص :

ـ أرجو ألا تشعرى بأنى تركتك يا أماه ، ولا تظنى أن حبى لجون نال من حبى لك •

وانثنت الى أبيها تقول :

ـ سأزوركم كل يوم يا أبى ، وأرجو آلا تضعف مكانتى فى قلوبكم بعد الزواج ، وسنقضى مع بث أوقاتا طويلة جميلة ، وستأتينى الفتيات الأخريات بين آن وآن ، ليضحكن من جهادى فى ادارة شئون البيت ••• شكرا لكم جميعا على ما هيأتم لى من زفاف سعيد ••• ومع السلامة ••• مع السلامة •••

ووقفوا يرقبونها بوجوه ممتلئة بالحب والأمل والفخار ، وتبعتها عيون الوفاء ، وهى تسير مستندة الى ذراع زوجها ، والزهور ملء يديها ، وشمس الصيف تضىء جبينها المشرق السعيد •

وهكذا بدأت ميج حياتها الزوجية •

الفصل السادس والعشرون

محــاولات فنيــة

ليس من السهل على أهل الطموح من الشباب أن يفرقوا بين الموهبة والعبقرية ، فالتفرقة بين هذه وتلك تأتى مع الزمن والتجربة ، وقد حاولت آمى أن تصل الى نتائج مرضية خلال تجاربها الفنية الطويلة ، ولكنها لم تكن تفرق بين الحماســة والوحى الفنى ، فراحت تجرب حظها بجرأة الشباب فى كل درب من دروب الفن • وعندمــا هبطت حماستها فى فن « الفطائر الصلصالية » ، اتجهت الى الرسم بالقلم والمداد ، فكشفت رسومها عن خبرة واستعداد • ولكن الجهد أرهق عينيها ، فهجرت القلم والمــداد الى محاولة جديدة جريئة ، هى النقش على الخشب بالمكواة الحارقة •

وظلت الأسرة طوال هذه النوبة الفنية الجديدة ، فى رعب دائم من الحريق ، وكانت رائحة الخشب المحروق تفوح فى أرجــاء البيت على الدوام ، والدخان يتصاعد من حجرة السطح بشــكل مزعج • وكانت المكاوى المتوهجة متناثرة هنا وهناك ، ولم تكن حنا تأوى الى فراشها الا وبجانبها دلو من المــاء وناقوس العشاء ، لتستعملهما اذا شبت النار • وأسفر نشاط آمى عن جهود فنية عظيمة : فعلى لوح العجين نقش وجــه روفائيل الرسام الشهير ، وعلى فوهة أحد براميل البيرة أطل باخــوس اله الخمر وعلى آنية السكر ظهرت صورة طفل يغنى ، هذا الى محاولات كثيرة لرسم روميو وجوليت فى كل من أركان البيت •

وكان طبيعيا أن تنتقل الفنانة الصغيرة الى الرسم بالزيت ، بعد أن أصــابت المكواة أصابعها الجميلة بحروق كثيرة ، فوضعت همها فى فنها

الجديد ، انصرفت اليه بهمـة لا تعرف الكلل • وأعطاها صديق فنان بعض الاطباق والفرش والألوان التى استغنى عنها ، فبدأت تخلط الألوان وترسم منها مناظر برية وبحرية لا تشبه شيئا فى البر أو البحر • وكانت تبالغ فى تصوير المواشى ، فترسم الحيوانات ضخمة تستحق أعظم الجوائز فى أى معرض زراعى ، وكانت ترسم السفن فى أوضـاع خطيرة ، تبعث دوار البحر فى رءوس أكثر البحـارة خبرة بالملاحة ، هـذا الى الأخطاء المضحكة ، التى تدل على جهلها التام بأبسط القواعد المعروفة فى بناء السفن •

وكانت صور الفتيان السمر ، والراقصات ذوات العيون السود ، توحى اليك بطريقة موريللو الرسام ، وكانت الظلال الداكنة فى الوجوه بما عليها من خطوط وضعت فى غير موضعها الصحيح ، تذكرك بأسلوب الرسام رامبراندت ، كما باتت جهودها فى محـاكاة روبنز بتصـويرها نساء سمينات وأطفـالا منتفخى الأجسـام • وظهـرت تجاربهـا فى الاقتداء بتيرنر فى رسـم العواصف العامرة بالرعد الأزرق والصـواعق البرتقالية والمطر البنى والسحب القرمزية ، التى وضعت فى وسطها بقعا طماطمية اللون ، قـد تدل على الشمس ، أو تدل على قميص بحـار ، أو ثوب ملك حسبما يسر الناظر الى الصورة أن يعتقد •

وانتقلت من الرسم بالزيت الى الرسم بالفحم ، فصنعت صـورا لجميع أفـراد العائلة ، وعلقتهـا على الحائط فى صف واحـد ، ولكن نظرات العيون التى رسمتها كانت زائغة ، وكانت الوجـوه مغبرة كأنما خرج أصحابها لتوهم من صـندوق الفحم • وحـين استبدلت الفحـم بالقلم ، تحسنت الصور ، واقترب الشبه من الحقيقة ، فأتقنت التعبير عن شعر بث وأنف جو وفم ميج وعينى لورى • وأعقب الفحم عود الى فن الطـين والصلصال ، فملأت آمى أرجـاء البيت بتماثيل ممسـوخة

لأصدقائها ومعارفها ؛ وكان بعض هذه التماثيل يسقط على رءوس الناس من فوق الرفوف التى ازدحمت بها واتخذت من الأطفال نماذج لتماثيلها ، حتى ضاق الأطفال ذرعا بأفعالها الغريبة ، فأطلقوا عليها اسم « الغولة الصغيرة » . ولما لم تجد نماذج جديدة ، بدأت تصنع تماثيل لقدميها الجميلتين ؛ وكانت هذه خاتمة نشاطها ، اذ حدثت لها حادثة جعلتها تكف عن هذا العمل الفنى : كان ذلك يوم روعت أفراد الأسرة بصراخها الشديد ، وسمعوا استغاثتها آتية من المرسم ؛ فلما أسرعوا اليها يتبينون الخبر ، وجدوا المثالة النشيطة تحاول عبثا أن تخرج قدمها من قصعة الجبس الذى تجمد حولها فى سرعة غير منتظرة . وبصعوبة شديدة أمكن تخليص قدمها بعد أن تعرضت لبعض الخطر ، فقد غاصت مدية جو فى العجينة المتجمدة وجرحت آمى ، وهكذا تركت على القدم الجميلة ندبة تحمل ذكرى دائمة للمحاولة الفنية الفاشلة .

وبعد أن هدأ نشاط آمى بعض الوقت ، عادت فغلبت عليها نوبة جديدة للرسم من الطبيعة ، فلازمت النهر والحقول والغابة ، تنقل عنها مناظرها الخلابة . وكانت تسعى وراء الخرائب فى كل مكان ؛ فتصورها ارضاء لنزعتها الفنية ، وطالما تعرضت للبرد الشديد وهى جالسة على الحشائش الرطبة تلتقط منظرا من هنا ومنظرا من هناك . وكان يستهويها شكل الصخور المتجمعة ، وبقايا جذوع الاشجار ، ونبات « عش الغراب » ، والسماء الملبدة بالغيوم ، فترسمها على الورق ، غير آبهة لتقلبات الجو ، حتى بلغ تحمسها لفنها ، أن حرقت أشعة الشمس بشرتها ، وهى تذرع النهر فى قاربها ، لدراسة الأضواء والظلال .

واذا كانت العبقرية هى الصبر الخالد ، كما يقول ميكائيل أنجيلو ، فقد كان لآمى من هذه المنحة الآلهية نصيب مذكور ، لأنها صبرت وثابرت ، على الرغم من العوائق والعقبات ، وصورت الفشل والسخرية والاستهانة ، التى صادفتها فى جهادها ، وسارت فى طريقها ، وهى شديدة الايمان بأن سيأتى اليوم ، الذى تنتج فيه شيئا خليقا بخلود الفن الرفيع •

ولم تقصر آمى جهودها على الرسم ، انما تعلمت فى الوقت ذاته ، وتمتعت بأمور كثيرة ، وكانت قد عزمت فيما بينها وبين نفسها على أنها اذا لم توفق فى فنها ، فلا أقل من أن تكون امرأة كاملة جذابة • ونجحت آمى فى هذه الناحية أكثر من نجاحها فى الرسم ، لأنها كانت من أولئك المخلوقات السعيدات ، اللواتى يفضن على ما حولهن بهجة بغير جهد ، فيجتذبن الأصدقاء فى كل مكان ، يملأن الأجواء سرورا ومرحا • كانت واحدة ممن يأخذن الحياة بسهولة يحسدهن عليها من هن أقل حظا ، وينسبن ذلك الى أنهن ولدن تحت نجم طالعه سعيد •

كان كل انسان يحب آمى ، فمن مزاياها أنها كانت تعرف بفطرتها ما يسر غيرها ، وتدرك ما ينبغى أن يقال لهم ، ولذلك كانت تضع كل شىء فى موضعه ، وتخاطب كل شخص بما يرضيه ، وتتصرف بما يناسب الزمان والمكان على أحسن وجه وأتمه • وكانت آمى قادرة على ضبط نفسها ، كما كانت لبقة واسعة الحيلة ، حتى ان أخواتها اعتدن أن يقلن عنها : « ان آمى اذا ذهبت الى قصر ملك ، دون اعداد سابق ، وبغير تدريب على ما ينبغى أن تفعل هناك ، ففى مقدورها أن تحسن التصرف من تلقاء نفسها ، وتسلك المسلك اللائق لمثل هذا الموقف » •

وكانت احدى نواحى ضعفها ، رغبتها فى الظهور ، وحبها للاختلاط

بأرقى المجتمعات ، دون فهم يروق لهـا سوى المـال والجاه والأزياء الحديثة والسلوك الأنيق • وكانت تميل دائمـا الى مصاحبة من تتوفر فيهم هذه الشروط ، ولكن كثيرا ما كان يختلط عليهـا الأمر ، فتخـدع بالغث عن السمين ، وتعجب بما لا يستحق الاعجاب • ولم تكن تنسى أبدا أنها سيدة عريقة الأصل ، لذلك ظلت حريصة على تنمية ذوقهـا ومشاعرها الأرستقراطية ، حتى اذا سنحت لها الفرصة يوما ، كانت على أتم استعداد لتأخـذ مكانها الذى سلبها اياه الفقر فى العهود الأخيرة •

وكانت « السيدة » كما كان يدعوها أصدقاؤها ، ترغب صـادقة فى أن تصبح سيدة بمعنى الكلمة ، وفى الحق أنها كانت فى جوهرها ومعدنها تلك السيدة الأصيلة • ولكن الحكمة كانت تنقصها ، لتـدرك أن المـال يستطيع أن يخلق الأصل العريق ، وأن الألقاب لا تضفى على أصـحابها نبل المحتـد : وأن حسن التربية وطيب العنصر ، ينمان عن نفسـيهما ، ولا يمكن لعوامل الفقر أن تخفيهما •

ودخلت آمى على أمها ذات يوم تقول وعلى وجهها سيماء الاهتمام :

ــ ماما ، أريد أن تسدى إلىّ معروفا •

أجابت الأم ، وكانت لا تزال آمى فى نظرها طفلة ، بالرغم من مظهر العظمة الذى تبدو فيه :

ــ حسنا يا فتاتى الصغيرة ، ماذا تريدين منى ؟

قالت :

ــ ان دروس الرسم تنتهى فى الأسبوع القـادم ، وأود أن أدعو

زميلاتى لقضاء يوم معى : قبل أن تفرقنا عطلة الصيف ، فهن متلهفات على رسـم النهر والقنطرة المحطمة وغـيرها من المناظر التى أعجبتهن فى كراستى • لقد كن كريمات معى فى مواقف كثيرة ، ولم يقمن بينى وبينهن فروقا ، رغم فقرى وثرائهن ، وأشعر أننى مدينة بالشكر لهن •

قالت مسز مارش ، تسأل ابنتها فى كبرياء :

ـ ولماذا يقمن الفروق ؟

قالت آمى :

ـ لأن هناك فروقا يا أماه : وهذه الفروق قائمة فى نظر كل إنسان تقريبا ، فلا تغضبى ، كما تغضب الدجاجة حين ترى فراريجها الصغيرة تنقرها طيور أرقى منها • أنت تعرفين قصة البطة الدميمـة ، التى نمت فصارت بجعة جميلة •

وضحكت آمى بلا مرارة ، لأنها كانت بطبعها ذات هـدوء ومـرح وتفاؤل •

وضحكت مسز مارش ، وقد هدأت كبرياء أمومتها ، ثم قالت :

ـ حسنا يا بجعتى العزيزة ، ماذا تقترحين أن نفعل ؟

قالت :

ـ أحب أن أدعو البنات لتناول الغذاء معى فى الأسبوع القادم ، وأصطحبهن الى الأماكن التى يرغبن فى مشاهدتها ، ونمضى معـا بعض الوقت فى نزهة نهرية ، أريد على العموم أن أقيم لهن وليمة يتجلى فيهـا الغنى بأجلى معانية •

قالت الأم :

ــ هذا ممكن ، فماذا تريدين فى الغداء ؟ كعك وشــطائر وفاكهــة وقهوة ؟ هذا يكفى على ما أظن •

قالت الفتاة :

ــ لا •• يجب أن نقدم لهن لسانا باردا ، ودجاجا مشويا ، وشكولاتة على الطريقة الفرنسية ، ومثلجات لذيذة متنوعة ، فالبنات معتادات تناول هذه الأصناف ، وأود أن يكون الغداء كاملا ممتازا ، بالرغم من أننى أعمل لأعيش •

سألتها أمها :

ــ وكم عدد البنات ؟

قالت :

ــ اثنتا عشرة بنتا أو أربعــة عشرة على الأكثر ، ولكنهن لن يأتين جميعا •

قالت الأم :

ــ كان الله فى عنى ، هذا العدد يحتاج الى عربة عامة •

قالت آمى :

ــ لا تخافى يا أماه ، فلن يحضر أكثر من ســت بنات أو ثمان ، وسأستأجر لهن عربة الشاطىء ، وأستعير عربة الرحلات من مستر لورنس •

قالت الأم :

— ولكن هذا يكلفك كثيرا يا آمى •

قالت :

— ليس كثيرا جدا ، فقد حسبت التكاليف ، وسأدفعها كلها من جيبى •

قالت الأم :

— ولكن ، ألا ترين من الأوفق لأولئك الفتيات أن نقدم لهن شيئا غير ما اعتدن عليه ؟ إنهن معتادات تناول الأطعمة الفاخرة كل يــوم ، وسيكون أدعى لسرورهن ، أن يأكلن شيئا بسيطا على سبيل التغيير • هذا الحل يرضينا أيضا ، ويكفينا مؤونة الشراء والاستعارة ، وهو مالا نريده ، فليس من المستحب أن نظهر بغير حقيقتنا •

قالت آمى ، وقد بدا عليها الإصرار الذى تريده المعارضة إلا عنادا :

إذا لم أستطع أن أحقق ما أريده ، فلن أقيم الوليمة • أنا متأكــدة من قدرتى على القيام بالواجب ، مع بعض المعونة منك ومن أخــواتى ، ولست أرى سببا يمنعنى من تحقيق أمنيتى ، مادمت سأدفع التكاليف كلها •

وكانت مسز مارش تؤمن بأن التجربة خير معلم للإنسان ، ولذلك كانت تترك بناتها يتعلمن من الحياة ما يعارضن فى تعلمه منها ، فقالت :

— حسنا يا آمى ، ما دمت قد عقدت النية وتبينت موقفك وحسبت للأمر حسابه ، بحيث لا يكلفك كثيرا من المال ، والوقت والجهد ، فليس عندى ما أقوله بعد ذلك • شاورى أخواتك فى الموضوع ، ولن أتردد فى معونتك على ما تقررين أيا كان •

قالت :

— أنت دائمة رحيمة بى ، فشكرا لك يا أماه •

وخرجت آمى تعرض الأمر على أخواتها ، فوافقت ميج فـورا ، ووعدت بالمساعدة ، وعرضت أن تعيرها كل ما فى بيتها من ملاعق الملح . أما جو فقد قطبت جبينها ، ولم توافق على المشروع كله ، ورغبت بادىء الأمر أن تشترك فيه . وكانت آمى قد فاجأتها بالحديث وهى تفكـر فى خاتمة مفجعة للقصة التى تكتبها ، فقطعت عليها سلسلة تفكيرها ، وبذلك جعلتها غير مستعدة للحديث فى موضوع الولائم الاجتماعية السخيفة ، قالت :

ـ وما الذى يدعوك الى إنفاق نقـودك ، وإرهاق أسرتك ، وقلب البيت رأسا على عقب ، من أجل حفنة من البنات لا يساوين شيئا ؟ ظننت أن فيك من الكبرياء والعقل ما يمنعك من إذلال نفســك لفتيات ميزتهن الوحيدة أنهن ثريات يرتدين الأحذية الفرنســية ، ويـركبن العـربات المقفولة .

قالت آمى فى غضب ، وكانت على عهدها ، لا تتأخر عن الشـجار مع جو ، إذا عرضت لها الفرصة .

ـ أنا لا أذل نفسى لأحد ، وأكره أن تكلمينى بهذه اللهجة ، وليكن فى علمك أن البنات يملن الى صحبتى ، كما أميل الى صحبتهن ، هـذا الى أنهن على قدر كبير من العقل والمواهب ، على الرغم من رأيك فيمـا تسمينه « الموضة السخيفة » . قد لا يهمك أن يحبك الناس ، وقد لا يروقك أن تشتركى فى المجتمعات الراقية ، لتهذبى ذوقك وطباعك ، ولكنى على العكس منك أهتم بكل ذلك ، وأريد أن أستفيد بأكبر قسـط ممكن من الفرص التى تسنح لى . سيرى فى العالم إن شئت رافعة الرأس مغرورة ، ثم سمى سلوكك العجيب استقلالا ، أما أنا فليســت هـذه طريقتى فى الحياة .

وكان فى مقدور آمى ، إذا ما شحذت سنان لسانها ، وأعملت قريحتها ، أن تحسن الكلام ، وقلما كان المنطق السليم يخذلها ، على حين كانت جو تعتز بحريتها ، ولا تهمها التقاليد ، وتبالغ فى ذلك الى حد بعيد ، مما يورثها الهزيمة فى الجدل • وكان تعريف آمى لرأى جو فى الاستقلال ، تعريفا بارعا ، حمل الأختين الأخريين على الضحك ، فزال التوتر ، واتخذت المناقشة اتجاها مرضيا • وأخيرا قبلت جو ، على غير هواها ، أن تضحى بيوم لأختها المتعاظمة ، وأن تمد يد المساعدة لآمى ، فيما تعتقد أنه عمل فارغ •

وأرسلت الدعوات ، وحدد يوم الاثنين التالى موعدا للحادث العظيم ، وقبلت كلها ، لم تعتذر واحدة من البنات • ولكن الأمور لم تبد مشجعة ، إذ فقدت حنا بشاشتها ، لأن الوليمة ستربك عملها الأسبوعى : وتنبأت بأنه اذا لم يتم الغسل والكى فى موعدهما ، فلا أمل فى انتظام البيت • وكان شعار آمى ألا شىء يدعو الى اليأس ، ولذلك كانت تنفذ قراراتها مهما صادفها من عقبات • وكانت أول صدمة أن فشلت حنا فى طهى الدجاج ، فجاء لحما جامدا : وأسرفت فى تتبيل اللسان ، فكان مذاقه غاية فى الملوحة كما أن الشكولاتة لم تتجمد كما يجب ، وزادت تكاليف الكعك والمثلجات كثيرا عما توقعت آمى ، وكذلك جاوزت أجرة العربة تقديراتها السابقة ، واقتضى الحال مصروفات استثنائية ، بدت فى أول الأمر تافهة ، ولكنها تضخمت عن الحساب تضخما مزعجا • وأصيبت بث بالبرد فلزمت فراشها ، ووفد على ميج زوار مفاجئون ، فاضطرت الى البقاء معهم فى بيتها ، وكانت جو شاردة الفكر الى أبعد حد ، فزادت أخطاؤها ، وكثر تحطيم الصحون على يديها بصورة خطيرة مزعجة •

ولقد قالت آمى يوما ــ بعد مضى وقت طويل من هذه الوليمــة ، التى أطلق عليها أفراد الأسرة « أحسن نكتة فى الموسم » ــ وكانت ما تزال تذكر دور أمها شاكرة :

ــ لولا والدتى ما استطعت أن أخرج من المحنة بسلام •

وكان الرأى قد اتفق على أن الجو اذا لم يكن حسنا يوم الاثنين ، تؤجل الى اليوم التالى ، وهو ترتيب زاد الأمر تعقيدا فيما يختص بجو وحنا •

وجاء صباح الاثنين بجو قلق لا يستقر على حال ، فكانت السماء تمطر قليلا ثم تسكت ، وتصحو الشمس ثم تختفى ، وتهب الرياح ثم تهدأ ، ولم يلزم الجو حالة واحدة ، ظلت التغيرات تتوالى الى وقت متأخر • وكانت آمى قد استيقظت مع الفجر ، وأخذت توقظ أخواتها من فرشهن ، وتستحثهن على تناول أفطارهن مبكرا ، حتى ينتظم البيت فى الوقت المناسب واستوقفت حجرة الاستقبال نظرها ، إذ بدت قديمة رثة أكثر مما يجب ، فبدلا من أن تكتفى بالحسرة والأسف ، سارعت الى الكراسى ، فوضعتها فوق الأجزاء البالية من البساط ، وأخفت البقع الموجودة على الجدران بصور ذات أطر جميلة ، وملأت الزوايا الفارغة بتماثيل صنعتها فى البيت • وكانت جهودا موفقة ، أضفت على الحجرة رواء فنيًا ازداد رونقا وبهاء بأصص الزهور التى نثرتها جو هنا وهناك •

وبدا الطعام جذابا ، وتمنت وهى تستعرضه بنظرها أن يكون شهيا ، وتضرعت الى الله من قلبها أن تعود الأوانى الزجاجية والفضية والخزفية ، التى استعارتها لهذه الوليمة ، سليمة الى أصحابها • وصدر الأمر بإرسال العربات ، ووقفت ميج والأم على استعداد لاستقبال المدعوات ، واستطاعت

بث أن تساعد حنا قليلا فى الخفاء ، وحرصت جو أن تبدو لطيفة المعشر ، بقدر ما يسمح به صداعها وشرودها وقلقها • وبينما كانت جـو ترتدى ملابسها فى ملل ، راحت آمى تسلى نفسها ، فتتخيل ما سيحدث فى اللحظة السعيدة ، حين ينتهى الغداء بسلام ، فتأخذ صديقاتها فى العربة لقضاء المساء فى نشوة فنية ، وكانت العربة المفتوحة ، والقنطرة المحطمة ، من أهم عناصر النزهة المرجوّة •

ومرت ساعتان فى الانتظار ، كانت فيهما دائبة على التنقل بين غرفة الجلوس والبهو ، وكان الرأى العام العائلى يتغير من لحظة الى لحظة ، فيما يختص بالوليمة • وأمطرت السماء مدرارا فى الساعة الحادية عشرة ، مما أقنع المنتظرات بأن حماسة المدعوات لابد أن تكون قد فترت ، بدليل أن واحدة منهن لم تحضر بعد • ومضى الوقت ولا أثر للمدعوات ، فلما بلغت الساعة الثانية مساءً ، جلست الأم وبناتها فى بقعة مشمسة يأكلن الأصناف السريعة التلف ، حتى لا يضيع شىء من الوليمة هباء •

وفى صباح اليوم التالى ، أيقظت أشعة الشمس آمى من نومها ، فقالت فى نشاط وخفة :

— إن الجو جميل بلا شك ، ولا بد من حضورهن اليـوم . فلنلق نظرة على البيت ، ونستعد لاستقبال المدعوات •

ولكنها كانت تتمنى فى أعماق نفسها ، لو أنها لم تعط ضيفاتها فرصة يوم الثلاثاء أيضا ، بعد أن ضعف اهتمامها بالمأدبة ، وذبلت حماستها كمـا ذبلت كعكتها •

وبعد نصف ساعة ، قدم مستر مارش من الخارج ، وعلى وجهـه مسحة من اليأس الهادىء ، وهمس فى أذن زوجته قائلا :

— لم أجد اليوم سمكا فى السوق ، فلا مفــر من الاســتغناء عن سلطة المايونيز •

فقالت زوجته :

— يصح أن نستعيض عنه بنســائل من لحم الدجاج ، وإن كانت أخشن من السمك •

فقالت بث لأختها فى أسى :

— لقد تركت حنا الدجاج على مائدة المطبخ ، فالتهمته القطط ، وإنى شديدة الأسف يا آمى •

وكانت بث ما زالت على عهدها مغرمــة بالقطط ، وتقتنى عــددا مذكورا منها •

فقالت آمى بحزم :

— إذاً لابد من السمك بأى شكل ، فاللســان وحده لا يكفى •

انبرت جو تقول فى نخوة المتشهدات :

— هل أذهب الى المدينة وأشترى سمكة ؟

أجابت آمى ، وقد بدأت تفقد سيطرتها على نفسها :

— ستعودين بها الى البيت : تحملينها تحت إبطك عارية من الورق ، فتثيرين غيظى وحنقى • لا ، سأذهب بنفسى لإحضارها •

وأسدلت نقابا على وجهها ، وحملت فى يدها سلة صغيرة ، وخرجت من البيت وكلها أمل فى أن تهدىء برودة الجو ، فى العربة العامــة ، من

روعها : وتعيد إليها نشاطها ، فتحمل متاعب اليوم راضية • واستطاعت أن تحصل على بغيتها بعد عناء غير قليل ، كما ابتاعت زيتا مجهزا للمايونيز حتى توفر الوقت فى البيت بعد هـذا التأخير ، ثم عادت بالعربة العامة مسرورة بما فعلت •

ولما لم يكن بالعربة غير عجوز نائمة فى مقعدها ، فقد رفعت آمى النقاب عن وجهها ، ووضعته فى جيبها ، وراحت تقطع الوقت بمراجعة نقودها ومصروفاتها • وانهمكت فى الأرقام التى ملأت الورقة ، فلم تلحظ وجود قادم جديد ، دخل العربة دون أن تقف لركوبه ، ولم تشعر إلا بصوت يهتف بها قائلا : « صباح الخير يا آنسة مارش » ••• فرفعت رأسها الى محدثها ، وإذا بها وجها لوجه أمام أحد أصدقاء لورى المتأنقين • وردت التحية فى عذوبة ورقة ، وهنأت نفسها على أنها ارتدت ثوب الرحلات الجديد ، وتجاهلت تماما سلة السمك الرابضة عند قدميها ، وراحت تتمنى أن يعجل الفتى بترك العـربة قبلها • وظلت آمى تتحـدث الى السـيد فى لهجة متعالية ، وقـد استراح بالهـا حين علمت منـه أنه سيغادر العربة قبلها ، وعلى حـين غرة قامت السيدة العجـوز تتهيأ للانصراف ، فاصطدمت بالباب ، وقلبت السلة رأسا على عقب ، فظهرت السمكة — يا لهول الفضيحة — أمام عينى السيد الوجيه الذى ينحدر من سـلالة آل تيودور !

وصاح الفتى وقد ظن أن السمكة للعجوز :

— يا الهى !! لقد نسيت عشاءها !

ثم أخذ يدفع السمكة بعصاه ، حتى أعادها الى مكانها من السلة ،

وأمسك بالسلة يريد أن يعطيها للسيدة العجــوز ، فصاحت به آمى ، وقد احمر وجهها احمرارا شديدا :

ــ أرجو ألا تفعل ذلك ••• انها سلتى !

فقال الفتى بلباقة تؤكد أدب أبناء الأسرة العريقة :

ــ أرجو المعذرة •• انها سمكة جميلة لم يســبق أن رأيت لهــا مثيــلا •

وتنفست آمى الصعداء ، وتمالكت روعهــا من جــديد ، فوضعته السلة فوق المقعد بشجاعة ، وقالت ضاحكة •

ــ ألا تحب أن يــكون لك نصيب من المايونيز الذى سأصنعه بهذه السمكة وأن تتمتع بصحبة الفتيات الرشــيقات اللاتى ســيأكلنها ؟

وكانت عبارتها هذه غاية فى الكياسة والمهــارة ، فقد أرضت بهــا نزوتين من نزوات الشباب ، إذ أحاطت الســمكة بهــالة من المعــانى السارة ، وأثارت فى ذات الوقت اهتمامه بالفتيات الأنيقات ، فأبعدت ذهنه عن الحادث المضحك •

وعنــدما نزل تيودور من العــربة ، وانحنى يودع آمى ، قالت فى نفسها :

ــ سوف يروى للورى ما حدث ، وســوف يضحكان ما شاء لهمــ الضحك ، ولكن يعزينى أننى لن أراهما وهما يسخران منى •

وحين عادت آمى الى البيت ، لم تذكر الحادث لأحــد ، وان كانت قد اكتشفت فى ثوبها بقعة من الزيت ، الذى سال من الزجاجة عنــدما

انقلبت السمكة ، ولكنها لم تلبث أن شغلت عن البقع باعـداد الطعـام والاستعداد للوليمة •

وعند الظهر تمـاما ، كان كل شيء على ما يرام ؛ وكانت تشعر طول الوقت أن الجيران يرقبونها ، مما جعلها ترجو من كل قلبها ، أن يمحو الله أثر فشلها في اليوم السابق ، وأن يعوضها عنه بنجـاح عظيم • ولم يطل بها الانتظار ، فقد جاءت العـربة المكشوفة ، فركبت فيها بعظمة ، ثم ذهبت تحضر ضيفاتها ، وترحب بهن •

قالت مسز مارش وهي تهرع الى البهو :

ـ هذا صوت العربة ، وأظن أنهن وصلن ، وسأذهب الى الردهة لاستقبالهن كما تقضي الأصول ، فاني أرجـو أن تقضي طفلتي العـزيزة وقتا طيبا ، بعد ما تحملته من متاعب كثيرة •

ولكن ما ألقت نظـرة ، حتى عادت أدراجهـا ، وعلى وجهها أبلغ آيات الأسف ، فقد كانت العـربة فارغة الا من آمي وفتـاة واحـدة أخـرى •

وصاحت جو ، وهي تسرع الى الدور الأسفل ، في انفعال منعهـا من الضحك :

— أسرعي يا بث وساعدي حنا على رفع نصف الأدوات الموضوعة على المائدة ، فليس من المعقول أن تبقى على حالها لفتاة واحدة •

ودخلت آمي البيت غاية في الهدوء ، وأقبلت بكل جوارحهـا على ضيفتها الوحيدة ، التي حافظت على وعدها ، وقام أفراد الأسرة جميعهن بأدوارهن في دقة وبراعة ، ووجدتهن الآنسـة ألبوت غايـة في اللطف

والظرف ، فساد الجو شعور مرح ، وتقاسمن الطعام الذى أعيد اعداده ، بسرور بالغ

وزارت الضيفة الاستوديو والحديقة ، وتناقشت بحماسة فى شئون الفن ، ثم استأجرت آمى عربة صغيرة ، وتركت المكشوفة المطهمة وهى آسفة ، وطافت بصاحبتها فى جميع الأماكن المجاورة ، حتى غربت الشمس ، وعندئذ استأذنت الضيفة فى الانصراف ، وبذلك انتهت المأدبة •

وعادت آمى بعد أن ودعت صاحبتها ، وقد غلبها الانهاك والاعياء رغم هدوئها الظاهرى ، فوجدت أن آثار الوليمة التعسة اختفت ، ولم يبق منها الا تقطيبة مريبة على وجه أختها جو •

قالت أمها بحنان وعطف ، كأن ضيفات ابنتها لم يتخلفن عن الحضور :

ــ أرجو أن تكونى قد استمتعت بجولة مسلية بعد الظهر يا عزيزتى •

قالت بث بحرارة :

ــ ان مس ألبوت فتاة لطيفة جدا ، وأظن أنها تمتعت بوقتها ونزهتها •

سألتها ميج فى رزانة :

ــ أتنزلين لى عن جزء من الكعكة يا آمى ؟ اننى فى الحقيقة ، محتاجة الى بعض منها ، فعندى ضيوف كثيرون ، وليس باستطاعتى أن اصنع كعكة لذيذة مثلها •

قالت آمى آسفة ، وقد جال بخاطرها ما صارت اليه الأصناف الكثيرة اللذيذة التى صنعتها :

— خذيها كلها يا ميج ، فليس فى البيت من يحب الحلوى سواى ، وستفسد الكعكة قبل أن آتى عليها •

وعندما جلس أفراد الأسرة ، لثانى مرة فى خلال يومين ، يأكلون ما تبقى من المايونيز والمثلجات ، قالت جو تفتح الحديث :

— من المؤسف أن لا يكون لورى معنا ، ليقاسمنا هذا الطعام اللذيذ •

وحدجتها والدتها بنظرة تحذير ، فكفت عن الاسترسال فى ابداء ملاحظاتها ، ومضى الأكل فى جو من الصمت ، قطعه مستر مارش قائلا :

— كانت سلطة المايونيز من الأصناف المحببة عند القدماء ، وكانت ••

وهنا انفجرت البنات ضاحكات ، وقطعن على العالم الوقور حديثه عن تاريخ سلطة المايونيز •

قالت آمى ، وهى تجفف دموعها :

احزمى كل شىء ، وضعيه فى السلة ، وأرسليه الى أسرة هاميل ، فالألمان يحبون الأكل ، ولقد مللت منظر أكداس الطعام هذه ، ولست أرى داعيا لأن تصيبوا أنفسكم بالتخمة ، بسبب تصرفاتى الحمقاء •

وتنهدت جو ، ثم قالت ضاحكة :

— كدت أموت حزنا حين رأيت العربة فارغة الا منكما ، ثم شاهدت والدتى تدلف الى الباب ، لاستقبال الجموع استقبالا رسميا حافلا •

قالت مسز مارش والأسى يملأ قلبها :

— يؤسفنى أن خيب الفتيات أملك يا عزيزتى ، ولكننا بذلنا جميعا غاية جهدنا ، لنرضيك ، وندخل على قلبك السرور •

أجابت آمى ، وفى صوتها رجفة ظاهرة :

— انى راضية كل الرضا ، وعزائى أننى قمت بواجبى ، ولم تفشل الوليمة لخطأ منى • شكرا لكن جميعا ، على جهودكن ومساعدتكن ، وسأكون أكثر شكرا وتقديرا ، لو أمسكتن عن الحديث فى هذا الموضوع ، لمـدة شهر على الأقل •

ولم يشر أحد الى الموضوع شهورا عدة ، وان كانت كلمة « وليمة » تثير الابتسام على الشفاء كلها ، وكانت هدية لورى لآمى فى عيد ميلادها ، تعويذة على شكل سمكة صغيرة حمراء •

الفصل السابع والعشرون

دروس فى الأدب

ابتسم الحظ لجو ، كأنما ألقى السعد فى حجرها تعويذة تأتيها بالمال • حقيقة كان نصيبها من المال قليلا : ولكن هذا القليل حقق لها من السعادة الخالصة ما لا يحققه نصف مليون من الجنيهات •

كانت جو قد اعتادت أن تحتجب فى غرفتها بين آن وآن ، فتغلق دونها الأبواب ، وترتدى ثوب التأليف ، وتغرق الى أذنيها فى نشوة الكتابة على حد تعبيرها •

وكانت ، اذا ما أرادت اتمام قصة ، تستغرق فيها قلبا وعقلا : فلا تعرف للهدوء طعما حتى تنتهى من مهمتها • وكان الثوب الذى ترتديه عند الكتابة يتألف من ميئزر صوفى أسود ، تمسح فيه قلمها عند اللزوم ، ثم قلنسوة من النسيج ذاته ، محلاة بنقوش حمراء زاهية : تحشر فيها خصلات شعرها قبل البدء فى العمل • وكانت هذه القلنسوة دليلا يرشد أفراد الأسرة الى حالة جو المعنوية ، فكانوا من وقت لآخر يلقون عليها نظرة من فتحة الباب ، وقد يسألونها عما اذا كانت شعلة العبقرية تضىء كما يجب ، ولكن حركات القلنسوة كانت تغنى عن هـذا السؤال فى أغلب الأحيان : فاذا كانت مشدودة الى أسفل جبهتها ، فتلك علامة الجـد والانهماك ، واذا كانت على جانب من رأسها بانحراف على الأذن ، فمعناه الانفعال والثورة ، أما اذا استعصى الوحى وتوقفت العبقرية ، خلعت جو القلنسوة وضربت بها الأرض • وفى مثل هذه الحالات ، لا يستطيع أى فضولى أن يتدخل فى الأمر ، انما ينسحب فى هدوء ، تاركا جو لحالتها حتى تعود

القلنسوة الى مكانها الطبيعى ، وتستقر فوق حاجبيها الموهوبين مرة أخرى •

ولم تكن جو تؤمن بأنها عبقرية ، ولكنها كانت تنصرف الى الكتابة حين تصيبها نوبة التأليف ، فتعيش فى عالمها سعيدة قريرة العين ، لا تحس بما حولها ، ولا يعنيها شىء أو يشغلها • وكانت تمضى بها الساعات والأيام وهى لاهية بدنياها العامرة بأصدقاء صنعتهم بقلمها ، وتخيلت أنهم أشخاص واقعيون ينبضون بالحياة •

وكان النوم يهجر عينيها ، ولا تجد للطعام مذاقا فى فمها ، فيظل الأكل موضوعا أمامها دون أن تمسه ، وكان الليل والنهار ، خلال فترة الوحى ، أقصر من أن يتسعا لسعادتها الغامرة ، التى تريد أن تتمتع بها أطول وقت ممكن • وكانت هذه السعادة الغامرة تحبب اليها الحياة ، وتجعل للأيام معانى جميلة ، حتى ولو لم تنتج خلالها شيئا ، وكانت فترة الوحى تدوم أسبوعا أو أسبوعين ، ثم تنقضى ، فتخرج جو من نشوتها جائعة أو نعسانة أو غاضبة أو قانطة ،حسب الظروف •

وذات مرة ، عندما كانت جو خارجة لفورها من احدى هذه النوبات ، اضطرت أن تصحب مس كروكس الى احدى المحاضرات العامة ، فجوزيت على ذلك بأن واتتها فكرة جديدة طيبة • كانت المحاضرة درسا عاما عن « الأهرام » ودهشت جو لاختيار هذا الموضوع دون غيره ، ولكنها لم تلبث أن سلمت بما استهدفه المحاضر من اصلاح العيوب الاجتماعية بعرض تاريخ الفراعنة الأمجاد على المستمعين ••• أولئك المستمعون الذين لم يكن يشغلهم من أمور الدنيا سوى أسعار الفحم والدقيق ، ولا يستنفد تفكيرهم غير مشاكل تافهة ، يجعلون منها ألغازا تفوق لغز أبى الهول !!

وذهبت جو ومس كروكس مبكرتين الى قاعة المحاضرة ، وبينما راحت مس كروكس تصلح كعب جوربها ، عمـدت جـو الى تسلية نفسها بالتطلع فى وجوه الجالسين على جانبيها ... رأت الى يسارها سيدتين وقورتين ، لهما جبهتان عريضتان ، وعلى رأسيهما قبعتان مناسبتان لضخامة جسميهما ، وكانت السيدتان تتناقشان فى حقـوق المرأة . وعلى بعـد منهما جلس حبيبان ملهوفان ، تشابكت أيديهما فى منظر لا يقره الـذوق السـليم ، والى جانبهما كانت امرأة سمراء تتلهى بالتهام أقراص النعناع ، وبعدها سيد عجوز استسلم للنوم مغطيا وجهه بمنديل أصفر اللـون مزركش . أما عن يمينها مباشرة ، فلم يكن هناك سوى فتى انهمك فى قراءة مجلة ، وقد بدت على وجهه سيماء الجـد والاهتمام .

وكانت المجلة قصصية مصورة ، فراحت جو تشغل وقتها بالتفرج على صورها . فأعجبها تسلسل الحوادث المنتظم ، الذى أبرزته تلك الصـور الطريفة : رأت صورة رجل هندى فى كامل عـدة الحرب ، يكاد يسقط فى هوة سحيقة ، وقد أنشب ذئب أنيابه فى عنقه . والى جانب ذلك وقف رجلان غاضبان ، أقدامهما صغيرة جدا فى غير تناسب ، وعيناهما أوسع مما يجب . وكان كل منهما يطعن الآخـر بسكين ، وفى أسفل الصـورة ظهرت امرأة مشعثة الشعر ، مفتوحة الفم ، تهرول مبتعدة عنهما .

وبينما الفتى يقلب صفحات المجلة ، لحظ أن جـو تنعم النظر فى الصور ، فقدم لها نصف صفحات المجلة ، وهو يقول فى جرأة :

— أتحبين القراءة ؟ هذه قصة ممتازة .

ولم تكن جو قد تغلبت على حبها للتشبه بالفتيان ، فتقبلت منـه المجلة باسمة ، وما كادت تبدأ القراءة ، حتى وجدت نفسها غارقة فى قصة

تفيض كالمعتاد بالحب والغموض والقتل ••• أى من ذلك النوع الأدبى الخفيف ، الذى يلجأ المؤلف فيـه الى كوارث تقضى على نصف أبطال القصة ، وتترك نصفهم الآخر يتمتع مسرورا بمصرعهم •

وحين رأى الفتى أنها انتهت من قراءة القصة ، سألها :

ـ قصة ممتازة ، أليس كذلك ؟

أجابت جو مندهشة لاعجابه بهذا اللون الأدبى التافه :

ـ أظن أننا نستطيع أن نكتب مثلها اذا حاولنا •

فقال الفتى :

ليتنى أستطيع أن أفعل ذلك •

ثم أشار الى اسم مسز نورث برى ، مؤلفة القصة ، وقال :

ـ هذه السيدة تكسب كثيرا من تأليف القصص •

سألته جو باهتمام مفاجىء :

ـ أو تعرفها ؟

قال :

ـ لا ، ولكنى أقرأ لها كل ما تكتب ، وأعرف صديقا يشتغل فى ادارة الجريدة •

فنظرت جو باحترام شديد الى الصور التى تمثل المعارك ، والى علامات الاستفهام الكثيرة المنبثة فى جميع أنحاء الصفحة : قالت :

ـ أحقا تكسب المؤلفة كثيرا من كتابة مثل هذه القصص ؟

قال :

ـ أظن ذلك ، فهى تعرف النوع الذى يحبه الجمهـور ، وتتقاضى عليه مبالغ كبيرة •

وعندئذ بدأت المحاضرة ، ولكن جو لم تسمع منها الا قليلا ، اذ كانت طـول الوقت مشغولة بأفكارها عما يرويه المحاضر من تاريخ خـوفو ، والجعارين المقدسة : واللغة الهيروغليفية • ونقلت الفتاة عنوان المجلة ، بعد أن عزمت على دخول المسابقة ، التى تنظمها ادارتها ، لأحسن قصة عاطفية مثيرة ، والتى رصدت لها جائزة قدرها مائة دولار •

وحين انتهت المحاضرة ، واستيقظ المستمعون ، كانت جو قد جمعت لنفسها فى الخيال ثروة طائلة : ولكنها لم تكن بطبيعة الحال أول مرة تحلم فيها بهذا النوع من الثراء • وكانت أيضا قد فرغت من دراسة فكرة قصتها الجديدة التى ظلت مترددة فى خاتمتها ، لا تعرف اذا كان أفضل أن تأتى المبارزة الحاسمة قبل هروب الحبيبين ، أو بعد قتلهما •

وعكفت على العمل دون أن تذكر كلمة عن مشروعها الجديد ، واختفت فى الغرفة على عهدها فى نوبات التأليف ، وكانت أمها تجزع لهذا الاختفاء ، وتقلق حين تشتعل نيران عبقرية جـو •

لم تكن جو قد جربت هذا الأسلوب من قبل ، اذ انحصرت مجهوداتها السابقة فى كتابة قصص غرامية لمجلة « النسر » ، ولكن تجاربها المسرحية ، وقراءاتها المتنوعة ، ساعدتها كثيرا على مهمتها الجديدة ، وأعطتها أفكارا عن القصص المحزنة ، وعلمتها ، بعض أسرار اللغة والملابس • وكانت

قصتها فى هذه المرة ، حافلة باليأس والقنوط ، رغم تجاربها المحدودة فى هذه العواطف المحزنة ، واختارت مدينة لشبونة مسرحا لحوادثها ، وأنهتها بزلزال مروع ظنت أنه خير خاتمة مفجعة • وأرسلت القصة سرا الى المجلة ، وأرفقتها برسالة تقول فيها بتواضع : « انها لا تجرؤ على التطلع الى الجائزة الأولى ، ولكنها ترحب بأى مبلغ تدفعه المجلة ثمنا لقصتها » •

وكان عليها أن تنتظر ستة أسابيع قبل أن تظهر النتيجة ، وكان وقتا طويلا لمن اختارت مثلها أن تطوى صدرها على سرها ، ولا تبوح به لأحد • ولكنها احتملت الانتظار صابرة ، وعندما بدأت تفقـد كل أمل فى رؤية قصتها مرة أخرى ، وصل اليها من المجلة خطاب ، حين فضته ، سقط منه الى حجرها شيك بمائة دولار • ومرت لحظة وهى تحدق النظر فى الشيك ، وهى تلهث خوفا وانفعـالا ، كأنه ثعبان مرعب ••• ثم تمالكت روعها ، وقرأت الخطاب ، ولمـا انتهت منه ، انهمرت الدمـوع من عينيها ، ولو أدرك السيد الطيب الذى صدر هذا الخطاب اللطيف ، كم ستسعد الفتاة به ، ما توانى عن أن يكرس وقت فراغه — اذ كان لديه فراغ — ليمتع نفسه برؤية المنظر الشائق : فقد اغتبطت جو بما جاء فى الخطاب من عبارات التقدير ، أضعاف ما اغتبطت بالشيك ، ووجـدت فيها تشجيعا عظيما ، يعوضها خيرا ، عن جهاد السنوات المتتالية ، ويمنيها بمستقبل باهر •

وكانت جـو فى تلك اللحظة ، أسـعد خلق الله كلهم ، فلما تمالكت روعها ، دخلت على أهلها تحمل الشيك بيد والخطاب باليد الأخرى ، ثم أعلنت لهم خبر فوزها بالجائزة ، فاحتفلت الأسرة بنجاحها العظيم ، وحين نشرت القصة ، قرأها كل فرد منها ، وقرظها أحسن تقريظ • ولكن أباها ، بعد أن امتدح اللغة ، وأثنى على الرواية وما فيها من مأساة تحرك المشاعر ، هز رأسه ، وقال بلهجة المجرب :

— باستطاعتك أن تنتجى خيرا من هذا يا جو • انشدى الكمال قبل المـال •

وقالت آمى ، وهى تتطلع بخشوع الى القصة الساحرة :

— أعتقد أن المـال خير ما فى المسألة كلها •

ثم انثنت على أختها تسألها :

— ماذا ستصنعين بهذه الثروة يا جو ؟

أجابت جو دون تردد :

— سأرسل بها بث ووالدتى ، ليقضيا شهرا أو شهرين على شاطىء البحر •

وصاحت بث ، وهى تصفق بيديها النحيلتين ، وتزفر زفيرا عميقا كأنها تتنشق هواء البحر العليل :

— ما أبدع ذلك ! ولكنى لست أنانيـة لأقبل مثل هـذه التضحية يا جو •

وتوقفت عن الكلام فجأة ، وأعادت الشيك الى أختها ، وكانت قد أعطته لها : ولكن جو قالت بحزم :

— لابد من ذهابك ، انه الهدف الذى جاهدت لتحقيقه ، وهـو السر الحقيقى فى نجاحى • فما كنت لأنال توفيقا لو أننى حصرت آمالى فى نفسى • كان يشجعنى كثيرا ان افكر فيكم وأعمل لكم • ثم ان أمى فى حاجة الى التغيير ، وهى لا تستطيع أن تتركك ، ولذلك يجب أن تذهبى •

الا يسرنى جميعا أن تعـودى الينا من المصيف ممتلئة الجسـم متوردة الخدين ؟ مرحى يا دكتور جـو ، أنت والله طبيبة ماهرة تعرفين كيف تعالجين مرضاك •

وبعد مناقشة طويلة ذهبت الأم مـع ابنتها الى شاطىء البحر ، وعادت بث أحسن حالا ، وأن كان جسمها لم يمتلىء ، وخداها لم يتوردا كما كان مأمولا • واعترفت مسز مارش أنها استعادت شبابها ، ورجعت بسنها عشر سنوات الى الوراء • وسرت جو للنتائج التى وصلت اليها بحسن استخدام المـال الذى كسبته ، وعادت الى العمل بنفس مبتهجة ، وقد صممت على اكتساب كثير من هذه الشيكات السارة ، وفعلا كسبت عددا منها فى هذه السنة ، وبدأت تشعر بأنها أصبحت قوة فى الأسرة ، وأن قلمها نجح فى تحويل التوافه التى تكتبها الى مال يسعد أهلها ، ويوفر لهم أسباب الراحة • وأمكنها أن تسدد حساب الجزار من ثمن قصة « ابنة الدوق » ، واشترت سجادة جديدة بقصة « اليد الخفية » ، كما جاءتها « لعنة كوغنترى » بكساء الأسرة وحساب البدال •

لا شك أن المال جميل مرغوب ، ولكن للحرمان أيضا جوانب مشرقة ، أجملها الشعور بالرضا الصادق بما تنتجه اليد ، أو يجود به الفكر • وفى الواقع أننا مدينون لوحى الحاجة : بنصف ما نتمتع به فى هذا العالم من حكمة أو عبقرية أو جمال • وكانت جو أحد هؤلاء الذين أفاء الله عليهم نعمة الرضا ، ولذلك كفت عن حسـد الفتيات الموسرات • وقنعت من لذائذ الدنيا ، بقدرتها على توفير مطالب حياتها ، واستغنائها بكدها عن سؤال الغير •

ولم تثر قصصها فى الواقع اهتماما خاصا . ولكنها ظلت مع ذلك تجد سوقا رائجة ، مما شجعها على اتخاذ خطوة خطيرة أخرى فى سبيل المجد

والثروة . فذات مرة انتهت من نسخ قصتها للمرة الرابعة : وفرغت من قراءتها لأصدقائها المقربين ، ثم بعثت بها خائفة الى ثلاثة من الناشرين فلما جاءها الرد بقبول نشرها على شريطة أن تختصرها الى ثلث ما هى عليه ، وأن تحذف منها جميع الأجزاء التى حازت إعجاب أصـــدقائها ، دعت جو مجلس الأسرة وعرضت عليه مشكلتها . قالت :

ــ أنا الآن بين أمر من ثلاثة : أن أحزم أوراقى هذه ، وأودعهـــا الصندوق الصفيح حيث يبليها الزمن ... أو أقوم بطبعهـــا على نفقتى الخاصة ... أو أقتطع منها ما شاء الناشرون وأحصل على الثمن . إن المجد شىء جميل فى داخل البيت ، ولكن المال أنفع منه : ولقد جمعتكم لأسألكم الرأى فى هذا الموضوع الهام .

قال أبوها ناصحا :

ــ لا تفسدى عملك يا بنيتى ، ففى كتابتك قيم أكثر مما تقدرين ، ولقد نجحت فى اختيار الفكرة ، وأحسنت إبرازها ، فاحتفظى بها حتى تنضج .

وكان الأب مخلصا فى كلامه ، أمينا لآرائه ومعتقداته ، لا يقـــول إلا ما يفعل ، ولقد انتظر ثلاثين عاما حتى تنضج رسالته وتأتى بثمراتها المرجوة ، وعندما طابت ثمراتها بعد طول هذا الزمن ، اختار أن يتذرع بالصبر ، فلا يتعجل جنيها .

قالت مسز مارش :

ــ أعتقد أن جو تستفيد من المحاولة أكثر من الانتظار ، فالنقد خير موجه للإنسان ، به تظهر العيوب والميزات ، ونحن فى حيرة شديدة أمام

ما يجب أن ننصحها به • ولكننى أعتقد أنها تستفيد كثيرا مما يأتيها من مديح الغرباء ونصحهم ، بصرف النظر عن ثمن ما تكتبه •

وضمت جو حاجبيها وقالت :

— هذا حق • لقد تكلمت طويلا فى هذا الموضـوع ، ولست أدرى فى الواقع ، إن كان الكلام فيه ضارا أو مفيدا ، وأرانى على أى حال ، فى مسيس الحاجة الى رأى محايد فى شأن هذا الكتاب الجديد •

وكانت ميج تعتقد أن هذا الكتاب هـو خير قصـة كتبتها جـو ، فقالت :

— لو كنت مكانك ما تخليت عن كلمة واحدة منـه ، وأخشى إن حذفت شيئا ، أن تفسدى الموضوع كله ، فقيمة القصة تتجلى فى عرض أفكار أبطالها ، لا فى تتبع حركاتهم ، وسيختلط الأمر إذا لم تفسرى كل حركة فى كل مرحلة من مراحل القصة •

وقاطعتها جو تقول ، وهى تشير الى مذكرة الناشر :

— ولكن مستر ألن يقول « اتركى التفسيرات جانبا ، واختصرى : ثم الزمى حدود القصة ، ودعى الأبطال يتكلمون بأنفسهم •

وقالت آمى ، وقد كانت نظرتها الى الموضوع نظرة عملية •

— افعلى ما يشير به عليك • فهو أكثر منك خبرة بالقصص الرائجة ، ونحن مثلك لا نعرف قدر ما يعرف قد ما يعرف ، فخذى بتوجيه ، واجعلى قصتك محبوبة الى القراء ، واحصلى منها على قدر ما تستطيعين من المال • وحين يلمع اسمك فى عالم التأليف شيئا فشيئا ، يصبح فى مقـدورك أن

تخرجى عن هذا النطاق ، فتدخلى فى قصصك من تريدين من أبطال فلسفيين ونظريين •

فقالت جو ضاحكة :

ــ حسنا ليس خطئى أن يكون أبطالى فلاسفة مفكرين ، فأنا لا أعرف عن هذه الأشياء إلا ما أسمعه من أبى أحيانا ، ومن صالحى أن تختلط آراؤه الحكيمة برواياتى • والآن يا بث ، ما رأيك أنت ؟

قالت بث فى اقتضاب :

ــ أود أن أرى هذه القصة مطبوعة فى أقرب وقت مستطاع •

ولم تفارق الابتسامة شفتيها وهى تقول ذلك ، ولكنها ضغطت دون أن تشعر على كلمة « فى أقرب وقت » ، ونظرت الى جو نظرة بريئة ملؤها الحب • وأحست جو ببرودة الخوف تسرى الى قلبها من هذه الكلمات المضغوطة ، ولكن ذلك لم يدم سوى لحظة يسيرة ، قررت على أثرها أن تقامر بهذه القصة سريعا ، وفى أقرب وقت •

ووضعت المؤلفة الشابة كتابها الأول على المائدة ، وأخذت تقطع أوصاله بعزم ثابت وقساوة بالغة • فلقد استطلعت آراءهم جميعا واحدا بعد واحد ، لتدخل السرور على قلوبهم ، ولكنها خرجت من المعركة كما خرج صاحب الحمار من القصة المعروفة ، دون أن ترضى أحدا •

كان أبوها قد أعجب ببعض النقط الروحانيــة ، التى تسربت الى القصة عن غير قصد ، فأبقت عليها إكراما له ، واعتقدت أمها أن كثيرا من الوصف تافه لا يستحق الذكر ، فحذفت جميع الأوصاف ، ومعها

بعض الروابط الضرورية للحوادث • وأعجبت ميج بالمآسى ، فاحتفظت جو بدوافع الألم كلها لترضيها ، واعترضت آمى على الجانب الضاحك من القصة ، فقضت جو على المناظر الخفيفة التى كانت تضىء جوانب الموضوع • ثم جاء التدمير النهائى حين اختصرت ثلث الكتاب ، ثم أرسلته الى الناشر ، كعصفور صغير منتوف الريش ، خرج يجرب حظه فى هذا العالم الكبير •

وطبعت القصة ، وتسلمت جو ثلثمائة دولار ثمنا لها • واستقبل النقاد القصة بمزيد من المديح والذم ، وكان النقد أكثر مما توقعت ، فوقعت جو فى حيرة شديدة ، لم تتخلص منها إلا بعد وقت طويل •

صاحت ، وهى تقلب أكداسا من القصاصات ، كانت مطالعتها تملؤها بالزهو والفرح مرة ، والغضب والرعب مرة أخرى •

ــ لقد قلت يا أماه إن النقد يساعدنى على الكمال ، ولكن كيف يمكننى أن أبلغ الكمال ، وأقوال النقاد ، كما ترين ، متضاربة متنافرة ، حتى لا أكاد أعرف إذا كنت حقا قد كتبت كتابا يبشر بالنجاح ، أم أنى خالفت الوصايا العشر ؟؟ رجل يقول : « إنه كتاب نفيس ملىء بالصدق والجمال والحزم ، كل ما فيه حلو نقى سليم ، والثانى يقول : « نظرية عقيمة ، وتحليلات سقيمة ، وأفكار روحانية رجعية : وأبطال كلهم غير طبيعيين » • ولما كنت لا أعرف لنفسى نظرية معينة ، ولا أؤمن بالروحانيات وأنتقل شخصيات قصصى من الحياة نفسها ، فلست أدرى ، كيف يمكن أن يكون هذا الناقد على حق • ويقول ثالث . « إنها أحسن الروايات الأمريكية التى ظهرت منذ سنين » ــ وأنا أعرف أن هناك ما هو أحسن منها ــ ، ويؤكد آخر « أن القصة ، وإن كانت مبتكرة ، ومكتوبة بقوة غامرة وشعور فياض ، إلا أنها قصة خطيرة » ، مع أنى لا أرى فيها

خطورة قليلة أو كثيرة ، وبجانب هذا أمعن بعضهم فى السخرية بهـا ، وغالى بعضهم الآخر فى مديحها ، وكلهم مجمعـون تقريبا ، على أن لى نظرية غاية فى العمق تحتاج الى الشرح ، مع أنى لا أكتب هذه القصص إلا للذة الكتابة ولثمنها • وددت لو أنى طبعت القصة كاملة ، أو أنى لم أطبعها كلية ، فأنا أمقت أن يساء الحكم على بهذه الصورة •

ورغم تشجيع الأسرة والأصدقاء ، مضت بجو فترة عصيبة ، شعرت خلالها بأنها أساءت من حيث أرادت الإحسان • ومع ذلك فقد أفادت من التجربة المرة ، إذ نالت النقد الصحيح ممن تعتد بآرائهم وتقديرهم ، ذلك النقد الذى هو خير معلم للمؤلف الناشىء • وحين مرت فترة المرارة الأولى ، استطاعت أن تضحك من كتابها الصغير البائس ، ولكنها ظلت على إيمانها به ، تشعر بأنها قد صارت أكثر حكمة وأشد قـوة ، بعـد الحمـلات التى لاقتهـا •

قالت فى فخار :

— لن يقتلنى ألا أكون فى عبقرية كيتس العظيم ، ومع ذلك فـإن الفكاهة اللاذعة فيما حدث تفيدنى ، فكل ما أخذته من الحياة الواقعية مباشرة ، استنكره النقاد ، وقالوا عنه إنه مستحيل وغير معقول • وكل المناظر التى ابتدعتها من خيالى ، قيل عنها إنها طبيعية وجذابة ورقيقة وصادقة • ولذلك ستهدأ نفسى بهذه النتيجة ، وحين أجد الشـوق الى الكتابة ، فسأبدأ العمل من جديد ، وأخرج قصة أخرى •

الفصل الثامن والعشرون

تجارب منزلية

بدأت ميج حياتها الجديدة وفى عزمها أن تكون ربة بيت مثاليـــة ، شأنها شأن معظم الفتيات عندما يقبلن على الحياة الزوجية ، وقالت : إن جون يجب أن يرى وجها باسما دائما ، وأن يأكل كل يوم طعاما لذيذا ، ولا يشعر بنقص فى أزرار ملابسه ، وأن يكون البيت جنته الوارفــة • وأحبت ميج مهمتها الجديدة ، وأضفت عليها من روحها نشاطا وبهجة ، فلم يكن هناك بد من نجاحها ، على الرغم من العقبات التى صادفتها • ولكن الجنة لم يسدها الهدوء المنشود : فقد كانت ربة البيت الصغيرة كثيرة المناقشة ، مسرفة فى القلق ، صعبة الإرضاء • وكانت دائمة الحركة تثقل نفسها بالهموم ، حتى يستبد بها الإرهاق والوجــوم ، فلا تقــوى على الابتسام ، كما أصيب زوجها بعسر الهضم ، لكثرة ما أكل من أطباق شهية ، فراح يطالب بطعام خفيف • أما الأزرار فكانت تضيع لغير ما سبب ، مما جعل ميج تهز رأسها عجبا وأسفا ، وتهدد جون بأنها ستترك لــه مهمــة تثبيتها فى المرات القادمة •

وقد أدرك الزوجان أنهما لا يستطيعان الحياة بالحب وحده ، ولكنهما كانا سعيدين كل السعادة ، لم ينقص جمال ميج فى نظر جون ، على الرغم من انصرافها لأعمال البيت ، لم تشعر ميج أن انشغال زوجها بسؤالها عن نوع اللحم الذى تريده فى العشاء ، خفف من حرارة قبلاتــه لهـا • وفى الواقع لم يعد البيت الصغير عش الغرام ، إنما أصبح مسكنا فقط ، وشعر الزوجان الشابان بأن هذا التغيير كان من حسن الى أحسن وكانت إدارة البيت فى بادىء الأمر لعبة يتجاذبانها كأطفال صغار • ولكن جون ما لبث

أن شغل بالعمل ، مقدرا واجباته نحو الأسرة الجديدة ، التى يترأسها ويحمل أعباءها • كما خلعت ميج ملابسها الثمينة ، وارتدت مرولة المطبخ ، وانهمكت فى أداء أعمالها المنزلية بنشاط لم تكن تتوقعه •

وانتابت ميج حمى الطبخ ، فكانت إذا ما أصابتها هذه الحمى ، تجلس الى كتاب « كورنيليوس » تقرأ فيه بأمعان ، كأنما هى أمام مسألة حسابية تحل ألغازها فى صبر وعناء • وكانت اذا نجحت فى عمل صنف من الطعام ، دعت الأسرة الى المساهمة فى تناوله ، وإذا فشلت ترسل بالطعام خفية مع لونى ، الى بيت هامل حيث يختفى نهائيا فى بطون لا تعرف الشبع •

وفى المساء كانت تجلس مع جون لمراجعة حساب النفقات ، فتجد أحيانا أنها أسرفت أكثر مما يجب ، وعندئذ تفتر حماستها للطهر ، وتتلو هذا الفتور مرحلة من التقشف يتعرض فيها جون لأكل البودنج الجاف والقهرة والسمك المحفوظ ، فكانت نفسه تضيق بهذا الطعام ، ولكنه يحتمله بصبر يثير الإعجاب •

وكانت ميج تتمنى أن تملأ خزانة الطعام بما تصنعه من المربيات والجيلى ، فطلبت من جون أن يشترى لها مجموعة من العلب الصغيرة ، وكمية إضافية من السكر ، حتى تستفيد بثمار التوت ، التى نضجت فى حديقتها • ولما كان جون يؤمن بمهارتها إيمانا راسخا ، فقد قرر أن يلبى مطالبها ، ليمكنها من حفظ الفاكهة بخير طريقة تراها • وأمر بأن يرسل الى البيت عدد كبير من العلب ، ونصف جوال من السكر ، كما استأجر صبيًا صغيرا ، ليجمع التوت من حديقته • وحين وصلت هذه الأشياء الى البيت ، شمرت ميج عن ساعد الجد ، وغطت شعرها الجميل بقلنسوة ، وارتدت مرولة المطبخ ، ثم بدأت تعمل واثقة بقدرتها على الإتقان ، بعد أن رأت

حنا تصنع جيلى التوت مئات المرات • لقد أدهشها اول الأمر ذلك العدد الكبير من العلب ، ولكنها عادت وتذكرت غرام جــون بالجيلى اللــذيذ ، فاستقر رأيها على أن تصنع منه كمية كبيرة وتخيلت جمال منظر العلب وهى مرصوصة فى مخزن الطعام •

وأمضت يوما كاملا فى فرز التوت وتقليبه ، وبذلت فى ذلك غايــة جهدها ، ورجعت الى موسوعة الطبخ تستوحيها الرأى ، وعصرت ذهنها لتتذكر ما نسيته من أساليب حنا وحيلها ، ثم رجعت الى المزيج تقلبــه وتغليه من جديد ، وأضافت إليه مزيدا من السكر ، ولكن الجيلى رفض أن يتماسك كما يجب •

وودت لو أنها هرعت الى بيت أبيها ، تسأل أمها المساعدة ، ولكنها عدلت عن ذلك • إذ كانت قد اتفقت مع جون على الاحتفاظ بمشاكلهما وتجاربهما ونزاعهما • وقد ضحك كلاهما فى ذلك اليوم عند ذكر النزاع ، كأن احتمال الخلاف مستحيل ، والحق أنهما تمسكا بعهدهما ، وسارا فى طريقهما دون تدخل أو معونة من أحد ، وكان هذا العهد فى الواقع عملا بنصيحة أمها الطيبة •

ووقفت ميج وحدها تعالج التوت طوال اليوم القائظ ، فلما بلغت الساعة الخامسة دون أن يتماسك ، استبد بها اليأس ، فجلست فى المطبخ الهائج المشوش ، تعصر يديها المخضبتين بحمرة التوت ، ثم انفجرت تبكى بصوت عال ، وهى لا تدرى بما يخفيه لها هذا اليوم المشئوم من متاعب أخرى كثيرة •

كانت فى مستهل حياتها الزوجية تقول دائما :

ـــ يجب أن يكون زوجى حرا فى تصرفاته ، يدعــو الى البيت من

يشاء ، فى أى وقت يشاء ، وعلى أن أكون دائما مستعدة ، وأن يكون البيت نظيفا هادئا ، وأن أبدو مبتهجة ، وأن أطهو طعاما جيدا •

وكانت تقول لجـون :

ــ لا تتردد يا عزيزى فى دعوة من تشاء ، ولا تسألنى الاذن ، وثق بأنك ستجد منى كل ترحيب بضيوفك •

وكانت كلمة « ثق » تملأ قلب جون زهوا وفخارا ، حتى ليحمد الله على ما أنعم به عليه من زوجة طيبة ممتازة • وكانا فى الواقع يستقبلان ضيوفا بين آن وآن ، ولكن لم يحـدث أبدا أن جاءت زيارات الضيوف فجأة وبغير علم سابق ، وبذلك لم تسـنح لميج فرصـة تختبر فيهـا قدرتها على مجابهة المفاجآت •

ولكن الذى لم يحدث سابقا ، كان يجب أن يحـدث فى يوم ما ، وهكذا عاد جون الى البيت ومعه ضيف غير منتظر ، فتعقدت الأمـور فى أسوأ الظروف • ولو لم يكن جون قـد نسى انشغال زوجته بجيلى التوت ، ما فكر فى اصطحاب صديق غريب ، فى ذلك اليـوم المشـئوم • ولكن الأمر غـاب عنه مع الأسف ، لم يعد يذكر الا أنـه اشـترى فى الصباح طعاما شهيا لبيته ، فطاب له أن يدعو صديقا للعشاء ، راجيـا أن تترك الدعوة فى نفسـه أعمق الأثر ، حين تهرع زوجتـه لاستقباله مرحبة ، وتقدم له صحون الأكل اللذيذة •

ولكننا نعيش فى عالم ملىء بالمفاجآت ، وليس كل ما يتمنى المـرء يدركه ، وقد تبين جـون هذه الحقيقة حين وصل الى « برج الحمائم » ، وهو الاسم الذى أطلق على بيته الصغير ، فوجـد الباب الخـارجى مغلقا ، وكانت العـادة أن يستقبله مفتوحا على مصراعيه • وياليته كان

مغلقا فحسب ، انما كان موصدا بالقفل ، ووحول أمس ما تزال تلطخ درجات السلم الأمامى • وكانت نوافذ غرفة الاستقبال مسدلة الستائر ، ولا أثر لزوجه الجميلة التى تجلس عادة عند المدخل ترحب بالضيوف فى ابتسامة كلها حياء • ولم يكن فى المكان أثر لانسان ، اللهم الا صبيا صغيرا يغط فى النوم تحت شجيرات التوت •

وذعر جون لهذا السكون والوحشة ، فقال لصديقه :

ـ أخشى أن يكون مكروه قد حدث ، أدخل الحديقة يا سكوت ، وسأبحث عن مسز بروك •

ودار جون حول البيت فى لهفة : تقوده رائحة قوية لسكر محروق ، وسار الصديق خلفه فى عجب وتساؤل ، وحين دلف جون الى البيت واختفى فيه ، وقف سكوت فى الخارج على بعد يستطيع منه أن يسمع ويرى ، ولما كان أعزب فقد استمتع بما دار بين الزوجين من حديث طريف •

دخل جون المطبخ فوجده فى اضطراب وفوضى ، ورأى عينات الجيلى متناثرة هنا وهناك ، عينه تملأ العلب : وثانية مازالت فى آنية موضوعة على الأرض ، وثالثة تحترق على النار ، وكانت لوتى تجلس فى برودها المعهود ، وهى تغمس قطعة من الخبز فى سائل الجيلى الذى رفض أن يتجمد رغم الجهود الجبارة التى بذلت فى سبيل ذلك • والى جانبها جلست مسز بروك تبكى وتنوح ، فأسرع جون الى زوجته منزعجا : وقد ظن أنها أحرقت يدها بالماء الساخن ، أو أصابها مكروه من نوع ما ، وكان القلق يساوره كلما فكر فى الضيف الذى ينتظره فى الحديقة • صاح بها قائلا :

ــ ماذا حدث يا فتاتى العزيزة ؟

قالت الزوجة المكدورة :

ــ أواه يا جــون ليكاد يقتلنى القلق والغضب ، فقد أمضيت النهار كله فى صنع هذا الجيلى ، حتى غلبنى الانهـاك والتعب . تعالى ساعدنى والا مت كمــدا .

وارتمت ميج على صدر زوجها تستقبله استقبالا حلوا بكل معانى هــذه الكلمة ، اذ كانت المرولة مبللة بشراب التــوت ، وأرض المطبخ ملطخة بالسكر المغلى . سألها الزوج الحائر بعد أن طبع قبلة على جبينها فوق القلنسوة المائلة على جانب من رأسها :

ــ حدثينى بما يضايقك يا عزيزتى ، هل أصــابك مكروه .

قالت ميج وهى تنشج فى يأس :

ــ نعــم !!

قال :

اذكرى ما حدث بسرعة ، وكفى عن البكاء ، فأنا لا أستطيع احتمال هذا المنظر . علىَّ بالنبأ المزعج يا حبيبتى .

صاحت تقول :

ــ الجيلى ... الجيلى لا يريد أن يتجمد ، ولســت أدرى ماذا أفعــل !!

وانفجر جون ضاحكا ، بصــورة لم يجرؤ على اعادتها بعــد ذلك ، وابتسم سكوت الساخر حين سمع ضحكته العالية . قال جون :

— أهذا كل ما فى الأمر ؟ ألقى بالجيلى من النافذة ، ولا تشغلى نفسك بها ، وسأشترى لك منها ما تريدين ... دعك من القلق الآن ، فقد أحضرت جاك سكوت ، ليتناول معنا العشاء ، و . . .

وقطعت ميج عليه حديثه بأن دفعته بعيدا عنها ، وارتمت على مقعد قريب ، وقد عقدت يديها فى يأس بالغ . صاحت تقول فى نبرات عامرة بالغضب والحزن واللوم :

دعوت ضيفا للعشاء ، والبيت كله فى اضطراب وفوضى ؟ كيف أقدمت على مثل هذا العمل يا جون بروك ؟

قال فى صوت خفيض ، وهو يستعرض ما سيسفر عنه الموقف من احراج :

— هس .. انه فى الحديقة .. لقد نسيت أمر الجيلى اللعين ، ولا سبيل الى خروجنا من المأزق

ولكن ميج قالت ثائرة :

— كان يجب أن تعلننى بقدومه لأستعد ، أو كنت تخبرنى فى الصباح بدعوة صديق ، وكان يجب أن تراعى مشغوليتى الكبيرة .

ولم يكن هذا الغضب بدعة من ميج ، فان اليمام الوديع ، على ما عرف عنه من هدوء وألفة ، ينقر حين يغضب .

قال جون ، وقد غلبه الحزن :

— لم يكن فى نيتى هذا الصباح أن أدعو أحدا ، ولم يتسع الوقت لأعلنك بقدومه ، فقد قابلته فى طريق عودتى ، ولم يطرأ لذهنى

أن أستأذنك بعـد أن طلبت الى مرارا أن أدعـو من أشـاء وقت ما أشاء • هذه أول مرة أفاجئك فيها بضيف ، ولن أفعـل ذلك بعـد الآن •

قالت :

ـ أرجو ذلك ، والآن خذ صديقك واخرج بـه فى الحـال ، فلن أقابله ، وليس عندى أى عشاء لكما •

قال وهو يسرع نحو مخزن الطعام :

ـ حسنا ، ولكن أين اللحم والخضر التى أرسلتها هذا الصباح ، وأين البودنج الذى وعدت بصنعه ؟

قالت ميج ، وقد سبقتها عبراتها :

ـ لم يكن لدى وقت لأطهو شيئا ، وكنت أنوى أن نتعشى مـع أمى • انى آسفة ، ولكنى كنت مشغولة جدا •

وكان جون رجلا عاقلا معتدلا ، ولكنه كان بشرا فى الوقت نفسه ، فان يجىء الى بيته مكدودا جائعا بعد عمل مضن طول اليوم ، وكله أمل فى الراحـة والطعام الشهى ، ثم لا يجـد شيئا الا بيتا مشوش النظام ومائدة خاوية وزوجا غاضبة ، فهذا أمر لا يدعـو الى الهدوء أو راحـة البـال • ولكنه كبح جماح نفسـه ، وكان من الممكن أن ينتهى الموقف بسـوم ، لولا كلمة طائشة بدرت منه عن غير قصد ، اذ قال :

ـ أعترف بأنه موقف حرج ، ولكن فى مقدورنا أن نخرج منه اذا تعاونا • لا تضيعى الوقت فى البكاء يا عزيزتى ، واجهدى نفسك قليلا ،

وحاولى أن تتقدمى لنا ما نأكله ، فكلانا يكاد يمــوت جوعا ، وأى شىء يكفينا ، أعدى لنا اللحم البارد والخبز والجبن ، وأعدك ألا نطالب شيئا من جيلى التــوت •

قال كلمته الأخيرة بقصد التفكه والتندر اللطيف ، ولكنها جــاءت قضاء مبرما على آماله كلهــا ، اذ إعتبرتها ميج تشهيرا بالغــا بها ، وتعريضا موجعا بفشلها ، قالت ثائرة :

ــ حاول أن تنقذ نفسك من هذه الورطة ، أما أنا فقد نفد جهدى ، ولن أحرك أصبعا لمعــونة أحد ، وليس فى البيت شىء مما تقترح ، وليس عندى ما أقدمه غير العظــام والخبز الجاف • خــذ صاحبك الى بيت أمى ، وقل له انى مريضة ، أو غــير موجودة فى البيت ، أو انى مت ، أو أى شىء آخــر يحلو لك ، فلست أريــد أن أراه ، ولكما أن تسخرا من الجيلى • قدر ما تشاءان ، ولكنكما لن تتناولا شيئا فى هذا البيت •

وألقت ميج اليه بهذا التحدى ، ثم رمت مرولتهــا على الأرض ، وسارعت بالانســحاب من ميــدان المعركة ، لتتعى همومها فى غــرفة نومهــا •

ولم تعرف ميج ما حدث للرجلين فى غيبتها ، ولا ماذا فعلا ، انمــا عرفت أن سكوت لم يذهب الى منزل أمها ، وحين نزلت الى المطبخ بعد انصرافهما معا ، وجدت آثارا مشوشة للطعــام ، مما زادها اشمئزازا واستنكارا وأخبرتها لوتى أنهما أكلا كثيرا ، وضحكا كثيرا ، وأن الســيد بروك أمرها بأن تلقى بجيلى التــوت فى صندوق الفضــلات ، وتخفى جميع العلب عن العيون •

وودت ميج أن تذهب الى أمهــا وتفضى اليها بما حدث ، ولــكن

الوعد الذى قطعته لجـون ، وخجلها الشـديد من نقض هذا العهـد ، أقعداها عن الذهاب . وبعد أن نظفت المطبخ والأوانى ، ارتدت ملابسها فى أناقة ، وجلست تنتظر عودة جون ، لتصفح عنه !

ولكن جون لم يحضر ، إذ كان له رأى آخر فيما حدث ، فقـد حمل الأمر محمل الفكاهة مع صـديقه سـكوت ، والتمس لزوجته المعـاذير ما استطاع ، وقام بدور المضيف خير قيام ، مما جعل الضيف يستمتع بالعشاء المفاجىء غاية الاستمتاع ، ويعد بتكرار الزيارة ثانية . وكان جون غاضبا فى قرارة نفسه رغم تظاهره بالمـرح ، لأن ميج أوقعته فى مأزق حرج ، ثم تخلت عنه وهو فى أشـد الحاجة الى معونتها . وراح يقول لنفسه : « لم يكن من العـدل أن تحضنى على اصطحاب من شئت من الضيوف فى أى وقت وتمنينى بالحرية فيما أفعـل ، واذا أخذتهـا عند كلمتهـا خذلتنى ، وألقت علىّ اللـوم ، وتركتنى لسخرية النـاس واشفاقهم . هذا لا يصح ، ويجب على ميج أن تعـرف ذلك » ، وجعلت الأفكار الغاضبة تتضارب فى رأس جون فى أثناء المأدبة ، ولكن حين انتهى القلق الذى ساوره ، وقفل راجعا الى البيت بعد أن أوصـل سـكوت وودعه ، كان قد استعاد بعض هدوئه ، فقال يحدث نفسه : « يا الصغيرة المسكينة ، لقد كان الموقف شـديدا عليها بعد كل ما بذلت لارضائى ، .. لا شك أنهـا أخطأت ، ولكنها ما تزال شـابة صغيرة ، وجـدير بى أن أكون صبورا معها ، أحـاول تعليمها » . وتمنى فى قلبـه ألاتكون قـد ذهبت الى بيت أمها ، إذ كان يكره الثرثرة والتدخل والقيل والقال .

وأقلقته هذه الفكرة ، ولكنه خشى فى الوقت نفسه أن يكون البكاء قد أضر بصحة ميج ، واستحث الخطأ الى البيت ، فسـار اليه مسرعا ، وقد رق قلبه ، وصح عزمه على أن يكون معهـا هادئا عطوفا حازما ،

وأن يرشدها الى مواضـــع النقص فى تصرفاتها ، ويريها كيف قصرت فى أداء واجبهـــا نحو زوجهـــا •

وكانت ميج قد قررت فيما بينها وبين نفسها ذات الأمر ، وانتوت أن تكون هادئة عطـوفة ، ولكن فى حـــزم ، وأن ترشـــده الى واجبـــه نحوها • وحين رأت زوجها مقبلا ، شعرت برغبة شـــديدة فى أن تسرع اليه ، لتطلب الصفح ، فيقبلها ويسترضيها ، ولكنها قاومت هذه الرغبة ، قبعت فى مكانها ، وراحت تترنم بنغم ، وتهـــز كرســـيها وهى تنســـج خيوطها ، ككل سيدة تتمتع بفراغها فى قاعة استقبالها الأنيقة •

وشعر جـــون بشىء من خيبة الأمـــل ، عنـــدما توانت زوجته عن استقباله بالترحيب الذى كان يتوقعه ، وأحس أن كرامته تتطلب منهـــا أن تعتذر له أولا ، ولذلك لم يتقدم بالاعتذار من جانبه ، بـــل دخـــل قاعة الاستقبال مبتسما ، وجلس على الأريكة ، ولم يقـــل شيئا اللهم الا ملاحظة عابرة •

قال :

ــ سنستقبل قمرا جديدا يا عزيزتى •

أجابت ميج فى هدوء :

ــ لا اعتراض لى على ذلك •

وتبادل الاثنان عبارات قليلة ، وكان مستر بروك ، يطرق من وقت لآخر موضوعات ذات أهمية لهما ، ولكن ميج كانت ترد فى غير تحمس ففتر الحديث بينهما • واتجـــه جون الى احدى النوافذ ، وفتح جريدته واختفى وراءها ، وذهبت ميج الى النافذة الأخرى ، وراحت تطـــرز فى

اهتمام مضاعف ، وهكذا خيم الصمت عليهما ، رغم أنهما كانا فى قلق وضيق .

قالت ميج تحدث نفسها :

— ان الحياة الزوجية متعبة جدا ، وتحتاج الى صبر لا يفرغ ، شأنها فى ذلك — كما تقول أمى — شأن الحب سواء بسواء .

وبعثت الفكرة فى رأسها ذكرى النصائح التى وجهتها اليها أمها منذ زمن طويل ، والتى كانت تستمع اليها بغير قبول أو ايمان . كانت أمها تقول : « ان جون رجل طيب ، ولكنه ككل انسان له عيوبه وأخطاؤه ، وعليك أن تدركى هذه الأخطاء ، وسيسهل عليك أن تحتمليها ، اذا تذكرت عيوبك وأخطاءك . انه حازم الرأى ، ولكنه ينقلب عنيدا اذا عارضته وأنت ثائرة ، فعليك أن تأخذيه باللين والعطف والحنان . انه متزمت فى الحق ، وهى ، صفة جميلة وان كنت لا ترضين بما ، وسوف يوليك الثقة التى تستحقينها ، اذا لم تخدعيه بالقول أو بالنظر . هذا الى أن طبعه لا يشبه طبعنا ، فنحن نثور فى لحظة ، ونهدأ سريعا ، أما هو فلا يغضب الا نادرا ، وعندئذ يكون من الصعب أن يهدأ . احذرى هذا الغضب ، واجتهدى ألا تثيريه عليك ، فعماد السعادة والوئام ، احترامك له ، واحتفاظك بكرامته — كونى رقيبة على نفسك ، واذا أخطأتما فابدئى بالاعتذار ، واحذرى الغمزات الصغيرة ، والكلمات الطائشة ، فانها تفتح الطريق للحزن والأسى .

مرت هذه النصائح بذاكرة ميج وهى تجلس الى النافذة ساعة الغروب وكان ما حدث اليوم ، أول خلاف بينهما ، فشعرت وهى تستعيد تفاصيل الخلاف ، أنها أسرفت فى كلماتها الطائشة ، وغضبت فى رعونة

الأطفال ، ولان قلبهـا على جون لمجـرد التفكير فى مقابلتها الجافة له ، عند عودته الى البيت ، فتطلعت اليه والدموع تملأ عينيهـا ، ولكنه كان مستغرقا فى قراءة الجريدة ، فلم يرها • ووضعت ميج ما فى يدها جانبا ، ووقفت تفكر فى البدء بالاعتذار ، وهمست تقول :

ــ سأكون البادئة ••• سامحنى •

وبدا كأنه لم يسمعها ، فتقدمت اليه بخطوات بطيئة ، حتى وقفت بجانبه ، ولكنه لم يتحرك ، ولم يلتفت نحـوها • ومضت دقيقة أحست فيها أنها عاجزة عن تنفيذ عزمها ، ولكن الفكرة تجسمت فى ذهنهـا ، فقالت فى نفسها : « انها البداية ، وعلىّ أن أقوم بواجبى كاملا ، حتى لا أجد ما ألوم عليه نفسى فيما بعد :

ولم تلبث أن انحنت على زوجها ، وطبعت على جبينه قبلة ، وكانت القبلة أبلغ اعتذار ، فأخذها جـون بين ذراعيه ، وأجلسها على ركبتيه فى حنان ، وقال لها :

ــ لقد أسأت اليك بسخريتى من الجيلى ، فاصفحى عنى يا عزيزتى وأعدك بأن لا أفعل ذلك مرة أخرى •

ولكنه فعل ذلك مرارا ، كما سخرت ميج بنفسها من الجيلى ، وكان كلاهما يقول : « ان تلك الجيلى التى استعصى صنعها ، كانت أجمـل ما فى حياتهما ، فقد أمدتهما بذخيرة لا تفنى من الهناء الزوجى والهدوء العائلى •

وقد وجهت ميج بعد ذلك دعـوة خاصة الى مستر سكوت ، وأعدت له مأدبة فاخرة بهيجة ، وكانت طول الوقت فى منتهى المرح ، واجتهدت

ان تمضى الوليمة على أحسن ما يكون ، مما حمل مستر سكوت على تهنئة جون بحظه السعيد ، وعندما عاد الى بيته ، ظل طول الطريق يهز رأسه ندما على متاعب العزوبة ووحدتها •

وجاء الخريف بتجارب جديدة للزوجين الصغيرين ، فقد جددت سالى موفات عهود صداقتها القديمة ، فكانت تأتى الى البيت الصغير ، تقضى فيه بعض الوقت تثرثر مع ميج ، وكانت أحيانا تدعو عزيزتها ميج لقضاء يوم فى بيتها الكبير • وكانت ميج ترحب بذلك هربا من الوحدة والسأم ، لأن أخواتها كن دائما مشغولات بأعمالهن ، وجون لا يعود قبل المساء ، ولم تكن هناك من تسلية لها ، سوى القراءة أو التطريز أو الحديث ، فسرى عنها اقبال سالى على صداقتها من جديد • وكانت ميج تنظر الى تحف سالى الجميلة وتعجب بها ، وتشتهى أن يكون لها مثلها ، وتندب حظها الذى حرمها من الترف • وكانت سالى ترى ذلك ، فتهديها بعض الأشياء الجميلة ، ولكن ميج كانت ترفض الهدايا ، لعلمها بأن جون لا يرضى عن ذلك ، ولكن طيشها دفعها ذات يوم الى اتيان أسوأ ما يكرهه زوجها •

كانت ميج تحب أن يشعرها زوجها بثقته الكاملة ، لا فى عواطفه فقط ، بل فى شئونه المالية أيضا ، لأن بعض الرجال يقدرون المال أكثر من العاطفة • وكان لها ما أرادت ، فأطلعها جون على دخيلة أمره ، وكاشفها بالمكان الذى يحفظ فيه نقوده ، وترك لها الحرية فى أن تأخذ منها ما تشاء ، ولم يطلب فى مقابل ذلك الا أن تقيد نفقاتها ، وتدفع المطلوبات آخر كل شهر ، وتتذكر دائما أنها زوجة رجل فقير • ومنذ بدأت حياتها الزوجية ، أحسنت ميج التصرف ، كانت تحرص على المال ،

وتدفق فى انفاقه ، وتقيد نفقاتها فى دفتر صغير . وتطلع زوجها عليه دون خوف ... الى أن حل الخريف ، وتسلل ثعبان الاغراء الى حياة ميج وأغراها كما أغرى كثيرات من بنات حواء الصغيرات ، ولكنه لم يغرها بالتفاحة المحرمة ، بل أغراها بالثياب .

لم يكن يرضى ميج أن تكون موضع الاشفاق والرثاء لفقرها ، وكانت تخجل من أن تعترف بحقيقة حالها ، وتطلب العزاء عن هذا الحرمان بشراء بعض الأشياء الجميلة بين حين وآخر ، حتى تثبت لسالى أنها غير مضطرة الى الاقتصاد والتقتير على نفسها . وكانت فى كل مرة تشعر بالندم بعد شراء هذه الأشياء ، على الرغم من أنها لم تكن تدفع فيها الا قليلا ، ولكن التوافه بدأت تكثر دون أن تشعر ، ولم تعد ميج فى زيارتها للحوانيت متفرجة فقط ، بل مشترية أيضا .

وتكلف شراء هذه التوافه أكثر مما تتصور ، وحين جلست آخر الشهر تجمع حساباتها ، أفزعها مجموع ما أنفقته فيما لا يجدى ولا يفيد . وكان جن فى ذلك الشهر مشغولا بعمله ، فترك لها مهمة دفع المطلوبات ، وفى الشهر التالى كان متغيبا عن البيت ، أما فى الشهر الثالث فقام بتسوية حسابات الشهور الثلاثة ، وياله من وقت عصيب ، لن تنساه ميج طول العمر ! !

كانت قبل نهاية الشهر بأيام قلائل ، قد أساءت التصرف فى نقود زوجها ، وظل ضميرها يرزح تحت وطأة ما حدث ، وكان ذلك يوم خرجت مع سالى لشراء بعض الأقمشة الحريرية ، وتاقت نفس ميج الى شراء قطعة من الحرير الخفيف ، مما يلبس فى الحفلات ، اذ كان ثوبها الأسود عاديا لا يستوقف النظر . وكانت العمة مارش قد اعتادت فى عيد رأس السنة ، أن تنفح كلا من الأخوات خمسة وعشرين دولارا ،

وكان موعد تلك المنحة يأتى فى الشهر التالى ، وكان ثمن قطعة الحرير الأرجوانية التى أعجبتها خمسين دولارا ، فأغرتها نفسها أن تدفع الثمن كله من نقود زوجها ، على أن ترد اليه النصف ، عندما تعطيها عمتها هدية رأس السنة • وكان جون يؤكد لها دائما أن ماله هـو مالها ، فجعلت تسأل نفسها اذا كان من حقها أن تنفق على رفاهيتها خمسة وعشرين دولارا من صميم ميزانية الأسرة • وظل السؤال يحيرها ، ويقف بينها وبين قطعة الحرير ولكن سالى ألحت عليها بأن تشترى ما تتوق اليه ، وعرضت أن تقرضها الثمن ، وراحت تغريها بكل ما تملك من دوافع طيبة ، حتى استسلمت للاغراء • وفى ساعة منحوسة أمسك البائع بقطعة الحرير وقال :

ــ انها فرصة ثمينة ولا شك !

قالت ميج ، وقد انهارت مقاومتها :

ــ سأشتريها •

وقص لها البائع القدر المطلوب ، ودفعت الثمن ، فابتهجت سالى وضحكت ، كأن ما حـدث لا يعنى شيئا ، ولكن ميج خرجت من الحانوت ، وفى نفسها شعور بأنها سرقت شيئا ، وأن البوليس فى أعقابها !!

وحين وصلت الى البيت ، حـاولت أن تخفف من وطأة ندمهـا ، فنشرت قطعة الحرير أمامها ، وراحت تمتع النظر بجمالها ، ولكنها بدت أقل جمالا مما كانت عليه فى الحانوت • وانتابها شعور بأن لا حق لها فيها ، وخيل اليها أن ثمنهـا الفاحش مختوم على خيط من خيوطها ، فطـوت قطعة الحرير ، وأزاحتها جانبا ، ولكن ذكراها ظلت تطاردها بالحاح ، مثل روح شريرة لا تعرف كيف تتخلص منها •

وحين عاد جون الى البيت فى تلك الليلة ، وأمسك بالدفتر يراجع

حسابات الشهور الثلاث الماضية ، غاص قلب ميج ، وانتابها الخوف من زوجها لأول مرة • وبدت عيناه العسليتان المطوفتان كأنما غشتهما القسوة ، ومع أنه كان مرحا مبتهجا أكثر من المعتاد ، فقد خيل اليها أنه كشف أمرها ، ولكنه يحاول أن يخفى علمه بخطئها •

ودفع جون المطلوبات ، ثم أعاد الدفتر الى موضعه ، وأثنى عليها ، وبدأ يراجع حساب النقود الموجودة بالصندوق ، الذى كانا يسميانه « البنك » ، ولكن ميج كانت تعلم أن البنك خاو على عروشه ، فاستوقفته فى عصبية وقالت :

— انك لم تراجع حتى الآن دفتر مصروفاتى الخاصة •

ولم يكن جون يطلب منها أن يرى هذا الدفتر ، ولكنها كانت تصر دائما على اطلاعه عليه ، وكانت تجد لذة ومتعة فيما يبدو عليه من عجب ودهشة ، حين يقرأ أسماء بعض الأشياء التى تشتريها المرأة • وكانت تبتهج حين تطلب منه أن يحدس معانى بعض الأسماء المدونة فى الدفتر ، فيندهش عندما يعرف أن القلنسوة تتكون من ثلاث وردات وقطعة مخمل وشريطين ، وكلها تتكلف خمسة أو ستة دولارات • أما فى هذه الليلة فقد نظر الى دفترها كأنه يريد أن يسلى نفسه بما فيه من أرقام وأسماء ، وأن يتظاهر كعادته بالارتياع من اسرافها ، ان كان فى الحقيقة معجبا بحرصها • وأخرجت دفترها الصغير فى بطء ملحوظ ، ثم وضعته أمامه ، ووقفت خلف كرسيه تتشاغل بتدليك جبهته المتعبة •

قالت والرعب يتجلى فى نبراتها :

— يخجلنى أن ترى دفترى هذه المرة يا جون ، فقد أسرفت أخيرا الى حد السفه ، وزرت الحوانيت مرارا ، وكان لابد لى أن أشترى بعض

الأشياء التى نصحتنى بها سالى • وقد اشتريتها بالفعل ، وسأسدد جزءا من ثمنها حين تأتينى النقود من عمتى ، ولكنى أعترف بأنى ندمت بعد شرائها ، وخفت أن تتهمنى بســوء التصرف •

وضحك جون وضمها الى صدره ، وهـو يقول بمرح :

ـ لا تحاولى الاختفاء وراء المقمـد ، فلن أضربك لأنك اشتريت زوجا من الأحذية ، فأنا معجب بقدميك ، ولا يسوؤنى أن تدفعى ثمانية دولارات أو تسعة ، فى شراء حذاء جديد •

وكان شراء الأحذية نزوة من نزواتها الأخيرة ، وكان ثمن زوج منها أول ما وقعت عليه أنظار جون فى الدفتر • قالت ميج لنفسها وهى ترتعد « ترى ماذا يقول حين يصل الى الدولارات الخمسين الملعونة ؟ انها أسوأ من الحذاء كثيرا ، وقد ضاعت فى شراء ثوب لا احتياج اليه •» واستبد بها اليأس ، وضاق صدرها بالانتظار ، وتمنت أن تنتهى المسألة بأى صــورة كانت •

سألها جون بهدوء :

ـ ما مجموع نفقاتك هذا الشهر ؟

ووقع سؤاله من نفسها موقعا غريبا ، اذ لم يكن من عادته أن يسألها بهذه اللهجة ، ولكنها أدركت أنه يريد منها صراحتها المعهودة • وقلبت ميج الصفحة ، ورأسها يدور ، وأشارت الى الرقم المدون بأسفلها ، وكان مبلغا كبيرا ، غير الخمسين دولارا ، التى زادت الطين بلة • ومرت لحظة صمت رهيب ، ثم تكلم جون ببطء ، فشعرت أنه يبذل جهدا كبيرا فى السيطرة على أعصــابه • قال :

— حسنا ، ان خمسين دولارا ليست غاليا لثوب حريرى ، ولكنه سيتكلف نفقات أخرى فى حياكته وتزيينه •

وتنهدت ميج فى تخاذل حين تمثلت التكاليف التى يجب أن تضاف الى الحساب • فقالت :

— ان الثوب لم يصنع بعد •

قال جون بجفاء :

— ان خمسا وعشرين ياردة من الحرير تكفى ثوبا لامرأة صغيرة الجسم ولست أشك فى أن زوجتى ستبدو فيه رائعة الجمال كمسز موفات •

قالت :

— أعرف أنك غاضب علىّ ، ولكننى لم أقصد تبذيرا ، ولم أكن أدرك أن الأشياء الصغيرة تكلف كثيرا • لقد غلبنى الاغراء حين رأيت سالى تشترى ما تريد ، وتظهر شفقتها علىّ لأنى لا أفعل مثلها • لقد حاولت أن أكون قانعة ، وبذلت فى سبيل ذلك جهدا كبيرا ، ولكن الأمر فاض بى ، وضاق صدرى بحياة الفقر •

ونطقت بكلماتها الأخيرة بصوت خفيض جدا ، ظنت معه أن جون لم يسمعها ، ولكنه سمعها ، وتألم لها ، فقد حرم نفسه من ملذات الحياة إكراما لها • وندمت على قولها أشد الندم ، وتمنت لو قطع لسانها قبل أن تنطق بها ، فقد ألقى جون بالدفتر غاضبا ، وهب مذعورا ، وقال فى صوت يرتجف بالانفعال :

هذا ما كنت أخشاه ، وأنا أبذل كل جهدى من أجلك يا ميج •

ولو أنه عنفها ، أو هزها غاضبا ، ما انخلع قلبها ، كما انخلع لوقع كاماته الموجعة الهادئة ، فهرعت نحوه ، وضمته الى صدرها ، وهى تبكى ندما وتقول :

— جون ، عزيزى ، أنت كريم معى دائما ، جاد فى توفير أسـباب سعادتى ، فثق أننى لم أقصد ما قلت • لقد أفلتت منى هذه الكلمـات القاسية الكاذبة دون وعى ، ولست أدرى كيف طاوعنى لسانى عليها ! آه ، كيف قلتها !!

وسامحها جون العطوف ، بما تعهده فيه من كرم عظيم ، ولم يوجه إليها كلمة لوم أو تعنيف ، ولكنها أدركت أنها ارتكبت خطأ كبيرا ، وقالت شيئا لا يمكن أن ينسى بسهولة •

لقد أقسمت ميج أمام الله أن تحبه على الخير والشر ، وها هى ذى توجعه بفقره ولومه عليه ، بعد أن أنفقت ماله كله بطيش ورعونة • إنها أتت أمرا إدّا ، ولم يكن يؤلمها من ذلك سوى أن جون مضى فى حياته هادئا كأن لم يحدث شىء ، ولكنه أصبح يعكف على البقاء فى المدينة الى ساعة متأخرة من الليل ، فلا يعود إلا وهى تغط فى نومها • ومضى أسبوع وميج فى ألم بالغ ، وتضاعفت أحزانها حين رجع جون عن شراء المعطف الجديد الذى يحتاج اليه ، ولما سألته لماذا يشتريه ، أجاب ببساطة :

— ليس لدى ثمنه يا عزيزتى •

ولم تقل ميج شيئا ، ولكن حين خرج الى البهو بعد دقائق ، وجدها تدفن رأسها فى معطفه القديم ، وهى تبكى وتنشج فى حزن ما بعده حزن •

وتحدثا طويلا فى تلك الليلة ، وتعلمت ميج أن تحب زوجها من أجل

فقره ، لأن الفقر يجعله رجلا ، ويمنحه القوة والشجاعة ، ليشق طريقه فى الحياة • هذا الى ما يتحلى به جون من صبر جميل ، يواجه به أخطاء أحبابه ، ويساعدهم على النهوض من عثراتهم •

وفى اليوم التالى نزلت ميج عن كبريائها ، وذهبت الى سالى تقص عليها ما حدث ، وطلبت اليها أن تليها معروفا بشراء قطعة الحرير • وقبلت مسز موفات الطيبة رجاء ميج ، وكانت من الكياسة بحيث لم تقدمه لها هدية لفورها • وعادت ميج الى البيت ، بعد أن اشترت المعطف الذى كان جون يحتاج إليه ، وحين وصل زوجها الى البيت ، ارتدت معطفه الجديد ، ووقفت تسأله عن رأيه فى ثوبها الحريرى الجديد !

ونترك للخيال أن يرسم صورة ما جرى بينهما من حوادث وأحاديث ، ويصف فيه كيف تقبل جون الهدية ، وبماذا جرت الأمور بين الزوجين السعيدين بعد هذا الحادث •

وكف جون عن التأخر فى المدينة ، وصار نعود مبكرا كعادته ، ولم تعد ميج الى جولاتها الأولى فى الأسواق ، وجعل الزوج السعيد يرتدى معطفه الجديد كل صباح ، فإذا رجع الى البيت فى المساء ساعدته زوجته الصغيرة على خلعه • وفى منتصف الصيف مرت بميج تجربة جديدة ، أعمق التجارب أثرا فى حياة المرأة •

* * *

دخل لورى الى المطبخ فى « عش الحمائم » ذات يوم ، بوجه عامر بالانفعال ، فاستقبلته حنا بدقات كدقات الصنوج ، إذا كانت تحمل فى إحدى يديها مصفاة ، وفى اليد الأخرى غطاء حلة • همس لورى فى أذنها يسألها :

– كيف حال ماما الصغيرة ؟ أين الباقون ؟ ولماذا لم تخبرونى قبل أن أحضر ؟

قالت حنا :

– إن الأم السعيدة فى أحسن حال ، وجميعهم فى الطابق العلوى يحلون شكرا لله ولا نريد جلبة هنا ، فاذهب الى غرفة الاستقبال ، وسأخبرهم بحضورك •

وما إن انتهت من حديثها ، حتى اختفت فى البيت وهى تزمجر •

وأقبلت جو بعد لحظة ، وهى تحمل فى فخار حزمه من صوف الفانلا ، وكانت تضعها على وسادة كبيرة • وعلى الرغم مما كان يبدو على وجهها من رزانة وهدوء ، فقد كانت عيناها تلمعان سرورا وغبطة • قالت فى صوت ينم عن انفعال مكبوت :

– اغمض عينيك ومد ذراعيك •

ولكن لورى تراجع الى ركن الغرفة ، وأخفى يديه وراء ظهره وقال ضارعا :

– لا ، أشكرك • أفضل ألا أحمله : أنا واثق بأنه سيقع منى !

قالت جو ، وهى تدير له ظهرها ، كأنها تهم بالخروج :

– إذا لن ترى ابن أختك !

قال :

– بل أبد أن أراه ، ولكن عليك تقع مسئولية ما يحدث •

وأغمض عينيه فى بطولة ، ومد ذراعيه مستسلما ، وأحس بشىء يدس

فيهما • وضحكت جو ضحكة عالية ، وطلب منه أفراد الأسرة جميعا أن يفتح عينيه بعد لحظة • ولما فتحهما رأى أنه يحمل طفلين صغيرين ، لا طفلا واحدا • ووقف حائرا مبهوتا ، ينقل بصره بين المخلوقين الصغيرين البريئين ، وقد ارتسم على وجهه تعبير مضحك للغاية ، فانفجروا جميعا ضاحكين ، واشتد الضحك بجو حتى لم تعد تقوى على الوقوف ، فجلست على الأرض متقطعة الأنفاس •

صاح لورى فجأة :

ـ توأمان ! يا إله العرش العظيم !

وسكت لحظة ، ثم ألقى على السيدات نظرة كلها توسل واستعطاف . وقال :

ـ خذوهما بسرعة ، فلتسرع إحداكن بحملهما ، إن الضحك يخنقنى وأخشى أن يسقطا منى !!

وأسرع جون يأخذ طفليه ، ثم حمل كل واحد على ساعد من ساعديه ، ومضى يذرع الغرفة ذهابا وجيئة ، كأنه يمرن نفسه على رعاية الأطفال • أما لورى فقد استسلم للضحك ، حتى سالت الدموع من عينيه •

قالت جو بعد أن استردت أنفاسها :

ـ أليست هذه أروع نكتة فى الوسم ؟ لقد حرصت على كتمان الأمر عنك ، لأفاجئك به ، وأمتع النفس بأثر المفاجأة فى وجهك •

وأظن أنى وفقت •

قال وهو يحملق بعينين ملؤهما الدهشة والغبطة والحنان :

— هذه أعظم مفاجأة فى حياتى ، والدهشة تعقد لسانى ، فيالها من فكاهة بديعة ! أهما ولدان ؟ وهل اخترتما اسميهما ؟ دعونى أنظر إليهما مرة أخرى ، ساعدينى يا جو ، فإن الدهشة تربكنى •

قال مستر مارش ، وهو يبتسم فى وجه حفيديه ، ويرنو اليهما بحنان بالغ :

— إنهما ولد وبنت ، أليسا غاية فى الجمال ؟

قال لورى ، وهو ينظر الى الطفلين ويحاول التمييز بينهما :

— لم أر أجمل منهما ، ولكن أيهما البنت وأيهما الولد ؟

قالت جو بخبث :

— لقد ربطت آمى شريطا أزرق للصبى ، وآخر أحمر للبنت كعادة الفرنسيين • هكذا نستطيع أن نميز بينهما دائما ، وفضلا عن ذلك فإن لأحدهما عينين زرقاوين وللآخر عينين عسليتين • هيا قبلهما أيها العم تيدى !

قال لورى بتردد :

— أخشى ألا يرحبا بقبلاتى •

قال جو بلهجة الأمر ، وقد خشيت أن ينيب عنه أحدا فى أداء المهمة الجليلة :

— بل قبلهما الآن ، فهما يحبان القبلات ، قد تعوداها قبل أن تحضر •

وأطاع لورى أمر جو : فزم شفتيه ، وطبع على كل خد قبلة ، بوجه يرتسم عليه الخوف . مما أثار ضحك الحاضرين ، وجعل الطفلين يبكيان •

قال لورى ، وقد فاض قلبه سرورا باللكمة اللطيفة التى أصابت وجهه من يد الصغير :

ــ ألم أقل لكم أنهما لا يرحبان بالقبلات ؟ انظروا كيف يلكم الصبى بيديه ، ويضرب برجليه •

ثم انثنى الى الطفل وقال يحدثه :

ــ اسمع يا مستر بروك الصغير ، أرجوك أن تكبر بسرعة ، لتصبح رجلا . وتؤدى واجبك كما ينبغى •

وقالت آمى بلهجة الخالة التى يهمها الأمر :

ــ سنسمى البنت مارجريت كأمها وجدتها ، وندللهما باسم «ديزى» حتى لا تكون هناك ميج أخرى فى الأسرة • وسنسمى الصبى جون لورنس ، وأقترح أن نناديه « جاك » ، ما لم نجد تدليلا أفضل •

قال لروى :

ــ بل سمّوه « جون » واختصروه الى « ديمى » فقط •

صاحت جو ، وهى تصفق استحسانا :

ــ ديزى وديمى ! يا لهما من اسمين جميلين ! ألم أقل لكم إن تيدى قدير على اختراع الأسماء ؟

وقد وفق تيدى فى الاختيار هذه المرة ، وعرف الطفلان باسمى ديزى وديمى الى النهاية •

الفصل التاسع والعشرون

زيارات

كانت جو بالإضافة الى ميزاتها الكثيرة ، تعتبر مـرجع الأسرة فى شئون التفصيل والحياكة ، إذ كانت تحسن استخدام الإبرة ، كما تحسن استخدام القلم سواء بسواء .

قالت لها آمى ، وهى منهمكة فى تفصـيل بعض الثياب :

— هيا بنا يا جو ، فقد حان الوقت :

قالت تسألها :

— الى أين ؟

أجابت آمى :

— أنسيت أنك وعدتنى اليوم بنصف دستة من الزيارات ، نؤديها معا ؟

قالت جو :

— أعترف بأنى أتيت حماقات عدة فى حياتى ، وقلت أشياء كثيرة بلا روية ، ولكن لا أظن أنى وصلت من الجنون الى ذلك الحد الذى يجعلنى أعدك بست زيارات فى يوم واحد ، وأنا التى تحدعنى زيارة واحدة فى الأسبوع .

قالت :

ـ بل وعدت ، وكان شرطا بيننا أن أنهى لك صورة بث ، مقابل أن تخرجى معى لنرد زيارات جيراننا •

قالت جو :

ـ بل اشترطت أن يكون الجو صحوا ، وكان اتفاقنا على هذا ، وأنا مستعدة لتنفيذ الاتفاق كاملا ، يا تلميذة شيلوك المرابى ، ولكنى أرى السحب تتجمع فى الشرق ، والجو ليس صحوا ، وعلى ذلك يكون أساس الاتفاق غير قائم •

وغاظ جو أن تأخذها آمى عند كلمتها ، وتتشبث بوعد قطعته على نفسها فى ظروف خاصة ، فتطالبها بمرافقتها فى زيارات رسمية ، فى يوم حار من شهر يولية • إنها تمقت هذا النوع من الزيارات ، ولم يسبق لها أن قامت به ، فلماذا تضطرها آمى الى ذلك الآن ؟

ولكنها لم تجد مفرا من الخضوع والاستسلام ، فألقت بالمقص مكرهة ، وقامت الى المهمة البغيضة ، وهى تنذر بما فى الجو من مطر ورعد وصواعق • ولما لم يجدها التعلل فتيلا ، تركت عملها جانبا ، ثم وضعت قبعتها على رأسها ، وقفازها فى يديها ، وقالت لأختها آمى بلهجة الضحية المستسلمة لمصيرها :

ـ إنى على استعداد •

صاحت بها آمى فى دهشة :

ـ أنت مشاكسة يا جو الى حد يستثير الملائكة • أتنوين حقا أن تزورى الناس بهذا المنظر ؟

قالت جو :

— إنى أرتاح الى الملابس الخفيفة ، وأراها تناسب هـذا الجـو الحار •

واذا كان الناس يهتمون بثيابى أكثر من شخصى ، فلا أرانى الله وجوههم • اذا لم يكن حالى يعجبك ، فتأنقى بما يكفينا نحن الاثنتين ، وكونى رشيقة كما تحبين ، أمـا أنا فلا تهمنى المظاهر الفارغة ، التأنق والتزين يخمدان أنفاسى •

تنهدت آمى ، وقالت :

— يا إلهى ! إنها فى إحدى نوبات المشاكسة ، وسـوف أجن قبل أن أقنعها بأن ترتدى الثياب اللائقة ، أؤكد لك يا جـو أنى لا أسر كثيرا بهذه الزيارات . ولكنـه دين علينا للمجتمع ، ولا يمكن لأحـد غيرنا أن يوفيه • سأفعل كل ما تطلبين منى اذا قبلت أن تعنى بملابسك فى هـذه الزيارات ، وليس الأمر عسيرا عليك ، ففى مقدورك عندما تريدين ، أن تتحدثى بلباقة . وتلبسى فى أناقة ، وتحسنى معاملة الناس • انى فخورة بك يا جو ، فخذى بنصيحتى ، وتعـالى معى ، لأنى أخشى الذهـاب وحدى • هيا ساعدينى على ارتداء ثيابى •

قالت جو ، وقد استبدلت مشاكستها بوداعة الحمل :

— أنت ماكرة واسعة الحيـلة ، تمتدحين أختك لتهزميها بهـذه الوسيلة الماهرة ، أنا لا أقر ولا أعقل فكرة الزينة والأناقة ولا أصـدق أنك تخافين الذهاب وحدك ، ولكنى سأرافقك اذا لم يكن لى مفـر من ذلك ، وسأبذل جهدى فى ارضائك ، فكونى قائدتى فى هذه الرحـلة ، وأعدك بالطاعة العمياء • أيرضيك هذا ؟

قالت آمى :

ــ أنت ملك طاهر ، والآن ارتدى أحسن ملابسك ، وسأعلمك كيف تتصرفين فى كل مكان نذهب اليــه ، حتى تتركى أثرا طيبا فى نفــوس الناس ، فانى أريد أن يعجبوا بك ، ولابد أن يفعلوا ذلك ، اذا حاولت مجاراتى ، وتلطفت معهــم • صففى شعرك بطريقــة جذابة ، وضعى الوردة الحمراء فى قبعتك ، لتضفى رونقــا على ثوبك • البسى قفــازك الفاتح ، وخذى منديلك المطرز ، وسوف نمر بميج ، فأقترض مظلتهــا البيضاء ، وأعطيك مظلتى الملونة •

وراحت آمى تصدر الأوامر ، وهى ترتدى ملابسها ، فتطيعها جو وتعمل بأمرها ، ولكن هذه الطاعة لم تكن تخلو من الامتعاض حينــا ، ومن المعارضة أحيانا • وتنهدت جو يأسا ، وهى تحشر جسمها فى ثوبها الأورجاندى الجديد ، وقطبت جبينهــا غيظــا وهى تربط الأشرطة فى قبعتها ، وشدت بنيقتها بعنف ، كأنما تتشاجر معها • وبدا عليها العبوس وهى تخرج المنديل المطرز ، الذى كان تطريزه يخدش أنفها ، ويزيدها ضيقا بالرحلة التى تقوم بها مكرهة • وبعد أن حشرت يديهــا فى قفازها الضيق ، كانت مهمة التزين والتأنق قد انتهت ، فاتجهــت الى آمى ، وعلى وجهها تعبير من البلاهة ، وقالت فى وداعة وتواضع :

ــ انى أشعر بتعاسة بالغة ، وأخشى أن أموت سعيدة اذا قلت ان منظرى وجيه •

قالت آمى :

ــ ان مظهرك يبعث على الرضــا الكامل ، فدورى أمامى ببطء ، ودعينى ألقى عليك نظرة دقيقة •

ودارت جو ، وراحت آمى تنسق لها هندامها ، بلمسة هنا ولمسة هناك ، ثم تراجعت الى الوراء قليـلا ، ونظرت اليها من بعد ، وقالت برفـق :

ـ هذا جميل ، ولم تبق إلا زينة الرأس ، فهـذه القبعة غاية فى الفتنة • ارفعى هامتك ، وأبرزى جمال قبعتك ، وحركى يـديك بخفـة ورشاقة ، ولا تبالى بضيق القفاز • والآن اكملى الزينة بوضع الملفحة حول كتفيك ، ولا تتهربى من ذلك ، فانهـا تزيدك جمالا • كانت فكرة طيبة أن أهدتك مارش ملفحة جميلة رغم بساطتها ، فان طياتهـا التى تغطى الكتفين آية من آيات الفن : انظـرى الى وقوابى هل وشـاحى منسجم ؟ وهـل ثوبى مرتب ، وأزراره منسقة ؟ أحـب أن أكشف عن حذائى ، لأن قدمىّ جميلتان ، أما أنفى فقبيح مع الأسف •

قالت جو ، وهى تحدق فيها بعين الناقد الخبير ، وتتأمل باعجاب الريشة الزرقاء التى تزين شعر أختها الذهنى :

ـ انك آية فنية ، دائما جميلة ودائما بهيجة •

ثم سألتها :

ـ هل أترك ذيل ثوبى يجـر فى الطـريق ، أم أجمعه فى يـدى يا سيدتى ؟

أجابت آمى :

ـ أمسكيه بيديك حين تمشين فى الطريق ، وأطلقيه حـين ندخـل البيوت • فالذيل الطويل خير ما يناسب قوامك ، يجب أن تتعلمى كيف تسحبين أطرافه برشاقة • ولقد فاتتك بعض الأزرار ، فزريها الآن ،

وهذا يدل على أنك لم تعنى بهندامك كما يجب ، وإلا ما فاتتك هـذه الأمور الصغيرة ، مع أن الجمـال لا يكتمل إلا بها .

وتنهدت جو فى ضيق ، وشرعت تزرر كمها ، وكادت تقطع أزرار قفازها وهى تفعل ذلك . وأخيرا تم استعداد الأختين ، وكملت أناقتهما وزينتهما ، فخرجتا من البيت مثل « صورتين » ، على حد تعبير حنـا ، للتى كانت تشيعهما مغتبطة من النافذة العليا .

ومرت الفتـاتان بميج ، واستعارتا مظلتها البيضـاء ، وبعد أن داعبتا التوأمين ، خرجتا الى الطريق مرة أخـرى ، لأداء أول زيارة . قالت آمى لأختها حين اقتربتا من بيت الزيارة :

— ليكن فى علمك يا عزيزتى ، أن سيدات أسرة شستر يعتقـدن أنهن آية فى الأناقة : ولذلك أرجـو أن يـكون مسلكك معهن ممتازا : لا تبدى ملاحظات مفاجأة ، ولا تتصرفى تصرفات شاذة ، وكل ما أطلبه منك ، أن تظـلى هادئة رزينة ، فهـذا أسلم طريق ، يتفق مع الأنوثة الحق . فى مقدورك أن تفعلى ذلك دون عنـاء ، فلن نتخى فى بيتهم أكثر من ربع سـاعة .

قالت جو :

— تريدين منى أن أكون هادئة رزينة ؟ أهـذا كل شىء ؟ نعـم ، بوسعى أن أفعل ذلك ، فقد مثلت على المسرح دور السيدة الأنيقـة ، وأستطيع أن أؤدى الدور مـرة ثانية . ان مواهبى التمثيلية عظيمة ، وسـترين من قدرتى عجبـا ، فليهدأ بالك يا صغيرتى . ولا يقلقـك أمرى .

وتنفست آمى الصعداء لهذا الوعـد ، ولكن جو المشاكسة نفذته حرفيـا : ففى الزيارة الأولى جلست وكل عضو فيها ينطق بالرشاقة • كانت هادئة كمياه البحر فى الصيف ، جامدة كالثلج فى الشتاء ، صامتة كأبى الهول • وعبثا حاولت مسز شستر أن تخرجهـا عن صمتها بامتداح قصتها الجديدة ، وعبثا حاول بنات مسز شستر أن يثرن فضولها بالكلام عن الحفلات والرحلات والأوبرات والمودات ، فقد لزمت جو الوقار ، واقتصرت فى ردودها على ابتسامة أو ايمـاءة ، أو كانت تجيب « بلا » أو « بنعم » فى خجل وحياء • وراحت آمى تومىء اليها عسى أن تستجيب لمحاولات مضيفاتها ، وحاولت دون جدوى أن تشركها فى الحـديث ، ولجـأت الى لكزها بقدمها لتحركها ، ولكن جـو ظلت صامتة جامدة ، كأنها لا تعى شيئا مما يدور حولها •

وخرجت الأختان بعد انتهاء الزيارة ، وحين أغلق الباب وراءهما ، قالت احدى السيدات بصوت وصل الى مسامعهما :

— يا لمس مارش من مخلوقة متكبرة سمجة !

وضحكت جو بصوت خافت وهى تعبر البهو ، ولكن آمى امتعضت لفشل تعليماتها فى توجيه أختها ، فقالت تلومها :

— كيف أسأت فهم قصدى الى هذا الحد ؟ ما أردت منك إلا الوقار والهـدوء ، لا أن تتحولى الى حجر أخرس أصـم • جربى أن تكونى سيدة اجتماعية فى زيارتنا لآل لام ، ثرثرى كما تثرثر الفتيات ، وتحدثى باهتمـام عن الأزياء والمغازلات ، ان آل لام على صلة بأرقى الأوساط ، ومن صالحنا أن ننال عطفهم ، بودى أن تتركى أثرا طيبا فى نفوسـهم بأى ثمن •

قالت جـو :

— سأكون غاية فى اللباقة والانسجام ، فأثرثر وأضحك وأعبث ، وأشترك فى كل صغيرة وكبيرة ، فانى أحب هذا الهذر ، من السـهل أن أتقن دور الفتاة المرحة ، وسأتخذ من ماى شستر مثلا أحتذيه وأتفوق عليه . وسأجعل آل لام يقـولون « يا لجـو مارش من فتـاة كلهـا لطف وحيوية ! »

وأقلق هذا القول آمى ، فهى تعرف جـو حـين تغلبها نزواتها ، فلا تقف فى تصرفاتها عند حد ، وبدا الحزن على وجـه آمى حين شاهدت أختهـا تنساب الى حجرة الاستقبال فى البيت التالى ضاحكة ، وتقبـل على الفتيات جميعهن ، وهى تسرف فى قبـلاتها لهن ، ثـم تنثنى الى الشبان فتبتسم لهم برشاقة ، وتشاركهم فى الحديث فى حيوية مدهشة . وكانت مسز لام تعجب بآمى ، وتؤثرها على أخواتها ، فراحت تختصها بالحديث ، وتقص عليها قصة طويلة ، فى حين وقف ثلاثة من الشـبان يحرمون حول الفتاة ، منتظرين أن تنتهى القصة ، ليتقدموا لانقاذها . وكانت آمى بهذا الوضع ، لا تستطيع مراقبة جو ، التى بدا أن روح الشر قد تملكتها ، فأخـذت تتكلم بسرعة شديدة كمسز لام العجـوز تماما . ولكن الفضول استبد بآمى حـين رأت الرءوس تتجمع حـول أختها ، والعيون تستدير دهشة ، والأيدى تلوح عجبا ، كما أثارت فيها ضحكات الشبان رغبة فى الاستمتاع بنصيبها من المرح ، الذى ينغمسون فيه . وبذلت آمى جهدا لتسمع بعض ما تقوله جو ، ثم فاض بها الألم ، حين وصلت الى أذنيها نتف من حديث أختها ، وسمعتها تقول : « انها تحسن ركوب الخيل بمهارة » ، وسألها أحدهم : « ومن علمهـا ؟ » ، قالت جو : « لا أحد ، كان لديها سرج قديم ، فكانت تمتطيه ، لتتمرن

على أصـول الركوب ، وقواعد امساك الأعنـة ، وهى الآن تركب كل شىء ، لأنها لا تعرف الخوف • وصاحب الحظيرة يسمح لها باستئجار خيوله بأجر زهيد ، لأنهـا تدربها أحسن تدريب • ثم ان لهـا ميـلا للفروسية ، وأنا أقول لها دائما ، صنعة فى اليد أمان من الفقر ، وسيكون فى وسعك أن تكسبى عيشك عن هذا الطريق ، اذا فشـلت فى وجـوه الحياة الأخـرى » •

وكظمت آمى غيظها مما سمعت ، إذ كان الحديث يعطى فكرة سيئة عنها ، يظهرها بمظهر المتبذلة ، وهو أبغض شىء الى نفسها • ولـكن ما حيلتها والعجـوز ما زالت فى منتصف قصتهـا ؟ وقبـل أن تنتهى السيدة من حديثها بوقت طويل ، عادت جو الى الحديث ، مغرقة فى خيالها الماجن ، ترتكب خطأ بعد خطأ • سمعتها آمى تقول للشبان :

ـ • • فى ذلك اليوم اسـتبد اليأس بآمى ، إذ كانت الخيـول الجيدة كلها فى الخارج ، ولم يبق فى الحظيرة الا ثلاثة فى أسوأ حـال : أحدها أعرج ، والثانى أعمى ، والثالث عاجـز لا يستطيع الحـركة إلا اذا حشوت فمه ترابا •

وسألها شاب من الحاضرين ، الذين كانوا مستغرقين فى الضحك

ـ وأيهما اختارت ؟

قالت جـو :

ـ لم تختر واحدا منها ، ولكنها سمعت أن هناك حصـانا فتيا فى مزرعة وراء النهر ، ولم تكن سيدة قد ركبته من قبله ، ومع ذلك قررت آمى أن تجربه ، لمـا اشتهر به من جمال وقوة • وكانت جهودها مثيرة

حقا ، إذ لم يكن فى المزرعة من يعد لها السرج ، فحملت سرجا ووضعته فى القارب ، وراحت تضرب صفحة المـاء بمجدافيها حتى وصلت الى الشاطىء ؛ وهناك حملت السرج فوق رأسها ، وسارت به ــ تلك المخلوقة العزيزة ــ الى أن وصلت الى الجرن ، فلما رآها صاحبه العجوز ، كاد يغشى عليه لفرط الدهشـــة !

وسألها أحدهم :

ــ وهل استطاعت أن تركب الحصان ؟

قالت :

ــ نعم ركبته ، وتمتعت بوقت طيب ، وكنت أظن أنها ستعود الى البيت مهشمة الجسد ، ولكنها استطاعت أن تروض الحصان فى مهارة ، وأن تكون محور النشاط فى الجماعة كلها .

قال مستر لام الابن ، وهــو ينظــر الى آمى معجبا بمهـــارتها وتفوقهـــا :

ــ انها جسورة بلا شك .

ورأى حمرة الخجل تخضب وجه آمى ، فارتد بصره عنهـــا وهو يتســـاءل : ترى ماذا تقول أمه للفتاة ، حتى يحمر وجهها بهذا الشكل ، وتبدو قلقة غير مطمئنة ؟

وازداد احمرار وجه آمى وتضاعف قلقها ، حين تحــول حــديث الجماعة الى الأزياء ، وسمعت احدى الفتيات تسأل جو عن الحانوت الذى اشترت منه قبعتها السمراء الجميلة ، وبدل أن تذكر جــو اسم الحانوت الذى اشترتها منـــه منذ عامين ، قالت الغبية بصراحة لا داعى لهـــا :

— لقد لونتها آمى بهذا اللون الذى لا يوجد له مثيل فى الحوانيت ، ونحن عادة نلون قبعاتنا بأى لـــون نريد ، ومن حسن الحظ أن يـــكون للمرء أخت فنانة مثل آمى •

صاحت مس لام ، وقد وجدت فى حديث جو متعة كبيرة :

— يا لها من فكرة مبتكرة !

قالت جو ، بلهجة تنم عن الزهو والاعتداد بمهارة أختها وأعمالها ، وكان زهـــوا واعتدادا ضاق لهما صـــدر آمى ، حتى تمنت لو كان فى مقدورها أن تقذف جو بحقيبة يدها ، لتنفث عن صدرها الغيظ المكبوت :

— هذا لا يعد شيئا بالمقارنة الى أعمالها الباهرة الأخـــرى ، فمـــا من شىء يصعب عمله على هذه الصغيرة • لقد احتاجت يوما الى حذاء أزرق ، تلبسه فى حفل سالى ، فدهنت حذاءها الموحـــل بلون السماء الصافية ، فبدا كأنه مصنوع من الحرير •

قالت مس لام الكبرى تطرى مواهب جو الأدبية ، وقد اعترفت فى نفسها بأنها لم ترها فى مثل هـــذه الشخصية من قبل :

— لقـــد قرأنا احـــدى قصصك أولى أمس ، وكان سرورنا بهـــا عظيمـــا •

وكان ذكر مؤلفاتها يترك فى نفسها أثرا سيئا ، فأحيانا تقف متصلبة كأنما أهينت ، وأحيانا أخرى تغير موضوع الحديث بكلمة عابرة : وهذا ما فعلته مع مس لام ، إذ قالت :

— يؤسفنى الا تختارى لقراءتك ما هـــو أحسن من قصصى ، فأنا

أكتب هذا الهراء لأنه يلقى رواجا بين الأوساط المادية ، أذاهبة أنت الى نيويورك هذا الشتاء ؟

وكانت مس لام قد أعجبت حقيقة بالقصة ، ولذلك رأت فى اجابة جو خشونة وقحة • وأدركت جو خطأها بعد فوات الأوان ، ولكنها خشيت أن تزيد الموقف سوءا بكلام آخر ، وتذكرت فجأة أن الوقت قد حان للانصراف ، فقاطعت حديث الشبان الثلاثة قائلة :

ــ آمى ، يجب أن نذهب الآن : وداعا يا عزيزتى ، أرجو أن تتفضلى بزيارتنا قريبا ، ويسرنا أن تفعلى ذلك ، أما أنت يا مستر لام فلا أستطيع أن أطالبك بزيارتنا ، ولكنا سنرحب بك اذا جئت •

وكانت تحاول بعباراتها هذه ، أن تقلد دلال ماى شستر ، فجاء تقليدا مضحكا ، دفع آمى الى الاسراع بالخروج من الغرفة ، وقد تملكتها رغبة قوية ، فى أن تضحك وتصرخ فى آن واحد •

وعندما خرجتا الى الطريق ، سألت جو أختها بارتياح ملحوظ :

ــ ألم أحسن التصرف هذه المرة ؟

أجابت آمى باقتضاب :

ــ لم يكن فى الامكان أسوأ مما كان ، ما الذى حملك على رواية هذه القصص السمجة عن السرج والقبعات والأحذية ؟

قالت :

ــ ولكنها كانت قصصا مضحكة سر لها الحاضرون واغتبطوا ،

انهم يعرفون فقرنا ، فلماذا نتظاهر بأننا نملك حظائر للخيول ، ونشتري ثلاث أو أربع قبعات فى الموسم ، ونستطيع أن نجاريهم فى شراء الأشياء الجميلة ؟

فقالت آمى يائسة من أصلاح أختها :

— لا أرى داعيا لأن نتحدث عن حياتنا ، ولا أجد لذة فى التشدق بفقرنا . أنت عديمة الكبرياء ، لا تميزين بين ما يقال وما لا يقال .

وخجلت جو ، وراحت تحك طرف أنفها بمنديلها الخشن ، كأنما تكفر بذلك عن سلوكها القبيح ، ثم سألت أختها ، وهما تقتربان من ثالث قصر فى برنامج الزيارات :

— وكيف تحبين أن يكون سلوكى هنا ؟

أجابت آمى فى اقتضاب :

— تصرفى كما تشائين ، فقد نفضت يدى منك ، ويئست من سلوكك .

فقالت جو بخشونة ، وقد ضاق صدرها بفشلها :

— إذا سأمتع نفسى كما أريد ، فالأطفال فى البيت ، وسأقضى معهم وقتا طيبا ، ان الأناقة تضايقنى ، ويعلم الله أنى فى أشد الحاجة الى بعض الترفيه .

ولكن سرعان ما خف شعورها بالضيق والقلق حين لقيها الأطفال الصغار ، والأولاد الثلاثة الكبار ، بمنتهى الخفاوة والترحيب ، فانصرفت اليهم كلية ، وتركت لآمى تحية المضيفة ، وكذلك تحية مستر تيودور ،

الذى تصادف وجوده للزيارة فى الوقت نفسه • وانتعشت جو ، وأقبلت على أبناء الأسرة تسمع حكاياتهم باهتمام ، وتداعب كلابهم الصغيرة بهدوء ، وتوافق من كل قلبها على ما يقولون • وحين طلب منها أحدهم أن تذهب معه الى السلحفاة التى يربيها ، تبعته بخفة ، وابتسمت صاحبة البيت حين رأت جو تسوى قبعتها ، التى شوشتها أحضان الأطفال ، من كانت تحبهم باخلاص ، وتعتز صادقة بمحبتهم لها •

انطلقت جو على سجيتها تستمتع بالزيارة كما يروق لها ، وتركت أختها تتصرف حسب الأصول الى توافقها • وكان عم مستر تيودور متزوجا من احدى شريفات الانجليز ، وكانت زوجه هذه الابنة الثالثة للورد معروف ، فحبتها آمى بقسط مضاعف من الاجلال والاحترام ، متأثرة فى ذلك بوجاهة الألقاب ، على الرغم من نشأتها الأمريكية ، وتربيتها الديمقراطية • وكان الولاء القديم للنظام الملكى ، قد خرج بأهل أمريكا منذ سنوات لاستقبال احدى الأميرات الانجليزيات ، وظل هذا الولاء عاملا رئيسيا فى عطف أمريكا الشابة على زميلتها انجلترا العجوز ، وجعلت الأولى تحبها مثلما يحب الابن الأكبر أمه ، التى تأبى لفرط شغفها به أن تتركه حتى يثور عليها • واستغرقت آمى فى لذة الحديث مع هؤلاء النبلاء البريطانيين ، ولكنها لم تنس الوقت المحدد للزيارة ، فلما حانت اللحظة المناسبة ، قامت على كره منها تستأذن فى الانصراف ، وراحت تبحث عن جو — التى تعبت فى اصلاحها — وهى ترجو ألا تكون قد ارتكبت خطأ يسىء الى سمعة آل مارش •

وعثرت على جو تجلس على الحشائش مع الأولاد ، وقد قبع كلب قذر على ذيل ثوبها الأنيق ، وكانت تقص عليهم بعض فكاهات لورى ، وهم يصغون اليها معجبين • وكان أحدهم يداعب السلحفاة بمظلة آمى

الجميلة ، والثانى يأكل فطائر الزنجبيل فوق قبعة جو ، والثالث يلعب الكرة بقفازها الأنيق • وكانوا يستمتعون بوقت جميل فى صحبة جـو ، فلما قامت تجمع متاعها المشتت ، استعدادا للانصراف ، صحبها الأولاد حتى الباب ، راجين أن تعود الى زيارتهم مرة ثانية • وقد اعتبرت آمى أن جـو أساءت التصرف ، وكان من الجائز أن يتطور الموقف الى أسوأ ، ولكن الله سلم •

قالت جو ، وهى تسير مع أختها ، وقد عقدت يديها وراء ظهرها ، لتخفى المظلة التى لوثتها الأوساخ •

ــ أليسوا أطفالا مدهشين يا آمى ؟ انى أحس بالشباب والمرح حين أجلس اليهم •

فسألتها آمى ، وهى تتجاهل ما أصاب أناقة جو من عبث الأطفال :

ــ لمـاذا تتحاشين مستر تيودور دائما ؟

قالت جـو :

ــ انى لا أحبه ، لأنه يجلب المتاعب لأبيـه ، ويكثر من تعنيف اخوته ، وهو مغرور لا يتحدث عن والدته بالاحترام الواجب • ولورى يقول انه شاب فاسـد ، ولذلك أكره أن أختلط به ، وأفضـل أن أتركه كمًا مهملا •

قالت آمى :

ــ ولكن هذا لا يمنعك من أن تعامليه بكياسة ، فقد رأيتك تومئين اليه بتحيـة باردة ، مع أنك ابتسـمت فى أدب لتومى تشامبرلين ابن البدال : وكانت الحـكمة تقضى بأن تؤثرى تيودور بالتحية اللائقة •

ولم تسكت جو المشاكسة عن هـذه الملاحظة ، بل قالت :

ـ لن يحدث هذا ابدا ، فأنا لا أحب هذا التيودور ، ولا أحترمه ولا أعجب به ، ولا يهمنى اذا كان ينحدر من سبعة لوردات على التوالى ، أما تومى فهو سـيد ممتاز على الرغم من أنه ابن بدال ، وأنا أقـدره لحيائه واجتهاده ، وأحب أن أشعره بتقديرى •

قالت آمى :

ـ ان المجادلة معك مضـيعة للوقت •••

قاطعتها جـو قائلة :

ـ بالعكس يا سيدتى ، ومع ذلك دعينا من هـذا الموضوع ، حتى لا نعكر مزاجنا ، وهيا بنا نترك بطاقة لآل كنج ، اذ يبدوا أنهم ليسوا فى البيت من حسن الحظ •

وتركت الفتاتان بطاقة لآل كنج ، ثم استأنفتا مسيرهما الى باقى الزيارات ، وتنفست جو الصـعداء حين وصلت الى البيت الخامس ، وقيل لهما ان الفتيات مشغولات عن مقابلة الضـيوف • قالت لأختها :

ـ أرى أن نعود الى البيت ، ولا داعى اليوم لزيارة العمة مارش ، فباستطاعتنا أن نفعل ذلك فى وقت آخر • انى أكره أن نواصـل السير بملابسنا الأنيقة ، ونحن متعبتان مجهدتان •

فقالت آمى :

ـ تكلمى عن نفسك من فضـلك ، فان عمتى يسرها أن نزورها فى أبهى حلة وأكمل منظر ، ولا أحب أن أحرمها من هذه المتعة ، ولن تسىء

الزيارات الرسمية البسيطة الى هندامك ، نصف ما أساء الأطفال والكلاب الذين كنت تلاعبينهم • انحنى قليـلا لأنفض عن قبعتك فتـات الخبز والفطائر •

قالت جو نادمة ، وهى تنقل بصرها من ثوبها المشـوش الى ثوب أختهـا النظيف :

ــ يا لك من فتاة طيبة يا آمى ، وددت لو كان لى بعض قدرتك على خدمة الناس حتى أدخل السرور على قلوبهم • انى أفكر فى هذا ، ولكن التنفيذ يستغرق منى وقتا طويلا ، ولذاك أفضـل الانتظار حتى تحين الفرصة ، فأؤدى لهم خدمة كبيرة تعوضهم عن اهمالى فى الخدمات الصغيرة • ولكنى أعترف بأن الخدمات الصـغيرة تترك فى النفس أثرا أكبر فى آخر الأمر •

ولان قلب آمى فى الحال ، ورقت عاطفتها ، فابتسـمت ثم قالت بلهجة الأم الحنون :

ــ من واجب النساء ــ خصوصا الفقيرات ــ أن يعودن أنفسهن معاملة الناس باللطف والبشاشة ، فانها سبيلهن الوحيد الى رد الجميل • واذا تذكرت نصيحتى هذه وعملت بهـا ، فسيحبك الناس أكثر منى ، لمـا حباك الله به من دواعى المحبة •

قالت جو :

ــ انى مؤمنة بصـواب ما تقولين ، ولكنى امرأة هوائية المزاج ، كذلك دائما ، وأؤكد لك أنه أسهل على أن أغامر بحياتى من أجل شخص من أن ألاطفه مكرهة • من سوء الحظ أن تكون للانسان أهواء فى الحب أو البغض ، أليس كذلك ؟

قالت آمى :

ـ وأسوأ منه أن لا يستطيع الانسان اخفاء أهوائه • انا لا أقر سلوك تيودور ، ولست أقل منك انكارا لأفعاله ، ولكن شعورى الشخصى لا يصح أن يدفعنى الى جرح احساسه ، أو الى التقصير فى مجاملته كما فعلت ، فهـذا سلوك سيىء •

قالت جو :

ـ بل يجب أن نظهر نفورنا من سـلوك الفتيـان الطائشـين ، والمجاملات العادية وسيلتنا الى ذلك ، لأن النصيحة والارشاد لا يجديان شيئا • لقد تعلمت ذلك من صداقتى لتيدى ، وتبينت بالتجربة أن بعض التصرفات الصـامتة تؤثر فيه أكثر من الكلام ، وأرى أن نطبق هـذه القاعدة على الآخرين ، كلما استطعنا الى ذلك سبيلا •

قالت آمى بلهجة جادة ، لو سمعها تيدى لأغرق فى الضحك :

ان تيدى فتى ممتاز ، ولا يمكن أن يقارن بالآخرين ، ولو كنا جميلات أو ثريات أو شهيرات ، لجاز لنا أن نفعل ما نريد • أما أن نكون غير ذلك ، ثم ننظر شزرا الى من لا يعجبنا ، ونبتسم لمن يعجبنا ، فسلوك يضر بنا ولا يؤثر فى غيرنا ، ولن يقال عنا الا أننا أهل شذوذ وترمت •

قالت جـو :

ـ وهل نجامل من نكره ، ونجافى من نحب ، لأننا لسنا جميلات أو مليونيرات ؟ هـذا والله ضرب جـديد من الأدب غـاية فى العجب والطرافة !

قالت آمى :

— ليس فى مقدورى أن أقنعك ، ولكنى أعلم أنها تقاليد الحياة فى العالم كله ، ومن يخرج عليها يثال السخرية والاشمئزاز • وأنا شخصيا لا أحب المصلحين ، ولا أريد أن تنصبى نفسك مصلحة للناس •

قالت :

— وأنا أحب المصلحين ، وسأكون واحدة منهم اذا استطعت ، اذ لا تقدم للدنيا بغيرهم ، مهما سخر العالم منهم واشمأز ، نحن نختلف فى هـذه النقطة كل الاختلاف ، أنت تنتمين الى القديم بعتيقه ، وأنا أنتمى الى الحـديث بجديده • وستوصلك طريقتك الى خير ما تتمنين ، أما أنا فسأتمتع ، عن طريق التجديد ، بوقت حافل بالحيوية والنشـاط وسأتلذذ بصيحات السخرية والاستهزاء •

قالت آمى :

— حسنا ••• أمسكى عن هـذا الحديث الآن ، ولا تشغلى عمتك بأفكارك التقدمية •

قالت جـو :

— سأحاول ، ان كانت الرغبة تتملكنى أحيانا فى الانفجار أمامها بحـديث جرىء أو رأى ثائر ، ولكن ما حيلتى ، وهـذا نصيبى من الحيـاة ؟

وكانت العمتان كارول ومارش تجلسان معـا غارقتين فى حـديث طويل ، فما ان دخلت الفتاتان حتى سكتتا عن الكـلام ، وفى نظراتهما ما يوحى بأن حديثهما كان يتناول بنات أخيهما • وكانت جو قد فقدت مرحها ، وتملكتها روح المشاكسة ، ولكن آمى أدت الواجب على أكمله ؛

وأرضيت العجوزين بهدوئها وأدبها ، واستمالتهما ببشاشتها وصفاء ذهنها وبراءة قلبها ، فرحبتا أجمل ترحيب بها وأسبغتا عليها تحيات حارة ، حتى قالتا بعد انصراف الأختين : « ان هذه الفتاة تتحسن يوما بعد يوم » .

وجلست آمي الى جانب عمتها كارول ، وفى محياها أبلغ معانى الثقة بالنفس ، وهى التى يقدرها الكبار فى الشباب ويحبونها . سألتها العمة :

— أتشتركين فى السوق الخيرية يا عزيزتى ؟

أجابت :

— نعم يا عمتى .. لقد طلبت منى مسز شستر أن أمدّ لها يد المعونة ، فتطوعت بالبيع عند احدى الموائد ، إذ ليس لدى ما أقدمه إلا وقتى .

وقالت جو فى حزم :

— أما أنا فلن أشترك فى هذه السوق ، وانى أكره أن يمن الناس علىّ ، ويصدروا الى الأوامر ، يظن آل شستر أنهم يسبغون علينا جميلا كبيرا بدعوتنا الى مشاركتهن فى هذه السوق ، ويدهشنى أن توافقى على الذهاب يا آمى ، فهم لا يريدون منك إلا العمل والخدمة .

قالت آمى :

— وانى أرحب بهذا ، فليس السوق لآل شستر ، بل للمحرومين والفقراء ، ولا شك أنها مجاملة منهم أن يطلبوا منى نصيبا من العمل ،

لأنال نصيبا من السرور والمتعة • أما الرئاسة فلا تفبدنى ما دام الغرض منها ساميا سليما •

قالت العمة مارش . وهى تنظر الى جو من فوق نظارتها فى عبوس وتجهم :

ـ أنت على حق يا آمى ، وأنا أحب روحك الطيبة الراقية ، ومن دواعى السرور أن نساعد من يقدرون جهودنا ، وليس أدعى الى النفور من أن ينكر بعض الناس قيمة هذه الجهود النبيلة •

ولو كانت جو تعلم ما تخفيه المقادير من سعادة لأحداهما ، لتحولت فى طرفة عين الى حمامة وديعة . ولكن ليس لقلوبنا ـ لسوء الحظ ـ نوافذ تطل منها على عقول الآخرين ، فتعرف ما يدور بخلد الأصدقاء من خير لنا • حقيقة أن الخير عموما لا بمعرفة المستقبل ، ولكن المعرفة أحيانا توغر الوقت الى الهدوء وراحة البال • وكان سوء حظ جو أن أغلت زمام لسانها ، فقالت شيئا حرمها من السرور سنوات عدة ، وعلمها درسا لا ينسى فى وجوب السيطرة على النفس والكلام • إذ قالت لعمتها :

ـ انى لا أحب أفضال الناس وجمائلهم . لأنها تخمد أنفاسى ، وتبعث فى نفسى احساسا بالذلة والعبودية ، وأفضل أن أعمل بنفسى لنفسى ، وأتمتع بحريتى كاملة •

وتنجنحت العمة كارول برفق ، وتطلعت الى العمة مارش فى نظرة ذات مغزى : ثم قالت بايماءة حاسمة :

ـ ألم أقل لك هذا ؟ !

وجلست جو شامخة بأنفها فى الهواء . وعلى وجهها دلائل الثورة والانفعال . وبدت على الرغم من ذلك جذابة لطيفة ، وهى تجهل أثر كلامها فى مستمعاتها .

سألت العمة مارش آمى ، وهى تربت على كتفها :

ـ أتتكلمين الفرنسية يا عزيزتى ؟

أجابت آمى ، وهى تنظر للعمة مارش نظرة مفعمة بالشكر :

ـ أتكلمها بطلاقة ، بفضل عمتى مارش ، فقد جعلت أستر تمرننى عليها كلما أردت .

والتفتت العمة كارول الى جو تسألها :

ـ وأنت ، كيف حال اللغات معك ؟

ـ أجابت جو بسرعة :

ـ لا أعرف كلمة منها ، لأنى محرومة من نعمة الحفظ ، فضلا عن أنى لا أطيق الفرنسية ، إنها لغة فى منتهى الذلاقة ونفسى تضيق بها .

وتبادلت العمتان النظرات مرة أخرى ، ثم قالت العمة مارش لآمى :

ـ أعتقد أنك بخير الآن يا عزيزتى ، وصحتك على ما يرام ، فهل ما زلت تشعرين بتعب فى عينيك ؟

أجابت آمى :

ـ لا ، شكرا لك يا سيدتى ، إنى على خير حال ، وأرجو أن يمكننى

الله من أداء أشياء عظيمة فى الشتاء القادم ، حتى أكون مستعدة للذهاب الى روما حين ما يحل الموعد السعيد •

قالت العمة مارش :

— أيتها الفتاة الطيبة . أنت تستحقين الذهاب الى روما ، وسوف تذهبين فى يوم ما •

وربتت على رأسها ، وهى تنحنى لتلتقط لها بكرة الخيط •

وصاح الببغاء بولى يغنى :

رقعى الثياب　　　وأقفلى البـــاب
وأوقدى النـــار　　　وانسجى الخمـــار

وهبط على كرسى العمة . ووقف على ظهره ينظر الى جو • فى تساؤل وقح ، طربت له الحاضرات وضحكن ، فقالت العمة العجوز :

— يا لك من طائر دقيق الملاحظة •

وصاح الببغاء يقول ثانية :

— أليس فى نيتك أن نتمشى قليلا يا عزيزتى ؟

وقفز نحو الصيوان ، ونظر إليه بما ينم عن رغبته فى قطعـــة من السكر •

فقالت جو تجيب الببغاء :

— هـــذا ما أنتويه بالفعل ، هيا بنا يا آمى •

وأنهت جو الزيارة بهذه الجملة ، وقد ازداد يقينها بسوء أثر الزيارات فى نفسها ومزاجها • وصافحت عمتيها على طريقة الرجال ، أما آمى فقبلتهما ، وانصرفت الفتاتان تاركتين وراءهما أثرين مختلفين اختلاف الظل والشمس المشرقة •

قالت العمة مارش :

— من الخير يا مارى أن تفعلى ما اتفقنا عليه ، سأتكفل بالنفقات •

فأجابت العمة كارول :

— سأفعل بالتأكيد ، اذا وافق أبوها •

الفصل الثلاثون

(نتائج)

كانت سوق مسز شستر الخيرية آية فى الأناقة وحسن الذوق ، حتى اعتبر فتيات الجيزة أن دعوتهن الى الاشتراك فيها شرف ما بعده شرف • وقد وجهت الدعوة الى آمى دون أختها جو . فكان خبرا جزيلا ، إذ كانت جو فى هذه الفترة من حياتها ذات كبرياء عظيمة ، واعتزاز شديد بالنفس ، ولذلك تلقت صدمات كثيرة قبل أن تدرك كيف تسير مع الحياة بسهولة ويسر • ولا شك أن الصدمات تركت جو المترفعة المشاكسة فى وحدة قاسية ، بعكس آمى التى كوفئت على كياستها وذوقها خير مكافأة ، فعهد إليها الإشراف على مائدة الفن فى السوق ، والحق أنها أجهدت نفسها فى إعداد هذه المائدة ، حتى تكون قد ساهمت بنصيب موفور ، فى هذا العمل الخيرى الجليل •

وسارت أمور السوق فى سهولة ويسر ، حتى كان اليوم السابق لافتتاحها ، عندما حدثت بعض مناوشات ، لم يكن من حدوثها بد ، فى مكان يجمع نحو خمس وعشرين سيدة يعملن فى صعيد واحد : على الرغم من اختلاف أعمارهن ومشاربهن •

كانت ماى شستر تغار من محبة الناس لآمى ، وازدادت غيرتها وتأجج لهيبها لبعض الحوادث التافهة ، منها أن جمال لوحات آمى ، طغى على الأوانى التى صنعتها ماى وتعبت فى زخرفتها ، ومنها أيضا أن آثر تيودور آمى بأربع رقصات فى الحفل الذى أقيم بعد ذلك ، ولم يرقص مع ماى إلا مرة واحدة • وجاء الحادث الثالث بما حز فى قلب ماى . وأعطاها

العذر لتكشف عن عدائها سافرا ، وكان ذلك عندما همس بعض المتملقين فى أذنها بأن بنات مارش سخرن منها ، فى أثناء زيارتهن لآل لام ، وجعلنها محور تفكههن ولعل جزءا من اللوم فى هذا يقع على عاتق جـو ، التى جاء تقليدها الخبيث لماى شستر حيا ناطقا . بحيث لم يخف أمره على أحد كما أن جزءا آخر من اللوم يقع على آل لام الذين تسربت منهم هـذه الفكاهة الى مسامع ماى • وعلى أى حال لم يشعر أحد من آل مارش بالحقد الذى يعتلج فى قلب ماى ، ولذلك كان حزن آمى بالغا ، عنـدما جاءتها مسز شستر ــ التى ساءتها بطبيعة الحال السخرية بابنتها ــ فى اليوم السابق للافتتاح ، وقالت لها بلهجـة تسيل عذوبـة ، وإن كانت نظراتها صلبة جامدة :

ــ لقد تضايقت فتيات كثيرات لأنى أعطيت هذه المائدة لواحدة من غير بناتى ، باعتبار أنها أبرز الموائد ، وأكثرها جاذبية • ولما كانت بناتى أول من ساهمن فى هذه السوق ، فقد رأين أن نعهد إليهن بالإشراف على المائدة . وإنى آسفة لهذا التعديل يا عزيزتى ، ولكنى واثقة بأنك أكثر إخلاصا للمبدأ من أن تعيرى المسائل الشخصية اهتماما • ستعطين مائدة أخرى إذا شئت •

وكانت مسز شستر تظن أن الأمر سينتهى بانتهاء كلماتها ، لكنهـا وجدت المهمة عسيرة تحت نظرات آمى المسلطة . فتملكها الاضطـراب حتى لم تستطع أن تنطلق على سجيتها •

وأحست آمى بأن وراء هذه المسألة ما وراءها ، وإن لم تستطع التكهن بما هنالك ، وشعرت بجرح كبريائها ، وأرادت أن تشعر محدثتها بهـذا الجرح فقالت :

ـ أظنك تفضلين أن لا أشرف على أية مائدة فى السوق ؟

فقالت مسز شستر :

ـ لا .. لا .. يا عزيزتى ، أرجو أن لا تسىء الظن بى . المسألة لا تعدو وضع الأمور فى نصابها ، فمن الطبيعى أن يكـون لبناتى مكان الصدارة فى السوق ، وهذه المائدة أليق بهن من غيرها ، وقــد رأيت أن أوضح لك الأمر بطريقة لطيفة . تقديرا لجهودك الثمينة ، ومن واجبنا فى مثل هذه الظروف أن نتخلى عن رغباتنا الشخصية فى سبيل الغاية السامية . سأختار لك مكانا حسنا على مائدة أخرى ، ألا تحبين مائدة الزهـور ؟ إن المشرفات عليها صغيرات ، وفى حاجة الى المعونة . ويتبدنى أنك ستخلقين منها شيئا جميلا أنيقا ، والزهور كما تعملين جذابة دائما .

وأضافت ماى شستر ، وفى عينيها نظرة ذات مغزى :

ـ جذابة للرجال على الأخص !

وأدركت آمى سببا واحدا من الأسباب التى أفقدتها الحظوة لــدى آل شستر ، واحمر وجهها غضبا ، ولكن فيما عدا ذلك ، لم تهتم بسخرية الفتاة ، وأجابت بلطف غير منتظر :

ـ سأذهب حيث تريدين يا مسز شستر ، وسأترك مكانى فورا ، لأعنى بمائدة الزهور كما تحبين .

قالت ماى ، وقد بدأت تحس بتأنيب الضمير :

ـ بوسعك أن تضعى معروضاتك الخاصة على مائدة الزهــور إن أردت .

وكانت فى الحقيقة تريد أن تتلطف مع آمى ، ولكن آمى أساءت فهم ذلك ، فقالت بسرعة :

— سآخذها بالطبع ، ما دامت تقف فى طريقك •

وأسرعت تجمع أشياءها فى مرولتها ، وسارت بها وقد اختلطت عليها الأمور : وأحست بأن الإهانة لم تقتصر على شخصها ، بل نالت أعمالها الفنية أيضا •

وعندما ابتعدت قالت ماى لأمها ، وهى تنظر فى قلق الى الفراغ الذى خلفه نقل صور آمى من مائدتها :

— رباه ! لقد جنت الفتاة ! ليتنى لم أطلب إليك أن تكلميها يا أماه •

فقالت الأم ، وقد أحست بصغر شأنها لاشتراكها فى هذه المشاحنات :

— إن مشاحنات البنات سرعان ما تنتهى •

وعندما ذهبت آمى الى مائدة الزهور ، قابلتها الفتيات الصغيرات بسرور عظيم . وبالغن فى الترحيب بها وبكنوزها الفنية ، مما كان له أثر كبير فى تهدئة عواطفها الثائرة • وبدأت تعمل فى الحال . وكلها عزم على أن تبلغ ذروة النجاح بزهورها ، ما دامت لم تستطع ذلك برسومها •

ولكن خيل إليها أن الظروف تتحالف كلها ضدها : فالوقت متأخر ، وهى منهكة القوى متعبة . وكل من بالسوق مشغول عنها بعمله الخاص ، وليس هناك من يعاونها ، حتى الفتيات الصغيرات كن يعطلنها أكثر مما يساعدنها بجلبتهن وثرثرتهن ، ومحاولتهن الفاشلة فى المحافظة على النظام •

وظل قوس النصر — المجدول من الفروع الخضراء والزهراء اليانعة — يتمايل مهددا بالسقوط فوق رأسها ، وهى تملأ السلال المعلقة فيه بالورود • وأصيبت يداها بجروح وكدمات لكثرة ما دقتهما بالطرقة ، وهى تثبت القوس فى مكانها ؛ كما كان تيار الهواء البارد يلفحها ، فانتابها القلق ، وخافت أن تمرض ؛ فتتخلف عن الحضور الافتتاح فى اليوم التالى •

ولعل كل قارئة مرت بمثل هذه التجربة . تقدر محنة آمى ، وتدعو لها بالتوفيق فى أداء واجبها •

وحين عادت الى البيت فى المساء ، وروت القصة لأهلها ، ثاروا جميعا ثورة عنيفة ، وقالت والدتها :

— إن آمى أحسنت التصرف ، ولكن سلوك آل شستر كان فضيحة كبرى •

وأعلنت بث عزمها على مقاطعة السوق ، وأقسمت ألا تذهب إليه بأى حال من الأحوال . وتساءلت جو لماذا لا تجمع آمى لوحاتها الجميلة وتنسحب بها فورا ، وتترك أولئك الدنيئات يمضين بدونها ؟

قالت آمى :

— لا يصح أن أقابل دناءتهن بمثلها ، ولقد كان من حقى أن أثور وأغضب ، ولكنى اخترت أن أكبت شعورى فى صدرى ، وقد يشعرهن مسلكى هذا بالخطأ أكثر من الثورة والغضب • أليس كذلك يا أماه ؟

فقالت الأم بلهجة السيدة الحكيمة المجربة :

— لقد أحسنت صنعا يا عزيزتى ، وليس أقوى من مقابلة

الإساءة بالإحسان ، وإن كان يصعب علينا أحيانا أن نكظم غيظنا : ونغفر الإساءة لخصومنا •

وظلت آمى طوال اليوم التالى متمسكة بقرارها ، بالرغم من توافر العوامل التى تغريها بالاحتجاج والانتقام . وكان غرضها أن تنحنى أمام العاصفة ، لتقهر غريمتها بالحسنى ، وساعدها على تحقيق هذا الغرض حادث صغير ، وقع فى بداية اليوم ، فترك فى نفسها أبعد الأثر : إذ بينما كانت البنات الصغيرات يملأن سلال الزهور فى حجرة جانبية ، وقفت تشغل نفسها بتنظيم مائدتها ، فوقعت عيناها على رسومها الحبيبة ، ورأت بينها كتيبا بغلاف قديم كان أبوها قد عثر عليه بين تحفه وذخائره • وكان الكتيب يحوى نصائح رائعة مختلفة فعكفت عليه تتصفحه ، حتى استوقف نظرها بيت من الشعر جعلها تقف عنده وتفكر • وكان الشعر مخطوطا بين رسوم ونقوش متعددة الألوان ، موشاة بالأزرق والذهبى ، وسط زهور وأشواك ، وكان الشعر يقول : « أحبب لجارك ما تحب لنفسك » •

وراحت آمى تنقل بصرها بين الكتيب ووجه ماى ، فرأت من خلف أوانى الزهور ، أن الفتاة غاضبة ، لأنها لم تستطع ملء الفراغ الذى نشأ عن سحب لوحات غريمتها • فقالت آمى لنفسها : « نعم » كان يجب أن أحب لجارى ما أحب لنفسى ، ولكنى لم أفعل ذلك » •

ووقفت برهة تقلب صفحات الكتاب فى يدها ، فتقرأ فى كل صفحة منها لوما هادئا على جموع النفس وقساوتها • والنصائح الغالية تأتينا كل يوم فى الطريق والمدرسة وفى المكتب وفى البيت ، وحتى أمام الموائد وفى الأسواق الخيرية قد تصل الينا كلمات طيبة ، لا تبلى حكمتها

الأيام • وهذا ما حدث لآمى ؛ فقام ضميرها يعظها بما استوحاه من نصوص الكتيب ، وكان أن فعلت ما لا تفعله عادة ، وهو أنها آمنت بالموعظة من كل قلبها ، وانبرت الى تنفيذها فورا •

وكانت ثلة من البنات يقفن الى جانب مائدة ماى ، وهن يطرين المعروضات الجميلة ، ويتساءلن هامسات عما دعا الى تغيير نظام البائعات على الموائد • وأدركت آمى أنهن يتحدثن عنها ، بعد أن سمعن جانبا واحدا من القصة ، واستخلصن منه نتيجة تظلمها ؛ فتضايقت لذلك . ولكن روح الخير غلبت عليها ، فلما سمعت ماى تقول فى أسى :

— ان الموقف غاية فى السوء ، والوقت لا يتسع لاعداد أشياء أخرى ، ولا يصح أن نملأ الفراغ بالتوافه ، لقد كانت المائدة كاملة ولكنها فسدت الآن •

قالت احدى الفتيات تقترح حلا :

— أعتقد أنها لن ترفض اعادة الأشياء الى مكانها ، اذا طلبت منها ذلك •

فبدأت ماى تقول :

— وكيف أطلب منها بعد كل ما حدث بيننا ؟

ووجدت آمى الفرصة لتظهر روحها الطيبة . فصاحت بغريمتها تقول لها من أقصى البهو باسمة :

— لست فى حاجة لأن تسأليني اذا كنت تريدينها ؛ خذيها بكل سرور . لقد كنت أنوى اعادتها من تلقاء نفسى ، لأنها أليق بمائدتك من

مائدتى • اليك الأشياء فخذيها من فضلك ، وسامحينى ان كنت قد تسرعت بسحبها ليلة أمس •

وما انتهت من اعادة الصور الى مكانها • حتى سارعت بالعودة ، وهى تشعر أن أسداء الجميل أسهل من طلب الشكر •

قالت احدى البنات :

ـ أليس جميلا منها أن تفعل ذلك ؟

ووافقتها ماى بصوت خفيض ، ولكن فتاة لاذعة اللسان قالت وهى تضحك بخبث :

ـ تصرف جميل جدا ، ولكنها لم تلجأ اليه الا حين أدركت ألا أمل لها فى بيع الصور على مائدتها •

وكان تعليقا ظالما ، فنحن حين نقدم تضحياتنا الصغيرة ، لا ننشد غير التقدير ، لذلك أحست آمى ، بأسف بالغ على ما أسدت من جميل قوبل بالنكران • ولكنها لم تكن تعرف أن المستقبل القريب يدخر لها خير الجزاء : فقد وقع حادث صغير ، رفع روحها المعنوية ، وجعل مائدتها تتألق وتزدهر بفضل حذقها ومهارتها ، وكذلك بدد التوتر وأعاد الأمور الى مجاريها •

مضى اليوم بآمى طويلا شاقا ، بعد أن هجرتها الصغيرات اللواتى كن يساعدنها ، ولم يقبل على زيارة مائدتها الا رواد قليلون ، فجلست بجوار زهورها وحيدة حزينة ، تتحسر على الباقات التى ذبلت ، قبل أن يأتى المساء بوقت طويل •

وكان الازدحام حول مائدة الفن عظيما طيلة اليوم ، لأنها كانت أكثر الموائد جاذبية وجمالا ، وأقبل الوجهاء على شراء معروضاتها ، فامتلأت صناديقها بالمال • وظلت آمى تتطلع الى تلك المائدة ، وفى نفسها حسرة على حرمانها من مكانها الطبيعى فيها . وشعرت أنها فقدت كثيرا من سعادتها بانزوائها فى ذلك الركن دون عمل مفيد • وقد يستهين بعضنا بهذا الوضع ، ويعتبرونه أتفه من أن يستحق الاهتمام ، ولكن آمى كانت شابة جميلة مرحة ، ووضع كهذا لا يدعوها الى السأم والملل فحسب ، بل يحنق أنفاسها أيضا ، ويملأ صدرها بالضيق والشجن • وبلغ بها الحزن أقصاه حين تخيلت أهلها عندما يجتمعون بلورى وأصدقائه فى المساء ، ويعلمون بما جرى لها ، فيرون فيها أصدق صورة للشهيدة التى ذهبت فداء المبدأ •

ولم تعد آمى الى البيت الا وقد أرخى الليل سدوله ، ورغم أنها لم تشك لأهلها . ولم تقص عليهم شيئا مما جرى ، فقد أدركوا من سكونها وشحوبها كيف كان يومها شاقا متعبا • وأعطتها أمها فنجانا اضفيا من الشاى ، وساعدتها بث على تنسيق ثوبها ، وزينت لها شعرها بتاج من الزهور ، أما جو فقد أدهشت أهلها باشارات غامضة الى ما ينتظر من انقلاب فى شأن الموائد •

وخرجت آمى فى الصباح التالى مبكرة ، عسى أن تجد مزيدا من الزهور اليانعة تعزز بها مائدتها وتنعشها ، قالت تحدث جو وهى بسبيلها الى الانصراف :

ـ أرجو ألا تقومى بأى عمل عنيف يا جو ، إذ لا أريد أن أحدث جلبة • اسلكى مسلكا حسنا ، ودعى الأمور تسير فى مجاريها •

قالت جو ، وهى تطل من فوق البوابة فى انتظار قدوم لورى :

— ليس فى نيتى الا أن أكون لطيفــة هادئة ، وسأقف مع أصحابى على مائدتك أطول وقت ممكن ، وسوف يســاعدنى تيدى وأصدقاؤه فى ذلك . وأملى أن نقضى وقتا طيبا •

وتعالى وقع أقدام لورى ، وهو آت فى ضوء الصــباح الباهت . فأسرعت اليه جو تستقبله وتقول :

— أهذا أنت يا صديقى ؟

قال ، وهو يتأبط ذراعها منشرحا ، كأنما تحققت أمانيه كلهــا :

— نعم يا صديقتى ، أنا هو •

قالت جو :

— آه يا لورى ، لو علمت بما حدث •

وراحت تقص عليه متاعب آمى بحرارة الأخوة واخلاصا ، فقال وقد سرت فيه الحماسة لقصتها :

— سيذهب أصدقائى الى السوق زرافات زرافات :ولن أكون لورى اذا لم أجعلهم يشترون كل وردة على مائدة آمى ، ويعسكرون أمامهــا طول الوقت •

قالت جو بلهجة يشوبها الاشمئزاز :

— تقول آمى أن الزهــور على مائدتها ذبلت ، والجــديد منهــا لا يصــل الا فى وقت متأخــر ، أنا لا أحب أن أتجنى على النـــاس

أو أظلمهم ، ولكنى أشك أن أحدهم يؤخر وصولها عمدا • ان من يرتكب الكبائر مرة ، لا يكثر عليه أن يرتكبها مرارا •

فسألها لورى :

— ألم يعطكم البستانى أجمل زهور حديقتنا ؟ لقد طلبت اليه أن يقدم لكم ما تريدون •

أجابت جو :

— لا علم لى بذلك ، ولعله نسى ، فلا داعى لازعاجه بالطلب مرة أخرى ، وان كنت حقا فى حاجة الى بعض الزهور النضرة •

فقال لورى بلهجته الودية المؤثرة :

— الزهور كلها ملكك ، كما هى ملكى ، ألسنا نتقاسم كل شىء دائما ، كيف تظنين أنك فى حاجة الى السؤال ؟

قالت :

— رحمة يا الهى ! أنى لا أحب أن أشاركك على كل ما تفعل ، ولكن لا يجوز أن نضيع الوقت فى مناقشة هذه المسألة ، على أن أساعد آمى ، وعليك أن تستعد ، ولن أنسى لك هذا الجميل ما حييت •

فقال لورى :

— ولم لا تردين الجميل الآن ؟

وكان فى لهجته ايحاء ماكر ، حمل جو على أن تغلق الباب فى وجهه لتسرع بحده عنها ، ثم صاحت تقول له من وراء القضبان :

— اذهب يا تيدى ، فأنا الآن مشغولة •

ومضى اليوم على ما يرام ، وبفضـــل المتآمرين من أجـل سعادة آمى ، حدث الانقلاب المنتظر فى شأن موائد السوق • فقـد حمل هينز البستانى الى الفتاة مجموعة من الزهور النادرة ، مع سلة جميلة نسقها بطريقته الخاصة ، التى اعتـاد أن ينسق بها السلال للاوساط الممتازة ، فكانت تحفة فى جمالها • وجاءت أسرة مارش الى السوق بكامل هيئتها . وراحت جو تبذل منتهى براعتها فى تحقيق غرضها ، فكان نجاحها رائعا ، إذ كان رواد السوق يقفون معها ليستمتعوا بعبثهـا اللطيف ، ويعجبوا بذوق آمى الرفيع فى التنسيق • وأقبل لـورى وأصدقاؤه على المائـدة يشترون باقات الزهـور . ويدفعون فيها أثمانا سخية . حتى أتوا عليها ، ولم يبقوا على شىء منها ، ثم عسكروا أمام الفتـاة وحـولوا ركنهـا الهادىء الى جنة تفيض بالمرح وتنبض بالحياة • وهدأت نفس آمى ، وعاودها اشراقها ونشاطها ، وبدت على وجهها أمارات التأثر بما فعـل هؤلاء الفتيان الطيبون ، وراحت تفكر فيمـا كانت تغـرى به نفسها فى الصباح ، من أن أجـر الخير لا يضيع ، فتحمد الله أنها جوزيت أحسن جزاء على عملها الطيب •

وسلكت جو طول اليوم مسلكا مثاليا ، وحين طوقت حاشية الشرف آمى السعيدة ، قامت هى بجـولة فى السوق ، تتلمس أخبار ما يـدور هنا وهناك ، فعلمت من شتات الأحاديث . أثر تغيير أحـوال الموائـد فى نفوس الحاضرات • كمـا اكتشفت أيضـا ما صنعته آمى من اعادة رسومها الى مائدة الفن ، فاعتبرت صنيع أختها مثلا أعلى فى الشهامة وكرم الأخلاق • وعندما مرت بمائدة الفن ، ألقت عليهـا نظرة ، لتتبين ما صارت اليه رسوم أختها . فلما لم تجـد لها أثرا ، دار بخلدها أن

الرسوم قد أخفيت عمدا عن الأنظـار • وكانت جو تتسامح مع بعض من يخطئون فى حقها ، ولكنها تثور اذا أهين فرد من أسرتها ، لـذلك تملكها الغضب ، ولم تستطع أن تسيطر عليه الا بصعوبة شديدة • وكانت ماى تقف عند المائدة ، فلما رأت جو ، أبت الا أن تكون كريمـة متسامحة مثل آمى ، فقالت بلهجة تنم عن رغبة فى الاسترضاء :

ـ مساء الخير يا جو ، كيف تسير آمى فى عملها ؟

ولم تستطع جو أن تقاوم نفسها ، فقالت :

ـ لقد باعت كل ما يستحق البيع ، هى الآن تستمتع بوقتها ، فمائدة الأزهار كما تعلمين ، جذابة دائما « خصوصا للرجال » •

وتلقت ماى هذه الصفعة الصغيرة بهدوء ، مما جعـل جو تشـعر بالندم بعد لحظة قصيرة ، فراحت تصلح خطأها بامتداح الأوانى الجميلة الكبيرة التى لم تجد الى الآن شـاريا ، وأرادت أن تطمئن على مصير رسوم أختها ، فقالت تسأل ماى :

ـ أين رسوم آمى ، انى أريد أن أشترى بعضها لأبى •

فقالت ماى :

لقد بيعت كلها منذ وقت طويل ، فقـد حرصت على تقديمها لمـن يقدرون الفن حق قدره ، فاشتروها بمال كثير •

وفرحت جو جدا بهذا النبأ ، وعـادت الى آمى تبلغها الأخبـار الطيبة ، فاغتبطت الفتاة بدورها ، وقالت لأصدقاء تيدى :

— والآن أيها السـادة ، أرجوكم أن تذهبـوا الى زيارة الموائـد الأخرى ، وتؤدوا نحوها واجبكم كمـا فعلتم معى ، وأوصيكم بمائدة الفن على الأخص .

وعندما بدأ الفتيان يتحركون فى ميدان السوق ، قالت جو :

— عليكم بمائدة شستر ، واشتروا منها كل شىء ، وستأخذون فى مقابل نقودكم فنا رفيعـا بمعنى الكلمة . هيـا الى الواجب كرجـال كـرماء .

وقال باركـر الصغير متظرفا :

— سمعا وطاعة ، ولكنى أفضل مارس على مايو .

وكان يشير بذلك الى مارش (اسم شهر مارس بالانجليزية) اجمل من ماى (اسم شهر مايو) ، ولكن لورى أسكته فى الحال قائلا :

— حسنا يا بنى انه أجمـل فى عيون الصغار !

وجذبه من يده ، وهو يربت على رأسه فى حنـان الأب . وأرادت آمى أن تجرد غريمتها من آخر سـلاح فى يدها ، فقالت تهمس فى أذن لـورى :

— اشتر أوانى الزهور .

ولم يكتف لورى بشراء الأوانى ، بل سار فى البهـو يتأبط آنيـة تحت كل ذراع من ذراعيه ، واشترك السـادة الآخـرون فى مزايدات حاميـة ، لشراء بقية المعروضات ، فابتاعوا كثيرا من الأشياء التافهة ،

ثم طافوا بأرجاء البهو محملين بالزهور الصناعية والمراوح الملونة ، والمحافظ المزركشة ، مما زاد فى سرور ماى شستر وابتهاجها •

وكانت العمة كارول هناك ، فلما سمعت بما حدث لآمى ، انتحت جانبا بمسز مارش وأسرت اليها بكلمات جعلتها تبتسم راضية ، وترقب ابنتها بوجه اختلط فيه السرور بالقلق ، ولكنها احتفظت لنفسها بما سمعته ، ولم تفصح عن أسباب سرورها الا بعد أيام عدة •

وعندما انتهت السوق ، وأعلن خبر نجاحها العظيم ، قالت ماى لآمى تودعها :

— ليلة سعيدة •

ولم تتبسط فى حديثها كالمعتاد ، ولكنها قبلتها قبلة حارة ، ونظرت اليها بندم وأسف على ما بدر منها ، فارتاح قلب آمى لذلك ، واعتبرتها ترضية كافية • وحين عادت الى البيت ، وجدت أوانى الزهور مصفوفة على المدفأة ، وجعل اورى يقدم اليها كل آنية بحركة تمثيلية ، ويقول انها جزاء الفضل لمس مارش ذات الكرم والشهامة •

وفى ساعة متأخرة من الليل ، جلست آمى وجو تمشطان شعرهما استعدادا للنوم ، وقالت جو بحرارة :

— ما كنت أعتقد يا آمى أنك على هذا الخلق والمبادىء ، وأنى أحترمك من كل قلبى لتلك العايا ، وتصرفاتك المهذبة •

وأضافت بث ، وهى تضع رأسها على وسادتها :

— نعم ، أنت بسماحتك موضع حبنا واحترامنا ، وكان موقفك

طوال الوقت شاقا عسيرا ، ولكنك بذلت جهدك فى العمل ، وكرست قلبك للمبدأ ، وعاهدت النفس مخلصة على أداء الواجب . لا أظن أننى كنت أستطيع فى مثل هذا الموقف ، أن أتصرف مثلك بالرفق واللين .

وقالت آمى :

ــ ما هــذا المديح يا بنــات ؟ لســت أر داعيــا له ، فما فعلت الا ما أحب أن يفعله الآخرون معى ، كنتن تضحكن منى عنــدما أقول : « انى أريد أن أكون سيدة نبيلة » ولكنى كنت أعنى ذلك ، وأتوق بالفعل الى أن أكــون ســيدة نبيلة . فى تفكيرى وتصرفاتى ، فأعلـو بنفسى عن صغائر النزوات والترهات التى تفسد ســيدات كثيرات ، وأعترف بأننى مازلت بعيدة عن بلوغ غايتى الكاملة .

وكانت تتكلم بحزم ، فقالت لها جو وهى تحتضنها بعطف :

ــ لقد أدركت الآن ما تعنين : ولن أضحك منك بعد اليوم . انــك تتقدمين الى هدفك بأسرع مما تظنين ، وسآخذ عنــك دروسا فى الأدب الصحيح ، لأنك عرفت سر الحياة على ما أعتقد . استمرى فى محاولتك يا عزيزتى ، وستنالين جزاءك يوما ما ؛ وعندئذ لن تجــدى أسعد منى بتوفيقك .

ولم يمض أسبوع واحد على هــذا الحــديث ، حتى نالت آمى جزاءها : ولكن جو المسكينة لم تستطع أن تفرح كما وعــدت ، لأنهــا كانت فى عراك مع نفسها ؛ فقد جاء خطــاب من العمة كارول ؛ فلمــا قرأته مسز مارش ، أشرق وجههــا بالسرور الى درجــة حملت جــو وبث ــ وقد كانتا تجلسان الى جوارها ــ على أن تسألاها عما جــاء فى الخطاب من أنباء سارة ، فقالت الأم :

— ان العمة كارول مسافرة الى أوروبا فى الشهر القادم ، وتريد …

وصاحت جو تقاطعها : وهى تهب واقفة ، وقد غاض بها السرور فلم تستطع ضبط مشاعرها ، وقالت :

— وتريد أن أذهب معها !

اجابت الأم :

— لا يا عزيزتى ، انها لا تريدك أنت ، بل تريد آمى .

قالت جو :

— آه ، انها لا تزال صغيرة جدا يا أماه ، والدور دورى أولا ، وقد كنت أحلم بهذه الفرصة منذ زمن طويل ، والسفر كما تعلمين يفيدنى ، ويمنحنى أحسن الفرص … يجب أن أسافر .

قالت الأم :

— أخشى أن يكون هذا مستحيلا يا جو ، فالعمة حاسمة فى طلب آمى ، وليس لنا أن نملى ارادتنا ، حين تعرض علينا جميلا كهذا .

وانحدرت الدموع من عينى جو ، وهى تقول :

— هكذا الحال دائما ، المسرات من نصيب آمى ، والأعمال والمتاعب من نصيبى أنا ، ليس هذا من العدل فى شىء .. لا ، ليس هذا من العدل فى شىء .

قالت الأم :

— أخشى أن تكونى الملومة يا عزيزتى ، فقد تحدثت الى عمتك فى الأسبوع الماضى ، وأبدت أسفها لمسلكك الجاف ونزعتك الاستقلالية ، واليك بعض مقتطفات مما تقول فى خطابها : « لقد فكرت بادىء الأمر فى اصطحاب جو ، ولكنها تكره الفرنسية ، ولا تحتمل أفضال الناس وجمائلهم ، فلم أجد ما يدعونى الى المغامرة باصطحابها ، أما آمى فأكثر منها ألفة ، وستكون رفيقة طيبة « لفلو » ، وستتقبل بالشكر والامتنان كل فائدة تنالها من هذه الرحلة .

قالت جو ، وهى ترفر زفرة حارة ، وقد تذكرت تفاصيل الحديث الذى قضى على آمالها :

— آه من لسانى ! .. لسانى اللاذع ! لماذا أعجز عن السيطرة عليه ؟

وراحت تقص على أمها حديثها مع عمتها ، فقالت الأم بحزن :

— ليتك تستطيعين الذهاب ، ولكن لا أمل الآن ، فتحملى الأمر بشجاعة ، ولا تفسدى على آمى فرحتها ، بالتفجع والتحسر على ما فات .

وكانت جو قد أسقطت سلة الورود حين قفزت فرحة فى بداية الموقف ، فقالت وهى تعيدها الى مكانها :

— سأحاول : وسأكون على مثالها ، وأرجو أن لا يظهر السرور على وجهى فحسب بل أكون مسرورة فعلا ، انها مهمة شاقة ، وخيبة الأمل عميقة الأثر فى النفس ، ولكن واجبى أن لا أفسد سعادة أختى بمشاعرى الخاصة .

وانحنت على الوسادة تعضها غيظا ، وتبللها بدموع الحزن والألم • وهمست بث فى أذنها ، وهى تضمها الى صدرها فى عطف وحب :

— عزيزتى جو ، انى سعيدة ببقائك معى ، وأنانيتى تجعلنى أتمسك بصحبتك •

وكان الأسى يحز فى نفس جو ، ويغريها بأن تذهب الى العمة كارول ، وتتوسل اليها وتضرع ، لتثبت لها كيف يكون العرفان بالجميل ، ولكن كلمات بث نزلت عليها بردا وسلاما ، وأعادت اليها هدوءها وراحتها •

وحين عادت آمى الى البيت ، كانت جو قد استعادت حالتها الطبيعية ، وأمكنها أن تشارك الأسرة فى احتفالها ، لا من كل قلبها كما اعتادت دائما ، ولكن دون حقد أو حسد • واستقبلت آمى النبأ فى حبور ، وأخذت تدور فى أنحاء البيت نشوانة مسرورة ، وبدأت فى المساء تجمع أقلامها وألوانها التى ستأخذها معها ، وتركت المسائل التافهة الأخرى — كالملابس والنقود وجواز السفر — لمن هم دونها انهماكا فى دنيا الفن •

قالت آمى لأخواتها بانفعال ، وهى تزيل بعض الألوان الجافة عن لوحة الألوان :

— لن أطلب مجرد المتعة من هذه الرحلة • فانى أرجو أن يتقرر فيها مصيرى الفنى ، وسأعرف فى روما اذا كنت من أصحاب الموهبة ، وسأحاول أن أثبت وجود هذه الموهبة بأعمال قيمة •

وقالت جو ، وهى تخيط البنيقات الجديدة التى ستأخذها آمى ، وقد احمرت عيناها :

ــ واذا لم تكونى من أصحاب المواهب ؟

وتقلصت عضلات وجه آمى الطموح ، لمجرد التفكير فى هذا الاحتمال ، ولكنها قالت بهدوء الفلاسفة :

ــ حينئذ أعود الى الوطن ، وأكسب عيشى من تدريس الرسم .

فقالت جو :

ــ لا .. لن تفعلى هذا ، فأنت تكرهين الأعمال الشاقة ، وأعتقد أنك ستتزوجين رجلا غنيا ، وتعودين الى الوطن لتعيشى فى أحضان النعمة والترف طول حياتك .

وابتسمت آمى : كأنما شاقها أن تلعب دور احدى النبيلات ، وبدا لها هذا الدور أوفق كثيرا من إعطاء دروس فى مدرسة الرسم الفقيرة ، وقالت :

ــ ان نبوءاتك تتحقق أحيانا ، ولكنى أشك فى صدق هذه النبوءة ، وان كنت أتمنى أن تصح ، وعلى كل حال ، اذا لم أستطع أن أصبح فنانة ، فليس أحب الى من أن أساعد غيرى على اظهار مواهبهم .

وسعلت جو ، وتنهدت قائلة :

ــ ستتحقق اذا أردت ، فأنت تبلغين آمالك دائما ، أما أنا فلا .

وسألتها آمى ، وهى تلعب بالسكين فى تفكير وشرود :

ــ أتحبين أن تسافرى ؟

اجابت جو :

ــ دون شك ..

قالت :

ــ حسنا .. سأطلب اليك أن تحضرى فى بحر عـام أو عامين ، وسنذهب معا الى مواطن الآثار فى روما ، لنبحث عن بعض الآثار الثمينة المدفونة ، وننفذ برنامجنا الذى سبق أن وضعناه مرّات كثيرة .

وأجابت جو ، وهى تقبل العرض الغامض العظيم : وهى شـاكرة على قـدر ما تستطيع :

أشكرك .. وسأذكرك بوعدك هذا حين يأتى اليوم السعيد : اذا قـدر له أن يأتى أبدا .

ولم تكن هناك فسـحة من الوقت للاستعداد ، فظل البيت كله فى اضطراب وفوضى حتى سافرت آمى . واحتملت جو الموقف بصبر وجلد ، ولكن حين اختفت الباخرة عن أنظارها ، وعادت الى بيتها ، انـزوت فى مخبئها ، وأطلقت العنان لدموعها حتى أرهقها البكاء . أما آمى فقـد احتملت بدورها موقف الوداع بشجاعة ، ولكن عندما بدأ البحارة فى رفع سلم الباخرة ، وفكرت فى أن المحيط الواسع سرعان ما سيفصل بينهـا وبين أسرتها ، تعلقت بلورى : الذى كان آخر من بقى على ظهر السفينة ، وقالت له وهى تنتحب :

ــ أشملهن جميعا برعايتك اكراما لى ، واذا حدث شىء ...

وهمس فى أذنها ، وهو يرجو أن تمكنه الظروف من تحقيق وعده :

ــ سأفعل يا عزيزتى .. سأفعل واذا حـدث شىء فسآتى اليك لأطمئنك .

وأبحرت آمى من العالم الجديد الى العالم القديم ، الذى سيظل دائما جديدا جميلا فى أعين الشباب ، ووقف والدها على الشاطىء يرقبها ، ضارعا الى الله أن لا يصيب فتاته الطيبة سوى النجاح والتوفيق • وظلت الفتاة تلوح بيدها ، حتى اختفت الباخرة تماما ولم يعد يرى سوى قرص الشمس ، وهو يعكس أضواءه الباهرة على مياه البحر •

الفصل الواحد والثلاثون

مراسلنا فى الخارج

« لنــدن »

أهلى الأعزاء

انى أجلس الآن أمام النافذة الأمامية بفندق باث فى بيكاديللى ، وهو ليس من الفنادق الراقية ، ولكن زوج عمتى لا يرضى عنه بديلا ، لأنه سبق أن أقام به مرّة منذ سنوات طويلة • لا أهمية لذلك على كل حال : فلسنا ننوى الاقامة طويلا بهذا المكان : آه ! •• لا أدرى كيف أبدأ بوصف ما تمتعت به من مسرات ، ولا أظن أننى قادرة على وصفها اذا حاولت ، ولذا يكفى أن أقــدم لكم مقتطفات من مذكراتى ، اذ لم أفعل شيئا منذ سافرت إلا الكتابة والرسم •

أرسلت لكم كلمة قصيرة من هاليفاكس ، وكنت يومها غاية فى الشقاء لفراقكم ، ولكن سرعان ما تغلبت على أحزانى ، وقضــيت بقية الرحــلة على ما يرام • لم يصبنى دوار البحر إلا لماما ، وكنت أقضى اليوم كله على ظهر السفينة مع أصــحاب فى منتهى الظرف والبشاشــة ، وكانوا يحسنون معاملتى خصوصا ضباط الباخرة • لا تضحكى يا جو ، فوجود الرجــال ضرورى على ظهور الســفن ، ومهمتهم أن يعنوا بالمســافرين ويؤنسوهم ، وفى هذا العمل أيضا رحمة بهم ، ونفع لهم ، ولولاه ما وجدوا سبيلا الى قتل فراغهم ، سوى التدخين المضر بصحتهم •

كان لدوار البحر أثر سيىء فى عمتى وابنتها فلو ، ولذلك عزمتا عن الاشتراك معى فى مباهج الرحلة ، وامتنعتا عن الصعود الى ظهر السفينة ،

فكنت أقدم لهما كل معونة ممكنة ، ثم أطلب التسلية لنفسى وحيدة • ان السير على ظهر السفينة متعة ، ومشاهدة غروب الشمس لذة ، وليس أجمل من استنشاق هواء البحر العليل ، وليس أدعى الى التسلية من مراقبة الأمواج وهى تتدافع بقوة •

وددت لو كان باستطاعة بث أن تأتى معى ، لتستفيد بهواء البحر العليل ، أما جو فما كانت تتردد عن تسلق الصوارى ، لتجلس فى أعلى مكان منها ، أو تصادق المهندسين ، أو تنفخ فى البوق الذى يصدر فيه الربان أوامره ، أو غير ذلك من المتع التى تبعث فى نفسها نشوة كبرى •

كان كل شىء فى الرحلة جميلا ، وفاض بى السرور ، عندما لاح الشاطىء الايرلندى ، فوجدته غاية فى الجمال : أرض خضراء مشمسة ، تنتشر فى جنباتها أكواخ داكنة ، وتقوم على بعض تلالها آثار وأطلال • استيقظت مبكرة لأشاهد السفينة تدخل الميناء ، وكان الجو باردا فى الصباح ، والخليج ممتلئا بالقوارب ، والشاطىء بهيج الألوان ، والسماء وردية من فوقنا ، كان منظرا لا ينسى •

وفى كوينز تاون تركنا مستر لينوكس ، وهو أحد معارفى الجدد ، وبينما كنت أتحدث معه ذات يوم ، جاء ذكر بحيرات كيليرنى ، فتنهد من أعماق قلبه ، وراح ينشد الأبيات الآتية ، وهو ينظر الىّ :

هل سمعت عن كيت كيرنى ؟
إنها تعيش على شواطىء كيليرنى ،
ومن لمح عينيها يشع سحر فتان ،
فانج بنفسك من الهلاك ،
بعيدا عن سحر كيت كيرنى •

أليس هـــذا كلاما فارغا ؟ !

رست السفينة بضع ساعات فقط فى ليفربول ، وهى مدينة صاخبة قذرة ، فسررت عندما غادرناها • وفى أثناء رسو السفينة نزل زوج عمتى الى الشاطىء ، واشترى مظلة وقفازا جلديا وبعض الأحذية السميكة ذات الشكل القبيح ، وكان أول ما فعله بعد ذلك أن قص شعره على الطريقة الانجليزية ، واطمأن الى أنه قــد أصبح بريطانيا أصيلا • ثم جلس الى صبى من ماسحى الأحذية ، لينظف له حذاءه من الوحل ويلمعه ، فلما انتهى الصــبى من عمله ، نظر الى زوج عمتى وقال : « لقــد نظفتها يا سيدى على آخر طراز أمريكى » • وقد دهش زوج عمتى لذلك دهشة بالغة ••• نسيت أن أقول لكم أن مستر لينوكس عندما ترك السفينة ، كلف صــديقه وورد ــ الذى أكمل رحلته معنا الى هنا ــ بأن يشترى لى باقة من الزهور الجميلة ، ووضع عليها بطاقة كتب فيها « مع تحيات روبرت اينوكس » • وكانت الزهور أول ما وقع عليه نظرى فى الغرفة ، أفلا ترين يا بنات كم كان الوقت مسليا ؟ صــدقننى أن الســفر متعة عظيمــة •

لن أطيل عليكن الحديث ، وإلا ما وصلت الى أخبار مدينة لندن : كانت الرحلة بالقطار أشبه بزيارة متحف فنى عامر باللوحات الطبيعية الجميلة ، وقد أعجبت كثيرا بمنظر الأكواخ الريفية ، والبيوت القروية ، وجدتها مسقوفة بالقش ، تغطيها أشجار اللبلاب المتسلقة • أما نوافذها فتشبه « المشربيات » ، وعلى أبوابها تقف سيدات بدينات حولهن أطفال أصحاء • ورأيت المواشى تقف فى حقول المراعى ، وقد أخفت الحشائش أقدامها الى الركب ، والعجيب أنها تبدو أكثر هدوءا من مواشينا ، وحتى الدجاج كانت أصواته تدخل على الرضا والشبع ، بعكس دجاجنا الأمريكى

الثائر الغاضب ، ولم تقع عينى من قبل على مثل هذه الألوان المتناسقة ، فالحشائش نضرة الخضرة ، والسـماء صـافية الزرقة ، والقمح ذهبى الصفرة ، وجذوع الأشجار حالكة السواد • وكنت أنا وفلو فى نشـوة طول الطريق ، نقفز من جانب العربة الى جانبها الآخر ، حتى لا يفوتنا منظر ونحن نسير بسرعة ستين ميلا فى الساعة • واستسلمت عمتى للنوم لشـدة تعبها ، وعكف زوج عمتى على الدليل يقرؤه غير مهتم بما يرى حولنا • وهـكذا مضى بنا السفر حتى رأيت أبنية وسط أشجار عالية ، فصحت أقول : « هـذه مدينة كينلويرث » فأسرعت فلو تنظر من نافذتى وتقول : « يا له من مكان جميل ، لا بد أن نزوره يوما يا أبى » • فأجاب زوج عمتى ، وهو يتأمل حذاءه الجـديد باعجاب شديد : « لن نزوره يا عزيزتى ، إلا اذا كنت تريدين أن تشربى شيئا من الجعة ، فهذا مصنع للجعـة » !!

وسكتنا قليـلا ، ولكن سرعان ما صـاحت فلو تقول : « رحمتك يا إلهى ! أرى مشانق منصوبة ، ورجلا يصعد اليها » ، وصرخت أسألها : « أين •• أين » ؟ ••• وحدقت النظر فى عمودين طويلين ، تصل بينهما عارضة خشبية ، تتدلى منها السلاسل ، فقال زوج عمتى ، وقـد لمعت عيناه ، « إنها رافعة منجم الفحم » • ومرة قلت لفلو : « هـذا قطيع من الأغنام ترقد على الأرض » ، وأضافت وهى تقول ، « الا ما أجملها ، انظر يا أبى ! » وأجاب أبوها يقول فى استنكار : « هذا أوز يا بنات » • وعندئذ سئمت فلو النظر ، وانصرفت الى كتابها تقرأ فيه ، ورحت أنا أستمتع وحـدى بالمناظر كلها فى صـمت •

وحين وصلنا الى لندن ، وجدنا السماء تمطر كعادتها ، ولم يكن فى امكاننا أن نرى شيئا لكثافة الضباب : وقضينا بعض الوقت نحل حقائبنا ،

ثم نزلنا الى السوق تحت أمطـار متقطعة لنشترى بعض الأشـياء • ولاحظت عمتى أنى لم أستكمل ملابسى نظرا لسفرى المفاجىء ، فاشتريت قبعة بيضاء ، وريشة زرقاء ، وثوبا من الموسلين ، ووشـاحا غـاية فى الجمال : بل هو أجمل ما رأيت •

وزيارة المتاجر فى ريجنت ستريت متعة ما بعدها متعة ، والسـلع زهيدة الأثمان ، فمثلا ياردة من الأشرطة الجميلة تساوى ستة بنسات فقط ، ولذلك اشتريت منها مجموعة كبـيرة ، أما القفازات فأفضـل أن أشتريها من باريز : حـال وصـولنا اليها ، أليس هـذا دليل الأناقة والثراء ؟ !

وانتهزنا فرصـة خروج عمتى وزوجهـا لشراء بعض لوازمهما ، فاستأجرت أنا وفلو عربة جميلة ، خرجنا فيها للرياضة والتسليـة ، ثم عرفنا فيما بعد أنه لا يليق بالفتيات الفاضلات أن يركبن العربات إلا مع الكبار • ولكنها كانت رحلة طريفة . فما أن أقفل السائق علينا باب العربة ، حتى اندفع يجرى بنا فى سرعة كبيرة ، ذعرت لها فلو ، وطلبت منى أن أوقفه ، ولكنه كان يجلس على مقعدة العالى وراء حاجز يفصله عنا ، ولم أجـد سبيلا اليه وهو فى خارج العربة ونحن بداخلها • وصحت أناديه تارة وتارة أخرى أطرق بمظلتى على باب العربة ، فذهبت جهودى هباء ، ولم يسمع ندائى ولا ضرباتى ، وهكذا بطلت حيلنا ، والعربة تمرق بنا كالسهم ، وتدور فى المنحنيات دورانا مخيفا • وأخيرا شاهدت كوة فى السقف ، دفعتها بطرف المظلة فانفتحت ، فأطل علينا السـائق بعينيه الحمراوين ، وسمعنا صوته المخمور يقول : « ماذا تريدين يا سيدتى ؟ »، فأمليت عليه تعليماتى فى تؤدة وثبات على قـدر الامكان ، فأقفل الكوة وهو يقول : « سمعا وطاعة يا سيدتى » • وراح يسوق الحصان ببطء

شديد ، كأننا نسير فى جنازة .. فدفعت الكوة مرة أخرى ، وطلبت منه أن يسرع قليلا ، ولكن الرجل اندفع ثانية يعدو بسرعة جنونية ، وأمام ذلك لم نجد بدًّا من أن نخضع لقدرنا ، ونستسلم لحظنا .

الجو جميل اليوم ، وقد ذهبنا الى حديقة هايدبارك متنزه الطبقة الراقية . ان الدوق ديفونشاير يسكن قريبا منا ، وكثيرا ما أرى خدمه الخصوصيين يجلسون عند البوابة الخلفية ، وبيت دوق ولنجتون ليس بعيدا عنا أيضا ، والحقيقة أننا أكثر ارستقراطية مما نبدو . ورأيت فى هايدبارك أبدع المناظر وأجملها ، فهى خليط من الألوان والأشكال يسلى أكثر من « القراقوز » : سيدات بدينات يذرعن الطريق فى عربات مطهمة لونها أحمر وأصفر ، ويقف خلفها حراس فى ملابس حريرية زاهية اللون ، ويقودها سائقون فى أحسن زينة ... ومربيات رشيقات يرعين أطفالا لم أر لهم مثيلا فى الصحة والقوة ... وفتيات جميلات يسرن فى تيه ودلال .. وفتيان متأنقون على رءوسهم قبعات انجليزية غريبة الشكل .. وأطفال كالزهور .. وجنود عمالقة يلبسون معاطف حمراء قصيرة ، وقبعات مستديرة تميل على جانب من رءوسهم بشكل مضحك ، بودى لو استطعت أن أرسم صورا تذكرنى بهم .

ذهبنا الى مكان يدعى « روتن رو » — ومعناها طريق الملك — وهو بمثابة مدرسة للفروسية ، فيه خيول مطهمة ، ومدربون فى منتهى الرشاقة ، أما السيدات فيجلسن على ظهور الخيل متصلبات ، يهتززن بما لا يتفق وأصول الركوب عندنا . وكم بودى لو أمكنى أن أريهن كيف تكون الفروسية ، حتى لا يركبن خببا فى تعاظم وكبرياء ، وهن يلبسن الملابس القصيرة والقبعات العالية ، كأنهن التماثيل المزوقة . والركوب هنا رياضة يمارسها الناس جميعا ، الرجال والنساء ، الكبار والصغار ،

السمان والنحاف • ويتبدل الشبان والشبات الغزل فى حلبة الركوب ، والعادة أن يضع كل فرد وردة فى سترة الركوب ، وقد رأيت حبيبين يتبادلان الورود دليل الوفاء ، فأعجبتنى الفكرة كثيرا •

وذهبنا فى المساء الى كنيسة « وستمنسر » ، ومن المستحيل على أن أصفها لكم ، ولذلك أكتفى بأن أقول إنها فخمة • وسأذهب الليلة لمشاهدة « غلنتشر » ، وبذلك ينتهى أسعد يوم فى حياتى •

منتصف الليل :

رغم أن الوقت متأخر جدا ، فأنى لم أشأ أن أرسل خطابى فى الصباح دون ذكر ما حدث ليلة أمس •• ترى هل فى امكانكن أن تحزرن من جاء لزيارتنا ونحن نتناول الشاى ؟ •• لقد جاء غريد وفرانك فوهن أصدقاء لورى البريطانيان ، ولو لم أقرأ بطاقتهما ما عرفتهما ، فقد كبرا ، وأصبحا ممشوقى القامة • وكان فريد أنيقا فى زيه الانجليزى ، وفرانك لا يستعمل عكازا : ولكنه يعرج قليلا •• وعرفت أن لورى أنبأهما بزيارتنا ، فجاءا يدعواننا الى زيارتهما فى البيت • واعتذر زوج عمتى عن قبول الدعوة ، ولكنه سمح لنا برد الزيارة •

وذهبنا معهما الى المسرح ، وسعدنا بوقتنا الى أبعد حد ، وبينما كان فرانك يبذل اهتمامه وعنايته بفلو : رحت أنا وغريد نتحدث عن الماضى والحاضر والمستقبل ، كأننا أصدقاء العمر كله • أخبرى بث أن فرانك سأل عنها ، وأبدى أسفه الشديد لمرضها ، وحين تكلمنا عن جو ، ضحك فريد وطلب منى أن أبعث بتحياته واحتراماته الى قبعتها الكبيرة ، ولم ينس أحدهما « معسكر لورنس » ، وما زالا يذكران تفاصيل النزهة الطيبة ، رغم مضى السنين •

إن عمتى تدق للمرة الثالثة على الجدار الذى يفصل حجرتنا ، لتنبهنى الى وجوب النوم ، فيجب أن أتوقف الآن عن الكتابة . يخيل الىّ ، وأنا أجلس فى هذه الساعة المتأخرة : أننى واحدة من سيدات لندن الجميلات الثريات : فقد امتلأت غرفتى بأجمل الهدايا ، وليس برأسى سوى أخبار المسارح والمنتزهات والملابس الجديدة ، والشبان الكرماء ، الذين يتأوهون من فرط الشـوق ، ويعبثون بشواربهم الصـفراء فى عظمـة اللوردات الحقيقيين .

إنى مشوقة لرؤيتكم جميعا ، سأظل الأخت الوفية المحبة الى الأبد : رغم الهراء الذى امتلأت به هذه الصفحات .

باريس .

عزيزاتى

حدثتكن فى خطابى السابق عن أخبار لندن ، وكيف أكرم آل فوهن ونادتنا ، وأقاموا المآدب الشائقة لنا . وقد استمرت زياراتى لمعالم لندن ، فشاهدت لوحات رونائيل فى هامبتون كورت ، وتمتعت برؤية صـور تيرنر ولورانس ورينولدز وهرجاردت وغيرها من بدائع الرسـامين فى متحف كنزنجتون . وقضينا يوما من أمتع الأيام فى ريتشموند بارك ، حيث شاهدت الغزلان فى أوضاع مختلفة ، ورسمتها جميعا بقلمى ، كما أشجانى تغريد البلابل وزقزقة العصافير وهى تطير زرافات ووحدانا . والحق أننا رأينا فى لندن كل ما تشتهيه قلوبنا والفضل فى ذلك لفريد وفرانك ، فالانجليز رغم بطئهم فى رفع الكلفة مع الناس ، قوم لا يسبقهم أحد فى الكـرم وحسن الضيافة حين يأتلفون . وقد ذكر آل فوهن أنهم يأملون فى زيارة روما فى الشتاء القادم ، ورجائى أن تسعدنى الظروف بلقائهم هناك ،

فقد ربطتنى بجريس أختهم صداقة متينة كما كان الفتيان — خصوصا فريد — غاية فى اللطف والأدب •

وما كدنا نصل الى باريس ، حتى لحق بنا فريد قائلا إنه جاء لقضاء عطلته ، وأنه فى طريقه الى سويسرا • واستقبلته عمتى بشىء من الفتور أول الأمر ، ولكنه لم يأبه لذلك ، مما أسكت العمة فلم تقل شيئا ، ثم سادت روح المودة بعد قليل ، واغتبطنا جميعا بحضوره ، فهو يتقن الفرنسية ويتكلمها كأبنائها • ولست أدرى ماذا كنا نفعل بدونه ، فزوج عمتى لا يعرف من الفرنسية أكثر من عشر كلمات ، ويصر دائما على الحديث بالإنجليزية فى صوت عال لعلهم يفهمون ما يقول ••• وعمتى تتكلم الفرنسية بلهجة عتيقة لا يستعملها الناس فى الوقت الحاضر ، أما فلو وأنا ،فرغم ما كنا نظنه فى أنفسنا من معرفة وبراعة ، فقد اكتشفنا عند وصولنا باريس ، أن ذخيرتنا من الفرنسية لا تجدى فتيلا ، ولذلك حمدنا الظروف التى جمعتنا بفريد ، ليقوم عنا بمهمة الحديث والتفاهم •

وعلى أى حال ، نحن نقضى وقتنا بهيجا ممتعا ، ونشاهد طول اليوم أجمل المناظر وأهم المعالم ، ونتناول غذاءنا فى المقاهى المبهجة السارة ، حيث نلتقى بأقوام مختلفى المشارب ، ونصادف مغامرات غاية فى الغرابة • وفى الأيام الممطرة أقضى معظم وقتى فى متحف اللوفر ، أتأمل اللوحات الجميلة ، وروائع الفن الخالد ، وأقف أمام كل صور من هذه الروائع أمتع قلبى وعينى بما يهذب ذوقى وفنى • أما فلو فلا تهتم بالفنون ، وتفضل عليها آثار العظماء ، وقد رأينا بالمتحف قبعة نابليون وصداره ، ومهد طفله ، وفرشاة أسنانه ، كما رأينا حذاء مارى انطوانيت ، وخاتم سان دينى وسيف شرلمان ، وغير ذلك من الأشياء الكثيرة الهامة ، التى

لا يسمح الوقت بوصفها الآن ، ولكنى سأحدثكن عنها ساعات حين أعود إليكن •

أما « البالية رويال » فقطعة من الجنة ، ففيه أفخر الجواهر وأندر التحف ، وكاد يحيينى الجنون لعجزى عن شراء شيء منها ، وقد أراد فريد أن يشترى لى هدية . ولكنى رفضت بالطبع • وغابة بولونيا والشانزليزيه آيتان فى العظمة وكان من حسن حظى أن شاهدت الأسرة المالكة عدة مرات : والإمبراطور قبيح الشكل قاسى المظهر ، والامبراطورة شاحبة اللون جميلة ، ولكن ذوقها ردىء فى اختيار ملابسها ، إذ كانت ترتدى ثوبا أحمر قانيا ، وقبعة خضراء ، وقفازا أصفر • أما الامبراطور الصغير ففتى جميل لطيف ، يتحدث دائما مع رائدة ، الذى يرافقه فى عربة مطهمة يجرها جياد أربعة ، وبين آن وآخر يرسل القبلات بيده الى الشعب الواقف على جانبى الطريق • وكان السائق يرتدى ثيابا مزركشة ، وفرسان الحرس يسيرون أمام العربة وخلفها •

إننا نتنزه عادة فى حدائق التوليرى ، ولكنى شخصيا أفضل حدائق لوكسمبورج • والمدافن هنا غريبة جدا ، والمقابر أشبه بالغرف الصغيرة ، فى كل منها مائدة عليها صورة الميت ، وحول المائدة مقاعد يجلس عليها المحزونون حين يأتون للذكرى والعزاء ، ألا تتمشى هذه العادة مع الموضات الفرنسية ؟؟

إننا حجراتنا تطل على الشارع ريفولى ، ويمكننا من الشرفة أن نرى الشارع كله ممتدا أمامنا • ومن التسليات الحقة ، أن نقضى أمسياتنا فى الشرفة المطلة على الشارع ، نتناول الحديث الهادىء بعد متاعب اليوم وتنقلاته • إن فريد فتى مسل للغاية ، وهو — باستثناء لورى — أكثر الشبان الذين عرفتهم لطفا ومجاملة • إنه وديع الخلق لطيف المعشر ، وكنت

أفضل أن يكون أسمر البشرة ، لأنى لا أحب الرجال البيض ، ولكن آل فوهن على كل حال قوم أثرياء ، وينحدرون من أصول عريقة فى المجد ، وشعرهم الأصفر لا يعيبهم ، لأن شعرى أنا شخصيا أشد صفرة من شعرهم •

سنسافر فى الأسبوع القادم الى ألمانيا وسويسرا ، وستكون تنقلاتنا سريعة ، وقد لا أستطيع أن أكتب لكم إلا خطابات قصيرة عاجلة • إنى أكتب يومياتى وأحاول أن أضمنها كل ما يقع ، وأصف فيها ما رأيته وأعجبت به فى وضوح عملا بنصيحة أبى •• إن السفر تجربة طيبة ، وستكون رسومى أوضح من كتاباتى فى التعبير عن إحساساتى ومشاهداتى •

والى أن ألقاكم ثانية أضمكم جميعا الى صدرى فى حنان

صديقتكم

آمى

هيدلبرج :

أمى العزيزة

أنتهز هذه الساعة الهادئة ، التى أتيحت لى قبل السفر الى برن ، لأكتب إليك أخبارى ، وبعضها مهم كما سترين •

كانت رحلتنا فى نهر الراين غاية فى الكمال والجمال ، حتى لتعجز أبلغ العبارات عن وصفها ، فعودى الى ما لدينا من كتب السياحة واقرئى عنها • لقد قضينا وقتا ساحرا فى كوبنتز ، وأسمعنا بعض أصدقاء فريد من طلبة مدينة بون ، عزفا بديعا للسرينادا الجميلة • وكانت الليلة مقمرة ، وقد مضت على منتصف الليل الساعة ، حين استيقظت أنا وفلو على نغمات هذه الموسيقى ، وإذا بنا نرى فريد وأصدقاءه يعزفون ويغنون ، ويا لها

من لحظة شاعرية بديعة ، لم يسبق لى أن حظيت بمثلها : الليل الساجى ، والنهر المنساب ، والقنطرة القديمة ، والمراكب السارية ، والحصن القديم يربض أمامنا على الشاطىء ، وضوء القمر يفيض على الكون جمالا ، وموسيقى ساحرة تلين أقسى القلوب وأشدها تحجرا !!

ولما انتهوا من غنائهم رميناهم ببعض الزهور ، فهرعوا يلتقطونها ، وأرسلوا بأيديهم قبلات فى الهواء ، الى أولئك السيدات المختفيات وراء الستر ، ثم انصرفوا ضاحكين ، وأعتقد أنهم ذهبوا يكملون سهرتهم فى مشروب البيرة القريب • وفى صباح اليوم التالى أرانى فريد زهرة احتفظ بها فى جيبه ، وكانت لهجة حديثه مفعمة بالعاطفة ، فضحكت منه وادعيت أن فلو هى التى ألقتها عليه ، عندئذ استاء وألقى الزهرة من النافذة ، ثم عاد الى سابق عقله ورزانته • وكل ما أخشاه ، أن يجلب هذا الفتى المتاعب ، فالبوادر كلها تدل على ذلك ••

وكانت بادن بادن وحمامات ناسو غاية فى المرح ، ولكن فريد خسر فيها بعض نقوده ، ولذلك عنفته وراجعته ، لأنه بحاجة الى من يرعاه فى غياب أخيه فرانك • وأذكر بهذه المناسبة أن كيت أفصحت لى ذات مرة عن أملها أن يتزوج فريد سريعا ، وقد وافقتها على رأيها ، لأن الخير كل الخير فى زواجه •

وكانت فرانكفورت غاية فى الإمتاع ، وشاهدت فيها بيت « جوته »، وتمثال « شيللر » ، وأريادن المشهورة « لدانيكار » • وأعتقد أنه لولا جهلى بقصة أريادن ، كنت استمتعت أكثر ، ولكنى كرهت أن أسأل واحدا عنها ، إذ كانوا جميعا يعرفونها ، أو يتظاهرون بمعرفتها على الأقل • ليت جو حدثتنى عنها ، أو ليتنى توسعت فى القراءة لأزيد معلوماتى ، فقد كاد يقتلنى الشعور بالجهل •

وننتقل الآن الى الأخبار الهامة التى وقعت حـوادثها قبل رحيل فريد • كان فريد عطوفا علينا ، مسليا مرحا ، بحيث أحببناه جميعـا • والواقع أننى لم أكن أرى فيه سوى الصديق المخلص والرفيق الطيب ، حتى كانت ليلة السريناداا • ومنذ تلك الليلة شعرت أن السير فى ضوء القمر والأحاديث الطويلة فى الشرفة ، والنزهات اليومية ، لا تنطوى على مجرد التسلية • وصدقينى يا أماه ، أنى لم أغازله ، لأنى مازلت أذكر نصائحك وأعمل بها ، وقد بذلت كل جهدى فى البعد عن المتاعب ، ولكن ما ذنبى إذا كان الناس يتعلقون بى ويحبوننى ؟ إنى لا أفعل شيئا من ناحيتى ، ولكنى لا أستطيع أن أخرج عن أصول الذوق ، والأدب ، فأهمل الناس • • • أعلم أن جو ستتهمنى بقسوة القلب ، وستهز والدتى رأسها أسفا ، وتقول أخواتى : « تبا لهذه الفاجرة التعسة ! » ، ومع ذلك قررت أن أوافق على الزواج منه إذا طلب يدى ••• لست مجنونة بحبه ، ولكننا على وفاق تام ، وهو شاب مجتهد وسيم ، يفوق آل لورنس ثراء ً ، ولن يعترض أهلة على زواجه منى ، لأنهم مثل أعلى فى الرفق والثقافة والأدب والعطف ، وكلهم يحبوننى وسوف تكون المزرعة من نصيب فريد باعتباره أكبـر التوأمين ، وهى مزرعة عظيمة ضخمة • وللعائلة بيت كبير فى المدينـة ، قد يكون خاليا من مظاهر الفخامة والعظمة ، ولكنه كامل فى أسباب الراحة والاستعداد ، وأنا أحب هذا الضرب من الترف الإنجليزى الحقيقى • وقد شاهدت أطقم الموائد الفاخرة التى يملكونها ، ومجوهرات الأسرة ، والخدم القدامى الذين تربوا فى الأسرة ، وصور المناظر الريفية ، كما رأيت الحدائق الكبيرة ، والملاعب الجميلة والمنازل الفخمة ، والخيـول المطهمة • وهذا أقصى ما أتمناه ، ورأيى أنه خير من الألقاب الخالية من الثراء ، وقد تكون نظرتى الى الحياة مادية تجارية ، ولكنى أكره الفقر ، وليس فى نيتى أن أحتمله طويلا •

يجب أن تتزوج إحدانا رجلا موسرا ، ولما كانت ميج لم تحقق هذا ، وجو لا تريده ، وبث لا تستطيع الزواج الآن ، فعلى أنا أن أحقق الترف ، وأجعل الحياة من حولى جميلة مبهجة ، كونى على ثقة بأن المال لن يغرينى بالزواج ممن أكره أو أحتقر ، وقد لا يكون فريد بطل أحلامى ، إلا أنه رجل لا بأس به ، وسوف أروض نفسى على حبه ، ما دام مولعا بى كريما فى معاملتى • هذا ما كنت أفكر فيه طوال الأسبـوع الماضى ، ولم يكن فى مقدورى أن أرى فريد يتعذب فى حبى ••• حقيقـة أنـه لم يصرح بعواطفه ، ولكن الشواهد كلها كانت تدل على ذلك ، فهو لم يخرج مرة واحدة مع فلو ، وكان يجلس فى العربة أو على المائـدة بجانبى ، يسير بجوارى أينما ذهبت ، وتغلبه العاطفة حين ينفرد بى ، كما كان يتملكه حين يرى أحـدا يتحـدث الى • وبالأمس فقط كنا نجلس الى مائدة الطعـام ، وكان بالمطعم ضـابط نمسـاوى ، ظل يحـدق فى وجهى ثم قال لصديقه بالألمانية : « يا لها من فتاة شقراء جميلة ! » وما أن سمع فريد هذه العبارة ، حتى زمجر كالأسد ، وراح يقطع اللحم بوحشيـة أطارته من صحنه • وهو ليس باردا كبقية الإنجليز ، وفى طبعه حـدة شديدة ، ترجع الى الدم الأسكتلندى الذى يجرى فى عروقه •

وصعدنا الى القلعة القديمة عند غروب الشمس : ولم يكن فريد معنا ، ولكنه وعد باللحاق بنا بعد أن يذهب الى مكتب البريد ليسأل عن رسائله • وأمضينا وقتا طيبا ونحن نطوف بالخرائب وأقبية الخمـور المعتقة ، وقد أعجبت بالشرفة الفخمة ومناظرها الساحرة ، ولذلك آثرت أن أجلس فيها حتى يعود الآخرون من زياراتهم الداخلية • ورحت أقطع الوقت بالرسم ، وحاولت أن أنقل صورة رأس تمثال الأسد البارز على الحائط ، ومن حوله الأغصان الحمراء المتدلية • وأحسست وأنا أجلس

أمام الوادى البعيد ، وأستمع الى أنغام الموسيقى ، التى تعزفها الفرقة النمساوية أسفل الشرفة ، أننى بطلة قصة غرامية ، وأنى أتطلع الى الأفق فى انتظار مقدم الحبيب . وكان قلبى يحدثنى بقرب حدوث شىء فى تلك اللحظة وأننى على استعداد له ، ولم أشعر بالخجل أو الاضطراب ، بل كنت على العكس غاية فى الهدوء والثبات ، اللهم إلا قليلاً من الانفعال .

وبعد قليل سمعت صوت فريد من بعيد ، ولم يلبث أن دخل مسرعا يبحث عنى بلهفة ، وكان الاضطراب باديا عليه الى درجة نسيت معها نفسى فسألته : « ماذا حدث ؟ » ، فقال إنه تلقى خطابا من أهله يستدعونه فيه الى لندن على عجل ، لأن فرنك مريض جدا ، وقال أيضا أنه ينوى العودة فى قطار الليل ، وليس عنده من الوقت إلا بقدر ما يودعنا .

وشعرت بالأسف لأجله ، وأحسست بخيبة الأمل ، ولكن ذلك لم يدم سوى لحظة قصيرة ، إذ قال لى وهو يشد على يدى بطريقة لا يمكن أن أخطىء معناها :

— سأعود سريعا ، وأرجو ألا تنسينى يا آمى !

ولم أعده بشىء ، واكتفيت بالنظر إليه ، ولكنه بدا راضيا بذلك ، وفى الواقع لم يكن لديه متسع لأكثر من تحية الوداع ، لأنه كان مسافرا بعد ساعة . وفى الحقيقة إننا جميعا افتقدناه بعد سفره .

لا شك أنه كان يريد أن يفاتحنى فى الزواج ... ولكنه ارتأى أن يؤجل ذلك لسبب لا أعرفه ، وقد يكون راغبا فى استشارة أبيه ، فقد حدثنى ذات مرة أن أباه يخاف عليه من الزواج بأجنبية ، ولذلك أخذ منه وعدا بأن لا يفعل شيئا دون تفكير وروية .. ربما يكون هذا ، أو أمر آخر .. على كل حال سوف نتقابل فى روما بعد وقت قصير ، فأوافق على الزواج منه إذا طلب ذلك ، هذا طبعا إذا لم أكن قد غيرت فكرى .

وعلى كل حال إن المسألة كلها سر الى الآن ، ولكنى أردت أن أحيطك علما بكل ما يدور هنا • أرجو أن لا تقلقى من ناحيتى ، واذكرى دائمـا أننى ابنتك آمى العاقلة الحكيمة ، وثقى بأننى لن أقدم على عمل طائش ، وابعثى إلىّ ما تريدين من النصائح ، وأعدك بأن أعمل بها ما استطعت • وددت لو استطعت أن أتحدث إليك طويلا يا أماه •

لك محبتى وثقتى •

ابنتك دائما

آمى

الفصل الثانى والثلاثون

متاعب رقيقـــة

قالت مسز مارش :

— جو ، إن حالة بث تقلقنى •

قالت جو :

— ولماذا يا أماه ؟ إنها تبدو بخير على غير عادتها •

قالت :

— ليست صحتها التى تقلقنى بل نفسيتها • أنا على يقين أن أمراً ما يشغل عقلها ، وأريدك أن تكتشفى عما يدور بخلدها •

قالت جو :

— وماذا يدعوك الى هذا الاعتقاد يا أماه ؟

أجابت :

— انها تجلس وحيدة وقتا طويلا ، ولا تتحدث الى أبيها كالمعتاد ، وقد وجدتها تبكى أول أمس ، وأسمعها تترنم دائما بالأغانى الحزينة ، وأحيانا أرى فى عينيها نظرات عميقة لا أفهمها • هذه ليست بث التى نعرفها ، وحالتها تقلقنى وتزعجنى •

قالت جو :

— وهل سألتها عن ذلك ؟

قالت :

ـ حاولت ذلك مرة أو مرتين ، ولكنها كانت تتحاشى الاجـابة ، أو تنظر الى بحزن يجعلنى أكف عن الحـديث • وأنت تعلمـين أننى لا أضطر أولادى الى الثقة بى ، ورغم ذلك سرعان ما أنالها •

وكانت مسز مارش وهى تتكلم ، تحقق النظر فى وجه جو ، كأنهـا تبحث غيه عن الخبر اليقين ، وكان من الواضح أيضا أن ابنتها لا تعرف السر فى متاعب أختها بث • وبعد تأمل قليل قالت جو :

أعتقد أن بث تنمو وتكبر ، وفى هذه الفترة من عمرها تكثر الأحلام والآمال ، وتتوالى المخـاوف والاضطرابات التى لا تعرف لهـا سببا ولا تجد تفسيرا • لست أرى سببا يدعوك الى القلق يا أماه ، فأختى بث فى الثامنة عشرة من عمرها ، ولكننا لا نعتقد ذلك ، وما زلنا نعاملها كطفلة ، ناسين أنها أصبحت امرأة •

وتنهدت أمها مبتسمة ، وقالت :

ـ صدقت يا عزيزتى ، انها بلغت الثامنة عشرة حقـا • ما أسرع ما يمضى الزمن ؟ !

قالت جو :

ـ لا حيلة لنا فى ذلك ، وعليك أن تقبلى مختلف أحكام الحياة ، وتتركى طيورك تطير وتخـرج من عشها واحـدة بعد الأخـرى ••• وأعدك ألا أطير بعيدا ، اذا كنت ترتاحين الى قربى •

قالت :

— بل أرتاح كل الراحة . فانى أشعر بالقوة وأنت بجانبى ، ولا أجد لى معينا غيرك ؛ فميج قد ذهبت ، وبث غاية فى الضعف ، وآمى لا تزال صغيرة لا يمكن الاعتماد عليها ؛ وأنت وحدك التى تصمدين للشدائد .

قالت جو :

— خلى عنك يا أماه ؛ فالأعمال الشاقة لا تقهرنى ، وأنا لا أشعر بوطأة العبء حين تحتاج سجاجيد البيت الى التنظيف ، أو حين يمرض نصف أفراد الأسرة فجأة . ولا بد للأسرة من فرد يتحمل المسئوليات الصغيرة ؛ وبما أن آمى — على العكس — موهوبة فى الفنون ؛ وهى تدرس الآن فى الخارج ، فثقى بأننى سأكون دائما طوع أمرك فيما تريدين .

قالت الأم :

— اذاً سأترك لك رعاية بث . فما من مخلوق غير جو يستطيع أن يطرق أبواب قلبها ، ويكشف عن متاعبها ؛ لأنها تحبك وتثق بك ، فكونى بها رفيقة ، ولا تدعيها تحس بأننا نراقبها ، أو نتحدث عنها ، أملى الوحيد أن تستعيد قوتها وبشاشتها ؛ ولن يبقى لى شىء أطلبه فى الحياة اذا تحقق ذلك .

قالت جو :

اذا كان هذا كل ما تتمنين ؛ فأنت امرأة سعيدة ، أما أنا فآمالى لا تقف عند حد .

سألتها :

ـ وما هى آمالك يا عزيزتى ؟

قالت :

ـ سأبدأ بتسوية متاعب بث ، ثم أحـــدثك عن نفسى .... ان متاعبى لا تثقل كاهلى ، ولن يضيرنى أن أنتظر عليها .

وانطلقت جو مسرعة ، وفى عينيها نظرة تفيض بالحكمة ، فارتاح قلب أمها من ناحيتها ، فى الوقت الحاضر على الأقل .

راحت جو ترقب بث عن كثب ، وهى تتظاهر بأنها مشغولة بشئونها الخاصة . واستطاعت بعد كثير من التقديرات والاستنتاجات والفروض المتضاربة ، أن تستقر على رأى واحـــد فيما يحزن أختهـــا . وكان مفتاح السر حـادثة صـــغيرة ، شاهدتها جـــو ... وساعدها خيالهـــا الخصيب ، وقلبها الفياض بالمحبة ، على الوصول الى النتيجة ، كان ذلك فى يوم من أيام الســـبت ، وكانت تتظاهر بالانهماك فى الكتابة ، وترقب أختها بعينيها خفيـــة ، وكانت بث هادئة على غـــير العادة ، تجلس الى النافذة ، لتمتع النظر بجمال الخريف فى الوادى ، وكاد التطريز يسقط من يدها بين وقت وآخر الى حجرها ، فتسند رأسها الى يدها ، وتتوه فى بيداء الحزن الصامت . وفجأة مر شخص تحت النافذة ، وهو يصفر نغمة موسيقية من أنغام الأوبرا ، وعلا صوت يقول : « كل شىء هادىء ! وسآتى الليـــلة » ، وانفضت بث ، ومالت الى الأمام تومىء برأســـها باسمة . وظلت ترقب عابر السبيل حتى اختفى وقع أقدامه السريعة ، ثم قالت فى حنان : كأنها تناجى نفسها : « ما أقوى هذا الفتى العزيز ، وما أسعده ! » .

وتنفست جو الصعداء ، ومضت فى مراقبة أختها ، فرأت أن التورد

الذى طغى على وجهها فجأة ، لم يلبث أن انحسر عن امتقاع شـديد ، كما اختفت البسمة من شفتيها : وتدحرجت على زجاج النافذة دمعـة من عينيها • سارعت بث الى الدمعة تمسحها بكفها ، وهى تنظر بقلق الى جو ، ولكن الفتاة الحكيمة تظاهرت بالكتابة ، وبدت كأنهـا غارقة الى أذنيهـا فى قصتها الجديدة « عهد أوليمبيا » • وما أن استدارت بث ، حتى عادت جـو الى مراقبتها ، فرأتهـا تمسح دموعها بكفيهـا أكثر من مـرة ، وقرأت فى صفحة وجههـا ألما مضنيا تطوى عليـه جوانحها • واغرورقت عينا جو شفقة على أختها ، وخافت أن تنساب الدموع على خديها فتفضـح سرها ، لذلك سارعت بالخروج من الغرفة وهى تتمتم بما ينم عن حاجتها الى مزيد من ورق الكتابة •

وجلست جو فى غرفتها تقول : « رحمتك يا الهى ! أن بث تحـب لورى ! » ، وصمتت شاردة الذهن ، وقد امتقع وجهها لوقع الاكتشاف الذى ظنت أنها وصلت اليه • قالت تحدث نفسها : « ما دار بخـلدى شىء من هذا ••• ترى ماذا تقول آمى ؟ انى لأتساءل اذاً ••• » ، وتوقفت هنيهة ، وقد اصطبغ وجهها بحمرة قانية ، حين لاحت لخيالها فكرة مفاجئة : « واذا لم يكن لورى يبادلها هذا الحب ! ؟ •• وكـم يكون الموقف قاسيا عندئذ •• ولكن لا •• لابد أن يحبهـا ، وسأحمله على ذلك ! » • وهزت رأسها مهددة نحـو صـورة لورى المعلقة على الحائط •• قالت لنفسها : « آه من هذا •• اننا نكبر ، وكلما اكتمـل نمونا ، توفرت عوامل فراقنا •• فميج قد تزوجت وصارت أما ••• وآمى رحلت الى باريس وهى غارقة فى نشوتها هنـاك •• ، وها هى ذى بث تقع فى شراك الحب ، ولم يبق الا أنا وأحمد الله أنى استطعت التخلص من هذه الحبائل المؤذية •

ومضت جو فى تفكيرها ، ونظراتها مسمرة على صورة لورى ، ثم لم تلبث أن مسحت جبينها بيدها ، كأنها تزيح الهموم عن رأسها ، ثم قالت وهى تومىء لوجه لورى بعزم : « لا يا سيدى : شكرا لك ! لست أنكر أن شخصيتك جذابة ، ولكنك كدوارة الرياح لا تستقر على حال ، ولا هم لك الا كتابة الرسائل الغرامية ، والابتسام بهذه الطريقة الايحائية ، ولكنى أؤكد لك أن هذا لا يرضينى : ولن أتقبله بأى حال من الأحوال » • وندت عن قلبها آهة عميقة ، وسرح فكرها فى تأملات لم تصح منها الا بعد أن نشر الغسق أجنحته على الكون ، فنزلت من حجرتها تراقب بث من جديد ، وتجمع الملاحظات التى تؤكد شكوكها واستنتاجاتها • على أن لورى ، وان كان يغازل آمى ، ويضحك مع جو ، فان سلوكه مع بث كان دائما غاية فى الرقة والحنان ، شأنه فى ذلك شأن أهلها وأصدقائها ومعارفها : ولذلك لم يفكر أحد فى احتمال اهتمامه بها أكثر من الأخريات • بل ان أفراد الأسرة كانوا يشعرون أنه يزداد كل يوم غراما بجو ، ولكن الفتاة لم تكن ترضى بمثل هذا الحديث ، وتشتد فى تعنيف من يوحى اليها بهذه الفكرة • ولو أنهم علموا بالرسائل الرقيقة ، التى بعث بها اليها فى العام الماضى ، والمحاولات اللطيفة التى كان يبذلها للتعبير عن عواطفه ، تلك المحاولات التى قضت عليها جو فى مهدها ، لأحسوا بالرضا البالغ ، وقالوا : « ألم نقل ذلك ونتنبأ به ؟ ولكن جو كانت تكره الغزل ولا تسمح به ، وحين ترى الأمور تتطور الى العاطفيات ، تنهى الموقف بنكتة بارعة أو بسمة لطيفة •

.. وكان لورى قد بدأ تجاربه فى الحب والغزل عند أول ذهابه الى الكلية ، فكان يقع فى الغرام مرة فى الشهر على الأقل ، وكان متقلبا

لا يصبر طويلا على حب واحد . لذلك مضت تجاربه فى سلام ، ولم تنتج عنها أضرار . وكانت أنباء هذه الغراميات تسلى جو ، وكانت تقلباته بين اليأس والسرور والاستسلام ، تثير اهتمامها ، وكان الفتى يسر اليها فى اجتماعهما الأسبوعى . بكل ما يصادفه فى حياته من حوادث ومغامرات . ومرت على لورى فترة من الزمن كف فيها عن التعبد فى أكثر من محراب ، وأشار فى خفاء الى حب يملأ عليه حواسه ، وكانت تنتابه فى بعض الأحيان أزمات نفسية ، تسيطر فيها عليه الكآبة والوجوم . ومرت فترة أخرى تحاشى فيها لورى الاشارة الى هذا الموضوع . وبدأ يكتب الى جو رسائل فلسفية ، وعكف على العمل مجدا ، وأعلن عن عزمه على الفوز بمرتبة الشرف فى امتحان التخرج . وصادف هذا السلوك هوى فى نفس الفتاة ، التى كانت تفضل الاتجاهات الجدية : على الجلسات العاطفية ، واللمسات الرقيقة ، ونظرات الجوى والهيام . وكان السر فى ذلك أن عقل جو سبق قلبها فى النمو ، فكانت تفضل أبطال الخيال على أبطال الحقيقة ، لأنها حين تسأم أبطالها الخياليين . تودعهم خزانتها ، وتغلق دونهم الأقفال ، أما الأبطال الحقيقيون ، فلم يكن من سبيل الى تكييفهم حسب ارادتها .

كانت الأمور تجرى على هذا النسق ، حتى وصلت جو الى اكتشافها العظيم ، فراحت تراقب لورى فى تلك الليلة كما لم تراقبه من قبل . ولو كانت خالية الذهن ، ما رأت شذوذا فى صمت بث وهدوئها ، ولا فى ترفق لورى وحنانه عليها ، ولكنها كانت قد أطلقت لخيالها العنان ، وسارت وراءه شوطا بعيدا ، فهربت حكمتها أمام شطحات الخيال ، الذى أرهفته فيها كثرة تأليف القصص . وكانت بث ترقد كعادتها على

الأريكة ، ولورى بجانبها يسليها ويجاذبها أطراف الحـديث ، ويقص عليها آخبار مغامراته الأسبوعية . التى تعود أن يتحفها بها كلمـا آتى لزيارتها • ولكن خيل لجو فى تلك الليلة أن عينى بث مستقرتان على وجه لورى فى سرور بالـغ ، وأنهـا تستمع فى شغف زائـد الى أخبـار مباراة الكريكيت الأخيرة ، وتصـورت أيضـا — بعد أن تجسم الوهم حتى صار كأنه حقيقة — أن لورى اذداد رقة فى سلوكه مع بث ، وأنـه يخفض من صوته الى حد الهمس أحيانا ، كما لم يعد يستمرىء الضحك والهذر ، وبدا شارد الذهن مشتت الفكر ، وحين وضـع الغطـاء على قدمى بث ، فعل ذلك باهتمام ينم عن حنان شديد •

وعندما آوت الى غرفتها . راحت تذرع الغرفة جيئه وذهابا ، وهى تقول لنفسها : « من يدرى ؟ ربما حدث ما نتمناه ، وفى مقدور بث اذا تحابا أن تجعل منه ملكا طاهرا ، وفى مقدوره أيضا أن يجعل حيـاة هذه الصغيرة العزيزة هنيئة سارة • ولكن ما السبيل الى ذلك ؟ •• سيحبها اذا خلا البيت منا ، ولم يبق فى طريقه الاها » •

وكان الطريق قد خلا من الأخريات ، ولم يبق فيه سواها ، ولذلك بدأت جو تشعر بضرورة انسحابها من الميـدان سريعا ، ولكن الى أين تذهب ؟ وجلست تفكر فى سبيل الى الخلاص ، وكلها رغبة فى التضحية على مذبح الاخلاص الأخوى •

جلست جو على الأريكة الكبيرة تبحث عن حل لمشكلاتها ، وكانت هذه الأريكة عتيقة طويلة عريضة ، محشوة منخفضـة ، ولونها لتقادم العهد باهت جدًا ، ولا غرابة فقد كانت ملجأ الأطفال ، ومنام البنات ، وكن يلعبن عليها فى أيام الصغر ، فيمتطين مسنديها ويختبئن وراءها ،

ويزحفن كالقطط من تحتها الى فوقها • ثم كبرن فكن يستلقين عليها طلبا للراحة . ويستمتعن فوقها بأحلام اليقظة ، ويصغين الى عبارات الغزل • وكانت جو تؤثر جانبا من الأريكة ، فتتخذ منه ملاذا تركن اليه طلبا للراحة والهدوء ، وكان لها بين الوسائد الكبيرة وسادة خشنة مستديرة محشوة بشعر الخيل ، وأطرافها مزينة بأزرار مدببة • وكانت هذه الوسادة ملكا خاصا لجو . تستخدمها سلاحا للدفاع ، وحصنا من الهجوم ووقاية من الاستغراق فى النوم •

وكان لورى يعرف هذه الوسادة حق المعرفة ، ويمقتها أشد المقت ، لكثرة ما نال من أذاها فى الأيام الخوالى ، ولأنها الآن تحول بينه وبين الجلوس مع جو فى ركن الأريكة • وكان لـ « قطعة السجق » — كما اختاروا أن يسموا الوسادة — لغة معروفة : فاذا وضعتها جو قائمة على طرفها . فهو اذن بالجلوس معها ، أما اذا سطحتها على الأريكة ، فالويل لمن يقترب منها رجلا كان أو امرأة أو طفلا • وفى تلك الليلة نسيت جو أن تحصن ركنها بالوسادة ، ولذلك لم تمض خمس دقائق ، حتى أحست بجسم ضخم يجلس بجانبها ؛ وقد بسط ذراعيه على ظهر الأريكة ؛ ومد ساقيه أمامها ، وصاح لورى يقول فى نشوة الرضا :

— هذه جلسة مريحة لها قيمتها •

وامتعضت جو ، وقالت :

— دعك من هذه العبارات •

ثم بدأت تجر وسادتها الخشنة المعهودة ، وتدسها بينها وبينه ، ولكن هذه المحاولة جاءت بعد فوات الأوان ، إذ سقطت الوسادة على الأرض ، واختفت بطريقة غريبة •

قال لورى :

ـ دعك من هذه الخشونة يا جو ، فقد حطمنى الاجهاد والاستذكار ومن حقى أن أنال بعض التدليل ، ولا بد أن أناله •

قالت :

ـ انى مشغولة ، وهناك بث فاذهب اليها تدلـّلك •

قال :

ـ لا ، يجب ألا نشغل بث بهذه الأمور : خصوصا أنك تحبين هـذا النوع من التدليل ، إلا اذا كنت فقدت الرغبة فيه : فهل هـذا صحيح ؟ وهل أصبحت تكرهين صديقك ، وتتمنين ضربه بالوسائد ؟

وكان استعطافا مؤثرا ، لم تسمع جو مثله من قبل ، ولكنها اختارت أن تصد فتاها بسؤال محرج ، فقالت :

ـ كم أرسلت من باقات الزهور الى مس راندل هذا الأسبوع ؟

قال :

ـ ولا واحدة ، أقسم لك أنها مخطوبة الآن •

قالت :

ـ يسرنى أن أسمع ذلك ، فالورد مضيعة للمال ، وأنت ترسل الأزهار والهدايا الى البنات اعتباطا ، حتى اللاتى لا يهمك أمرهن مثقال ذرة •

قال :

ـ إن البنات العاقلات اللاتى يهمنى أمرهن كثيرا ، لا يسمحن لى بارسال الزهور والهدايا ، فماذا أفعل وعواطفى لا تجد منفذا ؟

قالت :

— إن والدتى لا تقر الغزل ولو على سبيل التسلية ، وأنت تغازل بغير حساب ياتيدى •

قــال :

— انى مستعد للتضحية بكل شىء اذا أجبتنى بالمثل ، ولكن ما دمت عاجزا عن اقناعك بذلك ، فيكفى أن أقول اننى لا أجــد ضررا فى هـذا المزاح البرىء المسلى ، وكلهم يدرك أنه تمثيل •

قالت :

— يبدو أن الغزل حقيقة مسل ، ولكنى لم أنجح فى ترويض نفسى على استساغته ، ولقد حاولت كثيرا ، لأن انطوائى يخرجنى عن المألوف ، وليس أبعث على الحرج والضيق من عجزنا عن مجاراة غيرنا • يبدو أننى لن أتقـدم فى هــذا المضمار كثيرا •

قــال :

— خذى درسا من آمى ، فهى قديرة فى هــذه المسائل ، ولهــا خبرة واسعة بها •

قالت :

— نعم ، وهى تصرف الأمور ببراعة ، ولكنها تذهب فيها الى حد الاسراف ، وبعض الناس قادرون بطبعهم على استيعاب المرح والسرور دون جهد ومشقة ، وغيرهم يسيئون التصرف ، فيخطئون فى تقدير الوقت المناسب والمكان الملائم •

قــال :

ــ يسرنى جهلك بالغزل يا جــو ، فليس أدعى الى الاعجاب من فتاة رزينة تعرف كيف تمرح وتضحك ، دون أن تعرض نفسها للسخرية • أصارحك القول يا جو بأنى أعرف فتيات يسرفن فى الغــزل الى حــد مخجل ، والحقيقة أنهن لا يبغين شرا من وراء ذلك ، ولكننا نسخر بهن بعــد انصرافهن ، ولو عرفن ما يقوله الشــباب عنهن ، ما اخترن إلا مسلكا آخر •

قالت :

ــ وهن أيضا يسخرن بكم خلف ظهوركم ، مثلما تفعلون تماما ، ولما كانت ألسنة النســاء أقسى من ألسنتكم ، فأنتم الخاسرون ، لأنكم تتصرفون بنفس الغباء الذى يتصرفن به . فتنالون أكثر مما ينلن • لو أنكم أحسنتم سلوككم ، لاقتدينا بكم . ولكنكم تميلون الى هــذا العبث وتطلبونه . فاذا أرضينكم به ، تعودون عليهن بالائمة •

قال لورى مترفعا :

ــ أنت لا تعرفين كثيرا فى هــذا الموضوع يا ســيدتى ، ونحن لا نحب الغزل والمجون ، وان تظاهرنا بذلك أحيانا • والفتيات الجميلات المتواضعات لا يذكرن فى أوساط الرجال إلا بمنتهى التجلة والاحترام ، فليحفظ الله عليك براءتك • وددت لو أخذت مكانى شهرا ، لترى ما يدهشك ، وأقسم لك أننى كلما رأيت واحدة من أولئك الطائشات ، شعرت برغبة فى أن أقول لهــا ما يقولها صــديقنا « كوك روبين » : سحقا لك أيتها الصفيقة المتبرجة » •

وضحكت جو من الصراع الذى يدور فى نفس لورى ، بين عزوفه

عن ذكر النساء بسوء بدافع من رجولته وشهامته ، وبين نفوره الشديد من مظاهر العبث التى اتسمت بها الطبقات الراقية • وكانت تعرف أن لورى محط أنظار الأمهات ، وكل منهن تتطلع اليه زوجا لابنتها ، ولذلك كان يلقى العطف من النساء أينما حل أو ذهب : فالكبيرات يتقربن اليه ويمتدحنه ، والصغيرات يبتسمن اليه ويغازلنه ، فيزدنه غرورا على غرور • وكانت جو ترقبه فى غيرة خشية أن يفسده التدليل . وقد سرها غاية السرور ، أن تجده لا يزال مؤمنا فى غرارة نفسه بالفتيات المهذبات المتواضعات •

وفجأة عادت الى لهجتها الجافة ، وقالت له بصوت خفيض :

— إذا كنت حقًا لا تجد متنفسا لعواطفك يا تيدى ، فاذهب الى واحدة من أولئك الجميلات المتواضعات ،وكرس قلبك لها ، ولا تضيع وقتك عبثا فى الحماقات •

قال وهو ينعم النظر فى وجهها . وفى نفسه مزيج من الغبطة والقلق :

— أتنصحين بذلك حقًا ؟ قالت :

— نعم ، ومن الخير أن تتأنى حتى تنتهى من دراستك الجامعية ، وتفرغ لإعداد نفسك لهذه المهمة ، فلست الآن أهلاً لتلك الفتاة المتواضعة أيًا كانت •

قال يصدق على كلامها ، وفى وجهه أيات الخضوع والاستسلام ، التى لم تعهدها فيه من قبل :

— نعم •• لست أهلا لها بعد •

ثم خفض بصره الى الأرض ، وشرد ذهنه فى عالم من التفكير ، ودون أن يشعر أمسك بزر مرولة جو ، وراح يلفه على أصبعه :

قالت جو تحدث نفسها : « رحمتك يا إلهى هذا لا يجدى ! » ، ثم قالت بصوت مرتفع :

ــ قم وأسمعنى أغنية ، فإنى متعطشة الى الموسيقى ، وعزفك محبب الىّ •

قال :

ــ أفضل أن أبقى فى مكانى •• مع الشكر •قالت :

ــ حسنا : ولكن المكان لا يتسع لنا ، ولن نستطيع البقاء هنا طويلا •

قم واعمل عملا نافعا ما دام جسمك أضخم من أن يصلح للزينة ، وأنا أعرف كم تكره أن تربط نفسك بأذيال مرولة امرأة !

قال وهو يشد على خيوط المرولة بجرأة :

ــ هذا يتوقف على من تكون صاحبة المرولة ؟

أجابت وهى تسحب الوسادة :

ــ قلت لك اذهب •••

وعندما رآها لورى تشهر عليه وسادتها ، فر من أمامها بسرعة ، فظلت ممسكة بسلاحها ، حتى اختفى الفتى عن ناظريها •

شعرت جو بالأرق فى هذه الليلة . وسهرت طويلا ، وحين كاد النوم يغلبها ، سمعت آهة مكبوتة تنطلق من سرير بث ، فأسرعت الى فراش أختها تسألها فى قلق :

ــ ماذا بك يا حبيبتى ؟

قالت بث وهى تتشنج :

ــ ظننتك نائمة يا جو . سألتها :

ــ أهو الألم القديم يعاودك يا بث ؟

قالت وهى تغالب عبراتها :

ــ لا ، بل ألم جديد لا أستطيع احتماله . قالت جو :

ــ حدثينى به . ودعينى أعالجه لك ، كما كنت أعالج ألمك القديم

وغالبت بث بكاءها ، واحتبس صوتها وهى تقول :

ــ لن تستطيعى علاجه . إذ لا علاج له !

وأمسكت بأختها ، وهى تبكى فى يأس مرير ، ارتعبت له جـو ، وامتلأ قلبها على أختها . سألتها جو :

ــ وأين هـذا الألم يا بث ؟ أأنادى أمى لترى ما بك ؟

ولم تجب بث ، ولكنها وضعت يدها على قلبها بحركة لا إرادية ، كأنما تشير الى أن الألم موطنه القلب ، وشدت بيدها الأخرى على أختها تضمها الى صدرها ، وهى تهمس فى أذنها قائلة :

ــ لا .. لا . لا تنادى أمى . سأتحسن حالا ، ارقدى بجانبى ، وسوف أهدأ بعد قليل ، وأستسلم للنوم ... سأنام حتما ...

وأطاعت جو ، ولكنها ظلت طول الوقت تتحسس رأس أختهـا المحمومة ، وعينيها المبللتين بالدموع ، وكان قلبها مفعما بالعطف والأسى ، ورغبتها شديدة فى معرفة ما بها ، ولكنها كانت تدرك على حداثة سنها ،

أن القلوب كالزهر لا تفتح بالقوة ، بل يجب أن نتترك ، حتى تتفتح من تلقاء نفسها ، وكانت تظن أنها تعرف السر ، ومع ذلك لم تشر إليه ، ولم تنطق إلا بكلمات قليلة تفيض عذوبة وحنانا • وقالت :

ـ أهناك ما يحزنك يا عزيزتى ؟

أجابت بث بعد سكوت طويل :

ـ نعم يا جو •

قالت :

ـ ألا تقولين شيئا فتخففى عن نفسك ؟

أجابت :

ـ لا • • ليس الآن ، فلم يحن الوقت بعد • قالت جو :

ـ اذا لن أسألك ، ولكن تذكرى يا بث أنـه يسرنا دائمـا ، أنـا ووالدتى ، أن نسمع شكواك ، ونساعدك اذا استطعنا الى ذلك سبيلا •

قالت :

أعرف ذلك ، وسأحدثك بكل شىء . ولكن ليس الآن •

قالت :

ـ وهل تشعرين بتحسن الآن ؟ قالت :

ـ أشعر أنى أحسن حالا ، فأنت تهدئين النفس يا جو : وتخففين كل ألم •

قالت جو :

ـ نامى يا عزيزتى ، وسأبقى بجانبك •

واحتضنت جو أختها . وتلاصق خداهما . ونامتا نوما عميقا طول الليل . وفى الصباح استعادت بث هدوءها الطبيعى ، شأنها فى ذلك شأن البنات فى فجر شبابهن ، لا تدوم معهن أوجاع الرأس والقلب الا هنيهة . كما أن كلمة حلوة تأتى بالمعجزات فى علاجهن ، فتذهب عنهن الألم بأسرع مما ينتظر ، وتسرى عن نفوسهن .

وفكرت جو فى الموقف . وقلبته على مختلف وجوهه ، ثم اعتزمت امرا ، أسرت به الى أمها .

قالت لأمها وهما تجلسان على انفراد :

— سألتنى ذات يوم عن رغباتى ، غاليك الآن واحدة منها يا أماه . انى فى حاجة الى التغيير . وأريد أن أذهب الى مكان ما . أريد أن أبتعد عن البيت هذا الشتاء .

ونظرت اليها أمها نظرة سريعة ، كأنما تحس فى كلماتها تورية ، ثم قالت :

— ولماذا يا جو ؟

أجابت بهدوء ، وهى تنعم النظر فى قطعة النسيج التى تطرزها :

— أريد أن أشعر بشىء جديد فى حياتى . فأنا قلقة ، والأيام تمضى بى رتيبة مملة . ويقينى أن السفر يتيح لى فرص العمل والتعلم ، انى أشغل فكرى بشئونى الصغيرة الخاصة ، وحاجتى شديدة الى ما يشحذ مشاعرى ويجدد تجاربى . وسيكون مقدورى اذا انطلقت من البيت هذا الشتاء — أن أطير بعيدا . وأجرب أجنحتى فى أجواء جديدة .

سألتها أمها :

— والى أين تطيرين ؟

أجابت :

— الى نيويورك .. لقد طرأت لى أمس فكرة جميلة ، ولعلك تذكرين أن مسز كيرك كتبت اليك عن حاجتها الى فتاة محترمة ، تقوم على تربية طفليها وتحوك ثيابها . انه مطلب عسير الحقيق ، ولكنى أشعر بصلاحيتى لهذه الوظيفة .

ودهشت مسز مارش للفكرة ، ولكنها لم تتضايق ، وانما اكتفت بسؤال جو قائلة :

— أتذهبين للخدمة فى مثل هذا البيت الكبير ، الذى يضم نزلاء كثيرين ؟

أجابت جو :

— انها ليست خدمة بالضبط ، فمسز كيرك صديقة لك ، وهى من أطيب السيدات قلبا ، وستسهل الأمور . ولن يعرفنى أحد هناك ، لأن أسرتها تعيش بمعزل عن النزلاء .. ولنفرض أنهم عرفونى ، فما أهمية ذلك ؟ ألست أقوم بعمل شريف لا عار فيه ؟

قالت أمها :

— انى مثلك تماما ، لا يهمنى ما يقوله الناس ، ولكن ما مصير كتاباتك ؟

قالت :

— سيحفزنى التغيير على مزيد من التأليف والكتابة ، فسأرى

وجوها جديدة ، وأسمع أمورا طريفة ، مما يجدد أفكارى ويزيد فى تجاربى • وحتى اذا لم يتسع الوقت هناك للكتابة ، فسأعود الى البيت ، وفى جعبتى ذخيرة من المواد المفيدة للكتابة •

قالت الأم :

ـ لست أشك فى ذلك ، ولكن ، أهذا هو السبب الوحيد لرغبتك المفاجئة فى السفر ؟

أجابت جو :

ـ لا يا أماه •

ـ وهل أستطيع أن أعرف الأسباب الأخرى ؟

وتحيرت جو وأخذت تنقل بصرها بين الأرض والسماء : ثم قالت ، وقد احمرت وجنتاها فجأة :

ـ قد يكون غرورا منى . ولكن لابد من أن أصارحك بما فى نفسى ••• أخشى أن لورى قد زاد غراما بى فى الأيام الأخيرة •

فقالت مسز مارش ، وقد بدا عليها القلق :

ـ وهل معنى هذا أنك لا تهتمين به قدر اهتمامه بك ؟

قالت جو :

ـ رفقا بى يا أماه ، انى أحب لورى الآن ، كما كنت أحبه من قبل ، وما زلت فخورة به ، ولكن لا أريد أن تزيد الأمور عن هذا القديم :

قالت الأم :

ـ انى سعيدة بما تقولين يا جـو •

فسألتها :

ـ ولماذا ؟

قالت :

ـ لأنى أعتقد أنكما تختلفان جوهريا بعضكما عن بعض ، والأمور تسـير بكمـا على ما يرام مادمتما صـديقين ، وخلافاتكما لا تلبث أن تذروها الرياح ، ولكن رباط الزواج لا يناسبكما . فكلا كمـا نزاع الى الحرية ، حاد المزاج ، شديد العناد ، مما لا يبشر بالسعادة فى حيـاة تحتاج الى الصبر البالغ والاحتمال الشديد والحب القوى •

قالت جو :

ـ وهذا ما أشعر به تماما . وان لم أستطع التعبير عنـه • ومن حسن الحظ أنه لم يتماد بل بدأ فقط يهتم بى ، فليس أبغض على نفسى من أن أكون سببا فى شقائه ، وقد اضطر بدافع الوفاء وحـده الى حب هذا الفتى العزيز •

سألتها أمها :

ـ أأنت متأكدة من أنه يحبك ؟

واشتدت حمرة الخجل فى وجنتى جو ، وبدا على وجهها ما يعتمل فى نفسها من معان اختلط فيها السرور والفخـار والألم ، شأنها فى ذلك شأن الفتيات الصغيرات • حين يتحدثن عن حبهن الأول • قالت :

ـ أخشى ذلك يا أماه • حقيقة أنه لم يقل شيئا ، ولكنه ينظر الى

نظرات طويلة ، لا تخفى معانيهـا ، ومن الخير أن أذهب قبـل أن تتطور الأمـور وتتعقد •

قالت أمها :

ــ صدقت يا جو ، وستسافرين اذا أمكن تدبير الأمور •

وتنفست جو الصعداء ، وقالت باسمة بعد سكوت قصير :

ــ لابد أن يثير تدبيرك عجـب مسز موفات ، وسيزداد سرورها لرحيلى ، لأنها ما تزال تأمل فى لورى !

قالت مسز مارش :

ــ لا يا جو ، قد تختلف الأمهات فى مسائل زواج بناتهن . ولكنهن يتفقن جميعا على التمسك بأهداب الأمل ، وليس بينهن الا من تنشـد لبناتها أقصى السعادة • لقد تزوجت ميج بطريقتها الخاصـة ونجحت فى زواجهـا ، وانى سعيدة لنجاحها . أما أنت فتمتعى بحـريتك كمـا تشائين ، حتى تملى الحرية من تلقـاء نفسـك . وعندئذ ستدركين أن هناك ما هو أحلى من الحرية • لا يشغلنى الآن سوى أمر آمى ، وان كنت على ثقة بذوقها وحكمتها . أما بث فكل أملى أن أراها سليمة معافاة • وعلى فكرة ، لاحظت فى اليومين الماضـيين أنها أكثر اشراقا ونضرة ، فهل تحـدثت اليهـا ؟

قالت :

ــ نعم ، تحدثت اليها ، فاعترفت بوجود بعض المتاعب ، ولكنهـا لم تشأ أن تفصح عنها ، ووعدت بأن تخبرنى بهـا فيما بعد • ولـم يزد حديثنا عن ذلك . ولكنى أعرف سبب متاعبها •

وروت جو لأمها قصتها الصـغيرة •

وهزت مسز مارش رأسها ، ولم تتأثر بالناحية الخيالية من القصة ، ولكنها بدت شديدة الاهتمام بما سمعته ، وعادت تؤيد رأيها الأول ، من أن ابتعاد جو بعض الوقت . يفيد لورى • • قالت جو :

ـ سنكتم الأمر عنه حتى تنتهى المسألة . وسأفر من الميدان قبل أن يجمع شتات أفكاره ويحزن لفراقى • وأحب أن تعتقد بث أنى سافرت طلبا للسرور والمتعة ، اذ لا أستطيع أن أحدثها بشىء عن لورى •• لنترك لها أمر تدليله وتهدئته بعد سفرى • ولعلها تستطيع أن تشفيه من بوادر الغرام • ولن يصعب عليها ذلك . فقد مر بمثل هذه التجارب من قبل •

وكانت جو تتكلم وكلها أمل فى النتائج الطيبة ، ولكنها ظلت فى قرارة نفسها خائفة من وقع الصدمة على لورى ، وكانت تخشى ألا تستطيع التغلب بسهولة على حبه لها •

وعرض مشروع جو على بساط فى مجلس العائلة ، وووفق عليه بالإجماع ، بعد أن اغتبطت مسز كيرك بالفكرة ، وأبدت منتهى ترحيبها بجو . كما وعدت بأن تهيىء لها مقاما سعيدا فى الأسرة • وكان الأمل عظيما فى أن توفر لها مهنة التدريس ، الاستقلال الذى تنشده ، وتمنحها فراغا من الوقت تقضيه فى الكتابة . هذا الى ما تستفيده من الحياة الاجتماعية الجديدة التى تنتظرها • وقد تطلعت جو الى عملها الجديد مغتبطة ، كما حرصت جد الحرص على السفر ، بعد أن أصبح عش الأسرة يضيق بطبيعتها القـُلـَّب التواقة الى المغامرة •

وعندما تم الاستعداد وانتهى ، أفضت الى لورى بالقصة وهى خائفة مرتعدة ، ولدهشتها تقبل الأمر بمنتهى الهدوء • وقبيل سفرها بأيام بدت

عليه الرزانة واضحة ، وازدادت بشاشته عن ذى قبل ، وحين اتهم على سبيل الفكاهة ، بأنه قلب صفحة جديدة فى حياته ، أجاب فى وقار :

ــ نعم ، لقد قلبت صفحة جديدة ، وإنى مصمم على أن تظل هــذه الصفحة مقلوبة •

وشعرت جو بالارتياح لمسلكه ، وعكفت على حاجاتها تعدها بهدوء وتفاؤل ، وزادها اطمئنانا أن رأت أختها بث منشرحة الصدر مسرورة • كانت الأمور تسير على ما يرام ، وكانت جو ترجو أن يعود سفرها بالخير على أهلها وأحبابها •

وفى الليلة السابقة لرحيلها ، قالت تحدث أختها بث :

ــ أوصيك بأن تعنى بشىء واحد •

فسألتها بث :

ــ أتعنين أوراقك ؟

أجابت جو :

ــ لا ، بل فتاى لورى : كونى رفيقة به . وأسبغى عليه حنانك •

قالت :

ــ طبعا ، ولكنى لا أستطيع أن أملأ مكانك ، وسيشعر بالأسى حين تذهبين •

قالت جو :

ــ لن يحزن لفراقى ، وتذكرى دائما أنى أتركه لعنايتك : فدلليــه وسليه وراعى شئونه •

فوعدتها بث خيرا ، وهى تعجب من نظرات جو الحائرة • قالت :

ــ سأبذل جهدى ، ولن أهمل فى تحقيق وصيتك •

وحين ودع لورى جو ، همس فى أذنها بكلمات ذات مغزى ، قال :

ــ لن يغير سفرك من الأمر شيئا ، فقد وقع اختيارى عليك واستقر ، فتدبرى فيما أنت فاعلة ، وإلا جئت إليك وأعدتك الى البيت قسرا •

الفصل الثالث والثلاثون

أخبار جو

نيويورك • نوفمبر

أمي العزيزة وأختي بث

سأكتب إليكما بانتظام فإن لدى أخبارا كثيرة ، رغم بساطة رحلتى ، وأقول بصراحة إنه حين غاب عنى وجه أبى الحبيب ، شعرت بضيق شديد ، وغمرنى احساس بالجزع ، كدت أستسلم معه للبكاء ، لولا ان سيدة أيرلندية أولادهما الأربعة الصغار ، صرفوا عنى هذا الشعور بصياحهم الدائم وبكائهم المستمر ، فأخذت أسلى نفسى باعطاء هؤلاء الصغار قطعا من فطائر البندق ، فكانوا يكفون عن البكاء حتى يلتهموها ثم يعاودون الكرة ، فأعود الى اعطائهم قطعة أخرى وهكذا •

ولم تلبث الشمس أن برزت من خدرها ، فتفاءلت بذلك وارتحت ، وأقبلت على رحلتى راضية النفس مطمئنة •

ورحبت بى مسز كيرك ، واستقبلتنى بحنان بالغ ، أحسست معه كأننى فى بيتى ، رغم اتساع المكان وكثرة الغرباء فيه • وخصصت لى حجرة صغيرة فى الدور الأعلى — هى كل ما لديها — والحجرة مزودة بموقد ، ومائدة جميلة الى جانب نافذة مشمسة ، وفى استطاعتى أن أجلس الى هذه المائدة وأكتب كلما أردت ذلك • والمناظر من حولى جميلة ، وأمامى الكنيسة ببرجها الشاهق ، وفى هذا أجمل التعويض عن السلم الطويل الذى أرتقيه مرات فى اليوم • وقد أعجبت بحجرتى لأول وهلة • ودار الحضانة التى أدرس فيها وأحوك الملابس ، واسعة بهيجة تقع بجانب غرفة الاستقبال الخاصة بمسز كيرك • والبنتان الصغيرتان جميلتان ،

ولكنهما فيما يبدو مدللتان . وقد ركنتا الى الالتصاق بى بعد أن رويت لهما قصة « الخنازير السبعة » ، وأعتقد أنى سأكون مربية مثالية • وقد أعطيت الحرية فى تناول طعامى مع الأطفال ، إذا لم أشأ أن أجلس الى المائدة الكبيرة ، وهذا ما فعلته الى الآن ، لأنى — وإن كنتم لا تصدقون — خجولة •

قالت لى مسز كيرك فى عطف أموى : « اعتبرى نفسك فى بيتك يا عزيزتى . فأنا مشغولة طول اليوم بشئون هذه الأسرة الكبيرة ، وسينزاح الهم عن كاهلى حين أجد الأولاد معك فى أمان ••• غرف البيت كلها مفتوحة لك ، فادخليها متى تشائين . وسأبذل جهدى فى توفير أسباب الراحة لك ، واذا أردت صحبة وألفة ، ففى البيت أناس غاية فى البشاشة والمودة ••• وأمسياتك دائما خالية من العمل . وعلى أية حال ارجعى الىّ دائما فيما تريدين ، وكونى سعيدة ما استطعت الى ذلك سبيلا ••• وهذا ناقوس الشاى يدق . فينبغى أن أسرع بتغيير ملابسى » • قالت هذا ثم انصرفت مسرعة ، وتركتنى أنظم شئونى فى عشى الجديد •

وبينما أنا أنزل الدرج بعد ذلك بقليل . وقعت عيناى على منظر لطيف — والسلم طويل جدا فى هذا البيت المرتفع — ، أن حين وصلت الى الدور الثالث ، وقفت قليلا ، وانتحيت جانبا ، لأمكن الخادم الصغيرة من الصعود ، وفى تلك اللحظة رأيت سيدا محترما يصعد الدرج ، فلما اقترب من الخادم ، حمل عنها دلو الفحم الثقيل الذى كانت تنوء به ، وواصل الصعود به ، حتى وضعه بجوار الباب ثم انصرف وهو يقول بلكنة أجنبية عامرة بالعطف والحنان : « هذا أفضل ، فالكاهل الصغير لا يستطيع أن يحتمل العبء الثقيل » •

أليس هذا عملا كريما يستحق التقدير ؟ أنا أحب هذا الخلق ،

وأوافق أبى على أن التصرفات الصغيرة تكشف دائما عن شخصية الإنسان • وحين ذكرت الحادثة لمسز كيرك فى المساء . ضحكت وقالت : لا بد أنه الأستاذ باير ، فهو يفعل ذلك دائما : وأخبرتنى أنه ألمانى عظيم الثقافة ، كبير القلب ، ولكنه أفقر من فأر الكنيسة ، ولذلك يقوم بالتدريس لبعض التلاميذ . ليسد حاجته وحاجة ابنى أخته اليتيمين ، اللذين تركتهما أمهما فى رعايته بعد أن تزوجت من أمريكى • وهذه القصة ليست عاطفية : ولكنها استرعت اهتمامى . وسرنى ما علمته من أن مسز كيرك ، وضعت تحت تصرف الأستاذ ، غرفة استقبالها الخاصة . ليستقبل فيها تلاميذه • ويفصل غرفة الاستقبال عن غرفة الحضانة باب زجاجى ، وفى نيتى أن أختلس النظر منه . وبعدئذ أصف لكما شكل هذا السيد ••• إنه فى الأربعين من عمره . فلا تخافى يا أماه !

وبعد أن تناولت الشاى ، ولاعبت الأطفال قبل نومهم ، انصرفت الى سلة الحياكة ، وقضيت مساء هادئا فى عملى الجديد • سأكتب يومياتى بانتظام ، ثم أرسلها اليكم كل أسبوع . فمساء الخير ، والى اللقاء غدا •

« مساء الثلاثاء :

قضيت هذا الصباح وقتا نشيطا فى غرفة الحضانة ، فقد كانت البنتان غاية فى « الشقاوة » ، حتى خيل الىّ أن أمسك بهما وأهزهما بعنف ، لأردهما عن مشاكستهما . ولكن روحا طيبة أوحت الىّ أن أحول نشاطهما الى الرياضة ، وبالفعل جعلتهما تقوءان بتمرينات بدنية ، وأمرتهما بالاستمرار فيها ، حتى أنهكهما التعب ، فجلستا ترتاحان فى هدوء • وبعد الغداء اصطحبتهما الخادم الصغيرة الى رياضة خارج البيت ،

وعندئذ إنصرفت الى شغل الابرة بنفس راضـية • وبينما كنت أمتـدح الظروف السعيدة التى هيأت فرصة اتقان صنع العرى الجميلة ، انفتح باب غرفة الاستقبال المجاورة ، ودخلها أحدهم ، وهو يترنم بلحن ألمانى ، وغلبنى الاغراء ، ودفعنى الى ما لا يصـح أن أفعل ، فقمت الى البـاب الفاصل بيننا ، ورفعت جانبا من الستار الذى يحجب زجاجه ، واسترقت من خلفه النظر ، فإذا بى أرى الأسـتاذ باير فى الحجرة • وأنعمت فيـه النظر ، وهو مشغول بترتيب كتبه ، فوجدته ألمانيا أصيلا جسمه ممتلىء ، وشعره بنى مشعث ، ولحيته كثة ، وأنفه جميل ، وعيناه وديعتان ، وعلى كل حال ليس فيه من مظاهر الوسامة . إلا أسنانه البيضاء اللامعة • ولكنه أعجبنى بالرغم من ذلك ، لأن شكله يوحى بالطيبة والتواضع ، ووقاره ينم عن أصل عريق ، لم تستطع أن تخفيه ملابسه العتيقة وحذاؤه المرتوق •

وأول ما دخل الحجرة ، اتجه الى النافذة ، ليحول أبصال الزهـور نحو أشعة الشمس ، ثم ربت على ظهر القطة التى تلقته بترحيب الصديق القديم ، وعندئذ انفرجت أساريره عن ابتسامة الرضا ، وحين دق الباب ، قال بصوت عال ملؤه الحيوية والنشاط : « موجود ، تفضل » •

وكنت على وشك أن أكف عن المراقبة ، حين وقعت عيناى على طفلة صغيرة نحيلة ، تحمل كتابا كبيرا ، فدفعنى الفضول الى البقاء لملاحظة ما يدور • ورأيت الصغيرة تغلق كتابها ، وتضعه على المائدة ، ثم تجرى نحو الأستاذ وتقول :

— أريد أن أرى عزيزى باير •

وفتح لها الأستاذ ذراعيه ، وانحنى عليها يقبلها ، ثم قال :

— هاك باير ، فتعالى وعانقيه يا تينـا •

وألصقت تينا شفتيها الصغيرتين بوجهه ، وطبعت عليه قبلة وقالت بالانجليزية الركيكة :

— والآن يجب أن أذاكر دروسى •

فوضعها الأستاذ فوق المائدة ، وفتح القاموس الكبير الذى جاءت به معها ، وأعطاها ورقة وقلما . فأخذت تكتب مستعينة بصفحات القاموس من وقت لآخر ، وكانت تحرك أصبعها على طول الصفحة ، كأنما تبحث عن كلمة • وكانت تقوم بهذا العمل فى جد ورزانة . لم أستطع معهما أن أكتم الضحك ، حتى كاد أمرى يفتضح • وكان باير طوال الوقت يربت بيده على شعرها الجميل فى حنان الأبوة ، مما يجعلنى أعتقد أنها ابنته ؛ وإن كان مظهرها وملامحها تنم على أنها فرنسية لا ألمانية •

ودق الباب مرة ثانية ، ودخلت فتاتان فى ريعان الشباب ، فتركت المراقبة من وراء الباب ، وعدت الى عملى ، ولم أغادر مكانى ، رغم الضجيج الذى كان يأتينى من الغرفة المجاورة • وظلت احدى الفتاتين تتصنع الضحك طول الوقت • وتقول فى دلال : « حسنا يا أستاذ » وأخذت الأخرى تنطق الألمانية بلهجة قبيحة ، جعلته يعترض عليها فى غير هدوء أو ثبات •

وكان من الواضح أن الفتاتان ترهقان أعصابه • حتى كاد يفقد صبره ، وقد سمعته يقول لهما مرة : « لا ، ليس هكذا ••• ما هكذا تنطق الكلمات ••• أنتما لا تعملان بملاحظاتى » •

ومرة أخرى سمعت دقة عنيفة . كأنما ألقى الكتاب على المائدة ،

ثم قال فى صيحة يائسة : « لم تحسنا اليوم شيئا ، وقد ذهب الدرس هباء » .

وأخذتنى الشفقة بالرجل المسكين ، وعند ما انصرفت الفتاتان ، عدت الى الباب الزجاجى ألقى نظرة من ورائه ، لأطمئن على أنه اجتاز المحنة بسلام ... فوجدته مستلقيا على كرسيه ، وعليه مظاهر الارهاق والإنهاك ، وظل فى مكانه مغمض العينين . حتى دقت الساعة الثانية ، وعندئذ هب من كرسيه واقفا ، ودس كتبه فى جيبه ، كأنما يستعد لدرس آخر ، ثم حمل بين ذراعيه تينا الصغيرة . التى راحت فى سبات عميق فوق الأريكة ، وخرج بها يمشى هادئا ، خشية أن يوقظها . يخيل الىّ أنه يقاسى كثيرا من أجل هذه الفتاة .

رجتنى مسز كيرك أن أتناول وجبة الساعة الخامسة على المائدة الرئيسية مع أهل البيت ، ولما كنت أشعر اليوم بحنين شديد الى بيتنا ، رأيت أن أجيب رجاءها ، لأروح عن نفسى ، وأستطلع أحوال أولئك الذين يسكنون معى تحت سقف واحد ولا أعرفهم . وأخذت أهبتى لأبدو فى مظهر لائق . ورافقت مسز كيرك ، وفى نيتى أن أتسلل الى قاعة الطعام خلفها ، ولكنها كانت أقصر منى قامة ، فذهبت محاولاتى للاختفاء أدراج الرياح . وقدمت لى مسز كيرك مقعدا بجانبها ، فجلست عليه ، وعند ما هدأت نفسى ، جمعت أطراف شجاعتى ، وبدأت أجول ببصرى فيمن حولى . وكانت المائدة الطويلة ممتلئة عن آخرها ، وكان كل فرد مشغولاً بطعامه ، خصوصا الرجال الذين بدوا وكأنهم مع الطعام على موعد : فقد ازدردوا أكلهم بسرعة ، وحالما انتهى الطعام ، انسلوا خارجين . وكان يجلس الى المائدة شبان مشغولون بأنفسهم كالعادة ، وأزواج يتبادلون الحديث فى جد وانهماك ، وسيدات يرعين أطفالهن ،

ورجال يتناقشون فى السياسة . ولا أظن أننى سأعنى بأمر أحد من هؤلاء كلهم . ما عدا سيدة جميلة فى مقتبل الحياة . أعتقد أنها تستحق المعرفة .

وكان الأستاذ يجلس فى طرف المائدة الآخر ، وهو يجيب عن أسئلة عجوز أصم الى يمينه . ويتناقش فى الفلسفة مع فرنسى على يساره ، ولكن أحاديثه مع الرجلين لم تشغله عن أداء واجبه نحو الطعام . فأقبل عليه باجتهاد شديد . ولو كانت آمى معنا . لقاطعته الى الأبد ، إذ كان مع الأسف يأكل بنهم مخجل لا تقره أختنا صاحبة الفخامة ، ولم أستاء لنهمه أو أتضايق ، لأنى أحب أن أرى الناس يأكلون طعامهم « بشهية ولذة » على حد تعبير حنا ، ولا شك أن الأستاذ المسكين فى حاجة دائمة الى تغذية مضاعفة . تعوض عليه الجهود الشاقة التى يبذلها فى التدريس .

التقيت وأنا أصعد الدرج بعد العشاء بشابين ، وقفا أمام مرآة الردهة ينسقان قبعتيهما . وسمعت أحدهما يقول للآخر بصوت خفيض :

ـ من هذه الزميلة الجديدة ؟

قال الآخر :

ـ مربية أو ما يشبه ذلك .

سأل الأول :

ـ وما الذى جاء بها الى مائدتنا ؟

أجاب الثانى :

ـ يقولون إنها صديقة للسيدة العجوز .

قال الأول :

ــ أن شكلها لطيف ، ولكنها عديمة الطراز •

قال الثانى :

ــ ليس لها طراز على الاطلاق ، اشعل لى سيجارتى وهيا بنا •

وتملكنى الغضب فى أول الأمر ، ولكنى لم ألبث أن استعدت هدوئى . ولم أبال بما سمعت ، فالمربية لا تقل شأنا عن الكاتب أو السكرتير ، وقد أكون محرومة من الطراز ، ولكنى راضية بذكائى الذى لا يستمتع به كثيرون • واذا كان لى أن أحكم على هذين الشابين المتأنقين ، اللذين انصرفا وهما ينفثان الدخان ، كأنهما مدخنتان ، فليس لدى ما أقول سوى أنى أكره التافهين !

« الخميس :

كان أمس يوما هادئا صرفته فى التدريس والحياكة والكتابة داخل حجرتى الصغيرة المزودة بوسائل الانارة والتدفئة ، وقد جمعت أطرافا من الأخبار . وتعرفت بالأستاذ ، وعرفت أن تينا هى ابنة السيدة الفرنسية التى تقوم بأعمال الكى فى المنزل • والطفلة الصغيرة تحب مستر باير من كل قلبها . وتتبعه فى البيت أينما ذهب ، وهو فخور بحبها ، لأنه بطبعه شغوف بالأطفال • ويحب الأستاذ أيضا الطفلتين الصغيرتين كيتى ومينى كيرك ، وهما ترويان لى أخباره كلها ، وتتحدثان عن التمثيليات التى يؤلفها • والهدايا التى يحضرها ، والقصص البارعة التى يحكيها • والشبان يتخذون منه مادة لدعاباتهم ، ويطلقون عليه أسماء مضحكة ، منها « فرنز العجوز » و « البيرة الخفيفة » و « الدب الأكبر » • ولكن مسز كيرك تقول : « إنه يتقبل مجونهم راضيا ، ويتحمل فكاهاتهم

بسـماحة • ولذلك جميع من فى البيت يحبونه ، على الرغم من عاداته الأجنبية •

أما السيدة الأنيقة الجميلة ، فهى الآنسة نورثون ، وهى ثرية مثقفة طيبة القلب مهذبة ، وقد تحدثت الىّ ونحن نجلس الى مائدة العشاء الليلة — إذ تناولت عشـائى على المائدة مرة أخرى ، فليس أدعى الى التسـلية من مراقبة الناس وهم يأكلون — ودعتنى الآنسـة نورثون لزيارتها فى غرفتها الخاصـة ، وأرتنى مجموعة كبيرة من الكتب المفيدة والصور الجميلة ، وهى تعرف أناسـا لهم مكانتهم وتقديرهم ، وأبرز ما فى هـذه السيدة ، روحها الودود ، لذلك سأتلطف معهـا ، لأنى فى حاجة الى معرفة المجتمعات الطيبة ، ولكنها ليست على أية حال من الطراز الذى تحبه أختنا آمى •

وكنا نجلس ليلة أمس فى غرفة الاستقبال ، فدخل علينا مستر باير ، ومعه جرائد جاء بها لمسز كيرك • ولم تكن السيدة موجودة ، ولكن مينى الصغيرة — التى تتقن قواعد اللياقة رغم حداثة سـنها — قدمتنى اليه بكل رشاقة وقالت : « هذه الآنسة مارش ، صديقة والدتى » •

وأضافت كيتى وهى طفلة رائعة :

— نعم ، وهى سيدة خفيفة الروح حـلوة الحديث ، ونحن نحبها حبـًا جمـًـا •

قال وهو يقطب جبينه بشكل سرت له الفتاتان :

— انى أسمعهما يضايقانك أحيانا يا آنسـة مارش ، فنادنى اذا فعلتا ذلك مرة أخرى ، وسأعطيهما ما تستحقان !

ووعدته بذلك ثم انصرف . ولكن يبدو أنني سأراه كثيرا ، فقد حدث اليوم وانا أمر بغرفته . أن اصطدمت مظلتي ببابه دون قصد . فاذا بالباب يفتح على مصراعيه ، واذا بالأستاذ يقف أمامي وفى يساره جورب أزرق كبير ، وفى يمينه إبرة للرفو ، ولم يبد عليه أى أثر للخجل من وضعه هذا . وحين فسرت له ما حدث ، وأسرعت بالمسير . لوح لى بالجورب ، وقال فى سرور بالغ :

— إنه يوم جميل للمشى ، فرحلة طيبة يا آنسة .

وكان الموقف مضحكا ، ولكنى رأيت له وجها آخر أفعم قلبى بالإشفاق على هذا الرجل ، الذى لا تضطره الظروف الى إصلاح ملابسه فحسب ، بل الى رتق جواربه أيضا ، وهى مهمة شاقة بغيضة .

« يوم السبت :

لم يحدث اليوم جديد يستحق الكتابة غير زيارتى للآنسة نورثون . فى غرفتها العامرة بأجمل التحف وأندرها ... ان هذه السيدة رشيقة جذابة ، وقد أرتنى مقتنياتها الثمينة . ودعتنى الى مصاحبتها عند ذهابها الى المحاضرات والحفلات الموسيقية ، وأظنها أرادت أن تجاملنى بهذه الدعوة . ويقينى أن مسز كيرك حدثتها بأحوالنا ، فأخذتها الشفقة بى ، وأنا وان كنت أشد كبرياء من إبليس ، غير أن مكرمات الطيبين لا تسيئنى ، ولذلك تقبلت الدعوة شاكرة .

وحين عدت الى غرفة الحضانة ، سمعت ضجة كبيرة تنبعث من حجرة الاستقبال المجاورة ، فأسرعت اليها أتبين الخبر ، واذا بى أرى مستر باير يركع على يديه وركبتيه . وتينا تجلس فوق ظهره ، وكيتى

تجره بحبل طويل .. أما مينى فكانت تطعم ولدين صـــغيرين يصرخان داخل قفص صنعته لهما من المقاعد . وقالت كيتى تشرح الموقف :

ــ نحن نلعب النارجيرى .

وأضافت تينا وهى تشد شعر الأستاذ :

ــ وهــذا حصــانى .

وقالت مينى :

ــ ماما تسمح لنا بأن نفعل ما نريد فى مساء السبت من كل أسبوع حين يحضر فرانز وأميل لزيارتنا ، أليس كذلك يا مستر باير ؟

وجلس الحصان ، ونظر الىّ بحماسة تفوق حماسة الأطفال ، وقال بتــؤدة :

ــ إنها الحقيقة يا آنسة ، وإذا تضايقت من ضجيجنا ، فما عليك إلا أن تقولى « صــه » ، فنركن الى الهدوء .

وكانوا فى مرح لم أر له مثيلا : فعدت الى غرفتى ، ولكنى تركت البــاب مفتوحــا ، لامتع النفس بلعبهم . ولعبوا لعبــة « العســكر واللصوص » ، ثم رقصوا وغنوا ، وحين حل الظلام ، اجتمعوا حــول الأستاذ على الأريكة ، يستمعون الى قصصه الخرافية الممتعة ، وحكاياته الشائقة ، وكم أسفت أن الأمريكيين ليســوا مثل الألمان فى بساطتهم وتمشيهم مع الطبيعة .

انى مولعة بالكتابة ، وسأظل الى الأبد أسطر ما يجــول بخاطرى الورق ، إلا إن منعتنى عوامل اقتصــادية ، فعلى الرغم من أنى أكتب

على ورق رفيع ، بخط دقيق ، فانى أرتعد كلما تذكرت عدد الطوابع ، التى يتكلفها مثل هذا الخطاب الطويل • وأرجو أن تبعثوا الى بخطابات آمى حالما تنتهون منها ، ولا شك أن أخبارى ستبدو تافهة بالمقارنة الى أخبارها المجيدة ، ولكنى أعرف أنكم ترحبون بكل ما أكتب • هل تيدى مشغول بالمذاكرة الى حد يمنعه من الكتابة لأصدقائه ؟ أعنى به من أجلى يا بث وابعثى إلىّ بأخبار طفلى ميج ، وبلغى الجميع حبى الشديد ،

من المخلصة

جو

ملاحظة : عندما أعدت قراءة الخطاب ، استوقفتنى كثرة كلامى عن باير ، ولكن الشخصيات الغريبة تجتذبنى دائما ، ولم يكن لدى أخبار أخرى أرويها لكم ••• تحياتى إليكم •

« ديسمبر :

عزيزتى

لما كان خطابى هذا أشتاتا من هنا وهناك ، لذلك وجهته إليك ، عسى أن يدخل على قلبك السرور ، ويعطيك فكرة عن مجرى حياتى فى هذا المكان ، فهى وإن تكن حياة هادئة ، إلا أنها لا تخلو من التسلية • وقد استطعت بعد « الجهود الجبارة » — على حد تعبير آمى — التى بذلتها فى تنمير الغرس العقلى والأدبى ، أن أمكن لأفكارى من الازدهار ، وأجعلى طفلتىّ الصغيرتين طوع أمرى ، وأوجههما كيفما أشاء • وفى الحق أنهما لم تبلغا بعد ما بلغته تينا والولدان الصغيران ، ولكنى أؤدى واجبى نحوهما ، وهما مغرمتان بى ••• وفرانز وأميل ولدان لطيفان ، وأنا أحبهما من كل قلبى ، لأنهما خليط من الأمريكية والألمانية ، وهذا الخليط يجعلهما فى فوران دائم ••• وأمسيات السبت دائما صاخبة ، سواء أقضاها الأطفال

فى البيت أم فى خارجه ، وهم يخرجون معى أنا والأستاذ • حين يكون الجو صالحا للمشى ، ومهمتى أن أرقب النظام وأحافظ عليه ، وهو عمل غاية فى التسلية •

صرت أنا والأستاذ صديقين حميمين ، وبدأت أتلقى عليه بعض الدروس ، ولم يكن مناص من ذلك ، بعد أن تطورت الأمور بيننا بطريقة غريبة • وبدأت القصة يوم نادتنى مسز كيرك ، وأنا أجتاز باب غرفة الأستاذ . وكانت فى ذلك الوقت تفتشها ، وتبعثر الأشياء هنا وهناك • قالت حين دخلت :

ـ هل رأيت عرينا بهذه الفوضى ؟ تعالى يا عزيزتى وساعدينى فى إعادة هذه الكتب الى مواضعها ، فقد قلبت الأشياء بحثا عن المناديل الستة ، التى أعطيته إياها منذ وقت قريب ، ولكنى لم أعثر لها على أثر •

وكانت حجرة الأستاذ حقيقة تشبه عرين الوحش فى فوضاها ، فالكتب والأوراق مبعثرة فى كل مكان . وعلى رف المدفأة غليون محطم وزمارة مكسورة ، وبجانب النافذة طائر بلا ذيل ، وفى الجانب الآخر صندوق للفيران الأليفة • وبين كتبه وكراساته مراكب من الورق لم يتم صنعها بعد ، وأمام المدفأة صف من الأحذية القديمة الصغيرة جففتها سخونة النيران ، وفى كل مكان من الحجرة آثار الأطفال الصغار الذين يشقى من أجلهم • وبعد طول بحث وتنقيب عثرنا على ثلاثة من المناديل المفقودة . كان أحدها فوق قفص الطائر ، والثانى ملطخا بالحبر ، والثالث محترقا بجوار الموقد ، مما يدل على أنه كان يستعمله فى تنحية الأوانى الساخنة عن النار • وضحكت مسز كيرك الوديعة من أمر الرجل ما شاء لها الضحك ، ثم وضعت مخلفات المناديل فى سلة المهملات وهى تقول :

— أظن أنه مزق بقية المناديل ليصنع منه قلوعا لمراكب الأطفال ، أو ضمادات لأصابعهم المجروحة ، أو ذيولا للطائرات ... إنها تصرفات فظيعة ، لا أستطيع أن ألومه عليها ، لأنه شارد الذهن ، ولكنه أبدا طيب القلب يلاعب الأطفال ، ويسمح لهم بامتطاء ظهره كأنه حصان أصيل .. إنه رجل وديع ، وقد تعهدت عن طيب خاطر بغسل ملابسه وإصلاحها ، ولكنه ينسى دائما أن يعطيها لى ، وأنسى أنا أن أطلبها منه ، وتكون النتيجة أن يقع فى مآزق تأتيه بالمتاعب .

قلت لها :

— دعينى أصلحها له بنفسى فأنا لا أضيق بهذا العمل ، ولا تخبريه بذلك ، حتى لا يشعر بحرج ... من واجبى أن أود جمائله ، فهو رفيق بى ، يعيرنى كتبه ، ويتعب نفسه فى إحضار خطاباتى .

وهكـــذا استطعت أن أرتب له أشياءه : وأن أرفو له جوربين من جواربه ، وأن أعيدهما الى وضعهما الطبيعي بعد أن أفسدهما بمحاولة إصلاحهما بنفسه . وبقى الأمر سرا ، وكان أملى ألا يعرف الأســتاذ بصنيعى ، ولكن حدث فى الأسبوع الماضى أن كنت أتســلى باســتماع الدروس التى يلقيها على تلاميذه ، وكانت تينا دائبة الخروج والدخول ، تترك الباب مفتوحا وراءهما : بحيث تيسر لى متابعة ما يقول . وبينما كنت أجلس بجوار الباب أرفو جورب الأستاذ ، وأفكر فيما يقوله لتلميذة جديدة يبدو عليها الغباء مثلى ، فى تلك اللحظة خرجت الفتاة من الغرفة ، وخيل إلىّ أنه خرج خلفها ، إذ ساد الصمت ولم أعد أســمع شــيئا . وجعلت أسلىّ نفسى بتصريف أحد الأفعال التى سمعتها ، وأنا أهتز فى مقعدى بطريقة رتيبة : وفجأة تنبهت على صوت ينبعث من أمامى ، وحين رفعت رأسى وجدتنى وجها لوجه مع الأستاذ باير . وكان ينظـــر إلىّ

ضاحكا ، ويشير الى تينا أن تلزم الصمت حتى لا أكتشف أمرهما ، فرحت أحملق فى وجهه كالأوزة المذعورة ، فقال لى :

— إنك تختلسين النظر إلىّ • كما أختلس النظر إليك ، ولا غضاضة فى ذلك ، ولكن أرجو ألا تعتبرينى مجاملا أو متطفلا اذا سألتك : هل تحبين أن تدرسى الألمانية ؟

قلت وقد استبد بى الخجل والحرج :

— نعم : ولكنك مشغول جدا ، وأنا غبية جدا فى الحفظ •

وضحك الأستاذ ثم قال بهدوء :

— سنرتب الوقت يا فتاتى • ولن تعيينا الحيل فى تنشيط فكرك ، ويسرنى أن أدرس لك فى المساء لأوفيك جميلك يا مس مارش •

وأشار بيده الى الجورب الذى أمسك به ، ومضى يقول :

— نعم ، إن أولئك السيدات الطيبات يعتقدن أنى رجل ساذج ، لا أشعر بما يحدث حولى ، ولا أنتبه الى خدماتهن الجليلة ، ولا أرى ما يطرأ على جواربى من اصلاحات : وأظن أن أزرار سترتى تنبت من تلقاء نفسها • أواه يا فتاتى ، إن لى عينا ترى ، أذنا تسمع ، وقلبا يفيض بالشكر لما تسدين من جميل • ما علينا ، تعالى يا فتاتى من وقت لآخر لألقنك دروسا فى اللغة الألمانية •

ولم أرفض بطبيعة الأمر هذه الفرصه الرائعة ، واتفقت معه على أربعة دروس فى الأسبوع ، ولم ألبث أن وقعت فى شراك قواعد اللغة ، واختلط علىّ أمرها إختلاطا شديد ، ولكن الأستاذ كان مثاليا فى صبره ،

وكان ينظر إلىّ فى بعض الأحيان يائسا : فأتحير : أأضحك من موقفى ، أم أبكى لخيبتى ؟ ولقد جربت الأمرين فى الواقع ، فلم تتحسن الأحوال ، وعندما بلغ غبائى أقصاه ، عيل صبر المسكين ، فألقى بالكتاب على الأرض ، وانصرف من الغرفة مسرعا . وشعرت بمنتهى الوحدة والمهانة ، ولكنى لم أغضب منه ، فقد كان الخطأ خطأى : ولم يكن للأستاذ يد فى غبائى . وعكفت على أوراقى أجمعها . وفى نيتى أن أهرب الى غرفتى ، لأهز فيها رأسى هزًّا عنيفا ، حتى تتفتح أبوابه المغلقة ، فيفهم الدروس . وما كدت أهم بالخروج ، حتى رأيت الأستاذ يعود الى الغرفة ضاحكا راضيا ، كأننى قمت بعمل مجيد ، وقال :

ـ سناجأ الى طريقة أخرى ، فهيا بنا نقرأ بعض القصص المسلية ، ودعينا من البحث فى هذا الكتاب الجاف القابع فى زواية الغرفة ، فإنه يأتينا بالمتاعب .

وكان الأستاذ يتكلم برفق وبشاشة ، ثم فتح كتاب القصص ، وطلب إلىّ أن أقرأ فيه ، ولكنى كنت غاية فى الخجل ، فجعلت أقرأ وأنا مطأطئة الرأس ، مما سره كثيرا ، وزاده غبطة وإنشراحا ، ولم ألبث أن اندمجت فى الكتاب ، فنسيت خجلى ، وأقبلت على القراءة بعزم واهتمام ، وبذلت جهدى لأنطق بالكلمات الطويلة فى سرعة وجرأة ، وحين أنهيت قراءة الصفحة الأولى ، وتوقفت لحظة أستعيد فيها أنفاسى ، صفق الأستاذ بيديه إعجابا ، وقال بعطف :

ـ هذا حسن جدًّا ، إننا نتقدم طيبا ، والآن حل دورى فى القراءة . فأصغى إلىّ :

وبدأ يقرأ بصوت قوى رخيم ، يشوّق الأسماع ويجتذبها .

وكانت القصة لحسن الحظ مضحكة ، ولذلك كان فى استطاعتى أن أضحك ، وقد ضحكت فعلا بالرغم من أننى لم أفهم نصف الكلام ، إذ كان يقرأ بسرعة وحماسة ، وكنت فى غاية الاستثارة ، وكان الموقف غاية فى الفكاهة .

وأعجبتنى هذه الطريقة . فتقدمت تقدما طيبا ، وأصبحت أقرأ دروسى جيدا ، وأخذت أتعلم قواعد اللغة من خلال القصص والقصائد ، شأنى فى ذلك شأن مريض يعطونه الدواء ممتزجا بالحلوى .. هذه الطريقة تلائمنى ، والأستاذ — كما أرى — لم يملها بعد ، وهو كريم من جانبه . وفى عزمى أن أعطيه هدية بمناسبة عيد الميلاد ، فلست أجرؤ على نقده أجراً لدروسى ، فاقترحى علىّ شيئا جميلا يا أماه .

سرّنى ما علمته من مرح تيدى ونشاطه واجتهاده ، واغتبطت كثيرا لانقطاعه عن التدخين ، ولأنه ترك شعره ينمو ... ألا ترين معى أن بث أقدر منى على قيادته ؟ لست أغار من ذلك ، فابذلى جهدك معه يا عزيزتى ، ولكن إياك أن تجعلى منه قديسا ، فإنى أفضله عفريتا كما عهدناه ، اقرئى له أطرافا من خطابى ، فليس لدى متسع من الوقت لأكتب له ، وفى هذا القدر ما يكفيكم جميعا ، والحمد لله على تقدم صحة بث وراحة بالها .

« يناير :

أرجو لكم جميعا ، يا أفراد أسرتى المحبوبة ، عاما سعيدا ، وأبعث بأطيب التمنيات الى مستر لورنس والفتى المسمى تيدى . أرانى عاجزة عن وصف سعادتى بهدية العيد ، التى أرسلتموها إلىّ فوصلتنى فى الليل ، بعد أن قطعت كل أمل فيها . كان خطابكم قد جاءنى فى الصباح وليس فيه اشارة اليها ، لأنكم أردتم أن تفاجئونى بالهدية ، والحقيقة أن الحيلة

انطلت علىّ . وظننت أنكم نسيتمونى فى هذا اليوم السعيد ، فاستبدّ بى الحزن ، وجلست بعد تناول الشاى فى غرفتى واجمة .

وحين دق الباب ، ورأيت الحزمة الكبيرة ، استخفنى الطرب ، فقمت إليها أحتضنها وأقبلها . وكان فيها عبير البيت المنعش ، فجلست على الأرض أفك رباطها ، وأنظر فيها وآكل منها وأضحك وأبكى فى وقت واحد ، على طريقتى الهوجاء المعهودة . وكانت الأشياء التى بعثتم بها غاية ما أتمناه ، وزادنى تقديرا لها أنها صنعت بأيديكم ، ولم تشتر من السوق . وراقتنى المحبرة الجميلة التى أرسلتها بث ، وسررت بفطائر حنا كل السرور ، وسأرتدى الأقمصة الصوفية الجميلة التى بعثت بها يا أماه ، وسأقرأ بإمعان الكتب الطريفة التى أرسلها أبى ... أشكركم ألف شكر على هذه الهدايا الرائعة .

والحديث عن الكتب يذكرنى بأننى أزداد فى هذا الباب ثراءً يوما بعد يوم ، إذ أهدانى الأستاذ باير فى رأس السنة مجموعة جميلة من مؤلفات شكسبير ، وهى مجموعة كان يعتز بها ويقدرها وكنت أعجب بها كلما رأيتها فى غرفته تشغل مكان الصدارة من كتبه الثمينة الأخرى ، كالإنجيل بالألمانية ، ومؤلفات أفلاطون وهوميروس وميلتون ، لذلك يمكنكم أن تتصوروا مبلغ سعادتى حين جاءنى بالمجموعة ، وأرانى اسمى عليها ، ومعه كلمة إهداء « من صديقك ، فريدريك باير » ، وقال لى :

ــ كنت تتمنين دائما أن تكون لك مكتبة ، وها أنا ذا أعطيك واحدة ، فبين دفتى هذا الغطاء ــ وهو يعنى الغلاف ــ عدة كتب فى كتاب واحد . اقرئيها جيدا تفيدك وتعينك ، فإن دراسة الشخصيات فى هذه المجموعة ، تسهل عليك دراسة الناس فى الحياة : وتمكنك من رسمهم بقلمك .

وشكرته قدر ما أستطيع ، وأصبح فى استطاعتى الآن أن أتكلم عن مكتبتى ، كأنما عندى مئات الكتب • لم أكن أعرف من قبل كم عدد مؤلفات شكسبير ، ولكنى لم أكن أعرف عندئذ أستاذا كباير ، يفسر لى ما أجهل ، لا تضحكوا من طريقتى فى كتابة اسم « باير » فهكذا ينطقه الألمان !

يسرنى أنكم تستمون بما أرويه لكم من أخبار هذا الأستاذ ، وأملى أن تقابلوه فى يوم من الأيام ، وستعجب والدتى بقلبه الكبير ، وسيعجب أبى برجاحة عقله ، أما أنا فأعجب بقلبه وعقله ، وأشعر بأنى صرت غنية بمعرفة صديقى الجديد فريدريك باير •

لما كنت لا أملك مالا كثيرا ، ولا أعرف على وجه التأكيد الهدية التى يقدرها ، لذلك اشتريت له عدة أشياء بسيطة ، كلها جميلة ونافعة ومسلية ، ثم وضعتها له فى حجرته حيث وجدها على غير انتظار : أهديته تمثالا صغيرا للمائدة ، وآنية جميلة للزهور — فهو يحتفظ دائما بالأزهار فى حجرته ويقول إنها تنعشه — ، وكذلك أهديته مقبضا يتناول به الأوانى الساخنة ، حتى لا يضطر الى استعمال مناديله فيحرقها • وسر الأستاذ كثيرا بهذا المقبض ، ووضعه فوق رف المدفأة كحلية ثمينة ، وأبى أن يستعمله فيما اشتريت له ، وهكذا فشلت جهودى فى محاولة إنقاذ مناديله ، وعلى الرغم من فقر الأستاذ ، فإنه لم ينس أحدا من أهل البيت وأطفاله ، لا ، ولم ينسه أحد ، من الغسالة الفرنسية الى مس نورثون ، وقد سرّنى إجماعهم على تقديره •

وأقاموا فى ليلة رأس السنة حفلا تنكريا ابتهاجا بالعام الجديد ، ولم يكن لدىّ ثوب لائق ، فقررت ألا أشترك فى الحفل ، ولكن مسز كيرك تذكرت فى آخر لحظة أن لديها ثوبا من الحرير القصب ، فأعطتنى إياه ، وأعارتنى مس نورثون بعض الريش والدنتلا ، فتنكرت فى شخصية

غانية تاريخية ، ووضعت قناعا على وجهى ، وغيرت صوتى • ولم يعرفنى أحد من الحاضرين ، ولم يطرأ لذهن من أذهانهم أن مس مارش الصامتة المترفعة — فهم يظنون أنى خشنة جافة باردة ، أو هكذا أبدو فى نظر السخفاء — يمكنها أن ترقص وتغنى وتمرح مثلما فعلت • وكانت حقا ليلة ممتعة ، وحين خلعنا الأقنعة عن وجوهنا آخر الليل ، سرنى أن رأيت الحاضرين يحملقون فىّ بدهشة ، وكأنهم لا يصدقون عيونهم • وسمعت شابا يقول عنى الآخر : إننى كنت أحترف التمثيل فيما مضى ، وأنه رآنى ذات مرة أمثل على أحد المسارح الصغيرة ، أخبروا ميج بذلك ، وستضحك كثيرا لهذا الادعاء •

وكان مستر باير مستخفيا فى لباس شخصية قدصية ، وكانت تينا فى لباس حورية من الجنة ، وكان منظرهما وهما يرقصان معا ، آية من آيات الجمال الطبيعى — على حد تعبير تيدى — وعلى العموم قضينا ليلة عيد سعيدة ، وحين عدت الى غرفتى ، وأمعنت التفكير فى الأمر شعرت أننى بدأت أتقدم ، على الرغم من فشلى فيما مضى ، والدليل على ذلك أننى الآن مبتهجة على الدوام ، وأشتغل بعزيمة قوية ، وأهتم بمن حولى أكثر من ذى قبل ، وكلها مظاهر مطمئنة •

تحياتى ودعواتى لكم جميعا •

المحبة دائما

جو

الفصل الرابع والثلاثون

صـــديق

اندمجت جو سعيدة فى الحياة الاجتماعية التى تحيط بها ، وأخلصت لعملها الذى تكسب منه لقمة العيش ، فأقبلت عليه بمنتهى جهدها وعزيمتها ، ولكنهـا اســتطاعت على الرغم من كل هــذا ، أن تجــد فسحــة من الوقت لأعمالها الأدبية • وكان الهدف الذى تسعى إليــه طبيعيًا لفتاة مثلها فقيرة طامحة ، ولكنها لم تحسن اختيار الوسيلة لبلوغه : فقد كانت ترى المال يسبغ على الناس قوة ونفوذا ، ولذلك استقر رأيها على طلب المال بقوته ونفوذه ، لا لتنفقه فى أغراضها الخاصة ، بل لتحقق السعادة لمن تحبهم أكثر من نفسها •

وكانت جو تتمنى دائما ، أن تملأ البيت بوسائل الترف والراحة ، وتعطى بث كل ما تصبو اليه نفســها من غراولة فى الشــتاء ، الى أرغن موسيقى تشبع بها هوايتها ، أما لنفسها فلم تكن تطلب إلا الســفر الى الخارج مع زيادة فى الدخل تمكنها من الاشتراك فى الأعمال الخيرية • وقد ظلت هذه أمانيها على مر السنين ، وكانت تبنى عليها قصورا شامخة فى الهواء •

وكانت المغامرة التى أتتها بجائزة القصة ، قد فتحت لها طريقــا يقودها بالجد والاجتهاد الى قصر أحلامها المنشود ، ولكن فاجعة القصة الطويلة التى منيت بها ، أضفت على شجاعتها بعض الوقت ، ودفعتها الى الانكماش أمام الرأى العام ، ذلك العملاق الجبار الذى ترتعد له فرائص الرجال • وآثرت جو أن تهدأ قليلاً ، بعد التجربة الأولى ، التى انجلت

عن فشل وخسارة ، ولكن طموحها الشديد لم يلبث أن تيقظ فى نفسها ، فقامت تعالج عثراتها ، وتستأنف المسير فى طريق آخر ظليل ، منحها القوة ، ولكنها أوشكت أن تخلف وراءها ما هو أثمن وأعظم من حقائب المال

عاودت جو كتابة القصص ، ولكنها جنحت الى النوع المثير ، تمشيا مع مزاج القراء الأمريكيين الذين كانوا يفضلوا هذا اللون التافة ، ولم تخبر جو أحدا بعزمها ، بل عكفت على الكتابة فى صمت ، وأخرجت قصة مثيرة ، حملتها بنفسها الى مستر داشوود ، رئيس تحرير مجلة « البركان الأسبوعى » • ولم تكن جو ذات خبرة بأخلاق الناس ، ولكنها أدركت بغريزتها النسوية أن الملابس الأنيقة أشد تأثيرا فى النفوس من الشخصية وأدب المعاملة • ولذلك تجملت فى ملبسها ، وارتدت أحسن ثيابها ، وحاولت أن تقنع نفسها ، وهى تصعد الدرج القذر المؤدى الى مكتب المجلة ، بأنها ليست منفعلة ولا عصبية ولا خائفة • وواصلت الصعود بشجاعة ، حتى وصلت الى غرفة مشوشة النظام ، مغبرة الجو بدخان السجائر ، وكان يجلس فيها ثلاثة رجال ، مدوا أرجلهم على الموائد بحيث أصبحت كعوب أحذيتهم أعلى من رءوسهم • ولم يحرك أحدهم ساكنا حين ظهرت جو ، فاستبد بها القلق ، وترددت قليلاً عند عتبة الباب ثم قالت فى ارتباك ظاهر : « عفوا أيها السادة ، إنى أبحث عن مكتب مجلة البركان الأسبوعى ، وأريد مقابلة مستر داشوود » •

وعندئذ فقط هبطت أعلى الأقدام عن المائدة ، ونهض أكثر الجالسين تدخينا ، وبعد أن وضع سيجارة بين أصابعه بعناية ، تقدم نحوها يحييها بوجه جامد لا ينم إلا عن رغبة شديدة فى النوم • وأحست جو بضرورة الدخول فى الموضوع بسرعة ، فقدمت له مخطوطات القصة ، وراحت

تكلم بخجل شديد ، فتتعثر العبارات على شفتيها • قالت وقد نسيت معظم الخطبة التى كانت قد أعدتها لهذا الموقف :

ــ كلفتنى صديقة لى بأن أقدم لكم هذه القصة ، على سبيل التجربة فقط ، ويسرها أن تعرف رأيكم فيها ، ويسعدها أن تكتب لكم غيرها ، إذا أعجبتكم •

وفيما هى غارقة فى خجلها وتلعثمها ، أمسك داشوود بالمخطوط فى يده ، وأخذ يقلب صفحاته بأصابعه القذرة ، ويلقى على صفحاته الناصعة ويتأمل ما كتب فيها ، بنظرات فاحصة ، وكانت الأوراق منمرة ومكتوبة على وجه واحد بطريقة صحفية منظمة وليست مربوطة بشريط كما يفعل المستحدثون دائما ، قال :

ــ ليست هذه أول تجربة على ما أعتقد !

قالت :

ــ لا يا سيدى ليست هذه أولى تجاربها ، فقد كتبت أكثر من مرة ، ونالت إحدى قصصها الجائزة الأولى فى مجلة « العلم » •

قال داشوود . وهو يتأمل جو من قمة رأسها الى أخمص قدميها :

ــ أنالت الجائزة حقا ؟ ، حسنا ، اتركى لنا القصة إن شئت ، ولدينا فى الواقع كثير من هذا النوع ، بل أكثر مما نحتاج اليه ، ولكنى سألقي نظرة على قصتك ، وأبلغك رأيى فى الأسبوع القادم •

ولم تجد جو فى شخصية مستر داشوود ما يشجعها على أن تترك القصة له ، ولكن الموقف اضطرها الى ذلك ، فحيته وانصرفت ، وقد ارتفع رأسها كما اعتاد أن يرتفع عندما تتضايق أو تغضب وكانت تحس

فى تلك اللحظة بالشعورين معا ، وذلك لأن نظرات الرجال وابتساماتهم ، جعلتها تعتقد أنهم يستهينون بقصتها ، ويعتبرونها فكاهة تافهة ، وزاد من حرجها أن ودعها رئيس التحرير بضحكة ساخرة تلتها عمهمة خافتة • وعادت الى البيت ، وهى نصف معتزمة ألا تعود الى هذه المجلة مرة أخرى • وأخذت تسرى عن نفسها بأشغال الإبرة ، وجعلت تشتغل بسرعة وقوة ، فلما انقضت ساعتان ، كانت قد استعادت هدوءها وأخذت تضحك مما حدث ، وتتطلع فى مرح الى موعد الأسبوع القادم •

وحين ذهبت الى المجلة فى المرة الثانية كان داشوود وحده ، وكان أكثر يقظة من المرة الماضية ، ولم يكن مشغولا بتدخين سيجارة ، بل كان أكثر انتباها وملاحظة لدواعى الأدب • فابتهجت جو بذلك ، ووجدت فى حديثه الثانى ترضية عن لقائه الأول • قال داشوود فى لهجة رجال الأعمال — ورجال الأعمال قلما يتحدثون بلفظة أنا أبدا •

— سنأخذ هذه القصة إذا لم تعارضى فى بعض تغييرات قليلة • إنها طويلة جدا ، • وستتحسن بعد أن تحذفى منها الفقرات التى علمت عليها •

ولم تعرف جو مخطوطها إلا بصعوبة كبيرة ، فقد كانت أوراقه مطبقة مشوهة ، وصفحاته مملوءة بالإشارات والعلامات • فانتابها ما ينتاب الأم حين يطلب إليها أن تقطع أطراف وليدها ، ليتفق طوله مع طول المهد الجديد ، وألقت نظرة على الفقرات المطلوب حذفها ، فأدهشها أن تجدها الفقرات التى ضمنتها تأملاتها وأفكارها : والتى صاغتها بعناية ، لتحفظ بها توازن القصة • قالت :

ولكن ينبغى أن تكون للقصة مغزى يا سيدى ، وقد حرصت على أن أجعل المذنبين يندمون ويتوبون •

ونسيت جو أمر صديقتها التى كلفتها بتقديم القصة نيابة عنها ، وراحت تتكلم بلهجة المؤلفة المحنكة ، فانفرجت سمات الوقار الذى يلازم رؤساء التحرير عن مستر داشوود وقال لها باسما :

— إن الناس يقرأون القصة طلبا للتسلية ، لا الموعظة ، والعظات الأخلاقية لا تجد لها سوقا فى هذه الأيام •

ولم يكن قوله صحيحا تماما • فسألته :

— وهل تظن أن التغييرات المقترحة تحسنها ؟

قال داشوود فى رقة وتلطف :

— نعم ، لأن الفكرة جديدة ، والصياغة جيدة ، واللغة حسنة ، وأشياء أخرى •

قالت جو ، وهى لا تكاد تعرف كيف تعبر عن نفسها :

— وما الذى ؟ •• وما هى المكافأة •• ؟

قال داشوود بلهجة من يتدارك أمرا تافها نسيه ، ورؤساء التحرير ينسون التوافه دائما :

— أوه نعم ، نحن ندفع ما بين خمسة وعشرين دولارا وثلاثين للقصص التى من هذا النوع ، والدفع بعد النشر عادة •

وكانت جو فيما مضى ، تتقاضى دولارا عن العمود الواحد ، فسرها أن يرتفع ثمن القصة الى خمسة وعشرين دولارا ، فقالت راضية :

— حسنا ، تستطيع أن تأخذها •

ثم عادت تسأله ، وقد شجعها نجاحها :

— وهل أخبر صديقتى أنك على استعداد لشراء قصة أخرى ، إذا كان لديها واحدة أحسن من هذه ؟

قال :

— لن نعد بشىء ، ولكننا سننظر فى أمر ما تقدمه لنا .. واطلبى إليها أن تختصر فى قصصها ، وتكثر من المسليات ، وتتجنب المواعظ .

وسكت برهة ثم أضاف بغير مبالاة :

— وبأى اسم تحب صديقتك أن تنشر قصتها ؟

واحمر وجه جو رغما عنها ، وقالت :

— بدون اسم إذا سمحت ، فهى لا تحب أن ينشر اسمها ، وليس لها اسم مستعار .

قال مستر داشوود ، وفى نفسه شوق الى معرفة الكاتبة الجديدة ، التى تؤلف القصص :

— ليكن ما تريد ، وسننشر القصة فى الأسبوع القادم ، فهل تأتين لتسلم النقود : أو نرسلها إليك ؟

وحسمت جو الأمر قائلة :

— بل سأمر عليك .. أسعدت صباحا .

وما كادت تنصرف حتى قال مستر داشوود ، وهو يضع رجليه فوق المكتب : « فقيرة ومتكبرة كالمعتاد ، ولكنها كاتبة لا بأس بها » .

وألقت جو بنفسها فى لجة الأدب المثير طبقا لتليمات مستر داشوود ،

واتخذت من مسز نورثبيرى مثلا تحتذيه ، ولكنها استطاعت أن تصل شاطىء الأمان ثانية بفضل المساعدة القيمة التى قدمها إليها صديق •

كانت جو — ككل الكتاب الشبان — تختار شخصيات قصصها ومكانها من خارج البلاد ؛ فكان قطاع الطرق واللوردات والغجر والراهبات والدوقات الذين يظهرون على مسرح مؤلفاتها ، من الأجانب دائما ، ولكنهم كانوا يلعبون أدوارهم بدقة على قدر الامكان • ولم يكن قراؤها يهتمون بالتوافه الأخرى كقواعد اللغة والوقفات والاحتمالات ، وكان داشوود يرحب بكتاباتها ، ويسمح لها بأن تملأ أعمدة مجلته بأقل ثمن ممكن ، ولكنه حرص على اخفاء السر الحقيقى فى ترحيبه هذا ؛ فلم يذكر لها أن أحد كتابه البارزين تركه سعيا وراء أجر أعلى عرضته عليه مجلة أخرى •

وسرعان ما اندمجت جو فى عملها الجديد ، وأقبلت عليه باهتمام شديد ، فامتلأ كيسها بالنقود ، وازداد الرصيد الذى تجمعه من أجل رحلة تسافر فيها أختها بث الى الجبال فى الصيف القادم •• وكانت جو راضية بحالها كل الرضا ، لا يعكر عليها سوى أنها لم تخبر أهلها بمشروعاتها ، وكانت تشعر أن والدتها لن توافق على هذا العمل ؛ لذلك آثرت أن تمضى فيه أولا ؛ ثم تسألها المغفرة بعد ذلك • وكان من السهل عليها أن تحتفظ بسرها ، لأن قصصها كانت تنشر بلا اسم ، ورغم أن مستر داشوود علم بحقيقة هذا الاسم ، لكنه وعدها بالصمت ، ولدهشتها حافظ الرجل على وعده •

وظنت جو أن هذا العمل لا ينطوى على أضرار ، فهى تكتب باخلاص ، وما فكرت قط أن تخط حرفا يشعرها بالخزى والخجل ،

وكانت تسكن وخــزات الضمير بتمثل اللحظــة السعيدة ، التى تكشف فيها للأسرة عن مكاسبها ، وتزيح الستار عن سرها المكتوم ضاحكة •

وقد رفض مستر داشوود أى نوع من القصص ، اللهم إلا المثيرة لعواطف الناس ، وأصر على أن تكون المناظر محــزنة مفجعة ، وهــو ما لا يتأتى بغير التنقيب فى مصائب الحياة وحوادثها فى البر والبحر ، والعلوم والفنون ، وسجلات البوليس ومستشفيات الأمراض العقلية • وسرعان ما تبينت جو أن تجاربها البريئة لم تمكنها إلا من نظرات قليلة خاطفة الى النواحى المفجعة فى الحياة ، فعكفت على سد هذا النقص بهمة فائقــة • وفى غمــرة حماستها لايجــاد مادة قصصية طريفــة ، لتبرزها فى صورة مبتكرة — ان لم تكن بالغة الاتقــان — ، راحــت تنقب فى جميع الصحف عن الحوادث والجرائم والوقائع ، وأثارت حول نفسها الشبهات فى المكتبات وهى تسأل عن مؤلفات فى السموم ، ثـم عكفت على الوجوه التى تصادفها فى الطريق ، والشخصيات التى تمر بها ، تدرسها بدقة واهتمام • • ولم تقف عند هذا الحد ، بل ذهبت الى أبعد منه ، فانغمست فى أتربة لتاريخ بحثا عن قصص قديمة تقدمها الى قرائها ، وأقحمت نفسها فى دراســة كل ضروب الهوس والخطيئة والتعاسة ، بقدر ما سمحت لها ظروفها ، وكل غرضها من ذلك ، أن تعثر على حقائق وعبر تعينها على بلوغ مأربهــا فى كتابة القصص المثيرة • وخيل اليها أنها قد نجحت فيما تريد ، ولكنها كانت تخشى فى أعمــاق نفسها ، من أنها أقدمت على استباحة حمى المقومات الأساسية لشخصية المرأة ، • إذ كانت تعيش فى عالم منحط • ورغم أنه كان عالما خياليا ، إلا أنهــا تأثرت به ، وتركته يستولى بحقــائقة الخطــيرة على عقلهــا ومشاعرها ، ويمسح بمعانيه الخشنة براءتها الجميلة ، ويكشف لها قبل

الأوان عن مساوىء البشرية ؛ وهى الجانب الأسود من الحياة ، الذى سرعان ما يتكشف لنا جميعا •

وبدأت جــو تحس بهــذا الجانب الأســود دون أن تراه ، فان انصرافهــا الى وصف عواطف الآخــرين ، والتعمق فى ســبر أغــوار مشاعرهم ، كان يحملها على التأمل والتعمق فى دراسة نفسها ، ويدفعها الى تحليل عواطفهــا واحساساتها ، وتلك تسلية سقيمة لا تلجأ اليهــا العقول الفتية السليمة إلا مكرهة • والخطــايا تجلب وراءهــا دائمــا العقاب الرادع ، وقد نالت جو نصيبها من العقاب عندما آن الأوان •

ولست أدرى ما اذا كانت دراستها لشكسبير هى التى عاونتها على قراءة الشخصية ، أم تكون قد اندفعت الى ذلك بوحى الغريزة النسوية الذواقة لكل ما فى الحياة من معانى الأمانة والشجاعة والقوة • ومهمــا يكن من شىء فقــد استطاعت جو — وهى تخلع على أبطالها الخياليين كل كمال تحت الشمس — ، أن تكتشف بطلا حيا أثار اهتمامها على الرغم من نقائصه الانسانية • وكان الأستاذ باير قد نصحها فى معرض الحديث بأن تدرس الشخصيات البسيطة الصادقة المحبوبة ، أينمــا وجــدتها ، وقال لها ان هذه الدراســة أفضل مران للكاتب • وأخــذته جو عنــد كلمته ، والتفتت اليــه فى هدوء ، وبدأت تدرس شخصيته ، ولو علم الأستاذ بما أقدمت عليه ، لأخذه العجب كل مأخــذ ، فقد كان الرجــل متواضعا جدا حتى فى غروره •

وكان السر فى محبة الناس له أول ما يحير جو فى أمره ، إذ لــم يكن الرجل غنيا أو عظيما ، أو صغيرا أو وسيما ، حتى تجتمع القلوب حــوله ، ولكنه كان جذابا يقبــل الناس على معرفته ، ويطمئنون الى صحبته ، وكان فقيرا ، ولكنه كان يبدو دائما سخيا ••• وكان أجنبيا ،

ولكنه كان صديقا للناس كلهم ... وكان كهلا ، ولكنه كان يفوق الشباب مرحا وفتوة . ولم يكن وسيما ، ولكن عيون الأصدقاء تراه دائما جميلا جذابا .

وكانت جو تراقبه عسى أن تكتشف السر فى محبة الناس له ، وأخيرا قررت أن روح الخير فى نفسه ، هى التى صنعت المعجزة : فقد كان يطوى صدره على آلامه ، ولا يلقى العالم إلا بوجه باش مستبشر ، وكان جبينه العريض عامرا بالغضون والتجاعيد ، ولكن يبدو أن الزمن ترفق به ، لعطفه وحنانه على الآخرين . وعلى العموم كان أقرب الى القديس منه إلى الانسان العادى ، فالغضون المنتشرة حول فمه ، تبدو كأنها ذكريات حلوة لحسن صنائعه وجمائله ، ونظراته خالية من القسوة والمرارة ، وقبضة يده القوية أبلغ من العطف والكلام . وحتى ملابسه بدت كأنها تساهم فى ابراز شخصيته السمحة ، فصداره الفضفاض يوحى بقلبه الكبير ، وسترته العتيقة تنم عن روح اجتماعية ، وجيوبه الكبيرة المتهدلة تدل بوضوح على أن الأيدى الصغيرة تدخل فيها خاوية وتخرج منها عامرة . وأحذيته هى الأخرى كانت رفيقة سخية ، وبنيقته لم تكن أبدا منشاة ولا جافة شأن بقية الناس . قالت جو لنفسها : « هذا هو السر ! » .

وهكذا اكتشفت أن طيبة القلب وصفاء الروح ونقاوة الشخصية ، تجمل صاحبها ، وتضفى عليه حسنا واحتراما ووقارا ، حتى اذا كان صاحبها هذا هو الأستاذ الألمانى الذى يلتهم طعامه بشراهة ، ويرتق جواربه بنفسه ، ويحمل اسم باير !

وكانت جو تقدر طيبة النفس حق قدرها ، ولكنها كانت تحترم

الثقافة أيضا ، ولذلك تضاعف تقديرها له ، عندما اكتشفت مبلغ تضلعه فى العلوم والمعارف ، وخبرت بنفسها كنوزه الذهنية الوفيرة • ولم يكن من طبع الأستاذ أن يتحدث عن نفسه ، ولذلك لم يكن أحد يعرف بمكانته الرفيعة بين قومه ، ولا بتقديرهم العظيم لعلمه ونزاهته واستقامته ، وظلت هذه الحقائق مجهولة لأهل البيت ، حتى جاء أحد مواطنيه لزيارته ، وذكرها فى معرض الحديث مع مس نورتون • ومن مس نورتون عرفت جو هذه الحقائق التى لم يشأ مستر باير أن يذكرها مرة واحدة ، فازداد تقدير الفتاة له وتضاعف اعجابها به ، وأحست بالفخار لأن صديقها كان أستاذا نابغا فى برلين قبل أن يصير مدرسا فقيرا فى أمريكا •

وأتاحت الظروف لجو أن تعرف فى صديقها موهبة أخرى أحسن من الثقافة ، وجاء ذلك بطريق المصادفة ، فقد كانت مس نورتون على صلة وثيقة بالأوساط الأدبية الكبيرة ، وكانت تعطف على جو الطموح وصديقها الأستاذ باير ، وتضفى عليهما مكرمات كثيرة ، ومن ذلك أن صحبتهما ذات ليلة الى احدى الندوات الأدبية المختارة ، التى عقدت تكريما لبعض المشاهير من الأدباء •

وذهبت جو وفى عزمها أن تنحنى احتراما لهؤلاء العظماء ، الذين قدستهم بكل ما فى نفسها من حماسة الشباب وفورته ، ولكنها اكتشفت أنهم كغيرهم من عامة الناس ، فأصيب تقديسها لعبقرياتهم بصدمة عنيفة لم تشف منها إلا بعد وقت طويل • وتصوروا مبلغ استيائها واستنكارها حين تطلعت باعجاب وخجل الى شاعر عظيم ، طالما خلبت أبياته الرائعة لبها ، وجعلتها تظن أنه مخلوق أثيرى يقتات — على حد

قوله فى أشعاره — « بالروح والنار والندى » ... فاذا بها تراه يلتهم طعامه فى نهم مخجل أزال عن وجهه معانى الشعر والخيال . وحين تحولت عن هذا المعبود ، الذى سقط من عليائه محطما ، روعتها اكتشافات أخرى بددت أوهامها وخيالاتها ، وقضت على احترامها للآلهة المزعومة : إذ رأت كاتبا قصصيا شهيرا يتردد بانتظام بين قنينتين من الشراب ، كأنه « بندول » الساعة . وكان القصصى الشهير يغازل علنا كاتبة معروفة ، وتلك تنظر شزرا الى أخرى أخذت تنتقدها وتسخر منها ، بعد أن قهرت جهودها فى الاستيلاء على قلب الفيلسوف العظيم الذى جلس يحتسى الشاى متناوما . وكان بين الحاضرين مشاهير العلماء ، ولكنهم نسوا حيواناتهم اللافقرية ، وأهملوا العصور الحجرية والجليدية ، وأخذوا يتحدثون عن الفنون ، وهم فى شغل شاغل بالتهام المحار والمثلجات . أما الموسيقار الشاب الذى كان يطرب المدينة بأنغامه السحرية ، فقد انصرف الى الحديث عن الخيول ، وكان أقرب الحاضرين شبها بالمخلوقات البشرية العادية نبيل انجليزى جاء الندوة ليشترك فيها .

وقبل أن ينتصف الليل بقليل ، أحست جو بالانهيار ، فجلست فى ركن من القاعة تجمع شتات نفسها ؛ وسرعان ما انضم اليها مستر باير ، وقد بدا قلقا على غير عادته . ولم يلبث عدد من الفلاسفة أن جلسوا الى ندوة أدبية ، وجعلوا يتناقشون فى أمور لم تفهمها جو ، ولكنها حرصت على الاصغاء اليها ، فأصابتها أحاديثهم عن الموضوعية والشخصية بصداع شديد فى رأسها ، خيل اليها معه أن العالم تمزق اربا اربا ، ثم أعيد تكوينه على أسس جديدة أفضل ، كما يدعى المتحدثون . وكان النقاش يدور حول وجوب سيطرة العقل دون الدين ، ولم تكن جو تعرف شيئا عن الفلسفة أو الروحانيات ، أو غيرها من

الجوانب الشائكة ، فأحست وهى تستمع اليهم بانفعال غريب بعضه مبهم وبعضه مؤلم ، وبدت كأنها معلقة بين السماء والأرض ، تضطرب بين الزمان والمكان كريشة فى مهب الريح • واستفاقت لنفسها ، ونظرت الى الأستاذ تتبين وقع هذه الأحاديث عليه ، فوجدته يحملق فى وجهها فى تجهم شديد ، وهز رأسه وأشار اليها أن تنصرف ، ولكنها كانت حينئذ مبتهجة بحرية الفكر التى تنتهكها الفلسفة النظرية • وكانت المقدمات لافتة للنظر ، فتشبثت بمقعدها ، لتتابع حديث المتحدث الفيلسوف ، وترى على ما سيعتمد بعد أن هز المبادىء ، وقضى على جميع المعتقدات القديمة •

وبدا الشك واضحا فى وجه الأستاذ باير ، ولكنه تباطأ فى عرض آرائه وأفكاره ، لا لأنها لم تكن منسقة ولا منسجمة ، بل لأنها كانت مخلصة صادقة ، وليس من اليسير أن يدلى بها على مسمع من الشبان المأخوذين بأساليب الفلاسفة البراقة • وقطب جبينه فى صمت ، لأنه كان يخشى أن يتأثر بعض الشبان المتحمسين بهذه الصواريخ المحرقة ، فيخرجوا من أحاديث الفلاسفة بنفوس خاوية وقلوب فارغة •

واحتمل الأستاذ الموقف قدر ما يستطيع ، ولكن حين دعى لإبداء رأيه ، انفجر فى حماسة وأمانة ، يدافع عن الدين بكل ما أوتى من فصاحة الحق ، فأضفى الايمان على لغته الانجليزية الركيكة نغما موسيقيا ، وأفاض على وجهه العادى جمالا • واحتدم النقاش بينه وبين الفلاسفة، واشتدت مهارتهم فى محاورته ومداورته ، ولكنه لم يكن يرضى بالهزيمة مختارا ، فصمد للدفاع عن آرائه بعظمة وجلال • وأحست جو ، وهو يتحدث ، أن ميزان الأمور عاد الى سيرته الطبيعية الأولى ، وأن المعتقدات القديمة استعادت مكانتها الخالدة فوق أطلال الجديد ، وأن

الله ليس قوة غاشمة ، والخلود حقيقة لا خرافة • وشعرت جو أن الأرض تثبت تحت قدميها ، وأنها استعادت توازنها ، ولم تعد مثل ريشة فى مهب الرياح ، وحين توقف عن الكلام مغلوبا على أمره دون اقتناع ، لم تصفق له جو ولم تشكره ، ولكن موقفه العظيم زاد احترامها له •

كانت تعرف كم كلفه هذا الموقف من جهد لا يرغب فيه ، فلولا ضيقه بما سمع ، ما وقف وما تكلم • وبدأت جو تدرك أن كمال الشخصية أثمن من الثراء والجمال والجاه ، وأنه اذا كانت العظمة ــ كما عرفها أحد الحكماء ــ هى الصدق والاخلاص والاحترام ، فصديقها فريدريك باير ليس طيبا فحسب ، ولكنه عظيم أيضا •

ونما ايمانها بعظمته يوما بعد يوم ، فكانت تقدر ميزاته حق التقدير ، وتعتز باحترامه لها ، وتود أن تكون خليقة بصداقته • وحين بلغت هذه الرغبة بنفسها غاياتها ، أوشكت أن تفقد كل شىء فى لحظة خاطفة : فقد حدث ذات مساء أن جاءها الأستاذ ، يعطيها درسا فى الألمانية ، فدخل الحجرة وعلى رأسه قبعة من الورق ألبستها له تينا ، ونسى أن يخلعها •

ونظرت اليه جو ، وقالت فى نفسها : « من الواضح أنه لا ينظر فى مرآته قبل أن يغادر غرفته » • وابتسمت وهو يقول لها :

ــ أسعدت مساء يا آنسة •

ثم جلست فى تؤدة واتزان ، غير آبهة بالمفارقة المضحكة بين موضوع الدرس وبين لباس الرأس ، إذ كان معتزما أن يقرأ لها قصيدة الشاعر شيللر عن « موت وولنشتاين » •

ولم تقل شيئا أول الأمر ، وقررت أن تتركه حتى يكتشف القبعة

بنفسه ، فيضحك عاليا كمـا اعتاد فى مثل هـذه المواقف • ولم تلبث قصيدة شيللر أن شغلتها عن القبعة ، فاندمجت فيها بروحها وفكرها ، ثم انتهى الشعر ، وبدأ الدرس ، وكانت جـو مرحة فى تلك الليـلة ، وزادتها قبعته مرحا على مرح ، فراحت تنظر اليه بعينين عامرتين بالبهجة والسرور وتوقف الأستاذ عن الدرس ، وقال لها بدهشة :

ــ مس مارش ، أى شىء يضحكك فى وجه أستاذك ؟ ألا تحترمينى حتى تسلكى معى هـذا المسلك ؟

قالت جـو :

ــ وكيف أحترمك يا سيدى ، وقد نسيت أن تخلع قبعتك ! ؟

ورفع الأستاذ يده الى رأسه ، وتحسس القبعة فى وقار ، فلمـا أدرك ما حـدث ، خلع القبعة ، وأمسكها بيده لحظة ، ثم قهقه ضاحكا وقـال :

ــ لقد وضعتها العفريتة تينا على رأسى ، فجعلتنى أضحوكة لك • إنه أمر بسيط على كل حال ، ولكن اعلمى أنك ستلبسينها اذا لم تحسنى درسـك اليوم •

ولكن الدرس لم يستأنف مرة ثانية ، إذ التقى نظر مسـتر باير بصورة مطبوعة على ورق القبعة ، فقال باستياء واضـح :

ــ وددت لو لم تأت هذه المجلات الى البيت ، فهى ضارة بالأطفال ، ولا يصح أن يقرأها الشباب • إنها مجلات تافهة لا خير فيها ، ونفسى تضيق بمن يحدثون هذه الاساءات والأضرار •

وتطلعت جـو الى الصحيفة التى صنعت منها القبعة ، فرأت فيها صـورة سخيفة ، تتألف من خيول وحشـية ورجل شرير وأفعى ... فقلبت الصفحة ، ولكنها لم تفعل ذلك نقمة على الصورة ، بل خيفة أن تكون الورقة من مجلة « البركان الأسبوعى » التى تكتب فيها قصصها . وزالت مخاوفها عند ما تبين لها أن الورقة ليست من المجلة المذكورة ، وعاودها اطمئنانها الكامل حين تذكرت أنها لا تضع اسمها على قصصها ، ومن ثم فلا يحتمل أن ينكشف أمرها . ولكنها فى الواقع نمت عن سرها بنظرة من القلق التى ارتسمت فى عينيها ، وبالحمرة التى كست خديها ، وكان الأستاذ — على ما يظهر به من شرود الذهن — يدرك من الأمور أكثر مما يظن الناس ، ويعرف بأن جو تكتب للصحف ، وطالما قابلها فى دور المجلات ولما لم تحدثه عن الموضـوع من تلقاء نفسها ، اختار أن يسكت ، على الرغم مما يشتعل بين جوانحه من رغبة فى الاطلاع على ما تكتب . وخاف فى تلك اللحظة أن تكون الفتاة قـد تورطت فى كتابات تخجل من الإفصاح عنها ، فأقلقه هـذا الخاطر ، ولكنه لم يقل لنفسه كما يقول معظم الناس : « هذا شأنها الخاص ، وليس لى دخل فيه » .. بل تذكر شيئا واحـدا فى هـذا المقام ، هو أنها شابة فقيرة تعيش بعيدا عن رعاية أهلها وإرشادهم ، وأحس بدافع يدفعه الى مساعدتها ، وكان دافعا طبيعيا سريعا كالذى يجعلك تمـد يدك لإنقاذ طفل على وشـك السقوط فى الماء . وجالت كل هـذه الأفكار بذهنه فى لحظة واحدة ، ولم يظهر لهـا أى أثر على وجهه ، ولكن فى الوقت الذى قلبت جـو فيه الصحيفة ، وعادت الى إبرتها تطرز من جديد ، قال لها بجد وهدوء :

— نعم ، أنت محقة فى إبعاد هـذه الأوراق عنك ، فما يصح أن تقرأها شابة فاضـلة ، ان موضوعاتها تكتب لتسـلية نوع خاص من

الناس ، ولو كان الأمر بيدى ، لفضلت أن أعطى أولادى بارودا يلهون به ، فضرره أقل من هذا اللغو الشرير •

قالت جـو ، وهى تطرز فى سرعة مضاعفة :

ـ إنه لغو فارغ فحسب ، ولكن ليس كل ما يكتب شرا كما تعتقد ، وما دام الجمهور يطلب هـذا اللون ، فلا ضرر من كتابته • انى أعرف أناســا محترمين يكســبون عيشا شريفا من كتابة ما يسمى بالقصص المثـيرة •

قال :

ـ ان الويسكى مطلوب أيضا ، ولكن مثلك ومثلى لا يرضى ببيعه ، ولو عرف الناس المحترمون كم يضرون غيرهم بما يكتبون ، ما اعتبروا كسب عيشهم شريفا ، فليس من حقهم أن يضعوا السم فى الحلوى ، ثم يطعموا به أولادا صغارا : وأفضل لهؤلاء أن يشتغلوا بكنس الشوارع ، من أن يعيشوا فى رخاء عن هـذا الطريق القذر الوضيع •

وكان مستر باير يتكلم بحرارة وايمان ، وبعد أن كور الورقة فى يده ، ألقى بها فى نار المدفأة ، فجلست جو صـامتة ، وقد أحست بأن اللهيب انتقل الى خديها ، وظل وجهها متوهجا بنيران الخجل ، حتى بعد أن تحولت القبعة الى دخان تسرب من المدخنة بسلام •

قال الأستاذ ، وهو يعود الى مقعده مرتاح النفس :

ـ بودى لو أستطيع أن ألقى كل المجلات الضارة فى النار ، لتلقى مصير هـذه الورقة •

وطافت برأس جو صورة النيران وهى تتغذى بقصصها الكثيرة ، وثقلت على ضميرها فى تلك اللحظة ، وطأة المال الذى كسبته بكدها واجتهادها ، ولكنها قالت وهى تعزى نفسها : « ليست قصصى من الطراز الذى يعنيه ، فهى حقيقة تافهة ، ولكنها لا تضر » • وتناولت كتابها ، وقالت للأستاذ بوجه ينم عن رغبة فى الدرس :

ـ ألا نستأنف القراءة يا سيدى ، أننى على استعداد ، وسأكون عند حسن ظنك كمالا ونظاما •

قال الأستاذ :

ـ أرجو ذلك •

ولم يزد حرفا واحدا ، ولكنها استشعرت من الكلمتين معانى كثيرة ، وخيل اليها أنها ترى « البركان الأسبوعى » مطبوعة على جبينه العريض المعطوف بأحرف بارزة •

وما كادت جو تعود الى حجرتها ، حتى أخرجت أوراقها ، وأعادت كل قصة من قصصها بمنتهى العناية والدقة • ولما كان مستر باير ضعيف النظر ، فقد كان يستعمل فى بعض الأحيان نظاراته ، وقد جربت جو هذه النظارات مرة ، وابتسمت حين رأت كيف تكبر الحروف الدقيقة ، ويبدو أنها استعانت فى مراجعة قصصها هذه الليلة بنظارات الأستاذ العقلية والخلقية ، فتجسمت لها أضرار هذه القصص التعسة بشكل يملأ النفس زراية واستنكارا • قالت لنفسها : « إنها لغو وعبث ، ولكنها ستصير أسوأ اذا مضيت فى هذا الطريق ، فكل قصة أكثر استثارة من سابقتها ، والأخيرة أفظعها كلها • لقد طلبت المال على غير هدى ، فآذيت نفسى وجلبت الأذى للاخرين ، ولست أشك فى ذلك ،

فأنا لا أستطيع أن أقرأها دون أن يتملكنى خجل رهيب مما حوت . ترى مـاذا أفعـل لو رأى أهـلى هـذه القصص : أو وقعت فى يد مستر باير ؟

ودار رأس جو لمجرد التفكير فى هذا ، فقامت الى أوراقها تحملها ، ثم أسلمتها كلها طعمة للنيران ، وكانت غذاء دسما ارتفعت له ألسـنة اللهيب حتى بلغت المدخنة . قالت تحدث نفسها وهى ترى النيران تلتهم قصصها الواحدة بعد الأخرى : « نعم ، هذا خير مكان لمثل هـذا اللغو المثير ، وخير لى أن أحرق البيت من أساسه : من أن أترك الناس ينسفون أنفسهم بهذا البارود الذى أقدمه لهم » .

وجلست جو على الأرض فى هدوء واتزان بعد أن ذهب إنتاجهـا الفكرى ، ولم يبق من مجهود ثلاثة أشهر إلا رماد تذروه الرياح ، وحفنة من المال جاءتها عن طريق تأليف سخيف . وأخذت جو تفكر فيمـا هى فاعلة بكسبها الحلال ، قالت لنفسها : « لم أحدث ضررا كثيرا بعد ، ومن حقى أن أحتفظ بهذا المال ، لأستعين به على الزمن » .

ثم قالت بعد تأمل وتفكير طويل : « وددت لو لم يكن لى هذا الضمير المزعج ، فإنه يغرينى بالخير ، ويؤنبنى على الشر ، وبذلك يعوقنى عن نجاح . آه لو لم يكن والداى متشددين فى مراعاة المقاييس الخلقية ! » .

ولكن جو لم تسترسل مع هذه التأملات طويلا ، وحمدت الله على وجود أبيها وأمها ، وأشـفقت من كل قلبها ، على من ليس لهم رعـاة يرشدونهم ويوقظون الوازع الطيب فى نفوسهم ، ويحسنون تنشـئتهم على مبادىء كريمة قد تبدو فى سن الصغر قيودا وأغلالا ، ولكنها تتحول فى مرحلة النضج الى أقوى أساس فى بناء الشخصية الكاملة .

وكفت جو عن كتابة القصص المثيرة ، بعد أن أقنعت نفسها بأن الأجر الذى تتقاضاه عليها لا يساوى الجهد الذى تبذله فيها ، وانتقلت من النقيض الى النقيض ، شأن مثيلاتها من الفتيات الطيبات ، فعكفت على دراسة مؤلفات الكاتبات العظيمات ، ثم أنتجت قصة كان أولى بها أن تسميها رسالة أو موعظة ، لما حوته من تبشير بالفضائل الخلقية • وكانت جو منذ البداية تشك فى إمكان نجاحها ، بعد أن عجز خيالها الخصيب عن تلبية مطالب أسلوبها الجديد ، وعندما انتهت من كتابة القصة ، طافت بها عدة أسواق ، ولكنها لم تجد من يشتريها ، مما أقنعها بصدق ما قاله مستر داشوود من أن المواعظ الخلقية لا تجد من الناس رواجا وإقبالا •

وأعملت جو قلمها فى كتابة قصص للأطفال ، وكان من السهل أن تبيعها لو لم تستول عليها النزعة التجارية ، تطلب الكسب من ورائها • وكان الرجل الوحيد الذى قبل أن يعطيها ما تراه مناسبا ، سيدا مترمتا ظن أنه بعث لتبشير العالم بمذهبه الخاص • ومع صدق رغبة جو فى الكتابة للأطفال ، لم تقبل ما اقترحه عليها من أن تلقى بالأبطال الصغار العاصين الى الدببة تنهش لحومهم ، أو الى الثيران الهائجة تصرعهم ، لا لذنب إلا أنهم تخلفوا عن المدرسة يوما فى الأسبوع • لا ، لم يرض لها ضميرها بهذا ، وكذلك لم يرض لها منطقها بأن تكافىء الطيبين بعلم الدنيا كلها ، فتؤثرهم فى حياتهم بالفطائر اللذيذة ، وفى موتهم بجنات النعيم ومن ثم لم تثمر تجربتها الجديدة ، ولم تأت نتيجة ما ، فوضعت جو قلمها جانبا ، وأغلقت محبرتها ، وقالت بخضوع واستسلام : « إننى أعرف شيئا ، ويجب أن أنتظر حتى أعرف ، وإذا لم يكن فى استطاعتى أن أنتج خيرا من هذا ، فأكرم لى أن أكنس الطرقات ، فأغل ما يقال فى ذلك العمل أنه مهنة شريفة » •

وأثبت قرارها هذا أنها استفادت كثيرا من كبوتها الثانية •

وبينما كانت تطوى صدرها على هذه الثورات الداخليـة ، ظلت حياتها الخارجية كثيرة المشاغل خالية من الأحداث كالمعتـاد • وكانت تنتابها الكآبة أحيانا ، فلا يشعر بها إلا الأستاذ باير ، الذى كان يرقبها خفية ، ليرى أثر توجيهه فيها ، ومبلغ استفادتها به • وصمدت جو لهذا الامتحان العصيب ، فاطمأن الأستاذ واغتبط ، وبالرغم من أنها لم تشر الى الموضوع بكلمة واحدة ، فقد عرف بثاقب فكره أنها كفت عن الكتابة ، وكانت الشواهد على ذلك أن أصابعها خلت من بقع الحبر ، وأنها أصبحت تقضى أمسياتها كلها فى بهو البيت ، وأنه لم يعد يقابلها فى دور الصحف • كما أنها عكفت على الدراسة بصبر وجلد ، وشعر بأنها مشغولة الذهن بأشياء مفيدة وإن لم تكن سارة •

وحرص الأستاذ على مساعدتها ما استطاع ، وأصبح صديقا مخلصا لها ، وقد سعدت جو بهذا كل السعادة • فقد هيأت لها صحبته دراسات جديدة مفيدة الى جانب اللغة الألمانية • وهكذا ألقت القلم جانبا ، وعزفت من الكتابة ، وبذلك وضعت أساسا قويا لقصة حياتها الخاصة •

ومضى الشتاء الطويل بهيجا ، ولم تفارق جو مسز كيرك إلا فى شهر يونية ، وعندما آن أوان رحيلها ، أسف نزلاء البيت جميعهم على فراقها ، واستبد الجزع بالأطفال ، ولم تنجح الحيل فى تلهيتهم • أما الأستاذ ، فقد انتصب شعره فوق رأسه ، إذ كان من عادته أن يجذبه العنف عندما ينتابه القلق •

وحين أبلغته جو نبأ رحيلها ، حزن كثيرا ، وقال فى أسى ظاهر :

— ستعودين الى بيتك ؟ ما أجمل أن يكون للانسان بيت يعود إليه •

وكان فى عزمها أن ترحل فى الصباح مبكرة ، لذلك ودعت أصدقاءها فى الليلة السابقة ، وحين جاء دوره قالت له فى حرارة :

ــ عدنى بأن تأتى لزيارتنا ، إذا حدث وسافرت يوما الى ناحيتنا ، ولن أغفر لك إذا نسيت ، فإنى أود أن يتعرف أهلى الى صديقى •

قال وفى عينيه شوق وتلهف :

ــ أحقا ما تقولين ؟ وهل آتى لزيارتكم ؟

قالت ولم تنتبه الى نظرته :

ــ نعم ، تعالى فى الشهر القادم ، فحينئذ يكون لورى قد تخرج فى الكلية ، فنستمتع بوقتنا معا •

سألها بلهجة متغيرة :

ــ أهذا صديقك الحميم الذى تتحدثين عنه فى بعض الأحيان ؟

قالت :

ــ نعم إنه صديقى تيدى ، وأنا فخورة بصداقته ، وأود أن أعرفك به •

ورفعت جو رأسها ، ولم يكن يدور بخلدها إلا السرور الذى خالجها لفكرة لقاء صديقها القديم ، ولكن شيئا غريبا فى وجه مستر باير وفى نظراته ، أعاد الى ذاكرتها أن لورى قد يكون أكثر من صديق حميم • ولما كانت حريصة على إخفاء الأمر ، فقد جهدت فى ستر ما يدور بخلدها ، ولكن حمرة الخجل تسربت الى جبينها على الرغم منها ، وكلما حاولت

مقاومتها ، ازداد وجهها احمرارا ، ولولا أن تينا كانت تجلس على ركبتيها ، ما انتهى الموقف بسلام •

ولحسن الحظ تحركت تينا لعناقها ، فأتاحت لها لحظة تخفى فيها وجهها المتقد ، راجية ألا يكون الأستاذ قد لاحظ انفعالها • ولكن رجاءها لم يتحقق ، فقد رأى الأستاذ خجلها ، لذلك استعاد هدوءه ، وقال فى جد ووقار :

ـ أخشى ألا أجد الوقت لزيارتكم ، ولكنى أرجو لصديقك كل نجاح وسعادة ، وليباركم الله جميعا •

ثم شد على يدها بحرارة ، وحمل تينا على كتفه وانصرف •

وما أن استغرق الأطفال فى النوم ، حتى جلس الرجل طويلا الى جانب نيران المدفأة ، وقد بدت فى عينيه مظاهر الإرهاق والسأم ، وأفعم قلبه بمشاعر الحنين الى الوطن ، وطاف به خيال جو ، وهى تجلس أمامه فى خجل والطفلة على حجرها ، فأسند رأسه الى يده ، كأنما ناءت به الأشجان • وظل على هذه الحال برهة ، قام بعدها يذرع الحجرة ذهابا وإيابا ، كمن يبحث عن شىء فقده • قال لنفسه : « إنها ليست لى ، وليس من حقى أن أتعلق الآن بالأمل » ، وأردف ذلك بزفرة انخلع لها قلبه ، كأنما كان يعنف بها نفسه على صبوة لم يستطع كبتها • ودلف الى الصغيرتين النائمتين فقبلهما ، وأمسك بغليونه الذى قلما كان يستعمله ، وجلس يدخن فى صمت ، وهو يقلب فى كتاب أفلاطون •

لقد تصرف كأحسن ما ينبغى ، وعالج الموقف برجولة ، ولكن ما أظن أنه وجد فى الطفلين السعيدين أو فى غليونه أو حتى فى أفلاطون المقدس ، عزاءً يعوضه عما تاقت إليه نفسه من الزوجة والولد والبيت •

وفى الصباح الباكر كان فى المحطة يودع جو ، وبذلك جعلها تبدأ رحلتها المنفردة بذكريات سعيدة عن الوجه المألوف ، الذى ابتسم لها مودعا ، وبباقة زهور البنفسج أهداها إياها ، فكانت خير أنيس بوحشتها ، وأفضل من هذا كله أنه أتاح لها فرصة التفكير السليم فى ضوء إرشاده وتعاليمه •

قالت لنفسها :

— حسنا ، قد ذهب الشتاء ، ولم أكتب شيئا أو أكسب مالا ، ولكنى اكتسبت صديقا خليقا بأن أحتفظ به ، وسأحاول أن أحتفظ به ، وأحرص عليه مدى الحياة •

الجزء الرابع

الفصل الخامس والثلاثون

آلام قلب

لأمر ما عكف لورى على دروسه يستذكرها فى ذلك العام . ومهما تكن الأسباب التى جعلته يحرص على السبق ، فقد استطاع بفضل هذا الحرص أن يتخرج فى الكلية ، ويحصل فى امتحانه على مرتبة الشرف ؛ كما ألقى خطاب التخرج باللغة اللاتينية فى فصاحة ديموستينيس ورشاقة فيلبس . وشهد حفل التخرج جده ومستر ومسز مارش ، وجون وميج وجو وبث ، وكان جده شديد الفخر به كما ابتهج جميعهم بما حقق من نجاح وكانت فرحتهم به صادرة عن شعور عميق صادق ، قد لا يقدره الأولاد فى حينه حق التقدير ، ولكنهم لا يلقون مثله بعد ذلك فى حياتهم مهما بلغت انتصاراتهم ، فليس هناك أعظم ولا أصدق من التقدير الذى نناله لنجاحنا فى الصغر .

وعندما انتهى الحفل خرج لورى يودع الأخوات ويرافقهن حتى العربة ، قال :

— سأبقى الليلة هنا لأحضر وليمة العشاء ، وغداً أعود الى البيت مبكرا ، فأجدكن فى انتظارى كالمعتاد ، أليس كذلك يا بنات ؟

ورغم أنه اختار أن يتوجه بالحديث الى الأخوات جميعهن ، إلا أنه كان يعنى جو وحدها ، فهى التى ظلت محافظة على عهدها القديم ، ولم تجسر يوما على رفض طلب لفتاها الفائز العظيم ، فأجابت بحرارة تقول :

— سأكون بانتظارك يا تيدى ، سواء أمطرت السماء أم أشرقت الشمس ، وسأسير أمامك أعزف على القيثارة أنشودة النصر التى تقول :

« ها هو ذا البطل قد عاد .. مرحبا بالظافر العظيم » .

وشكرها لورى بنظرة ارتاعت لها ، فقد خيل إليها أنه موشك على الإفضاء إليها بأمر تخشاه ، فقالت تحدث نفسها : « يا إلهى ! إنه سيتكلم ، فكيف أتصرف يا ترى اذا ما فعل ؟ ! » .

ولكن تأملات المساء لم تلبث أن بددت بعض مخاوفها ، ثم جاءتها أعمال الصباح التالى بمزيد من الطمأنينة ، فقالت تحدث نفسها مرة أخرى : « يجب ألا يأخذنى الغرور فأظن أنه سيفاتحنى فى أمر الزواج ، بعد ما أظهرت له ما ينم عن نفورى من ذلك » .

وخرجت للقائه فى الموعد المحدد : وهى ترجو ألا يقدم على مفاتحتها فى شىء ، حتى لا تضطر الى الرفض فتجرح شعوره المرهف . وتوقفت فى طريقها ببيت ميج ، وغرضها أن تقضى بعض الوقت فى مداعبة الصغيرين ديزى وديميجون ، فتروح بذلك عن نفسها ، وتقوى عزيمتها على مجابهة الخطر الذى تتوقعه عندما يأتى لورى وينفرد بها ، ولكن ما إن رأته قادما من بعيد بقامته الفارعة وخطواته المسرعة : حتى تملكتها رغبة قوية فى أن تولى الأدبار عائدة الى البيت .

وصاح بها لورى ، حين أصبح على مسمع منها قائلا :

— أين القيثارة يا جو ؟

واستردت جو هدوءها ، وقد رأت أن هذه التحية لا يمكن أن تنم عن الغرام ، فقالت :

ــ نسيتها !

وكان من عادة جو أن تتأبط ذراعه فى مثل هذه المناسبات ، ولكنها لم تفعل ذلك الآن • ولم يحتج لورى ولم يلح عليها ، فرأت فى تحفظه بادرة سيئة • وراح لورى يتحدث إليها فى مسائل كثيرة متباينة ، وكان يتكلم بسرعة غير معتادة ، وعندما عرجــا من الطريق الرئيسى الى الممــر الضيق المؤدى الى البيت ، تمهل فى مشيته ، ثم تلعثم فى حديثه وخانته فصاحته ، فراح يتوقف بين الفينة والفينة ، توقفا ينم عن قلقه وعصبيته • ونهضت جو الى إنقاذ الموقف تخلصا من هذا الصمت الذى تكرر وقوعه ، فقالت تصل ما انقطع من الحديث :

ــ من حقك الآن أن تتمتع بعطلة طويلة طيبة •

قال :

ــ وهذا ما أنوى أن أفعله •

وكان فى لهجته عزم وتصميم جعلاها ترفع رأسها بسرعة لتنظر فى وجهه ، فإذا بعينيها تلتقيان بعينيه ، وكانت فيهما نظرة أدركت منها أن اللحظة التى تخشاها قد حانت ، فمدت يدها نحوه مذعورة ، وقالت فى توسل ورجاء :

ــ لا •• لا يا تيدى • لا تتكلم •• أرجوك !

قال بمزيد من الانفعال وقد تخضب وجهه حياء :

ــ لا فائدة من التهرب ، فيجب أن أتكلم ، وعليك أن تسمعى • لم يعد بدّ من أن نعبّر عما بنفوســنا ، وكلما أسرعنا بالتصريح كان ذلك خيرا لنــا •

وغلبت جو على أمرها ، فقالت فى حلم وصبر :

— قل ما تشاء ، فكلى آذان صاغية •

وكان الهوى قد ملك لب لورى الفتى الحازم ، وكان قد جمع أمره على أن يصارحها بحبه ولو استشهد فى سبيل ذلك ، فانطلق يفضى لها بما فى قلبه ، وبالرغم من الجهود التى بذلها فى الاحتفاظ بثباته ورباطة جأشه ، كان صوته يخونه من وقت لآخر • قال :

— لقد أحببتك يا جو منذ عرفتك ، ولا حيلة لى فى ذلك ، فقد كنت طيبة معى رغيبة بى • وكم حاولت فيما مضى أن أكشف لك عن قلبى ، فكنت فى كل مرة تتحايلين على إسكاتى ، أما الآن فلا بد أن أسمعك نجواى وأبثك هواى ، ولا بد أيضا أن أسمع إجابتك : وأعرف صدى حبى فى نفسك ، فقد فرغ صبرى وفاضت أشجانى •

قالت جو ، وقد بدت فرصة الخلاص من الموقف أعسر مما كانت تتوقع :

— ظننت أنك تعرف رأيى فى ذلك ، وكنت أرجو أن توفر مشقة مثل هذا الموقف •

قال يدافع عن نفسه :

— وأنَّى لى أن أعرف رأيك ؟ ان الفتيات لغز محيّر : يقلن « لا » وهن يعنين « نعم » ، ويخرجن الرجال عن صوابهم لمجرد الاستمتاع بمثل هذا الموقف ••

قالت :

— ولكنى ما قصدت شيئا غير ما أقول : وما رغبت يوما أن تقع فى

حبى الى هذا الحد ، ولقد حاولت من قبل أن أشفيك من هذا الحب إن أمكن ، فرحلت عنك وغبت غيبة طويلة •

قال :

— هذا ما أدركته فى حينه ، ولم يدهشنى تصرفك ، ولكن البعد الذى أردت به شفائى زادنى حبا على حب ، وحفزنى الى مضاعفة جهودى لأرضيك : لقد هجرت لعبة البليارد ، وأقلعت عن كل ما تكرهين ، وانتظرت صابرا أن تمنحينى قلبك ، ولو أنى لست جديرا بك •

وغلبته عاطفته فاختنقت الكلمات فى حلقه وتوقفت • وراح يتنحنح بشدة ليعيد الى صوته صفاءه العادى ، فقالت جو :

— أنت أعظم منى ، وأكثر مما أستحق ، وانى لشاكرة لك ، فخورة بك ، معتزة بشخصك ، ولكنى لا أستطيع أن أمنحك الحب الذى تريده : ولست أرى سببا لذلك ، وكم حاولت أن أغير قلبى فأخفقت ، ولن يرضيك أن أكذبك القول فأدعى شعورا لا أحس به •

فحملق لورى فى وجهها وأمسك بيديها ، وشخص اليها وفى عينيه نظرة لم تستطع جو أن تنساها قبل مضى وقت طويل : ثم قال :

— أحقا ؟ ! أصدقا ما أسمعه يا جو ؟ !

أجابت :

— نعم ، كل الحق ومنتهى الصدق يا عزيزى •

وكانا قد بلغا فى سيرهما الحوش القريب من البيت • فما كادت جو تنتهى من كلماتها هذه ، حتى ترك الفتى يديها تفلت من بين يديه ،

واستدار كمن يهم بالرحيل ، ولكنه لأول مرة فى حياته : أحس أن سور الحديقة عقبة لا يستطيع اجتيازها ، فمال نحو أحد الأعمدة واستند برأسه عليه ، ووقف هكذا صامتا واجما • وجزعت جو لألمه البالغ ، وأخذت تربت على كتفه مهدئة ، وقد تذكرت كيف كان هو يهدىء روعها فيما مضى •

وصاحت فى لهجة من غلبها الألم وتأنيب الضمير :

ــ انى آسفة يا تيدى ••• آسفة كل الأسف ••• حياتى فداؤك ان كان فيها خير لك • ليتك لا تأخذ الأمور بمثل هذه الحدة •••• ما حيلتى فى كل هذا ، وأنت تعلم أن الحب يأتى طواعية لا قسرا ؟ الحب لا يكون حبا الا اذا نبع من أعماق القلوب •

فصاح لورى من جانب العمود يقول بصوت مبحوح :

ــ قد يأتى الحب اذا حملت نفسك عليه •

أجابت جو فى حزم :

ــ لا أظن أن هذا الضرب من الحب أصيل ، ولست على استعداد لتجربته •

ولزم الاثنان الصمت ، وران عليهما سكوت شامل لم يلبث أن قطعة تغريد عصفور فوق الشجرة القريبة من النهر ، وتلاه صوت الريح وهى تجر ذيولها فوق الحشائش الطويلة ، وعندئذ قالت جو فى رزانة وهى تجلس على عارضة خشبية :

ــ اسمع يا لورى • أريد أن أحدثك بأمر •

وانتفض كمن أصابته رصاصة ، ورفع رأسه يصيح بها وفى صوته عنف :

ــ لا تحدثينى به يا جو ، فلن أحتمله .

قالت وهى تعجب من العنف الذى اعتراه فجأة :

ــ وبماذا تظن أننى سأحدثك ؟

قال :

ــ بأنك تحبين ذلك العجوز !

قالت تسأله ، وقد ظنته يعنى مستر لورنس العجوز :

ــ أى عجوز ؟

قال :

ــ ذلك الأستاذ المجنون الذى كنت تكثرين الكتابة عنه ! اذا قلت انك تحبينه ، فثقى أن اليأس سيدفعنى الى عمل خطير !

وكان فى لهجته ما يوحى بأنه جـاد فيما يقـول ، والتمعت عيناه وتشنجت قبضتاه : بشكل يدعو الى القـلق ، ولكن الخبر كان مفاجأة كادت معها جو تطلق ضحكة عالية ، غـير أنها أمسـكت عن ذلك وقالت بحرارة ، وقد سرى الانفعال اليها بدورها :

ــ بالله لا تمعن فى تهـديدك يا تيـدى ، فهـو ليس عجـوزا ولا شريرا ، انه رجل طيب عطوف ، وأنا أعتبره أحسن أصدقائى بعدك ،

وسأغضب اذا مضيت فى اهانة أستاذى ، فخل عنك ، واطمئن الى أننى لا أنوى أن أحبه ، أو أحب أى انسان آخر •

قال :

ــ ولكنــك ستحبينه مع الزمن ، ولســت أدرى ماذا يحــدث لى عندئذ ؟

قالت :

ــ سوف تحب فتاة أخرى بدورك ، تنســيك متاعبك وأشجانك ، شأنك فى ذلك شأن كل فتى عاقل •

قال وهو يضرب الأرض بقــدمه تأكيــدا لكلماته المفعمة بالحــب والعاطفة :

ــ لن أحب غيرك ، ولن أنساك يا جو •• أبدا •• أبدا •

فتنهدت جو وقالت تحدث نفسها ، وقد أدركت أن معالجة العواطف الثائرة أصعب بكثير مما كانت تتخيل : « ترى كيف أتصرف معه ! ؟ » ثم استطردت تقول له مهدئة :

ــ انك لم تستمع لما كنت أريد أن أقول لك ، فاجلس وأصغ الىّ ! انى أريد أن أحسن التصرف لأسعدك •

وبعث قولها بارقة أمل فى قلب لورى ، فألقى بنفسه على الحشائش تحت قدميها ، وأسند رأسه الى العارضة الخشبية التى تجلس عليها ، ثم رفع اليها نظرة كلها أمل واستعطاف ، وأشاعت حال الفتى القلق فى نفس جو ، إذ كيف يمكنها أن تقسو على فتاها ، وهو يرنو اليهــا هكذا بنظرات والهة تنبعث من عينين مازالت تنديهما دموع المرارة لقســوتها عليــه ؟

ومدت يدها وأدارت رأسه بعيدا عنها ، وراحت تربت على شعره المتموج الذى أرسله طويلا من أجلها • قالت :

انى أتفق مع أمى أننا لا يصلح أحدنا للآخر ، فكلانا سريع الغضب مما يقضى على سعادتنا ، إذا •••

وتوقفت جو قليلا قبل أن تقول الكلمة التى تختم حديثها ، ولكن لورى أكمل فى صوت خشن :

ـ تزوجنا ! •• لا •• لن تتعس حياتنا اذا بادلتنى الحب ، أنا طوع أمرك وفى مقدورك أن تصوغينى كما تشائين ، وسوف تصنعين منى قديسا اذا أردت •

قالت :

ـ لا ، لا أستطيع • لقد جربت وفشلت ، ولا أحب أن أخاطر بسعادتنا فى تجربة جديدة أخرى • اننا لا نتفق على أمر من الأمور ، ولن تتغير حالنا هذه فى يوم من الأيام ، ولذا يحسن بنا أن نحتفظ بصداقتنا ما حيينا ، ولا نفسدها بعمل ينطوى على التسرع والرعونة •

فقال لورى فى عناد :

ـ على العكس ، سوف نسعد معا لو أتيحت الفرصة •

فقالت جو فى ضراعة ، وهى تبذل آخر سهم فى جعبتها :

ـ كن عاقلا منطقيا ، وخذ الأمور بحكمة وروية •

قال :

ـ لا •• لا أريد عقلا ولا منطقا ولا حكمة ، فلن تعود على منها

فائدة ، بل على العكس انها تزيدك صلابة وقسوة • انى أعجب من أمرك أليس لك قلب يحس ؟

قالت :

— وددت لو لم يكن لى قلب يحس !!

وكان فى صوتها رجفة تفاؤل بها لورى ، فاستدار اليها • وقد جمع كل ما يملك من قوة الاقناع ، وقال برنة الاغراء التى لم تعهدها جو من قبل :

— لا تخيبى رجاءنا يا عزيزتى ! فكلهم ينتظر هذا النبأ ، لقد عقد جدى آماله عليه ، ولا شك أن قومك يرحبون به ، وأنا لا أستطيع الحياة بدونك • قولى نعم ودعينا نسعد فى حياتنا •••• هيا قولى نعم •

ولم تدرك جو ، الا بعد مضى شهور عدة ، كيف توافرت لها القوة على التمسك بقرارها فى عزم واصرار ، كانت تعلم أنها لا تحب فتاها ولا تستطيع أن تروض نفسها على حبه ، وربما يكون فى اعلان هذا الرأى قسوة عليه ، ولكنها كانت ترى أن لا مفر من اعلانه ، حتى لا تزيد عذابه بالمماطلة والتسويف •

قالت فى هدوء ولطف :

— صدقنى يا لورى اننى لا أستطيع أن أقول لك « نعم » عن ايمان وصدق ، وستشكرنى يوما على موقفى هذا •

وقفز لورى واقفا فوق الحشائش ، وقد تملكه غضب شديد ، لمجرد تصوره أن يحدث هذا • قال :

— لن أفعل هذا الى أن أموت •

فقالت فى اصرار :

— بل سيأتى اليوم الذى تشكرنى فيه على هذا القـرار ، والزمن كفيل بعـلاج آلامك ، ولـن يمضى وقت طويل حتى تجـد فتاة جميلة مهذبة تقع فى غرامك وتصبح أبدع سـيدة لبيتك الجميل • أما أنا فلا أصلح لك اطلاقا لأنى غريبة الأطوار ساذجة خرقاء ، وستخجل منى ومن تصرفاتى ، وسوف نتشاجر من أجل ذلك ومن أجل ما هـو أقل منـه ، وحتى الآن ، هانحن أولاء نتشاجر كما ترى • اننا نختلف فى كل ناحية : فأنا مثلا لا أطيق المجتمعات الأنيقة وأنت تحبها ، وأنت تكره الكتابة وأنا لا أستطيع الحياة بدونها • سنكون فى منتهى التعاسة • سنكون فى منتهى التعاسة اذا تم لك ما أردت ، وستندم على ما فعلنا يوم تصبح الحياة بيننا لا تطاق •

وضاق صدر لورى بهذه التنبؤات المفزعة ، فقال :

— أما زالت لديك أقوال أخرى ؟؟

قالت :

— لا •• ليس لدى إلا ما أعتقده من أننى لن أتزوج فى يوم من الأيام ، فأنا سعيدة بحالى ، أستمتع بحريتى التى أحبهـا الى حـد لا أتصور معه فكرة التخلى عنها من أجل أى مخلوق آدمى أيا كان •

وقطع لورى حديثها قائلا :

— وأنا أعتقد غير ذلك ، فرغم كل ما تقولين ، سيأتى اليوم الذى تحبين فيه شخصا ما ، وتتدلهين فى هواه ، فتعيشين وتموتين من أجله •

انها طريقتك فى الحياة ، ولابد أن يحدث ما أتوقعه ، وسأقف اذ ذاك جانبا ، أرقب أحوالك ، وأرى بعينى مصيرك الأخير •

وفى حركة يائسة ألقى العاشق الصغير قبعته على الأرض ، بشكل يثير الضحك ، ولكن جو لم تضحك احتراما لحزنه العميق •

صاحت تقول ، وقد نفد صبرها مع تيدى المسكين :

ــ نعم سأعيش وأموت من أجل من يستطيع أن يحملنى على حبه رغم أنفى ، فعليك أن تبذل جهدك لتكون هذا الرجل ، أما أنا فقد حاولت كثيرا وفشلت ••• أنت لا تريد أن تحكم عقلك ، ومن الأنانية أن تمعن فى مضايقتى واغاظتى وتلح فى مطالبتى بما ليس فى مقدورى أن أمنحك اياه •• ثق أنك أحب الأصدقاء كلهم الى ، وستبقى لى دائما أعز الناس ولكنى لن أتزوجك أبدا ، وكلما أسرعت فى ادراك هذه الحقيقة ، كان ذلك خيرا لنا وأبقى •

وجاءت كلماتها نارا على بارود ، فقد نظر اليها لورى برهة فى حيرة أربكت عليه أمره ، ثم استدار عنها منصرفا وهو يقول فى لهجة اليأس المرير :

ــ ستندمين يوما على موقفك هذا ، يا جو !

فصاحت وقد هالها انقلاب سحنته :

ــ أواه ! الى أين تذهب ؟

فقال :

ــ الى الشيطان !

وتوقف قلب جو عن النبض لحظة ، وهى تراه يندفع متجهـا الى شاطىء النهر ، ولكن الفتى لم يكن يفكر فى الانتحـار كما تصورت ، اذ أن الانتجار يحتـاج الى دوافع فيهـا من التعاسـة أو التهـور أو الخطيئة أضعاف ما يشعر بـه ، كمـا أنه ليس من ذلك الطـراز الضعيف الذى يقر بالهزيمة عنـد أول صـدمة يلقاها أو فشل يمنى به ولكن غريزته الثائرة قادته الى قاربه ، فقفز فيه كما هو بمعطفة وقبعته ، يجذف بكل قوته ، حتى أسرع به القارب كما لم يسرع به فى أى سـباق له من قبل وأرخت جو يديها وقد تنفست الصعداء ، وراحت ترقب فتاها المسكين وهو يغرق فى مياه النهر أحزانا ناء بحملها قلبه الكبير ، وقالت لنفسها : « هذه الرياضـة علاج له ، وسيعود بعدها الى البيت هادىء المزاج آسفا على ما جرى ، ولا أستبعد أن تمضى أيام قبل أن يرينى وجهه مرة أخرى » •

وتسالت الى البيت فى بطء ، وهى تحس كأنها قتلت مخلوقا بريئا ، ودفنته تحت أوراق الأشجار المتساقطة • قالت تحدث نفسها : « الأفضل أن أبادر الى مستر لورنس وأحدثه بما جرى ، حتى يكون عطوفا على فتاى المسكين • ألا ليته وقع فى غـرام بث ، ولكن ••• ربما أحبهـا مع الزمن ••• لقد تكشف لى الآن كم أخطأت الظن فى أمرها • يا إلهى !! كيف تتمنى الفتيات أن يكون لهن محبون ، فاذا وجدنهم رفضن حبهم ؟! يا له من أمر رهيب ! » •

كانت تعلم أنها الوحيدة التى تستطيع أن تحدث مستر لورنس بما جرى ، ولذلك ذهبت اليه مباشرة وسردت له تفاصـيل القصة المؤلمـة بجرأة وشجاعة ، ثم انصرفت كئيبة وقد ركبها الهم لإقدامها على رفض لورى دون رحمة أو شفقة •

وجاءت قصتها مخيبة لآمال السيد العجوز ، كان من العسير عليه أن يدرك كيف تستطيع فتاة أن تتحاشى الوقوع فى حب لورى ، ولكنه لم يوجه اليها كلمة لوم أو عتاب ، ولم يقل سوى أنه يتمنى لو غيرت رأيها يوما ما ... كان يعرف أكثر من جو نفسها أن الحب لا يفرض على القلوب فرضا ، ولكنه قلق لثورة الفتى عند وداعها ، فراح يهز رأسه آسفا ، وقد اعتزم أن يباعد بينه وبين هذا الطريق المحفوف بالخطر .

وعندما عاد لورى الى البيت ، كان التعب قد أنهكه ، ولكنه كان مسيطرا على مشاعره ، فقابله جده بهدوء ، كأنه لا يعرف شيئا مما حدث . وبقى على هذه الحال ساعة أو ساعتين . ولكن عندما ضمتهما تلك الجلسة التى اعتادا أن يتمتعا بها فى ساعات الغسق ، راح الجد يحاول أن يتلمس الوسيلة الى فتح الموضوع مغدقا المديح على الفتى ، شاكرا له ما بذل من جهد طوال العام الدراسى المنصرم ، وكان عزيزا على الفتى المجهد الذى تحطمت آماله ، أن يستمع الى هذا الإطراء فى صبر وأناة ، وفاض به اليأس حين تصور أن الجهد الذى بذله فى الجامعة ضاع هباء . فقام الى المعزف يتلهى عن آلامه بالتوقيع عليه ، وتسللت الأنغام الشجية من النافذة المفتوحة الى مسامع جو ، التى كانت تتمشى فى الحديقة مع أختها بث ، فأدركت أن فتاها يعزف اليوم « السوناتا الحزينة » بعاطفة جياشة ومهارة لم تعهدها فى عزفه من قبل .

واستمع الجد العجوز لأنغام حفيده معجبا ، ثم قال فى حيرة من لا يعرف كيف يعبر عما بقلبه من عطف وإشفاق :

ــ هذا عزف بديع ، ولكنه لحن حزين يستدر الدمدع ، دعك منه وأسمعنى آخر بهيجا .

وبدأ الفتى لحنا جديدا ، ومضت الدقائق وهو يعزف بحيوية دافقة . وكان من الجائز أن يمضى فى العزف الى النهاية ، لولا أن تعالى صـوت مسز مارش ، أثناء سكتة قصيرة خلال للحن ، وهى تقول :

ـ جو ، عزيزتى .. تعالى الى فانى فى حاجة اليك .

وكانت هـذه الجملة الصغيرة هى لسان حال الفتى ، وإن تغـير المقصود منها . فمـا إن سمعها ، حتى ارتبكت أنامله على المعزف ، ثم توقف وقـد تاه فى شرود .

وتمتم السيد العجوز يقول لنفسه : « إنى لا أطيق صبرا على هذه الحال ! » . ونهض واقفا وتحسس طريقه فى عتمة الغسق الى المعزف ، ووضع يديه الحانيتين على كتفى لورى العريضتين ، وقال فى لهجة تسيل رقة وعـذوبة :

ـ إنى أعرف يا ولدى .. إنى أعرف .

وسكت لورى برهة ، ثم قال فى حـدة :

ـ ومن أخبرك ؟

أجاب الجـد :

ـ جـو نفسها .

وأزاح الفتى يدى جـده فى ضيق ، فقد أبت عليه رجولته أن يكون محل رثاء رجل آخر ، حتى ولو كان ذلك الرجل جـده العطوف . قال :

ـ إذاً فهذه هى النهـاية .

فقال مستر لورنس فى رقة غير معتادة منه :

ـ لا .. لم ينته الأمر بعد ، فما زال عندى ما أطلبه منــك وبه تكون الخاتمة ، لا أظنك ترحب الآن بالبقاء فى هــذا البيت ؟

أجاب لورى فى تحــد :

ـ لن تهزمنى فتاة أبداً ، ولن تستطيع جــو أن تمنعني من أن أراها ، وسأبقى هنا ما شئت أنظر اليها كما يحلو لى ..

قال جــده :

ـ لا .. لن يكون هذا ، اذا كنت عند ظنى بك سيدا مهذبا . لقد خابت آمالى أنا أيضا ، ولكن للفتاة عذرها ، ومن الظلم أن تطالبها بما لا طاقة لهــا به ، وإزاء ذلك لم يبق أمامك ســوى أن ترحل لفترة من الزمن . فالى أين تريد أن تذهب ؟

ونهض الفتى واقفا ، وهو يضحك باستهتار تأذى له جده ، وقال :

ـ الى أى مكان ، فلست أبالى بما يصيبنى بعد ما حــدث .

قال الجــد :

ـ بالله عليك لا تفقد صوابك ، واحتمل مصــابك كالرجال . رأيى أن تنسى ما حدث وتسافر الى الخارج كما كنت تعتزم .

قال الفتى :

ـ لا أقــدر .

قال الجـد :

ـ لقد كنت تتحرق شوقا الى السفر ، وعدتك بذلك إن نجحت فى دراستك •

أجاب :

ـ كنت بالفعل متحمسا للسفر ، ولكنى لم أكن أعتزم السفر وحدى •

وراح لورى يذرع الغرفة ذهابا وجيئة فى سرعة ، وقد بدت فى عينيه نظرة لم يلحظها جده من حسن الحظ • قال العجوز :

ـ وأنا لا أريد أن تسافر وحدك ، فهنالك من هو على استعداد للسفر معك ، بل ويسره أن يصطحبك الى أى مكان فى العالم تريد أن تذهب اليه •

وتوقف الفتى يصغى ، وقال متسائلا :

ـ ومن هو يا سيدى ؟

أجاب الجد :

ـ أنا !

وفى سرعة أقبل الفتى على جده ، ومد يده وقال فى صوت أجش :

ـ تبًا لى من فظ أنانى ، ولكنك تعلم يا جدى •••

فقال الجد :

ـ بل أعلم ، وليهبنى الله العون ، فقد مررت بهذه التجربة حين

كنت صغيرا ، وتكررت مرة ثانيــة مع أبيك •• والآن •• اجلس هادئا يا ولدى العزيز ، واستمع لخطتى ، فقد أعددت لها كل العدة ، وبامكاننا أن نشرع فى تنفيذها فورا •

وكان أثناء حديثه ، يمسك بالفتى ، كأنما يخشى أن يفلت منــه كما فعــل أبوه من قبــل •

وجلس لورى ، وقال فى نبرات خالية من الشوق والاهتمام :

ــ حسنا يا سيدى •• ما هى خطتك ؟

قال الجــد :

ــ لى أعمال فى لندن تحتاج الى من يشرف عليها ، وقد فكرت أن أوكل اليك هذه المهمة ، ولكنى أستطيع أداءها بنفسى على أحسن وجه ، خصوصا أن الأعمال هنا تســير على ما يرام بفضــل ادارة بروك • إن شركائى يتعهدون كل شىء تقريبا ، وأنا فى انتظار الساعة التى تستطيع أن تحل فيها محلى ، فأتقاعد وأرتاح •

قال لورى وقد أفعمت نفسه بالشكر لجده على هذه التضــحية :

ــ ولكنك تكره السفر يا سيدى ، ولا يرضينى أن تتجشم فى سنك المتقدمة كل هــذا العناء من أجلى •

وكان فى الواقع يفضــل أن يسافر وحده ، اذا لم يكن من السفر بــد •

وعرف الجد ما يجول بخاطر حفيده ، ولكنه خشى عليه أن يسافر

وحده وهو فى قلقه النفسى الحاضر ، فقال وهو يكبت أسفه على وسائل الراحة التى سيفقدها بالسفر :

— فليباركك الله على شعورك الطيب يا بنى ، ولكنى لم أبلغ أرذل العمر بعد ، وما زالت فى عظامى العتيقة قدرة على تحمل السفر ، خصوصا فى هذه الأيام التى سهلت فيها وسائل الانتقال ، وأصبح الرحيل من مكان الى مكان مثل الجلوس فى مقعد مريح .

وتململ لورى فى مقعده ، كأنه لا يشعر بالراحة فيه ، أو كأنما الخطة لا توافقه ، فقال الجد فى سرعة :

— سأكون بالسفر أسعد حالا ، ولا تخش أن أثقل عليك أو أقيد حريتك . سأتركك تفعل ما تشاء ، بينما أتسلى أنا كما يحلو لى ، فإن لى أصدقاء فى لندن وفى باريس أود أن أزورهم ، ويمكنك أن تذهب أنت الى ايطاليا أو سويسرا أو ألمانيا ، حيث تنعم بما يهفو اليه قلبك من الموسيقى والمتاحف والفن والمناظر والمخاطرات .

وكان لورى يصغى الى جده محطم القلب زاهدا ، كأنه يرى العالم على سعته برية ضيقة قفراء ، ولكن ما إن استوعب ما قاله العجوز من كلمات صيغت بمهارة مغرية ، حتى قفز القلب المحطم بين ضلوعه ، وتبدت فى وسط البرية القفراء واحة خضراء يانعة ، فندت عنه تنهدة ، وقال فى صوت خلا من الحماسة :

— أمرك يا سيدى ، ولا يهمنى أين أذهب أو ماذا أفعل .

فقال الجد :

— ولكنه يهمنى أنا يا بنى ، فاذكر هذه الحقيقة دائما . سأعطيك

مطلق الحرية ، وأنا على ثقــة بأنك لن تسىء استغلالها ، أو تستعملها فيما يتنافى مع الشرف والأمانة • فهل تعدنى بذلك يا لورى ؟

أجــاب :

ـ أعدك بما تشـــاء يا سيدى •

وقال السيد العجوز فى نفسه : « حسنا ! إنك تجيبنى الآن جزاغا ، ولكن سيأتى الوقت الذى يصونك فيه هــذا الوعد من الشرور اذا لم أكن مخطئا فى تقديرى » •

وكان مستر لورنس رجل حزم وعزم ، يعرف كيف يطرق الحــديد وهو ساخن ، ولذلك أعد الخطة ونفذها قبل أن يفيق الفتى من ثورته فينقض الاتفاق • وتحامل لورى على نفســه طوال فترة الاســتعداد للسفر ، منفذا وعوده شأن الرجل المهذب • حقيقة أنه كان ساهما سريع الغضب ، عازفا عن الطعام مهملا فى ملبسه : مقبلا على البيانو يعزف عليه فى ثورة متحاشيا لقاء جو ما أمكن ، ولكنه كان يتعزى بالنظر اليها من النافذة ، ويتأملها وقد شاع فى عينيه حزن مقيم ظــل يلاحق الفتاة فى يقظتها ونومها ، ، ويبعث فى نفسها شعورا بأنها ارتكبت فى حقه جرما لا يغتفر •

وكان لورى على خلاف غيره من المعذبين ، لا يذكر حبه الضائــع بكلمة ، ولا يسمح لأحد حتى مسز مارش ، بأن تعزيه أو تخفف عنه ، وكان سلوكه هذا راحة شديدة لأصدقائه ، وعلى ذلك فقد مضت الأسابيع السابقة للسفر مفعمة بالقلق والتوتر • وكانوا جميعا يقولون : إن الفتى العزيز البائس ، يسافر لينسى همومه ، ولن يلبث أن يعود وقد استرد

سعادته ومرحه • وكان لورى يصغى لهذيانهم باسما ، ويأبى أن يعلق على أقوالهم ، فى تعالى من يدرك أن إخلاصه لحبه أبدى لا يتغير •

وعندما حانت ساعة الرحيل ، افتعل لورى المرح والبهجة ليخفى عواطفه التى أبت إلا أن تظهر للعيان ، ولم تخدع بشاشته المصطنعة أحـداً ممن حوله ، ولكنهم تظاهروا بتصديقها إرضاء له • وسارت لحظة الوداع على ما يرام ، الى أن قبلته مسز مارش ، وهمست فى أذنه بكلمات فيها حنان الأم وعطفها ، وعندئذ انهار ثباته فجأة ، فراح يحتضن كل فرد منهم ويقبله فى عجلة ، حتى الطاهية حنة ، ثم هبط السلم مسرعا ، كأنما يفر من خطر يهدد حياته • وتبعته جو بعد لحظة ، ووقفت على أولى درجات السلم : لتلوح له بيدها إذا ما التفت لينظر إليها آخر مرة • ولقد التفت بالفعل ، فلما رآها ، عاد إليها وأحاطها بذراعيه ، ثم قال ضارعا ، وعيناه تنطقان بالاستعطاف المؤثر :

ــ جو •• ألا تعدلين عن قرارك ؟

قلت :

ــ بودى لو استطعت يا عزيزى تيدى •

وعندئذ كف عن الحديث • فمضت لحظة سكوت اعتدل بعدها لورى فى وقفته ، وقال :

ــ حسنا •• لا بأس •

ثم سار مبتعدا : دون أن يزيد على ذلك كلمة •

ولكن جو لم تر الأمر حسنا أولا بأس به • فعندما صارحها بحبه فى المرة الأولى ، وقد أسند رأسه الى ذراعها ، شعرت أن رفضتها له كان طعنة نجلاء فى صدر أحب الناس إليها ، وحين غادرها الآن دون أن يلقى عليها نظرة ثانية ، أدركت أن « الصبى لورى » سافر الى غير رجعة •

الفصل السادس والثلاثون

سر بث

عندما عادت جو الى بيتها فى ذلك الربيع ، روّعها تغير حال بث ، وأحزنها ما رأت من تبدل شديد فى وجه أختها . وقد أدهشها أن أحدا من أفراد العائلة لم يكتب إليها فى ذلك : كأنهم لا يشعرون بما أصاب بث ، أو لعل التغير جاء تدريجا فلم يجزع له أحد ممن يعيشون معها ، ولكن غيبة جو أبرزت لعينيها النحول الواضح ، فرأت أن وجه أختها ليس باهتا فحسب ، بل أشد نحولا مما كان عليه فى الخريف الماضى ، وكأنما شفّت نفسها الفانية وتسامت روحها فوق جسدها النحيل ، فاكتنفها بهاء روحانى جميل يذيب القلوب أسفا وحسرة . ورأت جو هذا النور يضىء وجه أختها وأحست به ، ولكنها لم تشأ أن تصارح أحدا بذلك . ثم مضت الأيام ، ففقد تأثرها الأول قوته ، وبدت لها بث سعيدة معافية . واندمجت جو فى مشاغلها الكثيرة وهمومها المتعددة ، فنسيت مخاوفها وارتاحت نفسها ، ولكن عندما رحل لورى ، واستقر السلام فى البيت ثانية ، عاودها قلقها على بث شديدا ملحفا .

كانت جو قد اعترفت لبث بخطئها حين ظنت أن لورى يحبها ، فلم تبخل الصغيرة عليها بالصفح والمغفرة ، وعندئذ عرضت عليها بعض المال الذى ادخرته ، لتذهب به فى رحلة الى الجبال ، ولكن بث أبت شاكرة أن تبتعد عن البيت هذه المسافة الطويلة . ورأت جو أن رحلة الى شاطىء البحر قد تكون أكثر ملاءمة لحال أختها ، ولما كانت مسز مارش لا تستطيع أن تبتعد عن حفيديها أو تتركهما ، فقد رافقت هى بنفسها بث ، وذهبت

الاثنتان الى بقعة هادئة من الشاطىء ، لعل نسيم البحر العليل يعيد الى الوجه الذابل نضرته .

وعلى الرغم من أنه كان مصيفا بسيطا متواضعا ، فقد آثرت الفتاتان الابتعاد عن رواده المرحين ؛ لأن حياء بث كان يبعدها عن المجتمعات ، ويزهدها فى الاستمتاع بها . وكرست جو نفسها لخدمة أختها والعناية بها ، وانقطعت الفتاتان عن العالم الذى يدور حولهما ، ولم تلتفتا الى اهتمام الناس بأمرهما ، فى حين كان القوم يرقبونهما بحنان ، ويعطفون على الفتاة القوية وهى تلازم أختها المريضة ؛ لا تبتعد عنها لحظة أو تفارقها ، كأنما تشعر بالغريزة أن الفراق الأبدى بات قريبا .

وكان هذا شعورها فى الواقع منذ بداية الأمر ، ولكنها لم تفصح عنه ، فليس أقسى علينا من الصراحة مع أحبابنا فى مثل هذه الأمور . ولقد أحست جو كأن حجابا أسدل بين قلبها وقلب بث ، فلما مدت يدها ترفعه ؛ منعتها قدسية الصمت الذى شملها ؛ فقنعت بالسكوت ، وتركت لبث مهمة بدء الحديث . وعجبت فى نفسها كيف لم تر الأسرة ما رأته هى وكيف غاب عن أهلها ما أصاب أختها ؛ ثم لم تلبث أن حمدت الظروف التى أشفقت عليهم فجعلتهم لا يدركون . وكانت قد آثرت خلال الأسابيع الماضية الهادئة ألا تبوح لأهلها بما رأت من حال بث ، موقنة بأنهم سوف يدركون ما أدركت عندما تعود إليهم الفتاة من المصيف ، دون أن يبدو عليها بادرة من التحسن المنشود . ولكم سألت جو نفسها إذا كانت بث تدرك شيئا من الحقيقة المرة ، وكان بودها أن تكشف عن الأفكار التى تدور بذهنها . وهى ترقد طول اليوم على رمال الشاطىء الدافئة ، ورأسها مسند الى حجر جو ، والنسيم العليل يداعب وجهها ، والبحر يهمس بموسيقاه تحت قدميها .

وأخيرا تكلمت بث ...

ففى يوم من الأيام كانت ترقد ساكنة ، وقد وضعت كتابها جانبا ، وراحت جو تحملق فى وجهها بعينين فاحصتين ، عسى أن تلمح بارقة من الأمل تشيع فى الوجه الضامر الباهت ، ولكن بصرها ارتد حسيرا أمام جسد أختها الذى ازداد نحولا ، ويديها اللتين وهنتا عن الإمساك بدا جمعته لها من الأصداف الوردية . وتملك جو قلق مرير ، لم تشعر بمثله من قبل ، وأحست كأن بث تنساب من بين يديها ، فلم تشعر إلا وهى تقبض بشدة على كنزها العزيز الغالى ، وقد تاه منها البصر فغابت المرئيات عن عينيها . وحين استردت جأشها واستعادت زمام نفسها . رأت بث تنظر إليها فى رقة بالغة ، لم تكن فى حاجة معها الى أن تقول :

— عزيزتى جو ، يسعدنى أنك تعرفين ما أنا فيه ، ولقد حاولت أصارحك بأمرى فلم أستطع .

ولم تجب جو إلا بأن أسندت خدها الى خد أختها ، وقد انحبس الدمع فى عينيها ، شأنها حينما تغلبها العواطف الجياشة . وكانت لحظة قاسية انهارت فيها شجاعة جو ، فراحت بث تطوقها بذراعها وتسرى عنها وتهدئها بكلمات تسيل عذوبة ورقة . قالت :

— لقد عرفت مرضى منذ وقت طويل يا عزيزتى ، ولم يعد يصعب علىّ أن أفكر فيه أو أحتمله . لقد روضت نفسى على قبوله ، فهدأت متاعبى وتبددت آلامى ، ويحسن بك أن تنظرى الى الموضوع من هذه الزاوية ، وتأكدى أننى الآن أحسن حالا ، فلا تستسلمى للحزن من أجلى .

قالت جو تسألها :

— أكان هذا سر حـزنك فى الخريف يا بث أكنت تشعرين بالمرض فى ذلك الوقت وتكتمين أمره عنا طوال هذه المدة ؟

وكانت نهبا للحزن على أختها ، مرتاحة الى أن لورى لم يكن له شأن فى همومها وأحزانها .

قالت بث :

— نعم ، ولقد قطعت الأمل عندئذ ، ولكنى لم أشـأ أن أستسلم لليأس ، فرحت أحاول اقناع نفسى بخطىء ، ولذلك لم أخبر أحدا . ولكنى كنت أضعف حين أرى ما يتمتع به الأصحاء من حولى ، ويستبد بى الشقاء كلما سمعتكم تتحدثون عما تعدونه للمستقبل من مشروعات يعز على ألا أشاركم فيها .

فقالت جو :

— أواه يا بث ! أتخفين سرك عنى طول هذه المـدة ؟ كيف طاوعك قلبك على كتمانه عنى ؟ ولم لم تخبرينى لأعينك وأخفف عليك بدل أن تحملى العبء وحـدك ؟

وتهدج صوت جو وهى تعتب على أختها برفق ، وتصدع قلبهـا لجهاد بث وحيدة ، حين أدركت قرب حرمانهـا من الحب والحيـاة . لا شك أنها قاست طويلا ، وصـارعت كثيرا ، حتى أمكنها أن تسـتسلم لمصيرها المحتوم ، وتتحمل نصيبها راضية منشرحة .

قالت بث :

— قد أكـون مخطئة فى صمتى ، ولـكن عـذرى أنى استهدفت

الصواب وسعيت اليه • لم أكن واثقة مما بى : ولم يرشدنى أحد الى علتى ، فبقيت أتعلق بالأمل • وقد حسبتها أنانية منى أن أزعجكم بمرضى عندما كانت والدتى مشغولة بميج ، وآمى غائبة عنا ، وأنت سعيدة مع لورى ، أو هذا على الأقل ما خيل الى حينئذ •

فصحت جو ، وقد أسعدها أن تجد الفرصة سانحة لتقول الحقيقة :

ـ أما أنا ، فقد ظننت أنك تحبينه يا بث : ولذلك تركت البيت وسافرت ، لأنى لم أستطع أن أبادله عاطفته •

وأخذت الدهشة بث لهذه الفكرة ؛ فابتسمت جو رغم حزنها ، وقالت بحنان :

ـ اذن لم تكونى مغرمة به يا عزيزتى ، لقد خشيت أن يكون قلبك الصغير مدلها بحبه طول هذا الوقت •

فقالت بث فى براءة الأطفال :

ـ ولماذا أحبه يا جو ؟ وكيف أجرؤ على ذلك وهو غارق فى غرامك ؟ اننى أعزه من كل قلبى لعطفه على ّ وكرمه معى ، ولكنى أعتبره مجرد أخ : وليته يصبح أخا فى يوم من الأيام •

فقالت جو بحزم :

ـ لن يكون ذلك عن طريقى ، ان آمى ما زالت أمامه ، تناسبه وتصلح له ، أما أنا فلا طاقة لى بهذه الأمور ، ولا يعنينى ما يجرى لغيرى • انى مشغولة بأمرك يا بث ، وكل همى أن تستردى صحتك ، ولابد أن تتحسنى •

— وهذا ما أتمناه وأبذل الجهد فى سبيل تحقيقه ، ولكنى أفقد كل يوم قليلا من عافيتى ، فيزداد يقينى أن لا أمل فى الشفاء • انه كالجزر يا جو ، ينحسر بطيئا ولا يقف أبدا •

فقالت جو :

— بل يجب أن يوقف ، انك مازلت فى التاسعة عشرة ، أى فى نضرة الشباب . ويجب ألا ينحسر جزرك سريعا • لن أدعك تذهبين ، سأعمل وأصلى وأجاهد ضد هذا المرض ، وأبقى عليك رغم كل شىء • لم تفلت الفرصة بعد ، ولابد أن أجد السبيل الى انقاذك ، سيشملك الله برحمته الواسعة ، ولن يقسو علىّ فيأخذك منى •

وانخرطت فى البكاء ، بعد أن صاحت بهذا الحديث فى عناد ، اذ لم تكن نفسها قد استكانت بعد كما استكانت واستسلمت روح بث التقية •

ومن شأن المؤمنين ألا يتحدثوا عن ايمانهم ، لأن تقواهم تظهر فى أفعالهم أكثر من أقوالهم ، وهذا الايمان بالله يكون عادة أقوى أثرا من العظات البليغة والنصائح الغالية ، ولذلك لم تحاول بث أن تلوم جو على حزنها أو تنصحها أن تتذرع بايمانها ، ولكن حبها لأختها ازداد أمام ما أبدته نحوها من شعور رقيق وعاطفة جياشة ، وتعلقت بهذا الحب الدنيوى تعلقا شديدا أضفى على قلبها آيات من السلام والهدوء ، ولا غرابة فالمحبة الخالصة أقصر طريق الى الله • ولم تستطع بث أن تفسر كنه الايمان الذى غمر نفسها فوهبها الصبر والشجاعة ، وهوّن عليها أن تترك الحياة ، وتنتظر الموت راضية • كانت كالطفل الوديع لا تسأل ولا تناقش ، انما تترك كل شىء لله والطبيعة ، وهما أبونا وأمنا ، واثقة أنهما وحدهما القدران على ارشادنا فى هذه الدنيا الى سواء السبيل وبث القوة فى قلوبنا وأرواحنا • وكنها لم تستطع

فى ذات الوقت أن تقول : « انها سعيدة بالفراق الأبدى » ، اذ كانت الحياة عزيزة عليها ، وليس من اليسير أن تتركها راضية مغتبطة ، فجعلت تقول باكية : « إنى أجاهد لأحمل نفسى على الرضا بنصيبى » • ثم لاذت بصدر أختها ، ليطويهما الحزن أمام شبح الفراق الأليم ، وقد تبدى سافرا لأول مرة •

وبعد قليل استردت بث هدوءها وقالت :

ـ هل تصارحينهم بالحقيقة عندما نعود الى البيت ؟

وتنهدت جو وقالت :

ـ لا داعى لذلك ، فلن يطول الزمن حتى يدركوها بأنفسهم •

فقد كان من الواضح أن صحة بث تتدهور سريعا من يوم الى يوم •

فقالت بث :

ـ بل يجب أن تخبريهم ، فالحب يعمى أصحابه عن رؤية الكوارث وهى قادمة ، وقد لا يدركون شيئا لفرط حبهم لى ، انى أكره أن أخفى عنهم سرا ، ومن دواعى الرحمة بهم أن نهيىء أذهانهم للامر • ان لميج أطفالها وزوجها يسرون عنها ، أما أبى وأمى فليس لهما الا أنت يا جو ، فعدينى أن تقفى الى جانبهما ، وتخففى عليهما وقع الخبر •

فقالت جو ، وهى تفتعل الانشراح :

ـ سأفعل ذلك ان استطعت يا بث ، ولكنى لم أفقد الأمل بعد ،

وما زلت أعتقد أنك تتساقين مع أوهام المرض ، ولذا لن أدعك تسترسلين فيها •

ورقدت بث ، وأسندت رأسها الى حجر جو ، ولبثت برهة صامتة ، وقد تاهت فى بيداء الفكر ، ثم قالت فى هدوئها المعتاد :

ـ لست أعرف كيف أعبر عما بنفسى يا جو ، وفى الواقع ، أنا لا أستطيع الكلام بصراحة الا معك ، ولك وحدك أبوح بمكنون سرى • انى أحس احساسا غامضا بأن أجلى لن يطول • انى أختلف عنكن جميعا فى كل شىء : ما رسمت قط خطة لمستقبلى ، ولا فكرت فى شبابى كما تفعلن ، وما دار بخادى يوما أن أتزوج كما دار بخلدكن ، لا ، ولا توقعت أن أكون شيئا فى الحياة سوى بث الصغيرة الغبية ، التى لا هم لها إلا أن تهرول فى أرجاء البيت بلا فائدة ولا هدف ولا أمل • ما أردت يوما أن أخرج من البيت أو أتركه أو أتغيب عنكن ، وأؤكد لك يا جو ، أننى لست خائفة من مصيرى ، ولكننى واثقة بأنى سأستوحش اليكن وأحن الى البيت ، حتى ولو كانت الجنة مثواى •

ولم تقو جو على الكلام ، وساد السكون لحظات طويلة ، إلا من حفيف الرياح وهمسات الأمواج على الشاطىء ، ومر بجوارهما نورس أبيض الجناح ، التمع ضوء الشمس على صدره الفضى ، فراحت بث ترقبه بعيون حزينة حتى اختفى وراء الأفق • وأقبل عصفور رمادى يقفز على الرمال ، وهو يتلفت حوله جذلا ، كأنما يمتع قلبه بجمال الشمس والبحر • واقترب العصفور من بث ونظر اليها مطمئنا ، ثم قفز الى صخرة دافئة وراح يسوى ريش جناحيه البليلين • وابتسمت بث ، وأحست براحة نفسية ، فقد بدا لها أن هذا المخلوق الصغير يفتح قلبه

لهـا ، ويهبها صداقته المتواضعة ، ويذكرها بأنه مازالت أمامهـا مباهج تتمتع بها فى هذه الدنيا . قالت :

— ياله من طير عزيز ! انظرى كم هو أليف يا جو ؟ انى أفضـل العصافير على النورس ، فالنورس ذو جمال وحشى ، أما هذا العصفور فيبدو سعيدا وديعا مطمئنا ، وكنت فى الصيف الماضى أطلق على هـذا النوع من الطيـور اسم « عصافيرى » . وكانت أمى تقول بأن هـذه العصافير تذكرها بى ، فهى دائما تعمل على شاطىء الأمان راضية : أما أنت يا جو فأشبه بذلك النورس القوى الوحشى ، الذى يغرم بالرياح والعواصف ، ويسعده أن يوغل بعيدا فوق أمواج البحر الثائرة ، ولعل ميج تشبه الحمامة الوادعة ، وآمى كالكروان كثيرا ما تذكره فى خطاباتها . انها تحـاول مثله أن تطير عاليا : حتى تصل الى السحاب ، ثم تهبط الى عشها الأمين سالمة . يا للعزيزة الصغيرة ، ويا لطموحها العظيم ؟ ولكنها تطوى بين ضلوعها قلبا كبيرا رقيقا ، ولن تستطيع الآمـال ، مهما حلقت بها ، أن تنسيها بيتها القديم . ألا ليتنى أراها ثانية ! ولكنهـا تبدو لى بعيدة فى آخر الدنيا !

ورأت جو أن تغير مجرى الحديث ، حتى لا ترهـق نفس أختهـا المعذبة ، فقالت :

— ستعود فى الربيع ، وعندئذ ترينها وتتمتعين بقربها . ستكونين أحسن صحة إذ ذاك فأنا مصممة على معونتك ، وسأبذل كل جهد لأساعدك على الشفاء وأعيد الى خديك توردهما .

فقالت بث وكأنمـا تفكر بصوت عـال :

— لا تعللى نفسك بالأمل يا جو ، فلن يجـدى الأمـل شيئا على

ما اعتقد ، وواجبنا ألا نحزن ، حتى نستمتع بصحبة بعضنا بعضا ، ونحن فى انتظار النهاية • وسوف تمر بنا أوقات سعيدة ، لأنى لا أقاسى الآن ألما على الاطلاق ، وأعتقد أنه بمعونتك سينحسر الجزر فى سهولة ويسر •

ومالت جو على الوجه الهادىء الوديع ، وطبعت عليه قبلة صامتة ، وهبت فيها جسمها وروحها لعزيزتها بث •

وتحقق قول جو حين عادت الفتاتان الى البيت ، فما ان شاهد الوالدان ابنتهما حتى أدركا أن مخاوفهما ، التى كانا يضرعان الى الله أن يبددها ، قد تحققت •

ودخلت بث بعد رحلتها القصيرة الى المصيف مكدودة متعبة ، ولم تلبث أن آوت الى فراشها بعد أن أبدت سعادتها بالعودة الى البيت •

وصحبتها جو الى غرفتها ، ولكن عندما نزلت الى البهو ثانية ، أدركت لفورها أن الحقيقة قد تبلجت لوالديها ، مما وفر عليها مشقة التصريح ، فقد وقف أبوها مسندا رأسه الى رف المدفأة ، ومدت اليها أمها ذراعها كأنها تطلب العون منها ، فتقدمت جو اليها تواسيها دون أن تقول كلمة واحدة •

الفصل السابع والثلاثون

افكار جـــديدة

ما ان تحل الساعة الثالثة مساء ، حتى يهرع أهل الطبقة الراقية فى مدينة نيس الى « متنزه الانجليز » ، لأنه مكان جميل جذاب ، فى جانب منه الأزهار والنخيل والشجيرات المستوردة من المناطق الحـــارة ، وفى الجانب الآخر يهدر البحر بأمواجه المتلاحقة ، ومن الجهة الثالثة يمـــر شـــارع فخـــم تصطف على جانبيه الفنادق الكبيرة والبيوت الأنيقة ، أما الجهة الرابعة فتمتد فيها بساتين الفاكهة حتى تصـــل الى التـــلال القريبة • وفى الأيام الصحوة المشمسة ، يصبح هـــذا المكان كالكرنفال : نرى فيه أبناء دول مختلفة ، وتسمع لغات عدة ، وتشهد ملابس متباينة : تجد الانجليز المتغطرسين ، والفرنسيين المرحين ، والألمان الجادين ، ثم الإســبانيين بوسامتهم ، والروس بضخامتهم ، واليهـــود بمكرهـــم ، والأمريكيين بلطفهم وتسامحهم •

نرى هؤلاء كلهم راكبين عرباتهم المطهمة ، أو متسكعين على أقدامهم فى أرجاء المكان ، أو جالسين فى جانب من المكان يثرثرون ، ويروون أخبار النـــاس ، وينتقدون البارزين من زوار المدينة الجـــدد ، مثل ريستورى أو ديكنز ، أو فيكتور عمانويل أو ملكة جزر ساندوتش • والعـــربات فى متنزه الانجليز تختلف اختلاف الناس ، ومنها ما تجتذب الاهتمام العام ، كتلك العربات الصغيرة الشبيهة بالسلات . التى تسوقها سيدات أنيقات ، وتجرها أمهـــار قوية نشـــيطة . وقـــد قبع الخـــدم فى أعلى مقـــاعدها الخلفية •

وفى يوم عيد الميلاد ، كان يسير فى ذلك المتنزه الأنيق ، فتى فارع الطول ، يتحرك بخطوات وئيدة وقد شبك يديه وراء ظهره ، وبدا عليه شرود الذهن . وكان الفتى متناقضا فى شكله ، فملامحه تشبه الايطاليين ولكنه يرتدى الملابس الانجليزية ، ويمشى بالطريقة الأمريكية ، وقد اجتذب هذا التناقض اهتمام السيدات ، فتتبعنه بنظرات الرضا والارتياح . أما الرجال المتأنقون الذين يرتدون السترات المخملية السوداء ، والقفازات الصفراء وأربطة العنق الحمراء ، ويحلون صدورهم بزهور البرتقال فكانوا يتأملونه شزرا ، ثم يهزون أكتافهم حاسدين .

وكان المتنزه زاخرا بالوجوه الجميلة التى تنتزع الاعجاب ، ولكن الفتى لم يكن يعبأ بها ، إلا من لفتة هنا أو هناك يلقيها على فتاة شقراء أو سيدة ترتدى ثوبا أزرق . ووصل الفتى فى سيره الى نهاية الطريق ، ثم وقف لحظة عند تقاطعه مترددا . كان حائرا فيما يفعله : أيذهب الى الحديقة العامة ليستمع الى عزف الفرقة الموسيقية ؟ أم يتجه الى شاطىء البحر فى طريق قلعة « هل » ؟

وبينما هو فى تفكيره ، سمع وقع حوافر مهر يسير خببا نحوه ، فلما رفع رأسه ينظر ناحيته ، رأى عربة صغيرة تقبل صوبه مسرعة ، وليس فيها سوى سيدة تجلس بمفردها . وكانت الراكبة فتاة شقراء ترتدى ثوبا أزرق ، حدق الفتى فيها لحظة ، ثم أضاء وجهه بشرا ، ولوح بقبعته لها كالأولاد وهو يهرع الى لقائها .

وألقت آمى بالأعنة جانبا ، وأمسكت باليدين الممدودتين ، وصاحت

— أهذا أنت حقا يا لورى ؟ ظننتك لن تأتى أبدا !

ومرت بالصديقين فى تلك اللحظة سيدة فرنسية تسير مع ابنتها ، فلما رأت حرارة ذلك اللقاء ، أسرعت تبتعد عن المنظر انفاضح خشية

تتأثر ابنتها بمثل هذا السلوك الجرىء الذى يأتيه هؤلاء الانجليز المعاتية •

وأجاب الفتى قائلا :

ـ لقد تأخرت فى طريقى الى هنا ، ولكنى وعدت أن أقضى معك عطلة عيد الميلاد ، وهأنذا بين يديك •

سألته :

ـ كيف حال جدك ؟ ومتى حضرت ؟ وأين تقيم ؟

قال يرد على أسئلتها بالترتيب :

ـ فى صحة جيدة ، وجئت ليلة أمس ، وأقيم فى شوفين • ولقد مررت بفندقكم فوجدتكم جميعا فى الخارج •

ـ عندى أخبار كثيرة ، ولست أدرى من أين أبدأ • تعال اركب معى حتى نتحدث على راحتنا • كنت أتنزه وحدى لأن فلو ترتاح استعدادا لسهرة الليلة •

قال :

ـ وما برنامجكم الليلة ؟ مرقص ؟

أجابت :

ـ يقيم الفندق حفلة عيد الميلاد اكراما للنزلاء الأمريكيين الكثيرين ، وستأتى معنا طبعا ، فعمتى يسرها أن تراك •

فشبك الفتى ذراعيه على صدره واستند الى المقعد قائلا :

ــ أشكرك .. والآن ، الى أين نذهب ؟

وسرت آمى لقوله ، إذ كانت تحب أن تقود العربة بنفسها : وكان يملأ صدرها غبطة أن ترفع مظلتها وتمسك الأعنة الزرقاء التى تمتد فوق ظهور الأمهار البيض ، وتفرقع السوط بيدها . قالت :

ــ هلم الى البنك أولا نسأل عن بريد لى ، وبعد ذلك نذهب الى قلعة « هكْ » فالمنظر هناك يأخذ بالألباب ، وأنا أحب أن أطعم الطواويس بيدى . أزرت القلعة من قبل ؟

قال :

ــ زرتها كثيرا فيما مضى ، ولكن لا مانع مطلقا من أن ألقى عليها نظرة أخرى .

قالت :

ــ والآن قص علىّ أخبارك كلها ، فآخر معلوماتى عنك ما كتبه لى جدك ، من أنه ينتظر عودتك من برلين .

قال :

ــ نعم ، لقد قضيت شهرا فى برلين ، ثم التقيت بجدى فى باريس ، حيث أقام طول الشتاء . ان له أصدقاء هناك ، وقد وجد فى قربهم منه تسلية كافية ، أما أنا فقد كنت أسافر وأعود اليه ، وكانت الأمور تسير معنا على ما يرام .

فقالت آمى ، وقد استشعرت غموضا فى سلوك لورى :

ــ هذه خطة اجتماعية موفقة .

قال :

ــ ولِمَ لا ؟ ان جدى يكره السفر ، وأنا لا أطيق الاستقرار فى مكان واحد ، ولذلك يفعل كل منا ما يروقه ، حتى لا يتكبد أحدنا مشقة من أجل الآخر • انه يصاحبنى معظم الوقت ، ويلتذ بسماع أخبار سفرى ، أما أنا فيسرنى دائما أن أجد من يرحب بى عند عودتى من رحلاتى •

ونظر الفتى الى الشارع الذى يقودهم الى ميدان نابليون ، بمدينة نيس القديمة ، وقال مشمئزا :

ــ ياله من زقاق قذر ! ما رأيك ؟

قالت :

ــ ان للقذارة سحرها ، ولذا لا يضايقنى أن أمر بها ، ثم ان من بين هذه المنعطفات الضيقة يمكنك أن ترى النهر والتلال ، وهو منظر غاية فى المتعة • علينا أن ننتظر هنا حتى يمر هذا الموكب الى كنيسة القديس جون •

وراح لورى ينظر شاردا الى الموكب الدينى وفيه القساوسة بملابسهم الفضفاضة ، والراهبات المحجبات بالأبيض الشفاف يحملن الشموع الموقدة ومن حولهن صبيان صغار بملابس زرقاء ، يرتلون الأدعية وهم فى طريقهم الى الكنيسة • وراحت آمى تتأمل لورى فى قلق وخوف ، إذ وجدت أن الفتى المرح الصبوح الذى تركته فى بلدتها ، قد أصبح الآن رجلا حزينا واجما • حقيقة أنه ازداد وسامة وأناقة عن ذى قبل ، ولكنه بدا بعد أن مضت فرحة لقائه بها ، متعبا مرهقا •

لم يكن مريضا ولم يكن تعسا ، ولكن كان أكثر وقارا ، كمن تقدم به العمر زمنا أطول بكثير من العام الذى مضى منذ رأته لآخر مرة • ولم تفهم آمى سر تغيره ، ولم تجرؤ على سؤاله ، انما هزت رأسها فى حيرة ، ثم عادت الى قيادة الخيل بعد أن مر الموكب من تحت أقواس قنطرة باجليونى ، واختفى داخل الكنيسة • قالت بالفرنسية التى ازدادت ذخيرتها منها كما لا نوعا :

— فيم تفكر ؟

قال فى انحناءة ، وقد وضع يده على قلبه ، ونظر اليها معجبا :

أفكر فى أن المدموازيل قد استفادت كثيرا من اقامتها فى فرنسا والنتيجة غاية فى الابداع • •

وتخضب وجه آمى بحمرة الخجل ، ولكنها لأمر ما لم تطرب لمديحه اللبق ، بقدر ما كانت تطرب فيما مضى لكلمات اعجابه الخشنة ، كان فى تلك الأيام يربت على رأسها ، ويدور حولها فى الحفلات ويقول بابتسامة مخلصة : « شكلك فى مجموعه ظريف ! » • ان هذا الأسلوب الجديد لا يعجبها ، فعلى الرغم من نظرة الاعجاب ، كان عدم الاهتمام يرن فى حديثه •

قالت تحدث نفسها فى خيبة أمل ، رغم تظاهرها بالمرح والهدوء : « اذا كان هذا ما سيصير اليه عندما يكبر ، فالأفضل أن يبقى صبيا » •

وعندما وصلت الى البنك ، وجدت البريد العزيز الذى تنتظره من البيت ، فأسلمت الأعنة للورى ، وجعلت تقرأ سعيدة ، والعربة تسير بها فى الطريق المتعرج الظليل ، بين الأسيجة الخضراء والورود المزدهرة تحية لفصل الصيف •

قالت وهى تنظر بحزن الى احدى صفحات الخطاب :

ـ تقول والدتى ان صحة بث تزداد سوءا ، وكثيرا ما كنت أشعر بأن الواجب يقضى على بالعودة الى البيت ، ولكنهم جميعا يلحون على بالبقاء ، ويعتقدون أنها فرصة لن تتاح لى مرة أخرى ، ولذلك بقيت عملا برأيهم •

قال وهو يقترب منها ، وينظر اليها نظراته القديمة :

ـ أحسنت بالبقاء يا عزيزتى ، وليس أدعى الى غبطتهم وراحة بالهم من أن تستمتعى بوقتك سعيدة هانئة •

وانزاح الخوف الذى جثم على قلب آمى ، وسرى عنها ، فقد وجدت فى تصرفه العطوف ونظراته الحانية ثم كلمة الاعزاز التى قالها ، ما أكد لها أنها سوف تجد فى غربتها هذه ، سندا تركن اليه اذا ما أصابها مكروه • واستخفها الطرب فضحكت وأرته رسما صغيرا من ريشتها ، صورت فيه أختها جو فى ملابس الكتابة ، وقد وقفت شرائط قلنسوتها رأسية متصلبة ، ومن فمها تخرج جملة تقول : « العبقرية تحترق » •

وابتسم لورى وأخذ الصورة وأودعها جيب سترته ، حتى لا يطيرها الهواء ، وراح ينصت فى اهتمام الى آمى وهى تقرأ عليه الخطاب المرح الذى تلقته •

ووقفت بهما العربة بين خرائب القلعة القديمة ، فقالت آمى وهى تهبط الى الطواويس الرائعة التى أقبلت عليهما تنشد الطعام :

ـ هذا ولا شك عيد بهيج ، تحققت فيه كل أسباب السعادة ، ففى

الصباح جاءتنى الهدايا ، وبعد الظهر تلقيت بريدا من الأسرة وفزت بلقائك ، وفى المساء ينتظرنى حفل رائع •

ووقفت تضحك وتتسلى بالقاء فتات الخبز الى الطيور الجميلة ، وكما تفحصت لورى من قبل ، استبد حب الاستطلاع بلورى ، فراح يفحصها بنظراته ، ليرى ماذا فعل الزمان بها ، وما أحدثته الغيبة فيها من تغيرات • ولم يجد لورى بها ما ضايقه أو خيب رجاءه ، بل كانت على العكس محط رضاه واعجابه : حقيقة أنها كانت تتصنع فى الحديث والحركات أحيانا ، ولكنها ظلت كعهده بها رشيقة جميلة مرحة ، ولم يزد عليها سوى شىء لا يمكن التعبير عنه ، فى طريقة الملبس والحركة ، هوما نسميه بالأناقة • كانت تتميز دائما بالنضج الباكر ، وقد أفادت من رحلتها خبرة فى أسلوب الكلام والمشى ، فبدت امرأة محنكة أكثر من حقيقتها البريئة الغريرة ، كما ظلت محتفظة بعزمها القوى وصراحتها الأصيلة اللذين لم يتأثرا بأى طلاء أجنبى •

لم يقرأ لورى كل هذه المعانى فى وجهها وهى تطعم الطواويس ، ولكنه رأى فيها من بواعث الرضا ما جعله يحتفظ فى قلبه بصورة جميلة لفتاة وسيمة تنعكس أشعة الشمس المشرقة على ثوبها الناعم وخديها المتوردين ، وشعرها الذهبى الوهاج ، وتزيد بحسنها جمال المنظر الطبيعى الذى تقف فى وسطه •

وحين صعدا معا الى الهضبة الحجرية التى تتوج التل ، لوحت آمى بيدها كأنما ترحب بمجىء الفتى الى بقعتها المفضلة • قالت وهى تشير هنا وهناك :

— أتذكر الكاتدرائية ؟ والصيادين وهم يجرون شباكهم فى الخليج ، ثم الطريق الى فيلا فرانكا وبرج شوبرت ؟ أتذكر ما هو أجمل من هذا

كله ، أى تلك البقعة اللامعة فى وسط البحر ، التى يسمونها جزيرة كورسيكا ؟

قال بلا اهتمام :

ــ أذكرها .. أنها لم تتغير كثيرا .

قالت آمى وهى تتمنى أن يشاركها فى سرورها ومرحها :

ــ ترى كم تدفع جو ، لترى هذه البقعة اللامعة ؟

ولم يزد رده عن كلمة « نعم » ، ثم التفت الى البحر يبحث بأنظاره عن تلك الجزيرة التى زاد اهتمامه بها من أجل شخص أعز عليه من نابليون .

قالت آمى وهى تجلس استعدادا لحديث ممتع :

ــ تأملها مليا من أجل جو ، ثم تعال وحدثنى عما مضى من أخبارك كلها . ..

ومع أن لورى جلس بجانبها يجيب على أسئلتها بصراحة ، غير أنها لم تشعر من حديثه بما كانت تنشده من متعة ، ولم تعرف منه أكثر من أنه جاب القارة الأوربية وزار اليونان . وبعد ساعة قضياها فى السير هنا وهناك ، عادا الى البيت راكبين ، حيث قدم تحياته واحترامه لمسز كارول ثم غادر الفندق على أن يعود فى المساء .

وجدير بالذكر أن آمى عنيت بتزيين نفسها فى تلك الليلة : فقد غير بعد الفتى عنها طوال هاتين السنتين نظرتها اليه ، وجعلها ترى صديقها القديم فى ضوء جديد . ولم يعد لورى ذلك « الصبى » ، بل أصبح

رجلا وسيما ترتاح اليه النفس • وأحست رغبة فى أن تعجبه ؛ وكانت تعرف مواطن الحسن فى نفسها ، فراحت تبرزها وتعنى بها بذوق ومهارة ، وهما رأس مال كبير لفتاة مثلها جميلة ولكنها معدمة •

وكانت أقمشة الترلتان والتل رخيصة الثمن فى نيس ، فكانت تستعملهما فى مثل هذه المناسبات • وتبعا للطراز الانجليزى الرصين ، الذى يليق بالفتيات ، تزينت بزهور طبيعية ، وأساور قليلة ، وحلى رخيصة الثمن ولكنها جذابة جميلة • وكانت الروح الفنية تتغلب عليها أحيانا فتتحذلق فى تصفيف شعرها ، أو ترتدى ملابس كلاسيكية غريبة ، أو تتخذ وقفات تتشبه فيها بالتماثيل ؛ ولكننا نغفر لها هذه الهنات ، فبكل منا نواح ضعيفة ، وللشباب نزوات تسر أنظارنا وتطرب قلوبنا •

قالت آمى تحدث نفسها وهى تلبس ثوب فلو الأبيض الحريرى القديم وتغطيه بغلالة جديدة برزت من بين ثناياها اللامعة كتفاها الناصعتان ورأسها المتوج بشعرها الذهبى الذى صففته على شكل فنى جذاب :

— « أريده أن يرانى فى أجمل حال ليخبرهم بذلك عند عودته » •

وكانت من الذكاء بحيث لم تتصنع فى تصفيف شعرها ، بل جمعت خصلاته الغزيرة وعقصتها فوق مؤخر رأسها فى عقدة بسيطة • وكانت تقول لمن ينصحها بتجعيد شعرها أو جدله :

— أعرف أننى لا أتبع الطراز الحديث ، ولكن طريقتى فى تصفيف شعرى تناسبنى جدا ، وأنا لا أحب أن أبدو فى شكل مخيف •

ولما لم يكن لديها من أدوات الزينة ما يناسب هذا الحفل الهام ، فقد ضمت أطراف ثوبها بزهور الأزاليا ، وزينت أكتافه بعناقيد خضراء

رقيقة ، وتطلعت فى غبطـة الى حذائها الأبيض المصنوع من الساتان ، وقد تذكرت حذاءها القـديم الذى كانت قـد طلته باللون الأبيض ، ثم لبست الحذاء وراحت تسير به فى الغـرفة جيئة وذهابا ، وهى معجبـة بقدميهـا الارستقراطيتين .

قالت وهى تنظر فى المرآة الى نفسها بعين ناقدة ، وقد أمسكت فى كل يد من يديهـا بشمعة مضيئة : « ان مروحتى الجديدة تتلاءم جـدا مع زهورى ، وقفازى منسجم جذاب ، والدنتلا التى تزين منديل عمتى توافق لون ثوبى ، ولو كان لى أنف وفم من الطراز الكلاسيكى لاكتملت بهما سعادتى » .

وعلى الرغم من هذا العيب الذى كان مصدر عذابها ، بدت فى تلك الليلة أرشق وأجمـل من المعتـاد . وكانت تؤمن أن الاسراع فى المشى لا يناسبها ، والخطوات المتئدة تلائم طولها الفارع ، فخرجت من غرفتها تخطر فى مشيتها ، وسارت الى القاعة الكبرى تنتظر لورى ، ثم وقفت تصلح هندامها تحت أنوار الثريا الكبيرة ، فكان لانعكاس الضـوء على شعرها أثره الجميل ، ولكنها لم تقف طويلا فى مكانها هذا ، فبعد تـردد قصير سارت الى ركـن بعيد ، كأنما أخجلتها رغبتها الصبيانية فى أن تكون أول مع يقع عليها نظره عندما يدخل . وقد أحسنت صنعا بذلك ، إذ أن لورى تسلل الى القاعة فى غفلة منها ، فلما رآها ، كانت تقف أمام النافذة البعيدة . وقد أدارت رأسها فى لفتة صغيرة ، وضمت أطـراف ثوبها باحدى يديها ، ومن خلفهـا انسدلت الستائر الحمراء ، فأبرزت قوامها النحيف وجسدها الناصع ، وعندئذ خيل اليه أنها تمثال جميـل أحسن اختيار مكانه .

ونظر لورى اليها برضا كانت تتمنى أن تراه فى عينيه ، وقال :

ــ مساء الخير أيتها الإلهة ديانا !

وكان لورى مرحا على غير عادته ، كان مجرد تفكيرها فى أنها ستدخل قاعة الرقص مستندة الى ذراعه الأنيقة ، يملأ قلبها سرورا وغبطة ، فأجابت باسمة :

ــ مساء الخير أيها الإله أبولو !

قال وهو يقدم لها باقة جميلة فى ماسك أنيق للأزهار ، كثيرا ما كانت تراه فى نافذة محل الزهور الفخم ، فتتمنى الحصول عليه :

ــ هذه زهورك ، ولقد نسقتها بنفسى على غير الطريقة التى تكرهينها والتى كانت حنة تسميها « الباقة البلهاء » .

قالت فى امتنان :

ــ هذا كرم عظيم منك ، ولو كنت أعلم بحضورك اليوم ، لأعددت لك بالمثل هدية ، ولو أنها لن تكون فى جمال هذه .

قال لها ، وقد شبكت الماسك الفضى حول معصمها :

ــ شكرا ، انها أقل مما يجب ، ولكنها ازدادت الآن جمالا .

قالت :

ــ خل عنك هذه الأقوال .

قال :

ــ كنت أظن أنك تحبين هذا النوع من المجاملات .

قالت :

ـ ليس منـك ، فمجاملاتك تبدو مصطنعة ، وأنا أفضـل عليها طريقتك القديمة الخشنة فى ابداء اعجابك •

قال بارتياح ملحوظ :

ـ يسعدنى أن أسمع منك هذا الكلام •

ثم زر لها قفازيها ، وسألها ان كان رباط رقبته فى موضعه المناسب كما تعود فى الماضى أن يفعل ، عنـدما كانا يذهبان معا الى حفل ما •

واجتمع عقد المدعوين فى قاعة الطعـام المستطيلة ، وكانت ليـلة لا يتأتى مثلها الا فى القـارة الأوربية • فقد دعـا الأمريكيون الكرماء كل من يعـرفون فى مدينة نيس ، ولمـا كانوا لا يتحيزون ضـد ذوى الألقاب ، فقد كان ضمن المدعوين عـدد قليل منهم ، أضفوا بوجودهم على الحفل بهجة وراء : فهذا أمير روسى تنازل بالجلوس ساعة فى صحبة سيدة ضخمة الحجم ، تلبس ثوبا من المخمل الاسود ، وتحيط جيـدها بعقد من اللؤلؤ • وذلك كونت بولندى فى الثامنة عشرة من عمره ، كرس وقته لتسـلية السيدات ، وبذلك اكتسب رضاهن عنه ، فقلن انه فتى لطيف جذاب • وكان هناك أيضـا شريف ألمانى ، جاء الحفل جريا وراء طعام العشاء وحده ، وراح طول الوقت يحوم فى أرجاء القاعة ، بطريقة غامضة ، بحثا عن شىء يلتهمه • كمـا حضر سكرتير البـارون روتشيلد الخاص ، وهو فتى فارع الطول يرتدى حذاء ضيقا ، ويبتسم دائما ، كأنما اسم سيده البارون قد أضفى عليه هالة ذهبية • وكان بين المدعوين فرنسى من أصدقاء الامبراطور ، ضخم الجثة مغـرم بالرقص ، فراح يشبع غرامه به طول الوقت • وجاءت ليدى دى جونز اتزين الحفل بأفراد

أسرتها الثمانية • وكان الحفل يزخر بالفتيات الأمريكيات ذوات الأقدام الرشيقة والأصوات المرتفعة الحادة ، وبالانجليزيات الجميلات بلا روح ولا حيوية ، ثم بعـدد قليل من الفرنسيات ممن ليس لهن من الحسن نصيب ، وان كن ماهرات لعوبات • هذا بالاضـافة الى الجمع المعتـاد من السياح الذين اندمجوا فى الحفـل مسرورين • وكانت الفتيات على اختلاف جنسياتهن يرقصن مع الشبان فى حين وقفت أمهاتهن على الجانبين يراقبنهن فى غبطة وانشراح •

ومن السهل على أية فتاة فى مقتبل الشباب أن تتصور مدى سعادة آمى ، وهى تحتل بجانب لورى مركزا بارزا فى تلك الليلة : كانت تعرف مدى حسنها وأناقتها ، وكانت تحب الرقص وتتقنه كل الاتقان ، فراحت ترتشف من مناهل المتعة منتشية بشعور المرأة حين تكتشف سلطانها على المملكة الجديدة ، التى ولدت لتحكمها بجمالها وشبابها وعفتها وأنوثتها • ولكن سعادتها لم تشغلها عن آلام غيرها ، فانتابها الأسف لما رأت بنات ليدى ديفيز المحرومات من الجمـال والأناقة ، لا يجدن فى الحفل رفقاء سوى أب مقطب الأسارير وثلاث عمات أشد تقطيبا • وقد انحنت لهن فى ودّ زائد وهى فى طريقها الى الرقص ، وكانت لفتة لطيفة منها ، سمحت لهن برؤية ثوبها ، كما أثارت فيهن منتهى الفضول لمعرفة ذلك الصديق الممتاز الوسـيم الـذى يصحبها • وعنـدما عزفت الفرقة أول أنغامها الراقصة ، تورد وجه آمى ولمعت عيناها ، وأخذت تطرق الأرض بحذائها فى صبر نافد ، لتلفت نظر لورى الى رغبتها فى الرقص ، ولذلك كانت صدمتها لا توصف حين قال لها بصوت غاية فى الهدوء :

ألديك مانع من أن نرقص ؟

قالت :

ـ لا مانع على الاطلاق ، والناس يرقصـون عادة فى مثل هـذه الحفلات •

وأمام جوابها السريع ، وسيماء الدهشة التى بدت عليهـا ، رأى الفتى أن يسرع باصلاح خطئه فقال :

ـ أقصد بسؤالى الرقصة الأولى ، فهل تمنحيننى هذا الشرف ؟

قالت :

ـ أعطيك رقصة واحدة اذا أمكننى التخلص من الحاح الكونت • انه راقص بارع ، ولن يضيره أن يتنازل لصديق قديم مثلك عن احدى رقصـاته معى •

وكان غرضها من هذا الكلام أن تؤثر فيه ، وتريه أنها ليست ممن يستهان بهن •

قال :

ـ انه صبى وسيم ، ولكنه أقصر قامة من أن يعتمد عليه !

ثم أضاف ينشد قطعة من الشعر :

« انهـا ابنـة الآلهـة
قامتهـا الفارعة رائعـة
وجمالها الساحر أروع »

وكان هذا كل ما قاله لورى فى سبيل ارضائها •

كانت المجموعة الراقصة التى انضموا اليهـا كلهـا من الانجليز ،

فاضطرت آمى أن تسير فى الرقص بطريقتهم المزوّقة ، مع أنها كانت تفضل رقصة الترانتيلا . ولما انتهت الأولى ، سلم لورى آمى الى الكونت « الصبى الوسيم » ، وذهب الى فلو يحييها ويراقصها ، دون أن يحجز لنفسه رقصة أخرى مع آمى أو يطالب اليها الاشتراك معه فيما يلى من مباهج الحفلة . وشعرت آمى باهماله ، فاعتزمت أن تؤدبه عليه ، لذلك شغلت نفسها عنه بغيره حتى موعد العشاء ، وان كانت تنتوى فى قرارة نفسها أن تصفح عنه ، اذا ما أبدى ما ينم عن توبته واعتذاره . وقبل أن تبدأ الرقصة التالية ، وهى البولكا المزدوجة ، أقبل عليها متباطئا ، يطلب منها أن تراقصه ولم تجد فى لهجته الحماسة التى ترضى كبرياءها ، فاعتذرت ببرنامج رقصاتها الحافل ، وظلت عند رفضها رغم محاولاته الفاترة فى اقناعها بالعدول عنه . وعندما انسابت مع الكونت الصغير الى حلبة الرقص ، رأته يجلس الى جوار عمتها ، وقد بانت على وجهه سمات الارتياح ، مما أكد لها أنه كان يطلب مراقصتها تأدية للواجب .

ورأت فى تصرفه هذا غلطة لا تغتفر ، لذلك أهملت شأنه وقتا طويلا . وعندما كانت تعود الى عمتها بين الرقصات لتستريح لحظة ، أو تصلح مشبك ثوبها ، تتشاغل عن وجوده ولا تبادله سوى كلمة أو كلمتين .

وفعل سلوكها معه فعله المنشود ، فراح يتبعها بنظراته راضيا مغتبطا وهى ترقص فى الحلبة بمنتهى الرشاقة والاتقان . لم تكن تقفز فى رقصاتها فى خشونة ، أو تتحرك بلا هدف ، كما يفعل غيرها من الفتيات ، انما كانت تنساب مع أنغام الموسيقى فى تناسق من يحب الرقص ويقدره .

وكانت النتيجة مرضية للغاية ؛ فقبل أن ينتصف الحفل ، كان قد وصل الى رأى قاطع وهو : « ان آمى الصغيرة ستصبح امرأة جذابة بمعنى الكلمة » .

ودبت الحياة فى الحفل ، وسرعان ما سادت الروح الاجتماعية فى الموجودين ، فأشرقت الوجوه سعيدة بعيد الميلاد ، وامتلأت القلوب بنشوة الفرح ، وخفت أقدام الراقصين فى الحركة ، وتفنن الموسيقيون فى العزف وأخذتهم نشوة الجماعة ، فعزفوا فى مهارة ، والناس من حولهم يرقصون ، وكان من لا يرقص منهم يبدى اعجابه بحرارة وحماسة . وبينما ظلّ حال آل ديفيز سيئا معتما ، راح آل جونز يرقصون كقطيع من الزراف . وكان السكرتير ذو الهالة الذهبية ، يمرق فى المرقص كالشهاب وبرفقته سيدة فرنسية جميلة ، تفرش الأرض بذيل ثوبها الحريرى الطويل ؛ أما الشريف الألمانى فقد وجد ضالته فى مائدة الطعام ، فجلس اليها سعيدا يلتهم الأصناف بشراهة أثارت استياء الخدم ، لما تركه من آثار مدمرة . وسجل صديق الامبراطور لنفسه مجدا ، فقد اشترك فى كل رقصة سواء كان يعرفها أو لا يعرفها ، وكان مرحه الصبيانى مسليا ولافتا للأنظار ، فعلى الرغم من سمنته ، كان يرقص مثل كرة من المطاط : يجرى ويلف ويقفز فيحتقن وجهه وتلمع صلعته ، وتتطاير أطراف سترته فى عنف . وحين سكتت الموسيقى ، راح يمسح قطرات العرق الذى تصبب على جبينه ، ويوزع ابتساماته على الأصدقاء هنا وهناك .

وتحولت الأنظار الى آمى وصديقها البولندى ، وأعجب الناس بحماستهما المتعادلة ، وحركاتهما الخفيفة المتناسقة ، حتى ان لورى لم يملك الا أن يتبع وقع الحذاء الأبيض ، وهو يرتفع ثم يهبط فى نشاط ،

كأنما تحركه أجنحة خفية لا تكل • وعندما اصطحبها الكونت الصغير الى مكانها ، وهو يعتذر عن اضطراره الى الانصراف من الحفل مبكرا ، كان التعب قد هدّها فى الواقع ، فجلست تستريح ، وهى ترقب من طرف خفى ، وقع العقاب الذى أنزلته بفارسها المذنب •

أدركت الفتاة لأول وهلة أنها وفقت فى عقابه • فعواطفنا ونحن فى الثالثة والعشرين تجد بلسما فى رفقة الأصدقاء ، مهما كانت شدة الصدمة التى لاقتها ، وأرواحنا الفتية تنتعش بشرا بسحر الجمال والأضواء والموسيقى والحركة • وقد حرم لورى من هذا كله بانشغال آمى عنه ، فما ان عادت حتى نهض يقظا يقدم لها مقعده ، ثم أسرع الى غرفة الطعام يحضر لها بعض ما تأكله • قالت لنفسها وهى تبتسم راضية : « كنت واثقة بأن هذا سيفيده كثيرا » •

ووقف لورى يروح لها باحدى يديه ، ويحمل فى اليد الأخرى قدح القهوة • قال :

— كأنك احدى لوحات بلزاك •

فأخذت تمسح خدها بقفازها الناصع ، ثم أرته إياه ، وهى تقول ببساطة أضحكته :

— هذا الأحمر ثابت لا يبهت لونه •

سألها وهو يلمس طرفا من ثوبها الشفاف حركة الهواء فارتكز على ركبته :

— ماذا تسمين هذا القماش ؟

قالت :

— إيليوجن •

قال :

— اسم جميل لنسيج جميل • أهو نوع جديد ؟

— بل قديم كالجبال ، وقد رأيت فتيات كثيرات يلبسنه ، ولكنك لم تدرك جماله الا الآن ، فيالك من غبى !

قال :

— ولكنى لم أره عليك من قبل ، وهذا كما ترين سبب الخطـأ •

— هذا الكلام ممنوع ! والأفضل أن أحتسى القهوة ، فمثل هـذه المجاملات تثير أعصـابى •

وجلس لورى منتصبا أمامها ، وتناول صحنها الفارغ فى خضوع ، وهو يشعر بلذة غريبة فى طاعة أوامر « آمى الصغيرة » ، وكانت قـد تغلبت على خجلها السابق ، وأحست برغبـة جامحة فى أن تعبث بـه وتسيطر عليه ، شأن الفتيات مع من يبدين لهن الخضوع من الرجـال المهـذبين •

سألها وهو ينظر اليها نظرة فاحصة :

— أين تعلمت هذه الأساليب ؟

— أجابت وهى تفهم تماما ما يعنيه ، ولكنها تتظاهر بالجهل لتجبره على الافصاح عن غرضه :

— أرجو أن تفصح عما تعنى بكلمة « الأساليب » ، فانى أراه تعبيرا غامضـا •

قال ضاحكا ، وقد غلب على أمره :

— انها الطريقة العامة فى اللبس والتصرف ، وارتداء نسيج الإيليوجين •

واغتبطت آمى لهزيمته ، ولكنها أبت أن تفصح عن ارتياحها ، وقالت فى استحياء :

— ان الحياة الأجنبية تصقل الانسان رغم أنفه ، وأنا أدرس كما ألهو ! أما بخصوص الإيليوجين هذا ، فهو نوع رخيص من التل ، والتزين به لا يكلف شيئا ، ومن عادتى أن أستغل مواردى المتواضعة الفقيرة أحسن استغلال •

وندمت آمى على كلماتها الأخيرة ، خشية أن تكون مجافية للذوق السليم ، ولكن لورى أعجب بها جدا ، ووجد نفسه يقدر ويحترم الشجاعة والصبر فى سبيل الحصول على الفرصة ، ويجل روح المرح التى تكسو الفقر بغلالة من الزهور • ولم تفهم آمى سر نظرته العامرة بالعطف ، أو لماذا ملأ برنامج رقصاتها باسمه ، وكرس لها وقته ما تبقى من السهرة • ولكن الدافع لهذا التغيير الطيب ، كان نتيجة لأفكار جديدة ، من تلك الأفكار التى تطوف أحيانا برأس أحدنا ، فيتلقاها الآخر دون أن يشعر •

الفصـــل الثامن والثلاثون

على الــرف

فى فرنسا ، تقضى الفتيات وقتهن فى ملل وسـأم حتى يتزوجن ، وإذ ذاك يتخـذن مثلهن الأعلى من كلمـة « تحيا الحـرية » ! أما فى أمريكا فالفتيات يأخذن بالحرية فى سن مبكرة ، ويستمتعن بحرياتهن فى حماسة جمهورية ، فاذا تزوجن وأصبحن أمهات ، يتنازلون عن عروشهن لأول ولى للعهد يرزقن به ، ويعيشن فى عزلة تشبه الأديرة الفرنسية ، وان كانت أقل منهـا هدوءا • وســواء رضين أم كرهن ، فالواقع أنهن يوضعن على الرف حالما تنتهى مراسم الزواج وما يصاحبها من بهجـة الزفاف • وقد تقول كثيرات منهن فى دهشة ، ما قالته سيدة جميلة ذات يوم : « انى مازلت جميلة كما كنت ، واكن أحدا لا يعيرنى التفاتا لأنى متزوجة » •

ورغم أن ميج لم تكن يوما مشهورة بالجمال أو بالأناقة ، إلا أنها لم تشعر بأنها وضعت على الرف ، إلا بعد أن بلغ طفلاها العام الأول من عمرهمـا ، وذلك لأنهـا كانت تعيش فى عالمها الصغير العامر بالبساطة والعادات القديمة ، وكانت تشعر بأنها محبوبة مقدرة أكثر من أى وقت مضى •

ولمـا كانت شابة مليئة بالأنوثة ، فقد ذهبت غريزة الأمومة فيهـا الى أقصى حـد : وحملتها على الانصراف كلية الى العنـاية بطفليها ، وشغلتها بأمرهما عن كل شىء وكل انســان • وأمضت أيامها ولياليهـا تفكر فيهما بحب أنساها واجبها نحـو جـون ، فتركته لرحمة الخـادمة

الايرلندية الشفيقة ، التى عهد اليها بشئون الطهى بعد مولد الطفلين • ولما كان جون يحب الحياة العائلية بطبعه ، فقد افتقد الرعاية التى اعتادها من زوجته ، ولكنه رضى أن يتخلى عن راحته اكراما لطفليه ، مؤمنا — بجهله الرجالى — أن السلام لن يلبث حتى يعود الى البيت • ولكن أشهرا ثلاثة مضت ولم يعد السلام المرتقب الى البيت ، وكانت ميج خلال هذه المدة مرهقة عصبية المزاج ، تكرس وقتها كله لأولادها ، وتترك تدبير شئون البيت لكيتى الطاهية • ولم تكن كيتى ممن يتحمسن فى أداء العمل ، فأخذت الأمور على عواهنها ، واختارت أن تتقدم لعميد الأسرة أبسط الطعام وأتفهه ، فكان يخرج من البيت كل صباح وقد اختلطت عليه الأوامر والطلبات الصغيرة التى قدمتها « ماما » الحبيسة مع طفليها ، فاذا عاد فى المساء مشتاقا الى قبلة الترحيب من أسرته ، بادرته زوجته بكلمة « هش ! لقد ناما لتوهما بعد عناد طول اليوم » • واذا اقترح نوعا من التسلية صاحت به : « لا ، فهذا يقلق الطفلين » • واذا ألح لها يوما بالخروج معه لسماع محاضرة أو حضور حفلة موسيقية ، أجابت وفى عينيها لوم وعتاب : « أيليق بنا أن نترك الطفلين وحدهما من أجل مسراتنا ؟ » • واضطرب نوم جون : تارة بسبب صراخ الطفلين بالليل ، وتارة أخرى لحركة ميج وهى تتسلل كالشبح فى الظلام لتطمئن عليهما كل ساعة ، أما وجبات الطعام فلم تعد لها لذة لكثرة ما تعودت ربة البيت أن تنصرف عن المائدة قبل أن تتم نصف طعامها اذا سمعت صيحة من عش الصغيرين بالدور العلوى • ولم يعد يهنأ بقراءة صحيفة المساء ؛ لأن مسز بروك ، التى لم تعد تهتم إلا بأخبار البيت وشئونه ، تلاحقه بمتاعبها ، فيختلط المغص الذى أصاب ديمى بقائمة سفن الشحن ، ويتدخل وقوع ديزى على الأرض فى أسعار الأوراق المالية بالبورصة •

وعاش جون المسكين محروما من جميع أسباب راحته ، فقد أخذ الطفلان منه زوجته ، وقلبا بيته كله الى دار للحضانة ، ولاحقته كلمة « هس » التى دأبت ميج على زجره بها كلما جاء من الخارج ، حتى بات يشعر أنه وحش متطفل لا مكان له فى أرض الطفولة المقدسة . وتحمل الأب آلامه صابرا ستة شهور كاملة ، ولكنه لما فقد الأمل فى عودة السكينة ، فعل ما يفعله الآباء المهجورون عادة ، بأن راح يبحث عن الهدوء فى مكان آخر .

كان صديقه سكوت قد تزوج وأقام فى بيت غير بعيد ، وكانت مسز سكوت سيدة مرحة حسناء لا يشغلها أمر عن أن تكون بشوشة لطيفة المعشر ، ولذلك كانت حجرة استقبالها مشرقة جذابة ، ورقعة الشطرنج دائما على استعداد ، والمعزف يردد أجمل الأنغام ، والحديث المسلى البهيج يدور بمهارة ولباقة ، والعشاء البسيط مجهز فى أناقة تغرى بالاقبال عليه .

وكان جون يفضل الجلوس الى نيران مدفأته ، ولكن غرفة جلوسه كانت مقفرة لا حياة فيها ، فاستعاض عن فردوسه المفقود بصحبة صديقه وجاره ، واعتاد أن يلجأ اليه كل مساء ساعة أو ساعتين ، حين تخلو غرفة استقباله من الزائرين ، وتنصرف عنه زوجته ميج الى ولديها الصغيرين تنشد لهما مالا نهاية له من الأغانى والأهازيج .

ورضيت ميج بهذا الوضع الجديد فى أول الأمر ، وسرها أن يتسلى جون بصحبة صديقه ، بدل أن يجلس فى غرفة الاستقبال نعسان ، أو يتجول فى أرجاء البيت فيوقظ الصغيرين بوقع خطواته . ولكن ما ان انقضت فترة التسنين المتعبة ، وتعود الالهان الصغيران أن يناما فى أوقات منتظمة ، حتى بدأت ميج تحس بغياب جون وتفتقده ، وأصبحت سلة

التطريز تثقل عليها عندما لا تجد زوجها يجلس بجانبها كعادته القديمة ، وقد أسند قدميه الى حاجز المدفأة فى استرخاء ودعة • وغاب عنها أنها أهملت شأنه ليالى لا تعد ، فثارت كبرياؤها لاهماله شأنها ، ولكنها كتمت عواطفها ولم تطلب منه أن يبقى معها • وأجهدها السهر والفكر والهم ، فتهدمت أعصابها ، ووصلت الى تلك الحالة الثائرة السيئة التى تعترى الأمهات أحيانا ، عندما يهدهن الارهاق فيضقن بشئون البيت ومشاكله ، وتفقدهن الحاجة الى الرياضة مرحهن وبشاشتهن ، ويجعلهن الافراط فى شرب الشاى — وهو شراب الأمريكيات المفضل — يشعرن كأنهن كتلة من الأعصاب بلا شحم ولا لحم •

وكانت تنظر الى وجهها فى المرآة وتقول :

— لقد أصبحت عجوزا شمطاء ، ولم يعد جون يجد فىّ ما يسليه ويسره ، ولذلك تحول عنى بعد أن ذبلت الى زوجة جاره الجميلة المرحة •• ولكن طفلىّ يحباننى ولا ينفرهما منى نحولى واصفرارى ، ولا يعنيهما أن جعدت شعرى أو أرسلته مهملا • انهما عزائى وسلوتى ، وسيعرف جون فى يوم من الأيام كيف ضحيت بشبابى راضية من أجل ولدى ••• أليس كذلك يا صغيرىّ العزيزين ؟

وتجيب ديزى على نداء أمها العاطفى بمناغاة بريئة ، ويرد ديمى بصيحة عالية ، فتشغل ميج مؤقتا عن همومها ، وتنسيها لذة الأمومة لواعج وحدتها • ولكن هذه الهموم لا تلبث أن تعود حين ينغمس جون فى قراءة الأخبار السياسية ثم يسارع الى بيت سكوت يناقشه فى تطوراتها الهامة ، غير مدرك كم تحتاج زوجته الى صحبته ولا تجدها • ومع ذلك أصرت ميج على الصمت ، ولم تشأ أن تلفت نظره بكلمة ، حتى

وجدتها أمها ذات يوم دامعــة العينين ، فألحت فى معرفة سر بكائهــا ، فان تدهور حالة ميج المعنوية لم يفت نظرها الثاقب •

قالت ميج وهى تجفف دموعها فى ميدعة ديزى :

ــ لن أبوح لغيرك بما أعانيه يا أماه • والواقع أنى فى حاجة الى نصيحتك ، لأنه خير لى أن أترمل اذا استمر جو على حاله هذه •

سألتها أمها فى قلق :

ــ وما هى هذه الحال يا عزيزتى ؟

قالت :

ــ انه يغيب عن البيت طول النهار ، فاذا حل المساء وشعرت بشوق لرؤيته وصحبته ، تركنى الى بيت سكوت • ليس من العدل أن أتحمــل متاعب البيت كلها ، وأحرم فى الوقت نفسه من أسباب التسلية • ان الرجال ــ بلا استثناء ــ أنانيون لا يحبون إلا أنفسهم •

قالت الأم :

ــ شأنهم فى ذلك شأن النســاء ، لا تلومى جون قبــل أن تعرفى مواطن الخطأ من نفسك •

قالت :

ــ ولكن لا حق له فى أن يهملنى هكذا !

قالت الأم :

ــ ألم تبدئى أنت بالاهمال ؟

قالت ميج :

— ماذا تقولين يا أماه ؟ ظننتك فى جانبى ؟

قالت الأم :

— أنا فى جانبك من حيث عطفى عليك ، ولكنى أعتقد أنهـا غلطتك يا ميج •

قالت :

— وكيف ؟

قالت :

— سأريك كيف كان ذلك • هل أهملك جون مرة واحدة ، عنـدما كنت تعطينه من صحبتك ما يريد فى أمسياته ، وقت راحته الوحيدة ؟

قالت :

— أبدا • ولكنى لا أستطيع الآن ذلك وورائى طفلان أعنى بهما •

قالت الأم :

— بل تستطيعين يا عزيزتى ، وواجبك يحتم عليك ذلك • سأكون صريحة معك ، واذكرى أن لائمتك هى أمك التى تعطف عليك •

قالت ميج :

— طبعا يا أماه ، كلمينى كما لو كنت ميج الصغيرة ، فانى فى حاجة الى مزيد من المعرفة منذ جاء الطفلان ، وازدادت مسئوليتى نحوهما •

وسحبت ميج مقعدا منخفضا الى جانب أمها ، وجلست الاثنتـان تتحدثان طويلا ، وكل منهما تهـز على حجرها طفـلا صغيرا ، وأحست الابنة أن رباط الأمومة لم يكن يوما ما أقوى منه فى هذه الجلسة •

قالت الأم :

ــ لقد وقعت فيما يقع فيه معظم الزوجات الصغيرات : آنســاك حبك لطفليك واجبك نحو زوجك ، وهــذا خطـأ طبيعى جــدير بالصفح يا ميج ، ولكنه خطـأ يجب أن يعالج قبل أن يستفحل أمره ، فالأطفــال يجب أن يزيدوا الحب ويقووا الرابطة ، ولا يصح أن يكونوا سبباً فى الخلاف والفرقة . انك تتصرفين كما لو كان الطفــلان منكا لك ، وليس لجون الا أن يعولهما وينفق عليهما . لقد رأيت الأمور تجرى فى هــذا الطريق منذ أسابيع ، ولكنى لزمت الصمت راجية أن تنصلح الحال فى الوقت المناسب .

قالت ميج :

ــ أخشى ألا تنصلح ، وأخاف أن أطلب صحبته فيظن بى غيرة عليه وهى اهانة لا أحب أن تصدر منى . انه لا يرى مــدى حاجتى اليــه ، ولست أعرف كيف أخبره بذلك دون أن أتكلم .

قالت الأم :

ــ اجعلى الحياة فى البيت بهيجة سارة فلا يخرج يا عزيزتى .. انه يتوق الى الحياة العائلية التى لا تستقيم بغير وجودك ، فكيف تتأتى لــه بغيته وأنت مقيمة فى غرفة الطفلين لا تبرحينها إلا لماما ؟

فقالت ميج :

ــ ألا ينبغى أن أبقى فيها ؟

قالت :

ــ ليس كل الوقت ، فطول بقائك فيها يحطم أعصابك ويجعلك عديمة

الفائدة ، فضلا عن أن واجبك نحو جون يعادل واجبك نحـو الطفلين • لا تهملى زوجك من أجلهما ، ولا تبعديه عن غرفتهمـا ••• علميـه كيف يعاونك ، فمكانه فيها مكانك سواء بسواء ، والأطفال فى حاجة إليكما معا • أشعريه بأن له نصيبا يقوم به ، ولن يتوانى عن أدائه مخلصا مسرورا ، وبذلك يتحقق لكما الخير كل الخير •

قالت :

ـ أهذا ما تظنين حقًا يا أماه ؟

قالت :

ـ بل أنا على يقين يا ميج ، واعلمى أنى لا أنصح على غير أسـاس عملى • لقد مررت بهذه التجربة من قبل ، فعندما كنت أنت وجو صغيرتين ، أحسست أنى لن أؤدى واجبى نحوكما ما لم أنقطع لكما تمام الانقطاع • وفعلت ذلك دون تردد ، ورفضت المعونة التى قدمها أبوكما لى ، فانصرف المسكين وتركنى أقوم بتجربتى وحدى ••• وجاهـدت قـدر طاقتى ، ولكن جو كانت أكثر مما أحتمل ، فكدت أفسـدها بكثرة التدليل ، وكنت أنت ضعيفة عليلة فأقلقنى أمرك حتى أصابنى المرض • وعندئذ تقـدم أبوك لإنقاذك فى هدوء وسكينة ، وأعاد الأمور الى مجاريها ، فأدركت مدى المعونة التى يستطيع أن يقدمها لى ، ومنذ ذاك اليوم لا أسير خطـوة بدونه ، وهذا سر سعادتنا العائلية • إنه لا يدع عمله يصرفه عن تحمل متاعبنا الصغيرة ، ولا يسمح لأمر من الأمور أن يلهيه عن مشـاركتنا فى الواجبات التى تتصل بحياتنا الجماعية ، وأنا بدورى لا أترك مشاغل البيت تصرفنى عن الاهتمام بأعماله • كل منا يؤدى واجبه منفـردا فى معظم الأعمال ، ولكننا فى البيت نعمل دائما يدا واحدة •

قالت ميج :

ــ صدقت يا أماه ، وليتنى أكون لزوجى وأولادى ، كما كنت لزوجك وأولادك ••• أرشدينى الى الطريق يا أماه ، وسأعمل برأيك دون تردد •

قالت الأم :

ــعهدى بك دائما مطيعة ، فاستمعى جيدا لنصيحتى • لــو كنت مكانك ماتوانيت عن إعطاء جون أكبر نصيب فى رعايــة ديمى ، فالصبى يحتاج الى تنشئة خاصة يصح أن تبدأ من الآن • وإذا شئت نفذنا ما سبق أن اقترحته عليك من إرسال حنة لمساعدتك •• إنها مربية ممتازة ، وليس أحب إليها من رعاية الصغيرين ، فاعهــدى بهما إليهــا ، والتفتى أنت لأعمال البيت ، وبذلك تجدين متسعا من الوقت للرياضة ، ويستعيد جون صحبة زوجته ورعايتهــا ، اخرجى معــه كثيرا ، واستردى ابتسامتك ، واشغلى وقتك بالعمل ، فأنت شمس البيت المشرقة إن خبت تعكر الجو وذهب الصفاء •• اهتمى بما يهتم به جون ، واسعدى لمــا يسعده •• حادثيه وكلميه ودعيه يقرأ لك ويبادلك الآراء والأفكار • عاونيه واطلبى معونته •• لا تغلقى دونك أبواب المعرفة ، ولا تعتزلى الحياة العامة لأنك امرأة •• تتبعى ما يدور حولك من الأحداث العالمية ، فإن لهذا كله أثره فيك وفيمن حــولك •

قالت ميج :

ــ إن جون رجل غزير المعرفة ، وأخشى أن يظننى غبية إذا سألته فى أمور السياسة وغيرها •

قالت :

ــ لن يظن بك الغباء ، فهو يحبك ، والحب أعمى عن العيــون ،

ثم ، من تسألين غير زوجك •• ؟ جربى نصيحتى وسيسعد بصحبتك أكثر من سهرات مسز سكوت •

قالت :

ــ سأفعل ذلك كله •• مسكين جون ، لقد أهملتــه بالفعل إهمالا ذريعا ، ولكنى كنت أعتقد بصواب ما أفعل ، ولم يشأ هو من جانبه أن يرشدنى •

قالت الأم :

ــ لقد حاول أن ينكر ذاته أمامك ، ولكنه شعر أخيرا بأنه أصبح كمًا مهملا • إن هذا الوقت هو الذى يشعر الزوجان بدواعى الفرقــة يا ميج ، وهو أصلح وقت لاتحادهما قلبــا وقالبا • فالنشــوة الأولى لا تلبث أن تخمد ، ما لم يبذل الطرفان عناية خاصة فى المحافظة عليها • وليس أجمل ولا أعز على الأبوين من تلك السنوات الأولى التى يهبهما الله فيها أطفالا يربيانهم وينشئانهم • لا تجعلى جون يحس بأنه غريب على الطفلين ، ففيهما ما يسعده ويقيه شتى أسباب الفتنــة والغوايــة وسيعلمكما الطفلان كيف تعرفان بعضكما بعضا وكيف تتحابان • والآن وداعا يا عزيزتى ، فكرى فى نصيحتى ، واعملى بها إن رأيت فيها خيرا لك ، والله يتولاك برعايته •

وفكرت ميج فى نصيحة أمها ، ووجدتها خير نصيحــة ، فشرعت فى تنفيذها ، ولكن المحاولة الأولى لم تتم كما كانت تشتهى : فقد أمعن الطفلان ــ بالطبع ــ فى استبدادهما دون شفقة ، وسيطرا على البيت بصراخهما وعويلهما ، وأصبحت « ماما »أمة لنزواتهما • ولكن « بابا » لم يكن من السهل إخضاعه • وأحيانا ما كان فؤاد زوجته يتعذب حــين

يقوم بمحاولة فى ترويض ابنه على بعض الطاعة والنظام ، إذ كان ديمى مثل أبيه فى صلابة الرأى — ولا نقول العناد — إذا اعتزم أن يفعل أمرا أو يأخذ شيئا ، لا يمكن لقوة أن تثنيه عن عزمه • وكانت ميج تعتقد أن الصغير العزيز لم يبلغ سن التوجيه بعد ، ولكن جون كان يرى عكس ذلك فبدأ يأخذه بأسباب النظام ويعوده الطاعة • وفهم دميى من البداية أنه الخاسر فى كل معركة يخوضها مع « بابا » • ولكنه كان — كأى إنجليزى — يحترم الرجل الذى يهزمه ، لذلك أحب الولد أباه ، وعندما كان يقــول له « لا » بلهجته الرزينة الجادة ، تفعل فيه هذه الكلمة أضعاف ما يفعله تدليل أمه الصادر عن حب عميق •

وبعد أيام من الحديث الذى دار بين ميج وأمها ، قررت الشابة أن تجرب قضاء سهرة مع جون ، فأمرت بإعداد عشاء شهى ، وزينت قاعة الاستقبال مبكرة ، ثم ارتدت أحسن ثيابها ، وتأنقت فى زينتها ، ثم وضعت الطفلين فى فراشهما مبكرين ، حتى لا يعكرا صفو تجربتها المقبلة • ولكن ، يشاء سوء الحظ أن تتملك ديمى إحدى نزواته المعهودة ، فيمضى فى عبثه ويأبى أن يذهب الى فراشه مبكرا • وعبثا حاولت ميج أن تسلس قياده : غنت له ، وأرجحت سريره ، وروت له قصصا مسلية ، وجربت كل شىء يغريه بالنوم ، ولكن الشيطان ديمى أبى أن ينام ، وظلت عيناه الواسعتان تحملقان فى الأنوار ، وعلى سيماه ما يدل على منتهى اليقظة ، أما ديزى فقد أسلمت جفنيها للنعاس على عادتها الوديعة الطيبة •

فقالت له ميج حين سمعت باب الردهة يقفل فى هدوء ، وخطوات زوجها تتجه بخفة الى غرفة الطعام •

— ألا ينام ديمى كالولد الطيب ، حتى تعد ماما الشاى لبابا المسكين ؟
أجاب الطفل ، وهو يستعد للاشتراك فى الحادث البهيج :

ــ وأنا أشرب شايا !

قالت :

ــ لا ... ولكن إذا نمت كأختك ديزى ، أحتفظ لك ببعض الحلوى تأكلها فى الصباح ، نم يا حبيبى نم .. !

قال :

ــ حاضر ..

وأغمض عينيه بشدة ، كمن يتعجل النوم فى لقاء الصباح الموعود ، فانتهزت ميج هذه الفرصة ، وتسللت خارجة من الغرفة بسرعة لتحيى زوجها بوجه باش . وكانت قد ربطت شعرها بشريط أزرق على الطريقة التى تعجبه ، فلما رأى جون ذلك ، قال فى سرور يمتزج بالدهشة :

ــ لم كل هذا أيتها الصغيرة ؟ أتنتظرين ضيوفا ، أم تحتفلين بعيد ميلاد ، أم هى مناسبة سعيدة لا أعلم بها ؟

قالت :

ــ لا هذا ولا ذاك ، ولكنى سئمت إهمالى زينتى ، فقررت أن أتجمل على سبيل التغيير . إنك تحرص دائما على أناقتك مهما كنت متعبا ، فلم لا أحذو حذوك إذا سمح الوقت ؟

قال الوزج ذو الآراء التقليدية :

ــ إنى أفعل ذلك احتراما لك يا عزيزتى .

قالت ضاحكة ، وقد استردت شبابها وجمالها ، وجلست تشاركه فى احتساء الشاى :

ــ وأنا مثلك يا مستر بروك •

قال :

ــ أمر جميل يذكرنى بأيامنــا الأولى •• إن طعم الشــاى لذيذ ، فلنشرب نخب صحتك يا عزيزتى •

ورفع جون فنجانه يرشف الشاى فى نشوة من الرضا والسرور ، ولكن هذه النشوة لم تدم إلا فترة قصيرة ، إذ ما كاد يضــع الفنجان جانبا ، حتى تحركت أكرة الباب بهدوء ، وسمع صوت ديمى يقــول فى ضيق :

ــ افتحوا الباب •• أنا قادم ••

فقالت ميج ترد النداء :

ــ إنه ذلك الولد الشيطان ، لقد أمرته أن ينام وحده ، ولكن هاهوذا يأتى حافى القدمين على الأرض الباردة •

وأقبل ديمى فى جلباب نومه الطويل المطرز ، وراح يقفز حول المائدة فتهتز خصلات شعره طربا وسرورا ، ثم قال وعيناه زائغتان بين صحون الحلوى الموضوعة فوق المائدة :

ــ نحن الآن فى الصباح ؟ !

قال الأب :

ــ لا ، الصبح لم يأت بعد ، وما زلنا بالليل ، فيجب أن تعود الى فراشك وتنام حتى لا تتعب ماما ، وبعد ذلك تأخــذ نصيبك من هــذه الحلوى •

فقال الطفل اللبق ، وهـو يشرع فى الجلوس على ركبتى أبيـه استعدادا للاشتراك فى الوليمة :

ـ أنا أحب بابا ..

ولكن جون هز رأسه وقال لميج :

ـ ما دمت أمرته بالنوم وحده ، فعليك أن تحمليه على التنفيذ ، وإلا عصاك دائما .

قالت :

ـ نعم ، بالطبع .. تعال يا ديمى .

وخرجت بالصغير من الغرفة ، ونفسها تراودها بضرب هذا الشيطان الذى يطمع فى رشوة بمجرد وصوله الى فراشه ، ولم تخيب ميج أمله هذا ، فما إن وصلت به الى غرفته ، حتى أغراها قصر نظرها بمنحـه الرشوة التى يتوق إليها ، فأعطته قطعة من السـكر ، ثم أدخلتـه فى فراشه ، وأمرته أن ينام حتى الصباح .

وقال ديمى : « نعم » ، وهو يمص السكر مزهوا بانتصاره فى أول جولة .

وعادت ميج الى مكانها ، واستؤنف العشاء فى سرور ، ولكن سرعان ما ظهر الشبح الصغير يدب على الأرض مرة ثانية ، وكشف عن خطـأ أمه حين طلب بجسارة قائلا :

ـ أريد قطعة أخرى من السكر يا ماما ..

قال جون فى حزم وجد :

ـ هذه طريقة مضرة ، ولن نعرف السلام أبدا حتى يتعلم هـذا الطفل كيف يذهب الى فراشه بانتظام • لقد استعبدك وقتا طـويلا ، فأعطيه درسا واحدا يضع حدًا لكل هذا العبث • ضعيه فى فراشه واتركيه يا ميج •

قالت :

ـ إنه لن يبقى فى سريره إلا إذا جلست معه •

قال :

ـ إذا دعينى أتولّ الأمر بنفسى ، ديمى •• هيـا الى غرفتك ، واصعد الى سريرك كما أمرتك ماما •

وأجاب الطفل المتمرد ، وقد مد يده الى الكعكة التى اشتهاها ، وبدأ يقضم فيها فى تحد وهدوء •

ـ لا •• لن أصعد !

فقال الأب :

ـ لا تقل هذا الكلام لبابا • وإذا لم تصعد الى سريرك بنفسك ، حملتك إليه رغم أنفك •

وتعلق ديمى بذيل أمه يحتمى بها وقال :

ـ اذهب أنت •• أنا لا أحب بابا •

ولكن احتماءه بأمه لم يجده نفعا ، فقد تخلت عنه لأبيه وهى تقول :

ـ كن رفيقا به يا جون •

وأثارت كلماتها سخط المذنب ، إذ كان يعلم أن تنكر أمه له ، يعنى اقتراب ساعة الحساب ، وفار مرجل غضبه إزاء حرمانه من كعكته وعودته الى الفراش عنوة ، وراح يصرخ بأعلى صوته ويرفس برجليه وهــو يصعد الى غرفته • وما إن وضعه أبوه على أحد جنبيه ، حتى انقلب على جنبه الآخر ، ونزل يجرى نحو الباب ، ولكن جون جره الى الفراش بيد قوية • وتكررت هذه التمثيلية حتى أنهكت قوى الرجل الصغير ، فاكتفى بالنحيب والصراخ والعويل • وفعلت هذه الجهود الصوتية فعلها فى ميج ، فراحت تتألم من أجل ابنها ، ولكن جون جلس بجواره ثابتا حازما : لا يربت على رأسه ، ولا يرشوه بالسكر ، ولا يغنى له أهازيج النوم ، ولا يقص عليه قصصا ! وحتى النور أطفأه • وكان وهج نيران المدفأة الأحمر يضىء فى الظلام ، فجعل ديمى ينظر إليه بدافع من حب الاستطلاع لا الخوف • وأثارت الأوامر الجديدة سخطه ، وحن الطاغية الصغير الى لين أمه ، فصاح محزونا يستغيث بها فى صوت ضعيف أنهكه الصراخ • وأثار نداؤه عطفها عليه ، فصعدت تجرى الى حجرة النوم ، وقالت لزوجهــا فى ضراعة :

ــ دعنى أمكث معه ، وسيهدأ حالا يا جون •

قال :

ــ لا يا عزيزتى ، لقد أمرته بالنوم ، فلا بد أن ينام ولو اضطررت الى قضاء الليل كله معه •

قالت تدافع عن الصغير ، وتؤنب نفسها لأنها هجرته :

ــ ولكنه سيبكى حتى يمرض •

قال :

ـ لن يمرضه البكاء ، ولقد بلغ به التعب أقصاه ، وسيغلبه النوم وتنتهى المسألة . لابد أن أعلمه الطاعة ، فأرجوك ألا تتدخلى ، ودعينى أعالج أمره بنفسى .

قالت :

ـ إنه طفلى ، ولن أدعك تحطم نفسيته بهذه القسوة .

قال فى جد وحزم :

ـ وهو طفلى أيضا ، ولا أحب أن تفسدى خلقه بهذا التدليل . انزلى الى البهو يا عزيزتى ودعيه لى .

وكان من عادة ميج أن تطيع زوجها عندما يتكلم بهذه اللهجة ، ولم يحدث مرة أن ندمت على طاعتها ، فقالت :

ـ دعنى أقبله مرة واحدة يا جون .

قال :

ـ بالتأكيد . قل لماما « ليلة سعيدة » يا ديمى ، ودعها تذهب لتستريح فقد أتعبتها رعايتك طول النهار .

وكانت ميج تظن أن القبلة أقوى سلاح للنصر ، لذلك قبلته وانصرفت ، فانهمك ديمى فى نشيج هادىء ، هدأ بعده فى ركن السرير الذى عبث غضبه بنظامه .

وبعد لحظات هادئة ، ظن جون أن النوم غلب ابنه الصغير ، فاقترب من الفراش وهو يقول فى نفسه :

— يا للرجل الصغير المسكين ! لقد أنهكه البكاء ، فلأدثره بالغطاء ، ثم أهبط الى ميج وأطمئنها •

وما إن نظر الأب يستطلع حال الصغير ، حتى فتح ديمى عينيه ، وارتجف ذقنه ومد ذراعه قائلا وهو يشهق نادما •

— أصبحت ولدا طيبا ••

وعجبت ميج ، وهى تجلس على درجات السلم خارج الحجرة ، للصمت الطويل الذى أعقب الضجة الصاخبة • وبعد أن سرح بها الخيال فى عالم من التكهنات ، تسللت الى الغرفة لتهدىء مخاوفها ، فوجدت ديمى مستغرقا فى النوم ، وقد أمسك بإصبع أبيه ، وطوقه بذراعه ، كأنما أدرك أن الرحمة عماد العدل ، فنام أكثر تعقلا وإن كان أشد حزنـا • وترك جون إصبعه فى قبضة الصغير صابرا ، حتى تراخت هذه القبضة ، فرقد بجواره ، وقد أضناه جهده مع ابنه أضعاف ما أضناه العمل طول اليوم •

ووقفت ميج ترتب الـوجهين النائمين على الوسادة ، وقالت وهى تخرج من الغرفة راضية باسمة :

— لا خوف أن أترك ديمى لجون ، فهو يعرف كيف يسلس قياده ، وسيكون عونا كبيرا لى على متاعب الصغير ونزواته •

وحين نزل جون أخيرا ، وهو يتوقع أن تقابله زوجته غاضبة مهمومة ، أدهشه أن يجدها تطرز قلنسوة جديدة بهدوء ملحوظ ، وكانت تحيتها له رجاء بأن يقرأ لها أخبـار الانتخابات إذا لم يكن متعبا • وأحس جون بأن هناك انقلابا لا يدرك سره ، ولعلمه بأن ميج صريحة لا تكتم سرًا ،

فقد اختار عن حكمة ألا يستفسرها سر هذا الانقلاب ، واثقا بأنها لن تستطيع كتمانه طويلا • وراح يقرأ لها مقالا طويلا ، ويفسر لها ما جاء فيه بأسلوب مشوق جذاب • وأبدت ميج اهتماما شديدا بالحديث ، فراحت توجه إليه أسئلة بارعة ، وهى تركز فكرها فيما يقول حتى لا يشرد من مشاكل الدولة الى مشاكل القلنسوة التى تطرزها • وعلى الرغم من هذا المجهود الفكرى ، كانت تؤمن فى قرارة نفسها بأن السياسة معقدة كالرياضيات ، وأن رسالة السياسيين تنحصر فى تبادل الشتائم والسباب ، ولكنها احتفظت بآرائها النسوية لنفسها • وحين توقف جون عن القراءة ، هزت رأسها فى أسلوب دبلوماسى مبهم ، وقالت :

— حسنا ، لست أدرى فى الواقع الى أى طريق نسير •

وضحك جون ، وأخذ ينظر إليها لحظة وهى تستعرض على يدها بعض الدنتلا والزهور لتزين بها القبعة ، وتبدى من الاهتمام بها أضعاف ما أبدته فيما شرحه لها من أمور السياسة ، فقال يحدث نفسه :

— إنما تحاول أن تستسيغ السياسة من أجلى ، فلأحاول من أجلها أن أستسيغ شئون الحياكة والتطريز •

ثم رفع صوته وهو يقول :

— إنها تحفة جميلة ، أهذه ما تسمينها قلنسوة الصباح ؟

قالت :

— ليست هذه قلنسوة يا رجلى العزيز ، بل قبعة ، وستكون أجمل ما أرتديه فى المسارح والحفلات الموسيقية •

قال :

— أستميحك عذرا !! رأيتها صغيرة جدا ، فأخطأت وظننتها من

تلك الأشياء الهفهافة التى تلبسينها أحيانا . خبرينى كيف تثبتينها على رأسك ؟ .

قالت ، وهى تشرح كلماتها عليها ، وعلى سيماها تعبير لا يقاوم من الرضا والهدوء :

ــ قطع الدنتلا هذه تربط تحت الذقن ، وتزين الربطة بوردة ، هكذا ...

قال وهو يطبع على الوجه الباسم قبلة ، ربما أفسدت الوجه الوردة التى تزين أسفل الذقن :

ــ إنها قطعة فنية رائعة ، ولكنى أفضل عليها الوجه الذى بداخلها ، بعد أن استرد فتوته وسعادته .

قالت :

ــ يسرنى أنها أعجبتك ، وأريد منك آن تصحبنى ذات ليلة الى إحدى الحفلات الموسيقية ، فقد اشتقت الى الموسيقى ، وأحب أن أسترد بها انسجامى .. أتسمح من فضلك ؟

قال :

ــ يسرنى أن أصحبك الى أى مكان تحبين ، فقد طال بك الحبس ، والخروج يفيدك الى أقصى حد : وسأجد فى رفقتك غاية المتعة ، ولكن ، خبرينى ، من الذى وجهك الى هذا التفكير الجديد أيتها الأم الصغيرة ؟

قالت :

ــ لقد تحدثت مع أمى منذ أيام ، وشرحت لها ما أعانيه من ملل

وضيق وثورة أعصاب ، فنصحتني أن أقلل من انغماسي في هموم الأسرة وأعبائها ، واتفقنا أن تقوم جنة برعاية الطفلين ، وأعنى أنا بشئون المنزل ، وبذلك يتيسر لي فسحة من الوقت أقضيها في ترفيه يعالج اضطرابي ، ويقيني شر التحطم قبل الأوان . إنها محاولة أحب أن أقوم بها من أجلك ومن أجلي في الوقت نفسه ، وسأعيد البيت جنة كما كان . لقد طال إهمالي لشأنك ، وأملي ألا يكون لديك اعتراض .

ونمر مرور الكرام على ما قال جون ، وكذلك على القبعة التي كادت تنهرس في غمرة العناق ، إذ كل ما يعنينا أنه لم يبد اعتراضا على التغير التدريجي الذي شمل حياته العائلية من مختلف نواحيها .. حقيقة أن البيت لم يتحول الى جنة خالية من العيوب ، ولكن تنظيم العمل وتوزيعه أشاع الراحة والاطمئنان : فقد ترعرع الطفلان تحت رعاية أبيهما ، واستتبت دعائم الطاعة في مملكة الصغار ، واستردت ميج مرحها ، فهدأت أعصابها بالإكثار من الرياضة والإقلال من المسرات الفارغة ، والاستزادة من أحاديث زوجها الودية . وعادت البهجة العائلية الى البيت ، ورغب جون عن الخروج من غير ميج ، أما آل سكوت فقد بدأوا يكثرون من زيارة آل بروك ، ووجد جميعهم في البيت الصغير مكانا بهيجا تغمره السعادة ويظله الرضا والحب . وحتى سالي موفات أقبلت على زيارة ميج وكانت تقول لها : « إن بيتك دائما يسر الخاطر ، ووجودي فيه ينعشني يا ميج » . ثم تنظر حولها كمن تبحث عن مواطن السحر فيه لتقتنيها في بيتها الكبير ، الذي أضاعت الوحشة فخامته وعظمته ، ودبت الوحدة فيه لخلوه من ضجيج الأطفال ، وانصراف ند الى حياة لا مكان لها فيها .

ولم تأت السعادة طفرة واحدة ، ولكن الزوجين وجدا الطريق

إليها ، وجاءتهما السنوات بأساليب جديدة ، يغترفان بها من كنوز الحب العائلى ، ويستعينان بها على تبادل المعونة التى قد يعرف الفقراء السبيل إليها ، ولا يستطيع الأغنياء شراءها بالمال .

إنه النوع الوحيد من الرفوف التى ترضى الزوجات الشابات والأمهات الصغيرات بأن يوضعن عليه ، آمنات من قلق الدنيا ، حيث يجدن فى حب أولادهن وطاعتهم حمىً من أحزان الفقر ومتاعب الشيخوخة ، ويتمتعن فى رفقة أزواجهن بوفاء الحارس الأمين ، الشريك المخلص فى السراء والضراء .

إن الأولاد زينة الحياة ، والزوج الطيب على حد قول الإنجليز « رباط العائلة » ، وعندما تتوافر هاتان النعمتان لامرأة ، يتبين لها — كما تبين لميج — أن البيت أسعد مملكة لها ، وما من شرف يعدل حكمها لها ، لا كملكة متوجة ، بل كزوجة عاقلة وأم ذكية حنون .

الفصل التاسع والثلاثون

لورنس الكســلان

عندما ذهب لورى الى نيس ، كان ينوى الإقامة فيها أسبوعا واحدا ، ولكنه مكث شهرا ، إذ كان قد مل السفر والترحال ، فوجد فى صحبة آمى ما أسبغ على المناظر الأجنبية المحيطة به سـحرا من الوطن • وكان فى الواقع يتوق الى التدليل الذى حرمه طويلا ، فعاد يغترف منـه مـرة ثانية ، قانعا به عن كل تدليل سواه ، فلم تكن رعاية الأغراب ومجاملتهم له تعادل بعض ما يحس به من سعادة للإعجاب الأخوى ، الذى تغدقه عليه بنات مارش فى البيت • ولم يكن من عادة آمى أن تدلله كأخواتها ، ولكنها فرحت بلقائه ، واعتبرته مندوبا عن أسرتها التى جاوز شـوقها إليها حد التصريح ، فتعلقت به سعيدة ، وصحبته فى روحاته وغدواته •• وكانا يركبان معا ، ويسيران معا ، ويرقصان معا ، ويثرثران معا ، وهو كل ما يستطيع الإنسان أن يفعله خلال الموسم السياحى فى مدينة نيس ، ولكن هذا اللهو الظاهر كان يبطن أمرا آخر ، ففى غمرة الفراغ والدعة ، بدأ كل منهما يكتشف نواحى جديدة فى صاحبه ، ويكون فكرة عنه • وعلى مضى الأيام ازدادات آمى تقديرا لصديقها ، وازداد هو حبًا لها ، وأدركا الحقيقة فى نفسيهما قبل أن يبوح أحدهما بكلمة للآخـر • وكانت آمى معترفة بجميل ما قدمه لها من أسـباب السرور والتسـلية ، فعملت من جانبها على إسعاده ، وكافأته على حسن صنيعه بتلك الخدمات الصغيرة التى تعرف المرأة ذات الأنوثة الفياضة كيف تضفى عليها سحرا لا يوصف • وكان لورى ينشد النسيان ، ويعتقد أن من حقه على نساء العالم كله أن يسلينه ويلاطفنه ، جزاء ما فعلته إحداهن بعواطفه المتأججة ، لـذلك

ترك الأمور تسير فى مجاريها ، وتحمله كما تشاء . كان كريما بطبعه ، فتمنى لو استطاع أن يقدم لآمى كل ما حوته حوانيت مدينة نيس من أجمل الحلى وأفخرها ، ولكنه كان يعلم تمام العلم أنها لن تقبل شيئا منه ، إن هداياه مهما بلغت ، لن تغير رأيها فيه . ولم يكن رأيها فيه مشجعا ، بدليل ما يلمسه فى نظراتها من المعانى التى اختلط فيها الأسى بالاستخفاف والدهشة ، وقد ردته هذه النظرات عنها بعض الـرد ، وملأت قلبـه بالخشوع والرهبة .

وذات يوم أقبل لورى على عادته ليستريح قبيل الظهر ، فقالت له آمى :

ــ لقد ذهبوا جميعهم لقضاء اليوم فى موناكو ، ولكنى اخترت أن أتخلف لأكتب رسائلى ، وقد انتهيت منها الآن ، وأريـد أن أذهب الى فالروزا لأرسم بعض المناظر ، فهل ترافقنى ؟

قال فى بطء وهو يشعر بالفارق بين حرارة القيلولة فى الخارج وبين الجو الرطيب الذى يغريه بالراحة فى الصالون الظليل :

ــ لا مانع عندى ، ولكن ، ألا ترين أن حرارة الجو لا تشجع على المشى طويلا ؟ !

فقالت وهى تنظر ساخرة الى الفتيات الأنيقات اللواتى كن دائمـا موضع تقدير لورى :

ــ لا تخش المشى ، فسيقود لنا بابتيست العربة الصغيرة ، وما عليك إلا أن ترفع مظلتك ، وتحافظ على جمال قفازك .

قال وهو يمد يده نحو كراسة رسمها ليحملها لها :

ــ إذا سأذهب معك بكل سرور •

ولكنها سحبت الكراسة منه ، ووضعتها تحت إبطها وهى تقول بحدة :

ــ لا •• اتركها لى ، فحملها لا يجهدنى ، ولكنه يرهقك •

ورفع لورى حاجبيه دهشة ، وتبعها فى استرخاء وهى تهبط السلم جريا ، وعندما ركبا العربة ، أمسك بأعنة الجياد ، وترك بابتيست ينعس مرتاحا فى المقعد الخلفى •

ولم يتخاصم الاثنان : فقد كانت آمى آية فى حسن التربية ، وكان لورى فى تلك اللحظة أكسل من أن يبدأ معركة • ولم تمض دقيقة حتى اختلس نظرة متسائلة الى وجهها المختفى تحت إطار قبعتها الواسعة ، فأجابت بابتسامة رشيقة هادئة ، سارا بعدها فى صفاء ومحبة •

وكانت رحلة ممتعة ، انقضت فى طريق متعرج تكتنفه المناظر الطبيعية الخلابة ، التى تنعش النفس بالرضا والحبور : فهنا دير أثرى قديم تتعالى بين أرجائه تراتيل الرهبان ، وهناك على صخرة جانبية يجلس راع عارى الساقين ، يلبس حذاء خشبيًا وقبعة مدببة وسترة خشنة ، ويتسلى بالنفخ فى الناى ، ومن حوله عنزاته تقفز بين الصخور أو ترقد تحت قدميه • وعلى طول الطريق كانت الدواب تجرى محملة بسلال الحشائش الخضراء ، وقد اعتلت السلال بنات صغيرات أو نساء مسنات فى أيديهن مغازل يغزلن بها • وكان الأطفال يخرجون من الأكواخ الحجرية المنتثرة على طول الطريق ، يعرضون على المتنزهين باقات الأزهار والفروع المحملة بالبرتقال الطازج ، وكانت سفوح التلال تكسوها أشجار الزيتون بأوراقها الرمادية ، وأشجار البرتقال بأحمالها الذهبية ، وشقائق النعمان الحمراء تحف بالطريق من جانبيه • ومن وراء هذا كله تنحدر

السفوح الخضراء حول جبال الألب الشامخة التى ترتفع قممها البيضاء ، حتى تكاد تمس سماء إيطاليا الزرقاء •

وكانت غالروزا مكانا جميلا حقًا : جوها الدافىء يجعل مناخهـا صيفا مستديما ، وورودها المتفتحة تتدلى من التكاعيب ، وتطل برؤوسها من بين قضبان أسوار البيوت ، كأنها تحيى القادمين بعبيرها الشذى ، هذا الى أشجار الليمون والنخيل التى تصطف على طول الطريق الموصل الى الفيلا • وفى كل ركن ظليل كانت المقاعد المريحة تغرى بالجلوس ، والورود اليانعة تتكتل فوق كل مرتفع أخضر ، وقد وقف فى وسطها تمثال المرمر لحورية باسمة تحرسها غلالة مزهرة ، وعلى صفحة المياه المحيطة بالنافورات كانت تنعكس صور الورود الحمراء والبيضـاء والصـفراء والوردية ، التى تميل وكأنها تبتسم فرحا بجمالها • وكانت الورود تغطى حوائط الفيلا ، وتمتد فوق « كرانيشها » ، وتتسلق أعمـدتها ، وتلتف حول حواجز شرفاتها الواسعة المطلة على البحر المتوسط ، الذى تسطع على شاطئه الشمس ، وعلى نيس ذات المبانى البيضاء الأنيقة •

ووقفت آمى على الشرفة تستمتع بسحر المناظر وشذى الورود ، ثم سألت لورى قائلة :

ـ أليست هذه الجنة أمتع مكان يقضى فيه شـهر العسل ؟ وهل رأيت مثيلا لهذه الورود ؟

قال وهو يمص إصبعه الذى جرحته شوكة ، بعد أن حاول قطف وردة حمراء بعيدة المنال :

ـ لا •• ولم أرقط مثل هذه الأشواك !

قالت آمى ، وهى تقطف من فروق الجــدار القريب ثلاث وردات صفراء :

— جرب الورود المنخفضة ، واقطف ما ليس به أشواك ٠

وثبتت الورود الثلاث فى عروة سترته عربونا للسلام ، فظل الفتى يتأمل الورود برهة وعلى وجهه تعبير غريب ، فقد كانت الدماء الإيطالية التى تجرى فى عروقه تغريه أحيانا بالتشاؤم وأحيانا بالتفاؤل ، فجاءت هدية آمى ، على ما فيها من مجاملة له ، باعثا لقلقة ، شأن الشباب الذى يغلبه الخيال فيتلمس فى كل شىء تافه معنى يغــذى به خيــاله الخصب كان يفكر فى جو حين حــاول أن يقطف الوردة الحمراء ، لأن الزهــور الزاهية تناسبها ، وكانت تقطفها من حديقته وتتزين بها ٠ وكانت الورود الصفراء التى قدمتها له آمى ، من ذلك النوع الذى يضعه الإيطاليون على قبور الموتى ولا يقدمونه هدية أو يتزينون به فى مناسبة مفرحة ، ولذلك وقف حائرا يسائل نفسه : أهى نذير شؤم له أو لجو ؟ ولكن ثقافتــه الأمريكية لم تلبث أن تغلبت على تطيره ، ففاضت عواطفه ، وأطلق ضحكة عالية مخلصة ، لم تسمعه آمى يضحكها منذ أن التقت به فى نيس ، قالت وهى تظن أن كلامها أضحكه :

— إنها نصيحة مخلصة ، ومن الخير أن تعمل بها رحمة بأصابعك ٠

قال فى مجاملة فاترة :

— أشكرك ، سأعمل بها ٠

ولم يكن يدرى أنه سيتحمس لهذه النصيحة بعد شهور قلائل ٠

وجلست آمى على مقعد خشبى المظهر ، وقالت بعد لحظة :

— متى تعود الى جدك ؟

قال :

— بعد وقت قصير جدًا •

قالت :

— سمعتك تقول ذلك عشرات المرات خلال الأسابيع الثلاثة الماضية •

قال :

— صدقت ، وبمثل هذه الإجابات المختصرة يهرب المرء من المتاعب •

قالت :

— ولكنه ينتظرك ، فينبغى لك حقيقة أن تعود إليه •

قال :

— يالك من مضيفة كريمة ! أعرف أنه ينتظرنى •

قالت :

— ولم لا ترجع إليه ؟

قال :

— إنه عقوق طبيعى على ما أعتقد •

قالت وهى ترميه بنظرة قاسية :

— بل كسل طبيعى ، فيا للخزى !

قال وهو يتمدد راقدا على حافة السور العريض :

— ليس الأمر مخزيا الى هذا الحد ، فلن ينال جدى من عودتى إلا المضايقة والانزعاج ، ورأيى أنك أكثر احتمالا منه ، لذلك أفضل أن أبقى هنا لأزعجك ، وأظنك ترتاحين لذلك كل الارتياح •

وهزت آمى رأسها يائسة ، وفتحت كراسة الرسم فى استسلام ،

ولكنها قررت فيما بينها وبين نفسها أن تلقن « هـذا الصبى » درسا لا ينساه •

قالت بعد لحظة :

ــ ماذا تعمل الآن ؟

قال :

ــ أرقب بعض السحالى !

قالت :

ــ بل كنت أسألك عن العمل الذى تنوى أن تشغل نفسك به •

قال :

ــ سأشغل نفسى بتدخين سيجارة إن سمحت !

قالت :

ــ يالك من رجل مزعج ! إنى لا أحب التدخين ، ولكنى أسمح لك به إذا سمحت لى برسمك فى كراستى ، فإنى فى حاجة الى التمرن على رسم الأشخاص •

قال :

ــ إنك تغمريننى بسرور الدنيا كلها : فكيف تريديننى ؟ صـورة كاملة أم ثلاثة أرباع ؟ أأقف على رأسى أم على قدمى ؟ •• أقترح أن ترسمينى مضطجعا ، وترسمى نفسك بجانبى ، وتسمى اللوحة « الكسل اللذيذ » !

قالت فى حماسة :

ــ ابق كما أنت ، ونم إذا شئت ، فإنى أريد أن أعمل بجد لا أمزح •

قال راضيا وهو يستند الى جرة كبيرة مليئة بالزهر :

ـ هذه حماسة جميلة •

قالت وهى تحاول أن تثير اهتمامه بذكر أختها النشيطة المرحة :

ـ ترى ماذا تقول جو لو رأتك الآن ؟

قال وهو يضحك :

ـ كالعادة « ابعد عنى ياتيدى ، فأنا مشغولة الآن » •

ولكنها كانت ضحكة مفتعلة اكتسى فيها وجهه بظل من الحزن ، فقد مس اسمها العزيز جرحا فى قلبه لم يندمل بعد • وتنبهت آمى الى ما اعتراه وكانت قد لاحظت بعض الأمور من قبل ، ورفعت رأسها نحوه ، وعندئذ لاح لها وجهه عامرا بالجمود والمرارة والألم وعدم الرضا • ولكن هذه الانفعالات لم تلبث أن اختفت قبل أن تدرسها جيدا ، وعاد إليه بشره السابق • فراحت ترقبه وتفحصه من الناحية الفنية ، فرأته أقرب شبها الى الإيطاليين ، وهو يرقد عارى الرأس تحت أشعة الشمس ، وقد تاهت نظراته فى عالم الأحلام ، وأنسته تأملاته وجودها معه •

قالت ، وهى تمضى فى رسم وجهه من الجانب ، وقد أبرز لها الجدار الأسود القاتم من خلفه دقة ملامحه :

ـ إنك تبدو كنحت بارز لفارس صغير ينام على نصب مقبرته •

قال :

ـ ليتنى كنت كذلك !

قالت :

ـ هذه أمنية حمقاء ، ولست أفهم لها معنى إلا إذا كنت قد أفسدت حياتك • إنك تغيرت كثيرا ، وأظن أحيانا •••

وتوقفت ، وقد تجلى فى وجهها من علائم الحيرة والخجل والحزن ما يغنى عن الكلام •

ورأى لورى نظراتها ، وأدرك ما تنطوى عليه من قلق فضح عواطفها التى حرصت على إخفائها طويلا ، فواجهها بصراحة وقال ، كما كان يحدث والدتها :

ــ كل شىء على ما يرام ، يا سيدتى •

ونزل كلامه عليها بردا وسلاما • وانزاحت عنها الشكوك التى كانت تنتابها أخيرا • فقالت له فى تأثر :

ــ إنى سعيدة بذلك ، والواقع أنى لم أظنك سيئا فى يوم من الأيام ، ولكنى خشيت أن تكون قد خسرت مالا فى ذلك المكان الموبوء المسمى بادن بادن ، أو ربما وقعت فى شراك غانية متزوجة ، أو تورطت فيما يتورط فيه الشبان وهم فى بلاد غير بلادهم ••• لا ترقد فى وهج الشمس هكذا ، تعال هنا على هذه الحشائش الخضراء ، ولنتصالح مرة ثانية •

وكانت لهجتها فى الكلام شبيهة بجو حين تدعوة الى الجلوس معها على الأريكة بجانبها ، لتتبادل معه الأخبار والأسرار •

وأطاع لورى أمرها ، ورقد على البساط الأخضر ، وراح يرشق الأزهار الصغيرة فى قبعتها الملقاة أمامه ، ثم رفع رأسه اليها وهو يقول فى اهتمام واضح :

ــ علىّ بالأسرار ، فأنا على أتم الاستعداد لسماعها •

قالت :

— ليس لدىّ ما أقوله ، فابدأ أنت •

قال :

— ولا أنا أيضا ، ولكن ربما كانت لديك أخبار من الأسرة •

قالت :

— أنت تعلم آخر أخبارها ، وأعتقد أن جـو تكتب لك مجلدات ومجلدات •

قال :

— انها مشغولة جدا ، وأنا لا أستقر فى مكان واحد كما ترين ، فمن المستحيل أن تنتظم الرسائل بيننا •

وسكت لحظة وهو يتساءل فى نفسه اذا كانت آمى تعرف بما جرى بينه وبين جو ، وتريد بهذه الطريقـة أن تستدرجه الى الكلام • قال يغير الموضـوع :

— متى تبدئين عملك الفنى الخالد يا « رفائيلا » ؟

قالت :

— لن أبدأه أبدا ، فقد شغفتنى روما بأعاجيب فنها وتحفها ، فأمام عظمـة ما رأيت ، شعرت أن لا قيمة لـه ، فتنازلت يائسة عن آمالى الحمقـاء •

قال :

— ولم تنزلين عن آمالك ، وأنت نشيطة موهوبة ؟

قالت :

— ليست الموهبة كل شىء والنشاط مهمـا بلغ لا يخلق العبقرية ، وأنا أحب أن أكـون عظيمة أو لا أكون شـيئا مطلقا . لا يرضينى أن أصبح رسامة عادية ، لذلك لم أشـأ أن أقوم بمحـاولة جـديدة فى هـذا الميدان .

قال :

— وماذا اعتزمت أن تفعلى بنفسك ؟

قالت :

— قررت أن أرعى مواهبى الأخـرى ، لأصبح زينة المجتمع اذا ما سنحت الفرصة .

وكان حديثها هذا ينم عن شخصية تؤمن بالمغامرة ، وكان لهـا من شبابها المتفجر ، وأطماعها الطيبة ، ما تستند اليه فى تحقيق آمالها . وابتسم لورى معجبا بحزمها وسرعتها فى التحول الى غرض آخر ، بعد أن ضاع أول أمل تعلقت به طول حياتها . قال :

— عظيم ... ويخيل الى أنى أرى أثر فريد فوهن فى كل ذلك .
ولزمت آمى الصمت التـام : ولـكن النظرة الواعيـة فى عينيها المسبلتين ، جعلته ينتصب جالسا ويقول فى جد :

— أتسمحين لى أن ألعب الآن دور الأخ وأسألك بعض الأسئلة ؟

قالت :

— سل ما شئت ، ولكنى لا أعدك بالاجابة .

قال :

— سأقرأ الرد فى وجهك اذا لم أسمعه بلسانك ، فلست المرأة المحنكة ، التى تعرف كيف تخفى مشاعرها . الواقع أنى سمعت فى العام الماضى اشاعات كثيرة عن علاقتك بفوهن ، وأعتقد أنه لو لم يستدع على عجل الى بلاده فجأة : ويضطر الى البقاء فيها مدة طويلة ، لحدثت بينكما أمور وأمور ، أليس كذلك ؟

قالت باقتضاب :

— لست أنوى الاجابة على هذا السؤال .

ولكن شفتيها فضحتا بسمة راضية ، وأفصح لمعان عينيها الماكرتين عن شعورها بسحرها ، ورضاها عن قدرتها على استغلاله .

قال فى جد ، وقد اتخذ لنفسه صفة الأخ الأكبر :

— أرجو ألا تكونا مخطوبين ؟

قالت :

— لا .

قال :

— ولكنك ستوافقين على خطبته اذا عاد من بلده ، وجثا على ركبتيه بالطريقة المثلى .. أليس كذلك ؟

قالت :

ــ يحتمل جدا •

قال :

ــ أتحبينه اذاً ؟

قالت :

ــ من السهل أن أحبه اذا حاولت •

قال :

ــ لن تحاولى ذلك حتى يأتى الوقت المناسب ، فلست أراه الرجل الذى يعجبك يا آمى ، رغم طيبته وتهذيبه •

وأخجلتها أطماعها ، رغم حسن نواياها ، فقالت وهى تصطنع الهدوء والوقار :

ــ انه كريم الأخلاق ، غنى ومهذب •

قال :

ــ تعنين أن ملكات المجتمع لا يظهرن بغير المال ، فهل قررت أن تتمى هذه الزيجة الرابحة ، وتبدئى حياتك بهذه الصورة ؟ انه عين الصواب فى كل أنحاء الدنيا ، ولكنى أستغرب أن يصدر عن احدى بنات والدتك !

قالت :

ــ ولكنها الحقيقة على كل حال •

ولم تكن الجملة الحازمة القصيرة تتفق مع صاحبتها الشابة البريئة ، فانتابت لورى خيبة أمل غريزية لا يفهم كنهها ، لذلك استلقى على الأرض مرة ثانية ، وأمسك عن الكلام ، ولكن صمته أقلق آمى ، كما أقلقها نفورها الداخلى من الرأى الذى أبدته • قالت فى حدة :

— هل تصنع فىّ معروفا فتستيقظ لنفسك وتستفيق ؟

قال :

— اذا أردت ذلك ، فأنقذينى أنت من فضلك !

قالت ، وكأنها تقصد التنفيذ بأخصر طريق :

— يمكننى اذا حاولت •

قال وهو يتلذذ باغاظتها بعد أن طال حرمانه من هذه الوسيلة اللطيفة للتسلية :

— وأنا أسمح لك بذلك ، فحاولى من فضلك •

قالت :

— ثم تغضب منى بعد خمس دقائق ؟

قال :

— تتوالد النار عادة باحتكاك حجرين من الصوان ، وأنت كالثلج هادئة ناعمة •

قالت :

— للثلج بريق وهّاج ، واذا أحسن استعماله كانت لـه لسعة

قاسية : وفى مقدورى أن أفعل أكثر مما تتصور • انك تصطنع عــدم المبالاة ، ومن السهل أن أثبت لك ذلك بقليل من الاستثارة •

قال :

ــ استثيرينى ما شئت ، فلن يصيبنى ضرر ، بل ربما أجــد فيما تفعلين تسلية ، كما يقول الرجل الضخم عندما تضربه زوجته النحيلة • فافترضى أنى زوجك أو أنى بساط تفرشينه على أرضيتك ، واضربينى حتى يكل ساعدك ، اذا كان يلذ لك هذا التمرين •

ولمــا كانت آمى قد أوقعت نفسها بنفسها فى هذا المأزق ، وكانت فى ذات الوقت تتوق الى اخراجه عن جموده ، فقد شحذت لسانها مثلما شحذت قلمها وقالت :

ــ لقد اتفقنا أنا وفاو أن نطلق عليك اسما جديدا ، وهو « لورنس الكسول » ، فما رأيك ؟

وكانت تظن أنها ستغضبه بهذا الكلام ، ولكنه شبك يديه تحــت رأسه وقال بهدوء :

ــ اسم لا بأس به ، شكرا لكما أيتها السيدتان •

قالت :

ــ أتريد أن تعرف رأيى فيك ؟

قال :

ــ انى أذوب شوقا لأعرفه •

قالت :

ـ حسنا ، انى أحتقرك •

ولو أنها اختارت أن تقول هذه الجملة فى تحدّ أو فى دلال ، لضحك منها ، وتقبل كلماتها ، ولـكن لهجتهـا الحزينـة جعلته يفتح عينيـه ويقـول :

ـ ولِمَ اذا سمحت ؟

قالت :

ـ لأنك رغم ما توافر لك من الفرص لتكون طبيا نافعا سعيدا ، فضلت حياة الخطأ والكسل والتعاسة •

قال :

ـ ألفاظ قوية يا آنسة !

قالت :

ـ اذا كانت تروقك ، فادىّ منها مزيد •

قال :

ـ استمرى من فضلك ، فان حديثك يسلينى الى أبعد حد •

قالت :

ـ كنت واثقة من ذلك ، فالأنانيون أمثالك يحبون الحـديث عـن أنفسهم •

قال :

ــ وهل أنا أنانى ؟

ونطق بهذا السؤال فى دهشة طبيعية صادقة ، إذ كان يعتقد أن انكار الذات أبرز فضائله .

قالت :

ــ نعم . أنت أنانىّ جدا .

واستطردت تقول فى هدوء أشد وقعا فى النفس من ثورة الغضب :

ــ وسأبرهن لك كم أنت أنانىّ ، فقد درست أحوالك ونحن نمرح معا ولم أجد فيها ما يرضينى ، ومن ذلك مثلا أنك قضيت ستة شهور فى أوربا ، لم تؤد فيهـا أى عمل من الأعمال ، اللهم إلا اضاعة الوقت والمـال ، مما خيب آمال أصدقائك فيك .

قال :

ــ أليس من حقى أن أتمتع بوقتى بعد كفاح دام أربع سنوات ؟

قالت :

ــ ولكنك لا تبدو مستمتعا بوقتك ، ورأيى أنك لا تستحق هــذه المتعة ، لقد قلت لك حين التقينا انك تحسنت كثيرا عن ذى قبل ، ولكنى أسحب كلامى ، فأنت الآن نصف ما كنت عليه حين تركتك فى الوطن ، أصبحت كسولا خاملا : تحب الثرثرة والأقاويل ، وتضيع وقتك فى توافه الأمور ، قانعا عن تقدير العقلاء واحترامهم ، بما يضفيه عليك البله من رخيص التدليل والاعجاب . ورغم ما حباك الله به من مال وجاه وموهبة

وصحة وجمال — تلك الحقائق التى لا يسعنى انكارها مع ما فيها من اطراء يرضى غرورك — عزفت عن استغلال مزاياك هذه فيما يجعلك رجلا عظيما واخترت الدعة والعبث ، حتى أصبحت ...

وتوقفت آمى عن الحديث وفى عينيها أبلغ معانى الألم والرثاء ، فأكمل لورى جملتها قائلا :

— شرابة خُرْج !!

قالها بلهجة لطيفة هادئة ، ولكن حديث آمى — فى الحقيقة — أصابه فى صميمه ، فقد التمعت عيناه ، واتسعت حدقتاه ، وحلت علائم الغضب فى وجهه محل الاستهتار وعدم المبالاة .

قالت آمى بمرارة :

— قد تجيب على ذلك بأننا معشر النساء ملائكة ، وفى مقدورنا أن نصنع منكم ما نريد ، ولكن ما ان نبدأ فى المحاولة ، حتى تعرضوا عنا ساخرين مستهزئين ، مما يدل على زيف اطرائكم لنا .

وأدارت آمى ظهرها لصديقها المحنق الذى يرقد عند قدميها ، فلم تمض لحظة حتى أحست بيد تغطى الصحيفة التى ترسم فيها ، وسمعت صوت لورى يقول مقلدا لهجة الطفل التائب :

— سأكون ولدا طيبا ، سأكون ولدا طيبا .

ولم تضحك آمى ، فقد كانت جادة فى حديثها متحمسة له . قالت فى رزانة ، وهى تدق بقلمها على اليد التى تغطى كراستها :

— ألا تخجل من يدك هذه ؟ انها كيد امرأة : بيضاء ناعمة ، كأنك

لم تستعملها الا فى لبس القفازات الغالية التى تشتريها من محل « جيوفانى » ، أو حمل باقات الأزهار للسيدات • لست رقيعا والحمد لله ، فأصابعك مازالت خلوا من الخواتم والماسات ، ولست أراك تلبس سوى هذه « الدبلة » الصغيرة التى أهدتك اياها جو منذ زمن طويل ، فياليتها كانت معى الآن لتساعدنى عليك !

قال :

ــ ليتها كانت !

وسحب يده فجأة كما وضعها ، ولكن لهجته العامرة بالحيوية والقوة أثارت أفكارا جديدة فى رأس آمى ، فالتفتت اليه تبحث عن الحقيقة فى عينيه • وكانت قبعته الواسعة تغطى نصف وجهه ، وشاربه يحجب فمه ، فلم تر منه الا صدرا يرتفع وينخفض فى أنفاس طويلة ، كأنما يتنهد ليخفف عبئا يثقل عليه ، أما يده فقد غاصت بالدبلة فى الحشائش ، كما لو كان يحاول أن يخفى شيئا عزيزا ، أثمن وأدق من أن يتحدث عنه • وطافت برأس آمى فى هذه اللحظة القصيرة أشتات من الأفكار ، وتجمعت فى ذهنها اشارات وعبارات ، وتذكرت حركات وسكنات ، ثم بدأت تكون من كل هذا صورة ناطقة بالمعانى والدلالات • أدركت لفورها أن سرا لا تعرفه يربط لورى بأختها ، استعادت فى ذاكرتها كيف كان يغتم حين تحدثه عن جو ، وكيف تغيرت شخصيته وتبدل مسلكه فى رحلاته هذه . وكيف وضع الخاتم القديم فى اصبعه مع أنه لا يصلح حلية ليده الأنيقة • وأرشدتها غريزتها النسائية ــ والنساء أسرع ملاحظة لمثل هذه الأمور الصغيرة ، وأشد ادراكا لمعانيها ــ أن وراء هذا التغيير فى نفسية لورى قصة حب فاشل ، فزايلتها قسوتها

عليه ، وفاضت عيناها الحادتان أسى وعطفا ورقة ، وقالت تحدثه بصوت حنون تعرف كيف تصطنعه فى الوقت المناسب :

ــ أعلم أنه ليس من حقى أن أتحدث اليك بهذه اللهجة يا لورى ، ولولا كرم أخلاقك ما قبلت تطفلى على شئونك ، ولكن عذرى أننا جميعا نحبك ونفخر بك ، وليس أبغض الينا من أن تعود الى الوطن خائبا ، وان كنت على يقين أنهم هناك يدركون أسباب تغيرك أكثر منى •

قال لورى فى صوت أجش محطم ، وقد رفع قبعته عن وجهه :

ــ أظن ذلك •

قالت آمى فى دهاء تريد به أن تستدرجه الى اعتراف بالحقيقة :

ــ كان يجب على أخواتى أن يحدثننى بكل شىء ولا يتركننى أسىء بك الظن ، فأعنفك وألومك ، بدل أن أضاعف عطفى عليك • والواقــع أننى لم أكن أحب مس راندل فى يوم من الأيام ، ولكنى الآن أكرهها من صميم قلبى !

وأزاح لورى القبعة عن وجهه فى غضب ، ونظر الى آمى نظــرة قطعت بحقيقة عواطفه ، نحو مس راندل ، ثم قال بسرعة :

ــ فلتذهب مس راندل الى الشيطان ؟

قالت :

ــ أستميحك عذرا ، فقد ظننت •••

وتوقفت آمى عن اتمام حديثها فى مهارة دبلوماسية ، فقال لورى وهو يشيح بوجهه ثائرا :

ـ لم تظنىّ شيئا ، لأنك تعرفين تماما أننى ما اهتممت يوما بامرأة غير جو .

قالت :

ـ لم يحدثنى أحد فى هذا الموضوع ، ولم أتلق فى رسائلى كلمة تشير اليه ، فمن أين لى أن أعرف بجفاء جو ، خصوصا بعد سفرك الى الوطن ومجيئك الى هنا ؟ أعتقد أنها تحبك أعمق الحب ، فلم تصرفت معك هكذا ؟

قال :

ـ كانت تعاملنى دائما بحنان ، ولكن حنانها كان من نوع آخر غير الذى أنشده ، ولعلها أحسنت بذلك مادمت رجلا تافها كما تقولين . لقد أخطأت فى حقى على كل حال ، ويمكنك أن تبلغيها هذا الكلام .

وعادت النظرة الصارمة المريرة الى وجهه ، فأشفقت عليه آمى ، واحتارت أى بلسم تستخدم لتخفف آلامه . قالت :

ـ أعتذر عن ثورتى عليك ، وقد أخطأت لجهلى بالأمر ، وعلى كل حال لم يكن فى استطاعتى أن أمنعها ، ولكنى كنت أظنك أهلا لاحتمال رفضها بطريقة أفضل ، يا تيدى العزيز !

قال :

ـ لا تقولى « تيدى العزيز » فليس لغيرها أن ينادينى بهذا الاسم !

ورفع يده الى فم آمى كأنه يريد أن يوقف الكلمات قبل أن تنطق بهـا فى لهجة جـو ، التى تجمع بين الحنـان والتأنيب ، ثم أردف فى صوت خفيض وهو يقتلع الحشائش من الأرض بكلتا يديه :

ــ انتظرى حتى تمرى بمثل هذه التجربة !

قالت :

ــ اذا لم أفز بالحب المنشود ، فلن أتردد عن احتمال الفشل فى رجولة ، وبذلك أصون كرامتى •

وكان لورى يظن أنه احتمل الصدمة صامتا صابرا ، وطوى صدره على عذابه ليعانيه وحيدا • ولكن حديث آمى فتح له آفاقا جديدة ، فرأى لأول مرة ، أنه من الضعف والأنانية أن يفقد المرء اتزانه عند أول فشل يصدمه ، فيعتزل الدنيا غير مبال بما يدور حوله فيهـا • وأحس بما يحس به النائم اذا استيقظ فجأة من كابوس ثقيل طير النوم من عينيه • سأل آمى فى تمهل :

ــ أتحتقرنى جو كما احتقرتنى أنت ؟

قالت :

ــ أخشى أن تفعل اذا ما رأتك على هـذه الحـال ، فهى تكره الكسالى ورأيى أن تأتى عملا عظيما يجعلها تحبك !

قال :

ــ بذلت غاية جهدى بلا جدوى •

قالت :

ــ أتعنى تخرجك فى الكلية بامتياز ؟ كان لهذا واجبا يتحتم عليك

أن تؤديه ارضاء لجدك ، وكان من العار آن تفشل بعد ما ضيعت من مال ووقت ، خصوصا وقد كنا جميعا نعلم أنك أهـل للنجـاح ، وفى مقدورك أن تنال أعلى درجاته اذا شئت •

فقال لورى ، وقد أسند رأســه على راحتـه فى قنوط :

ــ بل فشلت رغم كل ما تقولين ، فقد رفضت جو أن تحبنى !

قالت :

ــ لا ، لم تفشل ، وستدرك ذلك فى النهاية ، فقد أفدت وبرهنت على أنك تســتطيع كثيرا متى شئت • ويقينى أنك اذا بدأت محـاولة جديدة من هذا الطراز ، تســترد بشاشتك وسعادتك ، وتنسى همومك وأحزانك •

قال :

ــ مستحيل !

قالت :

ــ جرب ترَ ! •• لا تهز كتفيك وتقل « هـذه الفتاة لا تعــرف شيئا » فلست أدعى الحكمة والمعــرفة ، ولكنى أرقب سير الأمــور ، وأرى الأشياء أكثر مما تتصور • قد لا أستطيع تفسير أحوال الناس ، غير أنى أهتم كثيرا بتجاربهم وأخطائهم ، وأحاول أن أتذكرها دائما ، لأستفيد بما فيها من عظـات وعبر • لا مانع من أن تحب جـو طول حياتك ، ولكن لا تدع هذا الحب يفسد عليك أمرك • فحرام أن يدمــر الانسان مواهبه من أجل امرأة يريدها ولا يستطيع الحصول عليهـا •

لن أمضى فى نصائحى ، وعلى كل حـال ، فعن قريب تستجمع شـتات نفسـك ، وتصحو من غفوتك ، فتسلك مسلك الرجـال رغم قسـاوة هذه الفتـاة •

وساد الصمت برهة ، كان لورى خلالها يعبث بالخاتم فى اصبعه . وتشاغلت آمى عنه بوضع اللمسـات الأخيرة فى الصـورة التى كانت ترسمها ، وعندما انتهت منها ، وضعتها فوق ركبتيه وقالت :

ـ ما رأيك فى هذه الصورة ؟

وابتسم لورى أمام ما رأى فى هذه الصورة من مهارة واتقان ، اذ كانت آمى قد رسـمته فيها ممـددا على الحشائش فى اسـترخاء وكسل ، عيناه مسبلتان ، وعلى وجهه سيماء الشرود ، وكان يمسـك سيجارا ينعقد دخانه فى حلقات حول رأسه الحالم •

وتأمل لورى الصورة مليًا ، ثم قال فى غبطة ودهشة :

ـ انك تحسنين الرسم •

ثم أضاف ضاحكا :

ـ نعم هذا أنا •• وهذه صورتى بعينها •

قالت آمى وهى تضع صورة أخرى بجانب الأولى :

ـ هذه صورتك الآن ، أما هذه فصورتك كما كنت أولا ••

ولم تكن الصورة الثانية متقنة كالأولى ، ولكن أخطاءها اختفت وراء ما فيها من حياة وحركة • وكانت تمثل الماضى بسعادته وجماله ، فتدفقت الذكريات الى ذهن لورى ، واكتسى وجهه بسحابة حزينة لم يخف أمرها

على الفتاة الحصيتة . ولم تكن الصورة إلا خطوطا مبدئية ، تمثل لورى وهو يروض حصانا بعد أن خلع قبعته وسترته ، وكان منظرا عامـرا بالحيوية المتدفقة : فقد خضع الحصان الجامح لمدربه الماهـر ، وحنى رأسه لقوة الفارس الذى يشد عنانه ، وأخذ يضرب الأرض بإحـدى قدميه فى صبر نافد ، فى حين انتصبت أذناه كأنما ينصب لصوت مدربه . وكانت صورة الفارس ، بقوامه المشوق وشعره المتموج ، تنطق بالقوة والشجاعة والفتوة والانشراح ، مما يتعارض كلية مع الصورة الأخرى التى أطلقا عليها « الكسل اللذيذ » .

ولم يتكلم لورى ، ولكن آمى أحست بحيرته ، وهو ينقل بصره من صورة الى أخرى ، وقد احمر وجهه وزم شفتيه ، كأنما فهم الـدرس الصغير الذى ألقته الفتاة عليه . واغتبطت نفسها بذلك ، فلم تنتظر حتى يتكلم ، بل بادرت تقول فى لهجة صافية :

ـ أتذكر يوم روضت الفرس الجموح على مشهد منا ، فخافت ميج وبث ، ولكن جو راحت تصفق لك وتقفز إعجابا ؟ جلست يومهـا على السور أرسم صورتك ، ثم وضعتها فى حافظتى ونسيت أمرها ، حتى عثرت عليها أمس الأول بمحض المصادفة ، فأكملت اللمسات الأخيرة فيها قبل أن أريكها .

قال :

ـ أنا شاكر ممتن ، وأشهد أنك تقدمت فى الرسم كثيرا منذ ذلك الوقت فلك مزيد التهانى . وبعد ، فهل لى أن أذكرك ، ونحن فى جنـة شهر العسل هذه ، أن الساعة الخامسة هى مـوعد تقـديم الطعام فى فندقنا !!

ووقف لورى أمامها ، وأعاد إليها الصورة بابتسامة وانحناءة ، ثم نظر الى الساعة كأنه يذكرها بوجوب الانتهاء من المواعظ والمحاضرات . وقد حاول أن يستعيد مظهر الاستهانة وعدم المبالاة ، ولكنه بان مصطنعا ، لأن آمى أصابت الهدف باستثارتها له ، وتركت فيه أثرا أعظم كثيرا مما يجب أن يعترف به . وأحست آمى بظل من البرود فى طريقه معاملته ، ولكنها قالت لنفسها :

ـ يسعدنى أن أغضبته لصالحه ، ويؤسفنى أن يكرهنى لما قلته ، ولكنها الحقيقة ولا تراجع عنها .

وفى طريقهما الى الفندق ، راح السائق باتست يرقبهما من مقعده ، ويقول لنفسه : « إن السيد والمدموازيل منسجمان جداً » ، إذ كانا يثرثران معا ويضحكان طول الوقت ، ولكنهما كانا يشعران بحرج داخلى ، ويحسان كأن غمامة غشيت صفاء مودتهما السابقة . وبالرغم من تظاهرهما بالمرح ، حل بقلب كل منهما بعض النفور والقلق .

وحين وصل الى باب عمتها ، سألته :

ـ أنراك هذا المساء يا أخى ؟

قال وهو ينحنى ، كأنما يهم بتقبيل يدها على الطريقة الأوربية التى يتقنها أكثر من غيره من الرجال :

ـ يؤسفنى أنى ارتبطت بموعد سابق . فوداعا يا آنسة !

ورأت آمى فى وجهه ما أقلقها ، فقالت بحرارة :

ـ خل عنك هذا التصنع يالورى ، ولنفترق بطريقتنا القديمة الحلوة ، فأنا أفضل أن تصافحنى بحرارة على هذه التحيات الفرنسية العاطفية .

فقال وهو يشد على يدها حتى أوجعها :

ــ مع السلامة يا عزيزتى •

وفى صباح اليوم التالى ، لم يأت لزيارتها كالمعتاد ، وجاءتها بدلا منه رسالته ا فما إن قرأت آمى السطور الأولى منهــا ، حتى تنهــدت باسمة •

قال فى رسالته :

« مرشدتى العزيزة

أرجو أن تبلغى عمتك تحية وداعى ، وتهنئى نفسك لأن « لورنس الكسول » عاد الى جده كأحسن الأولاد • أتمنى لك شتاء سعيدا ، وشهر عسل مباركا فى فالروزا • وأظن أن « فريد » سيفيد كثيرا من إرشاداتك ، فأبلغيه ذلك مع تهانئى •

« الشاكر الضال »

قالت لنفسها وهى تبتسم راضية :

ــ إنى مسرورة بذهابه ، فيا للولد الطيب !

ونظرت حولها فى الحجرة الخاوية فاغتم وجهها وقالت :

ــ سأفتقده كثيرا ، ولكنى سعيدة بذهابه •

الفصل الاربعون

وادى الظلال

حين انقضت لوعة الحزن الأولى ، تقبل أفراد الأسرة باستسلام قضاء الله الذى لا مفر منه ، وحاولوا جهدهم أن يخففوا وطأته بالتفانى فى بذل المحبة التى تقوى روابط الأسرة فى أوقات الشدائد ، فتركوا أحزانهم جانبا ، وتعاونوا على أن يشيعوا السعادة فى كل يوم من أيام السنة الباقية لبث •

وخصصت أبهج الغرف فى البيت لإقامة بث ، وجمع فيها كل ما تشتهيه الفتاة وتحبه من زهور وصور ، وكذلك وضع فيها معزفها و « طاولة » أشغالها وقطيطاتها العزيزة • وأودع الأب فى هذه الغرفة خير كتبه وأكثرها تشويقا للنفس ، وبعثت الأم إليها بمقعدها المريح ، وجاءت آمى بأحسن رسومها وجو بذخيرتها من المؤلفات العظيمة ، وحرصت ميج على أن ترسل أطفالها كل يوم لزيارة خالتهما بث ليبعثوا السعادة فيما تبقى من حياتها • وخصص جون جانبا من ماله لشراء الفواكه التى قد تحتاج إليها المريضة أو تشتهيها ، ولم تدخر حنة جهدا فى إغرائها على الأكل بصنع ألذ الأطعمة وأطيبها ، وكانت تعد تلك الأطعمة ودموعها تسيل على خديها حزنا وإشفاقا ، وكانت الهدايا المفرحة تأتيها من وراء البحار ، فتجلب معها نسمات عاطرة من بلاد لا تعرف برودة الشتاء •

وجلست بث فى هذه الصومعة العامرة بالحب ، هادئة مشغولة كعادتها ولم يغير المرض طبيعتها الحلوة النكرة لذاتها ، فظلت الى آخر ساعات حياتها تشيع الهناء فى قلوب أولئك الذين ستتركهم وراءها •

ولم تنقطع أناملها الواهنة لحظة عن العمل بلا كلل ولا ملل ، وكان يسعدها أن تصنع تحفا صغيرة تهديها لأطفال المدارس الذين يمرون بنافذتها كل يوم فى ذهابهم وعودتهم ، فكانت تلقى اليهم أشـياء صغيرة مبهجة : مثل قفاز يحمى اليدين اللتين هرأهما البرد ، أو ثوب صغير لدميـة ، أو ممسحة لقلم لكاتب صغير تائه فى بيداء الكتابة ، أو كتيب مصور لمحبى الفنون ، الى آخـر هذه المبهجات البسيطة التى تسعد السـائرين فى طريق المعرفة والعلم • وكان الأطفال يقدسون تلك الراعيـة الكريمة ، التى تمطرهم من برجها العالى بأجمل الهدايا وأحبها الى نفوسـهم • وإذا كانت بث تنتظر جزاء على عملها هذا ، فقد وجدته وفيرا فى الوجوه المشرقة التى تتطلع دائما الى نافذتها محيية باسـمة ، وفى الرسـائل العجيبة التى كانت تصلها عامرة بالوفاء وبقع الحبر •

ومضت الشهور القلائل الأولى فى سعادة ، فكانت بث تنظر الى المجتمعين حولها فى حجرتها المشمسة وتقول : « ما ابدع هـذا !! » ، فالتوأمان يلعبان على الأرض ، وأمها وأخواتها يشتغلن بجانبها ، وأبوها يقرأ لها بصوته الرخيم ، ويسمعها أجمل ما احتوته الكتب القديمـة من حكم غلبت القرون بقوتها وسحرها • وكانت غرفتها أشبه بكنيسة صغيرة يفتن راعيها بالأمل ، وأن الإيمان يروض النفس على الرضا بحكم القدر • كانت دروسا بسيطة تلك التى يلقيها الأب ، ولكنها كانت عامرة بالإيمان الراسخ ، فأصابت من القلوب صميمها ، وزادها أثرا فى النفوس ، رجفة صوته ، واختلاجة نبراته •

وخيم السلام على تلك الفترة الحزينة ، وأشاع الإيمان فى نفوس أفراد الأسرة هدوءا أعدهم لقبول أحكام المحنة المقبلة عليها ، فقد استبدت العلة ببث وأتت على قواها ، حتى عجزت أصابعهـا الواهنـة عن حمل

الإبرة فتركتها الى الأبد • وأصبح الحديث يجهدها ، والوجوه الحزينة تقلقها ، واستولى عليها الألم كلية ، واكتست روحها الهادئة بغلالـة من الحزن الدفين فى جسدها النحيل الضعيف • وكم كان عسيرا على أفراد الأسرة أن يروا الأيام تحمل بث الى نهايتها المحتومة فى بطء يجعل من الساعة دهرا •• وكم كان مضنيا لقلوبهم أن تمد إليهم ذراعيها النحيلتين تطلب المعونة ، وهم على فرط حبهم لها ، عاجزون عن تلبية طلبها • كان صراعا عنيفا بين فتوة الروح وجبروت الموت ، ولكن رحمة الله لم تلبث أن أدركتها ، فكفت عن الصراع ، وسكنت روحها راضية مرضية ، وأصبحت نفسها أبهى ما تكون إيمانا واطمئنانا ؛ وأحس من حولها أنها قد أعدت العدة لتلبية نداء ربها رابطة الجأش ، وقنعت بالوقوف على حافة الحياة فى انتظار الملائكة الذين أقبلوا ليصحبوا روحها ، وهى تعبر المضيق الى الأبدية الخالدة •

ولم تفارق جو مكانها بجانب أختها منذ أن سمعتها تقول : « إنى أشعر بالقوة ما دمت معى ، » فكانت تنام على أريكة بغرفتها ، وتستيقظ بين ساعة وأخرى لتغذى نيران المدفأة بالوقود ، أو لتطعم المريضة ، أو تساعدها على الحركة ، أو تؤدى لها خدمة • لأن بث كانت تكره أن تكون عبئا على غيرها فلا تطلب شيئا من أحد • وفى أثناء النهار كانت جو لا تسمح لغيرها بتمريض أختها ، فخورة بأنها اختيرت لهذه المهمـة ، التى تؤمن بأن قيامها بها ، هو أعظم مجد نالته فى حياتها • وكانت هذه الساعات عزيزة على نفس جو ، فقد تعلمت منها ما كان ينقصها من صبر وتسامح ، مع استعداد مخلص لغفران أخطاء الآخرين • وهكذا صقلتها المحنة عن ذى قبل ، ومنحتها التجارب قدرة على تذليل الصعب ، ومجابهة الأخطار فى إيمان عميق لا يعرف الخوف أو اليأس •

وكلما استيقظت جو وجدت بث تستعين على قطع الليل الطويل بالقراءة فى كتيبها الصغير العتيق ، أو بالغناء فى صوت شجى واهن ، أو تراها وقد اعتمدت وجهها على كتفيها ودموعها تتساقط فى بطء بين أصابعها البيضاء النحيلة ، وينفطر قلب جو وهى ترى أختها تحاول بطريقتها السهلة ، أن تقطع ما بينها وما بين الحياة العزيزة بترديد الأدعية والصلوات وبالموسيقى التى تحبها كل الحب .

وكانت هذه المناظر أعمق أثرا فى فؤاد جو ، من المواعظ الحكيمة ، والأناشيد المقدسة ، والصلوات الحارة ، فقد أدركت بعينيها الدامعتين وقلبها الذى أصفاه الحزن ، مدى جمال الحياة الفارغة التى عاشتها أختها ، جمال الحياة التى خلت من الأحداث والمطامع ، وإن عمرت بخير الفضائل التى يزهر نبتها ناضرا فى ثرى دنيانا الفانية ، فينعش النفوس بعبيره الزكى ، كما أدركت من سلوك أختها تجاه نهايتها المحتومة ، أن نكران الذات يجعل أقل الناس شأنا على الأرض ، أعلاهم مقاما فى السماء ، وهو أجمل نجاح يناله إنسان .

وبينما كانت بث ذات ليلة تقلب فى كتبها الموضوعة على المائدة ، باحثة عما ينسيها ضيقها بالدنيا ، وهو ما كانت تجد مشقة فى احتماله كالألم سواء بسواء ، عثرت فى طيات كتابها الحبيب المفضل « رحلة الحجيج » على ورقة صغيرة مكتوبة بخط جو . واستوقفت نظرها فى هذه الورقة ، حروف طمستها دموع كاتبتها ، فقالت فى نفسها وهى تلقى نظرة حانية على أختها الراقدة على السجادة ، وبجوارها قضيب حديدى وضعته فى متناول يدها لتحرك به نيران المدفأة حالما تستيقظ من نومها :

إن جو المسكينة مستغرقة فى نومها ، ولست أظننى فى حاجة الى أن أوقظها لأستأذنها فى قراءتها ، قد تعودت أن ترينى كتاباتها كلها .

وراحت تقرأ :

الى عزيزتى بث

جلستْ صابرة فى طيات الظلال •

تنتظر سطوع النور المقدس •

يا لها من روح راضية مرضية •

تنشر الرحمة فى بيتنا المكدود •

مسرات الدنيا ، وآمالها وآلامها •

تنكسر مثل أمواج صغار •

ترتطم بشاطىء النهر المقدس •

حيث تقف أقدامها فى استسلام •

أواه يا أختاه ! يا من سترحلين •

بعيدا عن هموم البشر وكفاحه •

أعطينى بعضا من فضائلك الغالية •

التى سبغت على حياتك منتهى الجمال •

أعطينى ، أيتها العزيزة ، صبرك العظيم •

الذى أطلق روحك بالرضا والانشراح •

وأعطاها من لدنه قوة •

وهى حبيسة فى سجن الألم •

أعطينى بعض حاجتى •

من حكمة شجاعتك الحلوة •

التى عبرت طريق الأبدية المرير •

تحت خطواتك الثابتة المطمئنة •

هبينى طبيعتك المنكرة للذات •

التى استطاعت ببرها القدسى •

أن تغفر الأخطاء من أجل الحب !

أيها القلب السمح : اغفر لى بدورى ما أخطأت •

وبهذا يهون ألم الفراق •

وتخف مرارة وقعه على النفس •

وتصقلنى المحنة بدرسها العصيب •

فأخرج من خسارتى بكسب عظيم •

يهدىء المصاب من طبعى الوحشى •

ويسبل عليه السكينة والهدوء •

ويحيل أحزانى آمالا وإيمانا •

وثقة بما يأتى به الغيب المجهول •

وإذا جاء دورى •

لأعبر النهر الى ذات المصير •

نحو روح عزيزة تقف فى الانتظار •

لتلقانى على شاطىء الأبدية الفسيح •

سأسير إليها ثابتة الجنان •

مع الأمل والإيمان ملكىّ الحارسين •

فتتلقانى أخت سبقتنى للرحيل •

ويأخذ كلهم بيدى الى مقرى الجديد •

وعلى الرغم مما أصاب هذه السطور من المحو وعدم الظهور ، وعلى الرغم من ركاكتها وضعف لغتها ، فقد أشرق وجه بث بالراحة والهدوء ، فقد كانت تظن آسفة ، أنها لم تفعل شيئا فى حياتها ، ولكن هذه السطور أكدت لها أن حياتها لم تنقض هباء ، وأن موتها لن يجلب اليأس الذى كانت تخشاه •

وبينما هى جالسة والورقة مطوية فى يدها ، سقطت قطعة خشب من نيران المدفأة ، فاستيقظت جو من غفوتها ، وقامت تغـذى النيران ثم زحفت الى جانب فراش أختها وهى ترجو أن تجدها نائمـة ، ولكن بث قالت فى حماسة وتواضع حزين :

ـ لست نائمة ، ولكنى سعيدة جدًا يا جو • انظرى ! لقد وجدت هذه الورقة فقرأتها ، ولا أظنك ترين بأسا فى ذلك •• هل حقًا تحبيننى كل هذا الحب يا جو ؟

قالت جو ، وهى تضع رأسها على الوسادة بجانب أختها :

ــ أواه يا بث ! بل أحبك أكثر من هذا .. أكثر كثيرا !

قالت :

ــ إذا فلم تذهب حياتى هباء ، لست طيبة بقدر ما تصفين ، ولكنى بذلت جهدى لأفعل الصواب دائما ، والآن ، وقد فات الأوان لعمل أفضل ، يسعدنى غاية السعادة أن أجد من يحبنى الى هذا الحد ، ويعتقد أننى فعلت شيئا يستحق الذكر .

قالت جو :

ــ لقد أحببتك أكثر من أى إنسان آخر فى هذه الدنيا يا بث ، وكنت أظن أننى لن أستطيع فراقك أبدا ، ولكنى أعرف الآن أن الموت لن يفرق بيننا وستكونين لى على الدوام أكثر مما كنت .

قالت بث :

ــ إنى أعرف أنه لن يفرق بيننا ، ولذلك لم أعد أخشاه ، وسأظل دائما حبيبتك بث التى تحبك وتساعدك الى الأبد . يجب أن تأخذى مكانى يا جو . فتملئى حياة أبى وأمى عندما أرحل ، سيلجآن إليك بطبيعة الحال فلا تخيبى رجاءهما ، وكونى لهما صدرا حنونا ، وإن شق عليك أن تقومى بهذه المهمة اذكرى أنى معك ، وتأكدى أن سعادة هذه الذكرى تفوق متعة التأليف والأسفار . فالحب هو كل ما نستطيع أن نحمله معنا حين نرحل . وهو وحده الذى يسهل النهاية ، ويجعل وقعها مقبولا على النفس .

قالت جـو :

ــ سأحاول يا بث !

وهكذا تخلت جو عن مطامحها القديمة ، وآثـرت أن تحيا حيـاة جديدة أفضل ، معترفة بتفاهة الشهوات الدنيوية ، شاعرة بما فى الإيمان بخلود الحب من أقدس عزاء على الألم •

وجاءت أيام الربيع وتوالت ، وصفت السماء واخضرت الأرض ، وأينعت الأزهار مبكرة ، وعادت الطيور فى موعدهـا ، كأنما تودع بث التى تلعقت كالطفل المتعب المستسلم بالأيدى التى تعهدتها طوال حياتها ، أيدى أبيها وأمها اللذين قاداها فى رقـة وحنـان خلال وادى الظلال ، ليتركاها وديعة عند الله •

ويندر ، اللهم إلا فى القصص ، أن يقول الذى يموت كلمات تذكر له بعد موته ، أن أن يرى حلما ، أو يفارق الحياة بوجه صبيح • ويعرف الذين ودعوا كثيرا من أعزائهم ، أن النهاية تكـون فى أغلب الأحيـان طبيعية سهلة ، كالنوم سواء بسواء • ولقد حقق الله أمانى بث ، فانحسر الجزر فى بساطة ويسر ، وفى الساعة الحالة التى تسبق الفجر ، لفظت الفتاة أنفاسها الأخيرة هادئة ، وهى تستند على الصدر الذى تنسمت فوقه أول أنفاسها • لم تنبس بكلمة وداع ، وكل ما فعلته ، أن نظرت إليهم بعينين يفيضان حبًا ، ثم شهقت شهقة صغيرة ، وصعدت بعدها روحها الى باريها •

وبين الدموع والصلوات والأيدى الرحيمة ، أعدت الأم والأخوات بث لاستقبال الرقدة الأخيرة الطويلة المريحة ، وقد حمدن الله حين رأين السكينة الوادعة تكسو وجه بث ، وتحل محل الصبر الحزين الذى كانت

تتقطع له نياط قلوبهن . وأثلج صدورهن أن عزيزتهن الغالية تلقت الموت لا كشبح مخيف بغيض ، بل كملاك عـزيز .

وحين أقبل الصباح ، خبت نيران المدفأة فى الغرفة لأول مرة منذ بضعة شهور وخــلا المكان من جـو ، وبدت الغــرفة ساكنة واجمة ، ولكن طائرا حط على غصن تفتحت أزهاره بجوار النافذة ، وبدد السكون بتغريده الشجى ، ثم تدفقت شمس الربيع فى الغرفة ، كأنها فيض من البركات يهبط على الوجه المسجى فوق الوسادة . هذا الوجه الذى فاض بالسلام الوديع ، سلام بعث بين دمـوع المحزونين بســمة ، وجعلهم يحمدون الله أن أنقذ بث من آلامها المريرة .

الفصل الحادى والأربعون

دروس فى النسيان

أفاد لورى كثيرا من الدرس الذى ألقته آمى عليه ، ولكنه لم يحتفظ به طويلا ، شأن الرجال إذا نصحتهم امرأة • فأصحاب الشخصية من هذا الجنس القوى ، لا يعملون بمشورة نسوية قبل أن يقنعوا أنفسهم بأنها تعبير عما كانوا يعتزمونه ، وعندئذ فقط يتبعونها ، فإذا نجحت اعترفوا للمرأة بنصف الفضل ، أما إذا فشلوا فيحملونها الوزر كله فى سخاء •

ولقد عاد لورى الى جده ، وكرس نفسه لخدمته أسابيع عدة ، حتى صرح السيد العجوز بأن جو مدينة نيس أفاده بشكل عجيب ، فمن الخير أن يعود إليها مرة أخرى • وكانت هذه النصيحة فى الواقع أقصى أمنية للفتى ، ولكن قطيعا من الأفيال ما كان يستطيع أن يحمله على العودة الى المدينة التى تلقى فيها ذلك التعنيف • وكان حين يشتد به الشوق الى متع نيس ومباهجها ، يستعين على شعوره بترديد ما آذاه من قــول آمى : « إنى أحتقرك •• اذهب وافعل شيئا مجيدا يجعلها تحبك » !

وراح يقلب الأمر فى فكره مرة بعد مرة ، حتى اضــطر أن يعترف لنفسه بأنه كان بالفعل أنانيًا وكسولا ، ولكنه كان يعتذر عن ذلك بالحزن الذى يغرى بالنزوات طلبا للسلوان • وأحس أن عواطفه الثائرة هدأت عن ذى قبل ، فلا معنى لإعلان أحزانه على الناس رغم وجيعته على حبه الضائع • وما دامت السبل قد تقطعت به الى قلب جو ، فالأمثل له أن يقوم بعمل مجيد يحملها على احترامه ، ويثبت لها أن فتاة مثلها لا تستطيع تحطيم حياته بكلمة « لا » • وإرضاء لكبريائه راح يقنع نفسه بأن نصيحة

آمى لم تكن لها ضرورة ، لأنه كان يعتزم دائمـا أن يقـوم بعمل كبير مشرف ، وما أخره عن تحقيق هذا المجد إلا جراح قلبه ، التى أراد أن يمنحها فسحة من الوقت لتندمل .أما الآن فقد تم له الشـفاء وخفت وطأة الحب ، فأصبح لزاما عليه أن يسعى الى العمل المجد المفيد .

ومثلما كان « جوته » يصوغ همومه وأفراحه فى قصائد من الشعر ، فقد استقر رأى لورى على أن يغرق آلامه فى الموسيقى ، ويؤلف منهـا مقطوعات رائعة تتفتح لها نفس جو . وتطرب بها قلـوب من يسمعها . وبناء على ذلك نصحه جده بالسفر ،بعد أن رآه قلق المزاج حزينا ، شـد رحاله الى فينا ، حيث يقيم بعض أصدقائه من الموسيقيين ، وهناك عكف على الدراسة بعزيمة صادقةطلبا للشهرة والمجد . وسواء أكان حزنه أكبر من أن تطويه الموسيقى ، أم كانت الموسيقى أضعف من أن تحمل هموم القلب البشرى ، فقد اكتشف لورى صعوبة شديدة فى وضع اللحن الذى يريده . ولم تكن آراؤه قد استقامت بعد ، ولا تبلورت أفكاره بشـكل نهائى ، فكان ذهنه يشرد أثناء محاولته التأليف ، حتى ليجد نفسه يترنم بلحن راقص يذكره بحفلة عيد الميلاد فى نيس ومن حضروها ، خصوصا الرجل الفرنسى السمين . وفى ظل هذه الظروف اضطر الى التوقف مؤقتا عن التلحين والتأليف .

وحاول بعد ذلك أن يؤلف أوبرا موسيقية ، وهانت عليه المهمة فى بداية الأمر ، ولكن سرعان ما انهالت صعوبات لا يتوقعها : فقد كان يريد أن يجعل من جو بطلة الأوبرا المنشودة ، وراح يشحذ ذاكرته بذكرياته العاطفية وصورها الخيالية الرائعة ، فإذا بذاكرته تخونه ، كأنما ركبها عناد جو ، فلم تطالعه إلا بصـورة مشاكساتها وأخطـائها وشذوذها . ولـم يذكر لجـو موقفا عاطفيا يليق بخيـال الموسيقى ، إنما تذكر

كيف كانت تصب على عواطفه الملتهبة ماء باردا حين تحتمى منه على الأريكة بوسادتها الخشنة القاسية • وتوالت عليه مثل هذه الصور الفكهة ، فلم يستطع أن يكتم ضحكة أفسدت الخيال الذى كان يريد أن يصنع منه أجواء أوبراه ، وعندئذ أدرك أن جو لا يمكن بحال من الأحوال أن تلعب دورا فى هذه الأوبرا • قال لنفسه وقد عدل نهائيًا عن تنفيذ فكرته : « لله كم عذبتنى هذه الفتاة ! » ، وأمسك بشعر رأسه يشده فى عنف حتى اختلط وتشعث فأصبح شكله يشبه الفنانين الحائرين •

وعاد يبحث من جديد عن بطلة أخرى لأوبراه ، ويفتش فيمن يعرفهن عن فتاة تصلح لأن يخلدها بألحانه ، فهدته ذاكرته الى واحدة تملك المؤهلات اللازمة لهذا الدور ، ولكنه لا يستطيع تحديدها بدقة ، لأن صورتها تراءت مع نساء أخريات ، كانت تتميز عليهن دائما بشعرها الذهبى ، وغلالتها الشفافة التى تسبح فى الهواء ، وسط خليط مشتت من الورود والطواويس والأمهار البيض والأشرطة الزرقاء • ولم يحاول لورى أن يطلق على هذا الطيف اسما ما ، ولكنه اتخذ منه بطلة الأوبرا ، وأسرف فى التعلق بهذه البطلة ، حتى خلع عليها مواهب الدنيا ومحاسنها ، وذهب فى الترفق بها الى حد يخنق أنفاس أى امرأة ، إذا تحقق فى واقع الحياة •

وحمله الخيال على أجنحته السحرية ، وحلق به رويدا رويدا ، حتى فقد الرغبة فى العمل والتأليف ، وقنع بلذة الأحلام التى كانت تستولى عليه وهو يجلس الى القلم والورق ، أو يجوب المدينة المرحة ترويحا عن ذهنه المكدود ، الذى بلغ فى هذا الشتاء أقصى حدود القلق والركود • ولم يكن إرهاقه الذهنى نتيجة للإسراف فى العمل ، فهو لم يفعل شيئا يذكر ، ولكنه كان يفكر كثيرا جدًا ، ويشعر بأن تغيرا ما سيقع فى حياته بالرغم منه فيقول : « إذا كانت هذه تفاعلات العبقرية ، فلأدعها تأخذ مجراها

الطبيعى » • ولكنه كان يحس فى قرارة نفسه أن هذه التغيرات مسائل عادية جداً ، لا تمت الى العبقرية بصلة • ومهما تكن هذه المسائل ، فقد كانت مراجلها تغلى فى صدره إيذانا بتحقيق هدف معين ، فازداد مع الوقت سخطا على حياته المفككة ، وبدأ يحن الى أداء عمل ملموس ، يستغرق فيه جسدا وروحا • وخرج من ثورته الفكرية الى حقيقة حكيمة تقول : ليس كل من يعشق الموسيقى فنانا أو مؤلفا للأنغام •

وذات ليلة ، عاد من الأوبرا الملكية : بعد أن استمع الى إحدى أوبرات موزار العظيمة ، وكانت الفرقة قد أحسنت عزفها ، فأوحى إليه ذلك بإعادة النظر فى أوبراه التى ألفها ، وتقدير أحسن مقطوعاتها دون تحيز أو مجاملة ، وانكب عليها يدرسها قطعة قطعة ، فلما انتهى ، راح يحملق فيما حوله من التماثيل النصفية لعباقرة الموسيقى ، أمثال مندلسون وبيتهوفن وباخ ، ويتأمل ما أنتجوا من روائع الفن ، ثم أمسك فجأة بالأوراق التى سجل عليها أنغامه ، وجعل يمزقها بحزم وهدوء ، حتى أتى عليها كلها • ثم قال لنفسه فى رزانة :

ــ كانت آمى على حق حين قالت إن الموهبة ليست عبقرية ، والعبقرية لا يخلقها الإنسان • لقد شفتنى الموسيقى من غرورى ، كما شفتها روما من غرورها ! إننى لا أريد كما أكون مشعوذا ، فماذا أفعل الآن ؟

وبدا السؤال عسيرا أمام رغبته الملحة فى اكتساب رزقه بعرق جبينه ، وتذكر قوله عن نفسه ذات مرة : « فلأذهب الى الشيطان ! » ، ورأى أن فرصته لتحقيق ذلك أصبحت الآن أوسع منها فى أى وقت مضى بفضل المال والدعة ، فمن دأب الشيطان أن يستغل الأيدى المنعمة العاطلة • كانت المغريات الآثمة القوية تطوقه ، ولكنه صمد لها ، فقد كان بالرغم

من تقديسه للحرية ، يقدر الإيمان والاستقامة والثقة بالنفس . وصانته هذه الصفات من الفساد والانزلاق فى الرذيلة ، وشجعه على التمسك بأهداب الخير ، وعد قطعة لجده ، ورغبه خالصة فى أن يكون صالحا أمينا عندما يقول لأولئك الفتيات اللواتى أحببنه من صميم قلوبهن : « كل شىء على ما يرام » .

وقد تقول ثرثارة كمسز جراندى « لا أصدق أن الأمور حقيقة على ما يرام ، فالفتيان لا يستغنون عن الملذات ، ومن الحمق أن نطالبهم بإتيان المعجزات » . ولمثل هذه السيدة نقول : قد لا تصدقين يا مسز جراندى أن الأمور على ما يرام ، ولكنها الحقيقة ، ومن النساء من تصنع المعجزات ، وفى مقدور المرأة الصالحة أن ترفع الرجولة الى مستواها الحق ، إذا كفت عن مثل ما تقولين . دعى الصغار يتصرفوا كالصغار ، وكلما طال أمد ذلك كان خيرا وأبقى . اتركى الشبان يأخذوا حظهم من الدنيا إن أرادوا ، ففى إمكان الأمهات والأخوات والصديقات أن يساعدنهم على الخروج من فترة الطيش فى أقصر وقت ، ما دمن يثقن بهم ، ويعرفنهم أن أحب فضائل الرجل الى النساء ، الاستقامة والإيمان . وإذا قلت يا مسز جراندى إن كلامنا هذا من أوهام النساء ، فدعينا نستمتع بوهمنا ما شئنا ، فبدونه تفقد الحياة نصف جمالها وخيالها وبهجتها ، ولولا هذا الوهم لحطمت المرارة آمالنا فى الفتيان الشجعان الصالحين ، الذين ما زالوا يحبون أمهاتهم أكثر من أنفسهم ، ويقولون ذلك فى صراحة تامة .

كانت لورى يعتقد أن نسيان حبه لجو سينهك قواه سنين وسنين ، وكم كانت دهشته عظيمه حين اكتشف أن النسيان يأتيه مع الأيام سهلا ميسورا . ورفض فى بادىء الأمر أن يقبل هذا التحول أو يصدقه ، بل

ثار غضبا يتهم نفسه بالغدر ، ويتساءل عن سره ، إذ كان يجهل أن القلوب تأتى بالمتناقضات ، ومن طبع الزمن أن يؤثر فيها رغم أنوفنا •

أحس لورى بأن جرح قلبه قد اندمل بسرعة ، ووجد نفسه يحاول أن يتذكر جو بعد أن كان يبذل الجهد فى نسيانها ، ولم يكن الفتى مستعداً لمثل هذا التغير ، فغلى قلبه بالغضب على نفسه ، وغلبه شعور تمتزج فيه الراحة بخيبة الأمل ، فجعل يحرك جذوة حبه الخابيه ، عساها تتقد ، ولكنها أبت إلا أن تتحول الى وهج خفيف يشيع الدفء فى جوانحه ، دون أن يعرضه للحمى • واضطر أخيرا الى الاعتراف بأن ثورة هواه الصبيانى قد هدأت بالتدريج ، حتى أصبحت عاطفة مستقرة لطيفة يغشاها الحزن أحيانا ، ولكنه حزن قصير الأجل لن يلبث أن يفسح الطريق لحب أخوى يدوم الى الأبد • وحين جال الحب الأخوى بفكره ، نظر باسما الى صورة موزار المعلقة أمامه ثم قال لنفسه : « الحق أنه كان رجلاً عظيما ، فحين أعياه الفوز بإحدى الأختين اتجه الى الأخرى ، وعاش معها هانئا سعيدا » • ولم ينطق لورى بهذه الكلمات ، ولكنها جالت بخاطره فانحنى على الخاتم القديم الصغير يقبله ، وقال لنفسه مستدركا : ـــ لا •• لن أفعل ذلك ! لم أنس ولن أنسى • سأحاول مرة ثانية ، فإذا فشلت ، فعندئذ •••

ولم يكمل لورى كلامه ، بل أسرع الى القلم والورق يكتب الى جو ليخبرها بأنه لا يستطيع الاستقرار على أمر ، ما دام هناك أمل فى أن تغير رأيها ، ثم يسألها ملهوفا إذا كان فى مقدورها أن ترجع عن رفضها ، فيعود الى الوطن ويسعد بالحياة معها ؟

وبقى ينتظر حائرا قلقا وأخيرا أتاه ردها قاطعا ، فحسم الموقف نهائيًا إذ أرسلت تقول بإصرار وصراحة إنها لم تغير رأيها ولن تغيره ،

وإنها مشغولة ببث ، ولا تريد أن تسمع كلمة الحب مرة ثانية ، فرجاؤها إليه أن يبحث عن السعادة مع غيرها ، على أن يحتفظ بركن صغير فى قلبه لأخته جو • وكتبت على هامش الخطاب تطلب منه أن يخفى عن آمى سوء حالة بث ، وما دامت تنوى العودة فى الربيع القادم ، فلا داعى لتعكير صفو ما تبقى لها من أيام فى الخارج ، ثم توجهت الى الله بالدعاء أن يمنح بث فسحة من الوقت حتى ترى أختها • وطلبت من لورى أن يواظب على الكتابة الى آمى ، ولا يتركها فريسة للوحدة والقلق والحنين الى الوطن •

وقال لورى يحدث نفسه ، وهو يفتح مكتبه استعدادا لتحرير رسالة لآمى ، وكأنما وجد فى الكتابة لها النهاية الطبيعية للجملة التى لم يتمها منذ أسابيع :

— سأفعل ذلك فورا ! ويا للفتاة المسكينة ! أخشى أن تكون عودتها الى البيت مؤلمة محزنة !

ولكنه لم يكتب الرسالة فى ذلك اليوم ، فبينما كان يقلب فى أوراقه بحثا عن شىء تاه منه وسط قوائم الحساب وجوازات السفر ووثائق الأعمال ، عثر فى أحد أدراجه على رسائل كثيرة من جو ، وثلاث رسائل من آمى ، ربطت بشريط أزرق أنيق ، وفاحت منها رائحة الزهور المجففة بداخلها • وجمع لورى خطابات جو ، وقد كسا وجهه تعبير من العجب والألم ، ثم رتبها ونفض عنها الغبار وطواها ، وأودعها درجا صغيرا من أدراج مكتبه • وتوقف لحظة يفكر ، وهو يدير الخاتم الصغير فى اصبعه ، ثم أخذ يخلعه فى بطء ، ووضعه مع الخطابات ، وأغلق الدرج • وأحس كأنما هو عائد من مأتم ، فخرج الى كنيسة القديس ستيفان ليستمع الى عظة راعيها ، وعلى الرغم من أنه لم يكن يحس

بألم طاغ ، فقد بدا له أن هذا التصرف أليق به من الجلوس لكتابة رسائل الى فتيات جميلات .

وأرسل الخطاب سريعا ، وأجابت آمى دون تأخير ، اذ كانت تشعر ببالغ الحنين الى الوطن ، ولم تجد غضاضة فى أن تعترف بذلك فى كتابها وازدهرت المراسلة بينهما ، وانتظمت الخطابات جيئة وذهابا طيلة بواكير الربيع . وباع لورى ذخيرته من تماثيل الموسيقيين ، كذلك أحرق أوراقه وكراساته التى سجل فيها ألحان أوبراه ، ثم عاد الى باريس راجيا أن تصل اليها احداهن قبل مضى وقت طويل . وكان يتحرق شوقا الى مدينة نيس ، ولكنه ابتعد عنها من تلقاء نفسه ، ولم تشأ آمى من جانبها أن تدعوه لأنها كانت تمر بتجربة جديدة ، لا تحب أن يعرف بها الفتى الذكى .

كان فريد فوهن قد عاد من سفره ، وسألها ذلك السؤال الذى كان فى نيتها أن تجيب عليه قائلة : « نعم » وأشكرك ، ولكنها اختارت الآن أن تقول له بصراحة وأدب : « لا ، أشكرك » . . والحق أن شجاعتها خانتها فى اللحظة الحرجة ، بعد ما تبين لها كم غيرت التجارب أهدافها ، فأصبحت ترمى فى حياتها الى ما هو أسمى من المال والجاه ، ورنت فى أذنها كلمات لورى حين قال : « فريد شاب لطيف المعشر ، ولكنى لا أعتقد أنه الرجل الذى تتشوقين اليه » . ولم تستطع ابعاد كلمات لورى عن ذهنها ، لا ، ولم تستطع أيضا أن تنسى قولها له : « سأتزوج من أجل المال » ، وآلمتها ذكرى هذا الرأى المخجل الذى يتنافى مع دواعى الأنوثة ، فتمنت أن لو كان فى مستطاعها أن تسحبه ، حتى لا يظن لورى أنها امرأة مادية لا قلب لها ولا احساس ، لأنها لم تكن تبتغى فى الواقع سيادة المجتمعات ، قدر

ما تبتغى أن تكون محبة محبوبة • ومن حسن حظها أن لورى لم يكرهها من أجل هذه الكلمات المريعة ، انما تغاضى عنها وبدا أشد عطفا عليها من ذى قبل • وكانت خطاباته الأخيرة تأتيها بفيض من السرور يعوض عليها معانى الأسى المكبوت التى كانت تلمسها فى رسائل أهلها المتباعدة ، فانتظمت فى الرد عليها بلذة مضاعفة • كانت تشعر بأنه واجب يتحتم عليها أن تؤديه نحو الفتى المسكين الوحيد ، الذى عاندته جو فى موقفها منه ، ولم يرق قلبها القاسى لتوسلاته • وعجبت آمى كيف لم تبذل جو جهدا فى حبه ، مع أنه أمر ليس بالعسير ، وكثيرات غيرها يتمنين نظرة منه • ولكن جو تختلف عن الفتيات الأخريات ، ولذلك استعصى عليها أن تكون له أكثر من صديقة ، فآثرت آمى أن تظل له أختا شقيقة عزيزة •

ولو أن كل أخ لقى من المعاملة مثلما لقى لورى أثناء هذه الفترة ، لأصبح الإخوة أسعد أهل الدنيا قاطبة : امتنعت عن مضايقته بالمحاضرات والعظات ، وراحت تسأله الرأى فى كل أمر تقدم عليه ، وكانت تبدى منتهى الاهتمام بأحواله ، وتبعث اليه بهدايا صغيرة جميلة ، وتكتب له كل أسبوع خطابين تزينهما بأجمل الرسوم ، وتملؤهما بأرق عبارات الثقة والاخلاص •

وبعض الأخوات يسعدهن أن يحملن فى جيوبهن رسائل اخوتهن ، ليعدن قراءتها مرة بعد مرة ، فى اعزاز بالغ وشوق عظيم : يبكين اذا كانت قصيرة ، ويضحكن اذا كانت طويلة ويحرصن فى المحافظة عليها كأنها كنز ثمين •• ولكن آمى لم تفعل ذلك على وجه التحقيق ، انما شغلها التفكير حتى ذبل وجهها ، وفقدت اهتمامها بالمجتمعات ، فأعرضت عن الحفلات والتفتت الى الرسم تسلى به نفسها • ولم تكن ترسم

صورا جديرة بأن تحملها معها الى أسرتها ، ولكنها كانت تقضى جل وقتها فى دراسة الطبيعة وتجلس الساعات الطوال مكتوفة اليدين فى شرفة قصر « فالروزا » ، تسرح الطرف حولها ساهمة ، أو تخطط صورا لما يجول بخاطرها المشغول • فمرة ترسم تمثال فارس مفتول العضل منحوت على قبر ، ومرة ترسم شابا يستلقى على الحشائش وقبعته تغطى عينيه •• أو فتاة ذات شعر متموج تخطر أنيقة فى حلقة الرقص ، وهى تستند الى ذراع سيد فارع الطول ، وكانت الوجوه فى تلك الرسوم غير واضحة المعالم ، تمشيا مع التقاليد الفنية فى ذلك العهد •

وظنت عمتها بأنها نادمة على رفضها الزواج من فريد ، ولكن آمى نفت ذلك مرارا وتكرارا ، حتى اذا أعيتها الحيلة الى اقناع عمتها بخطئها ، تركتها لشأنها تظن ما يحلو لها ، مكتفية بأن تطمئن لورى الى أن فريد سافر الى مصر • ونزل الخبر عليه بردا وسلاما ، فهدأت هواجسه ، وقال فى نفسه :

ـ كنت واثقا من أنها ستغير رأيها • يا للفتى المسكين ! انى أقدر شعوره ، وأرثى لحاله ، فقد مررت بتجربة مماثلة •

وشعر بارتياح كمن أزيح عن عاتقه عبء ثقيل ، ثم أسند قدمه الى الأريكة ، وعاد الى خطاب آمى يقرأه بلذة ، كأنه قام نحو الماضى بالواجب كاملا •

كانت هذه الأمور تجرى فى الخارج ، والأحزان تبلغ أقصاها فى بيت آل مارش ، ولكن آمى لم تتسلم الرسالة التى تنبىء بضيعة الأمل فى

حياة بث ، وحين أتتها الرسالة التالية فى مدينة فيفاى ، كانت الحشائش قد اخضرت على قبر أختها الراحلة •

كانت حرارة الجو فى شهر مايو قد أغرت آمى وصحبها بالرحيل عن نيس الى سويسرا عبر جنوة والبحيرات الايطالية ، وهنـاك جاءها الخبر المحزن فاحتملته ، ولكنها لم تقطع رحلتها عملا بمشورة أهلها ، الذين رأوا أن تطلب السلوى فى السفر ، بعـد أن فاتتها رؤية أختهـا قبل موتها • ومضت بها الأيام مثقلة القلب بالهموم ، وغلبتها أحزانهـا فآثرت أن تقضى وقتها أمام البحيرة ، ترنو الى الأفـق ، راجيـة أن يعـود لورى ، ليسرى عنها ويعزيها • ولم تكذبها آمالها ، فعندما تلقى الفتى النبأ الحزين متأخرا ، بسبب سفره الى ألمانيا ، حـزم أمتعته ، وودع أصدقاءه ، ثم رحل اليها فورا ، وقلبه ملىء بالحزن والسرور ، والقلق والأمل •

وكان لورى يعـرف مدينة فيفاى جيدا ، فما ان مسـت سفينته رصيف الميـنـاء ، حتى قفز الى البر وهـو يحث الخطى نحـو مبنى « لافور » حيث يقيم آل كارول • وقابله الخادم بدهشـة ، وأخبره بانصراف جميع أفراد الأسرة الى النزهة فى البحـيرة الا المدمـوازيل الشقراء ، فقد تكون فى الحديقة ، ثم رجا السيد أن يتفضل بالجلوس لحظة حتى يخطرها بحضوره • ولكن السيد لم ينتظر ولا نصف لحظة ، بل غادر المكان مسرعا ، ليبحث بنفسه عن المدموازيل !

وعلى شاطىء البحيرة الجميلة ، كانت الحديقة مثل جنة رائعة ، تظللها أشجار الكستناء الفارعة وتزينها شـجيرات اللبلاب المتسلقة ، ومن بين الأغصان تنعكس صورة البرج الأسود على صفحة المياه الساطعة • وكانت آمى فى ركن منها تجلس على مقعد اعتادت أن تخلو الى نفسهـا

فيه لتقرأ أو ترسم أو تمتع نفسها بما حولها من الجمال الطبيعى • وكانت ، حين أقبل لورى ، تعتمد رأسها بيديها ، وقد فاض قلبها بالحنين للوطن ، ودمعت عيناها حزنا على بث ، فلم تنتبه الى وقع أقدامه وهو يعبر الفناء ، لا ، ولم تره وهو يقف فى الطريق الموصل الى الحديقة المزينة بالأقواس • ولزم الفتى مكانه لحظة يتأملها بعين جديدة ، فيرى فيها العاطفية الرقيقة ، ذلك الجانب من شخصيتها الذى لم يره من قبل • كان كل ما حولها يوحى فى صمت بالحب والأسى ، من الخطابات التى محت سطورها الدموع الى الشريط الأزرق الذى ربطت به شعرها ، الى الألم والصبر اللذين تجليا على وجهها ، وحتى الصليب الأبنوسى الأسود الذى كانت تزين به جيدها ، أثار فى نفسه شئونا وشجونا ، إذ كان قد أهداها إياه فى احدى المناسبات ، فاختارت اليوم أن يكون حليتها الوحيدة • واذا كان لورى فى شك من وقع زيارته عليها ، فقد تبخر شكه فى اللحظة التى وقع فيها نظرها عليه • والحق أنها أخذت بمجيئه ، فأسقطت ما فى يدها وحجرها وهرعت اليه تصيح فى لهجة تفيض بالحب والشوق :

ـ أواه يا لورى ! كنت واثقة من حضورك !

وجاءت لحظات الصمت التالية أبلغ من الكلام ، وقفا جنبا الى جنب خاشعين ، رأسه الأسود ينحنى عطوفا على رأسها الذهبى ، كأنما يريد أن يحميها من أحداث الزمن • وأحست آمى أن أحدا غير لورى لا يستطيع أن يعيد السكينة الى نفسها ، وشعر لورى أنه ما من امرأة فى العالم غير آمى تستطيع أن تملأ مكانة جو فى قلبه • ولم يفصح الفتى عن شعوره ، ولم تتضايق آمى لذلك ، فقد أدرك الاثنان الحقيقة بمنتهى الرضا ، وتركا للصمت البليغ تتمة ما بدأته العيون •

وبعد قليل عادت آمى الى مقعدها وهى تجفف دموعها ، فتشاغل عنها لورى بجمع الأوراق المتناثرة على الأرض ، متفائلا بما فيها من صور وأضواء تبشر بمستقبل سعيد • وحين جلس الى جانبها احمر وجهها خجلا على ما بدر منها عند لقائهما منذ لحظة ، وقالت وهى تحاول عبثا أن تستعيد هدوءها :

— لم تكن لى حيلة فى أمر نفسى ، فاعذرنى ! كنت وحيدة حزينة ، فجاءت رؤيتك مفاجأة سارة ، بعد ما كدت أفقد الأمل فى حضورك •

قال :

— ما ان بلغنى الخبر حتى أسرعت اليك • ليتنى أعرف كيف أعزيك عن فقد الصغيرة العزيزة بث • ولكنى فقط أحس •••

وتولاه هو الآخر خجل مفاجىء ، فتلعثم عاجزا عن الكلام • كان بوده أن تسند رأسها الى كتفه ، وتبكى أحزانها وآلامها ، ولكنه لم يجرؤ على التقدم بهذا الاقتراح ، فاكتفى بأن أخذ يدها بين يديه وضغط عليها فى عطف أبلغ من الكلام • قالت آمى فى رفق :

— لا داعى للكلام ، ففى احساسك أجمل العزاء • ان بث الآن أسعد حالا ، وما من أحد يتمنى لها العودة الى عذاب المرض ، ولكنى أتهيب الرجوع الى أهلى رغم شوقى البالغ اليهم •• دعنا من هذا الحديث فانه يثير أشجانى ، وأنا أريد أن أسعد بوجودك معى ، فهل تبقى معنا أياما ، أم تراك مضطرا الى العودة سريعا •

قال :

— لن أعود اذا كنت تريديننى معك •

قالت :

— بل أريدك أن تبقى ، فأنا شديدة الحاجة اليك ، لست أنكر حنان عمتى وفلو ، ولكنى أعتبرك واحدا من أهل بيتى ، وصحبتك تعالج أحزانى وتسرى عنى •

وبان الحنين الى الوطن فى لهجتها ، فكانت وهى تتكلم مثل طفل طالت غيبته ، فاستبد به الشوق الى بيته • وازاء ذلك تخلى لورى عن خجله ، وراح يسبغ عليها ما وسعه من التدليل ، فيقول لها بعطف امتزج فيه الرجاء بالأمر :

— يا للصغيرة المسكينة ! ! يبدو أن الحزن أورثك السقم والمرض ، فعلىّ أن أعنى بك وأرفه عنك • كفاك بكاء يا عزيزتى ، وهيا بنا نتمشى قليلا ، فجلوسنا فى مثل هذا الجو البارد غير مستحب •

وتأبط ذراعها ، وسارا يذرعان الممر المشمس جيئة وذهابا تحت أغصان الكستناء الخضراء الجديدة • وانتعش لورى بالسير على قدميه ، واغتبطت آمى إذ وجدت الى جانبها ذراعا قوية تعتمد عليها ، ووجها مألوفا يبتسم لها ، وصوتا حنونا يتحدث اليها فى غبطة وسرور •

كانت الحديقة القديمة قد سبق أن أظلت كثيرا من المحبين ، ولكنها بدت فى ذلك اليوم كما لو كانت أنشئت لهما وحدهما : فالشمس تغمرهما فى عزلتهما ، والبرج الأثرى يطل عليهما دون غيرهما ، والبحيرة لا تردد إلا صدى صوتيهما • ومضت ساعة وهما يسيران ويتحدثان ، أو يستريحان على السور المنخفض فى نشوة بسحر اللقاء والمكان • ثم قطع حبل الخيال صوت ناقوس الغداء ذو الرنين الخالى من الجمال ، منذرا اياهما بالافتراق ، فسارت آمى الى البيت وهى تشعر

كأنما انزاح عن صدرها كابوس الوحدة والحزن ، وكأنما تركت أشجانها جميعا وراءها فى تلك الحديقة •

وما ان وقع نظر مسز كارول على وجه آمى ، ورأت ما حدث فيه من تغير ملحوظ ، حتى برقت فى ذهنها فكرة جديدة ، فقالت تحدث نفسها بدهشة : الآن عرفت كل شيء ، فقد كانت الفتاة تحن طول الوقت الى رؤية لورنس ، فليرحمنى الله ! ! لم يدر ذلك فى خلدى قط !

وكتمت السيدة الطيبة خبر ما رأت ، ولم تحدث أحدا به أو تفضح سرورها ، واكتفت بملاطفة الفتى ، راجية الى آمى أن تستمتع بصحبته بعد ما أمعنت فى الوحدة والانزواء • وأثبتت آمى أنها مثل يحتذى فى طاعة العمة ، فانصرفت الى تحية صديقها والترحيب به فى منتهى الحماسة والتوفيق ، وساعدها على ذلك تشاغل العمة عنها بأمور ابنتها فلو •

وتغيرت حال لورى فى فيفاى عنها فى نيس تغيرا أثار اعجاب آمى وسرورها ، فبعد أن كان خمولا كسولا ، أصبح متحمسا نشيطا ، لا يرى إلا وهو يمشى أو يركب ، أو يجدف فى قاربه بشدة ، أو يدرس فى همة واجتهاد ، وكان يعزو تغيره الى جو فيفاى المنعش فتؤمن آمى على قوله ، لتفسر هى الأخرى تحسن صحتها باعتدال روحها المعنوية •

وكان للجو المنعش فعله الطيب فيهما ، كما أفادتهما الرياضة جسدا وعقلا ، وترتب على ذلك أن تكشفت لهما الأمور على حقائقها ، ووضحت معالم الحياة وحدود الواجبات فى ربوع تلك البقعة الجبلية ، وبددت الرياح المنعشة سحب الشكوك وضباب الأحزان ، وأيقظت شمس الربيع

الدافئة ألــوانا حلوة من الأفكار والآمال والأحــلام ، وغسلت ميــاه البحيرة الرقراقة متاعب الماضى القاسية ، وأطلت عليهما الجبال الشاهقة تهمس فى أسماعهما حانية مترفقة : « أيها الطفــلان الصغيران ، دعــا الحب ينم فى قلبيكما » •

ومضى الوقت بهما سعيدا ، رغم مصابهما فى بث ، وكانت السعادة دافقة بحيث لم يجرؤ لورى أن يعكر صفوها بكلمة أو اشارة • ولقــد أدهشت الفتى تلك السرعة التى شفى بها من حبه الأول ، فضــلا الى نفسه يجمع شتات أفكاره ، كان يعتقد أن حبه لجــو هو حبــه الأول والأخير ، فراح يعزى نفسه على عدم ولائه لها بأن آمي أخت جــو ، فأنها جو نفسها ، ولو لم تكن كذلك ما انشغل قلبه بها •

لقد كان حبه الأول عاصــفا ، وكان ينظر اليــه كحلقة طويلة من الأحداث التى تبعث فى النفس خليطا من العاطفة والندم ، دون أن يكون فيها ما يدعو الى الخجل ، وقد نجح ، بعد طول تفكير ، فى تنحية هــذا الحب جانبا كتجربة حلوة مــرة ، ومن حسن الحظ أن مرت بآلامهــا وأشجانها •

أما حبه الجديد ، فقد قرر أن يجعــله هادئا ما اســتطاع : فآمى تعرف ما يكنه لها ، وليس هناك ما يدعو الى تعقيد الأمور بموقف يبثها فيه غرامه ، والواقع أنهــا أدركت الحقيقة من البداية ، ورضيت بالوضع مطمئنة ، وتم الأمر فى أسلوب طبيعى هادىء ســوف يسر لــه الجميع حتى جو نفســها ، ولكن صدمته فى غرامه الأول جعلته أكثر حــذرا فى تصرفاته وأشــد تمهلا فى شق طريقه الى تجربته الجديدة ، ولذلك ترك الأيام تمر ، وراح يستمتع بكل لحظة منها ، تاركا للظروف خلق الفرصة التى يبوح فيها بغرامه •

وكان الخيال يرسم له ختام هذه القصة الغرامية فى موقف جميل بالحديقة الرائعة تحت ضوء القمر الساحر ، وفى أسلوب جذاب رشيق ، يتفق وجمال القصة والمكان ، ولكن الحوادث هدمت تخيلاته كلها ، إذ جاء الختام على مياه البحيرة فى وقت الظهر ، وبكلمات قليلة بسيطة : كانا يتنزهان معا فى القارب منذ الصباح ، يتنقلان من سان جينجولف الرزينة الى مونترو المرحة ، تحف بهما جبال الألب من ناحية ، وقمة جبل سان برنارد من الناحية الأخرى ، وأمامهما تظهر فيفاى وسط الوادى وبجوارها لوزان فوق التلال ، ومن فوقهما سماء صحو زرقاء ، ومن تحتهما مياه البحيرة التى انتشرت القوارب الجميلة على صفحاتها اللازوردية ، كأنها نوارس بيضاء ، تضرب الماء بجناحيها .

كانا يتحدثان عن بونيفارد وهما ينزلقان بالقارب أمام شيلون ، ثم ذكرا روسو وهما يمران بكلارنس .. المدينة التى كتب فيها قصته « هلواز » . ولم يكن أحدهما قد قرأ تلك القصة ولكنهما كانا يعرفان أنها قصة غرام ، ويتساءلان : هل كانت كحبهما قصة ممتعة ؟ .. وران عليهما الصمت لحظة كانت آمى خلالها تتأمل يدها المغموسة فى ماء البحيرة ، وحين رفعت رأسها رأت لورى يميل بجسده على المجاديف ، وفى عينيه تعبير جعلها تقول فى عجلة :

— انك متعب ولا شك ، فاسترح قليلا ودعنى آخذ المجذافين منك ، فانا لم أجدف منذ جئنا الى هذا المكان ، وحياتى كلها تنقضى فى خمول وكسل .

قال ، وكأنما الفكرة التى يعرضها ترضيه .

— لست متعبا ، ولكن لا مانع من أن تمسكى بأحد المجذافين ،

والمكان يتسع لكلينا ، وان يكن من الضرورى أن أجلس فى وسط المقعد حتى لا يدور بنا القارب •

ولم تجد آمى فى هذا الاقتراح حلا للموقف ، ولكنها قبلت ثلث المكان الذى قدمه لها ، ورفعت شعرها المتهدل على وجهها ، وأمسكت بالمجذاف وأخذت تحركه فى مهارة ، شأنها فى كل عمل تقوم به • وعلى الرغم من أنها كانت تستعمل كلتا يديها ولورى يستعمل يدا واحدة ، فقد تناسقت قوى المجذافين ، وسار القارب يشق الماء فى هدوء •

وقالت آمى تقطع حبل الصمت :

ــ ما أحسن تعاوننا على تسيير القارب !

قال :

ــ تعاون بديع • • بودى لو يدوم ، فهل توافقين يا آمى على أن نرتبط بمصير واحد ؟

همست قائلة :

ــ نعم ••• يا لورى !

ودون أن يشعرا بما يفعلان ، توقفا عن التجذيف ليضيفا منظرا جديدا جميلا الى لوحة الحب البشرى السعيد ، التى تنعكس صورها على صفحة البحيرة ••

الفصل الثانى والاربعون

بين زوايا الوحدة

يسهل على المرء أن يقطع على نفسه وعودا بالتضحية وانكار الذات ، اذا اندمجت نفسه وتلاشت فى شخص آخر حبيب اليه ، يراه دائما أمامه كمثل يحتذيه فى صفاء الروح ونقاوة المثل العليا • ولكن يشق على المرء أن يفى بوعوده هذه اذا غاب صوت الوحى عنه الى الأبد ، وذهب المثل الأعلى الى غير رجعة ، واحتجب الحبيب عن العيون فى ثنايا الأبدية ، تاركا وراءه أحزانا لا نهاية لها ••• فى مثل هذا الوضع وجدت جو نفسها بعد رحيل بث ، ورأت صعوبة الوفاء بعهودها على التضحية وانكار الذات • فكيف تستطيع أن تبعث السكينة والهدوء فى قلبى أمها وأبيها وهى لا تقوى على تهدئة سعير قلبها الذى يحترق بنيران الشوق الى أختها الراحلة ؟ وكيف يمكنها أن تشيع البهجة فى البيت بعد أن هجره النور والدفء والجمال حين غادرته بث الى مرقدها الأخير ؟ وأين تجد فى العالم كله عملا نافعا تسعد به وتشغل ، بعد أن انقضى عهد الخدمات العزيزة التى كانت تؤديها لأختها الراحلة ، فتلقى من تقديرها أجمل العزاء والسلوى ؟ لقد حاولت بكل جهدها أن تؤدى واجبها مغمضة العينين بلا أمل ، ولكن ثورة مكبوتة تملكت قلبها ، فقد بدا لها ظلما أن تسلب منها مسراتها القليلة المحدودة ، فى الوقت الذى يثقل فيه حمل أعبائها ، وأن تشتد عليها الحياة حين يتضاعف نصيبها من العمل والكفاح • ليس من العدل فى شىء أن يجد بعض الناس الحياة أمامهم كلها نضرة ونعيم واشراق ، ولا يجد بعضهم الآخر إلا ظلالا باردة موحشة • لقد جاهدت كى تصير فتاة طيبة صالحة

أضعاف ما فعلت آمى ولكنها لم تنل حقها من جزاء ، ولم تفز إلا بالشقاء والنصب وخيبة الأمل .

يا لجو المسكينة ! لقد مرت بها فى تلك الفترة أيام حالكة ، كان اليأس يستبد بها فيها حين تفكر فى أنها ستقضى بقية عمرها فى هذا البيت الهادىء ، لا تجد من المسرات إلا قليلا ، ولا من الأعمال إلا مُمِلَّها ، ولا من الواجبات إلا أثقلها !

وعندما فشلت جهودها فى قهر أحزانها ، وغلبتها التعاسة التى تولد عندما تخضع الارادة القوية لواقع الأمر مضطرة ، قالت لنفسها : انى لا أستطيع القيام بمهمتى ، لأنى لم أخلق لحياة كهذه ، واذا لم يبادر أحد بمعونتى ، فلابد أن تثور نفسى ، فأرتكب عملا طائشا .

ولم يخب رجاء جو ، فقد جاءها المعين دون أن تدرك ، وقيض الله لنجدتها ملكا بشريا ، وجهه مألوف لها ، وعباراته محببة الى نفسها .. كانت جو ، منذ رحيل بث ، تتخيل وسط الليل أن أختها تناديها ، فتقوم من نومها ملبية النداء مذعورة ، وما ان تنظر الى الفراش الصغير الخالى من صاحبته ، حتى تبكى بكاء حارا ، يكشف عن حزن عميق ، لم تستطع الأيام أن تتغلب عليه . ووسط هذه الدموع المنهمرة تصيح من أعماق قلبها : « بث ! أواه يا ربى ! عودى إلىّ » .. عودى إلىّ ! » ، ثم تمد ذراعيها فى ضراعة ، فلا تمتد عبثا ، إذ سرعان ما تسمع الأم صوت نحيبها فتهرع اليها كما كانت تفعل مع بث حين تسمع أناتها المتوجعة المكبوتة ، فتهرع اليها لتخفف عنها باللفظ الحلو والحنان البالغ ، فتمسح آلامها بلمسة خفيفة تنم عن حزن

أعمق من حزن جو ؛ أو بهمسة متقطعة أبلغ فى أثرها من الدعـوات • ولا غرابة فقد كان تسليمها بقضاء الله لا يقـل عن أملها فى رحمته • وفى هذه اللحظات المقدسة ، التى يتحـدث القلب فيهـا الى القلب فى سكون الليل ، فتتحـول الشدائد نعما بما تغرسـه من حب وما تزيحه من حزن •• والتى يتدفق فيهـا الحب الأمـوى ، فيخفف عن النفس همومها ، استطاعت جـو أن تحمل العبء بسـهولة ، وأن تتقبـل على أداء واجبها راضية النفس ، وبين ذراعى أمها الحنون أصبحت الحيـاة محتملة مقبـولة •

وحين سكنت آلام القلب قليـلا ، واسـترد العقل المتعب بعض هدوئه ، دخلت جو ذات يوم الى غـرفة المكتب ، وانحنت على رأس أبيهـا الأشيب الطيب ، فرفع بصره اليها يحييها ببسمة هادئة • قالت فى تواضع :

ــ هلا حدثتنى يا أبى كما كنت تحـدث بث ؟ ! انى أحتـاج الى حديثك أكثر مما كانت هى تحتاج اليه ، لأنى غارقة فى الخطـأ الى قمة رأسى !

قال فى صوت خفيض متقطع ، وهو يحتويها بين ذراعيه كما لـو كان هو الآخر فى حاجة الى معونتها ولا يخجله أن يطلبها منها :

ــ ليس أبعث الى راحة نفسى من ذلك !

وجلست جو بجواره على مقعد بث الصغير ، وراحت تقص عليه أحزانها الثائرة لفقد أختها ؛ ثم فشـل جهـودها فى التغلب على تلك الأحزان حتى تزعزع ايمانها ، وأصبحت حياتها مظلمة موحشة • • • منحته ثقتها كاملة ، فأعطاها العون الذى تنشـده ، ووجـد كلاهمـا

العزاء كل العزاء فى هذه الجلسة التى مكنتهما من أن يتحدثا معا ، لا كأب وابنته ، بل كرجل وامرأة يسرهما أن يتبادلا المعونة عن حب وعطف .

وفى هذا المكتب القديم ، الذى كانت جو تسميه « كنيسة الفرد الواحد » ، قضت الفتاة الحزينة وقتا عامرا بالتفكير والسعادة ، وخرجت منه وقد جددت شجاعتها ، واستعادت بشرها ، وسيطرت على روحها ، وصفت نفسها . وهكذا تكاتف الوالدان ، اللذان استطاعا أن يعدا طفلتهما لاستقبال الموت راضية شجاعة ، على أن يعدا طفلتهما الأخرى لاستقبال الحياة فى ثقة تعلمها كيف تنتهز الفرص الجميلة ، وتستمتع بها قوية راضية شاكرة .

وتوالت المعونات على جو ، فاستطاعت أن تدرك أن فى أداء الواجبات المتواضعة مسرات صغيرة تخفف عن نفسها ، فتضاءلت كراهيتها للمكانس والمناشف التى كانت من اختصاص بث فيما مضى ، وراحت طبيعتها المحبة لبث تدفعها الى استعمال مكنسة بث وفوطتها ، اللتين لم يلق بهما فى سلة المهملات أبدا . واعتادت حملهما بالتدريج ، ثم وجدت نفسها تترنم بالأغانى التى اعتادت بث أن تترنم بها وهى تشتغل ، كما سلكت فى تنظيم البيت سلوكها أيضا ، فتضفى لمسة هنا ولمسة هناك لتعيد الى الغرف رونقها السابق . هكذا بدأت جو طريقها الى إعادة السعادة المنزلية دون أن تشعر ، ولم تدرك كم بذلت فى هذا الطريق من خير ، حتى قالت لها حنة ذات يوم ، وهى تضغط على يدها تقديرا وإعزازا :

— يالك من مخلوقة ذكية ، يبدو أنك قد قررت ألا تدعينا نفتقد جهود راحلتنا العزيزة ، فقمت عنها بكل ما كانت تفعله .. إننا نرى ولا نتكلم ، فبارك الله فيك من أجل معونتك لنا !

وذات يوم جلست جو وميج تطرزان معا ، وطال الحديث بينهما ، فأدركت جو مدى التقدم الذى أحرزته أختها فى إدارة بيتها ورعاية شئون أسرتها ، وارتاحت نفسها لما سمعتها تتكلم عن أطيب دوافع النساء وأرق مشاعرهن ، وتصف بحماسة كيف أصبحت سعيدة بزوجها وأطفالها ، والى أى مدى تتبادل وجون المعونة فى سبيل تحقيق الهناء المنزلى • قالت ، وهى تصنع طائرة لابن أختها ديمى فى حجرة الأطفال ، التى انقلبت رأسا على عقب :

— الزواج حياة جميلة على كل حال ، ولكنى أتساءل هل يكون فى استطاعتى إذا ما تزوجت أن أحرز نصف ما بلغته من سعادة ؟

فقالت ميج :

— إنه الأمر الوحيد الذى يكشف عن الجانب الرقيق من طبيعتك النسوية ، أنت كثمرة الكستناء يا جو ، خشنة الملمس فى ظاهرها ، ناعمة كالحرير فى داخلها ، حلوة المذاق إذا استطاع إنسان أن يصل الى غورها • سيكشف الحب يوما عن دخيلة قلبك ، وعندئذ تسقط عنك هذه القشرة الخشنة ويظهر لبك الجميل •

قالت جو وهى تعالج طائرة ديمى ، وقد تعلقت بها ديزى كحمل ثقيل يمنعها من الطيران :

— لا أود يا سيدتى أن أكون كالكستناء ، فإن الصقيع يشقق قشورها الخشنة ، ولا بد من هزة عنيفة لإسقاطها من أشجارها ، ثم إن الصغار لا يسكتون عن محاولة جنيها ، ولست أحب أن أوضع فى الحقائب التى يجمعونها فيها •

وضحكت ميج وقد سرها أن ترى وميضا من روح جو القديمة ، وأحست فى ذات الوقت بواجبها فى إقناع أختهـا برأيهـا ، فراحت فى حديثها تقدم الدليل بعد الآخر ، وتوضح ما كان منه متصـلا بالأطفال الذين تحبهم جو • ولم يذهب حديثها سدى ، فالحزن عند بعض الناس خير مفتاح للقلوب المغلقة ، خصوصا أن جو كانت كالثمرة التى شارفت على النضج ، ولم يعد ينقصها سوى مزيـد من أشـعة الشمس لتبلغ كمالها •• لم يكن يصلح لقطافها هزة صبى صغير ضيق الصدر ، إنمـا كانت فى حاجة الى يد رجل قوى ، يخرجها برفق من بين الأشواك المحيطة بها ، ليستمتع بها سليمة كاملة • ولو أن مثل هذا الخاطر جال بفكر جو ، ما ترددت — عن إبراز أشواكها فى صمت وعنف ، ولكنها لم تكن عندئذ تفكر فى نفسها من حسن الحظ ، فلما حان الوقت سقطت ثمرتها الناضجة ، من غير أن تدرك أو تحس •

والعادة فى بطلات القصص الأخلاقية ، أن يظهرن فى صورة القديسات ، ويفقن أهل العالم فى عمل الخير ، ويملأن جيوبهن بالكتب الدينية • ولكن جو لم تكن بطلة بحال من الأحوال ، وإنما كانت امرأة تجاهد فى الحياة وتكافح ، شأنها شأن مئات من مثيلاتها • ولقد تصرفت بما توحيه عليها طبيعتها المتقلبة بين الحزن والغضب ، وبين الشرود والنشاط •

وجميل أن يقول المرء : سأكون طيبا ، ولكنه لن يستطيع أن يكون كذلك فورا ، فالأمر يحتاج منه الى مجهود طويل شاق ، وتعاون بالغ مع الناس ، حتى تتضح له طريق الخير ، فيستطيع أن يسير فيها • ولقـد وضعت جو قدميها فى أول الطريق ، بعد أن تعلمت كيف تؤدى واجبها ، ثم قطعت فيها خطوة أخرى حين روضت نفسها على الرضا بأداء هـذا الواجب • كانت أمنيتها دائما أن تقوم بعمل مجيد ، وأن تبلغ به غايـة

الكمال مهما اعترضها من صعاب ، فكان من حسن حظها أن تحققت أمنيتها بأنبل عمل تستطيع أن تقوم به فى حياتها ، ألا وهو خدمـة والديهـا ، وإسعادها فى شيخوختهما ، مثلما أسـعداها فى طفولتهـا . وإذا كانت الصعاب والشدائد ضرورية لتتمة الجهاد ، فليس أشق على فتاة طمـوح من أن تنزل عن آمالها وأمانيها مختارة ، لتحيا وتفنى فى خدمة الآخرين راضية !

لقد أخذتها المقادير عند كلمتها ، فأبرزت لها هدفا جديدا يختلف تمام الاختلاف عن أهدافها الأولى ، ولكنه يفوقها جمالا لخلوه من النفع الشخصى ، فهل تنجح فى بلوغه ؟ كان فى نيتها أن تحاول ، وقد شـاءت الظروف أن تنجح فى محاولتها بفضل معونة والديها ، ثم عرضت لها معونة أخرى قبلتها شاكرة ، لاكجزاء تستحقه ، بل وسـيلة الى الترفيـه عن النفس . فقد قالت لها أمها ذات يوم ، بعد أن انقشعت عن نفسها موجة القنـوط :

— لم لا تكتبين ، وقد كانت الكتابة تسعدك دائما ؟

قالت :

— قلبى لا يطاوعنى على الكتابة ، وحتى إذا استطعت أن أتغلب عليه فلن يهتم أحد بما أكتب .

قالت الأم :

— إننا معنيون جميعا بما تكتبين ، فاكتبى لنا ولا تهتمى ببقية العالم . حاولى يا عزيزتى ، فلا شك أن الكتابة تفيدك مثلما تسعدنا .

قالت جو :

ـ لا أستطيع ذلك على ما أعتقد •

ولكنها رغم ذلك • أخرجت محتويات مكتبها ، وبدأت تنظم مخطوطاتها التى لم تتم •

وبعد ساعة من هذا الحديث • استرقت أمها نظرة من ثقب الباب ، فوجدتها غارقة فى الكتابة وقد لبست ميدعتها السوداء : وبدا عليها منتهى الاهتمام والاستغراق ، فانسحبت مسز مارش بهدوء وعلى شفتيها ابتسامة الرضا بنجاح فكرتها •

ولم تدر جو كيف تسربت روحها الى القصة فسمت بها حتى جعلتها تصل الى صميم قلب من يقرؤها • وعلى غير إرادة منها أرسل أبوها القصة الى إحدى المجلات المعروفة ، فتلقتها الجريدة لا بالإعجاب فقط بل بدفع أجر عنها ، وطلب المزيد من أمثالها • وعندما نشرت القصة توالت على جو خطابات التقريظ التى بعث بها إليها أناس يعتبر مديحهم شرفا عظيما ، وتناقلت الصحف اليومية القصة ، وأعجب بها الأغراب والأصدقاء على السواء • ولقيت القصة ، على قصرها ، نجاحا كبيرا أدهش جو أكثر مما أدهشها مديح الناس وذمهم لقصتها الطويلة السابقة •• قالت وقد عقدت الحيرة لسانها :

ـ لست أفهم شيئا ! ماذا وجد الناس فى القصة ليغدقوا عليها هذا الثناء كله ؟

فقال أبوها :

ـ وجدوا فيها الصدق يا بنيتى ، فالقصة واقعية ، وهذا سر نجاحها •

لقد أضفى عليها اجتماع الحزن والمرح حيوية بالغة ، وسما فيها الأسلوب وبلغ منتهى الكمال ، لأنك كنت تكتبين بوحي من ذاتك ، لا من أجل الشهرة أو المال . كتبتها بقلبك فأخلصت وأبدعت . لقد ذقت المـر يا عزيزتي ، وها أنت تتمتعين بالحلو أخيرا ! ابـذلي جهـدك يا جـو واسـعدي بنجاحك مثلما نحن سعداء .

قالت وقد غلبها التأثر لكلمات أبيها :

— إذا كان في القصة شيء صادق أو جميل فهو ليس من صنعي ، والفضل لك ولأمي ولبث .

وهكذا تعلمت جو من الحزن والسرور أمـورا كثيرة سـطرتها في قصصها فكسبت لنفسها ولقصصها من بين القراء أصدقاء يعتد بهم . وقد وجدت أيضا أن العالم بار بهذه الشـوارد الذهنية المتواضعة يتقبلها في رفق ، ليعيدها إليها في صورة تقدير جميل .

وحين كتبت آمي ولـوري ينبئان الأسرة بخطبتهما ، خشيت مسز مارش أن يشق الأمر على نفس جو ، فلا تستقبل الخبر بما يستحقه من غبطة وسرور ، ولكن سرعان ما تبددت مخاوفها ، فبالرغم من أن جـو دهشت للنبأ في بداية الأمر ، غير أنها لم تلبث أن استردت هـدوءها ، وراحت تسلي نفسها بإعداد مشروعات عظيمة للخطيبين الصغيرين . وكان الخطاب في الحقيقة أشبه بمبارزة غرامية ، تسابق فيها كل من المحبين الى الإشادة بصاحبه في أسلوب جميل ينطق بالإعزاز ، فجـاء الخطاب مبهجا لمن يقرؤه ، مرضيا لمن يفكر فيه ، وليس لأحد اعتراض عليه .

قالت جو لأمها ، بعد أن وضعت الخطاب الضخم جانبا :

— أيسرك هذا الأمر يا أماه ؟

قالت :

— نعم ، وكنت دائما أتمنى ذلك • لقد أدركت يوم أنبأتنا آمى برفضها خطبة فريد فوهن ، أن شيئا أغلى مما أسميته « الروح التجارية » قد غلب على نفسها • وأحسست من بعض الإشارات والكلمات التى وردت فى رسائلها أن الحب ولورى سيكسبان المعركة •

قالت جو :

— ما أقوى ملاحظتك يا أماه ، وما أشد صمتك ! كنت تتوقعين الأمر ، ولكنك لم تشيرى إليه بكلمة واحدة •

قالت :

— على الأمهات إذا أردن تسوية أمور بناتهن أن يلاحظن فى صمت ، وكنت أخشى ، الى حد ما ، أن أصارحك بما يجول فى ذهنى ، فتسرعى بتهنئتهما قبل الأوان •

قالت جو :

— لم أعد طائشة الذهن يا أماه ، أنا الآن عاقلة رزينة ، ولى من الحكمة ما يجعلنى أحرص على ثقة الناس ، وأصون أسرارهم •

قالت الأم :

— نعم أنت حريصة وكتوم يا بنيتى ، وكان بودى أن أستودعك سرى • ولكنى خشيت أن تتألمى إذا عرفت أن عزيزك « تيدى » قد أحب فتاة غيرك •

قالت :

— لا يا أماه • لست غبية أو أنانية لأتألم بعد أن رفضت حبه حين عرضه فى أبهى صـورة •

قالت الأم :

— لست أشك فى أنك كنت مخلصة حين رفضت حبه يا جـو ، ولكن لا أخفى عليك أن نفسى كانت تحدثنى أخيرا أنه إذا عاد وطلب يدك مرة أخرى ، فقد تقولين له قولا آخر • سامحينى يا صـغيرتى ، فلم يكن يسيرا علىّ أن ألمس عذابك فى وحدتك ، وأرى فى عينيك أحيانا نظـرة جائعة تقطع نياط القلوب • ظننت الفتى قد يملأ فراغ نفسك إذا عـاد الى طلب يدك من جديد •

قالت جو :

— لا يا أماه ! الخير فيما اختاره الله ، وأنا سعيدة أن أحبته آمى • ولكنك محقة فى أننى أشعر بالوحدة والوحشة ، وربما قلت نعم للورى إذا حاول مرة ثانية ، لا لأنى ازددت حبًا له ، بل لأنى أصبحت أهتم بأن أكون محبوبة أكثر من ذى قبل •

قالت أمها :

— ما أعظم سرورى بهذا القول يا جو ! فهو يدل على أنك تتقدمين فى معنوياتك • هناك كثير يحبونك ، فحاولى أن تقنعى بمحبة أبيك وأمك وأخواتك والطفلين والأصدقاء ، حتى يخـرج من بينهم خير المحبين ، فتنالى بذلك أحسن الجزاء •

قالت جو :

— إن الأمهات خير المحبين فى الدنيا ، ولكن لا يخجلنى أن أهمس فى أذنك يا أماه بأنى أريد تجربة كل أنواع الحب • وهذا شعور عجيب • فكلما حاولت إرضاء نفسى بأنواع الحب الطبيعى ازددت شوقا الى المزيد ولم أكن أعتقد أن القلوب يمكن أن تتسع لكل هذا ، وقلبى فى غاية المرونة وأخشى أنه لم ينل غايته بعد • لقد اعتدت أن أقنع بمحبة أسرتى ، ولست أفهم سر هذا التحول الذى انتابنى •

وانحنت جو على خطاب آمى تعيد قراءة ما كتبته أختها عن لورى ، فقالت مسز مارش وهى تبتسم برزالة :

— ولكنى أفهمه !

وقرأت جو ما كتبته آمى :

« إنه لشعور جميل أن يكون الإنسان محبوبا بالقدر الـذى يحب لورى به • إنه لا يتكلم عن الحب إلا قليلا ، ولكنى أشعر بعواطفـه فى حركاته وسكناته وفى كل ما يقول وما يفعل • وهذا الشعور يجعلنى سعيدة جدًا وضئيلة جدًا أمام هذا الحب العظيم • الحقيقة أنى تغيرت ولم أعد الفتاة التى كنتها من قبل • وما عرفت طيبة لورى وكرمه ورقته كما عرفتها الآن ، فهو يسمح لى أن أستشف ما انطوى عليه قلبه من دوافع نبيلـة وآمال واسعة أفخر بها • لأنى أعلم أنها كلها لى • إنى أحب لورى من صميم قلبى وروحى ، وبكل ما فى من قوة وعزم ، ولن أتخلى عنه ما أمد الله من عمرنا معا ، أواه يا أماه ! لم أكن أدرى أن الحب المتبادل يحول هذه الأرض الى جنة سماوية !! » •

وطوت جو صحائف الخطاب معا بعناية ، كما تطوى صحائف قصة جميلة تستهوى القارىء ، وتستأثر بمشاعره حتى يتمها ، فإذا أتمها وتلفت حوله وجد نفسه وحيدا وسط مشاغل الحياة اليومية •

قالت لأمها :

ـ أهذه أختنا آمى العاقلة المتحفظة الهادئة ؟ حقًا إن الحب يصنع المعجزات ! ما أعظم سعادتها ! لا بد أنهما غارقان فى بحور الهناء •

وبعد قليل أخذت جو تطوف أنحاء البيت وهى فى طريقها الى الطابق العلوى ، فقد كان الجو مطيرا لا يسمح بالمشى ، وتملكتها روح القلق ، وطغى عليها ذلك الشعور الذى كاد يجرفها بتياره أول الأمر ، ولكنه لم يكن قاسيا فى هذه المرة ، بل كان مجرد أصداء حزينة لأسئلة تتردد فى نفسها قائلة : لماذا تنال أخت كل ما تطلب وتحرم أخت من كل شىء ؟ • • وكانت جو أعلم بما فى ذلك الخاطر من سوء ، فحاولت ابعاده من رأسها ، ولكن رغبتها فى أن تكون محبوبة كانت قوية متمكنة ، فأيقنت أن سعادة آمى تعطش نفسها الى أن يكون لها من يحبها قلبا وروحا ، ويتمسك بها ما أمد الله فى عمرهما معا • وظلت جو تطوف بالبيت على غير هدى ، حتى ساقتها قدماها الى غرفة السطح ، حيث وجدت أربعة صناديق مصفوفة ، يحمل كل منها اسم صاحبته • وكانت الصناديق مليئة بمخلفات الطفولة التى انقضت من حياتهن جميعا ، فألقت جو على الصناديق نظرة فاحصة ثم استقرت عيناها على صندوقها ، وأسندت ذقنها على حافته ، وراحت تحملق مشدوهة فى محتوياته المشوشة ، حلتى رأت حزمة من الكراسات القديمة • فأخرجتها ، وأخذت تقلب صفحاتها وتستعيد ذكريات أيام الشتاء الحلوة ، التى عاشتها مع مسز كيرك العطوف • وابتسمت فى أول الأمر ، ثم استسلمت لموجة من التفكير انتهت بها الى الحزن ، وحين

عثرت على رســالة صغيرة مكتوبة بخط الأســتاذ ، بــدأت شــفتاها ترتجفان ، وسقطت الكتب من حجرها ، وجلست تنظر الى الكلمات العزيزة ، كأنما تقرأ فيها معانى جديدة تمس شغاف قلبها ، كانت الكلمات تقول :

« انتظرينى يا صديقتى .. قد أتأخر قليلا ، ولكنى سأحضر حتما ! »

قالت لنفسها : أواه ! ليته يأتى حقًا ! إنه طيب حنون صبور ، ذلك العزيز فريتز ! لم أكن أقدره حق قدره حين كان معى ، أما الآن ، فبودى أن أراه ، بعد أن تخلى الناس عنى ، وتركونى وحيدة حزينة .

وضمت الورقة الصغيرة الى صدرها بقوة ، كأنما هى وعد ما زال قائما ، ثم أسندت رأسها الى حقيبة مريحة ، وأخذت تبكى بدموع لا تقل غزارة عن الأمطار المنهمرة فوق السطح .

أكان البكاء رثاء لنفسها وما صارت إليه ، أم كان للوحدة : أم لانهيار روحها المعنوية ؟ أم تراها بكت ليقظة عاطفــة جديدة ظلت حبيســة فى صدرها ، تنتظر الفرصة التى حان وقتها ؟ ترى ، من يعرف الحقيقة ؟؟

الفصل الثالث والأربعون

مفاجـآت

رقدت جو على الأريكة القديمة وحيدة ، تقضى ساعة الغسق على طريقتها الخاصة ، دون أن يعكر صفوها أحد ، وقد استغرقت فى التفكير وسرحت ببصرها الى النار • كانت قد اعتادت أن تستند الى وسادة بث الحمراء وهى تصوغ أفكارها فى قصص ممتعة ، أو تفكر حزينة فى أختها الراحلة • وكانت فى ذلك اليوم بادية الحزن والتعب والإرهاق ، فقد كان عيد ميلادها الخامس والعشرون فى اليوم التالى ، فراحت تفكـر كيف تعاقبت السنوات بهذه السرعة ، وكيف تقدم العمر بها هكذا ولم تحقق إلا قليلا من آمالها • كانت تعتقد لأول وهلة أنها لم تأت عملا قيما ، فلما استوضحت أحوالها ، وجدت أنها فعلت كثيراً فى الـواقع • قالت وهى تتنهـد :

— ترى ما المصير ؟ ! لقد تقدم العمر بى ، ولست أكثر من عانس أديبة ، زوجها القلم ، وقصصها أسرتها وأطفالها ! وقد يمضى عشرون عاما حتى أنال بعض الشهرة ، ولكن ما الفائدة ؟ سأكون عجوزا فلا أتمتع بها ، وحيدة لا أجد من يقاسمنى إياها ، قانعة فلا أحتاج إليها ! على أى حال ، لا داعى لأن أصبح لاذعة اللسان انانية ، فبعض العوانس يعشن حياتهن فى راحة ، بعد أن يعتدن عليها ، ولكن •••

وتنهدت جو • فقد كانت الصورة التى تتخيلها قاتمـة مؤسـفة ، لا ترضى فتاة فى الخامسة والعشرين من عمرها ، كانت تعتقـد أن سن الثلاثين التى تقترب ، هى نهاية كل شىء فى الحياة ، والحقيقة غير ذلك ، فباستطاعة الفتاة أن تعيش الى تلك السن سعيدة إذا كان فى ماضيهـا

ما يعمر حاضرها بالذكريات الحلوة • والفتاة فى الخامسة والعشرين تتكلم عن نفسها كأنها عانس ، مع أنها لا تنوى أن تكون عانسا بأى حال من الأحوال • فإذا بلغت الثلاثين ، لا تذكر كلمة عانس مطلقا ، ولكنها تقبل الواقع صامتة ، واذا كانت فتاة عاقلة ، تعزت بأن أمامها عشرين عاما أخرى من الحياة النافعة ، التى تتعلم خلالها كيف تصير عجوزا طيبة •••

لا تضحكن من العوانس يا فتياتى ، فكثيرا ما كانت ملابسهن القاتمة تخفى تحتها مآسى عاطفية صنعتها التضحيات البالغة بالشباب والآمال والصحة ، بل بالحب أيضا •• وهذه التضحيات الكريمة تكسب الوجوه الذابلة أمام الله جمالا ما بعده جمال • يجب أن نترفق بأخواتنا العانسات ، حتى الحزينات منهن أو سليطات اللسان ، فقد فاتهن التمتع بأحلى وقت فى حياتهن •• انظرن إليهن نظرة رحيمة لا ازدراء فيها ، وعلى كل فتاة فى زهرة العمر أن تذكر دائما أنه قد يفوتها موسم القطاف ، وأن ورد الخدود لا يدوم ، وأن الشيب يغزو الخصلات الفاحمة فى يوم من الأيام ، وعندئذ تصبح للشفقة والاحترام حلاوة تضارع الحب والتقدير ق

وأنتم أيها السادة ، أو بالأصح أيها الفتيان ، احترموا العوانس مهما كن فقيرات أو دميمات أو عجيبات ، فإن أشهم الرجال أقدرهم على احترام الشيخوخة ، وحماية الضعف وخدمة الجنس اللطيف ، بغض النظر عن المركز أو الشكل أو اللون • اذكروا العمات الطيبات ، لا لنصائحهن ومحاضراتهن ، بل لما تجشمن من عناء فى تربيتكم وتدليلكم ولم يتلقين شكرا أو تقدير •• وأذكروا الورطات التى أنقذنكم منها ، والهبات المالية التى نفحنكم بها • ، واذكروا الثقوب التى رتقنها بأصابعهن الواهنة ، والخطوات التى مشينها من أجلكم بأقدامهن الواجفة ••

اذكروا كل هذه الصنائع وقدموا فروض الاحترام اعترافا بجميل أولئك العانسات ، وأحيطوهن بمظاهر العناية التى يحبها النساء مـا حيين • واعلموا أنه لو فرق الموت بين أحدكم وأمه ، وليس غير الموت من قـوة تستطيع ذلك ، فسيجد العوض فى الخالة بريسلا مثلا ، التى ما زالت تحتفظ لابن أختها المحبوب بأدفأ ركن فى قلبها العجوز •

لابد أن جو قد استسلمت للنعاس ــ كمـا استسلم لـه القارىء أثناء هذا الموعظة الصغيرة ــ إذ تخيلت أن لورى واقف أمامها ، ولكنها لم تلبث حتى تبينت أن الأمر حقيقة لا خيال فيها ، فقد كان الفتى يقف أمامها ، وفى عينيه تلك النظـرة التى تفيض بالعاطفة المكتومة ، ولـم تصدق أنه لورى بلحمه ودمه ، فظلت تحملق فيه فى صمت واجف ، حتى انحنى عليها وقبلها • وعندئذ هبت من رقدتها وهى تصيح مسرورة :

ــ أوه ! أنت ياتيدى ! أهذا تيدى العزيز ؟

قال :

ــ إذن فأنت مسرورة برؤيتى يا عزيزتى جو ؟

قالت :

ــ مسرورة ؟ إن الكلمات لا تستطيع ان تعبر عن مـدى سرورى يا ولدى المحبوب ! أين آمى ؟

قال :

ــ عرجنا فى الطريق على بيت ميج ، فتركت زوجتى هناك مع أفراد الأسرة بعد أن أخفقت فى إنقاذها من قبضتهم •

صاحت جو ، وقد لمست فى صوته إعزازا يكشف عن حقيقة شعوره :

ــ زوجتك ! ؟ ماذا تعنى ؟

قال وقد بدا عليه الحرج :

ـ يا إلهى ! لقد بحت بسرى عن غير قصد !

فأردفت جو تقول بسرعة :

ـ إذن فقد تزوجت ؟

فركع على ركبتيه وقد ضم يديه كمن يطلب المغفرة ، ثم قال وفى عينيه أجلى معانى المزح والنصر :

ـ نعم ، تزوجت ، ولن أفعلها مرة ثانية !

قالت :

ـ تزوجت فعلا ؟

قال :

ـ نعم ، تزوجت الى أقصى حد !

فجلست جو على كرسيها وقالت وهى تتنفس الصعداء :

ـ رحمتك يا إلهى ! ترى أى عمل مخيف ترتكب بعد ذلك ؟

قال وهو يبتسم فى رضا وسرور ، وما زال راكعا على ركبتيه أمامها :

ـ طريقتك المعهودة فى التهنئة ، وما زالت غير مشجعة !

قالت :

ـ وهل كنت تتوقع غير ذلك بعد أن تسللت إلىّ كاللصوص فأفزعتنى ؟ انهض أيها الفتى المضحك ، وحدثنى بقصتك كلها .

قال :

ـ لن أنطق بكلمة واحدة إلا بشرطين : أن تسمحى لى بالجلوس فى مكانى القديم ، وألا تقيمى حاجزا بينى وبينك !

وضحكت جو كما لم تضحك منذ زمن طويل ، وربتت على الأريكة بيدها تدعوه ، ثم قالت فى صوت حنون :

ـ وضعنا الوسادة القديمة فى المخزن بعد أن زال الاحتياج إليها ، فتعال واعترف لى بما حدث يا تيدى .

قال وهو يجلس على الأريكة ، وقد تملكه شعور بالرضا :

ـ ما أحلى أن أسمعك تقولين « يا تيدى » ، فما من أحد ينادينى بهذا الاسم إلا أنت .

سألته :

ـ وبماذا تدعوك آمى ؟

قال :

ـ تقول : « مولاى » !

قالت وقد امتلأت عيناها إعجابا بفتاها الذى ازداد ظرفا ووسامة عما كان :

ـ هذه طريقتها ! ولكنك أهل لهذا النداء .

لم تكن هناك وسادة تحجز بينهما ، ولكن كان هناك حاجــز غير منظور ، أقامة الزمن والبعد وتغير القلوب ، وأحس الاثنان به ، فأمعن

كلاهما النظر فى وجه صاحبه ، كأنما هذا الحاجز قد ألقى عليهما ظــلا خفيفا لم يلبث أن انقشع . قال لورى وهو يصطنع الوقار :

ــ ألا أبدو كرجل متزوج ورب أسرة ؟

قالت :

ــ أبدا ! ولن تبدو كذلك فى يوم من الأيام . ولقــد كبرت قليلا وازددت وزنا ، ولكنك ما زلت كما كنت ، ولا أمل فى إصلاحك .

قال :

ــ لا يا جو . يجب أن تعامليني الآن باحترام أكثر من ذى قبل .

قالت ، وقد أشرق وجهها بالابتسام :

ــ وكيف أحترمك ، ومجرد التفكير فى أنك تزوجت يضحكنى ويذهب بوقارى ؟

وانخرطت فى الضحك ، وسرت العدوى الى لورى ، فراح يضحك معها ، ثم هدءا بعد لحظة وجلسا يتبادلان الحديث بطريقتهما القديمــة المحبوبة ، قالت :

ــ لا فائدة من أن تخرج لإحضار آمى فى هــذا الجــو البارد ، وسيحضرون جميعهم فورا .

قال :

ــ لم أستطع الصبر ، وأردت أن أكــون أول من ينبئك بالمفاجأة الكبرى . تماما كما كنت ألعق أول قطفة ، ونحن نتشاحن على القشدة !

قالت :

— أشهد أنك وفقت ، ولكنك بدأت القصة من نهايتها فأفسدتها . والآن ، عد إلى أولها ، وأخبرني كيف حدث ذلك ، فأنا مشوقة لسماع أخبارك من أولها .

قال وقد التمعت عيناه :

— حسنا ، لقد فعلتها لأدخل السرور على آمي !

فصاحت جو :

— هذه أول كذبة مفضوحة ! قل إنك فعلتها لتدخل السرور على قلبك . عليك بالصدق إذا استطعت يا سيدي !

فقال لوري ، وقد سره أن يرى بزيقا من صورة طبعها القديم :

— الأمر سواء في الحالتين . كنا قد قررنا العودة الى الوطن في صحبة آل كرول منذ شهرا أو أكثر ، ولكن آل كرول قرروا ، في آخر لحظة أن يقضوا شتاء آخر في باريس ، ولما كان جدي يريد العودة الى الوطن ، وهو كما تعلمين لم يسافر الى الخارج إلا من أجلي ، فلم يكن في الإمكان أن أبقى مع آمي ونتركه يعود وحيدا ، ولم يكن في الإمكان كذلك أن أترك آمي وحدها وأعود مع جدي . ولما كانت كارول شديدة التمسك بالتقاليد الإنجليزية المحافظة ، فقد رفضت أن تسمح لآمي بالعودة معي وحدي دون مرافقة ترعاها . وتعقدت المشكلة بهذا الشكل ، فرأيت أن نتزوج ثم نفعل ما نريد .

فقالت جو :

— ونفذت رأيك بالطبع ، لأنك تفعل عادة ما يعجبك !

قال :

— ليس دائما !

وأحست جو فى نبرات صوته بما جعلها تبادر بسؤالة قائلة :

— وكيف أمكنك أن تقنع العمة بالموافقة ؟

قال :

— كانت مهمة عسيرة ، ولكننا تذرعنا بأقوى الحجج ، فهزمناها فى حلبة المناقشة ، وذكرناها بأن الوقت لا يتسع لاستئذانكم كتابة ، وليس من داع الى ذلك ، ما دمتم وافقتم على الخطبة ورحبتم بها ، وهكـذا وقفت الظروف الى جانبنا ، وأصبحت المسألة لا تحتاج إلا خطوة حازمة كما قالت زوجتى •

فقاطعته جو ، وقد رأت فى عينيه لهيب العاطفة ، وأسعدها أن ترى ذلك اللهيب يحتل مكان الحزن الذى غلبه حين تقابلا آخر مرة :

— ألا تشعر بالفخر وأنت تردد كلمة « زوجتى » ؟

قال :

— قليلا وأحيانا ، إنها امرأة صغيرة فاتنة لا يملك المرء إلا أن يفخر بها • وعلى كل حال ، استطعنا أن ننال موافقة العمة والعم كارول ، فتوليا الأمر كوالديها • وكان الترتيب الذى اقترحته سببا فى تيسير الأمـور كلها ، فقد كنت وآمى غارقين فى الحب تماما ، ولو افترقنا لصرنا عديمى القيمة ، ولذلك نفذنا الاقتراح كما ترين •

قالت جو ، وقد تملكتها حمى الفضول النسوى ، فأرادت أن تعرف كل صغيرة وكبيرة :

ـ ومتى كان ذلك ، وأين كان وكيف كان ؟

قال :

ـ تزوجنا منذ ستة أسابيع فى القنصلية الأمريكية بمدينة باريس ، ولم ننس فى غمرة سعادتنا عزيزتنا بث ، لذلك أقمنا شعائر الزواج بلا احتفال .

وتأثرت جو لكلامه فضغطت بيدها على يده ، وتشاغل لورى بتسوية الوسادة الحمراء الصغيرة ، التى يذكرها جيدا ولا ينساها . وخيم الصمت عليهما لحظة ، ثم عادت جو تسألة فى لهجة أشد هدوءا :

ولمَ لم تخبرنا بالأمر بعد ذلك ؟

قال :

ـ أردنا أن نفاجئكم به ، وكنا نظن أننا سنعود فورا للوطن ، ولكن الجد العزيز أجل السفر حين عرف بالخبر ، وسمح لنا بشهر عسل نقضيه أينما نريد . وكانت آمى قد وصفت الحياة فى فالروزا بأنها شهر عسل مستديم ، فذهبنا إليها وسعدنا كما لم يسعد أحد من قبل .. كان غراما بين الورود !

واغتبطت جو إذ لمست فى حديثه دلائل نسيانه التام لما كان بينه وبينها ، وأكد لها أسلوبه الصريح الواضح أنه سامحها ونسى حبها . وهمت بسحب يدها من يده ، ولكنه تشبث بها ، وقد أدرك الشعور الذى أوحى إليها بهذه الحركة ، ثم قال فى رزانة لم تعرفها فيه من قبل :

— أريد أن أقول لك شيئا واحدا يا عزيزتى جو ، ثم نترك الأمـر كله جانبا الى الأبد .. عندما ذكرت لك فى خطابى أن آمى تعطف علىّ ، أكدت الى جانب ذلك حبى لك ، وكنت صادقا كل الصدق ، ولكن حبى تغـير الى الأحسن ، بعـد أن تبادلت وآمى مكانيكما فى قلبى . وكان لا بد أن ينتهى الأمـر الى ذلك ، لو أننى أخـذت بنصيحتك وانتظرت للتأكد من عاطفتى ، ولكنى لم أستطع على الموقف صـبرا ، فأصـبت بوجيعة فى قلبى .... كنت صبيًا عنيفا عنيدا ، فاحتاج الأمر الى درس قاس لأتبين خطئى . وأقسم لك أننى تحيرت فى وقت ما ، اختلطت علىّ عواطفى نحوكما ، حتى لم أميز أيكما أحب إلىّ من الأخرى .. حاولت أن أقسم حبى بينكما مناصفة فلم أستطع ، وحين تقابلت معها فى سويسرا ، تكشفت عواطفى فورا ، راحتلت كل منكما مكانهـا الصحيح فى قلبى ، وتأكد لى أن الحب القديم قد ذهب قبل أن يحل محله حب جديد ، كمـا أدركت أنى أستطيع أن أقسم قلبى بين أختى جو وزوجتى آمى وأحبهما معا حبًا خالصا . فهل تصدقيننى الآن ، وهل تعدينني أن نعود سيرتنا الأولى ، كما كنا فى الأيام السعيدة الماضية ؟

قالت :

— نعم ، أصدقك من كل قلبى ، ولكن ألا ترى يا تيدى أننـا لن نستطيع أن نعود صبيًا وفتاة ، ولا يصح أن نتوقع ذلك ، بعد أن ذهبت الأيام السعيدة وانتهى أمرها ؟ إننا الآن رجل وامرأة ، علينا واجباتنا نؤديها ويجب أن نكف عن المجون ، فوقت اللهو قد انقضى . لست أشك فى أنك توافقنى على ذلك ، فإنى أراك قد تغيرت ، وأظنك ترانى قد تغيرت كذلك .. أؤكد لك أننى سأفتقد لورى الصبى ، ولكنى سأحب لـورى الرجل وأحترمه من صميم قلبى ، لأنه سيحقق آمالى فيـه . دعك من

صداقة المزاح واللعب ، والأفضل أن نكون أخا وأختا يتبادلان المحبة والمعونة طيلة حياتهما .. أليس كذلك يا لورى ؟

وفى صمت تام أخذ لورى اليد التى قدمتها له ، وأسند وجهه إليها لحظة ، وهو يشعر بأن صداقة جميلة قوية تنبعث من بين أنقاض هوى الشباب الماضى .. وانشرح قلب جو ، فبادرت تقول بسرعة ، كارهة أن ينسيه الحزن جمال عودته الى الوطن :

— لا أكاد أصدق أن طفلىّ قد تزوجا ، وأنهما فى طريقهما للعناية بشئون بيتهما ، فما زلت أتخيل الماضى كأنه أمس قريب ، حين كنت أثبت أزرار آمى فى مرولتها ، وأشد شعرك عندما تغيظنى ! رحمتك يا إلهى ! كم يسرع الوقت فى مضيه ! ؟

قال لورى ، وهو ينظر إليها مسرورا بلهجتها الأمية :

— كفى عن لهجة الجدّات هذه ، فأحد الطفلين اللذين تذكرينهما يكبرك سنًا . إنى لأفخر أحيانا بأننى كبرت ، وأصبحت سيدا ناضجا ، وعندما تأتى آمى سترين بعينيك كم نمت الطفلة قبل الأوان !!

قالت جو :

— قد تكون أكبر منى سنًا ، ولكنى أكبر منك حسًا وشعورا يا تيدى . شأنى فى ذلك شأن النساء ، أشعر أننى بلغت الأربعين بعد ما اختبرتنى محن السنة الماضية .

قال لورى وهو يشد شعره أسفا :

— مسكينة أنت يا جو ! لقد تركناك تحملين العبء وحدك ، ورحنا نجرى وراء مسراتنا . نعم ، أنت أكبر منى ، والدليل على ذلك هذه

التجاعيد والخطوط .. عيناك حزينتان إلا عندما تبتسمين ، ودموعك ما زلت ألمسها على الوسادة .. لقد تحملت وحدك أعباء جسيمة ، فيالى من وحش أنانى !

وقلبت جو الوسادة التى أفشت سرها ، وقالت فى صوت حرصت ان تملأه بالبشاشة والبهجة :

— لا ، لم أكن وحدى ، فقد وقف أبى وأمى الى جانبى يساعداننى ، وراح طفلا ميج يروحان عنى ويسليانني ، وكان مجرد التفكير فى سعادتك مع آمى تخفيفا عظيما للألم . إن الشعور بالوحدة ينتابنى أحيانا ، ولكنه شعور مفيد لى ، و ..

وقاطعها لورى وهو يضع ذراعه حولها ، كأنه يحميها من كل شر :

— لن تكونى وحيدة بعد الآن . أنا وآمى لا نستطيع السير بدونك ، فيجب أن تأتى إلينا ، لتعلمى طفليك كيف يدبران شئون بيتهما ، على أن نتقاسم كل شىء على عادتنا القديمة .. دعينا ندللك ونعنى بك ، فنعيش معـك أسعد الناس .

قالت :

— إذا لم يعكر وجودى صفوكما ، فليس أحب إلىّ من صحبتكما ، ولقد بدأت أشعر بالشباب من جديد .

ومالت برأسها على كتفه ، كما كانت تفعل منذ سنوات ، عندما كان مرض بث يشقيها ، فيهيب بها لورى أن تعتمد عليه . ونظر لـورى إليها وهو يسأل نفسه : أما زالت تذكر تلك الأوقات ؟ ولكن جو كانت تبتسم راضية ، كأنما متاعبها قد اختفت بقدومه . وضحك لورى وقال :

ـ ما زلت على عهدك يا جو ، تبكين لحظة ، ثم تضحكين بعدها ، المكر واضح فى عينيك الآن ، فما الأمر يا جدتاه ؟

قالت :

ـ إنى لأتساءل كيف تسير الأحوال بينك وبين آمى ؟

قال :

ـ كأننا ملائكة !

قالت :

ـ البداية هكذا دائما ، ولكن أيكما ياترى الحاكم الآمر ؟

قال :

ـ لا يضيرنى أن أعترف بأنها الحاكمة ، أو هذا على الأقل ما أشعرها به لأسعدها ، ولكن الأوضاع ستتغير بمضى الوقت ، فالزواج ـ كما يقولون ـ يقسم الحقوق ويضاعف الواجبات •

قالت :

ـ ستبقى الأوضاع على ما بدأت به ، وستحكمك آمى طول حياتك •

قال :

ـ يسرنى أن تحكمنى دون أن أشعر ، فهى قديرة على سياسة الرجال ، وبوسعها أن تلف الواحد منهم حول إصبعها كخيط من الحرير ، وتجعله يعتقد فى ذات الوقت أنها تكرمه بذلك وتبجله •

فصاحت جو وهى ترفع يديها :

— من كان يظن أن يطول بى العمر حتى أرى رجلا سعيدا بسيطرة زوجته عليه ؟ !

وكان منظرا ممتعا أن فرد لورى كتفيه فى زهو وخيلاء كأنه يقول : « يا أرض ما عليك إلا أنا » !

قال :

— ليس أبغض إلى نفسى من الطغيان ، ولا أظن تربية آمى تسمح بذلك وأنا وزوجتى نتبادل الاحترام بما لا يدع سبيلا الى العراك أو الاستبداد .

وأعجبت جو بما رأت من اعتداده بنفسه ، واختلط إعجابها على الصبى الذى يتحول بسرعة الى رجل : قالت :

— إنى واثقة بذلك ، ويقينى أن آمى لن تتعارك معك مثلما كنا نفعل أنا وأنت ، فهى الشمس المشرقة ، رأنا الرياح العاصفة ، والقصص الخرافية تقول إن الشمس المشرقة أقدر على حكم الإنسان .

فضحك لورى وقال :

— قد تشرق الشمس ، وقد تحرق أيضا ! أؤكد لك أن المحاضرة التى ألقتها على فى مدينة نيس ، كانت أقسى من أى تعنيف سمعته منك .. إن لها قدرة عجيبة على الاستثارة ، وسأقص عليك يوما ما قالته اذ ذاك ، ولكنها لن تكرر أقوالها مرة أخرى ، فبعد أن أعلنت احتقارها لشأنى ، عادت فأحبتنى ثم تزوجتنى .

فقالت جو :

ــ يا للوضاعة ! اذا أساءت اليك مرة أخرى فتعال الىّ لأدافع عنك ! قال :

ــ كما لو كنت محتاجا الى هذا الدفاع !

وهب واقفا ، وقد انقلب من الصرامة الى المرح ، حين سمع صوت آمى تنادى :

ــ أين هى ؟ أين عزيزتى جو ؟

ودخل صف « طابور » الأسرة كله ، وابتدأ العناق والتقبيل من جديد ، وبعد عدة محاولات يائسة ، استطاع الرحل الثلاثة أن يجلسوا أمام النظرات الفاحصة : كان مستر لورنس قويا معافى كشأنه دائما ، وأفادته رحلته الى الخارج كما أفادت الآخرين تماما ، فزال عنه تصلبه ، وتهذبت طريقته القديمة فى الحفاوة والترحيب ، وازدادت لهجته رقة وحنانا • وكان جميلا أن يشرق وجه مستر لورنس كلما نظر الى « طفليه » ، كما كان يسمى العروسين الشابين : وكان أجمل من ذلك أن نرى آمى تأسر قلبه بحبها البنوى الخالص • وكان أجمل من كل هذا وذاك أن نرقب لورى وهو يدور حول الأختين ، كأنه لا يمل النظر الى جمالهما •

وحين وقع نظر ميج على آمى ، أدركت لفورها أن الثياب التى ترتديها خالية من الطابع الباريسى الظاهر فى ثياب أختها ، وأن روعة مسز اورنس الشابة ستكسف مسز موفات نهائيا ، وأن العروس الجديدة غاية فى الأناقة والرشاقة • وقالت جو لنفسها وهى ترقب الزوجين :

« ما أجملهما معا ! كنت على حق فى رفضه ، فقد وجد لورى من تلائمه أناقة وتهذيبا ، وبوسعها أن تحسن ادارة بيته أضعاف جو العجوز الخرقاء ، وتكون مدعاة لفخره لا مجلبة لشقائه • » وابتسمت مسز مارش لزوجها ، وأومأ كل منهما للآخر برأسه ، وقد علت وجهيهما علائم السعادة والبشر ، إذ أدركا أن ابنتهما الصغرى قد فازت كل الفوز ، لا من الناحية المادية ، بل من الناحية المعنوية ، فكسبت بمهارتها ثروة لا تقدر من الحب والثقة والسعادة •

وكان وجه آمى مشرقا بالبشر الذى ينبعث عن قلب عامر بالسلام ، وكان صوتها ناعما عذبا هادئا ، وزالت مسحة الجمود عنها أمام روح الوقار التى زادتها حسنا وجمالا • ولم يكن فى مظهرها أثر للتصنع ، وانسابت تصرفاتها فى حلاوة طبيعية ، أكثر جاذبية من جمالها الجديد ورشاقتها القديمة ، وكان من الواضح أنها أصبحت السيدة الكاملة ، التى كانت تحلم بها طول عمرها •

قالت أمها فى رقة :

— لقد غير الحب ابنتنا كثيرا •

وهمس زوجها فى أذنها يقول ، وهو يلقى نظرة على وجهها الذى أنهكته الأيام ، وشعرها الذى بيضته الأحداث :

— والفضل لك ، فقد كنت لها مثلا أعلى طول حياتها •••

ووجدت ديزى أنه من المستحيل عليها أن ترفع نظرها عن عمتها الصغيرة ، فتعلقت بها ، وتبعتها أينما سارت مثل جرو صغير ، أما ديمى ، فقد شغل فى بداية الأمر بدراسة هؤلاء الأقارب الجدد ثم أقنع

نفسه بقبول رشوة مغرية ، أحضرتها له عمته من برن • وكانت الرشوة عبارة عن مجموعة من الدببة الخشبية ، لم يستطع ديمى بعدها الا التسليم بلا قيد ولا شرط •

قال العم لورى العملاق ، وهو يهز الطفل يمينا وشمالا ، بطريقة أفسدت وقاره :

— اسمع أيها الرجل الصغير ، حين تشرفت بمعرفتك أول مرة ، لكمتنى فى وجهى ، وأنا الآن أطالبك ، كسيد مهذب ، بالترضية اللازمة •

وقالت حنة :

— فليباركهما الله ! انها تجلس وقد كساها الحرير من رأسها الى قدمها ، أليس جميلا أن نرى آمى تخلب القلوب بحسنها ، ويناديها الناس بمسز لورنس ؟ !

رحمة يا إلهى ! كيف كان يتحدث هؤلاء الناس ؟ يبدأ الواحد ، ويتلوه الثانى ، ثم ينفجرون فى الكلام معا ، ليسردوا تاريخ ثلاث سنوات فى نصف ساعة !!

ولو طال الحديث بهم على هذه الصورة ، لتعبوا وبحت أصواتهم ، ولكن الشاى كان قد أعد فى هذه اللحظة ، فتهيأت لهم فرصة الهدوء •

وانتقل الركب السعيد الى غرفة المائدة ، وقد صحب مستر مارش ابنته العزيزة مسز لورنس ، ومالت مسز مارش على ذراع « ابنها » لورى ، وسار السيد العجوز مع جو وهو يهمس فى أذنها قائلا :

— ستكونين من الآن ابنتى •

وألقت جو نظرة سريعة على الركن الخالى بجانب المدفأة وهمست بشفتين مرتجفتين :

— سأحاول أن أملأ مكانها يا سيدى •

وسار التوأمان خلف الصفوف ، يمرحان فى غفلة من الجمع • وانتهزا فرصة انشغال أفراد الأسرة بتحية الضيفين ، فأعملا أسنانهما فى الفطائر دون حرج ، ثم حشوا جيوبهما بما تبقى من فطائر الزنجبيل والبسكويت الساخن ، التى لم تلبث أن تفتتت وعلقت حلواها بملابسهما • وأثقل عليهما تأنيب الضمير : لما ارتكبا من خطايا ، وخافا أن تكشف عيون « بابا » حجب القماش الرقيق الذى يخفى غنائمهما ، فلاذا بحمى جدهما : مطمئنين الى أنه يجلس بلا نظارتيه ••

وعادت آمى ، التى كانت تتناقلها الأيدى كالمرطبات ، الى حجرة الاستقبال مستندة الى ذراع الجد لورنس ، وسار الباقون مثنى ، مثنى كما دخلوا حجرة المائدة ، وبذلك الترتيب بقيت جو بلا رفيق ، ولكنها لم تشعر بوحدتها ، لأنها كانت فى شغل مع حنة تحدثها عن أسئلتها ، قالت حنة :

— ترى هل تركب آمى العربة المقفلة ؟ وهل تستعمل الصحون الفضية المخزونة فى القصر ؟

أجابت جو راضية :

— لن يدهشنى أن تركب عربة يجرها ستة جياد بيضاء ، ولا أن تستعمل صحونا ذهبية ، ولا أن تلبس الدنتلا أو تتحلى بالماس ، فلا يمكن أن يبخل عليها تيدى بشىء •

قالت حنة :

— جميل ! وعلى فكرة ، ماذا ستأكلون فى الافطار ، نحسا أم سمكا ؟

ولم تر جو أن الوقت مناسب للمناقشة فى مثل هذه الأمور ، فقالت وهى تقفل الباب :

— الأمر يستوى عندى •

ووقفت جو تتأمل الجماعة وهم يختفون فى أعلى السلم ، وما ان غادرت قدما ديمى آخر درجة أمامها ، حتى غلبها شعور مفاجىء بالوحدة • وكان شعورا طاغيا ، جعلها تتلفت حولها بعيون غائمة ، وكأنما تبحث عن شىء تستند اليه ، فقد تركها الجميع حتى تيدى • ولو علمت ما يعده لها الغيب فى عيد الميلاد ، ما قالت تحدث نفسها :

— سأذرف دموعى الحارة حين أذهب الى فراشى ، أما الآن فلا يليق بى أن أكتئب •

ووضعت يديها على عينيها ، فهى ، كعادتها الصبيانية ، لا تعرف أبدا مكان منديلها • وفيما هى تحاول أن تبتسم ، إذ دق الباب الخارجى •

وأسرعت تفتح الباب فى حفاوة ، ولكنها ما كادت تفتحه ، حتى روعت كأنما رأت شبحا يفاجئها بمقدمه • كان بالباب سيد فارع الطول يبتسم لها فى الظلام كشمس تشرق فى منتصف الليل ! وصاحت جو وهى تتشبث به ، كأنما تخشى أن يعود الظلام فيبتلعه ، قبل أن تتمكن من ادخاله الى البيت :

— أوه ! أهذا أنت يا مستر باير ؟ انى مسرورة جدا برؤيتك !

قال الأستاذ ، وقد توقف قليلا حين سمع ضجيج الأصوات ، ووقع أقدام الراقصين :

— وأنا مسرور جدا برؤية مس مارش • ولكن ، لا ، ان لديكم حفلة !

قالت :

— لا ، انها الأسرة فقط ، فقد عادت أختى وبعض الأصدقاء من الخارج ، ونحن جميعا سعداء ، فتعال وانضم الينا كواحد منا •

وكان مستر باير رجلا اجتماعيا يعرف أصول المجاملة ، ويعرف أن اللياقة تقتضيه الانسحاب الى يوم آخر ، ولكن ماذا يفعل بعد أن أغلقت جو الباب وأخذت منه قبعته ؟ وأغلب الظن أنه بقى بتأثير السرور الذى بدا واضحا على وجه جو ، وتحيتها التى فاقت فى حرارتها ما كان يتوقع •

قال :

— يسرنى أن أراهم جميعا ، اذا لم يكن فى وجودى معكم أى ازعاج •

وعندما سقط النور على وجهها وهى تعلق معطفه ، لم تفت عينيه التغييرات التى أصابتها ، قال :

— أكنت مريضة يا صديقتى ؟

قالت :

— بل كنت حزينة متعبة ، فقد مرت بنا أحداث كثيرة منذ رأيتك آخر مرة •

قال :

— أعرف بما حدث ، وحزنت من أجلك حين سمعت بالأنباء •

وعاد يصافحها من جديد ، بوجه ينم عن عطفه عليها : وبالغ مشاركته الوجدانية فى أحزانها ، وأحست جو ، وهو يصافحها ، أن شعوره أفضل بلسم لآلامها ، ولا شىء فى دنياها يعدل نظرته الحانية التى أدخلت السكينة على نفسها •

واصطحبت جو صديقها مستر باير الى الجماعة ، وقالت فى زهو ، وكأنها تريد أن تقدم صديقها لأسرتها بين دق الطبول :

— أبى ، أمى ، هذا صديقى الأستاذ باير •

واذا كان القادم الغريب قد ساورته الوساوس حول استقباله ، فقد زالت هواجسه فى اللحظة التى دخل فيها على الأسرة • إذ حياه كل فرد برقة زائدة من أجل جو ، واكراما لشخصه كذلك • ولم يمض على وجوده وقت طويل حتى أحبوه جميعهم ، ولا فضل لهم ، فقد كان مستر باير يحمل معه ذلك الطلسم الذى تنفتح له القلوب مطمئنة • • واستطاع الأستاذ أن يدفىء القلوب التى استقبلته بالمحبة ، وازدادت مكانته فى تقديرهم لفقره ، فالفقر يغنى النفوس التى تعيش فيه بالود والعطف والمحبة •

وجلس مستر باير وسط الأسرة يتطلع حوله ، وعلى وجهه سمات السائح الرحالة الذى يدق بابا غريبا ، فاذا انفتح وجد نفسه وسط أهله وأصحابه • وانجذب الطفلان نحوه كما ينجذب النحل الى العسل ، وجلس كل منهما على احدى ركبتيه ، وبدءا يعبثان فى جيوبه ويشدان لحيته ، ويفحصان ساعته الضخمة فى جرأة الطفولة • وتبادلت السيدات نظرات الرضا ، وفتح مستر مارش خزانة معارفه المختارة ، وقد أحس أنه وقع على روح تآلفت مع روحه ، وقبع جون صامتا يستمع الى ما يدور من أحاديث ويستمتع بها ، كما وجد مستر لورنس العجوز أنه من المستحيل أن يترك هذا الحديث الشائق ليذهب الى فراشه •

ولو لم تكن جو مشغولة بأشياء أخرى ، لوجدت فى مسلك لورى ما يسليها ، فقد أحس بألم خفيف يحز فى صدره ، كان ألم الشك لا الغيرة ، فراح يرقب الأستاذ من بعيد فى تحفظ واحتراس • ولم يدم الشك طويلا ، فقد أثار الرجل اهتمامه بالرغم عنه ، ووجد نفسه مسوقا الى الاشتراك مع من يستمعون بحديث مستر باير الساحر ، ولم يتوجه الأستاذ اليه بالكلام ولكنه كان يلقى اليه نظرة ثم يعود الى حديثه ، وقد اكتسى وجهه بالأسف على ضياع شبابه ، ثم ينقل بصره من لورى الى جو فى انتباه زائد ، لعلها ترد على نظراته بما يريح فؤاده الحائر • وكان حريا بجو أن تجيب على نظراته هذه بما يريح قلبه ، ولكنها كانت مشغولة عنه بالسيطرة على نفسها هى ، خشية أن يستشف الجالسون حقيقة شعورها ، فحنت رأسها على جورب صغير ترفوه ، وركزت اهتمامها فيه ، حتى لا تنم عيونها عما يعتلج فى قلبها • وبين آن وآخر تختلس اليه نظرة تنعش فؤادها ، مثلما ينعش الماء التائه فى الصحارى والقفار • وكشفت لها نظراتها المختلسة عن بشائر

مطمئنة ، فقد كان مستر باير غاية فى اليقظة والانتباه ، بعد أن زايله شروده القديم ، وبدا سعيدا بوجوده معها ، مهتما بما يــدور حوله ، أما وجهه فكان وسيما بحرارة الشباب المتفجر • وانساب الرجــل فى حديثه ، فانتقل الى وصف العوائد الجنائزية عند القدماء ، وهو موضوع لا يمــكن أن يوصف بالمبهج ، وانتفخت أوداج جــو زهــوا وخيــلاء لما غلب لورى على أمره فى نقاش بينه وبين الأستاذ باير ، وقالت تحدث نفسها وهى تنظر الى وجه أبيها الذى استغرق فى الحديث : « تــرى ماذا يقول أبى فى ابقــاء هذا الرجل معه دائما ؟ »

وكان باير يرتدى حلة سوداء جــديدة ، بدا فيهــا سيدا فاضــلا بمعنى الكلمة ، وكان شعره ، الأشعث عادة ، مقصوصا ممشطا مرتبا ، ولكنه لم يبق على هذا الحــال طويلا ، إذ راح كعــادته يشد خصلاته إذا حمى وطيس المناقشـــة ، فلم تمض لحظــة إلا ووقفت خصلة من الخصلات فى وسط رأسه ، وكانت جو تفضــل شكله بخصلته الناشزة ، لأنها تضفى على جبهته مزيدا من الوقار • ولم تكتف المسكينة بالاعجاب فقط ، وانما راحــت تعظم من شأنه ، وترقبــه فى هــدوء فلا يفوتها شىء ، حتى أزرار قميصــه الذهبية ، وقالت لنفسها وهى ترمقــه فى تقــدير :

— يا للصديق العزيز ! لقد بالغ فى تأنقه كأنه ذاهب لعقد خطبته ! وبعث هــذا الخــاطر فى رأســها فكرة مفاجئة تخضب لهــا وجههــا بحمرة الخجل ، وارتبكت يدهــا حتى ســقطت بكرة الخيط منهــا • فانحنت تلتقطها راجية أن تخفى بذلك مشاعرها عن الجالسين • ولكن المناورة لم تنجح كمــا كانت تأمل ، فما ان رأى الأستاذ البكرة تسقط ، وكان منهمكا فى وصف كيفية اشعال النيران فى بعض الشعائر الجنائزية ،

حتى ترك النار والجنازة ، وقفز وراء كرة الخيط الزرقاء ، فاصطدمت رأسها برأسه صدمة شديدة ، واستقام كلاهما بعدها مغرقا فى الضحك ، ولكنه خجل لما بدر منه ، فعاد الى جلسته نادما ، ولم ينقذ البكرة • •

ومضى الوقت سريعا ولا من يشعر بمضيه ، فقد هدأت الجلسة بعد أن انصرفت حنة بالطفلين الى فراشهما ، واستأذن مستر لورنس فى العودة الى بيته ، واجتمع الباقون حول النار يتسامرون ويتحدثون ، حتى قامت ميج تنشد العودة الى بيتها خشية أن تكون ديزى قد سقطت من سريرها ، أو أن يكون ديمى قد أحرق قميص نومه وهو يعالج تركيب عيدان الثقاب •

قالت جو وقد أغراها المرح بالغناء :

— فلننشد أغنيتنا المعهودة بطريقتنا القديمة ، احتفالا باجتماعنا كاملين مرة ثانية •

ولم يكن عددهم كاملا فى الواقع ، ولكن أحدا لم ير فى كلامها تجنيا على الحقيقة ، لأن بث وان غابت بجسدها ، فروحها حاضرة تنشر السلام والمحبة ، والموت لا يستطيع أن يفرق أسرة وثق الحب العميق عراها : كان الكرسى الصغير مازال فى مكانه القديم ، وسلة التطريز تقبع حيث تركتها يد صاحبتها على الرف المعتاد حين ثقلت الابرة على أصابعها ، والمعزف الذى قل أن يمسه أحد ، لم يتحرك من موضعه ، وفوقه صورة بث فى أيامها الأولى ، تطل عليهم بوجهها الباسم الهادىء : وكأنها تدعوهم قائلة :

« كونوا سعداء فهأنذا دائما معكم » •

وقال لورى يدعو زوجته فخورا بتلميذته النابهة :

ـ اعزفى لهم يا آمى ، وأريهم كيف تقدمت فى الموسيقى •

فهمست آمى ، وعيونها مغرورقة بالدموع :

ـ لا ، ليس الليلة يا عزيزى ••

ولكنها فى تلك الليلة بالذات كشفت عن شىء أكثر من النبوغ والمهارة ، فقد غنت أغنيات بث بصوت عذب رقيق ، لا يستطيع أن يلقنه أمهر الأساتذة ، ومست برخامة صوتها قلوب سامعيها ، واستحوذت على مشاعرهم بقوة تفوق أى الهام • وكانت الغرفة هادئة يسودها الصمت حين وصلت الى البيت الأخير من الأغنية ، فخفضت صوتها وهى تقول فى حزن بالغ :

« ليس فى الأرض حزن لا تستطيع السماء أن تشفيه » •

ومالت آمى برأسها تسنده الى صدر زوجها الواقف خلفها ، وقد أحست بأن سعادة الاستقبال والعودة تنقصها قبلة من بث •

وبادرت جو تقول بسرعة ، لتنقذ الموقف قبل أن يتحول الصمت الى حزن مؤلم :

ـ لنختم الليلة بأغنية « مينيون » ، فمستر باير يجيد غناءها •

وتنحنح مستر باير واستعد للغناء ، بعد أن تقدم الى الركن الذى وقفت فيه جو ، ثم قال لها :

ـ شاركينى فى الغناء ، فنحن ننسجم معا انسجاما رائعا •

وكان فى قوله هذا خيال كبير ، فجو لا تعرف من الموسيقى أكثر مما تعرفه جرادة هائمة ، ولم تكن لتتردد فى تلبية رجاء أستاذها ، ولو طلب منها أن تغنى أوبرا كاملة •

وبدأت تردد معه الأغنية فى سرور ، بغض النظر عما أصاب النغم • لم يكن للنشاز أهمية ، فقد كان مستر باير يغنى بحماسة الألمانى القح فى اتقان زائد ، مما جعلها تقنع من الغناء بالهمهمة ، راضية بالانصات الى صوته الشجى ، الذى بدا كأنه ينشد لها وحدها ويقول :

« أتعرفين هذه البلاد ، حيث تنمو أشجار الليمون وتزدهر ! »

وكان هذا البيت أحب ما فى الأغنية الى نفس الأستاذ ، فهذه البلاد تعنى عنده ألمانيا ، ولكنه تحول باهتمامه وحماسته الى الأبيات التى تقول :

« هناك •• نعم هناك سنذهب معا

أنا وأنت يا معبودتى » •

واغتبط قلبها وهى تصغى لدعوته العاطفية ، وكان بودها لو استطاعت أن تقول له انها تعرف هذا المكان ، وليس أحب اليها من أن تذهب اليه معه •

ولاقت الأغنية من الحاضرين اعجابا شاملا ، ولكن لم تمض لحظات بعد ذلك حتى حدث ما جعل الأستاذ ينسى آداب السلوك كلية ويتصرف تصرفا أرعن • • كانت جو قد قدمت له آمى بقولها « هذه أختى » ، وطوال السهرة لم ينادها أحد باسمها الجديد ، فلما

قامت تضع قبعتها على رأسها ، نهض لورى الى مستر باير يودعه ويقول :

ـ لقد سررت أنا وزوجتى بلقائك يا سيدى ، وأرجوك أن تذكر أننا نرحب دائما بلقائك •

واذ ذاك نسى الأستاذ نفسه وراح يحملق فى آمى وهى تضع قبعتها ، وطغت عليه الغبطة فراح يبالغ فى شكر لورى على دعوته ، حتى ظن الفتى أن الأستاذ أظرف شخصية قابلها فى حياته • ثم قال الأستاذ يحدث مسز مارش ، وان كان ينظر الى جو :

ـ وأنا أيضا أستأذن فى الذهاب يا سيدتى ، ولكن يسرنى أن أعود لزيارتكم ثانية ، إذا سمحتم ، فبعض الأعمال الصغيرة تستلزم بقائى أياما فى هذه المدينة •

ولم تكن مسز مارش لتغمض عينيها عن مصالح بناتها ـ كما قالت مسز موفات فى يوم من الأيام ـ فأجابت على قوله بمنتهى الترحيب •

قال مستر مارش بعد انصراف الضيوف ، وكان لا يزال فى موقفه أمام المدفأة :

ـ أعتقد أنه رجل حكيم عاقل •

وقالت مسز مارش وهى تملأ الساعة :

ـ لا شك أنه رجل طيب •

واكتفت جو بأن تقول وهى تنسحب الى غرفة نومها :

ـ أعتقد أنكم ستحبونه •

وراحت تسائل نفسها فى عجب عما جاء بمستر باير الى المدينة ، وأخيرا ، خيل اليها أنه جـاء لحضور حفل تكريم يقـام خصيصا من أجله ، ولكن تواضعه يجعله يخفى هذه الحقيقة • ولو أنها رأت ما ارتسم على وجهه من تعابير ، حين أوى الى حجرته ، ووقف ينظر الى صـورة فتاة صارمة الملامح ، ذات شـعر كثيف منسـدل ، تتطلع عينـاها الى المستقبل الغامض لعرفت نوع المهمة التى جاء من أجلها الى المدينة •

ولو أنها رأته وهو يطفىء المصباح ، ثم يقبـل تلك الصـورة فى الظلام ، لتأكد لها ذلك بصورة قاطعة •

الفصل الرابع والأربعون
مولاى ومولاتى

دخل لورى فى اليوم التالى بيت آل مارش ، فوجد مسز مارش وقد أجلست مسز لورنس على حجرها ، كأنما عادت هذه طفلة صغيرة ، فقال :

ـ أتسمحين لى يا سيدتى الأم أن أستعير منك زوجتى لمدة نصف ساعة ، فقد وصل متاعنا ، وكدت أفسد أدوات الزينة الباريسية فى بحثى عن بعض أشياء أريدها ؟

قالت مسز مارش وهى تضغط على اليد البيضاء التى ازدانت بخاتم الزواج ، وكأنها تعتذر عن استحواذها لها :

ـ بالتأكيد . اذهبى يا عزيزتى ، لقد نسيت أن لكما بيتا غير هذا .

قال :

ـ ما كنت أطلبها لولا حاجتى اليها . . اننى لا أستطيع أن أفعل شيئا دون معونة زوجتى الصغيرة ، وبغيرها أشعر كأننى .. كأننى ..

وتوقف يبحث عن التشبيه المناسب ، فقالت جو ، وقد استعادت سلاطة لسانها ، منذ عاد لورى الى الوطن :

ـ كأنك دوارة رياح . . بلا رياح !

قال :

ـ بالضبط • فآمى تجعلنى أشير دائما الى الغـرب مع لفتة الى الجنوب بين آن وآخـر ، ولم أتجه نحو الشرق منذ تزوجت ، ولا أكاد أعرف شيئا عن الشمال ولكنى دائما فى جو صحو معطر • • أليس كذلك يا سيدتى ؟

قالت آمى بلهجة الأمومة المحببة الى لورى :

ـ الطقس غاية فى الجمال الآن ، ولست أدرى الى متى يستمر كذلك ! ولكنى لا أخشى العواصف ، فقـد تعلمت كيف أسـير سفينتى فيها • هيا بنا الى البيت يا عزيزى ، لأجد لك ما كنت تبحث عنه فى متاعى ، وأظن أنه « لبيسة » الأحذية • ان الرجـال قليـلو الحيـلة يا أماه !

وقالت جو وهى تزر معطف آمى كمـا كانت تزر لهـا مرولتها فى الماضى :

ـ ماذا تفعلان حين يستقر بكما المقام ؟

قال لورى :

ـ لدينا خطط كثيرة نفضل أن نبقيها الآن فى طى الكتمان • مازلنا جددا فى وظيفتنا ، نكره اضاعة الوقت فى الخمول والكسل ، وفى نيتى أن أشغل نفسى بعمل يسعد جدى ، ويثبت له أننى لست مدللا • لقـد سئمت الثرثرة ، ولى رغبة فى أن أشتغل كرجل كامل الرجـولة ، وأظننى فى حاجة الى عمل جدى يحفظ وقارى •

قالت مسز مارش ، وقد أعجبت بقرار لورى وعزيمته :

ـ وآمى ؟ ماذا فى نيتها أن تصنع بنفسها ؟

أجاب لــورى :

ـ بعد أن ننتهى من واجب المجامــلات ونستريح بعض الوقت ، سندهشكم بما نقدمه فى القصر من كرم الضيافة ، وبمن ندعو من كرام القوم ، ستجدون ما يرضيكم من نشاط طيب فى عالمنــا كله . هــذه مشروعات آمى المستقبلة . أليس كذلك يا مدام ريكامييه ؟

قالت آمى ، وفى نيتها أن تكون أصلح الزوجات ، قبــل أن تفتح صالونها كملكة للمجتمع :

ـ دع الأمر للأيام ، وكفاك قحة أمام أسرتى ، فهيا بنا ننصرف .

قال مستر مارش بعد أن خرج الزوجان وقد عجز عن تركيز ذهنه فى كتب أرسطوطاليس :

ـ ما أسعد الطفلين معا ! !

قالت زوجته ، بلهجة الربان الذى قاد سفينته الى شاطىء الأمان سالمة :

ـ نعم انهما سعيدان ، وستدوم سعادتهما على ما أعتقد .

وقالت جو وهى تتنهد :

ـ وأنا واثقة بذلك . والله ، ما أسعدك يا آمى !

وأشرق وجهها حين رأت الأستاذ باير يدفــع البوابــة فيفتحهــا متعجــلا .

وفى المساء ، بعد أن أخذ لورى قسطه من الراحة ، وعثرت له زوجته على ما كان يبحث عنه ، قال لها وهى غارقة فى تنسيق كنوزها الغنية الجديدة :

ــ مسز لورنس !

أجابت :

ــ مولاى !

قال :

ــ أيتزوج ذلك الرجل من جو ؟

قالت :

ــ ألست تتمنى معى أن يحدث ذلك ؟

قال :

ــ نعم يا حبيبتى ، فهو رجل فذ بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، ولكنى كنت أفضل لو كان أنضر شبابا ، وأكثر مالا .

قالت :

ــ لا تكن ماديا الى هذا الحد يا لورى ، فالحب لا يعترف بعمر أو ثروة ، ومن الخطأ أن يتزوج النساء من أجل المال .

وأمسكت آمى لسانها بعد أن أفلتت هذه الكلمات منها ، ونظرت الى زوجها متطلعة ، فأجابها بخبث :

ـ مؤكد •• من الخطأ أن يتزوج النساء من أجل المال وحده ، وان كنا نسمع من بعض الفتيات الرشيقات غير ذلك ، فقد جاهرت مرة ـ على ما أذكر ـ برغبتك فى الزواج من ثرى ، ولعل ذلك كان السبب فى زواجك من رجل مثلى لا يصلح لشىء •

قالت :

ـ لا تظن ذلك يا عزيزى ، فأنا لم أفكر فى ثرائك حين قبلتك زوجا ، وما كنت لأتردد لو كنت معدما •• وانى لأتمناك فقيرا فى بعض الأحيان ، حتى أثبت لك اخلاص عاطفتى •

وفى خلوة الحب هذه ، قدمت له آمى التى يعرفها الناس وقورة ، أدلة مقنعة على صدق كلامها • ثم أردفت تقول :

ـ لا أظنك تعتقد حقًا أننى المرأة المادية التى كنت أريدها فيما مضى ، فإنه ليتعسنى أن تتصورنى طامعة فى مالك •• فالله يعلم أننى ما تزوجتك إلا لأضع مصيرى بين يديك ، وأقاسمك حياة سعيدة ، وما كان لينتقص من حبى أن تكون معدما تكسب قوتنا من التجذيف على سطح البحيرة •

قال :

ـ أأبله أنا أم أحمق ليجول بخاطرى مثل هذا الظن ، بعد أن رفضت الزواج من رجل أغنى منى ، ثم منعتنى من أن أعطيك نصف ما أحب أن أمنحك من هدايا ؟ إن المسكينات يتروجن من أجل المال كل يوم ، كسبيل الى الخلاص من همومهن ، ولكنك ذات خبرة وتجربة ، وليست حقائق الحياة خافية عليك • وأعترف بأننى خفت عليك فى وقت

من الأوقات ، ثم لم ألبث أن أطمأننت الى حكمتك وعقلك ، ولا غـرابة فالبنت سر أمها . لقد صارحت ماما برأيى هذا أمس ، فأشرق وجههـا بالبشر ، كأنما أعطيتها صكًا بمليون من الجنيهات لتصرفها فى أوجه البر .

وتوقف لورى عن الحديث لحظة عندما رأى عينى آمى تنظران إليه فى شرود تام ، ثم قال :

ـ إنك لا تتبعين موعظتى الأخلاقية يا مسز لورنس !

قالت :

ـ إنى أتتبع حديثك وفى ذات الوقت أتأمل بإعجاب طابع الحسن الذى يزين ذقنك . لا أريد أن أثير خيلاءك وغرورك ، ولكنى أعترف أنى فخورة بوسامة زوجى أكثر مما أنا فخورة بثرائه .

ثم ربتت على أنفه الجميل ملاطفة ، وقالت بابتهاج :

ـ لا تضحك منى ، فأنفك يبعث الراحة الى نفسى .

وكان لورى معتادا على سماع عبارات الإطراء ، ولكن عبارة مما سمعها لم تبلغ من نفسه ما قالته آمى ، فبان عليه الفرح بوضوح رغم أنه ضحك من مزاح زوجته الغريب :

قالت آمى فى بطء :

ـ أتسمح بأن أسألك سؤالا واحدا يا عزيزى ؟

قال :

ـ طبعا ، سلى ما شئت !

قالت :

ـ هل يضايقك أن تتزوج جو من مستر باير ؟

قال :

ـ أهذا كل ما يقلقك ؟ ظننت أن فى طابع الحسن شيئا لا يروقك ! تأكدى أننى سأكون أسعد مخلوق بزواجها منه ، وسأرقص يوم زفافهـا بقلب يفيض طربا وابتهاجا ، فهل يكفيك هذا أم لديك سؤال آخر ؟

وكانت آمى ترقبه وهو يتكلم ، فاطمأنت نفسها ، وتبخرت مخاوفها ، وانقشعت عن قلبها ظلال الغيرة الى الأبد • قالت بمنتهى الحب والثقة :

ـ ليتنا نفعل شيئا لهذا الأستاذ العجوز العظيم ! ألا نستطيع أن نخلق له قريبا غنيًا مات فى ألمانيا عن ثروة صغيرة يرثها ؟

وتأبط لورى ذراع آمى ، وسار الاثنان فى الغرفة جيئة وذهابا ، وهى طريقة لقطع الوقت أغرما بها لما فيها من تذكرة بالساعات الهنيئة التى قضياها معا فى حديقة القصر بفيفاى •

قالت آمى :

ـ ستكتشف جو أمرنا وتفسد حيلتنا ، فهى فخورة برجلها كما هو ، وقد سمعتها أمس تشيد بجمال الفقر •

قال :

ـ فليبارك الله قلبها الطاهر ! قد تغير رأيها فى الفقـر حين يتحتم عليها أن تعول زوجا أديبا وذرية كبيرة من صغار الأدبـاء والأديبات !

الأفضل ألا نتدخل حتى تحين الفرصة الملائمة ، فنتقدم لهما المعونة رغما عنهما . إنى مدين لجو بجزء كبير من ثقافتى وهى تؤمن بضرورة وفاء الديون ، وبهذه الحجة أستطيع أن أتغلب عليها .

قالت :

— أجمل ما فى الحياة أن يسعد الإنسان نفسه بمساعدة الآخرين ! كنت دائما أتمنى أن يكون لى من القوة ما يمكننى من إعطاء غيرى بسخاء وبفضلك تحققت أمنيتى : فشكرا لك .

قال :

— سنحقق معا خيرا كثيرا . فهناك نوع خاص من الفقر أحرص كل الحرص على مساعدته ، لأنه يختلف عن فقر المتسولين الذين يلقون بعبئهم على المحسنين ! فالأسر الطيبة التى أخنى الدهر عليها ، لا تجد من يعينها ، لأنها لا تطلب إحسانا ، والناس عادة لا يجرؤون على مساعدتها محافظة منهم على كرامتها ! فى حين أنه توجد ألف طريقة وطريقة تفى بالغرض ولا تجرح الشعور أو تمس الكبرياء . وأؤكد لك أنى أفضل معونة سيد محترم أخنى عليه الدهر على معونة متسول محترف ، وقد أكون مخطئا فى ذلك ، ولكن هذا ما أفعله على ما فيه من مشقة .

قالت آمى فى إعجاب :

— هذا خلق الرجل الكريم ، ولا يتحلى به إلا كريم مثلك .

قال :

— أشكرك ، وإن كنت لا أستحق هذا الثناء كله .. كدت أنفى .

إليك بهذه الآراء ونحن فى خارج ، فقد قابلت شبانا موهوبين يقومون بتضحيات جسيمة ، ويتحملون مشقات كبيرة فى سبيل تحقيق آمالهم .. كانوا شبانا رائعين لا مال لديهم ولا أصدقاء . ومع ذلك يكافحون كالأبطال بصبر وشجاعة وطموح ، فخجلت من حالى ، وتمنيت لو أمكننى أن أقوم بنفسى بمساعدتهم لأنهم إذا كانوا على عبقريـــة حقــة ، نالنى شرف إظهارها ، بدل أن تموت وتفنى فى أحضـان الجوع والعرى .. وإذا لم يكونوا على ما يرجون من نبوغ ، فكفانى أن أخفف عنهم وقع الحقيقة حين يكتشفونها .

قالت آمى :

ــ هذا صحيح ، وهناك فئة أخرى لا تستطيع أن تمد يدها بالسؤال ، فتتعذب فى صمت . إنى أعرف كثيرا عن هذه الفئة ، لأنى كنت أنتسب إليها قبل أن تجعلنى أميرة ، كما فعل الملك بخادمته فى القصة القديمة . الفتيات الطموحات يتعذبن يا لورى ، وكثيرا ما يخسرن الشباب والصحة والفرص ، لحرمانهن من معـــونة صـــغيرة فى الوقت المناسب . ولكنى كنت أحسن حالا من غيرى ، بفضل عطف الناس علىّ ، وحنانهم بى ، لذلك كلما رأيت فتيات يجاهدن مثلما كنا نجاهد ، أشـــعر برغبـــة فى مساعدتهن كما سوعدت فى جهادى .

واستقر رأيه فى هذه اللحظة على إنشاء مؤسسة لمعونـــة الفتيات الموهوبات فى الفن ، فصاح وهو يلتهب حماسة الى عمل الخير ، قال .

ــ ستكونين لهم ملك الرحمـــة ، يا ملك الرحمـــة ، فليس من حق الأغنياء أن يقبعوا فى أعقار دورهم ، قانعين من الجهاد بجمع المـــال ، ليبدده من بعدهم أولاد عابثون ، أجمل بالإنسان أن يستغل ماله فى النفع

وهو حى ، ويستمتع بإسعاد غيره من الناس . فانها رسالة تستحق أن يعيش الغنى من أجلها .. سوف نسعد بحياتنا إن شاء الله ، ونضيف الى متعنا لذة إشراك غيرنا فيها بأنصبة سخية . فهل لك أن تكونى كإلهة الإغريق الصغيرة التى تجوب البلاد ، لتفرغ سلتها المليئة بالسعادة والراحة ، وتعود بها عامرة بالأعمال الصالحة ؟

قالت :

— بكل سرور . إذا أنت تشبهت بالقديس مارتن ، فرحت تقف عند كل محلة تمر بها فى رحلتك حول العالم ، لتدفىء الفقير والمحروم بعباءتك .

— اتفقنا ، والكسب لنا !

وتصافح الزوجان الشابان تأكيدا لاتفاقهما ، ثم استأنفا سيرهما جيئة وذهابا فى سعادة بالغة ، وقد شعرا بأن بيتهما ازداد نورا بما سوف يضفيان من نور على بيوت الآخرين ، وأن طريقهما قد ازدهر واتسع بجهودهما فى تعبيد طريق المحتاجين ، وأن قلبيهما قد ارتبطا الى الأبد بذلك الحب السمح الذى لا تغفل عينه الخيرة عمن حرموا من مثل نصيبيهما فى الحياة .

الفصل الخامس والاربعون

ديزى وديمى

لن أشعر ، كمؤرخة متواضعة لأسرة مارش ، أننى أديت واجبى على أكمله ، ما لم أخصص فصلا على الأقل لأهم وأعز عضوين فى الأسرة ، فقد بلغ ديمى وديزى سن الفهم والإدراك الآن ، وفى عصر السرعة الذى نعيش فيه ، يثبت أبناء الثالثة أو الرابعة حقوقهم ، وينالونها أكثر مما يفعل الكبار .

إذا كان هناك توءمان تعرضا لخطر التدليل ، نتيجة لحب الوالدين المفرط ، فهما توءما بروك الصغيران . كانا بالتأكيد أعجب طفلين فى الوجود ! فقد مشيا فى الشهر الثامن من عمرهما ، وتكلما بطلاقة فى تمام العام ، وفى العام التالى جلسا الى مائدة الطعام ، وأحسنا فيها التصرف بشكل أدهش الناس ! وفى الثالثة طلبت ديزى إبرة ، وحاكت حقيبة بثلاث غرزات فقط ، ثم اهتمت بتنظيم شئون البيت وترتيب خزانة الطعام ، واستخدمت موقدا صغيرا للطهو بمهارة أثارت دموع الفرح والفخر فى عينى حنة ! وفى الوقت نفسه تعلم ديمى الحروف الأبجدية من جده الذى ابتكر له طريقة لحفظها بذراعية وساقية ، وهكذا جمع بين العلم ورياضة الرأس والرجلين ! وأبدى الطفل منذ حداثته ، نبوغا فى الميكانيكا سر له والده وقلقت أمه ، فقد راح يقلد كل آلة يراها ، مما جعل حجرة الأطفال فى حالة يرثى لها ! قلد ماكينة الخياطة مرة بمجموعة عجيبة من الخيوط والكراسى والدبابيس ، واستعاض عن العجل ببكرات تدور عليها الماكينات ! ومرة علق سلة خلف كرسى كبير ، وحاول أن يضع فيها أخته المطيعة المجاملة ، فلم تسفر التجربة إلا عن حشر رأسها فى السلة ،

وبقيت على هذا الحال حتى وجدت المسكينة من ينقذها من مخترعاتـه ، وعندئذ صاح يقول محتجا : « وماذا جرى ؟ هذا دلو أريد أن أرفعها من البئر » •

ورغم أختلاف شخصيتى التوءمين ، فقد توافقا معا بشكل واضح ، وقلما كانا يتشاجران أكثر من ثلاث مرات فى اليوم الواحد • وكان ديمى يتحكم فى ديزى طبعا ، ولكنه كان يـرد عنها اعتـداء الآخرين بمنتهى الشهامة ، وقبلت ديزى أن تكون له مطيعة تعمل بأوامـره وتوجيهاته ، ولكنها كانت تحبه وتعتبره أكمل مخلوق على وجه الأرض • وكانت ديزى ذات خدين ممتلئين موردين ، وكانت تعرف كيف تجتذب القلوب ، وتتربع على عروشها ، فأحبها الناس وتعلقوا بها • وكانت كإلهة صغيرة تستهوى الأنظار بجمالها ، وتوحى بالرغبة فى تدليها وتقبيلها ، ولولا بعض الشيطنة التى تربطها بالبشر أحيانا ، لرفعتها فضائلها الحلوة الى مرتبة الملائكة ، كانت ترى الدنيا صحوا دائماء فتتسلق النافذة كل صباح ، وهى ما زالت فى قميص نومها ، وسيان سطعت الشمس أم هطلت الأمطار تقول : « إنه يوم جميل ، جميل جدا! » • وكان من عادتها أن تهدى الأغراب قبلاتها بسخاء ، فيلين بطيب معشرها أشد القلوب صلابـة ، وتجعل من محبى الأطفال عبادا مخلصين •

وقد قالت ذات مرة ، وهى تفتح ذراعيها ، وفى إحدى يديها ملعقة وفى الأخرى كوب :

ـ أنا أحب الناس كلهم •

وكأنما كانت تريد أن تضم العالم الى صـدرها وتشرك أهله على طعامها •

وكلما كبرت ديزى ، ازدادت أمها شعورا بالبركة التى تطرد فى « عش الحمائم » بوجود هذه الابنة الهادئة اللطيفة ، وما تسبغه بروحها الحلوة من سعادة على البيت الصغير العتيق . فتتوجه بقلبها الى الله ضارعة ألا يريها مكروها فيها . كما حدث لملاكهم بث • وكان جدها يناديها دائما « ببث » وجدتها تدللها بعطفها الزائد . كأنها تريد بذلك أن تكفر عن خطأ قديم لا يعرف بسره سواها •

أما ديمى فكان طفلا أمريكيا بمعنى الكلمة : كثير الأسئلة . محبا للاستطلاع ، يريد أن يعرف كل شىء ، يضايقه ألا يحصل على أجوبة مرضية للأسئلة التى لا تخلو من كلمة « ولماذا هذا » ؟

وكان له أيضا اتجاه فلسفى أدخل سرورا عظيما على قلب جده ، الذى اعتاد أن يقضى معه وقتا طويلا فى جلسات سقراطية ، يتصرف الطفل فيها تصرفات تثير إعجاب نساء العائلة !

دخل ذات ليلة الى فراشه لينام ، وراح يتأمل ساقيه تحركانه ، ثم جعل يفكر تفكيرا عميقا ، وأخيرا قال يسأل جده :

ــ ما الذى يجعل ساقىّ تمشيان يا جدى ؟

أجابه الجد العاقل ، وهو يمسح بيده فى احترام على شعره الأشقر :

ــ إنه عقلك الصغير يا ديمى •

سئله الطفل :

ــ وما هو هذا العقل الصغير ؟

قال ؟

— إنه القوة التى تجعل جسمك يتحرك ، كما يحرك الزمبرك تروس ساعتى التى فتحتها لك وأريتك ما بداخلها •

قال :

— إذا افتحنى يا جدى ، لأرى كيف يشتغل العقل •••

قال الجد :

— لا يمكننى ذلك ، كما لا يمكنك أنت أن تفتح الساعة ، فقد ملأك الله لتسير حتى يوقفك بقدرته •

قال الصبى ، وقد التمعت عيناه لفكرة جديدة طافت بذهنه :

— وهل أملأ أنا كما تملأ الساعة ؟

قال الجد :

— نعم •

وتحسس ديمى ظهره ، كأنما كان يتوقع أن يجده كظهر الساعة . ثم قال فى رزانة :

— أعتقد أن الله ملأنى وأنا نائم •

وشرح الجد فى عناية ، واستمع الطفل فى انتباه ، مما حدا بالجدة أن تقول فى قلق :

— أمن الحكمة يا عزيزى أن تحدث الطفل بهذه الأمور ؟ إنك تفتح عيونه وتعلمه أن يسأل فيما لا يمكن الإجابة عليه ••

قال :

— مادام قادرا على السؤال ، فهو قادر على الفهم أيضا .. أنا لا أحشو رأسه بالأفكار ، بل أساعده على تفسير ما يعنّ له منها ، ولست أشك فى أنه يفهم كل كلمة أقولها . فالأطفال أكثر حكمة مما نظن .

والتفت الى الطفل يسأله : قل لى الآن يا ديمى : أين تحتفظ بعقلك ؟

وما كان الجد ليدهش إذا أجاب ديمى بما أجاب به تلميذ سقراط ، عندما قال : « والله لا أعرف ياسقراط » ، ولكن الطفل وقف على إحدى ساقيه كما يفعل طائر البشاروس وراح يفكر قليلا ، ثم قال بلهجة المقتنع :

— إنه فى بطنى الصغير !

ولم يستطع الجد إلا أنه يشارك زوجته فى ضحكها ، وانتهى درس الميتافيزيقا بما لا يدع مجالا للشك فى أنه طفل طبيعى بمعنى الكلمة ، بالرغم من اتجاهه الفلسفى الذى كان أحيانا يقلق أمه ، ويدفع حنة الى التشاؤم ، حتى لتقول متحسرة : « مثل هـذا الطفل يمكن أن يعمـر طويلا » . والحق أنه كان بعد نوباته الفلسفية يعود الى طبيعة عمـرة فيخرج يلهو ويتمرغ فى الأقذار ويرتكب شتى الحماقات التى تعرفهـا الأمهات جيدا . فيتضايقن منها ، ويسعدن بها فى الوقت ذاته .

وكانت ميج قد أعدت قواعد خلقية كثيرة ، أرادت أن تطبقها على طفليها ، ولكن أين الأم التى استطاعت أن تمنع مكر الأطفال وخداعهم ، وتتغلب على جرأتهم وتملصهم ؟ وهكذا عجزت ميج عن السيطرة على تصرفات طفليها بعد أن أثبتت التجارب لها أنهما على مكر ودهاء .

وتقول ميج لديمى حين يقف فى المطبخ . شأنه فى اليوم المخصص لصنع الفطائر :

ــ كفاك أكلا فى الزبيب يا ديمى ، وإلا مرضت •

فيجيب :

ــ وأنا أريد أن أمرض !

فتقول :

ــ ولكنى لا أريد أن تمرض ، فكفاك أكلا ، وأسرع الى مساعدة ديزى فى صنع فطائرها الصغيرة •

ويتلكأ ديمى فى الخروج ، ثم لا يلبث أن يؤنبه ضميره ، فينصرف من المطبخ ، لينتصر على ماما فى أول فرصة مواتية ، بحيلة جديدة أو بمساومة ماكرة •

وبعد أن تطمئن ميج على الفطائر ، تقود الطاهيين الصغيرين الى الدور العلوى ، وتقول لهما :

ــ لقد كنتما كطفلين مطيعين ، ولذلك سألعب معكما أى لعبة تريدانها •

ويسأل ديمى وقد لمعت فكرة فى ذهنه :

صحيح يا ماما ؟

وتجيب الأم الساذجة ، وهى تظن أنه لن يطالبها ــ على أسوأ الفروض ــ بأكثر من أن تغنى معه « ثلاث قطيطات صغيرات » ست أو سبع مرات •

ــ صحيح ، طلبا ما شئتما •

وينتهز ديمى الفرصة فيقول بهدوء :

— إذا هيا بنـا يا ماما نعـود الى أكل الزبيب !

وكانت الخالة « دودو » صديقة الطفلين وموضع ثقتهما ، فإذا ما اشترك ثلاثتهم فى اللعب ، قلبوا البيت رأسا على عقب ، ولم تكن الخالة آمى عندهم سوى اسم لا مدلول له ، أما الخالة بث : فقد اختفى اسمها بالتدريج ، وتحولت على مضى الأيام الى ذكرى سارة غامضة • وظلت الخالة « دودو » مخلصة فى صداقتها للطفلين ، حتى جاء مستر باير ، فشغلت عن اللعب معهما ، مما أورثهما الحزن والكآبة • فهذه ديزى التى كانت تجول هنا وهناك سعيا وراء القبل الحنونة ، قد فقدت خير عملائها ، وأدرك ديمى بذكائه أن الخالة « دودو » أصبحت تفضل اللعب مع الرجل باير ، فتألم لذلك غاية الألم ، ولكنه آثر أن يخفى ألمه فى نفسه ، خشية أن يفقد محبة « الرجل الدب » الذى يخفى فى جيوبه كنوزا من الحلوى ، ويملك ساعة يستطيع أن يأخذها منه وقتما يشاء ، ويلعب بهـا كيفمـا أراد • وقد يظن بعض الناس أن مستر باير يرشو الصبى بهذه الحريات ، ولكن ديمى لم ير الأمر على هذه الصورة ، فواصل رعايته للرجل الدب فى بشاشه لا تخلو من بعض التحفظ ، أما ديزى فقد منحته حبها بعـد زيارته الثالثة ، وكانت ترى فى كتفيه عرشا تعتليه ، وفى ذراعيه ملجـأ تلوذ به ، وفى هداياه كنوزا لا نهاية لها •

وأحيانا ما يصاب الرجال بحب مفاجىء للأطفال الذين ينتمون الى حبيباتهم ، ولكن هذا النوع من الحب المغرض لا يخدع أحدا ، فالناس يرون الزيف بسهولة ، وحتى أصحاب الحب هذا لا يلبثون أن يضيقوا ذرعا بمن كانوا يصطنعون حبهم من الأطفال ، ولكن حب مستر باير ظل بإخلاصه حيًّا ، فقد كان الرجل بطبعه مشغوفا بالأطفال ، يحب مجالستهم وملاعبتهم ... لذة فى انفعالات الحزن والفـ... فى نفوسهم ، وتباين آثارها ...

وكانت مشاغل باير تمنعه من الحضور فى الصباح ، ولكنها لم تكن تعوقه عن أداء واجبات الزيارة فى المساء • وكان إذا ما حضر بادر بالسؤال عن مستر مارش كأنه جاء خصيصا من أجله • وانطلت الحيلة على الرجل الطيب ، وظل ممعنا فى وهمه ، حتى أدرك الحقيقة فجأة من إشارة عابرة قالها حفيدة الذكى •

فقد حدث ذات ليلة أن حضر مستر باير كعادته ، وبينما هو يسير نحو غرفة المكتبة ، استوقفه فجأة منظر مدهش ، إذ كان مستر مارش راقدا على الأرض وساقاه مرفوعتان فى الهواء ، وبجانبه يرقد ديمى فى شغل شاغل بتقليد جده • وانهمك الاثنان فى تمرينهما ، فلم ينتبهان الى وجود الاستاذ ، حتى ضحك هذا عاليا ، وصاحت جو فى استنكار :

ــ أبى ! أبى إن الأستاذ هنا • •

وأنزل الأب ساقيه ، ورفع رأسه الأشيب ليقول فى وقار :

ــ مساء الخير يا مستر باير ، اسمح لى بلحظة ، حتى نتم درسنا والآن يا ديمى ، ارسم الحرف واذكره •

وبعد محاولات رسم الطفل برجليه رقم « سبعة » ثم قال بسرور :

ــ أنا أعرفه ! « فى » ، إنه حرف « فى » يا جدى •

وضحكت جو ، وبينما نهض الأب على قدميه ، وراح ديمى يحاول أن يقف على رأسه ، علامة ابتهاجه بانتهاء الدرس • قال مستر باير للطفل وهو يرفعه عن الأرض :

ــ وما فعلت اليوم يا طفلى العزيز ؟

قال :

ـ ذهبت لأرى مارى الصغيرة •

سأله باير :

ـ وماذا فعلت هناك ؟

قال ديمى بمنتهى الصراحة :

ـ قبلتها !

فسأله مستر باير محاولا أن يستكمل اعترافات المذنب الصغير ، الذى وقف على ركبتيه وأخذ يبحث فى جيب سترة الأستاذ :

ـ نشاط مبكر ! وماذا فعلت مارى الصغيرة ؟

قال ديمى مسرورا بقطعة الحلوى التى تملأ فمه :

ـ اغتبطت وقبلتنى بدورها ، فاغتبطت أنا أيضا • وهكذا يحب الأولاد الصغار البنات الصغار • أليس هذا جميلا ؟

فقالت جو وهى تستمتع بمجون الطفل مثل استمتاع الأستاذ به :

ـ من الذى وضع هذا فى رأسك أيها الكتكوت الماكر ؟

وظن ديمى أنها تسأله عن قطعة الحلوى ، فأخرجها على لسانه وقال :

ـ إنها فى فمى لا فى رأسى !

فقال باير :

— لا تنس أن تحتفظ ببعض الحلوى لصديقتك الصغيرة ، فالحلوى للحلو أيها الرجل الصغير !

وقدم الأستاذ بعض الحلوى لجو ، وفى عينيه نظرة جعلتها تظن أن الشيكولاته رحيق الآلهة ! ولم تفت معانى ابتسامتها عن عينى ديمى الذكى ، فقال يسأل الأستاذ بصراحة :

— وهل يحب الفتيان الكبار الفتيات الكبيرات أيضا يا أستاذ ؟

ولم يكن من طبع الأستاذ أن يكذب ، فأجاب بكلام غامض مقتضب لفت نظر مستر مارش ، وجعله يترك فرشاة الملابس التى كان يحملها فى يده ، وينظر الى وجه جو مليًا ، ثم يغرق فى كرسيه ، وقد بدا لـــه أن الكتكوت الماكر قد نبه ذهنه الى فكرة جديدة ، فيها من الحلاوة ما فيها من المرارة •

وتواردت على ذهن ديمى بعد ذلك أسئلة كثيرة ، لم يجد لها إجابات شافية : لماذا لم تنهره الخالة دودو وتهزه كعادتها بعنف عندما وجدته ، بعد ما قال بنصف ساعة ، وهو يعبث فى خزانة الخزف ! ولماذا ضـــمته الى صدرها وقبلته حتى كادت تعصره وتزهق أنفاسه ؟ ولماذا كافأته بقطعة كبيرة من الخبز والمربى ؟

وظلت هذه المشاكل تحير ذهن ديمى ، حتى يئس من حلها ، فتركها الى الأبد بدون حل •

الفصل السادس والأربعون

تحت المظـلة

فى الوقت الذى كان فيه لورى وآمى يذرعان الغرف ذهابا وإيابا فوق الأبسطة المخملية ، وهما يرتبان منزل الزوجية الجديد ، ويضعان خطط مستقبلهما السعيد ، كان باير وجو يستمتعان بنزهات من طـراز مختلف ، على طول الطرق الموحلة والحقول الغدقة .

كان الوصول الى بيت ميج له طريقان ، واحتارت جو أيهما تسلك ، ففى كل مرة سارت الى زيارة أختها فى أحدهما ، لقيت الأستاذ إما ذاهبا أو عائدا . قالت لنفسها ذات يوم :

— لقد اعتدت أن أسير الى بيت ميج كل مساء ، فلماذا أعدل عن رياضتى هذه ، لا لسبب إلا أن الأستاذ يتمشى بدوره فى ذات الطريق ؟

وكان من عادة الأستاذ أن يسير مسرعا ، لا يبدو عليه أنه يراها حينما يصبح على بعد خطوات قليلة منها ، كأن نظره الضعيف، لا يمكنه من تمييزها إلا فى اللحظة الأخيرة .. ويسألها عن وجهتها ، فإن كانت ذاهبة الى ميج ، قال بأن لديه هدايا صغيرة للأطفال يحب أن يعطيهـا إياها ، وإن كانت راجعة الى بيتها ، ادّعى أنه — بعد أن انتهى من رياضته عند النهر — كان فى نيته أن يزورهم ، ما لم يكونوا قد ملوا كثرة تردده .

ولم يكن أمام جو ، إزاء هذه الظروف ، إلا أن تجيبه بلطف وتدعوه الى رفقتها ، وإذا كانت جو قد ملت من زياراته ، فقـد أخفت ذلك فى مهارة ، بل إنها كانت تغالى فى العناية بإعداد القهوة بعد العشاء ، لأن فردريك .. أعنى باير لا يحب الشاى !!

ولم يمض الأسبوع الثانى إلا وقد اتضح الموقف لجميع أفـراد الأسرة ، ولكنهم أغمضوا عيونهم عن التطورات التى طرأت على وجه جو ، فلم يسألها واحد لماذا تغنى أثناء عملها فى البيت ، أو لماذا تمشط شعرها ثلاث مرات يوميا ، أو لمـاذا تعود من رحلاتها المسائية مشرقة الوجه ، بارقة العينين ! ولم يشك أحدهم فى أن مستر باير يقصد بمناقشته الفلسفية مع الأب ، تلقين الابنت دروسا فى الغرام •

ولم تستطع جو ، بحكم طبعها الجامح ، أن تسلم بالحب لأول وهلة ، ولذلك جاهدت ما وسعها فى إخفاء عواطفهـا ، فلما لم توفق ، اضطربت حياتها نوعا ما • كانت فى ذعر شديد من أن يسخر الناس منها إذا استسلمت بعد أن أعلنت مرارا أنها استقلالية لا يمكن أن تخضع لمؤثر • كانت تخاف لورى أكثر من أى شخص آخر ، ولكن الفتى الحيكم أخذ بنصائح آمى ، وتصرف فى أدب ولباقة ، فلم يتحدث عن باير مطلقا ، ولم يصفه علنـا « بمستر باير العجوز الممتاز » ، أو يغيظها بالإشارة الى ما طرأ عليهـا من تحسن ، بل لم يبد عجبا لتردد الأستاذ باير كل مساء تقريبا على أسرة مارش • كان يتذرع بالصمت أمام جو ، ويحتفظ بآرائـه لحين يخلو بزوجته ، فيبدى لها سروره العظيم بتحسن نفسية أختها ، ويتطلع بشوق الى اليوم الذى يستطيع فيه أن يهديها درعا من الصفيح ، منقوشا عليها صورة دب ، لتتخذها رمزا للعائلة •

واتخذ الأستاذ سمة العشاق ، فكان يتردد على بيت مارش كل مساء خلال أسبوعين ، ثم غاب ثلاثة أيام كاملة ، لم يظهر له فيها أثر • وأثار انقطاعه اهتمام الأسرة ، وبدت جو فى أول الأمر مفكرة شاردة الذهن ، ثم تملكها الغضب بعد ذلك ، فقد خيل إليها أنهـا خاتمـة قصـة حبها والأسفاه •

وذات مساء تأهبت جو للخروج ، ووقفت تنظر الى البوابة بمنتهى الأسى ، ثم قالت تحدث نفسها :

— لا شك أنه سئم الانتظار ، فعاد فجأة من حيث أتى ، وهـذا لا يهمنى بطبيعة الحال ، ولكن كان حريًا به أن يسلك مسلك السيد المهذّب ويودعنا قبل رحيله •

قالت لها أمها ، وقد لاحظت أنها ترتدى قبعتها الجديدة :

— أرى أن تأخذى مظلة معك ، فالجو ينبىء بالمطر يا عزيزتى •

قالت جو وهى تثبت رباط القبعة أمام المـرآة ، لتتحاشى نظـرات أمها :

— سمعا وطاعة يا أماه ، إنى ذاهبة لشراء بعض الورق ، فهل تريدين شيئا من المدينة ؟

قالت :

— نعم أريد قطعة من التل المنقوش ، ودستة إبر نمرة تسـعه ، ومترين من الشريط البنفسجى الرفيع ، ولكن ، هل انتعلت حذاءك السميك وارتديت ملابس ثقيلة تحت معطفك ؟

أجابت جو وهى شاردة اللب :

— أظن ذلك •

قالت الأم :

— إذا تصادف وقابلت مستر باير ، فادعيه لتناول الشاى معنا ، لأنى مشتاقة لرؤية هذا الرجل العزيز •

ولم تحر جو جوابا ، واكتفت بقبلة أودعتها خد أمها ، ثم انصرفت مسرعة . وقلبها الحزين يفيض بالشكر لهذه العزيزة التى تقدر إحساسات ابنتها تمام التقدير • قالت جو تحدث نفسها :

— ما أشد عطفها على ! ترى ماذا تفعل من ليس لها أم تعينها على احتمال متاعب الحياة ؟ !

لم تكن محلات بيع الأقمشة فى نفس الحى الذى تقوم فيه المصارف ودور المحاسبة والبيع بالجملة ، والذى يزدحم بالرجال وأصحاب الأعمال ! ومع ذلك وجدت جو نفسها — قبل شراء الأشياء المطلوبة منها — تسير على مهل فى هذا الحى من المدينة ، كأنما تنتظر شخصا بالذات • وأخذت تتسلى على طول الطريق بالتطلع الى واجهات حوانيت الأصواف والآلات الهندسية ، وتبدى اهتماما بأشياء لا تمت الى جنسها بصلة ، وتحشر نفسها بين البضائع والبراميل التى يفرغها العمال من العربات ، حتى كادت تقع عليها إحدى البالات المحمولة • وكان رجال الأعمال يسرعون الخطى فيدفعونها فى غير اهتمام ، فإذا نظرت إليهم أبدوا دهشتهم لوجود فتاة مثلها فى هذا المكان • ووسط هذا الزحام ، أحست بقطرات من المطر تتساقط على خدها ، فانتقل تفكيرها من آمالها الى أشرطة القبعة التى كاد يفسدها المطر • ولما كانت امرأة أولا ، ثم عاشقة ثانيا ، فقد رأت أن تنقذ قبعتها من التلف ، ما دامت عاجزة عن إنقاذ قلبها من الحب الفاشل • وتذكرت مظلتها الصغيرة التى نسيت فى عجلتها أن تأخذها معها ، ولم تجد فائدة من التأسف عليها ، فالموقف يضطرها الى الإسراع باقتراض واحدة ، وإلا غرقت فى هذا المطر المنهمر ، وتطلعت الى السماء ثم الى الشرائط القرمزية ، وقد أغمق لونها بقطرات المطر ، ثم ألقت نظرة على

الطريق الموحل ، وقالت لنفسها وهى تقف أمام مخزن للحديد ، كتب على واجهته « هوفمان وشفارتز وشركاؤهما » :

ــ هذا أقل ما أستحق ، فما الذى يجعلنى أرتدى خير ثيابى ثم أجىء الى هذا المكان أملا فى رؤية الأستاذ ؟ ! واخجلاه منك يا جو ! لا ، لا يليق بك أن تستعيرى مظلة من هذا المستودع ، أو تسألى فيه عن الأستاذ ، والواجب أن تمضى الى شراء ما كلفت به ، وإذا تعرضت للموت أو فسدت قبعتك ، فهذا جزاؤك الحق !!

وحين انتهت من تأنيب نفسها ، اندفعت مسرعة الى الطريق ، حتى كادت تدهسها إحدى العربات ، لولا أنها سقطت بين ذراعى سيد وقور عجوز ، قال وهو فى غاية من الحرج : « إنى آسف يا سيدتى ! » • وكبحت جو غضبها واعتدلت فى سيرها ، وقد وضعت منديلها فوق قبعتها ، وأسرعت وقد ازداد البلل تحت قدميها ، وأخذت مظلات السائرين تتشابك فوق رأسها • واستوقفت أنظارها مظلة زرقاء باهتة ، طال بقاؤها فوق رأسها ، ولم تتحرك بعيدا كغيرها ، فرفعت بصرها الى صاحبها ، فإذا بها ومستر باير وجها لوجه •

قال :

ــ أردت أن أعرف تلك السيدة التى تذرع الطريق فى شجاعة ، تحت أنوف الخيول المتواثبة ، ووسط الوحول المتراكمه ، فماذا جاء بك الى هنا يا صديقتى ؟

ــ جئت أتسوق بعض الأشياء •

وابتسم مستر باير ، وهو ينظر يمينا الى الشركات وبيوت المال ، ويسارا الى محلات بيع الجلود بالجملة ، ولكنه قال يستدرك فى أدب :

ــ أنت لا تحملين مظلة ، فهل تسمحين لى أن أرافقك وأحمل لعائلك عنك ؟

قالت وقد اصطبغ وجهها بلون أشرطتها القرمزية :

ــ نعم وأشكرك •

وراحت تسائل نفسها : ترى ماذا يظن بها الأستاذ ؟ • ولكنها لم تفكر فى هذا السؤال طويلا ، إذ لم تمض دقيقة حتى وجدت نفسها تتأبط ذراعه وقد خامرها شعور بأن الشمس قد أشرقت فجأة بشكل عجيب ، وأن الدنيا قد عادت الى صفائها ، وأن امرأة فى قمة السعادة تسير تحت الأمطار فى ذلك اليوم • ورأت الأستاذ يطيل النظر إليها ، ولم تكن قبعتها واسعة الحافة لتخفى وجهها عنه ، فخشيت أن يقرأ فى بريق عينيها سر سعادتها ، قالت بسرعة :

ــ ظننت أنك سافرت !

فنظر إليها فى عتاب وقال :

ــ وهل تظنيننى الرجل الذى يسافر قبل أن يودع من أغــرقوه بعطفهم وحنانهم ؟

وشعرت جو أنها أحرجته بكلامها ، فقالت من صميم قلبها :

ــ لا ، ولكنى أعرف بمشغولياتك الكثيرة ، والحقيقة أننا افتقدناك جميعا ، خصوصا أبى وأمى •

قال متسائلا :

ــ وأنت ؟

قالت :

— يسرنى أن أراك يا سيدى •

وآثرت جو أن تجعل صوتها هادئا لا أثر للانفعال فيه ، فجاء جوابها البارد خلوا من العاطفة ، ونزلت كلمتها الأخيرة « يا سيدى » على قلب الأستاذ كالثلج ، فغاضت الابتسامة من وجهه ، وقال فى وقار :

— أشكرك ، وسوف أزوركم مرة أخرى قبل رحيلى •

قالت :

— إذاً فأنت راحل حقًا ؟

قال :

— لقد انتهيت من أعمالى هنا ، ولم يبق ما يسوّغ بقائى •

وأحست جو بما فى إجابته المقتضبة من خيبة أمل ومرارة ، فقالت :

— آمل أن تكون قد وفقت فى مهمتك ؟

قال :

— أظن ذلك ، فقد وجدت طريقا أكتسب منه عيشى ، وأساعد به الأطفال الصغار •

قالت تسأله بلهفة :

— حدثنى عن هؤلاء الأولاد ، فانى أحب أن أعرف عنهم كل شىء •

قال :

ــ عطف منك أن تهتمى بهم ، ويسرنى أن أحدثك بتوفيقى ، فقد وجد لى أصدقائى وظيفة فى إحدى الجامعات ، لأدرس كما كنت أفعل فى بلادى ، وبذلك أكتسب ما يوفر الرغد لغرانز وإميل . أليست هذه نعمة يجب أن أحمد الله عليها ؟

صاحت جو ، وكأن سعادة غرانز وإميل هى سر فرحها الظاهر :

ــ دون شك ! ما أجمل أن تمارس العمل الذى تحبه : وتستطيع فى ذات الوقت أن نراك أنت والأولاد .

قال :

ــ أخشى أننا لن نتقابل كثيرا ، فالوظيفة فى جامعة بغرب أمريكا .

وأفلت ثوبها من يدها . وهبطت أطرافه الى الوحول المتراكمة فى الطريق ، وقالت كمن لا تهتم بثيابها ولا بمصيرها :

ــ أبعيدا الى هذا الحد ؟!

وكان الأستاذ ضليعا فى كثير من اللغات ، اللهم إلا لغة أفكار النساء ، وكان يطرى نفسه لمعرفته التامة بشخصية جو ، ولكن الحيرة غلبته فى هذا اليوم أمام المتناقضات التى لمسها فى صوتها ، فبسرعة توالت عليها عواطف متباينة وأمزجة مختلفة ، وفى خلال نصف ساعة تقلبت بين ست أحوال على الأقل : فقد بدت الدهشة عليها عندما قابلته ، مع أنها جاءت الى هذا المكان بحثا عنه ، ولما أعطاها ذراعه استندت إليه بمنتهى السعادة والغبطة ، وعندما سألها إذا كانت قد افتقدته لطول غيابه عنها ، اجابته

بفتور حطم قلبه ، وحين أخبرها بالوظيفة هللت وصفقت طربا ، فهل كان سرورها من أجل الأطفال وحدهم ؟ ولما سمعت أخيرا بمقر عمله الجـديد أسفت بلهجة يائسة ، أحيت فى نفسه ميت الأمل • ثم لم تكـد تمضى دقيقة ، حتى أذهلته بقولها فى رنة عملية بحتة :

ـ من هنا سأشترى لوازمى : ولن أغيب طويلا فى الحانوت ، فهل تأتى معى ؟

وكانت جو تفخر بمهارتها فى التسوق ، وقد أرادت فى هذه المرة أن تعطى لرفيقها صورة حية عن دقتها وسرعتهـا فى ذلك • ولـكن القلق النفسى الذى كانت تعانيه جعل الأمور تسير على غير هواها : إذ أسقطت دستة الإبر ، ولم تتذكر أن أمها تريد تلا منقوشـا إلا بعـد أن قص البائع القماش ، وعند الحساب أخطأت فى دفع الثمن ، ثم حاولت أن تستر اضطرابها بشراء الأشرطة ، ولكنها مع الأسف طلبتها من بائعـة الأقمشة الصوفية ، فتعقد الموقف أكثر وأكثر •

ووقف مستر باير يرقبها وهى تمعن فى خجلها وتزداد فى ارتباكها ، وفجأة زايلته حـيرته ، واطمأنت نفسـه ، إذ بدأ يدرك أن النسـاء كالأحلام يفسرن بعكس ما يبدو منهن •

وعندما خرجا الى الطريق ، وضع باير اللفافة تحت إبطه فى غبطة ، وخاض الوحول وبرك المـاء فى متعة • وحين وصل الى واجهة حانوت يبيع الفاكهة والزهـور قال لها :

ـ أتسمحين بأن أشترى للأطفال بعض الأشياء الصغيرة ، لنحتفل الليلة فى بيتكم بزيارتى الأخيرة ؟

وتجاهلت جو الجـزء الأخير من عباراته ، وقالت وهى تستنشق عبير الأزهار بسرور بالغ :

ــ وماذا تشترى لهما ؟

قال مستر باير فى لهجة أبوية :

ــ أيحبان البرتقال والتين ؟

قالت :

ــ ليس أحب اليهما منهما اذا استطاعا الحصول عليهما !

سألها :

ــ وهل تحبين الجـوز ؟

قالت :

ــ مثل السنجاب !

قال :

ــ وما رأيك فى عنب هامبورج ؟ انه يذكرنى ببلادى ، وسنشرب نخبها الليـلة •

وأسرف فى الشراء ، فقطبت جو جبينها ، وسألته لمـاذا لا يعقد الموقف أكثر بشراء صندوق من البلح وبرميل من الزبيب المجفف وزكيبة من اللوز وبذلك يأتى على البقية الباقيـة له من المـال ؟ وأخرجـت كيسها تهم بالدفع ، فرده اليها ، واشترى بنقـوده عـدة أرطـال من العنب ، وباقة من الأزهار الجميلة ، وإنـاء مليئـا بالعسـل • ودس

مشترياته فى جيوبه ، وترك لها الباقة تحملها ، ثم نشر مظلته القديمة واستأنفا سيرهما مرة أخرى •

قال بعد أن قطعا مرحلة من الطريق المبلل :

— ألا توليننى معروفا يا مس مارش ؟

قالت ، وقد تسارعت دقات قلبها وعلت ، حتى خشيت أن يسمعها :

— بكل سرور •

قال :

— لم يبق لى وقت طويل فى هذا المكان ، ولدى من الجرأة ما يسمح لى بالكلام رغم هذه الأمطار المنهمرة •

قالت جو ، وهى تضغط بيدها على الزهور حتى كادت تفسدها :

— نعم يا سيدى •

قال :

— أريد أن أبتاع ثوبا للصغيرة « تينا » ، لأنى أجهل الناس بهذه الأمور ، وأخاف أن أشتريه وحدى •

قالت ، وقد نزل كلامه على قلبها باردا كالثلج :

— نعم ، يا سيدى •

قال :

— ونشترى أيضا شالا لأم تينا ، فهى فقيرة ومريضة وزوجها مثقل بالهموم •

وسكت قليلا ، ثم قال :

— نعم شال سميك خير ما تهدى به هذه السيدة المريضة .

قالت جو :

— بكل سرور يا مستر باير .

وقالت تحدث نفسها :

— انى أتعجل الأمور والمسكين يزداد فى كل لحظة رقة ولطفا .

وهزت رأسها كأنها تطرد الأفكار عنها . ثم دخلت المحل بنشاط ، لتشترى حاجات مستر باير . وترك الرجل الأمر كله لها . فاختارت ثوبا جميلا لتينا ، ثم طلبت الشيلان ، وكان البائع رجلا متزوجا ، فتلطف بمن ظنهما زوجين جاءا لشراء لوازم الأسرة . قال البائع وهو ينشر شالا رمادى اللون على كتف جو :

— أعتقد أن سيدتى تفضل هذا ، فهو نوع ممتـاز وصنعه دقيق ولـونه أنيق .

وكانت فرصة تخفى بها انفعالها . فقالت وهى تولى ظهرها لمستر بايـر . حتى يرى الشال جيدا :

— أيرضيك هذا يا مستر باير ؟

وتشاغلت بالتقليب فى البضائع ، فقال :

— انه ممتاز جدا ، فلنأخذه .

وقال بعد أن دفع الثمن :

ــ هل نذهب الآن الى البيت ؟

قالت فى صوت حزين :

ــ نعم ، فالوقت متأخر وأنا متعبة جدا .

وخيل اليها أن الشمس غابت فجأة ، واكتست الدنيا بكآبة الغسق : وبدت الأرض موحلة والتعاسة شاملة . وسرت البرودة فى قدميها لأول مرة ، وأصاب الصداع رأسها ، وتجمد قلبها كقطعة ثلجها الألم .

إن مستر باير راحل عنها ، وهو لا يعتبرها أكثر من صديقة ، وقد أخطأت تقدير شعوره نحوها ، وخابت آمالها ، فخير لها أن تنهى الأمور بسرعة : وتخرج نفسها من ظلام الأوهام .

جالت هذه الخواطر برأسها حين اقتربت منهما مركبة عامة ، فأسرعت جو تشير اليها بالوقوف فى عجلة أطارت الباقة من يدها ، فوقعت الزهور على الأرض وانحل رباطها وفسدت أوراقها . وأشار الأستاذ الى المركبة بمواصلة سيرها ، ثم انحنى على الأرض يجمع الزهور المتناثرة ، وقال :

ــ هذه السيارة لا تمر بحيكم .

قالت ، وهى تسبل عينيها لتخفى دموعها المتساقطة ، إذ كانت تفضل الموت على أن تمسح عبراتها علنا :

ــ متأسفة ! لم أتبين رقمها بوضوح : ولا يضيرنى أن أمشى ، فأنا معتادة على خوض الوحول .

وأدارت رأسها رغما عنها ، فقد رأى مستر باير العبرات المنهمرة على خديها ، فمس حزنها شغاف قلبه . قال يسألها فجأة فى عطف أثر فى نفسها أشد التأثير :

لماذا تبكين ، يا أعز الناس ؟

ولو كان لجو سابق خبرة بهذه المواقف ، ما استعصى عليها أن تنكر بكاءها ، وتدعى أن البرد يوجع رأسها ، أو تختلق عذرا آخر مناسبا : ولكنها لم تفعل أمرا من هذا ، انما قالت وهى تنشج :

ـ لأنك سترحل عنى !

صاح مستر باير ، وهو يضم ذراعيه رغم ما يحمله من مظلة ولفائف :

ـ يا الهى ! هذا عظيم ! ليس عندى يا جو ما أهديكه سوى حبى ، لقد جئت لأرى ان كنت تهتمين بأمرى ، وانتظرت لأتأكد من أنك تعتبرينني أكثر من صديق ، فهل أنا كذلك ؟ وهل فى مقدورك أن تفسحى من قلبك ولو مكانا صغيرا لفريتز العجوز ؟

قالت جو :

ـ نعم !

وأسعده ردها القصير ، وأرضاه أنها عقدت يديها حول ذراعه ، ورفعت اليه وجها يفيض بالثقة والهناء ، كأنها تشير بذلك الى عزمها على السير بجانبه دائما فى طريق الحياة ، وأن مظلته خير مأوى لهما مادام ممسكا بها .

كانت خطبة تكتنفها المتاعب حقا : فلم يكن فى مقدور مستر باير أن يركع أمامها فى الوحول : ولا كان يستطيع أن يحتضنها إلا مجازا ، بسبب ما يحمله فى كلتا يديه من مظلة ولفائف . كذلك لم يكن من اللائق أن يطارحها الغرام على قارعة الطريق ، وان كان على وشك أن يفعل ذلك .. ولم يبق أمامه الا حل واحد يعبر به عن نشوته ، وهو أن ينظر اليها بكل ما فى قلبه من حب واخلاص ؛ اكتسى معهما وجهه بزهوة الانتصار . حتى خيل لمن ينظر اليه ؛ أن ألوان قوس قزح كلها ، تظهر خلال قطرات المطر العالقة فوق لحيته . ولو لم يكن يحبها مخلصا : ما خطبها فى هذه اللحظة بالذات . فقد كان حالها يرثى له : ثيابها رثة ، وحذاؤها موحل حتى كعبيه ، وقبعتها مشوشة مشوهة . ولكن مستر باير ، لحسن الحظ ، كان يراها أجمل امرأة فى الوجود ، وكانت هى أيضا تراه أقرب الى الآلهة منه فى أى وقت مضى على الرغم من قبعته المتقلصة بمياه الأمطار ، وقفازه الممزق عند أطراف أصابعه كلها .

وظن المارة أنهما زوجان من المجانين : فقد نسيا تماما أمر المركبات العامة واختارا أن يسيرا فى الطريق متمهلين ، رغم حلكة الغسق وشدة الضباب . وفى الواقع كان رأى الناس لا يهمهما فى غمرة سعادتهما بهذه الساعة المجيدة التى لا تأتى فى العمر إلا مرة واحدة . تلك الساعة التى تخلع على المسنين شبابا ، والدميمين جمالا ، والفقراء ثروة ، وتضىء القلوب البشرية بنور من السماء .

وكان الأستاذ يبدو كأنه غزا الدنيا بأكملها ، وحصل على نعم العالم بأسرها . وكانت جو تسير بجانبه كأنه مكانها الوحيد فى الحياة ، وراحت تسائل نفسها : كيف كان يمكنها أن تختار زوجا غيره ! وكانت بطبيعة

الحال هى البادئة بالحديث . بعد الانفعالات الصامتة ، التى تلت موافقتها على الزواج منه . قالت :

ــ فريدريك . لماذا لم .. ؟

فصاح الأستاذ ، وقد وقف وسط بركة من مياه الأمطار . يرمقها سعيدا :

ــ يا إلهى ! انها تنادينى بالاسم الذى لم أسمعه من أحد منذ ماتت أمى .

قالت :

ــ انى أناديك بهذا الاسم دائما بينى وبين نفسى ، ولقد انزلق به لسانى ، ولن أعيده اذا لم تكن تحبه .

قال :

ــ أحبه ! ؟ انه أحلى ما يتردد فى أذنى ، خاطبينى بلا كلفة ، وثقى أننى أحب لغتك مثل لغتى الألمانية تماما .

قالت :

ــ انك تحب الكلمات العاطفية . أليس كذلك ؟

قال فى لهجة أقرب الى الطالب العاشق منها الى الأستاذ الرزين :

ــ العاطفية ؟ بلا شك ! فنحن الألمان نؤمن بالعاطفية ، لأنها تبعث فينا الشباب الدائم . خاطبينى بلغة العاطفة يا أعز المخلوقات ، فمعانيها أعظم من أن تقدر .

سألته جو فى خجل :

ـ حسنا ، لماذا لم تخبرنى بكل هذا منذ وقت طويل ؟

قال :

ـ ليس أحب الىّ من أن أكشف لك عن كل ما فى قلبى ، بعد أن أصبح ملكك . انظرى يا جو العزيزة .. ويالـه من اسم لطيف حبيب كنت أريد مصارحتك بعواطفى يوم رحيلك من نيويورك ، ولكنى خفت أن تكونى مخطوبة لصديقك الوسيم ، فسكت عن الكلام . . أكنت توافقين لو خطبتك فى ذلك اليوم ؟

قالت :

ـ لست أدرى ، وأعتقد أننى كنت أرفض ، إذ لم يكن لى قلب حين ذاك .

قال :

ـ بل كان قلبك نائما حتى أتى أمير أحلامك من غياهب الغابة فأيقظه ! حسنا . . حسنا . . ما الحب إلا للحبيب الأول ! .. وهذا أكثر مما كنت أنتظر .

قالت جو تصحح له الأوضاع :

ـ نعم ، ما الحب إلا للحبيب الأول ، واطمئن الى أننى لم أحب سواك ، أما تيدى فكان صبيا صغيرا ، ولم يلبث أن نسى غرامه بى .

قال :

ـ يسعدنى غاية السعادة أن أسمع هذا الكلام الجميل ، ولست

أشك فى أنك ستمنحيننى حبك كله • لقد طال الانتظار بى ، حتى صرت أنانيا كمــا ترين يا أستاذتى •

صاحت جو مبتهجة باللقب الجديد :

ــ ما أحب ذلك الى نفسى •

ثم أردفت تسأله :

ــ لمــاذا جئت وأنا فى مسيس الحاجة اليك ؟

وأخرج مستر باير من جيبه ورقة صغيرة بالية ، وقال :

ــ هذا ما أتى بى اليك •

وعرفت جو فى الورقة قصيدة كانت احــدى المجلات قــد نشرتها لها فى يوم من الأيام ، ثم قالت فى حيرة مما يقصد :

ــ وكيف جاءت بك هذه القصيدة ؟

قال :

ــ عثرت عليها بطريق المصادفة ، وعرفتها من الأسماء والحــروف الأولى التى وقعت بها ، وكان فيهــا بيت واحــد شعرت أنــه دعــوة توجهينها الىّ ، فاقــرئى القصــيدة ، وحاولى أن تخــرجى البيت ان استطعت ومرت جو بسرعة على أبيــات قصيدتها التى جاء فيها :

« بين ثنايا المخلفات »

« أربعة صناديق صغيرة ، كلها فى صف واحــد

أبلاها الزمن وعلاها الغبار

صنعت وملئت من وقت بعيد
عبأها شباب اليوم ، عندما كانوا صغارا
تدلت مفاتيحها الأربعة جنبا الى جنب
فى أشرطة بهيجة ، أحال لونها الزمن
ربطتها أصابع الصغار فى زهو الطفولة
ذات يوم مطير فى العهد الخالى ،
وعلى كل غطاء اسم من أربعة
حفرته يد بريئة طاهرة •
وتحت الغطاء سجل خفى •
يضم تاريخ « شلة » سعيدة •
كم لعبت هنا . وكم وقفت فى هدوء •
تصغى لترديد نغم جميل •
يأتى حينا ويعود حينا •
مع مطر الصيف المنهمر •

وعلى أول صندوق اسم الجميلة ميج •
فنظرت بحب الى رباط الذكريات •
وهو يضمها فى حنان •
وقد عقدته بعنايتها المعهودة •
وكان سجلا لحياة هادئة •
فيه هدايا الطفلة والفتاة •
لعروس فى ليلة الزفاف •
وحذاء صغير وخصلة شقراء •
وخلا الصندوق من لعب الصغار •

فقد أخذتها بعد طول الزمن .
لتنعم بها ميج أخرى صـغيرة .
وتحييها من زوايا العدم .
أنا أعلم أيتها الأم السعيدة .
أنك مازلت ترددين نغم الطفولة
يعلو حينا وينخفض حينا
مع مطر الصيف المنهمر .

وعلى ثانى الصناديق اسم جو
وفيه ترقد مجموعة عجيبة :
عرائس بلا رءوس ، وكتب ممزقة ،
وطيور محنطة ، وأحياء قديمة ،
وتحف جاءتها من أرض الخيال
المحرمة الا على أقدام الشباب .
مجموعة خلت من أحلام الزواج ،
وتضمنت ذكريات كلها عاطرة ،
قصائد لم تتم : وقصص عابرة ،
ورسائل فى الربيع دافئة وباردة ،
ويوميات طفلة كلها عزم وأمل ،
وأفكار امرأة تعيش فى بيت وحيد
وتسمع أنغاما حزينة تقول :
كونى خليقة بالحب ، يأتيك الحب
مع مطر الصيف المنهمر .

عزيزتى بث ، لن يبقى غبار
على الغطاء الذى يحمل اسمك
ستمسحه دموع تنساب من العيون
وتزيله أيد لن تنقطع عن زيارته .
لقد رسم الموت لنا قديسة مخلدة ،
أقرب الى الآلهة منها الى البشر ،
ومازلنا نحفظ لها — وعيوننا دامعة —
أجمل الذكرى فى هذا البيت الصغير :
جرس فضى لم يعد يدق
وعباءة صغيرة هى آخر ما ارتدت ،
وأغان كانت تنشدها بلا دموع
وهى حبيسة فى سجن الألم .
ستظل أغانيها هذه تمتزج بحنان
مع مطر الصيف المنهمر .

وعلى صفحة الغطاء الأخير وجدت
خرافة جميلة تحققت :
فارس رشيق على درعه نقش
أسم آمى بحروف زرقاء ومذهبة .
وفى داخل الصندوق شبكات رقيقة للشعور
وخف بلته الأقدام الراقصة ،
وأزهار مجففة حفظت بعناية ،
ومراوح ذهب عهدها انتهى .
وتمنيات تفيض بلهيب الجوى ،

وتحف صغيرة كان لها دورها
فى آمال الفتاة ومخاوفها وأخطائها •
سجل حافل لقلب عذراء ،
تتعلم الآن حكمة أعمق ،
وتسمع ترديد أنغام شجية
يصاحبها رنين أجراس الزفاف
مع مطر الصيف المنهمر •

أربعة صناديق صغيرة ، مصفوفة معا ،
علاها الغبار ، وأبلاها الزمن ،
وأربع نساء تعلمن من السعد والألم
ما الحب ، وما العمل فى شرخ الشباب •
أربع أخوات افترقن لحظة ،
وعدن الى الاجتماع ماعدا واحدة ،
خلدها الحب برباطه السحرى
وقربها الى القلوب عما مضى •
ويوم تتكشف كنوزنا هذه
لعين الاله عز وجـــل ،
عساها تغنينا بخير الجزاء ،
وتحيل أعمالنا حسنات طيبات ،
فتدق موسيقى نفوسـنا الى الأبد
بقوة تحرك أعماق الروح
وتحلق سعيدة وهى تغنى

تحت شمس تخلد بعد المطر »

ج • م •

قالت جو ، وهى تمزق الوريقة التى احتفظ بها الأستاذ طول هـذا الوقت :

ــ هذا شعر ردىء جدا ، ولكنه كان يعبر عن مشاعرى ذات يوم وكنت وحيدة أجلس فوق حقيبة قديمة أقرضه وأنا أبكى أحـر البكاء ، وما كنت أتوقع أن يفضحنى بهـذا الشكل •

قال مستر باير باسما ، وهـو يرقب تطـاير الأوراق الممزقة مـع الهـواء :

ــ لقد أدت القصيدة رسالتها ، فدعيها تذهـب ، وسأحصل على أخرى جديدة ، عندما أقرأ الكتاب الأسمر الذى تحتفظين فيه بأسرارك • قلت لنفسى ، وأنا أقرأ هذه القصيدة : انها وحيدة وحزينة ، وعـزاؤها فى حب صادق ، وبقلبى منه ذخيرة وفيرة ، فلماذا لا أذهب وأقول لها : « اذا لم يكن هذا القلب بدلا تافها لمـا أرجو أن أناله ، فخذيه باللـه عليك » •

وهمست جو :

ــ وهكذا جئت لتجد أنه أثمن ما كنت أتمناه •

فصاح مستر باير قائلا :

ــ لم أكن أجرؤ على هذا الظن فى البداية ، رغم ما استقبلتنى به من عطف وحفاوة ، ولكن سرعان ما انبعث الأمـل فى نفسى ، فانتويت أن أفوز بك ، ولو مت فى سبيل ذلك • وهكذا فزت بك !

وكان يتكلم فى تحدٍّ ، كأنما الضباب الذى يحيط بهما حواجز عاتية ، إما أن يجتازها أو يهدمها •

واغتبطت جو كل الاغتباط ، وصممت أن تكون خليقة بفارسها ، رغم أنه لم يأتيها على جواده وفى كامل عدته •

سألته بعد لحظة ، وهى تجد لذة بسؤاله عنها ، لتلقى إجابات ترضيها :

— ولماذا أطلت غيبتك عنى ؟

قال :

— كان رزقى ضعيفا ، ولم يطاوعنى قلبى على حرمانك من بيتك السعيد ، قبل أن تطمئن نفسى الى عمل مضمون ، ولم يتيسر لى هذا العمل إلا بعد وقت وجهاد • فهل كنت تتوقعين أن أطلب منك التضحية بما تعيشين فيه من رغد من أجل عجوز فقير مثلى ، لا يملك غير علمه القليل ؟

قالت جو فى عزم :

— إنى سعيدة بفقرك ، وما كان يمكننى أن أحتمل زوجا ثريا •

ثم قالت بصوت ناعم رقيق :

— لا تخف من الفقر ، فقد عرفته طويلا : حتى بت لا أخشاه ، ويسعدنى أن أشتغل من أجل من أحب • لست عجوزا كما تقول ، فالأربعون زهرة العمر ، ولو كنت فى السبعين ما استطعت إلا أن أحبك !

واغرورقت عيناه بالدموع تأثرا • وود لو استطاعت يده أن تصل الى المنديل ، ليمسح عبراته ، ولكنه لم يجد الى ذلك سبيلا ، فمدت جو

يدها بمنديلها وجففت وجنتيه • ثم حملت عنه بعض اللفافات ، وقالت ضاحكة :

ــ قد أكون عنيدة صلبة الرأى ، ولكنى أحسن القيام بدور المرأة ؛ فرسالتها الأولى أن تجفف الدموع وتحمل الأعباء : وهأنذا أحمل نصيبى من الواجبين ، وسأحمل نصيبى أيضا من أعباء الأسرة ، وأعمل لأسهم فى رزق البيت • فكر فى هــذا الكلام واتخــذ قرارا ، وإلا فلن أذهب معك أبــدا •

وكان الحزم واضحا فى كلماتها ، فقال وهو يسترد منها اللفائف :

ــ سوف نرى ! ولكن أتصبرين على انتظارى طويلا يا جو ؟ يجب أن أذهب أولا لأؤدى عملى وحدى ، وأساعد الأولاد ، فقد وعدت أمهم برعايتهم ، ولا أستطيع التخلى عنهم ولو من أجلك ، فهل تغفرين لى ذلك وتبقين سعيدة حتى أعود ؟

قالت :

ــ هذا أسهل ما يكون ، وما دمنا نتبادل الحب ، فكل صعب يهون • هذا الى أنى ملزمــة بأداء بعض الــواجبات ، ولن تطيب لى حياة إذا أهملتها ؛ ولن أهملها حتى من أجلك ، فلا داعى اذا للتسرع • اذهب الى واجبك فى الغرب ، وسأبقى مع واجبى هنا • وعلينا أن نسعد بالأمل ، تاركين المستقبل لإرادة الله •

صاح الأستاذ ، وقد غلبته عواطفه :

ــ إنك تمنحيننى الأمل والشجاعة ، وليس عنــدى ما أجزيك به سوى يدى الفارغتين وقلبى المفعم بحبك •

ولم يكن من طبع جو أن تتصرف بلباقة ، فما إن انتهى الأستاذ من كلامه ، وهما واقفان على درج البيت ، حتى وضعت يديها فى يديــه ، وهمست فى أذنه برقة :

ـ لم تعد يداك فارغتين الآن !

ثم انحنت على رجلها فردريك تقبله تحت المظلة . وكان هذا تصرفا لا يليق ، ولكنها كانت قد سارت شوطا بعيدا ، ولم يعد يهمهــا ســوى سعادتها الحاضرة ، وما كانت لتتنزل عن الاستمتاع بهذه الفرصة النادرة ، حتى لو تحولت صفوف العصافير التى تتراقص فوق السور الى آدميين ، والحق أن هذه الفرصة السعيدة ، التى توجت حياتها ، جــاءت فى بساطة وسهولة ، فتحولت وحشة الليل وقسوة العاصفة ومرارة الوحدة ، الى نور وضياء ، يغمر البيت الذى كان فى انتظارها .

قالت جو لحبيبها ، وهى تقوده الى داخل المنزل ، وتغلق الباب خلفه :

ـ أهلا بك ، وعلى الرحب فى بيتك .

الفصل السابع والأربعون

الحصـــاد

مضت سنة كاملة ، كان الأستاذ وجو خلالها يعملان وينتظران ، يتحابان ويأملان ، يتقابلان بين حين وآخر ، ويكتبان رسائل مستفيضة قال عنها لورى إنها تسببت فى ارتفاع ثمن الورق • وبدأ العام الثانى فى جوّ من الحزن ، فمشروعاتها لم تزدهر ، وماتت العمة مارش فجأة ، وقد حـــزن عليها جميع أفراد الأسرة ، رغم سلاطة لسانها ، فلما هـــدأت أحزانهم ، جدت عليهم أمور سارة ، إذ تركت العمـــة قصر « بلومفيـــد » لجـــو ، فجاءت هبتها نعمة تمكن الفتاة الفقيرة من الاستمتاع بكثير من المسرات

وبعد مضى أسابيع ، جلس أفراد الأسرة يتحدثون فى هذا الموضوع ذات يوم ، فقال لورى :

ــ إنه بيت قديم جميل ، ولا شك أنك ستبيعينه بمبلغ محترم •

قالت جو بحزم :

ــ لا ، لن أبيعه •

قال :

ــ لا أظنك ستقيمين فيه ؟

قالت :

ــ بل سأقيم فيه •

قال :

ــ ولكنه بيت كبير جداً يا فتاتى العزيزة ، ولا بد من مـــال كثير

للعناية به • فالمزرعة والحديقة يحتاجان وحدهما الى رجلين أو ثلاثة • والزراعة ليست من اختصاص باير كما أعلم •

قالت :

— سيتدرب عليها اذا أردت •

قال :

— أو تأملين أن تعيشى من دخل هذا المكان ؟ حديثك عنـــه يجعلنى أتصوره جنة ، ولكنك ستجدين العمل بالغ المشقة ••

قالت وهى تضحك :

— وسيكون محصوله مجزيا •

سألها :

— ومن أين يأتى هـــذا المحصول المجزى ؟

قالت :

— من الأولاد ! فأنا أفكر فى فتح مدرسة للصغار ، تشبه فى روحها البيت ، وتتوافر فيها أسباب الراحة والسعادة ، وسأشرف عليها ، وأترك مهمة التدريس لفرتز •

وتوجه لورى بحديثه الى الأسرة ، وقال يناشدهم الرأى ، وتكلم فى دهشة عظيمة :

— أهذا مشروعك يا جو ؟ إن له طابع جو من كل الوجوه !

فقالت مسز مارش بلهجة التأكيد :

ــ هذا مشروع يعجبنى •

وقال مستر مارش ، وقد وجدها فرصة ليجرب طريقته « السقراطية » فى تعليم النشء :

ــ وأنا أيضا •

وقالت ميج ، وهى تربت بيدها على رأس ابنها المشغول بنفسه دائما :

ــ ولكن •••• سيكون العبء ثقيلا على جو !

وقال مستر لورنس ، وبنفسه رغبة فى معونة الحبيبين ، وإن كان يخشى رفضهما • :

ــ ليس أكفأ من جو لهذا العمل ، وسوف تؤديه سعيدة راضية •• إنها فكرة عظيمة ، فحدثينا بتفاصيلها •

قالت جو :

ــ كنت واثقة من تأييدك يا سيدى أنت وآمى ، فإنى أرى الرضا فى عينيها ، رغم ما يبدو عليها من رغبة فى التروى قبل الكلام • ثقوا أيها الأعزاء أن هذه الفكرة ليست جديدة على ، فطالما فكرت فيها ، وتمنيت تحقيقها • كنت أرجو ــ قبل أن يأتى فريتز ، ويوم يستغنى البيت عن خدماتى ــ أن أقتصد ما يكفى لاستئجار بيت كبير أجمع فيه صغار اليتامى ، الذين يعيشون فى أحضان الوحدة والإهمال ، ثم أعنى بهم وأسعد حياتهم قبل فوات الأوان ، لقد رأيت كثيرين يحيق بهم الدمار ، لأن أحدا لم ساعدهم فى الوقت المناسب ، ولأمثال هؤلاء أحب أن أفعل شيئا • إنى

أحس بإحساساتهم ، وأعطف على متاعبهم وآلامهم ، وبودى أن أكون أمًا لهم •

ومدت مسز مارش يدها الى جو ، فأمسكتها باسمة ، والدموع تترقرق فى عينيها ، فمضت الفتاة فى حديثها تقول بحماسة لم تبد منها منذ زمن طويل :

ـــ وقد حدثت فريتز عن مشروعى هذا ، فأكد أنه أقصى ما يتمناه ، واتفق معى على تنفيذه عندما نصبح أثرياء •• ليبارك الله نفسه الطاهرة ! فهذا ما كان يفعله طول حياته ، أقصد مساعدة الفقراء ، لا يسعى الى الثراء ، لأنه لن يكون فى يوم من الأيام غنيا ، فما من مال يبقى فى جيبه ليدخره • أما الآن : فقد صرت غنية بفضل عمتى الطيبة التى أحبتنى أكثر مما أستحق ، أو هذا ما أشعر به على الأقل • واذا وفقت فى إنشاء مدرسة كان فى الإمكان أن نعيش على خير حال فى « بلومفيلد » ـــ والواقع أنه خير مكان يلائم الأطفال : فأثاثه بسيط متين ، وبداخله متسع لكثيرين ، وفى خارجه حديقه فسيحة يستطيع الأولاد ـــ خلال أوقات فراغهم ـــ أن يعملوا فيها ، فيساعدونا ، وهو مجهود يفيدهم صحيًا ، أليس كذلك يا سيدى ؟ أما التدريس ، ففرتز خير من يقوم به ، وربما عاونه أبى فى ذلك ، وسأقوم أنا بدور الأم التى تعنى بأولادها عن كثب • طالما اشتقت أن يكون لى عدد كبير من الأولاد ولم يكن هناك سبيل الى ذلك ، ولكنى أستطيع الآن أن أملأ البيت بهم ، وأطرب قلبى بإعزازهم • ألا ما أسعدنى بما أتانى من ترف ! قصر كبير أملكه ، وجيش من الأولاد أرعاه !

ولوحت جو بيديها سرورا ، وتنهدت فى نشوة وارتياح ، وانفجرت الأسرة فى عاصفة من الضحك ، اشترك فيها مستر لورنس حتى كاد يغمى عليه ، وحين هدأت العاصفة قالت جو فى وقار :

ـ ماذا يضحك فى هذا الموضوع ؟ ليس أليق بأستاذى من أن يفتح مدرسة ، ولا بى من أن أقيم فى مزرعتى الخاصة !

قال لورى وهو يعتبر المشروع كله مزحة لطيفة :

ـ لقد بدأت تنفخ أوداجها عظمة وتكبرا ! ولكن ، من أين تمولين هذه المؤسسة ! إذا كنت ستختارين تلاميذك من اليتامى الصعاليك ، فلن يكون محصولك المالى مربحا يا مسز باير !

قالت :

ـ لا تثبط عزيمتى يا تيدى ! سأبدأ طبعا بأولاد الأثرياء ، عندما تستقيم أمور المدرسة أضم إليها صعلوكا أو اثنين لأسعد نفسى بوجودهم • إن أولاد الموسرين كأولاد الفقراء يحتاجون الى العناية والراحة ، ولقد رأيت كثيرين من أبناء الأثرياء يتركون للخدم ، ورأيت غيرهم ممن تخلفوا فى إدراكهم الذهنى ، يدفعهم أهلهم الى الأمام فى قسوة • منهم أيضا من فقدوا أمهاتهم ، أو أهملت تربيتهم فاعوج سلوكهم • هذا الى ما تحتاج إليه الأطفال جميعا من صبر وحنان خلال المرحلة الأولى من عمرهم ، فمن عادة الناس أن يسخفوا الأطفال فى هذه المرحلة ، ويضيقوا بتصرفاتهم ، فيخفوهم عن العيون ، تاركين للزمن مهمة تحويلهم الى رجال نافعين • ويحتمل الأطفال البواسل متاعبهم هذه صامتين لا يشكون ، وأنا أقـدر متاعبهم حق قدرها ، لأننى مررت بها ، ولذلك يهمنى أن أعنى بهم عناية خاصـة ، وأحب أن أكشف لهم عن إحساسى بما تنطوى عليه صدورهم من قلوب دافئة أمينة مخلصة ، على الرغم من أجسامهم غير المتناسقة وأفكارهم المشوشة • ثم إن لى سابق مجهود فى هذا الميدان ، ألم أنشىء صبيًا أصبح اليوم فخر أسرته وموضع اعتزازها ؟

قال لورى شاكرا مقدرا الجميل :

ــ أشهد أنك حاولت ذلك •

قالت :

ــ ونجحت نجاحا يفوق ما كنت أتوقع ، فها أنتذا رجل أعمال ماهر ، تؤدى أعمالا نافعة كثيرة ، فتنهال عليك الدعوات الصالحات بدل الدولارات . ثم إنك لست رجل أعمال فحسب ، إنما أنت محسن أيضا ، تحب أن تفعل الخير ، وتستمتع بلذة إشراك غيرك فى نعمك ، شأنك معنا فيما مضى • إنى فخورة بك يا تيدى ، ويسعدنى أن أراك تزداد مع السنين كرما وطيبة ، وكلنا يشعر بذلك ، وإن كنت تكره أن نعترف لك به •

وسكتت لحظة ثم عادت تقول :

ــ نعم ، عندما أجمع قطيعى الصغير ، سأشير إليك وأقول لهم : هذا مثلكم الأعلى فاحتذوه أيها الصغار !

واحتار لورى أين يدير وجهه ، فرغم رجولته الناضجة • طغى عليه الخجل أمام ثنائها الجزيل • وأمام نظرات الرضا التى أحاطه بها الموجودون ، قال بلهجة الصبيان القديمة :

ــ هذا كثير جدًّا يا جو ! فلقد فعلتم من أجلى أكثر مما أستطيع أن أشكركم عليه ، وعهدى لكم أن أبذل جهدى فى الاحتفاظ بتقديركم • ان أخيب ظنكم فىّ ، واذا كنت قد نبذتنى أخيرا يا جو ، فقد شاء الله أن يعوضنى بخير المعونة والتوجيه ، فاشكرى لهذين العزيزين فضلهما العميم علىّ •

ووضع لورى إحدى يديه على رأس جده الأشيب ، ووضع الأخرى على شعر آمى الذهبى •

قالت جو فى انشراح عظيم :

ــ الأسرة أجمل ما فى الدنيا كلها ، وأملى أن تسعد أسرتى ــ يوم يكون لى واحدة ــ سعادة هؤلاء الأصدقاء الأعزاء الثلاثة .. والله لولا غياب جون وفريتز لأصبحت جلستنا هذه جنة على الأرض .

وحين أوت جو الى مخدعها فى تلك الليلة ، بعد الجلسة العائليـة العامرة بأغلى النصائح والآمال والمشروعات ، وجدت قلبها يفيض بالغبطة والسعادة ، فعملت على تهدئته بالركوع الى جانب الفراش الخالى ، الذى كانت بث تحتله فى يوم من الأيام ، وراحت تفكر فى الراحلة العزيزة ، تستعيد أرق ذكرياتها وأجملها .

كانت تلك السنة ، على العموم ، فريدة فى تطور أحداثها السعيدة ، فقبل أن يمضى وقت طويل ، وجدت جو نفسها تعيش مع زوجها مستقرة فى قصر « بلومفيلد » ، ومعها أسرة مكونة من ستة أو سـبعة أولاد ، سرعان ما زاد عددهم من بين الأغنياء والفقراء على السواء . وكان الفضل كل الفضل فى ذلك لمستر لورنس الذى دأب على تغذية المدرسة بأولاد الفقراء ، راجياً من آل باير أن يحيطوهم بالرعاية ، وكان يدفع نفقاتهم بسخاء ، وبهذه الوسيلة الماهرة ، استطاع السيد العجوز أن يعين جـو بدون أن يخدش كبرياءها .

وكان العمل فى المدرسة شاقتًا أول الأمر ، ولم تبرأ جو من الوقوع فى أخطاء عجيبة ، ولكن حكمة الأستاذ كانت تقودها دائما الى شاطىء الأمان ، فتأتى لها أن تروض أشد الأولاد مروقا وشراسة . وكم استمتعت جو بهذا الجيش البرىء من الأولاد ! وكم فكرت فى ثورة العمة مارش ، لو كان العمر قد امتد بها ، لترى الأقدام الصغيرة الشاردة تدوس أراضيها

المقدسة • ولعلها عدالة جميلة أراد الله بها الانتقام للأطفال الذين كانت العمة تخيفهم بما تنشره من رعب حول قصرها الكبير ، فقد فتحت لهم جو أبواب الأرض المحرمة على سعتها ، وتركتهم يمرحون فيها ما شاءوا ، بل حولت لهم أيضا مرعى البقرة الشرسة الى ملعب جميل للكريكيت • وهكذا أصبح المكان جنة للأولاد ، وكان الحق يقال ، جنة بمعنى الكلمة حتى إن لورى اقترح تسميه القصر « حدائق باير » تكريما للأستاذ الطيب الذى يشرف عليه •

ولم تكن المدرسة كغيرها من المدارس الحديثة ، ولم يكسب الأستاذ من ورائها ثروة ولا مالا ، ولكنها كانت كما أرادت جو تماما : مكانا مؤنسا سعيدا يجد الأطفال فيه حاجتهم من العلم والرعاية والحنان • وسرعان ما امتلأت غرف البيت كلها بالتلاميذ الجدد ، ووجد كل ركن فى الحديقة من يزرعه ، وشغل المخزن والحظيرة بالحيوانات الأليفة • وكانت جو تبتسم لرجلها فريتز ثلاث مرات فى اليوم ، وهى تتصدر المائدة الطويلة ، التى يزين جانبيها صفان من الأولاد السعداء ، الذين يتجهون الى الأم « باير » بقلوب تفيض ثقة وعرفانا بالجميل • لقد أصبح لديها الآن كفايتها من الأولاد ، ولكنها لم تمل منهم أو تتعب ، رغم أنهم كانوا أبعد ما يكونون عن الملائكة ، فمنهم من كبدها هى والأستاذ شتى ألوان القلق والمتاعب ، ولكن إيمانها بطيب معدن الأطفال ، كان يعينها فى الوقت الملائم • وما كان الطفل يستطيع أن يثبت على عناده طويلا تحت نظرات الأب باير ، التى تتسع رحمة وحنانا ودفئا كأشعة الشمس ، ولا أمام الأم باير التى تصفح عن الأخطاء سبعا وسبعين مرة ! وكانت جو تعتز بصداقة الأولاد ، وكان مما يزيدهم قربا الى قلبها ، دموع الاستغفار والندم ، وهمسات التوبة بعد الأخطاء ، وثقتهم البالغة بها ، وحماستهم الغالبة فيما يبنون للمستقبل من آمال ومشروعات • وكان بين تلاميذ

المدرسة متخلفون وخجلون وضعاف البنية وشياطين ، كما كان بينهم من يلثغون أو يتأتئون ، وكذلك أعرج أو أعرجان وزنجى مولد لا يمكن أن يقبل فى مدرسة أخرى ، ولكن روضة باير رحبت به ، رغم خوف بعض الناس من أن يقضى وجوده بين البيض على سمعة المدرسة •

وعلى الرغم من العمل الشاق ، والقلق الشديد ، والضجة التى لا تنقطع عاشت جو فى مدرستها هذه سعيدة الى أقصى حد ، وكانت تتحف بقصصها الشائقة صغارها المؤمنين بها ، فإذا هتفوا شكرا لها ، أحست أنها امتلكت الدنيا كلها •

ومع مضى السنوات ، رزقت بولدين ازدادت بهما حياتها سعادة على سعادة ، وقد أسمت الأول باسم جده ، والثانى تيد • وكان هذا الأخير طفلا لطيفا ، يجمع بين بساطة أبيه وحيوية أمه • أما كيف أمكن أن يشب هذان الطفلان بين ضجيج الأولاد فمعجزة سرها عند جدتهما وخالاتهما ولكن حياتهما على كل حال تفتحت كأزهار الربيع ، تحت إشراف أولئك السيدات المحبات ، وفى رعايتهن القويمة •

وكان يتخلل الحياة فى بلومفيلد عطلات ، أكثرها مرحا عطلة موسم جنى التفاح ، إذا كان آل مارش ولورنس وبروك وباير يجتمعون فى كامل هيئتهم ليحتفلوا بهذا اليوم لأبهج احتفال • وبعد خمس سنوات من زواج جو ، جاء يوم الحصاد فى شهر أكتوبر ، وكان الهواء عليلا منعشا ، والأشجار محملة بأطيب الثمار ، فتدفقت الحماسة فى عروق أفراد الأسرة وراحوا يرقصون فى البستان ، بين أشجار الزهور المتناثرة ، وشجيرات اللبلاب المتسلقة • وشاركتهم الكائنات كلها فى فرحتهم : فغنى الصرصور بصوت كأنه ناى سحرى ، وتسارعت السناجب الى جمع نصيبها من المحصول وشدت العصافير بأنغامها الشجية من فوق أشجار الحور العالية •

وكانت كل شجرة فى الحديقة على أتم الاستعداد لإفراغ حمولتها من التفاح الأحمر والذهبى عند أول هزة ، وكانت سعادة الموجودين شاملة بهذا اليوم الفريد ، فضحكوا وغنوا وتسلقوا الدوح وتساقطوا مرحا من فوقها • وكم أكدوا أنهم لم يستمتعوا فى حياتهم بمثل هذا اليوم البهيج ، وكانوا صادقين بعد ما اغترفوا من المتع والمسرات ، كأن دنياهم خلت من الهموم والأحزان •

وكان مستر مارش يسير الهوينى مع مستر لورنس ، ويصغى الى مقتطفات من الشعر الجميل ، والأستاذ باير يقطع الأرض الخضراء جيئة وذهابا ، ليراقب التلاميذ فى لعبهم ويوجههم ، وكأنه بقامته الطويلة فارس تيوتونى أصيل يحمل بدل الرمح عصا • وكرس لورى نفسه لرعاية الأسرة ، فأركب ابنته الصغيرة فى عربة السلال ، وحمل ديزى الى عش العصافير لتراها ، وأنقذ روب المغامر من أن يسقط فيدق عنقه • وجلست مسز مارش وميج بين أكوام التفاح تفرزان أنواعه ، وانصرفت آمى الى رسم كل مجموعة من الثمار ، وكانت بين آن وآخر تلقى نظرة عامرة بالعطف والحنان على طفل شاحب ، يجلس بعيدا وقد ألقى بعكازه جانبا •

أما جو فكانت فى هذا اليوم أصدق مثال للسعادة ، تجرى هنا وهنالك وقد شمرت ثوبها ، وخلعت قبعتها ، واحتضنت ابنها تحت إبطها فى استعداد تام لأى مغامرة يقتضيها الموقف • ولقد تمتع تيد الصغير بنصيبه من مباهج اليوم ، ومن حسن الحظ لم يحدث له حادث ، حين علقه أحد الصبيان بين أفرع شجرة ، ولا حين حمله صبى آخر على ظهره وراح يقفز به فى أرجاء الحديقة ، ولا عندما أطعمه أبوه نوعا من التفاح الحامض ، مطمئنا — على اعتقاد أهل بلاده — بقدرة الأطفال على هضم الكرنب

والأزرار والمسامير ، وحتى الأحذية التي يلبسونها • وتركت جو تيد الصغير على سجيته ، واثقة بأنه سيعود الى البيت فى الوقت المناسب ، سالما هادئا قذرا مورد الخدين ، فتستقبله كالعادة بفيض حبها الذى يشمل الأطفال كلهم •

وفى الساعة الرابعة ، حلت فترة هدوء ، حين جلس جامعو التفاح بجوار السلال الفارغة ، يستريحون ويتحدثون عما كوفئوا به من قروش وخدوش • وقامت جو وميج مع فريق من الصبيان الكبار بإعداد الطعام فوق الحشائش الخضراء ، فجاء تناول وجبة الشاى فى الهواء الطلق ، خير ختام لهذا اليوم البهيج • ولم تلبث الأرض أن امتلأت بالعسل واللبن ، إذ كانت الحرية أهم مبدأ فى دستور هذا الاحتفال ، فاستغلها الأولاد الى أبعد حد ، وجلسوا على سجيتهم يتناولون الحلوى والمرطبات • ولم يكن هناك ما يمنعهم من أن يفعلوا ما يريدون ، فحاول بعضهم أن يجرب شرب اللبن وهو واقف على رأسه ، وعمل بعضهم الآخر على الجمع بين اللعب والأكل فكنت ترى أولادا يلتهمون الشطائر وهم يقفزون ، أو ينثرون الكعك على الأرض كالحبوب ، أو يصفون التفاح على فروع الأشجار كأنه طيور • أما البنات الصغيرات فقد أعدت لهن ونيمة خاصة • ولكن بيتر الصغير لم يشأ أن يتركهن فى سلام ، فصال وجال بين المآكل ينتهب منها على هواه •

وعندما انتهى المجتمعون من الأكل ، وامتلأت بطونهم حتى لم يبق فيها مكان لمزيد ، اقترح الأستاذ — على ما اعتادوا فى مثل هذه المناسبات — أن يشربوا النخب الأول فى ذكرى أفضال العمة مارش رحمها الله ، وقد شربه مع الأولاد الذين عليهم أن يحتفظوا بذكراها حية فى قلوبهم • ثم شربوا نخب الجدة بمناسبة بلوغها الستين ، وهتفوا جميعا بحياتها

ثلاثا : هذا العيد الستون للجدة •• تعيش الجدة •• تعيش •• تعيش •• تعيش ، واندمجوا فى هتافاتهم بقلوبهم وأرواحهم ، حتى صعب إسكاتهم عن تحية السيدة الطيبة التى يخلصـون لها الحب والتقـدير • وتوالت الأنخاب بعد ذلك فى صحة مستر لورنس راعى المدرسة ، وفى صحة غيره من الأصدقاء . حتى الأرنب الذى خرج من جحره يبحث عن صـاحبه الصغير • وقدم ديمى — بصفته أكبر الأحفاد سنًا — الى جدته ، ملكة الحفلة ، مجموعة كبيرة من الهدايا ، احتاج الأمر الى نقلها فى عربة يد صغيرة وكانت الهدايا كلها من صنع الأطفال . فجاءت مضحكة قد تنبو عنها العين ، ولكن الجدة كانت تراها غير ذلك ، فقد قالت عن المنديل الذى طرزته ديزى بأناملها الساذجة إنه قطعة من الفن الرفيع ! وعن صندوق الأحذية الذى صنعه ديمى ولم ينجح فى تثبيت غطائه إنه معجزة لم يرد لها مثيل !وعن الكرسى الصغير الذى صنعه روب على أرجل غير متساوية إنه مريح الى أبعد حد ! أما الكتاب الذى قدمته ابنـة آمى ، فلم يكن فيـه أثمن من الصفحة التى كتبت عليها بحروف كبيرة « الى جدتى العزيزة ، من الصغيرة بث » •

وبينما أفراد الأسرة فى شغل بهذا الاحتفال ، اختفى أولاد المدرسة بشكل غامض ، وعندما قامت مسز مارش تشكر أسرتها ، والدموع تندى من عينيها ، فيمسحها لها تيد الصغير بميدعته ، بدأ الأستاذ يغنى فجأة ، وإذا بأصوات الصبيان تعلو من فوقه ، وإذا بالغناء يصدر من شجرة بعد شجرة . حيث اختفى الأولاد بين الغصون ، وراحـوا كلهم ينشـدون بحماسة مقطوعة وضعتها جو ، ولحنها لورى ، وتدرب الأولاد على غنائها تحت إشراف الأستاذ باير • وكانت الأغنية طريفة بمعنى الكلمة ، وجاء إخراجها الناجح مفاجأة سارة لمسز مارش ، فأصرت على أن تصافح كل

صبى ممن اشتركوا فى هذه الحفلة ، من الطويلين فرانز وإميل الى الزنجى الصغير صاحب أجمل الأصوات كلها •

وبعد هذا ، تفرق الصبيان مرة أخرى فى أرجاء الحديقة يستكملون لعبهم ولهوهم ، تاركين مسز مارش وبناتها تحت شجرة الحفلة • قالت مسز باير ، وهى تخرج إصبع تيد الصغير من إبريق اللبن الذى كان يعبث فيه مسرورا :

— لن ألعن سوء حظى ، بعد أن تحققت كل آمالى ، بهذا الشكل المفرح البهيج •

قالت ، آمى وهى ترقب لورى وجون فى لعبهما مع الأولاد :

— ومع ذلك حياتك تختلف اليوم كل الاختلاف عن الصورة التى كنت ترسمينها فى الماضى ، أتذكرين القصور التى كنا نبنيها فى الهواء والتفتت جو الى حيث تنظر آمى ، وقالت فى حنان :

— يا للرجال الأعزاء ! كم يسرنى أن أراهم ينسون أعمالهم . ويقضون يوما فى المرح واللعب ! نعم •• أذكر تلك القصور يا آمى . وأرى الآن آمالى الماضية مفرطة فى الوحشة والأنانية . ولكنى ما زلت أرجو أن أؤلف كتابا قيما ، ولن يضيرنى الانتظار ، فوراءه من الخبرة والتجارب التى أستقيها من حياتى خير كثير •

وأشارت الى الأولاد الذين يمرحون بعيدا فى نشاط ، والى أبيها الذى يعتمد على ذراع الأستاذ وهما يسيران تحت أشعة الشمس ذهابا إيابا ، وقد استغرقا فى حديث طويل ممتع ، ثم الى أمها وقد أحاط بها بناتها وأحفادها . ونطلعت إليها عيونهم ، كأنها تستمد العون والبركة من الشعر الفضى والوجه الصبيح الذى لم تفسد حسنه الأيام •

قالت ميج فى قناعة ، وهى تربت على رأس ابنتها :

ــ أما قصرى أنا ، فقد تحقق على وجه أقرب ما يكون الى الأصل • حقيقة أننى كنت أتوق الى أجمل الأشياء وأفخمها ، ولكنى كنت أومن فى قراراة نفسى بأننى سأقنع راضية ببيت صغير ، وزوج طيب ، وأطفال أعزاء كهذين • ولقد فزت بآمالى ولله الحمـــد ، وأصبحت أسعد امرأة فى الوجـــود •

وقالت آمى :

ــ أما قصرى فقد جاء مختلفا عما تخيلت ، ولكنى لا أحب أن أغيره لأنى مثل جو لم أتخل عن آمالى الفنية نهائيًا ، ولم أقطع نفسى لمساعدة الآخرين على تحقيق أحلامهم ! إنما أحاول أن أجمع بين الاثنين • وقد بدأت بالفعل فى صنع تمثال لطفلتى ، ويؤكد لورى أنه أجمل ما أنتجت ، وأنا أوافقه على ذلك . وفى نيتى أن أنحته من رخام ، حتى تبقى لى صورة من ابنتى مهما حدث •

وانحدرت دمعة كبيرة من عينى آمى ، وسقطت على الشعر الذهبى لطفلتها النائمة بين ذراعيها ، وكانت الطفلة العزيزة ، ضعيفة البنية واهنة القوة ، مما يعكر صفو أمها بسحابة من القلق والخوف • وكان الشعور بالقلق على الطفلة ، يقرب بين الأم والأب ، فالحب الواحد ، والخوف الواحد ، يوثقان الصلة برباط أبدى •

وكانت آمى قد ازدادت نضجا وحساسية ولطفا ، كما صـــار لورى جادًّا حازمًا قويًّا ، والفضل للأيام التى علمتهما أن الجمال والشـــباب والثراء ، وحتى الحب نفسه ، لن يجنبهما الهمـــوم والآلام وفقـــدان الأحياء ، أو كما قيل :

« فى كل حياة ، لا بد أن تسقط بعض الأمطار

وتسودّ أيام بالحزن والوحشة » .

قالت مسز مارش ، عندما انحنت ديزى اللطيفة على ابنة خالتها ، ووضعت خدها المتورد على خدها الباهت :

ــ إنى أراها فى تقدم صحىّ مطرد ، فلا تقنطى يا عزيزتى . وكونى دائما مستبشرة متفائلة .

قالت آمى :

ــ لن أقنط ، يا أماه ، وأنت بجانبى ترفهين عنى ، ولورى معى يحمل أكثر العبء ، ولا يدعنى أحس بما يعانيه من قلق ومخاوف . إنه يخفى آلامه فى قلبه ، ويتفانى فى رعاية بث ، ويلقانى دائما بوجه صبور بشوش ، وبذلك يبعث فى نفسى سكينة واطمئنانا . لن أوفيه حقه من الحب مهما فعلت . فعلىّ أن أقول مع ميج ــ رغم السحابة التى تخيم على حياتنا ــ حمدا لله فأنا امرأة سعيدة .

وأردفت جو ، وهى تنقل بصرها بين زوجها الفاضل وولديها التويين اللذين ينقلبان بجوارها على الحشائش مسرورين :

ـ لا أظننى فى حاجة الى الكلام ، فكلكم يرى أننى أسعد مما أستحق ، إن غريتز يزداد سمنة ومشيبا ، وأنا أصبحت نحيلة كالظل ، وقد بلغت الثلاثين ولا أمل فى أن نصبح أثرياء ، ولا أستبعد أن تأكل النيران يوما « بلومفيلد » ، ما دام الشيطان تومى بانجز يصر على التدخين تحت ملاءة سريره ، وبعد أن أحرق نفسه ثلاث مرات من قبل ! ومع هذه الحقائق المزعجة ، فأمورى تسير على ما يرام ، و « انبساطى » اليوم لم يرد له

مثيل فى حياتى • ومعذرة إذ استعملت هذا التعبير الصبيانى فى كلامى ، فمن يعش مع الصبيان ، فلا بد أن يتشبه بهم أحيانا !

قالت مسز مارش وهى تطرد صرصورا كبيرا أسود أخاف تيد الصغير :

— نعم يا جو ، وسيكون محصولك طيبا على ما أعتقد •

وهتفت جو فى حماستها المحبوبة ، التى تتخل عنها رغم تقدم السن :

— ولكنه لن يبلغ جودة محصولك على كل حال • فها نحن أولاء بين يديك ، وليس بمقدورنا أن نوفيك حقك من الشكر على ما فعلت منذ بذرت حتى جنيت •

وقالت آمى فى حنان بالغ :

— أرجو أن يزداد القمح ويقل التبن عاما بعد عام !

وأضافت ميج بصوتها الحنون :

— إنها سنابل ضخمة يا أماه ، ولا شك أن فى قلبك متسع لها •

وغلب التأثر مسز مارش ، وعقد العطف لسانها عن الكلام فبسطت ذراعيها كأنها تريد أن تضم بناتها وأحفادها الى صدرها ، قالت فى أمومة عامرة بالتواضع والحنان :

— مهما امتد العمر بكنّ يا بناتى العزيزات ، فلن أرجو لكن أكثر من هذه السعادة الغامرة •

تم بحمد الله •

محتويات الكتاب

الجزء الثالث

الجزء الرابع

رقم الايداع ٣٥٢٤ لسنة ١٩٨٦

مطابع سجل العرب